الساقية

النصيب

عبد المنعم الصاوى

النصيب

عبد المنعم الصاوى

الساقية

الساقية

النصيب

عبد المنعم الصاوى

الناشر
شركة عالمية للنشر والإعلان

الإهـــداء

يا سيدى يا ذكيرى، يا أبو أحمد!...

يا حارس الموتى...

...من الهواجس، والوساوس!...ودموع الثكالى!... ونحيب اليتامى!.. وزفرات الأرامل!..

... ومن أنفسهم!.. ومن الحياة!.. ومن الحقيقة!.. ومن الذكريات!..

يا سيدى يا ذكيرى، يا أبو أحمد!...

فى ساحتك التقيا :

"جلال"، و "أبو سريع"!!

تحت ثرى مكان واحد، وعلى عمق من التراب ...واحد. وبينهما سر، شهده وعاصره ووعاه... شخص واحد!

...أبو المكارم.

هل يكفى يا سيدى يا ذكيرى، يا أبو أحمد.. تسجيلا لكرامتك هذا الإهداء؟

عبد المنعم الهادى

مقدمة

اللهم هذى حكمتك، وهذا قضاؤك.

وهذه الصحبة الطويلة، لم تكن باختيارى، ولا من صنع يدى.

..ولكنها نصيبى!

وأنا راض بهذا النصيب.

فإن دموعى لم تكد تجف من البكاء على تفيدة، الحلوة الرقيقة المظلومة، حتى عادت تتسكب على قاتلها! الرجل الذى قالوا له كن قاتلها، فلم يستطع إلا أن يكونه! وعاش بقية عمره لا ينطق، حتى قضى، بين جدران السجن!

لكن الحكاية طويلة، لا تزال.

إن "أبو عوف" يخلى مكانه فى المأساة، لزوجته أم الهنا. لقد كانت دائما وراءه، تتبع خطوه، وتقتفى أثره، فلما أدرك حتفه، لم تستطع أن تقف.. لكنها مضت خلفه، وغاصت داخل القبر وراءه.

ومفيدة؟!.. كيف تبقى؟ وكيف تعيش؟

لقد شهدت المأساة من أولها.

منذ انتزعوا منها أختها، لتذهب إلى بيت الحاج سلطان، متعة شهية لرجل لا يشبع، وهى تحيا على الدموع والزفرات والدعاء ...فلما أكملوا عليها فغاصت فى مياه الرياح،

جثة هامدة بلا حراك...أخذت تراها فى نومها ويقظتها حلما وحقيقة..الحلم يؤنسها، والحقيقة تؤرقها.

ليت شانها قد وقف عند ذاك.

إن مفيدة تعيش فى مأساة أبيها، وقد مضى فى سجنه صامتا شاردا، حتى عبر الحياة إلى الآخرة ...وتعيش فى مأساة أمها، وقد فقدت عقلها وغدت تحدث نفسها، وتحدث الناس، عن "أبو عوف"، وعن تفيدة، وعن "أبو المكارم" وعن الخص، وعن شجرة الصفصاف، وعن الساقية...لا يهمها أن يفهم أحد عنها. المهم أنها تفهم، وتضحك، وتبكى، وتندب، وتغنى، وترقص...وهذا حسبها!

فلما قضت هى الآخرون، لم يبق إلا جلال.

لكنها كانت قد بليت.

لم تستطع أن تصمد أكثر مما صمدت، فأسلمت نفسها للمصير المحتوم، تاركة "جلال"، أمانة فى عنق محام شاب، ساقته الأقدار إليها.

ولم يطل العيش بجلال هكذا..مستقرا مرتاح البال.

لقد كانت الحياة تعده لدور آخر، فكان لابد من أن تؤهله له، حتى إذا ما واجه المحنة، كان أقوى من المحنة، وعندما واجه الطغيان، صارع الطغيان، حتى صرعه.

..وهناك عند الساقية، وفى جذع شجرة الصفصاف، وتحت ظل الجميز الكبيرة العريقة، كان يلتقى بعمه وراعيه : "أبو المكارم".

وكم كان يفرح، وهو يلقاه!

وكم كان يشقى، وهو يفارقه!

أليس ابنها؟ تفيدة : الحب، ولا سواها حب!..النور، ولا غيرها نور...الروح، ولا بعدها روح!

أليس البقية الباقية منها؟

أليس الأثر الحى، من جمالها وفتنتها ووداعتها ورقتها؟

وكان بينهما دائما موعد.

وكان بينهما دائما حديث.

أما الموعد فإنه كالناس، لقى مثلهم حتفه!

وأما الحديث، فإنه كالساقية، مضى ليروى للناس بقية أحداث القصة..

عبد المنعم الصاوى

١

ولد..بنت!

لا، ولد قوى جميل..شهم، كأبيه.

أو بنت، حلوة رقيقة طيبة كأمها ...أو كجدتها..بل كجدتها.

ولد..بنت! ولد ..بنت! ولد ..بنت !

لا، ولد شجاع جسور، لا يخاف ولا يهاب...حتى الموت! حتى وقع الكوارث !!مثلما كان أبوه، فى قبضته سلاح، وعلى شفتيه ابتسامة، أخذها معه وهو يرحل.

..بل بنت، لطيفة بريئة مستسلمة لنصيبها..يشع من عينيها بريق كالمغناطيس، ويومض فى وجناتها نور كطاقة القدر.. تماما مثلما كانت هى...

وينحنى أبو المكارم على قبرها فى ساحة سيدى الذكيرى، يبلله بدموعه الخرساء! هل تمسح دموعه همومها؟ هل تغسل آلامها؟ هل تطفئ نار الوجيعة فى قلبها؟!

ودموع "أبو المكارم" لا تتحدر كما تتحدر سائر الدموع.

إن سائر الدموع تجرى أو تسيل، لتخفف الأثقال فى خزانة الأحزان، أما دموعه، فتتساقط كحجارة تهوى من قمة الجبل، لتتجمع فى قاع الذكرى، كل دمعة تحفر حفرة، وكل قطرة تفتح ثغرة، ومع تساقط الدموع، يثقل ما فى خزانته من الهم، ويعمق ما فى قلبه من المرارة والحسرة.

إن دموعه الخرساء أفصح من الكلام.

والآمه الصامتة أعلى من الرعد.

يا ربى...حتى قبرها، مثلها مظلوم!

...على حافة القرافة! حتى ليكاد _ لولا رحمتك- أن يقع، لتضيع عظامها بين مياه الساقية، وهى فى طريقها للحقول، أو تتناثر أشلاؤها بين الشقوق الواسعة، أيام التحاريق.

نعم، وبدلا من أن يحيطها نبات الصبار، فقد التفت حولها كتل "الحلقة" القاسية الجافة، كالعروق النافرة من رقبة الست نبوية، بكل ما فيها من شراسة وحقد.

لكنهم على كل حال، لم يستطيعوا أن يخرجوها من رحمة الله.

لقد وجدت طريقها إلى قرافة سيدى الذكيرى، لتستقر فى هذه الساحة المبروكة، إلى جوار الساقية، وشجرة الصفصاف، والجميزة العريقة، والنخلات اليافعات الباسقات، ولتنتظر ابنها..مظلوما مثلها، ومثل قبرها، فتلاقيه تحت الثرى، بعد أن كان آخر عهدها به، صيحات رضيعة تتردد فى هذه الساحة وهى تغوص تحت الماء، تغطس وتطفو، ثم تغطس وتطفو، والصيحات الرضيعة تلاحقها، لكنها تخفت وتخفت، حتى تصبح كطنين مهموس، ومنظر الساقية والشجر يصحبها، لكنه يبعد ويبعد، حتى يصبح كأطراف الدبابيس..ثم يكون الصمت وينزل الظلام.

وكما فرقوكما فى الدنيا، فقد فرقوكما فى قرافة سيد الذكيرى.

ترين يا تفيدة : يا حبى وقلبى وهواى!

ها أنت ذى هنا، فى قبر معزول، تماما كما كنت فى بيته، فى حجرة معزولة. لكن الموت قد كان أحن عليك من الحياة، فأنت هنا لست وحدك يا تفيدة.

هذا جلال... جلال يا تفيدة! فى مقام كريم، يشد قامته ليطل عليك، لا يرفع عينيه عنك أبدا. انه فى أخراه يعوض سنوات الحرمان منك، فى دنياه.

إن قبره هذا العالى، يبدو كأنما هو امتداد لحياته، لقد عاش جلال يا غالية، كالنسر لا يطأ إلا القمم! كان ينظر إلى الدنيا من فوق، فيرى الناس أقزاما، برغم ما هم من النفوذ والجاه والسلطان. ولم يستطيعوا أن يجذبوه إلى القاع، ولم يستطع أن يرفعهم إلى القمة، فكان صراع، وصراخ، وطلقات رصاص، وأنين جرحى، واعتقال، وفرار، ومعارك ظافرة، وحلقات ذكر، وإقامة موالد، وهروب إلى هذه الساحة الطاهرة، حيث مضى، حتى قضى...

وهو هنا ليس "جلال" يا تفيدة.

انه الشيخ أبو عوف، خادم ضريح سيدى الذكيرى! ذهب يزور بعض مريديه فى منطقة قناة السويس، فقتلته رصاصة طائشة من رصاص الإنجليز!

ولكم اعتذروا، ولكم أظهروا الأسف والأسى، على الفقيد الراحل.

وآه لو عرفوا الحقيقة، وأن الشيخ أبو عوف لم يكن إلا الرداء الطاهر الذى يحتمى فيه جلال من العملاء والمأجورين والجواسيس!

لكنهم قدموا العزاء ودفعوا التعويض، وتكلفوا بإقامة هذا القبر الكبير.

جلال كان هكذا فى دنياه يا تفيدة، لا يسأل ولا يستجدى، لكن ينتزع حقه، بل وينتزع حقوق الناس، بيديه.

فلما مات، انتزع أكبر قبر فى ساحة سيدى الذكيرى..ومن أعدائه الإنجليز بنوا له هذا القبر، تقربا وزلفى!

شجاع، صاحب قلب من حديد حتى فى قبرك!

تربض فى هذه الساحة، على قيد خطوة منه! لا تخاف! كلهم خافوا منه، إلا أنت فقد احتقرته، وتبعته حتى هنا!

اللهم لا اعتراض. هذا حكمك، وهذى حكمتك!

قضيت عليه، يا جلال وسقيته نفس الكأس التى سقاها لها! دفعت به إلى الماء ليطفوا ويغطس، ويطفو ويغطس، وصيحاته تختنق فى حلقه رويدا رويدا، حتى تتلاشى

والصور تختفى من أمام عينيه صورة صورة، حتى تبهت كالأطياف، ثم ينزل الظلام..مثلما فعل هو بها : تفيدة المظلومة!

ونزل أبو سريع هذه الساحة فى هذا المكان، أقرب ما يكون إلى الطريق العام، كأنما أرادوا أن يستعملوه وهو ميت، أداة إرهاب!

هل كان لابد من أن يحتل هذا المكان؟ ربما ليرهب سكان القبور!!

ترى : هل خاف سكان القبور؟!

لكنك لا تتركه يا جلال، فما أن يستقر فى ثراه، حتى تتبعه، لينتفض من الرعب والفزع، مثلما كان يفعل بالمساكين من ضحاياه، وكلهم كانوا ضحاياه!

ما أشقاه!

لقد نال أبو سريع حزن الناس، لأنه كان لابد للناس من أن يحزنوا على ميت! فلا شماتة فى الموت على كل حال.

لكن جلال...الشيخ أبو عوف..عندما مات.

...تقطعت عليه النفوس، وتمزقت الأفئدة.

لم يكن الناس يبكون، لكنهم مضوا فى نحيب أليم كنحيب الثكالى، واتصلت زفراتهم، كدورات الساقية.

ولم تكن دموعا، تلك التى تجرى على خدود الرجال والنساء والأطفال، وإنما كانت قطعا من ذوب القلوب.

إن القرية لم تعرف الحزن على حقيقته، إلا عندما رحل عنها الشيخان : مرزوق وأبو عوف.

أما قبر الشيخ مرزوق فإنه فى مكان مجهول، لا يعرفه أحد، إلا أبو سريع! وأبو سريع لم يدل أحدا عليه، واحتفظ به سرا من أسراره، حتى دفن معه.

أما الشيخ أبو عوف، فقد دفنته القرية بيديها..هنا.

إنها وارته التراب، وهى توصيه أن يسلم لها على الشيخ مرزوق. وأن يحكى له عما تعرض له أهل القرية، وعما انتهت إليه شئونهم.

والنبى مطمئنه يا سيدى أبو عوف على الشيخ مختار، وعلى راضيه.

والنبى تروى له كل ما صادف بلدنا من السعد، وكل ما أصابها من النحس.

والنبى تؤكد له أننا افتقدناه، وأن صوته الطيب قد أوحشنا. دروسه ونصائحه ودعواته، كل ذلك قد أوحشنا، ولولا أن الشيخ مختار يقوم بيننا فى مقامه، ما استطعنا أن نتحمل العيش بعده.

والنبى لا تنس أن تحكى له عن الست أم راضية، الأميرة الطيبة، التى حملت عنه البركة إلى كل أهل القرية.

يا شيخ يا أبو عوف يا خادم سيدى الذكيرى.

...أهكذا تتركنا يتامى، بعد أن أخذنا عليك وعشقناك، وأصبحت منا كالروح، لا حياة لنا بدونك؟!

أهكذا بعد أن ملأت بلدنا بنور التقوى والإيمان...والأمل؟!

من بعدك سيتربع هنا أمام ضريح سيدى الذكيرى، وذقنه البيضاء كاللبن الحليب تتدلى فى تقوى، ومسبحته الوقور تتحرك بين أصابعه فى تبتل؟!

ومن بعدك سيمسح على رأس المريض فيشفى، وسيربت على صدر المهموم فيخف همه؟

..وزوجتك يا شيخ أبو عوف...الشيخة تفيدة، ماذا سيكون مصيرها؟ أتتركها تعانى الوحدة والفراغ؟ وهل يستطيع أحد بعدك أن يملأ مكانك منها؟! أنها أختنا، وبنتنا، وستنا...لكنا كلنا لا نغنى شيئاً عنك، ولا نغنى بعضا منك..لها.

يا شيخ أبو عوف : لماذا أسرعت تتركنا؟! إننا ما كدنا نسعد بك، حتى تركتنا لنشقى بعدك!

أهنا عليك هذا الهوان، حتى تتركنا؟

أهانت عليك الساقية، وهذا النخيل، وشجرة الصفصاف، والأخرس أبو المكارم؟

أم هو نداء من سيدى الذكيرى، لم تشأ أن تعصاه، فأسرعت تلبيه فى كرم كعادتك؟!

أم هو غدر الإنجليز، كالعهد بهم، قد ذهب بك، فلم يعد هناك أمل فى أن نعود فنلقاك؟!

انه سوء طالعنا. انه نحس بلدنا يا سيدى. ما أن تجد حاجاتها، حتى تضيع هذه الحاجة منها، قبل أن تفرح بها!!

ستذهب عنا، وستبقى معنا.

روحك ستبقى معنا.

..والشيخة تفيدة ستبقى معنا، من رائحتك يا سيدى.

مع السلامة. مع السلامة.

وأسدل الستار، وتقطعت الأنفاس، وسكت النحيب، لكن الدموع ظلت تسيل من عيون مقروحة.



نعم يا تفيدة...

لقد كان موت جلال نكبة حلت بالناس.

أما أنا يا تفيدة، فقد أخذت أقبله من يديه، من رجليه، من وجنتيه، من عينيه. ومع قبلاتى، انطلقت أهاتى، وصرخاتى، ودموع كالسيل.

أنا آخرس. أنا لا أتكلم.

لكن قبلاتى قد كانت كلماتى. كذلك كانت أهاتى وصرخاتى ودموعى. كل ذلك قد كان رسالة مقدسة إليك.

لقد كان جلال ذاهبا إليك.

لقد سبقنى جلال إليك.

هل يا ترى وصلتك الرسالة التى حملها إليك؟

كيف حالك يا تفيدة؟! كيف حالك فى الآخرة؟! هل التقيت بأبيك وأمك وأختك؟! وهل لكم فى الآخرة خص من البوص على رأس حديقة الحاج سلطان كما كنتم فى الدنيا؟ وهل أنت فى الآخرة زوجة؟ هل أخذوك؟ هل اغتصبوك؟ أم أنك ظللت فتاة نضرة حلوة حرة تختارين شريكك كيفما تشائين؟! ومن ترى تختارين؟ هل اخترت أحدا بعد؟ أم أنك تنتظريننى لنعوض فى الآخرة ما حرمناه فى الدنيا؟ إذاً لماذا! لا تمدين إلى يديك لتشدينى إليك؟ لماذا تتركيننى هنا أقاسى الوحدة والفراغ وحدى؟ إلا تحبيننى؟ إذاً لماذا تتركيننى؟ كان أجدى لجلال ولى أن يبقى هو وأرحل أنا. هو يتمم رسالته وأنا ألقى نصيبى معك. لكنه هو الذى يرحل، وأبقى أنا للبؤس، وللشقاء! لماذا يا تفيدة عمرى وحبى؟! لماذا؟

هل وصلتك هذه الرسالة يا تفيدة؟

جلال كان شهما. لابد انه أوصلها إليك. نعم، ولقد كان يعرف قصة قلبينا. كان يتمنى لو إنى أنا أبوه، بدلا من أن يكون ابنا لمن يبرءون منه. لكنه كان يعرف أننا قد واجهنا نصيبنا بشرف وشجاعة، وكان هذا يحمله على احترامنا. ما كان أصعب ما تعرضنا له من حرمان! لكن ما كان أشرفه!!

يا ربى! أهكذا؟ إلا بد للشرف من هذا المسلك الوعر؟ وهل لابد للشرفاء من أن يتعرضوا لكل هذا المكروه؟!

...لكل هذا المكروه!!

حتى جلال يرحل، وهو الرائحة الزكية التى كنت أشم فيها أنفاسك الطيبة الطاهرة؟!

..وأظل أنا، حيث أنا من الساقية، وشجرة الصفصاف، وسيدى الذكيرى والذكريات؟!

وتبتل عينا "أبو المكارم" بالدموع، وهو يتطلع إلى الجنين المستكين أمامه فى بطن مديحة ويبدو كمن يعد على أصابع يديه، وفى خاطره هذا السؤال :

ولد...بنت! ولد...بنت!

وعندما تتلاقى عيونهما، فإن دموعه الحزينة، لا تمنعه من أن يرسل ابتسامة طيبة، تستقبلها مديحة...أو الشيخة تفيدة، بابتسامة مثلها طيبة ورقيقة..وذكية أيضا.

إن مديحة تعرف أن "أبو المكارم" يعد الأيام والليالى، بل ويعد الساعات والثوانى، ليعرف ماذا سيكون:

ولد...بنت! ولد...بنت!

فإن يكن ولدا، فسيكون : "أبو عوف".

وإن تكن بنتا، فستكون " "أم الهنا".

...كلاهما ذهب! وما كان أطيب كل منهما!

سيكون أبو عوف الصغير طيبا كجده.

وستكون أم الهنا الصغيرة طيبة كجدتها.

لكن هل يصبحان مثلهما؟

لا..يا رب لا...اللهم لا تعرض أحداً للمصير المظلم الذى انتهى إليه أبو عوف وأم الهنا.



لا ...لا ...لا يا أبو المكارم.

لا تنظر إليه هكذا؟ أنت تعلم انه صديق جلال. نعم وقد جاء إلى هنا بتدبيره. هذه كانت رغبته، ولم يكن جلال من هؤلاء الذين يتراجعون عما يقررون.

جلال كان ينوى أن يذهب إلى حيث لا يعود، لتعود مديحة إلى ممدوح. هكذا جلال! كان هكذا دائما! لا يأخذ نصيب أحد، فإن وقع هذا النصيب فى يده على سبيل الخطأ، فسرعان ما يرده عندما يعرف به.

مسكين يا بنى! دائما تختار لك الدنيا هذا الطريق؟ تعطيك ثم تستكثر عليك ما تعطيك، فتأخذه منك.

أعطتك سالمة، ثم استكثرتها عليك، فقضت وهى بين يديك. ماتت وهى تتطلع إليك، وعلى شفتيها دعوات لك.

ثم أعطتك مديحة، فأحببتها وتزوجتها عندما تأكد لك أن ممدوح قتل، فلما بدأت حياتكما تستقر، ليصبح لكما خلف صالح مثلكما، عادت الحياة تستكثر عليك ما أعطت، فظهر ممدوح لتذهب أنت، والجنين المستكن فى بطن أمه، لم ير الحياة بعد، وكتب عليه إلا يراك أبدا، وأنت أبوه.



لكن ممدوح هذا، قد أخذ مكانه!

إنما جلال هو الذى أعطاه هذا المكان بإرادته!



لكن ممدوح هذا، قد ورث كل ما ترك : الذقن والعمامة والمسبحة، والبركة، وربما يرث الزوجة أيضا.

وإنما هذه كانت إرادة جلال ورغبته، ولقد أصر على تنفيذها، ليعيد للحبيبين ما انقطع من العهد، وما بعد من الشقة.



لكن ممدوح هذا قد صار الشيخ عبد الرءوف، كما قد صار شيخا جليلا مهيبا يخدم سيدى الذكيرى، ويقيم فى ضريحه الحضرات.

وإنما جلال هو الذى أراد هذا وحدد الاسم والشكل وأسلوب العمل.



يا ربى! هل أحبه أم أكرهه؟

يا ربى! هل آنس إليه، أم أحقد عليه؟

إن جلال حدثنى عنه حديثا طويلا، وأنى لواثق انه كان يحبه ويجله، حتى لقد آثره على نفسه، فهل ترضى روح جلال لو كرهته؟ هل ترضى لو حقدت عليه؟

لا..وأنا يهمنى أن يرتاح جلال فى أخراه، وأن يهجع راضيا مطمئنا.

لهذا فإنى أحبه. إنى آنس إليه. إنى أعطف عليه. انه فى مقام جلال...

بل لا! ...لن يصل أحد إلى مكان جلال.

جلال قطعة منى. جلال هو بعض عمرى.

جلال ابنها، حملته فى بطنها تسعة شهور، وخفق له قلبها قبل أن تراه ولقد كانت صيحاته آخر ما سمعته آذاها من الصوت، وكانت صورته، آخر ما رأته عيناها من الصور.

جلال هو أعز ما خلفته تفيدة.

وتفيدة هى أغلى ما حملته هذه الأرض.

فهل يمكن؟ ..وكيف يجوز أن يكون هذا فى مقامه؟



ومضى أبو المكارم إلى مكانه من شجرة الصفصاف، ليهجع قليلا فى بطنها، وهو يطل على الساقية ومياه الرياح، وأشجار النخيل، والحقول، وقبة سيدى الذكيرى والخص الذى لا يزال يربض هناك فى آخر حديقة الحاج سلطان.

..لكن لماذا لا تزال تسميها حديقة الحاج سلطان، وقد آلت إلى الشيخ غضبان عمدة البلد كما آلت إليه الساقية والحديقة، وأبو المكارم؟

على كل حال لقد كان أبو المكارم يريد من عودته، شيئا أكثر من أن يهجع. انه لا يزال يحتفظ بأول رسالة غرام من تفيدة. وانه ليتحسسها، ليستعيد بها كل ما فات من ذكرياته.

هى ذى، لا تزال الفتاة الغضة اليافعة، التى تذهب وتجئ، وعلى شفتيها أحلى ما خلق الله من بسمات، وفى وجنتيها أجمل ما خلق الله من قسمات، وفى صوتها أشهى ما أودع الله خلقه من فتنه وإغراء.

نعم وإنها لتذهب وتجئ، تتمايل فى طرب، وتغنى فى مرح، وتقفز فى نشوة وسعادة.

وإنها لتلعب بالشراب الاحمر. بفردة الشراب الأحمر التى فرحت بها يوم وجدتها فى سكة المحطة، وأخذت تلبسها وتدور بها حول نفسها فى سذاجة.

وعندما حشتها لتصبح كرة تلعب بها، أحست أن الدنيا لا تسعها، وهى تقذفها مرة لأختها مفيدة ومرة "لأبو المكارم"، ثم تعود تتلقاها منهما، ويحلو لها فى بعض الأحيان أن تلعب بها وحدها، وهما يراقبانها فى غيظ منها.

لكنها تعطيها "لأبو المكارم".

إنها تؤثره على نفسها.

انها تعطيه شيئاً عزيزا عليها.

لولا أنها تحبه حبا شديدا، ما تركتها له، أو نزلت له عنها.

لقد صارت فردة الشراب الأحمر هى رسالة الغرام الوحيدة التى بقيت له، فلم تتغير كحبه.

تتغير الظروف، وتمر الأيام، ويروح ناس ويأتى ناس، وهو حيث هو من الساقية فى بطن الصفصافة، وبين جنبيه حب لا يخفت، وفردة الشراب الأحمر تمثل أقدس ما يملكه فى دنياه.

وانه ليلمسه ويتحسسه، فيشعر بها إلى جواره.

وانه ليقبله. وانه ليبلله بدموعه. وانه ليتحدث إليه. تماما كأنه شئ حى ينصت إليه ويبادله العواطف والمشاعر.

لقد كان أبو المكارم يريد أن يعود إلى مكانه فى بطن الصفصافة من أجل شرابه الأحمر فما أن هجع، والشراب الأحمر بين يديه، حتى رآها مثلما إعتاد أن يراها، فى منامه.



ها هى ذى تبتسم له فى بشاشة، وتقبل عليه فى لهفة، وتهبط إليه خفيفة لطيفة، كأنها الطيف.

ما أجملها وهى تتهادى فى زى أبيض، كالملائكة!

وإنها لتسأله عن حاله، فى ود صادق، وحنان رقيق:

أنت توحشنى يا أبو المكارم، فتهفو نفسى حنينا إليك. سبحان الذى صبرك وصبرنى على فراق ما بيننا! أتذكر؟ لقد جمعتنا أقدارنا، فلم نفترق أبدا. حتى فى السجن الذى ساقونى إليه، فى ملابس زفاف، كنت إلى جوارى قطعة من نفسى! يا خفقة فى قلبى لم تدق! يا كلمة فى حلقى لم تخرج بعد إلى الوجود! يا نقطة من دمى لم تجف! يا آهة فى صدرى، يا زفرة فى ضلوعى. يا مؤنس وحدتى يا زميل لوعتى، يا شريك أساى!

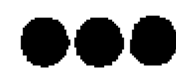
لكن الأقدار التى جمعتنا، هى نفسها الأقدار التى فرقتنا، لأ ذهب أنا عن دنياك، وتغيب أنت عن ناظرى. أما روحى فانها تراك، وترقب تصرفاتك، وتحوم حولك. وما أصعب أن تنصت إلى زفراتك، ولا تستطيع أن تحميك من لهيبها ! وما أشق أن ترى دموعك، ولا تملك أن تمسحها لك! حتى فى منامك تبكى يا حبيبى! حتى فى أحلامك تئن! لكن ما كان أشهمك وأنت تحيط "جلال" ابنى بكل ما تملك، من حب وحنان ورعاية. قد كان يمكن. لو أنصف الناس- أن يكون جلال هذا ابنك، لكن حظنا العاثر قد وقف فى طريق قلبينا، فإذا الحب كله لك، وإذا جلال لأب آخر! وعلى كل حال، لقد انهى الولد

الرحلة... إلىّ. جاءنى بعد التجربة الهائلة التى تعرض لها فى الحياة الدنيا. شئ وحيد كان يحمله منك : حبك يا أبو المكارم. حنانك. إخلاصك. ودموعا لا تزال جارية كالريَّاح، وآهات لا تزال مشتعلة كاللهب!! لكن لجلال خلفا يا أبو المكارم. سيكون لجلال خلف يا حبيبى. وأنت الذى سهرت على جلال فقد كان أمانتى فى عنقك. كذلك خلف جلال، سيكون فى رعايتك، وفى كنفك، فكن له يا أبو المكارم كما كنت لجلال.أنت وممدوح ومديحة سترعون هذا الخلف اليتيم. أبو المكارم، إياك أن تفرط فى هذه الأمانة. هذا قدرك يا أبو المكارم، يا حبيب القلب وصديق العمر، ورفيق الصبا.

وعندما أخذ أبو المكارم يتقلب فى مكانه من شجرة الصفصاف، وهو فى أحلى لحظات النشوة، شعر بنفس يلامس وجهه.

ربى...أهى؟ وهل يصبح الحلم حقيقة؟

وعندما يفتح أبو المكارم عينيه يجد "ممدوح" أمامه يبتسم له فى رقة وحنان.



أنت لا تثق بى يا عمى أبو المكارم.

أنت لا تحبنى. أنت لا تفهمنى.

إن حزنى على جلال كحزنك عليه. جلال كان أخى يا عمى. جلال كان أستاذى. لقد علمنى دروسا لا تنسى. بل لقد قاد من أجلى أخطر مغامرة يمكن أن يدبرها أحد. لكنه ذهب. استشهد. مات الميتة الطبيعية التى تتناسب مع تاريخه ومع رجولته.

لا تحملنى وزر موته يا عمى فوالله لقد كان بودى لو أفتديه. جلال كان أجدر بالحياة منا جميعا، لكنا لا نمنح الحياة. قد نستطيع أن نصنعها أو نشارك فى صنعها، لكنا لا نمنحها ولا نمنعها.

يا عمى أبو المكارم افهمنى.

لابد أن "جلال" حكى لك عنى، ولابد انه قال لك كيف التقينا فى المعتقل وكيف افترقنا، وكيف التقينا، ثم افترقنا ثم التقينا ...حتى فرق الموت بيننا إلى الأبد.

أبدا لا فراق.

إن خلفه سيكون بيننا، كأنما روحه معنا تشاركنا الحياة فى هذه الساحة المقدسة، وتبارك أعمالنا لتحقيق أهدافه السامية.

هل تفهمنى يا عمى؟

أرجو أن أحتل من قلبك ما كان لجلال من المكانة فيه. أن صديقه وأخوه وتلميذه.

كن أبى. كن أباً لمديحة، ياعم أبو المكارم، فإننا نحيا هنا بنفسك وفى رعايتك.



ونظر أبو المكارم إلى الأفق البعيد، واستقرت عيناه على مياه الرياح، وسقطت الدموع من بين جفونه المقروحة. لكنه سرعان ما مسح الدموع المتساقط، وأخذ يتحسس "ممدوح"، ويمسح على رأسه بيمينه، ويبتسم له فى طيبة، ويشير بيديه إلى السماء فى تسليم الولى المتبتل.



قلبى عليك يا بنتى! إلا تستريحين؟ إلا تهجعين؟

يا مديحة! إن الأيام العصبية التى مرت بك، والحمل الذى تحملين، وجنازة الزوج الذى ذهب قبل أن تكتحل عيناه بطلعة وليده، وظهور الحبيب الذى اختفى، وقالوا عنه انه قتل وذهب مع الشهداء. كل ذلك قد أسرع بعمرك، وهد كيانك، حتى لم تعودى تعرفين ماذا سيحدث لك فى غد!

لكنك يا مديحة يا بنتى لم تفقدى إيمانك بالله، ولم تقنطى من رحمته. إنك يا شيخة تفيدة لا تزالين رائعة فى ملابسك التقية النقية الطاهرة. والطرحة البيضاء تزين

رأسك، كأنها عمامة ولى، والمسبحة الطويلة حول رقبتك أجمل من عقود من ماس، والمبخرة..تروحين بها وتجيئين حول الضريح، تنطلق منها رائحة المسك مختلطة برائحتك الزكية!

ولولا هذا الإعياء الذى يبدو عليك، وهذا الفتور..لكن ما باله هذا الإعياء وهذا الفتور؟ انه يزيدك فتنة، ويزيدك جمالا. تماما كما كانت تفيدتى، وهى تحمل "جلال"! ما كان أجملها وهى تذهب به وتروح، والإعياء فى لحظها والفتور فى خطوها، وهمس رقيق بالشكوى يصدر عنها بين حين وحين.

لم أنس يا تفيدة...لم أنس الآهات الخافتة التى كنت تعبرين بها عن آلامك، ولا ترضين أن تعلنيها وحولك كلاب جائعة، تنتظر لحظة من لحظات ضعفك، لتسرع نحوك، تنهش عظامك.

وكنت إلى جوارك يا حبيبتى.

كنت أسمع صوتك، وأنت تتأوهين! وكنت أنصت إلى همسك، وأنت تئنين!

هل يا ترى كنت تعشرين أن كل آهاتك كانت كالنصل، يقطع من قلبى مع كل آهة، قطعة؟

هل كنت تحسين أن أناتك، قد كانت كالحمى، تزيد الحرارة بين جوانحى فى كل مرة، درجة؟

ولكم كنت أتمنى يا تفيدة العمر والقلب أن أضحى بأى شئ، ولا تئنين ولا تتأوهين.

يا شيخة تفيدة...أو يا مديحة :

شدى حيلك، وتحملى! إن هذا العذاب، هو الثمن الذى تتقاضاه الحياة من الأحياء! إننا ننتزع وجودنا، بأولادنا!

شدى حيلك وتحملى! إن ما تحملين منه، وهو _ بلا شريك- أغلى ما حملته هذه الأرض من الناس.

لكن إلا تستريحين؟ إلا تهجعين؟

أنت هنا كل صباح، قبل أن تشرق الشمس.

تزورين الزوج الغائب، وتسكين على قبره بضع دمعات، تختلط مع قطر الندى، ثم تنصرفين لعملك فى ضريح سيدى الذكيرى. تكنسين الضريح، وتنظفين المكان، وتملئين القلل والزير، وتطلقين البخور، ثم تتخذين مكانك فى ركن من أركان الضريح تتعبدين، وتقرئين القرآن.

بينما ينصرف الشيخ عبد الرءوف إلى تنظيف ساحة الضريح وما حوله، ثم يرش الساحة بالماء، ويدور حول القبور يزيل ما يكون قد علق بها من الشوائب، ويخلع ما يكون قد نبت فيها من الحشائش.

انه هو كذلك يا مديحة..ممدوح يا مديحة لا يبدأ يومه قبل أن يزور القبر الساكن الوادع، القابع فى هذه الناحية، يحمل الماضى العزيز، والأمل الرائع.

وانه ليسكب هو الآخر بضع دمعات، ترطب القبر مع رطوبة الفجر.

هل على هذا اتفقتما؟

أن تتلاقى دموعه ودموعك كل صباح، على قبر جلال!!

ما أجمل الملتقى، وما أطهر مكان اللقاء!!

إنى أنا أيضا يا مديحة، ألتقى بكما على هذه الصورة الجليلة. أنا أيضا أبدا يومى بزيارته، وزيارتها. وعلى قبريهما أعتصر همومى، بدموعى!

إن حياتى لها..حيث تكون.

كانت فى خصها، ثم فى سجنها، ثم فى قبرها، حتى ألحق بها.

... لكن هذا شأنى، وهذا همى، وأنا راض به.

أما أنت يا بنتى فلماذا لا تستريحين؟ لماذا لا تهجعين؟



منذ مات جلال يا مديحة، وأقبل الشيخ عبد الرءوف، وأنت تعيشين عيشة مشتتة مبعثرة لا تعرفين فيها رأسك من قدميك.

تقضين النهار كله هنا، حتى صلاة العشاء، ثم تئوبين إلى القرية، حيث تقضين فيها لياليك.

ولقد اخترت أن يكون مبيتك عند الست راضية.

شكرت القرية كلها، عندما فتحت لك بيوتها، وقلوبها، وعرضت عليك أن تنزلى حيث تشاءين، أختا عزيزة كريمة، تحمل ذكرى العزيز الراحل.

لكنك أردت أن يكون مبيتك فى البيت الطاهر، عند راضية، والست أم راضية، حيث عاش الشيخ مرزوق شيخ القرية وراعيها، حتى اختفى.

ولقد رحب الشيخ مختار بالشيخة المبروكة، زوجة الولى الراحل، واعتبر اختيارها للإقامة مع أسرة الشيخ مرزوق بشرى طيبة وفالا حسنا.

كذلك راضية كانت شديدة العناية بها.

وكانت الشيخة تفيدة تنام مع أم راضية.

...أرملتان فقدت كل منهما زوجها.

وكان كل منهما شيخا مبروكا صاحب كرامات!

وقضى كل منهما نحبه، بعيدا عن القرية لم تره عين الزوجة، ولم تسكب عليه دمعة لحظة الرحيل!

يا ترى كيف واجه كل منهما نهايته؟ هل كان يتألم؟ هل كان يتوجع؟ هل كان يود أن يرى زوجته. رفيقة عمره؟ هل كان يحب أن يقول لها شيئا من النصيحة أو الوصية؟! من يدرى!!

الست أم راضية والشيخة تفيدة، فى حجرة واحدة، والظلام يلفهما، فيحجب ما بينهما، فلا ترى إحداهما الأخرى. لكن السر الواحد يجمعهما والمحنة الواحدة تلفهما

فى شئ أكثف من الظلام. لا فرق بين هذه وتلك، إلا أن الست أم راضية فقدت زوجها وهى فى كهولة عمرها، والشيخة تفيدة فقدت زوجها وهى فى عز شبابها.

وفرق آخر، أن الشيخ مرزوق دفن حيث قضى، والشيخ أبو عوف عاد محمولا على الأعناق، فى صندوق من خشب، ملفوف بقماش أخضر، تتصدر عمامة خضراء.

لكن هذا لا يهم فكثيرا ما كانتا تتحبان من البكاء، دون أن تسأل إحداهما الأخرى عن سر هذا البكاء. لم يكن سرا، ولم تكن واحدة منهما تجهل ما فى قلب الأخرى من العذاب.

وقد تتعانقان وهما نائمتان، تحتمى كل منهما بالأخرى من الأحلام!

وقد تتحسس كل منهما زميلتها، كأنما تبحث عن مكان الجرح فى نفسها لتضمده بحنانها!

وقد تستعيدان الذكريات، فتروى كل للأخرى عن أيام العز التى ذهبت!

..وفى بعض الأحيان، تأخذ الست أم راضية على عاتقها مهمة التخفيف عن الشيخة الشابة الحلوة، فتنصحها بأن تلتفت لنفسها، فإن لم يكن لنفسها، فللمخلوق المسكين البرئ الذى يتكون بين ضلوعها، وفى أحشائها.

وتقول الشيخة تفيدة :

لقد ذهب كل شئ معه، فلم يعد لشئ قيمة بعده. ليته يذهب وراءه.

وترد الست راضية:

لا يا بنتى! انه من خلق الله، وعلينا أن نحافظ عليه، وإلا نخون أمانته. صحيح أن فقد الشيخ مصيبة لك ولخلفه، وللبلد كلها. لكن ما ذنب الجنين البرئ؟ إن له عليك حقا، مثلما كان لأبيه. والنبى يا بنتى تلتفتين لنفسك من أجله.

وتقول الشيخة تفيدة :

ليت ذلك ما كان...لقد جاء ليذهب هو...حمل منحوس!!

وتصيح الست أم راضية فى إيمان :

أستغفر الله العظيم. استغفريه يا بنتى. إنك شيخة مبروكة. أنت أيضا أرملة ولى من أولياء الله. تكفرين بالله يا شيخة تفيدة يا بنتى !! لا لا. إياك أن تفعلى. رحمك الله يا شيخ مرزوق، لقد كنت دائما تعظ الناس بالصبر وتقول انه غذاء النفوس، ودواء القلوب، ورحمة الله لخلقه، فمن رضى عنه الله، أعانه بالصبر على بلواه، ومن غضب عليه جعل قلبه ضيقا بما يلقى، وجعل نفسه ساخطة على ما يجد. وأنت مؤمنة يا بنتى، والله يرحمك وينعم عليك بالصبر. اطلبى منه الصبر.

ولا تجد الشيخة تفيدة طريقا للاعتذار عما بدر منها من الضيق، وهى شيخة يتبرك بها الناس، إلا أن تبكى، لتمسح بالدموع بلواها.

لقد كان على الشيخة تفيدة أن تقضى فى منزل الشيخ مرزوق لياليها، لتفسح للشيخ عبد الرءوف أن ينام فى المكان الذى أعده الشيخ أبو عوف، بجوار الضريح، وأمامهما شهور طوال قبل أن يستقر رأيها على شئ. أنها حامل ولابد من أن تضع وليدها قبل أن تقرر مصيرها.

لكن مديحة تحمل مع أحزانها الحيرة والقلق والغموض.

انها لم تعد تعرف نفسها. أنها تشعر أن فى عينيها قذى يحجب عنها الرؤية، وأن فى إذنيها وقرا يحجب عنها السمع، وأن فى حلقها غصة تجعل للحياة فى فمها طعما مرا كالعلقم.



يا ربى ماذا تريد بى؟ ولماذا تعصف بى على هذه الصورة؟

هذا ممدوح، لكنى لم أعد أراه!

هذا ممدوح، لكنى لم أعد أنصت إليه!

هذا ممدوح، لكنى لم أعد أشعر له بوجود!

جلال وحده، الذى أريده، وقد ذهب! ماذا دهانى؟ ماذا جرى لى؟ أهكذا قدر على أن يرحل عنى كل من أحب؟

يوم كان ممدوح هو حياتى، رحل!

ويوم أصبح جلال هو نور عينى، تركنى بدوره ورحل !

...لكن، إلا يعود؟!

ولم لا يعود؟ لئن كان ذلك مستحيلا، فقد كانت عودة ممدوح ضربا من المحال كذلك! لكنه عاد وليته عاد، والقلب فارغ له! لكنه عاد، والقلب مشغول بسواه.

لكن ممدوح، ما ذنبه؟

لكنى أنا، ما ذنبى؟

هل أعود إليه؟.. فإن عاد جلال؟ إن حدثت معجزة أخرى وعاد جلال؟

...جلال مات! نعم وهذا قبره! وأنى لأزوره كل صباح، وأقرأ عليه الفاتحة وأسكب عليه أغلى ما أملك من دموع.

لكن ممدوح أيضا كان قد مات! سقط فى شارع قصر العينى، ولم يخطر بذهن أحد، انه سيعود!

من يدرى...جلال أيضا قد يعود!

وآه لو عاد!

وتكف مديحة عن التفكير، وتقول لنفسها فى استسلام :

يا بنت اسكتى..ما يحدث، يحدث. انك لا تعرفين ماذا سيحدث فى غد. اتركى أمرك لله، يفعل بك ما يشاء.

إن ممدوح كذلك ينظر إلى مديحة كأنما هى حرم مقدس.

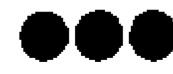
انه يراها أمامه، وحملها يتقدمها، فيشعر بنوع من الرهبة والاجلال.

قد كانت نصيب جلال، وكان يجب أن تكون له إلى الأبد. انه مثل لا يتكرر فى الرجال وهو أحق بها. هو الذى أنقذها من همها ومن بؤسها. هو الذى أعاد الابتسامة إلى شفتيها، والأمل إلى قلبها. هو الذى رد الحياة إليها. هو زوجها وصاحبها ولست إلا ماضيا ولى، وطيفاً عفى عليه الزمن.

لماذا عدت يا ممدوح؟! لماذا لم تختف عن حياتهما إلى الأبد؟ هل كان لابد من أن تظهر؟ هذه هى النتيجة :

صديق بطل يرحل! وأحب إنسانة إليك فى الحياة.تترمل! وجنين برئ يواجه الآن اليتم.قبل أن يولد!

هكذا الحال...أنت والنحس، متواعدان!!



لقد تلاقيا هذه المرة حول جثة الفقيد.

لم تره إلا من خلال الدموع، فبدت لها ملامحه شاحبة باهته لا تبين.

لقد انقلبت الساحة أمام عينيها إلى سوق، بضاعته الدموع، وصيحات اللوعة، وزفرات الاسى... وناس يروحون ويجيئون، وأصوات ترتفع بالدعاء، ومقرئون يرتلون القرآن الكريم، وأكف تمتد بالمواساة، وكومة تكورت أمام القبر، تكاد تصبح جزءا منه، لولا أنها ترتفع وتهبط، وترتفع وتهبط، صلتها بالحياة ما يصدر عنها من أنفاس، وزفرات خرساء كصاحبها الاخرس...

..ثم لا شئ!!..فراغ!!

إن مديحة لم تتبين شيئا. كل ما كان حولها، قد كان والعدم سواء.

وعندما أفاقت قليلا من لوعتها، رأت ذلك الخليفة الذى جاء ليتولى أمور الضريح، فلم تهتم بأن تنظر إليه. لم تعرف إلا انه رجل على رأسه عمامة خضراء، وفى يده

مسبحة طويلة، وله ذقن تتحرك مع كلماته فى هدوء. كل هذا لم يعد يهمها بعد أن ذهب الرجل الذى ملأ عقلها وقلبها، وترك جزءا منه لها.

لكنها عندما أخذت تستعيد بعض نفسها، نظرت إليه فعرفته! ممدوح..نعم هو ممدوح! لكن ماذا يعنى هذا؟ لم يعد يهمها!!

وعندما قال لها : أنا الشيخ عبد الرءوف. أنا لست "ممدوح".

هذه وصية جلال..هذه إرادة جلال، ولقد أراد أن أحمل هذا الاسم تحية لذكرى "رءوف".

عندها لم تهتم إلا بأنها وصية جلال.

واستعادت ما كان يقوله عن رءوف، وكيف انه تعلم منه، وأخذ عنه، وبكى ما آل إليه من مصير.

وأخذت تبكى بدورها ما آل زوجها من مصير.

أما ممدوح فإن المأساة التى كانت تعيشها، قد كانت تحجبه عنها كما كانت تحجب كل شئ عنها، إلا جلال، والساقية، وأبو سريع، والرياح، والجنين الذى يتحرك بين أحشائها.

يا ربى : هل يكون ولدا أم بنتا؟

أبو عوف...أو أم الهنا؟



وتمضى الأيام، والشيخة تفيدة فى صمتها الحزين الرهيب، والشيخ عبد الرءوف مشفق على نفسه وعليها، من الكلام.

انهما يتعبدان. يقرآن القرآن. يصليان، وقد تصلى الشيخة خلف الشيخ فى بعض الأحيان. لكنهما صامتان. السر الذى بينهما أكبر من الكلام؛ وأجل من الرواية والحديث.

حتى الحضرة التى يقيمها الشيخ كانت حزينة وصامتة!

حتى الرجال الذين يحضرون الحضرة، يذكرون الله، ويبكون الفقيد!

حتى النساء اللائى يجئن لزيارة القبور، لا يقلن شيئا، إلا السكوت!

ويمر الخميس الصغير، ثم الخميس الكبير، ثم الأربعون، والصمت مخيم على المكان، وعلى الشيخ والشيخة، والرجل الأخرس، أبو المكارم الشارد المنكوب.

وكان ممدوح يقول فى بعض الأحيان :

فقدناه...فقدنا الرجل، والبطل، والمعلم.

لكن مديحة كانت تسمع هذا الكلام، وهى صامتة.

وكان ممدوح يقول فى أحيان أخرى :

لولاه لكنت قد قضيت نحبى فى ساحة من ساحات القتال مجهولا مهملا، لا أراك ولا تريننى. لكن البطل الشجاع، قد حال دون ذلك.. رحمة الله.

لكن مديحة كانت تسمع هذا الكلام، وهى شاردة.

وكان ممدوح يقول كذلك :

ليتنى مت يومها! لماذا كتب على أن أعيش؟ ألكى أواجه استشهاد البطل فتذهب نفسى عليه حسرات؟! ليتنى ما عرفته وما قابلته!

لكن مديحة كانت تسمع هذا الكلام، وهى غائبة عن الدنيا وعن الناس.

اسمعى يا مديحة. عليك أن تلزمى بيت الحاج مرزوق. لا تحضرى بعد اليوم إلى هنا.

قالت فى صوت مبحوح :

لا أستطيع...لا أستطيع.

قال لها :

بل لابد من أن تلزمى الدار.

وهزت رأسها فيما يشبه الرفض.

قال لها :

إذاً أبيت أنا فى الجامع، وتلزمين أنت هذا المكان، فأنا لم تعد بى قدرة على أن أراك على هذه الحال، ثم تروحين وتجيئين كل صباح وكل مساء، بين البلدة والضريح.



وترك الشيخ للشيخة ضريح سيدى الذكيرى لتلزم المكان الذى أعده جلال فى الأيام الأخيرة من حملها.

ضريح زوجها بين ناظريها، وخلفه ساحة هائلة خضراء، ثم الساقية وأشجار النخيل وشجرة الصفصاف والجميزة الكبيرة، وأبو المكارم بكل ما فى قلبه من حب وحنان وأسرار أودعها الله فى قلبه، وحبسها عن لسانه حتى تظل مكتومة عن الناس.

..والجنين البرئ يحاول أن يطرق أبواب الحياة فى رفق تارة، وفى عنف تارة أخرى، ويتقدم حينا، ويتأخر حينا آخر، يحاول الاندفاع فيشده التأنى.

ومديحة بين هذا كله، تصلى وتتذكر وتبكى.

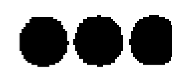
انها لا تكاد تعرف نفسها، كأنما هى فى غيبوبة، أو إغفاءة.

..حتى ماضيها. قد كاد يضيع منها!!

والألم الذى يعتصرها لم تعد تشعر به!!

وعندما أتاها المخاض، ارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة، كأنما هذا المخاض شئ لا يعنيها!!

ولم تكن تشعر بمن حولها.



الشيخ عبد الرءوف يصلى من أجلها ويدعو الله لها، ودموعه تتساقط على خديه..وكثيرا ما كان يتوجه إلى القبر الجاثى غير بعيد، ليستند إليه فيما يشبه النجوى.

ماذا كان الشيخ عبد الرءوف يقول للشيخ أبو عوف؟

إن أهل القرية ممن أقبلوا ليضعوا جهودهم فى خدمة الشيخة تفيدة يتهامسون بأن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهذه الدموع التى تنهمر من عينى الشيخ عبد الرءوف ليست إلا نوعا من التطهر من الأحزان!

والست راضية بجوارها. أحضرت الداية، لتكون إلى جوارها، وهى تضع وليدها.

والست أم راضية تسند رأس الشيخة على صدرها، وتربت على خديها فى حنان، وتقبل رأسها ويديها، عندما تشعر ببضع دمعات تنحدر على خدها، بينما البسمة الباهتة لا تزال مرتسمة على وجهها الجميل الصبوح.

وعدد من النساء أقبلن، فإن ولادة الشيخة تفيدة حدث من أهم أحداث القرية، فالوليد المرتقب هو العوض عن الولى الطاهر الذى ذهب فى سبيل الله.

والقرية الحزينة تستقبل أخبار الولادة بالحزن والأسى والدموع... والدعوات.

"رحم الله الشيخ أبو عوف. مات قبل أن تكتحل عيناه بوليده.

"سيولد المولود يتيم الأب، كالنبى محمد صلى الله عليه وسلم.

"كلنا أبوه..وكلنا أهله".

إن الشيخة تفيدة لا تتأوه ولا تتألم.

" ولية طاهرة مبروكة..نزلت عليها سكينة من عند الله.

"هذه هى المرة الأولى التى يشهد فيها ضريح سيدى الذكيرى مولودا يبدأ الحياة فى ساحته الطاهرة.

"أولياء الله هكذا ينادى بعضهم بعضا عند الشدة !

"سيدى الذكيرى والشيخ أبو عوف، والشيخة تفيدة، والشيخ عبد الرءوف..كلهم هنا مجتمعون يا أولاد.

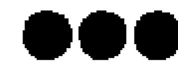
"هذا من حظ بلدنا..هذا فأل طيب يا رجال.

"من يدرى، قد يأتى السعد من أوسع باب.

"قد تتقلب الأحزان إلى أفراح.

"بركتك يا سيدى يا ذكيرى.

"كن إلى جوارها والنبى فى هذه الشدة".



وأبو المكارم...

تكوم كأنه كرة.

ولولا عيناه، ما استطاع أحد أن يتبين أن فى هذه الكومة المتكورة حياة. لكن عينيه قد عوضتا كل الجمود فى بقية أجزاء جسمه، فأخذتا تتحركان فى انتباه، وتدوران حول المكان دورات سريعة، وتصدر عنهما أشعة ذات بريق. كأنما تنازل الجسم للعينين عن حقه كله فى الحركة واليقظة والانتباه والادراك والانفعال.إن عينى أبو المكارم قد كانت كعقارب الساعة، ترصدان سير الزمن، أو كالبوصلة ترصد الاتجاهات، أو كمحور من المغناطيس، يروح ويجئ مع مركز الجاذبية.

أما ما عدا عينيه كانت تبدو أجزاء من الكرة الصماء.

لكن أذنيه قد كانت كعينيه، تتسمعان دبيب النمل، وتتبينان الهمس، وتدركان النجوى...فى سرعة ودقة وفطنة وذكاء.

انه ينتظر مع المنتظرين.

لكنه ليس كالمنتظرين.

إن الوليد القادم، امتداد لأبيه.

أبوه جاء، وذهبت أمه.

وانه ليقبل، بعد أن ذهب أبوه.

هو دائما هكذا!! موعود باليتم والأيتام! ذاق اليتم وهو صبى، ومن يومها أنس اليتم إليه، فعهد إليه بكل يتيم!

ويعزى أبو المكارم نفسه هذه المرة، بأن الوليد القادم، سيجد إلى جواره أما، تعوضه عن فقد أبيه.

لكنه يعود يسأل نفسه : أى اليتمين أشد، يتم الآباء، أم يتم الأمهات؟!

بل يتم الأمهات أشد! أرأيت ماذا عاناه المسكين المرحوم جلال، لو انه فقد أباه وبقيت له أمه، لخففت عنه بعض مصائبه.

لكن الاب، هو الأمن والأمل والقدوة!

..بل يتم الآباء أشد!! إن كل الأباء ليسوا الحاج سلطان، ينكرون أبناءهم ويحرمونهم من الميراث، ثم يلقون بهم إلى عرض الطريق ليواجهوا الدنيا بكل ما فيها من صعاب، بلا ظهر!!

ويقول أبو المكارم لنفسه :

آه لو أن "جلال" حى! آه لو امتد به عمره ليرى لنفسه خلفا من صلبه!! لكن هب أن عمره امتد، لقد كان ينوى أن يتركه لمصيره، يتيم الأب، وهو حى!! كان ينوى أن يختفى، وأن يطلق مديحة، لتعود إلى ممدوح، ويشب الوليد على وهم انه يتيم!!



وبينما كان أبو المكارم فى هذه الدوامة السريعة...

إذا صيحات "طفلة" تتردد فى جنبات المكان، فيقابلها الرجال، وتقابلها النساء بالبكاء والنحيب.

لقد هبط المولود الموعود، وعز على الناس أن يهبط يتيما، وعلى قيد خطوة من قبر أبيه، فبكوا حتى اعتصروا همومهم، وغسلوا بالدمع ما فى قلوبهم من جراح.

وكم من امرأة شهقت من فرط النحيب.

وكم من رجل زفر من عمق الأسى.

..وأبو المكارم كما هو : كرة متكومة، لا يميزه عن الموتى، إلا عينان!! وأذنان! من الرقة والشفافية، تحاولان أن تخترق الحجب، إلى الحقيقة !!

انه لا يتحرك...

جسمه لا يتحرك، لكن قلبه تفتح كزهرة من زهرات الياسمين بللها الندى، وأحس كأن عبيرا طيبا قد ملأ خياشيمه، فأخذ جسمه المتكور، يعلو ويهبط، ويعلو ويهبط، فى سرعة وانفعال.

وما هى إلا لحظات، حتى سمع من مكانه البعيد صوتا طيبا يعلن للناس انه ولد كأبيه.

وأضافت الست أم راضية، ذات الصوت الطيب الحنون : أبوه لم يمت...هذا ولد يعوض البلد إن شاء الله ما فقدته فى أبيه.

وأغمض أبو المكارم عينيه للمرة الأولى منذ بدأت آلام المخاض، وهى يقول لنفسه :

ولد...نعم ولد...قوى جميل كأبيه.

أبو عوف، سيكون هذا اسمه.

أبو عوف ابن الشيخ أبو عوف، شيخ الضريح.

لكن اسمعى يا قرية ساذجة طيبة مخدوعة، لا تعرف رأسها من رجليها.

انه فى الحقيقة أبو عوف بن جلال..وجلال هو ابن الحاج سلطان، من أحلى بنات القرية، تفيدة الضحية المظلومة.

وبعد أن ابتلع أبو المكارم دموعه وأخذ نفسا طويلا ملأ رئتيه، أخرج أطرافه من الكرة التى تكوم فيها، كما تفعل السلحفاة وهى تستقبل دفء الربيع.

ثم نصب قامته، ومضى إلى حجر الصفصافة، يتحسس فردة الشراب الأحمر ويقبلها، ويبللها بدموعه، وعيناه على الرياح، فى المكان الذى شهد آخر عهدها بالدنيا، وسمع آخر صيحاتها وهى تودع الحياة.

هل ترين يا تفيدة؟...

هل ترين حفيدك؟

أبو عوف الصغير يا تفيدة، قد ولد هنا فى هذه الساحة المباركة، ولطالما شهدت صبانا، وباركت هوانا، وحفظت سرنا. أو تذكرين كيف كان لنا فيها دائما لقاء؟ وفى ظلها، وعلى مسمع منها كانت بيننا نجوى؟ وعندما نعق فى حبنا البوم، شهدت هذه الساحة دموعنا، فحفظتها لنا فى بئر الكتمان! وعندما انتزعوا كلا منا من صاحبه، ترددت فى هذه الساحة أصوات نواح، مع صياح الغربان، وينقق الضفادع!

لكن مولد أبو عوف الصغير فى هذه الساحة، شئ آخر.

أبو عوف الصغير يا تفيدة، قد ولد هنا فى هذه الساحة المباركة، ولطالما شهدت أبو سريع، وفى يده كرباج سودانى، يهوى به على ظهور الناس فى غير رحمة أو شفقة، ويتحكم ويستبد ويظلم، غير عابئ بما تضفيه هذه الساحة على النفوس من رهبة!!

لكن مولد أبو عوف الصغير فى هذه الساحة، شئ آخر.

أبو عوف الصغير يا تفيدة، قد ولد هنا فى هذه الساحة المباركة، ولطالما سمعت أنين المظلومين، وشكوى المضطهدين، وهمس المغلوبين، ودعوات أصحاب الحاجات، لكن كل ذلك قد كان يذهب هباء أمام الطمع والجشع والاستغلال.

لكن مولد أبو عوف الصغير، فى هذه الساحة، شئ آخر!

أبو عوف الصغير يا تفيدة، قد ولد هنا فى هذه الساحة المباركة، ولطالما تآمروا فيها عليك، ليتخلصوا منك، وليدبروا مكيدة تودى بك وتعصف بكيانك، فلا تبقين فى دارهم وبين ذويهم!!

لكن مولد أبو عوف الصغير، فى هذه الساحة، شئ آخر!

أبو عوف الصغير يا تفيدة، قد ولد هنا فى هذه الساحة المباركة، ولطالما سمعت إلى "أبو عوف" الكبير وأم الهنا، وقلباهما فى نار من أجلك، يتشاغلان عن الخوف عليك، بالتسليم فى شأنك.

لكن مولد أبو عوف الصغير، فى هذه الساحة، شئ آخر!

أبو عوف الصغير يا تفيدة، قد ولد هنا هذه الساحة المباركة، ولقد دبروا على أرضها، وتحت ظلالها، قصة اتهامك بالخيانة، وأنت الطاهرة الشريفة، ورسموا الطريق إلى إقناع الحاج سلطان بها، للقضاء عليك بلا رحمة!

لكن مولد أبو عوف الصغير، فى هذه الساحة، شئ آخر!

أبو عوف الصغير يا تفيدة، قد ولد هنا هذه الساحة المباركة، وهى الساحة التى كانت أطيافها آخر ما أطبق عليه جفناك، وكان حفيف أشجارها وتغريد طيورها آخر ما علق بسمعك!

لكن مولد أبو عوف الصغير، فى هذه الساحة، شئ آخر!



أبو عوف الصغير يا تفيدة، قد ولد هنا هذه الساحة المباركة، ولقد كانت مسرحا عريضا لأبيه، نمت فيه رجولته، فأخذ منها وأعطاها، فى كرم وسخاء، حتى كان آخر ما بذله فيها، حياته.

لكن مولد أبو عوف الصغير، فى هذه الساحة، شئ آخر!

ومرت الأيام.

ومرت مع الأيام فترة النفاس.

وعادت الشيخة تفيدة إلى بيت الحاج مرزوق، لكنها فى هذه المرة قد عادت وفى حضنها، ولد جميل لطيف، مثلما كان أبوه.

وأحست الشيخة أن القرية الطيبة قد طوقت عنقها بجميل لن تنساه. فإن العاطفة التى أظهرتها نحوها، والحب الذى نالته منها، والسخاء الذى عاملتها به، قد جعلها تشعر أن كل رجل فى القرية أبوها أو أخوها وكل امرأة فى القرية أمها أو أختها. حتى أطفال القرية قد صاروا أبناءها.. أخوة أحباء أعزاء للوليد الصغير أبو عوف. حتى العمدة والأعيان قد شاركوا القرية عواطفها، لم يتخلف عن ذلك أحد.

وشعرت مديحة أنها قد صارت جزءاً من هذه القرية. واستعادت ما كان جلال يقوله لها عنها : هواؤها هذا النقى الجميل، إلا تشمين فيه رائحة البرسيم والحلبة والتوت والجميز؟ إلا تستطيعين أن تميزيه عن أى هواء آخر؟ عن نفسى أنا أعرفه، ولو عصبوا عينى كثورى الساقية. وهذه الطبيعة..أتسمعين ما يتردد فى جنباتها؟ حفيف الشجر، ودورات الساقية، ومياه الرياح، وزقزقة العصافير شئ لا تجدينه إلا هنا...

نعم يا جلال يا زوجى وحبيبى. عندك حق. هذا الهواء له رائحة خاصة، وهذه الطبيعة لها طعم خاص. ثم المنظر الساكن الوادع حول الساقية يمتد ليتصل بسيدى الذكيرى، لتجتمع الدنيا والآخرة عنده. هذا أيضا شئ لا وجود له إلا هنا. أنا أصبحت هنا يا جلال. أنا صرت بنت هذه الطبيعة لا أستطيع أن أفارقها، أو أفترق عنها. أنها قريتك، وقرية ابنى وابنك "أبو عوف" وهذا يكفى لتصبح أيضا قريتى.

وتجد انشيخة تفيدة نفسها مسوقة، وابنها على يديها، إلى زيارة أهل القرية لتشكر جميلهم طوقوا به عنقها.

وبدأت ببيت العمدة، وجلست فى صحن الدار مع الست السيدة زوجة العمدة غضبان، وبنت العمدة القديم.

قالت الشيخة تفيدة :

أنا جئت أشكرك يا ست السيدة على جمائلك. ربنا يا ستى يعطيك من نعيمه ويرزقك ويسعدك.ربنا يطيل عمر حضرة العمدة ويوفق لك أولادك.

وأجابت الست السيدة :

بركة إنك قمت لنا بالسلامة يا ست الشيخة. والله بركاتك ونورك ملأ بلدنا، والحمد لله أن الله عوضك عن المرحوم ولدا يملأ مكان أبيه.

وكانت الست نبوية قد وصلت إلى حيث جلست الشيخة والست السيدة.

عجوز...جافة...مفكوكة من بعضها، كأن السوس قد نخر عظامها ولا تزال تتعق كالبوم!

انحنى ظهرها وتقوس، ولم تعد تقوى على السير إلا بعكاز يسند طولها. لكنها _ مع هذا _ كالكرباج القديم المهلهل، تطرقع طرقعة متقطعة معووجة!

بح صوتها، حتى صار كالزجاج المشروخ، لكنه يصدر على كل حال رفيعا نحيفا، يشق طريقه فى تزاحم وقح، بغير حياء.

قالت الست نبوية :

من؟ أنت من؟

حتى نظرها قد تهالك من سوء الاستعمال، ومن طول ما حملقت فى عباد الله، لترتعد فرائضهم من الخوف وتوقع المكروه.

وقالت الشيخة تفيدة فى سذاجة.

أهلا ست نبوية. أنا تفيدة يا ست نبوية.

وفى قحة كالحة غير مهذبة قالت :

تفيدة!! بسم الله الرحمن الرحيم!! تفيدة ماتت من زمن طويل.رماها أبوها فى الرياح. الله لا يرجعها.

واستعانت الشيخة بالصبر فقالت :

لكن أنا ...الشيخة تفيدة، من محاسيب سيدى الذكيرى.

وأضافت الست السيدة :

الشيخة تفيدة يا عمتى زوجة المرحوم الشيخ أبو عوف، ألف رحمة ونور تنزل عليه خليفة سيدى الذكيرى الله يرحمه ويحسن إليه. هى أيضا شيخة مبروكة ولها كرامات وقد وضعت ابنا مثل القمر سمته على اسم أبيه، وجاءت تزورنا لتحل لنا البركة.

وقبل أن تتم الشيخة تفيدة عبارة أرادت أن تضيفها وهى أنها جاءت لتشكر صنيع العمدة وبيت العمدة لها أثناء حملها وولادتها، كانت الست نبوية قد انسحبت من لسانها لتقول :

تفيدة وأبو عوف!..تفيدة وأبو عوف !..الشيخ أبو عوف! والولد سمته "أبو عوف"! لماذا؟ من سماه لك؟ وما هذه الاسماء...أو ليس فى الدنيا أسماء سواها؟

قالت الشيخة تفيدة فى سرعة وذكاء :

انها كلها أسماء من عند الله يا ستى.

ولم يبد أن الست نبوية قد اقتنعت، فسكتت لكن على مضض. بينما أخذت الشيخة تفيدة تتأملها وهى تقول فى نفسها :

جبارة والله يا ست نبوية. أنت جبارة وخطيرة. أنت التى قتلت تفيدة، وخربت البيوت المفتوحة. أنت التى شردت "جلال"، ودفعته إلى أن يهيم على وجهه بلا أهل ولا صديق. نعم أنت!! أنت سبب كل الدموع التى سكبها. أنت سبب كل المآسى التى تعرض لها. أنت قاتلة.أنت مجرمة. لكنك لا تزالين أذكاهم وأخطرهم جميعا! لكن منك لله!

وبينما أخذت الشيخة تستأذن فى الانصراف، كانت الست نبوية تنظر إليها دون كلام.

لكن الشيخة تفيدة مدت إليها يدها تصافحها وهى تقول :

ادعى لنا يا ست نبوية.

وقالت الست نبوية فى لهجة غريبة :

دعوة واحدة، أن تكونى من طينة غير طينتها، ليكون مصيرك أحسن من مصيرها.

قالت الشيخة :

ـ من تقصدين؟

قالت الست نبوية :

ـ سميَّتك تفيدة الأخرى!

قالت الشيخة :

ـ مالى أنا وأية تفيدة أخرى يا ست نبوية؟

قالت الست نبوية :

ـ إن شاء الله لا تكونين من طينة كطينتها. ادعى لنا أنت يا ست الشيخة.

وأمسكت الشيخة تفيدة أعصابها وهى تقول لها :

ـ ربنا يطيل عمرك يا ست نبوية.

وانصرفت الشيخة وهى تترحم على سميتها التى تحملت هذه الجبارة عاما أو بعض عام.



وفى بيت المرحوم أبو سريع، جلست الشيخة تفيدة مع أرملته ست الناس، وهى تتذكر كل شئ.

أبو سريع : وهو يبحلق فيها، فيجرح حياءها بنظراته! وهو يتودد إليها ولعابه يسيل! وهو يتجه نحوها جاثيا يطلب منها أن ترحم ما فى قلبه من نار! وهو يتابعها أينما ذهبت ليفرض عليها وجوده الهائم فى هواها!.ثم وهو يلتقى بجلال وجها لوجه، فيلقيه فى بطن الرياح ليذهب إلى حيث لا يعود!

وعندها تنحدر من عينيها دمعة على الغريق الذى قضى.

مخلوق مغرور، لا يعرف حقيقته، إلا بعد فوات الأوان.

هذا الشيطان الجبار، الذى طالما ألهب ظهور الرجال وفتك بالأبرياء، وشرد وقتل، وسخر بمن وقع فى قبضة يده.

هذا المارد المخيف، الذى هز قلوب الأمهات خوفا على أبنائهن، وعصف بنفوس الزوجات، قلقا على أزواجهن، ومزق شغاف العذارى، فزعا على مصير أصدقائهن وأحبابهن.

هذا الغامض الرهيب، الذى ذهب مع الشيخ مرزوق إلى الحجاز، فعاد وحده، وعلى خديه دموعه على الشيخ مرزوق !

آه لو رأيتموه، وهو يواجه نهايته الأليمة!

آه لو سمعتموه، وهو يلاقى مصيره الحزين!

لقد كان يحاول أن يصيح، فيخنقه ما كان يعبه من ماء! وكان يحاول أن يخلص نفسه، فتغلبه القيود! وما كان يستطيع إلا أن يحرك عينيه فى ذلة وحسرة، ويهز رأسه فى رجاء المغلوب!

كان يتمنى لو اشترى حياته، ودفع عنها ما يملكه كله.

كان يود لو لعق الأقدام، وتركوه يجر الساقية معصوب العينين، كالثور!

إن الجبل الهائل، قد بدا فى ثانية واحدة كأنه القاع!!

وصاحب الصوت المجلجل الجبار، قد تحول صوته إلى استغاثة ملهوف!

لو انه أدرك أن هذا يمكن أن يكون المصير!

هل كان يفعل بالناس مثلما فعل؟

لكن الشيخة تفيدة قد اكتفت بالدمعة التى ذرفتها، وقالت لست الناس، الأرملة التى اتشحت بالسواد :

أنا يا ست ست الناس قادمة لأشكرك. إنك برغم أحزانك وحدادك على زوجك العزيز، لم تبخلى على بالرعاية الكريمة. ربنا يطيل عمرك، ويعوضك عنه خيرا.

قالت ست الناس :

ـ هذا من خيرك يا شيخة يا طاهرة يا مبروكة. المهم أن تدعى الله أن يرحمه وأن يغفر له.

.. كأنما هى تشعر!! كأنما هى تعرف!!

لكن بماذا تشعر؟ وماذا تعرف؟ هل تشعر بآثامه وخياناته؟ هل تعرف مثلا انه كان يطاردها؟

إن أى حديث عن هذا سيجرح كبرياءها..وهى _ رضيت أو لم ترض _ عمة ابنها. أنها أخت جلال زوجها.

هل هذا أيضا تعرفه؟

هل تعرف أن الطفل النائم على حجرها، واحد من أسرتها، ودمه من دمها؟ وهل تعرف أن الذى أغرق زوجها، هو أخوها؟

لكن لا داعى لمثل هذا التفكير الآن.

وأحست الشيخة أن ست الناس تنتظر منها دعوة.

وقالت الشيخة تفيدة :

لقد كان المرحوم رجلا قويا شديدا. الله يرحمه ويجعل الجنة مثواه.

وقالت ست الناس :

صحيح كان رجلا قويا شديدا. مسكينة بلدنا. من سيحميها بعده؟

ولم ترد الشيخة تفيدة.

ومضت ست الناس تقول :

إن أخى السيد هو الذى يتولى الأمر بعده، إلى أن يعقل الولد المجنون أدهم، ويأخذ مكان أبيه.

وقالت الشيخة فى تخابث :

إن شاء الله ربنا يطرح فيه البركة ويصبح كأبيه.

قالت ست الناس :

الأول يعقل. هذا هو المهم. لقد ترك البلد والدار، وأخذ يهيم على وجهه، بحثا عن قاتل أبيه. أقسم إلا يعود إلا بعد أن يعرف من الذى قتله ليقتله. لابد من أن ينال نفس

المصير، وحتى هذا لا يكفى، فإن سبع الليل أبو سريع كان بألف رجل. هكذا قال. ومن يومها وهو هائم على وجهه كالمجنون لا يستقر له قرار. وإن أتى يوما ليرانا، فإنه لا يلبث حتى يعود يبحث عن قاتل أبيه وكم حاولت أن أهدئه، وأن أقنعه أن يهجع، وأن يترك الأمر لله، لكنه يصيح فىَّ - وأنا أمه - مقسما انه لن يهدأ حتى يعثر على قاتل أبيه، ليسقيه من نفس الكأس وليقضى عليه بيديه.

وكادت الشيخة تفيدة تضحك من أعماقها.

كادت أن تقول ساخرة :

ولماذا يتعب نفسه هذا التعب، ويجهد نفسه هذا الإجهاد؟ إن من يبحث عنه، على قيد خطوات منه!

لكن من يدرى؟ قد يفشل فى معرفة القاتل، فيدارى قصوره، بالادعاء والافتراء بالباطل.

ومر بالشيخة خاطر لم ترتح له :

هل يمكن أن يثور الشك حولها؟ وهل يكون مصيرها كمصيره؟ هل يلقون بها هى الأخرى فى الرياح؟

وابنها ...هذا الملاك البرئ...هل يعيش مشردا، يتيم الأبوين؟ بلا أهل؟ ولا قريب؟ ولا صديق؟

وكادت الشيخة تصيح من الخوف.

لكنها على كل حال، ضمت ابنها إلى صدرها تحميه من الوهم! انه حياتها. انه قطعة منها. انه جزء من المتاعب التى قاستها. انه الذكرى والأمل.

وكان الرضيع ينظر إليها، وبين يديه لعبة صغيرة، استقرت على صدره. هل نظرات استغاثة هذه؟ هل يشعر الصغير بما ينتظره من مصير؟

وكادت الشيخة تبكى!

لكن ست الناس قطعت عليها هذه الرحلة التعسة عندما أخذت تروى بقية الحكاية.

حتى امرأته فشلت فى إقناعه. ولد _ مثل أبيه _ دماغه من حديد. الله يرحمك يا أبو سريع. عندما ولد أدهم أصر على أن يرضعه لبن حمير. ولم ينفع معه الرجاء. كان يقول : نعم أريده أن يكون كالحمار، دماغه ناشف، لا يلين. أنا لا أحب الأولاد المائعين. الرجال يجب أن يكونوا هكذا. تقولين حمارا لا يهم. فى هذا يجب أن يكون حمارا، أحسن من أن يكون نعجة.

وكان أبو سريع يضيف كلاما كثيرا عيبا.

وكان يصيح فىَّ كالرعد : تريدينه أن يطلع طريا مثلك؟! أنت امرأة، والطراوة منك شئ جميل لذيذ، لكن الولد ...اتركيه يطلع لى أنا ...أنا كذلك حمار فى العناد والإصرار. لابد للرجل من أن يكون عنيدا. الرجل المطواع أنثى، يسمع الكلام ويطيع. أريد ابنى مثلى، يطيعه الناس. يسير فى مقدمه الناس. يرتعد منه الناس. فاهمة يا امرأة.

وأخذت الشيخة تفيدة تهز رأسها وهى تسمع، بينما ست الناس تكمل القصة :

وليته اكتفى بلبن الحمير. لقد أصر على أن يأكل الولد كبدة ذئب نيئة، وعندما اعترضت هب فى ولم يسمع كلامى.

وأخذت أقول له إن الولد صغير لا يتحمل، وقد يمرض ويموت.

فأخذ يصيح كالمجنون إن كان على هذه الدرجة من الضعف فمن المصلحة أن يموت. لماذا يعيش ضعيفا خائرا؟ ألكى يذله الناس؟! ويحمل مع ذلك اسمى؟! يقولون هذا ابن "أبو سريع"؟! سيكون ابن ست الناس، لا ابن "أبو سريع".

وصحت فيه : نعم ابن ست الناس من "أبو سريع"

فصاح فى : إذاً يأكل كبدة الذئب ويعيش كالذئب، لا يخاف، ولا يهاب.

وعملها والله يا ست الشيخة. كان الولد عنده خمس سنوات، عندما أخذه معه إلى الحقول، وصاد ذئبا ذبحة، وانتزع كبده، وأكل بعضه، وأكل الولد الباقى.

وجاءنى يومها والولد فى يده، وكان يصيح سعيدا بما حدث، يزف إلى البشرى أن أدهم أكل كبد الذئب، وهو يريد أن يحلى بلبن النمل وعسل النحل!

وكان يضحك ضحكات متواصلة، وهو يقول لأدهم الصغير " أليس كذلك يا أدهم؟ تريد ذئبا آخر؟ هذه المرة تصيده أنت. لقد أصبحت رجلا كأبيك، دماغك ناشفة كدماغ الحمار، وقلبك كقلب الذئب. لم يعد ينقصك الآن إلا امرأة كأمك، وبندقية على كتفك، وتصبح شيخ خفر على سن ورمح.

وهمهمت الشيخة تفيدة وهى تقول :

الحمد لله، الحمد لله. ربنا دائما يرعى عباده، ويبعد عنهم السوء.

..بينما كانت الست ست الناس تستعيد ذكريات عمرها.

قالت :

لقد كان المرحوم يا حبة عينى يشعر بهذه النهاية. كان يشعر انه سيموت فجأة، وكان يقول عن نفسه انه ابن موت، وكلما كنت أبعد عنه هذا الخاطر، كان يقول فى اعتداد : بالعكس أولاد الموت هم الرجال الحقيقيون، الذين لا يهتمون بشئ. لا يخافون من شئ. لأنهم ينتظرون الموت فى أى لحظة. حتى الموت لا يهمهم فهل يهمهم بعد الموت شئ؟ المهم عندى أن أطمئن على أدهم والبنات.

ويبدأ صوت ست الناس يضطرب من الأسى. وتمد إصبعها إلى خدها تجفف دمعة كانت قد بدأت تتحدر من عينها.

لكنها تمضى فى روايتها.

كأنما كان يشعر أن نهايته اقتربت. بعد رمضان الماضى أصر على أن يزوج ابنته الصغرى. كانت مخطوبة. قرأنا فاتحتها فى أول رجب، وكتبنا كتابها ليلة نصف شعبان.

وقلنا تدخل بعد عيد الأضحى، بعد الجهاز وإتمام كل شئ. لكنه قال : ولماذا الانتظار؟ تتزوج وتذهب لبيت زوجها. الزواج ستر. وكانت ملابس العروس لا تزال تحتاج إلى إعداد كثير. كان جهازها ناقصا، لكنه أصر وقال : لالا.. اعملوا حسابكم ينتهى كل شئ، قبل عيد الفطر. سلوا صيامكم على العروس ولوازمها.

وأضافت ست الناس قائلة :

وكنت أعرف "أبو سريع". دماغه ناشفة لا يتزحزح عما يتخذ من قرار. لهذا وافقته، وبدأت أسرع بإعداد كل شئ للعيد الصغير.

عمرى والله يا ست الشيخة، ما رأيته سعيدا مسرورا كما رأيته يومها..كأنما كان زواج ابنته الصغرى، هو يوم فرحه هو! حتى يوم فرحه، لم يكن على هذا القدر من السعادة والسرور.

وفى آخر الليل، وبعد أن ذهبت العروس لعريسها، وانفض الجمع قال لى : الآن أشعر أنى أتممت مهمتى. البنات فى بيوت أزواجهن، والولد فى حضن امرأته لم يعد على شئ!

ولم تمض أسابيع، حتى جاءنا خبره.

ذهب قبل العيد الكبير.

وسكتت الست ست الناس قليلا ثم سألت الشيخة :

قولى لى والنبى يا ست الشيخة. هل الناس تشعر بنهايتها قبل أن تموت؟ هل هناك شئ يدلهم على آخرتهم؟

ولم تعرف الشيخة تفيدة ماذا تقول.

هزت رأسها واكتفت بأن قالت :

إن علم ذلك عند الله.انه الغيب، لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى.

لكن ست الناس ظلت مع هذا تتساءل :

لا والنبى، أبو سريع كان عارفا..كان شاعرا بما سيحدث له. وألا فكيف كان يتعجل زواج البنت. الله يرحمه ويحسن إليه.

قالت الشيخة :

ما علينا يا ست الناس. المهم أن تذكريه بالخير، وأن تصلى لله وتطلبى له الرحمة. كلنا نحتاج إلى رحمة الله.



وبينما هما كذلك أقبلت عليهما شابة مليحة سمراء، تحمل على كتفها طفلا صغيرا لا يكف عن البكاء، والشابة تنهره وتزجره وتقول له فى ضيق :

يا بنى، هل أنا التى هربته؟ هل أنا التى طردته؟ اسكت، كفانى ما أنا فيه.

وعندما اقتربت الشابة منهما قالت ست الناس :

هذه زوجة أدهم ابنى. نبوية بنت أخى سيد. أليست حلوة والنبى يا شيخة تفيدة؟

قالت الشيخة :

الله! اللهم صلى على جمال النبى. يا سلام على إبداع المولى جلت قدرته. حلوة وابنك أيضا حلو مثلك يا شابة. ما اسمه؟

قالت الشابة الصغيرة الحلوة :

أبو سريع. وما اسم ابنك يا ست الشيخة؟

قالت الشيخة:

أبو عوف!!



أو سريع، وأبو عوف...الصغيران البريئان، هل يجددان ما كان، أم يصححان ما كان؟.

هل يتقاتلان، أم يتعاونان؟

لكن هل كان أبو عوف الكبير قادرا على قتال؟ لقد كان ممتثلا للأقدار تسيره كما تهوى. أخذوا منه ابنته، فأحنى رأسه، وخفض عينيه، وهم يأخذونها! ثم أعادوها إليه وهى حامل، فوضعها بين جفنيه حتى وضعت وليدها! ثم سحبوها أمامه وألقوا بها فى بطن الرياح، فلم يستطع أن ينبس ببنت شفة! وقادوه إلى مصيره المحتوم داخل سجن كالح رهيب، فما عصى، ولكنه أطاع، حتى قضى!

هكذا كان جد أبيك يا ولدى! فهل تكرره أنت؟

لكن لا ..سيكون حظك خيرا من حظه. وهذا الولد الذى تحمله نبوية، أبو سريع الصغير، سيكون صديقك. لابد أن يكون صديقك. هل يا ترى شربوه لبن حمير كأبيه؟ وهل أكل كبد الذئب؟ لعلهم يكونون قد نسوا، حتى لا يشب عنيدا كالحمار، ولا جسورا كالذئب.

يجب أن يبقى إنسانا، لا حمارا ولا ذئبا.



إن نبوية الصغيرة تطلب من الشيخة أن ترقى ابنها : أبو سريع.

وانها لتأخذه بين ذراعيها فى رقة، وتمسح على رأسه، وتربت على خده، فيهدأ الولد، ويأنس إليها، ويكف عن البكاء معها.

بينما أمة تتمتم فى عجب :

بسم الله الرحمن الرحيم. بركاتك يا شيخة تفيدة. ربنا يمتعنا ببركاتك. الولد سكت. غريبة..ويضحك! لعله خير!

وأخذته الشيخة فى حضنها، وأحاطته بذراعيها، فأصبح من ابنها كأنما هما متلاصقان، وأخذت أنفاسهما تتلاقى على حجرها.

وفى همس لا يسمعه أحد، أخذت تقول له فى أذنه :

إياك يا أبو سريع، أن تحذو حذو جدك. لا يا بنى، كن أنت طيبا طيعا مطيعا لله. لا تدنس يديك بدم حرام، ولا تدنس ذمتك برزق حرام، ولا تدنس حياتك بمسلك حرام.

عش عيشة حلالا يا أبو سريع. وإياك أن يحنقوك على "أبو عوف" الصغير. جدك كره "أبو عوف" الكبير بلا ذنب! تابعه بالرعب حتى قضى عليه وهو حى. لكن ذلك لم يكفه، فقتل ابنته أمام عينيه، ثم حمله على الصمت حتى مات! لكنك أنت لن تفعل مثلما كان يفعل، ستكون صديقا "لأبو عوف" الصغير. نعم وستكون عونا له. هل تعرف انه ابن خالك. أى والله هو ابن خال أبيك، والخال والد يا أبو سريع. انه أخوك. اسمع كلامى وإياك أن تتساه. ربنا يوفقك إلى الخير يا بنى.

وطيلة هذا الهمس، كان الولد مستكينا مستسلما راضيا. بل كان يبدو على قسماته انه سعيد. وكانت أمه تضرب على صدرها وهى تعجب من أمره، بينما جدته ست الناس تهمهم باسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على نبيه الكريم.

وقالت الشيخة تفيدة :

من الآن يا ست نبوية يا حلوة، اعتبريه ابنى "كأبو عوف". ربنا يطرح فيه البركة إن شاء الله.

وقالت الشيخة تفيدة :

من الآن يا ست نبوية يا حلوة، اعتبريه ابنى "كأبو عوف". ربنا يطرح فيه البركة إن شاء الله.

وقالت الست نبوية :

خذيه معك من الآن.

وضحكت وضحكت ست الناس ونبوية.

وخرجت الشيخة تفيدة، وابنها بين يديها، لتطوف بيوت القرية على قدر ما تستطيع.



زارت بيت العمدة القديم، فاستقبلها أهل البيت مرحبات، ثم شاكيات من تصرفات العمدة الجديد وأهله.

تصورى يا ست الشيخة ينسون أننا أصحاب الفضل عليهم، ولولانا ما كانت لهم قيمة، وما كان لهم قدر. نحن أصحاب العمدية من قديم، ولولا أن العمدة مات وابنه صغير السن، ما عرفوا لها طعما. أى والله ما خرج التليفون والسلاح من دوارنا. لكن هكذا شاء الحظ! ونقلوا التليفون من الدوار ونقلوا السلاح كذلك!! ولم يسمعوا الكلام عندما قلنا لهم أن يكون دوارنا هو مكان العمدة غضبان، ويستمر التليفون ويستمر السلاح. أليس زوج ابنته، كابنه تماما؟! لكنهم كانوا ملهوفين يا ست الشيخة. الله يجحمة "أبو سريع"! هو الذى جاء بالخفر ونقل التليفون ونقل السلاح إلى دوار العمدة الجديد. وكأنما كان ذلك اليوم، جنازة أخرى للعمدة الذى مات! أو كأنما مات العمدة يومها مرة ثانية!

وقالت الشيخة :

أنتم أهل وأقارب وأصدقاء، وبينكم دم ومصاهرة، والله كفيل بأن يصلح بينكم.

لكن حريم العمدة القديم وأولاده مضوا يقولون :

أهل ...صحيح أهل. لكنهم لا يحترمون كلمتهم، ولا يحفظون العهد. لقد كنا على اتفاق أن العمدة غضبان، سيترك مكانه لابن العمدة عندما يبلغ السن. لكنه كان ككلام الليل مدهونا بالزبدة، عندما يطلع النهار، يسيح!! نعم فقد نسوا عهودهم. البركة فى "أبو سريع" الله يجحمه!! لقد رفض أى كلام فى هذا وقال للعمدة غضبان : لماذا؟ هل أنت جسر؟ قنطرة؟ بنك يحفظون فيك النقود؟ أنت عمدة وابن الحاج سلطان. الحاج سلطان هو الذى جعل العمدة القديم عمدة، ولولا ذلك لما استطاع أن يصلها. لكن يظهر انهم نسوا وظنوا أن العمدية ملكهم بحق؟ لقد كانت وظيفة خلعها أبوك على العمدة القديم، ولو أن أباك حى لرفض أى كلام كهذا. هذا حقنا نحن، وقد أعطيناه لهم بإرادتنا. وبإرادتنا أخذناه، فماذا يريدون؟

ويضيف أهل العمدة القديم أن "أبو سريع" كان كذابا، فالعمدية أصيلة فى بيت العمدة القديم من أيام الجدود. لكن "أبو سريع" كسب العمدة غضبان، فنسى وعوده، ولم

يحترم كلمته. وعندما ذهب له صهره ابن العمدة القديم يطالبه بتنفيذ وعده، سخر منه وقال له إن ذلك مستحيل. وبدأت علاقات البيتين تكتسى بالجفوة والجفاء.

لكن الشيخة تفيدة مع هذا تصر على انهم أهل وأقارب، ومن نعم الله عليهم أن جعل بينهم رحمة ومودة، وأن عليهم أن يطيعوا الله ورسوله ويتعاونوا على البر والتقوى.

وعندما غادرت الشيخة تفيدة منزل العمدة، أخذت تفكر فيما سمعته هنا وهناك ..وشعرت أن رأسها تدور بين النبويتين، العجوز الشمطاء ...الصماء ! والصغيرة الحلوة السمراء : أم أبو سريع!

أبو سريع! إن له رائحة تزكم الأنوف! نعم، وله طعم، مر المذاق!

لكن الطفل الصغير سيكون شيئا آخر..فإن لم يكن شيئاً آخر؟! ماذا؟ هل يكون على شاكلة جده؟ وتحس أن شيئاً كالسهم يخترق رأسها!!

إن تفيدة لم تعد مجرد شيخة، ولا مجرد مجاهدة، ولا مجرد أرملة لشيخ انتقل إلى رحمة الله. لكنها كل ذلك، وهى بعد ذلك أم ...أم أجمل طفل تحمله هذه الأرض : أبوعوف الغالى العزيز.

وتنسى حتى اسمها الذى استعاره جلال لها وأسبغه عليها، وتكاد تنسى الطرحة البيضاء، والمسبحة، وكل شئ.

وتفر من نفسها، ومن هواجسها، إلى حقيقتها.

هى مديحة..بنت الدرب الأحمر، ولدت فى ربع قديم من ربوعه الواسعة، وشبت هناك، على الحب والدمع والأمل.

هل تستطيع وهى مديحة، أن تنقذ ابنها من المصير الغامض الذى يهد قواها؟ هل تهرب من نفسها، ومن هذه الساحة كلها، ومن الوظيفة التى تقوم بها؟

لكن جلال أوصاها أن تبقى. وهى تريد أن تبقى.

لقد أصبحت من هنا. بل وتحب أن تبقى هنا، ومن هنا.



وتكون قد وصلت إلى بيت حضرة الناظر.

وكانت محتاجة إلى أن تبعد هذه الأفكار عن رأسها.

ودخلت لتزور ولتشكر، وقبل هذا كله، لتجد ناسا تتحدث إليهم وتسمع منهم.

وكان حضرة الناظر فى مواجهتها وهى تدخل، جالسا فى الحوش فى جلبابة الافرنجى وقبقابه، وقد شمر ساعديه، وجلس القرفصاء، وفى يده إبريق، وأمامه طشت. كان يتوضأ ليصلى العصر.

وعندما لمح الشيخة تدخل البيت، قال :

أهلا..أهلا وسهلا بالشيخة تفيدة، نور البلد وبركتها.

وخفضت الشيخة نظرها خجلا وحياء وقالت :

الله يخليك يا حضرة الناظر. هذا من كرمك وحسن ظنك.

قال وهو يصب الماء على ساعديه :

ومعك الشيخ أبو عوف الصغير. والله الخير ملأ دارنا. أنت كلك بركة، والشيخ الصغير قد ورث البركة عن والده وعنك. هذا والله فتح من عند الله.

وظلت الشيخة تشكره وتدعوه له حتى عبرت الحوش، وكان هو قد انتهى من وضوئه. قال لها :

تفضلى يا ست البلد. أم صلاح فى الداخل. تفضلى.

ونادى أم صلاح، فأقبلت مسرعة، فلما وجدت الشيخة، عانقتها فى ترحيب وسحبتها إلى الداخل وهى تقول :

النبى زارنا اليوم يا ست الشيخة. أهلا وسهلا، أهلا وسهلا.

إن الست أم صلاح زوجة حضرة الناظر فلاحة تقيه، تؤدى الفرائض وتتصدق على المحتاجين، وتكره أن تغتاب الناس.

وهى تقول عن نفسها أنها زوجة ناظر المدرسة، وبيتها كقلبها، مفتوح للناس جميعا، فكل نساء البلد أخواتها، ولكل منهن فى قلبها مكانة ومنزلة.

طبعا عشرة طويلة يا ست الشيخة. مضى علينا هنا أكثر من خمس سنوات...عمر! وربنا أكرمنا هنا ورزقنا بصلاح بعد البنات، فتمت به فرحة أبيه. وكما تعرفين بيتنا مفتوح للناس، وعلاقتنا بأهل البلد جميعا على خير ما تكون. إن الناس هنا طيبون وأمراء، عندما تعرفينهم على حقيقتهم، من غير أن يكونوا واقعتين تحت تأثير من أى نوع. أننا نشعر بينهم أننا فى بلدنا وأن هذا بلدنا. صحيح مرت بنا أيام صعبة، لكنها مضت وصرنا وأهل البلد كالسمن على العسل.

وكان حضرة الناظر قد فرغ من صلاة العصر، فأنضم إليها، يسمع إليهما، بينما أخذ يحرك شفتيه بالتسبيح لله واستغفاره من كل ذنب عظيم.

وقالت الشيخة :

أنا جئت أشكر لك يا حضرة الناظر وللست أم صلاح ما لقيته منكما من كرم ورعاية. ربنا يحفظكما ويطيل عمركما ويسعدكما.

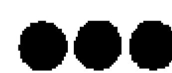
قال حضرة الناظر :

يا ستى هل نستطيع أن نفى حقك علينا؟ أنت لا تعرفين كم كانت هذه البلدة تعانى من الفراغ والضياع قبل أن يحضر الشيخ أبو عوف رضى الله تعالى عنه وأرضاه وتحضرين معه. أنا كنت هنا يا ست الشيخة، وكنت أشعر أن الناس قد وصلوا إلى مرحلة تعسة جدا من الضيق والضجر، كل شئ كان مظلما : البيوت والطرقات والقلوب. فلما جاء الشيخ وجئت معه، وأقمتما فى سيدى الذكيرى، تغير كل شئ فى البلد. سرى فى الناس تيار من الراحة والأمل، وبدأت الحضرات تقام، وذكر الله يتردد فى سيدى الذكيرى وفى الزوايا وفى المسجد وفى البيوت، وأخذ الناس يتزاورون. ودبت فى البلد حياة جديدة. وبعد هذا تقولين أنك قادمة لتشكرى! والله لو أن كل من يعيش فى هذه البلد قدم لك.. ماذا؟ أى شئ، ما كان ذلك كثيرا عليك وفاء لذكرى الشيخ أبو عوف،

وتقديرا لما تقدمين لأهل القرية من المعروف. والله يا ست الشيخة، مالك على قسم، لقد كنت أسعى لأنقل من هذه المدرسة وكنت على وشك أن أنجح، فلما جئت مع الشيخ أبو عوف، وتغيرت البلد من أولها لآخرها، فضلت أن أبقى. إن أهل هذه البلد طيبون وأصفياء وأذكياء كذلك. أين كنت يا ستى الشيخة من زمن؟!

وقالت الشيخة ووجهها فى الأرض :

- الله يخليك يا حضرة الناظر. هذه التحية من كرمك ومن فضلك، ووالله أنا لا أستحقها. الله يرحمه الشيخ أبو عوف، كان يستحق هذا وأكثر منه، أما أنا فلست إلا مريدة مجتهدة فى رحاب سيدى الذكيرى.



إن عبد المهيمن أفندى يتولى نظارة مدرسة القرية منذ إنشائها، وهو لا يزال يذكر كيف استقبلته القرية عندما جاءها أول مرة.

أدارت له ظهرها!! حتى لا تراه!!

انه قادم ليغلق كتاب القرية!!

..ويمنع الأولاد من حفظ القرآن الكريم!!

ويحول بين الشيخ مختار، وما أجراه الله له من الرزق!!

وتذهب تقاليد القرية، مع كتاب القرية، فى شربة ماء!!

يا نهار أسود!!

والجهد الذى بذله الشيخ مرزوق، والعمر الذى أفناه بين أجيال متعاقبة من أولاد البلد، وهو يحفظهم مبادئ القراءة والكتابة والحساب.

وهؤلاء الذين ذهبوا إلى الأزهر الشريف، وفى قلوبهم نور القرآن يضئ لهم بصائرهم، ومنهم من أصبح قاضيا شرعيا مهيبا، أو محاميا شرعيا طويل اللسان، أو موظفا هنا أو هناك، بل إن منهم من أصبح عضوا فى هيئة كبار العلماء.

أولئك الذين ذهبوا إلى المدارس يحرسهم ما حفظوه من القرآن، من عيون الحاسدين، فتفوقوا على أقرانهم، ووصلوا إلى مختلف المراتب والمراكز، أفندية لهم هيبة وسلطان.

وحتى الذين التصقوا بمصاطب القرية من الأعيان أو الفلاحين، قد مروا بالكتاب وذاقوا فرقلة الشيخ مرزوق، ومن بعده الشيخ مختار.

كل هذا يذهب فجأة!!

...كل هذه الأعمار، والأجيال، تذوب لأن الحكومة السنية قد قررت أن تفتح لنفسها مدرسة، وأن ترسل شخصا على شاكلتها يدعى عبد المهيمن أفندى، ليكون على المدرسة ناظرا!!

سبحان الله!!

وما شأن الحكومة وأهل بلدنا؟!

ما شأن الحكومة والناس؟!

حكومة كفرة خوارج، تحارب كتاب الله العزيز!!

وعبد المهيمن هذا، لابد انه زنديق، بلا ذمة ولا دين !! ويسمى نفسه عبد المهيمن! أنت عبد المهيمن أنت؟! أنت عبد الطاغوت، ولا حول ولا قوة إلا بالله !!

واجتمعت قلوب أهل القرية على كراهية المدرسة، وكراهية الناظر القادم : عبد المهيمن أفندى.

وأحس أهل القرية، أن عليهم واجبا نحو الشيخ مختار، فذهبوا إليه زرافات ووحدانا ليطمئنوه إلى انهم سيقفون معه ضد المدرسة، وضد عبد المهيمن أفندى، وانهم لن يسمحوا بأن يعتدى على الكتاب. إن الكتاب كالمسجد، لا يمس!

وكان الشيخ مختار يستقبل أهل القرية مرحبا، لكنه كان يؤكد لهم أن المدرسة الجديدة، لن تؤثر على الكتاب، فالمدرسة شئ والكتاب شئ والأرزاق بيد الله سبحانه

وتعالى. لكن أهل القرية كانوا يهزون رءوسهم وهم يتصورون أن الشيخ مختار يخفف الآمر، وانه لا يريد أن يرهق الناس بمشكلته، ولا يريد أن يشغلهم بمسألة تخصه!

رجل حى وابن حلال!

مؤدب وخجول وقانع!

توكله كله على الله سبحانه وتعالى!

...إنما المسالة يجب إلا تقف عند هذا. إن كتاب القرية جزء من القرية. انه قلبها وروحها .والحكومة لها البوليس والمحاكم، ولكن مالها هى والتعليم؟

هكذا كان أهل القرية يرددون فيما بينهم وبين أنفسهم، وفيما بين بعضهم والبعض الاخر.

ثم قرروا أن يذهبوا إلى العمدة يسألونه أن يتدخل لحماية القرآن والكتاب والشيخ مختار، من المدرسة وعبد المهيمن أفندى.

وعندما التقوا بالعمدة قالوا له :

- الكتاب يا حضرة العمدة. كتاب الله يا حضرة العمدة.

- ماذا جرى للكتاب يا أولاد؟ وماذا حدث لكتاب الله؟

- الحكومة تنوى أن تغلق الكتاب يا حضرة العمدة.

- من قال هذا يا أولاد؟

- هى التى قالت هذا يا حضرة العمدة. وأنت تعلم أننا كلنا تربينا فى الكتاب. أنت نفسك يا حضرة العمدة تربيت فى الكتاب.

- نعم والكتاب عزيز علينا جميعا.

- إذاً تدافع عنه يا حضرة العمدة. وحياة أبوك الحاج سلطان تدافع عنه وتحميه، وحياة صهرك العمدة القديم. وحياة كل عزيز عليك.

- لكن من قال لكم أن الحكومة ستعتدى على الكتاب؟

- وما معنى أن تفتح مدرسة فى بلدنا؟ لماذا تفتحها؟ ألكى تقوى الكتاب يا حضرة العمدة؟ الحكومة تنافس الكتاب!! وهل الكتاب مثل الحكومة يا حضرة العمدة؟! هل الكتاب قد الحكومة؟! والشيخ مختار المسكين، هل هو حمل الحكومة؟ يا حضرة العمدة تدخل لحماية الكتاب إن الكتاب يحفظ أولادنا القرآن، والاعتداء على الكتاب اعتداء على القرآن.

لكنكم جميعا مجانين يا أولاد. من قال لكم أن المدرسة ستنافس الكتاب؟ وهل أرضى أنا؟ إن الحكومة نفسها لا ترضى. الكتاب باق إن شاء الله ما بقينا. أما المدرسة فشئ آخر. أنها مدرسة إلزامية. تعرفون ما معنى إلزامية؟

- ما معنى إلزامية يا حضرة العمدة؟

- وعناها إجبارية.

- يا نهار أسود!! كالجهادية؟!

- قلت إجبارية.

- كالسخرة؟!

- يا أولاد أسمعونى : أنها إجبارية بمعنى آخر.

- مثل انتخابات الحكومة؟!

- يا أولاد...

- أو مثل طلوع المحطة لتحية الملك وهو مسافر إلى الإسكندرية؟!

- اسمعوا ولا تتسرعوا.

- مثل الدعاء بحياة الملك فى خطبة الجمعة؟

- كل هذه أشياء مختلفة.

- كلها أشياء إجبارية.

- المدرسة شئ آخر.

- أليست إجبارية مثلها؟

- بل هى إلزامية، بمعنى أن التعليم فيها إلزامى.

- إلزامى..ماذا يعنى هذا؟

- قلنا يعنى إجبارى.

- والذين لا يتعلمون؟

- يحبسون.

- يا نهار أسود!! هل سيحبسوننا يا حضرة العمدة؟

- لماذا؟

- لأننا لا نذهب إلى المدرسة؟

- ومن قال أنكم ستذهبون إلى المدرسة؟

- أنت يا حضرة العمدة. ألم تقل أن التعليم فيها إلزامى، أو إجبارى وأن من لا يذهب يحبس؟

- لا لا ..وهل أنتم أطفال؟

- ماذا تعنى يا حضرة العمدة؟

- الإلزام فى سن الإلزام فقط.

- وما هى سن الإلزام؟

- سن الأطفال.

- الحمد لله... لكن هل يحبسون أطفالنا إذا لم يذهبوا؟

- بل يحبسون آباء الأطفال إذا لم يذهب أولادهم.

- هذه لعنة وظلم : يعملها الصغار ويقع فيها الكبار؟

- ألستم آباءهم؟ أليس كل منكم راعيا ومسئولا عن رعيته؟

- فى الحبس!! فقط فى الحبس!! يا حضرة العمدة!

- ألا تريدون أن يتعلم أولادكم؟

- بالقوة؟

- نعم بالقوة. إن جهلهم يضر الوطن.

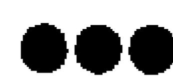
- يا سلام! من قال هذا؟ ربنا قال هذا؟ الرسول صلوات الله عليه وسلامة قال هذا؟

- نعم قال اطلبوا العلم ولو فى الصين.

- لكنه لم يقل احبسوهم إذا لم يتعلم أولادهم.

- إن مصلحة الوطن تتطلب هذا.

- نعم؟! استكمل الوطن كل شئ. ولم يبق إلا أن يرسلوا لنا مدرسة تهدد الكتاب والشيخ مختار، ويصبح الذهاب سخرة، فإذا لم يذهب إليها الأولاد، حبسوا الرجال... ياحضرة العمدة!



ولم تجد مناقشة أهل القرية مع حضرة العمدة، فذهبوا إلى "أبو سريع" شيخ الخفر، على أمل أن يجدوا عنده ما لم يجدوه عند العمدة من صدر مفتوح.

لكن "أبو سريع" قد كان كعادته فظا غليظ القلب، فبادرهم قائلا :

- تريدون أن تظلوا بهائم! إذاً استمروا بهائم كما أنتم! تريد الحكومة أن تنظفكم فلا تريدون! تريد الحكومة أن تعلمكم فلا تريدون! لكن المسألة ليست هينة مثلما تتصورون. والله، ثلاثة بالله، إذا لم تنفذوا ما تريده الحكومة، لتكون هذه نهايتكم. هى كلمة واحدة، ولا أريد أن أسمع بعدها شيئا.

ولم يستطع أحد أن ينبس ببنت شفة، فمضوا ورءوسهم منكسة كأنهم يشيعون عزيزا مات.

وزاد إشفاقهم على الشيخ مختار، وزاد تعلقهم به.

كانوا ينظرون إليه وهو يؤم المصلين فى الجامع ويصعب عليهم ما ينتظره من مصير. كانوا ينصتون إليه وهو يردد الدعوات، ويتصورون انه يستغيث بالله من هذا البلاء. كانوا يتطلعون إليه وهو يخطب الجمعة، ويخيل إليهم انه يدعو الله من فوق المنبر أن يحميه من الخطر المحدق به.

ولم يكن يجدى مع أهل القرية أن يؤكد الشيخ مختار لهم أن ذلك لا يهم. فالأرزاق بيد الله، وكتاب الله كبيت الله، له رب يحميه.



وحول الساقية دارت أحاديث الرجال :

- والله يبدو أن أهل البلد كلهم سيحبسون!

- وهذا ظلم. لماذا يحبسون الرجال؟

- لانهم لا يستطيعون أن يحكموا بيوتهم، أو يحكموا على أولادهم.

- وكيف تحكم على أولادنا بالمدرسة! من يعمل فى الحقول إذاً؟ من ينقى ورق القطن من الدودة؟ من يجمع القطن؟ من يرعى الغنم؟ من يسرح بالبهائم؟ من يحرس الزراعة؟

- نقبل الحبس إذاً!

- ونترك بيوتنا وأولادنا؟

- والله مصيبة! ماذا جرى فى الدنيا؟

- كل شئ تغير.

- القيامة ستقوم يا أولاد! ما سمعنا قط أن الأبرياء يؤخذون بذنب الأبناء.

- من الممكن أن يؤخذ الأبناء بذنب الأباء.

- يقولون هذا الولد من أصل خبيث.

- أو اسألوا عن أهله قبل أن تقبلوه.

- والعروس...كلام كتير عنها.

- "اقلب القدرة على وجهها، تطلع البنت لأمها."

- وكلام آخر كتير...

- " خذ الأصيلة وصلها بالمال، واسأل عنها العم ويا الخال." إلى آخر المثل.

- يعنى الأبناء كانوا دائما يؤخذون بذنب الأباء.

- ولم يكن هذا عدلا دائما.

- والادهى الآن أن يقلبوا الآية. الأباء يؤخذون بذنوب الأبناء.

- لم يبق إلا أن يسألوا عن الأبناء، ليحكموا على الأباء!!

- الحكومة تريد هذا.

- ونحن عبيد الحكومة.

- لكن الحكومة هذه...ما هى؟

- اسكت ما لنا والحكومة!

- هل هى شئ من المصائب التى يخلقها الله لامتحان عباده؟

- كالاوبئة : الجدرى أو الطاعون أو الملاريا مثلا؟

- ربما كانت شيئا كالقضاء والقدر.

- كالبلاء، والحوادث التى تصيب الناس من غير احتساب.

- وكالموت؟!!

- لكن أعضاءها ..ناس!!

- يا شيخ ...أى ناس؟!

- ناس مثلنا.

- مثل من؟ مثلك ومثلى؟

- نعم..ناس...ككل الناس!

- مجنون!! ومن حشرك يا صعلوك، بين الملوك؟!

- الا يدخلون الانتخابات؟

- وفى الانتخابات يطلبون أصواتنا؟

- ...وهى تخدمنا! تفتح مدارس لتغلق الكتاتيب!

- وتمنع تحفيظ القرآن!!

- وعلى حساب شيخ مبروك كالشيخ مختار.

- ولماذا لا تسألنا عما نريده، إن كانت حقيقة تريد أن تخدمنا؟

- يا مغفل. هل تصدق أنها حقيقة تريد خدمتنا؟ أنها تريد أصواتنا.

- تريد أن نبصم لها على بياض.

- كما يفعل الحاج غضبان وأهله!

- العجوز الشايب!

- اسكت، حتى لا يسمعنا أحد.

- الحكومة تريد أصواتنا، والحاج غضبان يريد بصماتنا...

- ونحن ندفع، وهم يقبضون...

- والحكومة والحاج غضبان.

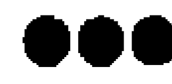
- وأصوات مغلوبة فى الانتخابات.

- وبصمات مقهورة من شدة العذر.

- والأصوات والبصمات عملة شديدة الرواج.

- ...لكنها لا تروج، إلا فى سوق العبيد!

- أو فى السوق السوداء!!



وكما تدور أحاديث الرجال حول الساقية كذلك كانت تدور أحاديث النساء عند المورد:

- المدرسة الإلزامية ستكون للبنات والصبيان.

- بنات!! والله تمدنت بلدنا يا بنات!!

- والأعيان يرضون؟

- الأعيان وغير الأعيان.

- يا خبر!! يعنى المدرسة ستكون لكل البنات؟!

- آه! أعيان وغير أعيان.

- وكيف هذا؟ أولادنا نحن. بناتنا يذهبن مع بنات العمدة؟!

- ومع بنات الأعيان!!

- لا لا ..هل انقلبت الدنيا؟

- وهل نقدر نحن؟

- من أين لنا بكسوتهن ونظافتهن؟

- ثم من يعمل فى الحقل وفى الدار؟

- ويسرح بالبهائم، ويسهر على الدجاج؟

- ويحلب البقرة، ويلم روث البهائم ويعده وقودا؟

- لكن هذه المدرسة. من الذى سيدرس للبنات فيها؟

- أى والله..من؟

- لابد انه عبد المهيمن أفندى.

- عبد المهيمن ناظر..هل الناظر يدرس؟

- لابد أن معه مدرسين.

- لابد أن عبد المهيمن أفندى هذا رجل مهم.

- يا ترى ما شكله، كبير أو صغير؟

- الله!...أنت ما شأنك أنت به؟ انه متزوج يا بنت.

- متزوج متزوج!! يأكلها ويشبع بها!!

- ولماذا؟ هى زوجة واحدة على كل حال!

- وشرع ربنا أربعة!!

- يتبقى ثلاثة. ينقصه ثلاثة!

- وزوجته يا ترى ما شكلها؟

- لابد أنها حلوة وظريفة.

- أبدا!! هذا كلام. أنا سمعت أنها فلاحة رائحتها حلبة.

- مثلنا؟!

- لا يا بنت. نحن رائحتنا مسك وتمر حنة.

- أو قشطة بالعسل النحل!

- وأنا سمعت أنها عجوز.

- إذاً هو عجوز مثلها.

- لا لا ..هى أكبر منه.

- غنية إذاً؟

- لا..قادرة!

- ربما مغرية وجذابة.

- عبد المهيمن أفندى هذا، لابد انه خفيف.

- لعبت بعقله.

- هل تعرفين يا بنات أن المدرسة ستغلق الكتاب؟

- لا، والله لا تقدر.

- مسكين يا شيخ مختار.

- المسكينة راضية زوجته.

- ست أميرة، طيبتها تشفى المريض.

- ربنا سيكون معها.

- وسيعود عبد المهيمن هذا من بلدنا خائبا.

- وسيطلق زوجته.

- ويتزوج أربع بنات من بلدنا.

- يا بنات...كفى، فقد يسمعنا أحد.

- تبقى مصيبة!! يسمعنا أحد!!



كذلك كانت تدور الأحاديث فى دار العمدة.

العمدة غضبان، وشيخ البلد سيد، وأبو سريع الرهيب، وعدد من الأهل والأصهار، كل هؤلاء كانوا يجتمعون كعادتهم، ليناقشوا أمورهم، ومصالحهم.

وعندما تقرر إقامة مدرسة فى البلد، أصبحت هذه المدرسة موضوع أحاديثهم وعندما قابل الأهالى إقامتها بانزعاج، تضاعف إهتمام العمدة والأعيان بها. لكن أحاديثهم عن المدرسة قد كانت شيئا آخر.

- طبعا، جاءك سلاح يا شيخ الخفر!

- أنا لا تنقصنى الأسلحة. فى يدى أكثر من سلاح.

- لكن لا بأس من إضافة سلاح جديد.

- تهديد جديد...

- وضحايا جدد.

- ومكاسب جديدة.

- يا ناس!! كفى حسدا!! والله الشئ الذى تكثرون الحديث عنه، يصبح بلا بركة.

- حسد! يا عم هنيئا لك والمدرسة الإلزامى!!

- وهل أنا ناظرها؟

- بل أنت سجان من لا يرسل أبناءه إليها.

- وسيصبح لك فى رقاب أهل البلد نوع من النفقة الشرعية.

- الدفع...أو الحبس!!

- يا عالم اتركونى فى حالى.

- بشرط...

- أعرفه..وسأنفذه.

- على طريقتك؟

- بالحق..بالعدل!!

- عدل من يا عم؟! نحن نعرف عدلك. تأخذ مئات، ولا يظهر منها إلا ما تتكرم به أو تستغنى عنه، أو تضطر إلى إظهاره!

- أنتم تظلموننى..ثم إنى متنازل عن هذه الحكاية كلها. تفضلوا أنتم نفذوا القانون.

- ومن يقدر؟ سبع الليل واحد فقط!!

ـ والله أنتم لا تعرفون شيئا. أنا مصروفى كتير. كيف أحميكم؟ كيف أبعد عنكم الأذى؟ كيف أحقق لكم الأمن وراحة البال؟

- لكنا نسينا شيئا هاما. إننا لم نفكر فى المدرسة الجديدة. وماذا ستعلمه للأولاد؟

- ستعلمهم القراءة والكتابة.

- وستعلمهم الحساب.

- يعنى سيعرفون كيف يوقعون بأسمائهم.

- ولن يوقعوا على شئ لا يعرفونه...

- لن يبصموا على بياض.

- وسيحاسبوننا، لانهم سيعرفون ما لهم وما عليهم.

- لكن هذا خطر علينا.

- وعندما يعرفون، لن يرجعوا بعد ذلك إلى الوراء...

- طبعا لا يرجعون.

- الكتاب إذاً أحسن.

- لكن الكتاب قد علمهم أشياء خطيرة أيضا.

- طبعا ...علمهم أن كل شئ بيد الله، وانه وحده القادر والقوى وصاحب الأمر، وانه قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه.

- لكنا عودناهم على أننا نمثل إرداة الله فى البلد. طبعا هذه مشيئة وقد أراد الله أن يجعل الناس بعضهم فوق درجات، وأن يعطى ما يريد، لمن يريد، وأن الاعتراض على هذا كفر بالله وبإرادته. كل هذا عودناهم عليه.

- أما المدرسة فشئ آخر ... أنها ورقة وقلم. وكل شئ بحساب.

- ولن يدخل عليهم بعد ذلك أن الحساب لا يقبل جدلا أو مناقشة.

- أو أن هذا هو الدين...الدين...الدين..والسلام!أو أن القطن لا يكاد يغطى الحساب إلا بالكاد!

- كل هذا سيصبح فى الورق، مكتوبا ومحسوبا، بلا غلط ولا مغالطة.

- يا نهار أسود!! هذا شئ خطير.



وصاح العمدة فى غليظ!

- لكن لماذا تخيفوننا من الآن؟ المدرسة لم تفتح بعد، ويوم تفتح ستكون شيئا بغيضا جدا إلى الناس. سيهربون منها وسيهربون أولادهم لأنهم يحتاجون إليهم فى أعمالهم. وستكون هذه فرصة لسبع الليل، ليبتز منهم كل ماعندهم، والا ساقهم إلى المحكمة والسجن. ولا يزال الطريق طويلا جدا، حتى يحدث ما تتحدثون عنه. قد تمر سنوات طويلة، قبل أن يحدث هذا.

- لكنه سيحدث ذات يوم يا عمدة.

- سنكون قد متنا، وشبعنا موتا.

- أولادك يا عمدة. إلا تريد أن تؤمن حياتهم؟

- وماذا أفعل؟

- تحاول أن تقضى على هذه المدرسة يا عمدة.

- شئ غريب.

- وسيصادف هذا رضاء أهل البلد جميعا.

- نعم ستصبح فى نظرهم بطلا.

- لانك ستحمى الكتاب.

- وستحافظ على كتاب الله العزيز.

- وستحفظ للشيخ مختار، ما يجريه الله عليه من الرزق.

ويهب شيخ الخفر غاضبا :

- والقانون يا ناس. الحكومة تصدر قوانين ونحن نعمل على إهمالها!!

- أنت لا يهمك من القانون، إلا ما تكسبه منه. أما ما يصير إليه الأهالى بعد أن يتعلموا، فهذا شئ لا يهمك يا شيخ الخفر.

- أنا لن اسمح لأحد بالخروج على القانون. المدرسة مدرسة! والتعليم فيها إلزامى، ويجب أن يكون إلزاميا. مفهوم؟

- هناك حل.

- قولوا الحل، فإن كان معقولا نفذته.

- نطبق القانون، لتحبس أنت الأهالى أو يدفعوا. لكن نحاول أن تكون المدرسة مشلولة فى الحقيقة.

- كيف هذا؟

- يعنى تعلم ولا تعلم.

- أما أن تعلم أو لا تعلم.

- تعلم ...لكن تعليم كالجهل.

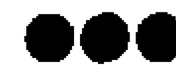
- يعنى تخرج ناسا يتعلمون أشياء لا تؤدى إلى شئ، ينسونها بعد أن يتركوا المدرسة.

وقال شيخ الخفر :

- والله هذا شئ لا أفهمه. اعملوا ما تشاءون. المهم عندى...

- نحن نعرف ما هو المهم عندك.

- إذاً اتفقنا.



ويخرج العمدة غضبان، فى صباح اليوم التالى، وبجواره أخوه سيد شيخ البلد وخلفها شيخ الخفر وعدد من الخفراء.

وهو لا يتجه إلى طريق المحطة، كما اعتاد، كلما ذهب إلى النقطة أو المركز.

ولا يذهب إلى الحقل، ولا إلى زيارة أحد من أهله.

لكنه يوغل فى حوارى القرية وطرقاتها، ويبدو شاردا مهموما.

ويتساءل الرجال وتتهامس النساء، ولا أحد يدرى إلى أين يتجه حضرة العمدة.

إن الناس يكتفون بالوقوف له، أو التنحى عن الطريق ليمر، أو الرد على ما يرسله من السلام. وقد يتجاسر بعضهم فيقول بصوت مرتفع : أتفضل يا حضرة العمدة أتفضل. وهو يعرف مقدما الإجابة على دعوته.

وبينما العمدة يسير، وخلفه هذا الموكب المهيب، فى رحلته تلك المفاجئة الغامضة، إذا به يقف أمام بيت الشيخ مرزوق، حيث كتاب القرية من قديم.

وعندما يقف حضرة العمدة، يقف الموكب.

وينادى أبو سريع على الشيخ مختار.

ويرد الشيخ مختار مستفسرا عمن يناديه.

لكن العمدة يقول فى تواضع : اتركه لمهمته الجليلة يا شيخ الخفر. لا يجوز أن نقطع عليه تحفيظه كتاب الله لأبنائنا. إن هذا شئ كالصلاة. أنها عبادة من أجل العبادات.

ويدخل العمدة، ليجلس إلى جانب الشيخ مختار على الدكة الخشبية، يسمع له وهو يحفظ الأولاد القرآن، ويلقنهم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب.

وعندما يستأذن العمدة فى الانصراف، يكون أهل القرية قد تجمعوا أمام الكتاب، يستقبلون العمدة وموكبه المهيب بالتكبير لله عز وجل والدعاء للعمدة بطول العمر والسداد فى تثبيت مكانة الكتاب، أمام المدرسة.

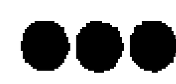
وعاد العمدة إلى الدوار كأنه ولى من أولياء الله الصالحين.

الدعوات حوله من كل جانب.

وأصوات الرجال تخنقها العبرات من فرط ما تركته زيارته للكتاب وللشيخ مختار من أثر فى قلوبهم.

وزغاريد النساء تملأ جو القرية بالفرح.

والشيخ مختار قد انضم للموكب، بعد أن أصر على أن يرافق العمدة حتى الدوار. وعلى طول الطريق، كان يدعو للعمدة بطول العمر والتوفيق.



وعندما يصل عبد المهيمن أفندى إلى هذه النقطة من الذكريات، يبتسم وهو يهز رأسه للشيخة تفيدة ولزوجته أم صلاح، ويتمتم فى صوت كأنه الهمس :

- الحمد لله ...الحمد لله. لقد كانت تجربة ضرورية لأهل القرية، تعرضوا أثناءها للتضليل والاستغلال. لكن الشيخ أبو عوف يرحمه الله، استطاع أن يضع حدا لهذا كله، وأصبحت المدرسة والكتاب شيئاً واحدا له أهميته لأهل القرية.

وابتسمت الشيخة تفيدة وهى تقول :

- والبركة فى سيدى أحمد الذكيرى، فقد اجتمع فى مولده الكتاب والمدرسة فى موكب لم تشهد له القرية من قبل مثيلا.

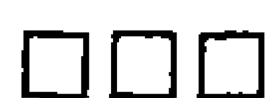
قال حضرة الناظر :

- هذا صحيح. ولقد كان هذا الموكب نهاية ما لقيته هنا من عذاب. وضحكت الشيخة تفيدة وهى تقول :

- قد يكون العذاب فى بعض الأحيان أحلى من النعيم. بل وقد يكون هو النعيم.

قال حضرة الناظر :

- أما وقت وقوعه فهو العذاب ...لا شئ إلا العذاب..وعندما يخف أو يزول، فعندئذ قد تصبح ذاكره نعيما أو كالنعيم، وقد يستحق أن يروى...للناس.



٢

..وهو حقيقة يا ست الشيخة، يستحق أن يروى للناس.

العذاب الذى قاسيته، قد أصبح اليوم ذكرى، جديرة بأن يعرفها الناس.

..لقد قلت لك أن القرية أدارت لى ظهرها عندما أقبلت إليها. نعم وكان مجرد سماع سببا لأن يثبوا مبتعدين عنى، كأنى بلاء.

وعجبت من هذا اللقاء!

وكنت وحدى يا ست الشيخة. أردت أن أقوم بدور الاستطلاع، ومعاينة المدرسة والبيت، وتجربة الحياة مع أهل القرية، قبل أن تحضر أم صلاح والأولاد.

لكنى تبينت من اللقاء الأول، أن الإقامة هنا، وبين هؤلاء الناس ستكون أمرا مستحيلا.

أقول لك الحق يا سيدتى، لقد بدأت التجربة كأنها مزاح. نعم وحملتنى أول الأمر على الضحك!

كنت أسأل عن المدرسة...

أين المدرسة يا حضرة. المدرسة الإلزامية؟

ولم يكن المسئول يجيب! لقد كان يتطلع إلى، وإلى البدلة التى أرتديها وإلى الطربوش فوق رأسى، ثم يدير ظهره لى، ويمضى مهرولا كمن لسعته النار !

وآخر كان يهز رأسه فى أسى، ويمصمص شفتيه فى عجب، ولا يحفل حتى بوجودى!

وثالث كان ينادى واحدا آخر، ويتهامسان، ثم يهز كل منهما رأسه للآخر ويمشيان!!

وأخذت أضحك من أعماقى.

وقلت فى نفسى : لولا إنى واثق أن هذه القرية فى مصر، وأن لغة أهلها كلغتى، لظننت إنى فى بلد أجنبى، يسمع إلى حين أتكلم، فيعجب لما يسمع من هذا الغريب.

هل تتكلم العربية يا ولد؟ أواثق أنت؟

هل لهجة الشرقية غير مفهومة هنا فى البحيرة؟

إذاً تتأنى حتى يفهموا منك.

وعدت أحاول يا ست الشيخة، فى صوت جهورى واضح، مفسرا كل كلمة أنطقها حتى أكاد أتهجاها، كأنما أنا فى امتحان!

لكنهم مع هذا لم يعبئوا بى، ولم يغيروا موقفهم منى.

وبدأت الأمور تشير إلى أن المسألة ليست تسلية، ولا مزاحا. أنها جد..يبدو انهم ناس جد، أو ربما صم بكم لا ينطقون.

لكنى سمعتهم يتحدثون بعضهم إلى بعض.

إذاً هم لا يريدون أن يتحدثوا إلى!

هل يقاطعوننى؟ هل أنا خصم أو عدو؟ هل أخطأت فى حقهم؟ إنى لم أتعامل معهم بعد. إنى لم أجلس إليهم ولم أتبادل معهم رأيا.

وقلت أسألهم سؤالا آخر غير هذا السؤال.

اقتربت من أحدهم وقرأته السلام، فرد السلام.

قلت : ما اسم هذه القرية؟

قال : وماذا تريد من اسمها؟

وحمدت الله إنى سمعت جوابا. نعم كان جوابا استنكاريا. لكن هذا لم يكن يهم. المهم أن تقوم علاقة ما مع هؤلاء الناس، ولو كانت علاقة خصومة وعداء.

قلت : وهل اسمها عيب؟

قال : من أنت؟

وخفت أن أقول له إنى ناظر المدرسة، فتعود العلاقات بينى وبينه إلى ما كانت عليه من الجمود والسكوت.

قلت : ضيف غريب من حقه أن يكرم.

قال : ضيف أم ناظر؟

قلت : وهل الناظر لا يكون ضيفا. أنا ضيف أولا، ثم ناظر ثانيا.

قال : من حظك إنى أحد خفراء القرية.

قلت : وماذا فعلته يا أخى؟ هل أسأت إلى أحد؟

قال : على كل، تعال إلى دوار العمدة.



وصحبنى إلى دوار العمدة.

وفى الطريق كان الأهالى يتجمعون، لتطلعوا إلى، وأنا أسير وراء الخفير أرتعد من الخوف.

كنت كالمقبوض عليه، متلبسا بجريمة ارتكبها.

وعندما تكاثف الناس من حولى، رأيتهم يتطلعون إلى فى تأمل. كانت الكراهية تطل من عيونهم، فكنت أتفادى نظراتهم، حتى آل أمرى إلى إنى أخذت أسير، وعيناى فى الأرض من الرعب.

لكن إذاى قد كانت تلتقطان كل ما كان يدور.

وسمعتهم يسخرون. وسمعتهم يتندرون. وسمعتهم يتوعدون. وسمعتهم يتصايحون :

- الله أكبر. الله أكبر. نعم أكبر من الحكومة، ومن المدرسة.

- يريدون أن يطفئوا نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

- الكتاب كالمسجد، والاعتداء عليه حرام.

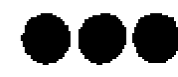
- والله لن تستطيعوا أن تغلقوا الكتاب أبدا.

- سنظل نرسل أولادنا إلى الشيخ مختار يحفظهم كتاب الله.

- لابد أن هذا هو عبد المهيمن أفندى، الناظر الذى أرسلوه.

- نعم هو ببدلته وطربوشه، لكن بلا بركة.

- ربنا يمد فى عمر الشيخ مختار ويعينه عليهم بأذنه تعالى.



وعندما وصلت إلى دوار العمدة، كنت قد صرت لوحا من الثلج.

كان العمدة جالسا فى الدوار، على كنبة عريضة تكاد من قصرها تبدو كأنها شلتة ملتصقة بالارض. وفوق المرتبة والمفرش، وضعوا سجادة عجمية بديعة الزخارف، ثم وضعوا فوق حضرة العمدة! وحوله مجموعة منثورة من المخدات والشلت!

نعم هكذا خيل إلى من اللحظة الأولى التى واجهته فيها.

فى فمه مبسم كهرمان، يتصل بنرجيلة تتوهج نارها فوق تبغ نصفه محروق، والنصف الثانى ينتظر دوره...ليحترق!

وأمامه على الأرض صبى صغير يجلس القرفصاء، وفى يده اليمنى مروحة من الخوص، يعالج بها النار حتى لا تخمد، وفى يده اليسرى ماشة يصلح بها قطع الجمر، ويسوى بعضها فوق بعض، فلا تتدحرج أو تسقط على السجاجيد.

وغير بعيد منه رجل من الاتباع يرقب النرجيلة، ليغير التبغ إذا فرغ، أو احترق، حتى يجد العمدة حاجته، كلما جذب نفسا من المبسم الكهرمان.

وفى ركن من الأركان تابع آخر يقدم مرة فناجين القهوة، ثم أكواب الشاى..ثم فناجين القهوة، ثم أكواب الشاى، كأنها مناوبة، مرة هذه ومرة تلك!

ولم يكن بجوار العمدة أحد!

كان وحده جالسا على الكنبة كلها!

وبرغم أن الكنبة كانت طويلة وواسعة، إلا أن أحدا لم يشترك معه فيها. هكذا، ليكون عمدة، بغير شريك!

على كل حال، لقد كانت القاعة مليئة بالكنب والمقاعد. وقد تناثر فى أنحاء القاعة خلق كثير يشربون القهوة والشاى، ومنهم من كان يدخن نرجيلة أخرى..وحدة، أو شركة مع آخرين.

وقلت فى نفسى : هذا شئ من هارون الرشيد. لكن مالك أنت وهارون الرشيد. المهم انه عمدة، يمثل الحكومة، وسيكون فى صفك، ويحميك من نظرات الكراهية التى قوبلت بها.

وعجبت لهذه الكراهية، وكدت أصيح :

أى ذنب ارتكبت؟ أنا موظف من موظفى حكومة صاحب الجلالة الملك، وقد كلفت بعمل من الأعمال، وأصبح واجبا على أن أؤديه، فلماذا أقابل هذه المقابلة؟

ولم أشأ أن أمضى فى هذا الحوار إلى شوط أبعد، ونظرات العمدة متجهة نحوى تستفسر من أكون، ولماذا صحبنى الخفير الذى قادنى إلى الدوار، وفيم تجمع الناس حولى.

وبدأت حضرة العمدة بالسلام، فرده بأحسن منه، ومد إلى يده مصافحا وهو يقف احتراما لمقدمى، ويدعونى إلى الجلوس إلى جواره.

وأسرعت بتلبية دعوته، حتى لا أكبده مشقة الوقوف.

قلت له إنى ناظر المدرسة الجديدة، وأن أسمى هو عبد المهيمن.

قال بعد عبارات الترحيب التقليديه المعتادة :

اسمع يا عبد المهيمن أفندى. إن بلدنا أخذت تعليمها من الكتاب. من حفظ القرآن ونور آياته وجلال تعبيره. كان الشيخ مرزوق ألف رحمة تنزل عليه يتولاه، ثم آل إلى الشيخ مختار تلميذه و وزج بنته وأخينا جميعا. وبلدنا لن تستبدل بالكتاب شيئا، حتى لو كان هذا الشئ هو مدرستك. فإن كنت تظن أن المدرسة ستغلق الكتاب، فأعلم أن الكتاب سيبقى مهما كان الأمر.

وعندما قال العمدة هذا ارتفعت أصوات خارج القاعة تكبر وتهلل وتدعو للعمدة بطول العمر، وللشيخ مختار بالنصر.

وفهمت أن العمدة يتعمد أن يلقى هذا الكلام ليسمعه الناس.

هى إذاً من قبيل خطب الانتخابات!

ولم أحفل بهذه التمثيلية.

لقد كنت مشغول بتمثيلية أهم. العمدة نفسه، قد كان _ فى شخصه، وجلسته، والجو الذى أحاطوه به، والوضع الذى أقاموه فيه _ تمثيلية أمتع!

صحيح أنا فلاح من إحدى قرى الشرقية، لكن لم يتح لى يا سيدتى أن أعيش فى القرية، لأعرف هذه التفصيلات من حياتها.

لقد هجر أبى القرية وأنا طفل عندما ضاقت به سبل الرزق، والتحق بعمل بسيط فى القاهرة، لكنه حاول فى العاصمة الكبيرة أن يحافظ على طبيعته القروية، وعلى أسلوب حياته، وعلى لهجته، وعلى تقاليد القرية بكل ما فيها من خير أو شر.

وبرغم إنى نشأت على حب شديد لقريتى، واعتزاز شديد بها وبتقاليدها، إلا إنى لا أستطيع أن أزعم إنى أعرف دقائق حياتها. لقد دخلت مدرسة عبد العزيز للمعلمين، ثم

اشتغلت معلما إلزاميا سنوات طوالا فى قرى مختلفة، حتى رقيت أخيرا ناظرا، وعينت لهذه المدرسة الجديدة.

هذه هى ظروف حياتى يا ست الشيخة.

وهى كما ترين خالية من تمثيلية رائعة، كتمثيلية العمدة التى كانت أول ما شهدت فى هذه القرية.

كانت فكرتى عن العمدة انه من أعيان الريف.رجل ككل رجال القرية، فيه خشونة القرية وصراحتها. وقد يكون من أثريائها، أو قد يكون من ذوى العصبية فيها أو قد يكون من شجعانها ...لكنه أولا رجل من رجالها.

لكن هذا الشئ الذى أمامى لا يعدو انه شئ، كالدمية يلعبون بها!

وكما يملأون الدمية "بالزنبلك" حتى تدور حول نفسها فيضحكون منها ملء أشداقهم، كذلك هذا الشئ، يحشون جوفه بالأكل والشراب والدخان، ويحيطونه بهذا الأسلوب اللين والاتباع، ثم يديرونه بما يريدون من الكلام، "كالفونوغراف"!

وكدت - لولا الحياء - أتحسسه، ليتأكد لى أن كان هذا الشئ رجلا أم انه على هيئة رجل!

على إنى وجدت أن أسلم طريق، هو أن أكسب هذا الشئ إلى صفى.

وقلت له فى طاعة وامتثال :

يا حضرة العمدة أمرك مطاع...أنت رئيس البلد، والرأى رأيك. وطالما أنك تريد للكتاب أن يبقى، فسيبقى باذنه تعالى. ولو شئت أن نلغى المدرسة، فسأحمل رأيك للمسئولين فى وزارة المعارف العمومية.

وعادت أصوات الرجال تصلنا من خارج القاعة، بالتكبير والتهليل والدعاء للعمدة بطول العمر، وللشيخ مختار بالنصر على المدرسة.

وهب رجل كالمارد... وصاح صيحة، انصرف الناس فى أثرها، وخلا دوار العمدة، إلا من رجال العمدة وحاشيته.

وعاد الرجل المارد إلى حيث كان من المجلس، وقال :

لكن هل سمعت يا حضرة العمدة؟ حضرة الناظر قال انه مستعد أن ينقل رغبتك إلى الوزارة. هل تريد إلغاء المدرسة يا حضرة العمدة؟ أنت لا تريد هذا يا حضرة العمدة.

وقال العمدة فى سرعة.

إلغاء المدرسة!! من قال هذا؟ إن القرى تتنافس على المدارس، وكل قرية توسط أحد الكبراء لتقام فيها مدرسة، فهل نطالب بإلغاء المدرسة، وقد أرسلها الله هدية لبلدنا؟ أنها بركة من بركات سيدى الذكيرى.

ونظرت حولى...إن صوتا لم يصلنا من الخارج، لا بالتكبير ولا بالتهليل، ولا بالاستنكار!! الناس انفضوا، ولو كانوا لا يزالون يتسمعون، لقال العمدة كلاما آخر!

وأخذت أتابع التمثيلية فى انتباه.

وارتفع صوت متردد يقول :

لكن يا عمدة المدرسة الإلزامية هذه. هل ستعلم شيئا لا يعلمه الكتاب؟ وأنت يا شيخ الخفر، ماذا يهمك من المدرسة؟! من يسمعك تنفخ هكذا يظنك ناظر المدرسة. انتظر أولا حتى نعرف حكاية هذه المدرسة.

وصاح الرجل المارد الذى صاح صيحة فرقت الناس :

اسمع يا شيخ البلد. أرجوك لا تتدخل فيما ليس لك فيه! هذه المدرسة مسئولة منى. الذين لا يرسلون أولادهم إليها، يحاكمون، ويحبسون أو يغرمون. حضرتك شيخ بلد على عينى وعلى رأسى، لكنك لن تنفذ القانون بنفسك. أنا الذى سأنفذ القانون. أنا الذى سأسوق العصاة إلى المحكمة أو البندر ليحبسوا، وأنا الذى سأجمع منهم الغرامات.

تفضل أنت تعهد بأنك ستنفذ القانون بنفسك، وأنا أخلى مسئوليتى عن المدرسة. هل فهمت يا شيخ البلد؟

قال صاحب الصوت المتردد :

هذا مفهوم يا سبع الليل. ومفهوم ما هو أكثر منه أيضا!

وعاد شيخ الخفر يصيح :

سنرجع إلى النغمة القديمة مرة أخرى. يا ناس، كفى!

وكنت يا سيدتى أدير رأسى بين الثلاثة، وقد عرفت من صاحب الصوت المتردد، ومن الرجل المارد الذى فرقت صيحته الناس.

واستمر شيخ البلد يسال عما سنعلمه المدرسة، أكثر مما يعلمه الكتاب.

قال انعمدة :

هذا ناظر المدرسة، هو أقدر منى على الإجابة.



وشعرت يا سيدتى إنى سأصبح جزءا من التمثيلية، التى كنت منذ قليل شاهدها الوحيد.

وعزت على نفسى، والعيون تتطلع نحوى تنتظر منى أن أجيب. لكن هل أقول الحق، فأغضب كل هؤلاء المتطلعين؟ أم أنافق، لأنال التكبير والتهليل والدعوات؟

فى تلك اللحظة يا سيدتى تمنيت لو انشقت الأرض وابتلعتنى. لكنى استخرت الله، وقلت فى نفسى : العمر واحد والرب واحد. قل الحق يا ولد وأجرك على الله.

وقلت : كلنا تعلمنا فى الكتاب. لكن هل هذا يكفى؟ هل يستطيع الكتاب أن يؤهلنا لدخول المدارس الابتدائية والثانوية والمعاهد العليا والكليات؟

قال شيخ البلد؟

ـ وهل بلدنا تريد أر سال أولادها إلى المعاهد العليا والكليات؟

قلت :

ـ أنتم تريدون ...ألستم من هذه القرية؟

قال شيخ البلد :

ـ لكنا نرسل أولادنا إلى المدارس فى ايتاى البارود أو كفر الزيات. ومنا من يرسل أولاده إلى دمنهور أو طنطا أو الإسكندرية أو القاهرة.

قلت :

ـ لكن سواكم لا يقدر على هذا.

قال :

ـ فإذا لم يكن قادرا على تعليم أولاده خارج البلد من أول مراحل التعليم، فسيستمر غير قادر على إرسالهم إلى خارج البلد، لتعليمهم بعد المرحلة الإلزامية.

قلت :

ـ إذاً يكتفون بمرحلة التعليم الإلزامى.

قال شيخ البلد فى شبه انتصار :

ـ وماذا تعلم هذه المرحلة أكثر مما يعلمه الكتاب؟

قلت فى غيظ :

ـ تعلم القراءة والكتابة.

قال :

ـ هذا يعلمه الكتاب.

قلت :

ـ وتعلم الحساب.

قال :

ـ وهذا أيضا يعلمه الكتاب.

قلت :

ـ وتعلم التاريخ والجغرافيا وغير ذلك من العلوم.

قال :

ـ والكتاب يحفظ كتاب الله، وهو أهم من علومك يا حضرة الناظر. كتاب الله يحوى كل شئ يا حضرة الناظر. وما فرطنا فى الكتاب من شئ.

قلت :

ـ صدق الله العظيم. هذا حق. لكن ...

قال فى ثقة :

ـ لكن ماذا!! لا لكن ولا غير لكن يا حضرة الناظر. يظهر أن حكومتك لديها "قرشين" تريد أن تصرفها.

قلت فى غضب :

ـ إننا نتعلم فى الكتاتيب منذ عشرات السنين، فماذا استفدناه منها؟

وتدخل العمدة، وتدخل شيخ الخفر، وتدخل عدد من الجالسين فى الدوار يدافعون عن الكتاتيب ويذكرون أفضالها.

ـ أنها حافظت على كتاب الله، فى عقول الناس.

ـ الخطوة الأولى فى طريق طلب العلم فى الأزهر الشريف.

ـ أنها مفتاح المعرفة حتى فى مدارس العواصم والمدن.

ـ أنها نور التقوى، يستقر فى قلوب أبناء القرى، وهم بعد أطفال صغار.

ـ أنها روح الهداية فى ضمير الفلاح، يزيده إيمانا بالله وأملا فى رحمته.

لكنى برغم هذا لم أتراجع عن أن المدرسة قد أصبحت ضرورة يفرضها التطور وأن الكتاب قد أدى دوره الهام، لكنه قد أصبح متخلفا عن طبيعة العصر الذى نعيش فيه. وأمام نظرات السخرية والتشكك، وجدت نفسى مضطرا إلى أن أغير مجرى الحديث، وأن أسال عن مكان المدرسة الذى وقع عليه الاختيار، وعن السكن الذى سأستأجره لإقامتى وإقامة عيالى.

قال العمدة :

ـ سيصحبك شيخ الخفر إلى المدرسة لتراها. أما سكنك فسندبر لك ذلك فيما بعد. لا داعى للعجلة، فانت باق معنا على الرحب والسعة حتى تستقر.

وشكرت العمدة على هذا الكرم ورجوته أن يسرع بتدبير سكن لى أستأجره لأرسل فى طلب عائلتى.

قال العمدة :

ـ على كل حال. شيخ الخفر يدبر لك ذلك أيضا.

وخرجت مع شيخ الخفر.

ولأول مرة أشعر إنى ضئيل!

لقد كان الرجل المارد يبدو إلى جوارى كأنه جبل، وكنت أكاد أحس أنفاسه تهب على وجهى كأنها ريح الخماسين. خطواته أيضا كانت دبيبا ثقيلا كأنما يحاول بها أن يخرق الأرض.

وشعرت أن المسافة إلى المدرسة طويلة جدا، تكاد لا تنتهى.

نعم وبدا لى عمرى لن يطول حتى أرى هذه المدرسة التى قدر لى أن أكون أول ناظر لها، وقدر لها أن تكون أول مدرسة تقع تحت نظارتى.

لكنى وصلت بصحبة الرجل المارد.



الله! هكذا تخيلتها، قبل أن أراها.

قال شيخ الخفر فى صوت غليظ اجش :

ـ الحمد لله أنها أعجبتك.

قلت :

ـ حقيقة أنها تبدو جميلة. أنا أحب المدرسة عندما تكون هكذا بحديقة أمامية كأنها تفتح ذراعيها لاستقبال الناس. سأجعل هذه الحديقة جنة، ليقبل عليها الناس سعداء مسرورين.

ومضيت أرى سعداء مسرورين.

ومضيت أرى بقية المدرسة.

إن هذه الحديقة الجميلة تؤدى بنا إلى صالة حولها أربع حجرات متوسطة.

وأحسست إنى طفل قدموا له لعبة جميلة وأخذت أقول :

هذه حجرتى... حضرة الناظر هنا. وهنا المدرسون والإدارة. وهذه مخازن، وهذه للنشاط المدرسى.

ونظر إلى شيخ الخفر كالأبله، وأخذ يستعيد ما سمعه محاولا أن يتبين معناه وسمعته يقول لنفسه :

إدارة..مدرسون..نشاط!! إيه؟ إدارة ..نشاط!!

لكنه على كل حال لم يدقق كثيرا فى هذا.

وتقدمته أحاول أن أكتشف بقية المدرسة.

وكان الفناء بعد هذه الحجرات واسعا. فكدت أرقص طربا، وأنا أصيح من فرحتى :

هكذا!..طابور الصباح سيكون رائعا. وهنا سيلعب الأولاد ألعابا رياضية. سيلعبون كرة السلة وألعابا أخرى مفيدة ومسلية.

وبدا وجه المارد الذى معى كأنه يحاول فهم ما يسمع.

ويبدو انه لم يدرك ماذا يقال، لكنه لم يهتم كثيرا بما يقال، فاكتفى بأن يسمع على طريقة "الأطرش فى الزفة"!

ووثبت إلى البناء المواجه للفناء، فوجدت حجرات أخرى، يصل عددها إلى ثمانية.

وعدت إلى شيخ الخفر أقفز وأثب، وأضرب كفا بكف وأنا أقول :

تعرف يا شيخ الخفر، والله كأنها بنيت لتكون مدرسة. لو أن الوزارة أرادت أن تصنع شيئا مثاليا، لما فعلت أكثر من هذا.

وفتحت كفى أريد أن أصافحه، فرفع كفه الغليظ إلى ما فوق كتفه وهوى به على كفى، فتلويت كمن مسته الكهرباء.

بينما أخذ هو يضحك ويقول :

مرحب..مرحب بحضرة الناظر.

ثم استأنف كلامه قائلا :

هذه المدرسة كانت قبل ذلك منظرة ودوارا، وكان الفناء الذى بينهما أرضا فضاء كالخرابة. فلما تقرر فتح مدرسة فى بلدنا حولنا المكان إلى مدرسة كما ترى. وقد أعجبت حضرة المفتش الذى جاء للمعاينة كما أعجبتك.

وسألته :

لكن من صاحب الذوق الجميل الذى اختار المدرسة؟

وقال وهو يضحك:

- صاحب الذوق الجميل.. لا أحد! انها المصادفة ياحضرة الناظر.

ولم أفهم عنه. ولقد مضى يقول :

لنا قريب نحس اسمه عباس. انه عديلى. حرمه أخت الست حرمى. وهو صعلوك ومتبجح! لا يجد القمة يأكلها، لكنه يجد الكلمة يصيح بها فى وقاحة. وجهه مكشوف يا حضرة الناظر. خلقه ربنا!! المهم أن زوجته ورثت عن أمها جرنا. كانا يظنان أن الجرن قد أصبح وظيفة، تدر عليهما مرتبا ثابتا لا يتأثر بشئ. لكن الجرن الوحيد لم يعد وحيدا وإنما أصبح فى خبر كان.

قلت له :

ـ أين ذهب؟

قال :

ـ لم يذهب. الجرن لو يذهب. الجرن بقى حيث كان قبلى البلد، لكن بلا محصول ولا درس ولا زبائن!

قلت :

ـ وأين ذهب الزبائن؟

قال وهو يضحك ضحكا عاليا :

ـ تفرقوا على أجران أخرى، أحسن ..وأفيد!

ولما عجبت للأمر نظر إلى وغمز بعينيه وقال :

من قدم السبت، لقى الأحد قدامه يا حضرة الناظر. وأخونا عباس قدم السبت. قدم الشر، فكان عليه أن يلقى أمامه الفقر والخيبة والندم.

قلت :

ـ يعنى كل ذلك كان مدبرا؟!

قال :

ـ لا والله.. شيطانى!! طبعا كان مدبرا يا رجل يا طيب.

وفهمت يا ستى الشيخة بعض السر، لكنى أشفقت على عباس هذا إشفاقا شديدا. لابد انه وقع تحت ضغط اضطهاد شديد.

وحرصت على أن أعرف ماذا حدث له.

قلت لشيخ الخفر :

وماذا فعل عباس بعد هذا؟

قال فى تعال، وهو يشد قامته، لترتفع أكثر مما كانت :

والله داخ يا حضرة الناظر. عض الأرض من الجوع والحاجة. لكنه على كل حال صهر لنا، فلم نشأ أن نتركه هكذا، من أجل امرأته وعياله على الاقل.

وكنت قد بدأت أشعر بعاطفة نحو عباس هذا المغلوب المضطهد، فأنصت إلى بقية الحكاية لأعرف ماذا انتهى إليه مصيره.

قال شيخ الخفر :

أرسلنا له، فرفض أن يحضر إلى الدوار، فذهبنا إليه وصالحناه. وكان يصر على أن تعود للجرن مكانته الأولى، لكن العمدة عرض عليه أن يحول الجرن إلى منظرة ودوار لأخيه سيد شيخ البلد وأن يؤجر ذلك منه نظير أربعة جنيهات كل شهر. وقبلت زوجته واشترط عباس أن يقوم العمدة بالبناء المطلوب وضحك العمدة وهو يقول : أبنى وأستأجر!! قال عباس : طبعا تعويضا عما أصابنا من أضرار!

على كل حال أقمنا قمينة، وحرقناها، ثم أقمنا المنظرة والدوار كما ترى.

أما عباس الخسيس، فقد ظل يشيع بين الناس الشائعات، وهو يردد كلامه الخائب :

هل يدفعون من جيوبهم؟ هذا بعض ما ينهبون! هو هكذا يا حضرة الناظر! لسانه كالفرقلة يطرقع على الفاضى!

وسكت شيخ الخفر قليلا ثم قال :

خسارة والله هذا الولد!..لقد كان عباس وهو صغير من أشجع شجعان القرية وأشقاهم. لقد دوخنى قبل أن أعرفه. أى والله دوخنى! كان يسرق البهائم بشجاعة نادرة! كان يحرق الزرع كأنه يتسلى بقتل الوقت! ومن جسارته انه كان يقتل القتيل ويمشى فى جنازته! قلت لك دوخنى. لكنى على كل حال عرفت كل شئ، فلم يستطع أن ينكر. كنت معجبا به حتى إنى رشحته للزواج من درة زمانها. الله يرحمك يا عمى الحاج سلطان. لم يكن راضيا بعباس زوجا لابنته. أقول لك الحق يا حضرة الناظر. أنا أيضا كنت أريد مصاهرة أسرة سلطان. وكنت أخشى أن يرفضوا، فقدمت "عباس" لدرة زمانها...

قلت له :

- جس نبض.

قال وهو يضحك :

- عليك نور. والله ناظر. ناظر مدرسة بحق وحقيق.

واستأنف روايته :

- فلما رفض الحاج سلطان، قلت له انه ولد شجاع ويهمنا أن نكسبه إلى صفنا. لا يمكن أن يستمر اعتمادنا على أجراء وتملية. لابد من أن تربطه بنا ارتباطات لا تنفصم.

وبعد أخذ ورد، وبعد أن دوخنى الحاج سلطان وهو يقول لى.. ابن عبد الباقى المفلس المغالط، المتهرب من دفع الديون، يتزوج بنتى!! وكم كنت أقول له انه من أجل الورد، ينسقى العليق، فيرد مهددا بأنه سيخرب بيت عبد الباقى وأسرته، وسيطردهم من البلد، فكنت أجيبه بأنه إذاً يجلب على نفسه المتاعب بيديه، وبدلا من أن يكون الرجل تحت طوعنا، يصبح فى قرية أخرى، قادرا على أن يهددنا منها. وكان الحاج يصيح غاضبا : من هذا الذى يهددنا؟ هل جننت يا شيخ الخفر؟ وكنت أشير إلى أن عباس بن عبد الباقى ولد مجنون ومتطرف، وليس من المصلحة أبدا تركه يخرج من بلدنا. وفى النهاية

تزوج عباس درة زمانها ومحيت السيئات، وزالت الديون، وأصبح الشيخ عبد الباقى مستورا كما كان.

قلت وأنا أبتسم له :

ـ وفتح عباس الباب لمن هو أشجع منه وأقوى..وأخطر.

قال فى رضى :

ـ تعجبنى يا حضرة الناظر. وأصبح شيخ الخفر صهرا للحاج سلطان.

وسألته :

ـ لكن ماذا غير "عباس" بعد ذلك؟

قال :

ـ الكيف... ولد خفيف. عقله خفيف وقلبه خفيف، والكيف أطار ما تبقى عنده من العقل والقلب.

قلت له فى تخابث :

ـ وهل هو وحده الذى ...

ولم يدعنى أتم، وقال :

ـ كلنا مثله، لكنا لسنا فى خفته. وهو أيضا يكثر منه. انه لا يفيق أبدا.

وبدت لى صورة عباس هذا قلقة مضطربة يائسة. أحسست انه يحاول عن طريق المخدر أن ينسى شيئا عميقا فى نفسه. لابد أن فى قلبه جرحا غائرا، ليس من السهل أن يندمل، وهو يدارى كل ذلك بالمخدر.

وقلت لشيخ الخفر :

ـ وهذه المدرسة مدرسة عباس؟

قال شيخ الخفر :

ـ يعنى!..انها مدرسة درة زمانها. لكنها أيضا لعباس بطبيعة الحال.وفى الحقيقة، هى للكيف يا مولانا. هل تعرف؟ إن الكيف كالناس له رزق. من بخت الكيف أن الوزارة استأجرت المدرسة بسته جنيهات فى الشهر، بعد أن كان العمدة سيدفع أربعة. جاءت من عند ربنا. رزق. يا ترى هل سيرضى عباس ويسكت ويستكن؟ يا ليته يفعل، ليريح وليستريح. لكن أبدا. قلت لك انه مسحوب من لسانه.

قلت لشيخ الخفر :

ـ لكن يظهر أن هناك أسباب لدى عباس لا يفصح عنها لأحد.

قلت شيخ الخفر :

قلت :

ـ أسباب؟! أبدا. انه يأكل ويشرب ويدخن ويملأ دماغه على حساب غيره. ماذا يريد؟

قلت :

ـ ربما كانت هذه هى الأسباب.

قال :

ـ يحمد ربنا.

قلت :

ـ عندك حق، لكن هو قد يرى فى ذلك ما ينتقص من رجولته.

قال :

ـ ولماذا يقبل؟ وماذا يفعل إذا لم يقبل؟ أحسن له أن يدع الطبق مستورا.

قلت :

ـ ولماذا لم تجربوه فى عمل؟

قال فى استنكار :

ـ عمل؟! قلت لك انه لا يفيق!

لكنى ألححت فى الحديث عن الموضوع. قلت :

ـ ذلك لأنه يحس فراغا قاتلا.

قال فى استخفاف :

ـ وأى عمل يصلح لهذا الغائب عن وعيه؟

وأردت أن أنتهزها فرصة فسألته :

هل تفوضنى فى تقديم اقتراح؟

قال :

ـ يا ليت.. تفضل اقترح.

قلت :

ـ لماذا لا يصبح عباس وكيلا لشيخ الخفر؟

وضحك ضحكة طويلة، دون كلام. لكنى تابعت كلامى معه قائلا :

تذكر أن الحاج سلطان كان يرفض زواجه من بنته، لكنك أقنعته، لينطوى تحت نفوذ أسرة سلطان. لنفس الأسباب، تستطيع أن تجعله وكيلا لشيخ الخفر. سيصبح رجلك أنت. هو صهرك وعديلك، وفى النهاية سيحن إليك ويفضلك.

قال :

ـ وإذا تمرد على. إذا تطاول. ستكون إما نهايته أو نهايتى.

قلت :

ـ يا شيخ الخفر أنت رجل قوى. أنا لم أعرفك إلا منذ ساعة أو أكثر قليلا، لكنى أكاد أؤكد أنك أقوى رجل فى هذه الناحية. هل يستطيع عباس أو غير عباس أن يتمرد عليك... أنت؟!

وارتسمت على وجهه علامات الرضا، وقال :

هيه؟..على كل حال هى فكرة..يصبح طرطورا، بلا نفوذ! لا مانع..أما إذا..لا والله..وكيل شيخ الخفر..ها..ها..ى!

وأخذ يضحك حتى كاد أن يستلقى على قفاه!!



لكن عباس قد أصبح وكيلا لشيخ الخفر. اقتنع أبو سريع بالاقتراح وقال لى بعد ذلك بأيام :

اسمع يا حضرة الناظر. أنا سأعين "عباس" وكيلا لشيخ الخفر. انه الآن بلا عمل كما قلت، وقد تصرفه المسئولية عن الكلام الفارغ الذى يردده، وعن الشائعات التى يروجها. سيصبح مسئولا. سيصبح مثلى ومثل العمدة وشيخ البلد والخفراء. حتى الناس لن تصدقه إن أراد بعد ذلك أن يقول شيئا. بل ولن يطمئنوا إليه! هذا أحسن على كل حال، من تركه يمرح بلا قيد، يقول ما يقول، ولا نستطيع أن نحاسبه! طبعا صهر لنا، وعند اللزوم يترك زوجته علينا!! لأ لأ... الحقيقة رأيك فى محله لابد من كشفه أمام الناس. لابد من عزله عنهم. يدخل معنا فى "الحَيَّة"!!

وعاد أبو سريع يضحك، فتهتز كل عضلات وجهه فى انفعال، ويرتج المكان الذى يطلق فيه ضحكاته، كأنه الزلزال!!

وقد كنت حريصا على أن أراه : عباس ابن الشيخ عبد الباقى، صاحب اللسان المفلوت، والغائب عن الدنيا، فى الملكوت.

وعندما رأيته، شعرت انه رجل طيب، وانه مغلوب على أمره. كريم فيه شهامة. واضح التفكير مستقيم. لا يخطر على باله السوء ولا الأذى. يحب الناس ويعطف على الضعفاء والمحتاجين.

وتقدمت إليه أصافحه، فشد على كفى فى ود ورحب بى فى صدق، وقال وهو يطيل النظر إلى :

إن شاء الله يا حضرة الناظر ستجد أن أولاد بلدنا فيهم ذكاء وفطنة. إن أرض بلدنا أرض خصبة، وهى لا تنبت إلا الزرع الطيب. من يدرى ربما يخرج من بلدنا مأمور نشيط، أو مفتش مشهور، أو مدير..وقادر ربنا يخرج منها وزير. هل هذا كثير على ربنا؟

قلت له وأنا لا أزال أشعر بحرارة كفه تسرى فى كفى :

- وهل الوزير أفضل من أهل هذه القرية؟ انهم قوم طيبون وأفاضل، ويستحقون كل خير.

قال فى سرعة، وكأنما كان يتلقف كلماتى :

- أى والله يا حضرة الناظر. قوم طيبون وأفاضل. لكنهم مساكين ضعفاء متوكلون على الله، ولن يخيب الله رجاءهم فيه.

وتظاهرت بالغباء فقلت له :

- الحمد لله ربنا يسرها لهم من فضله. هذه الساقية التى لا تتوقف، وهذه الترع والقنوات التى تتفرع عنها لتتخلل الحقول. ثم هذه الهمة وهذه النشاط. كل هذا من فضله.

ونظر إلى عباس طويلا، وهو ساكت ثم ابتسم فى فتور وهو يقول :

- أنت لا تدرى يا حضرة الناظر. على كل حال هذا أحسن لك. يجب إلا تدرى لتظل مرتاح البال مطمئن النفس. دعك من هذا كله. التفت إلى المدرسة وإلى الأولاد. ولتأخذ بالك منهم. انهم يستحقون رعايتك.

وأحسست أن كلماته تخرج من بين شفتيه مبللة بالدموع!

وسألته :

- طبعا أنت تستعد للوظيفة الجديدة.

وضحك وهو يقول :

- طبعا. وكيل شيخ الخفر. أبهة!

قلت فى تعجب :

ـ ألا تعجبك؟

قال فى تواضع :

ـ وأقل من هذا يعجبنى. أنا رجل راض بنصيبى من الدنيا.

قلت لأرضيه :

ـ وقد وصلت إلى ما يطمع فيه الناس.

قال :

ـ الحمد لله :

ولم يستطع أن يخفى روح الفكاهة فأردف يقول :

ـ الذى لا بحمد على مكروه سواه!

قلت كأنى ألومه :

ـ يا رجل. أنت فى نعمة يتمناها كل أهل البلد.

قال :

ـ وأية نعمة؟ انه ستر ربنا يا حضرة الناظر. كله من أجل الستر. نعم كله يهون من أجل الستر. أين كنا وكيف أصبحنا؟!! الحمد لله.

ولم أستطع أن أنطق بحرف. شعرت انه يستعيد ذكرياته الأليمة، فلم أشأ أن أزيدها غورا فى قلبه.

وفجأة، تركنى وانصرف، دون كلام ولا سلام، كأن لم يكن بيننا شئ!

لكنه إنسان عباس هذا. لقد عاد إلى فى اليوم التالى ليعتذر عمن اقترف من الذنب فى حقى. وحاولت أن أخفف عنه ما يعانيه من الضيق، لتصوره أنى حانق عليه، كاره لتصرفاته. لكنه أخذ يعتذر، وكانت كلماته صادقة ومؤثرة.

أنت ضيفنا يا حضرة الناظر. من حقك علينا أن نضعك فى عيوننا. واجب علينا نكرمك ونحدثك برفق ولين، ونراعى خاطرك فى كل شئ. أنت غريب، والغريب حساس سريع التأثر، وهو مع هذا يتعرض لكثير من الحرج. أنا أقدر هذا. أنا أعرف هذا. أنا مثلك حساس وسريع التأثر. كلمة صغيرة تفرحنى، وكلمة أصغر منها تبكينى. والله يا حضرة الناظر أنا لم أنم لحظة واحدة ليلة أمس، ولولا أنى خفت أن أزعجك لأتيت لك فى نصف الليل لأصالحك وأعتذر لك. سامحنى. والنبى لا تكونن حانقا علىَّ، لأنى تركتك بغير سلام!

ولقد شعرت انه يبالغ فى الاعتذار مبالغة كبيرة، فأردت أن أغير من جو المناقشة وقلت له :

يظهر أنك _ كما يقولون _ تعيش فى خيالات.

وسكت..ونظر إلى فى عتاب بالغ ثم قال :

أنت أيضا! وصلوا إليك أنت أيضا! وبهذه السرعة! الله يسامحهم! الله يسامحك!

وانصرف فى تأثر وهو يهز كتفيه، دون أن يضيف إلى ذلك كلمة واحدة.

وشعرت بأنى قسوت عليه، هذا الرجل الطيب.

ولست أستطيع يا سيدتى أن أصف لك مدى الشعور الذى جرفنى، وهو أنى آثم مذنب، قابلت رقة الرجل، بالغلظة والجفاف.

وبعد أن كان هو الذى يعانى من شعوره بأنى قد أكون متألما لإهماله لشأنى، أصبحت أنا الذى يعانى من شعورى بأنى قد أهنته.

وأخذت ألوم نفسى، وأزجرها.

هل هو المفلوت اللسان أم أنت؟!

انه أكرم منك بلا جدال. جاءك يعتذر فصفعته!

أنت نذل وخسيس!

ألا تعرف انه مريض؟ لكنك تعايره بمرضه وبعلته؟

أكنت تقبل، لو أنك فى مكانه؟

ثم هو رجل كبير، بدأ الشيب يخط خطوطه على رأسه، وفى وجهه، وحول عينيه، ولا تزال أنت فى عز الشباب.

أم أنك ناظر المدرسة، تتعالى بمركزك على عباد الله!



وشعرت يا سيدتى بالخزى مما ارتكبته.

وما أقسى أن يشعر الإنسان انه أهان شخصا طيبا مريضا مغلوبا!

صدق عباس، فقد كان يقول لى انه لم ينم ليلته كلها، وانه كان على وشك الحضور إلى فى نصف الليل لولا خوفه أن يزعجنى.

أنا أيضا لم أستطع أن أنام ليلتها. وفى صباح اليوم الأهالى أخذت أبحث عنه دون جدوى.

وظللت أبحث عنه بعد ذلك، فكأنه فص ملح، ذاب!

وعندما وجدته بعد ذلك، كان وسط جماعة من أصدقائه، فلم أستطع أن أختلى به أنى. حاولت، لكنه كان حريصا على إلا تكون بيننا خلوة.

وتبعته بعد ذلك، لكنى لم أنجح أنى فى أن أظفر به وحده.

مرة فى مجلس حضرة العمدة فى الدوار، يسمع ويتحدث فى براءة وصراحة، يقول كلاما مطلقا غير مقيد.

ومرة مع أبو سريع، على مصطبة من مصاطب القرية، يتبادلان الأحاديث عن القرية وأمنها، وعن الأهل والأولاد.

ومرة مع الشيخ سيد شيخ البلد، يضحكان أو يتعاتبان.

وبرغم إنى كنت أحاول أن أنفرد لأعتذر له، وأستسمحه، إلا انه كان حريصا على إلا أنه كان حريصا على ألا يلقانى إلا بين الناس. ناس كثيرين. كأنما كان يخشى أن يعطينى هذه الفرصة.

وأخذت أعجب وأضحك.

لماذا يهرب منى؟ هل يخافنى؟ هل يخشانى؟

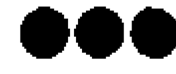
أترى يعرف أنى أريد الاعتذار وطلب العفو؟

أم يتصور أنى قد أعمد إلى مزيد من الإهانات؟

أم لا هذا ولا ذاك، ولكنه يبحث عن الثواب عن طريق أخطائى!! انه يريد أن يدخل الجنة على كتفىًّ!! أحمله إلى سيدنا رضوان على عنقى!! طبعا أنا المخطئ، أنا أذهب إلى الجحيم، لكن بعد أن أوصله إلى الجنة!!

واستقر أخيرا رأيى على أن أذهب إليه فى منزله.

وعرفت أن الموعد المضمون الذى يمكن أن أجده فيه فى منزله، هو ما بين المغرب والعشاء.



وعندما ارتفع صوت الآذان لصلاة المغرب، كانت القرية فى أول الصيف ترفل فى ثوب بديع من الزرقة. وتلك الخضرة المنسابة حول أرديتها، كانت تحدد أطرافها وتحليها. وفوقها استدارت السماء تتوج هامتها، بلون لا هو الصفرة ولا هو الحمرة، ولا هو بنفسجى أو وردى ولكنه ذلك كله يتجمع فى أبهى لون تسجله لحظات الغروب.

وشعرت بأن هذه الطبيعة الرقيقة تحملنى على أطرافها، كأنما أنا طير.

وكنت كلما تطلعت إليها، كلما فنيت فيها، حتى لقد صرت جزءا صغيرا منها يتمنى إلا يكون بينه وبينها انفصال.

وتردد الآذان للصلاة، مع خفيف الشجر، مع أغانى الطير، مع دورات الساقية المنتظمة التى لا تكل. مع أصوات خَفِرة حبيبَّة تقابل زفرات العشق بالحذر. مع دقات قلبى الغريب، وهو يهفو نحو الصفح على أثر شعور آثم.

إن رقة هذه الطبيعة البكر، تضاعف الشعور بالذنب.

وتلك الطهارة النقية، تجعل من هفوة اللسان، جريمة لا تغتفر.

قلت لنفسى : هكذا يستطيع المجتمع أن يعالج عيوبه، وأن يتخلص من أخطائه.. بمزيد من التسامى والطهر.

وأدركت لماذا تصر الأديان على الصلوات.

وشعرت أن فى عينى بضع دمعات تبحث عن المنحدر، لكنى آثرت أن أبتلع دموعى، أو أن أختزنها رصيدا للتوبة.

وترددت بين الذهاب إلى الجامع لأصلى المغرب، ثم أقصد بيت عباس، أو أن أتجه إلى بيت عباس مباشرة.

وكنت قد بدأت أحب جامع هذه القرية على صغره وتواضعه. وكنت قد بدأت آلف صوت الشيخ مختار وهو يؤم الناس للصلاة.

لكنى كنت أعرف أن الشيخ مختار يعطى درسه بين المغرب والعشاء، وانه سيكون صعبا على أن أترك الجامع قبل أن يفرغ الدرس.

ثم من يدرى، ربما جرتنى مناقشة مع الأخرة إلى الانشغال عن عباس، وأنا أريد أن أراه وأن أنفرد به، ولم أعد أطيق الانتظار.

واستخرت الله، وقررت أن أذهب إلى عباس، فلا يزال وقت المغرب ممتدا حتى العشاء، فإن ذهب الوقت، فلا ضير أن أصلى المغرب قضاء..يوما!



وبينما أنا أسير فى طريقى إلى بيته.

وبعد أن استقمت فى أحد الممرات الطويلة. ثم استدرت إلى يمين لأتخذ إليه إحدى القنوات التى تحيط بالقرية من الشرق، بعيدا عن البيوت، وعن الزحام وعن الفضول.

وعندما أخذت أتطلع إلى الأفق فى شبه صلاة، وأملأ عينى من التكوين الرائع الذى يربض عند مدخل القرية، كأنما يحرسها.

وفى الوقت الذى أخذت أتحدث فيه إلى نفسى عن شجر النخيل، والجميزة القديمة، وصفصافة "أبو المكارم" والساقية وأبراج الحمام.. وقبة سيدى الذكيرى.

ومع ترديدى لبعض أبيات من الشعر، وترنمى ببعض مقاطع من غناء، أكمل بها شعورى بهذا الجمال الهادئ الرزين.

..رأيته!! عباس عبد الباقى يتقدمنى غير بعيد منى.

وكنت على وشك أن أناديه، فهذه فرصة قد تفلت أيضا. لكنى أمسكت نفسى وآثرت أن أتعرف أولا على اتجاهه، فإن يكن عائدا إلى داره، ناديته وهو يدخل لأزوره، أنهى معه حاجتى.

لكنه لم يكن عائدا إلى داره، فقد تجاوز الطريق المؤدى إليها، ومضى.

هل أتبعه؟ هل أناديه؟ هل أستوقفه؟

..بل أتركه فى صمته، وسكينة نفسه. انه يبدو كمن يتعبد، أو كمن يتذكر. والعبادة والتذكر شيئان، لكن كلا منهما يصلح للآخر سببا أو نتيجة.

لا أدرى! إن شيئا خفيا يشدنى إليه. أنى أحرص على أن أعرف إلى أين يسير، وأى هدف يتجه إليه.

وخجلت من نفسى يا سيدتى، فإن ذلك الفضول شئ لا يليق! قد يكون الرجل ذاهبا يلبى نداء نزواته! وقد يكون فى طريقه إلى مقابلة يحب إلا يعرفها الناس!

لكنى لم أستطع أن أقاوم الرغبة فى أن أسير وراءه.

وسار عباس غير عابئ بشئ. وسرت وراءه مشدودا إليه.

ومررنا ببيوت القرية المتطرفة فى الناحية الشرقية، وبعد أن مررنا كذلك بالساقية من بعيد، استدار عباس إلى يمين على حافة قناة من القنوات، ثم سار فى ثقة وهدوء: ظهره إلى الساقية ووجهه إلى الغرب.

هذا غيط العمدة، وهذه حديقته. أنا الغريب الوافد منذ أيام إلى هذه القرية أعرف هذا، وأعرف كذلك أن الساقية قد آلت إليه، نظير تنازله عن خمسة أفدنة من ميراثه تنفيذا لوصية رأس الأسرة الكبير.

وعند رأس الحديقة، فى قمتها، ينحنى عباس إلى اليمين، ليدخل خصا من الخوص تلتف به الطبيعة من كل جانب، حتى تكاد أن تخفيه.انه مستكن فى قلب الطبيعة كأنى السر..أو كأنى الضمير.

لكن ما شأن عباس بهذا الخص؟

انه خص خال ومهجور، ويبدو انه أقيم لخفير يحرس منه الحديقة والغيط.

والحقيقة يا سيدتى أنى كنت كلما تبعت عباس، كلما أصبحت أكثر اهتماما به إلى درجة أنى - لولا الحياء - كدت أقفز إلى حافة الخص لأسترق السمع، وأعرف لماذا هناك.

وعلى كل حال، لقد فعلتها.

قفزت إلى حافة الخص، ووضعت أذناى على جداره لأسمع ما يدور.

ولم اصدق أذنى. خشيت أن أكون نائما، أو أن أكون قد أصبت بدوار أفقدنى شعورى. لكنى تحسست أطرافى، فتأكد لى أنى مستيقظ، وأنى لست فى حلم، وأنى شديد الشعور بما حولى.

هى إذاً حقيقة أن "عباس" فى الداخل، ومعه شخص آخر، وأن الحوار الذى أسمعه، ليس وهما، ولا هو من عمل الجن.

وزادت حيرتى، عندما تبين لى أن الصوت الأخر صوت امرأة.

..حتى أنت يا عباس!!

وفيم إذاً هذه الطيبة التى تتوج هامتك، وتكاد أن تقطر من بين شفتيك؟ فيم هذه الاستقامة التى تتردد عنك، لولا هذا المخروب، الذى يخرب بيتك، ويخرب كذلك دماغك؟ كلها إذاً حيل مصطنعة بغير أساس. ما أمكرك! ما أخبثك!

ويصل إلىَّ صوته، ويصل إلىَّ صوتها، قرية أخرى معها داخل الخص.

- كيف حاله يا خالة؟

- بخير وهو يهديك السلام، ويبلغك انه مشتاق إليك ويتمنى لو استطاع أن يحضر ليراك.

- ليته يفعل. أنى أكون سعيدا جدا لرؤياه. وهل يريد شيئا من هنا؟ أى شئ يا خالة؟

- أبدا ...إن كل ما يريده، هو أن يطمئن عليك، وعلى أقاربه هنا، وعلى الأمور، وكيف تسير.

- وهل بلغته ما قلته لك؟

- نعم وقد ضحك ملء شدقيه. وهو يقول سيصبح عباس وكيلا هماما لشيخ خفر منحوس.

وكدت ألمح فى وجه عباس ـ رغم أنى لا أراه ـ انه سعيد كل السعادة لهذا الكلام الذى يسمعه. يضحك ويستزيد السيدة الراوية أن تعيد عليه الرواية، وكانت نبرات صوته تصلنى وقد انفرجت عن أسارير سعيدة ومرحة. وعاد الحوار بينهما.

- لكن لم يقل لك شيئا آخر عن هذا الموضوع؟

- قال كلاما كثيرا يا وكيل شيخ الخفر.

- بالله عليك يا خالة تقولينه لى. لا تنسى منه حرفا. أنت تعرفين مدى حرصى على أن أعرف كل شئ.

- قال ...نعم يا سيدى. قال..نعم تذكرت. قال على الأقل يكون فى بلدنا شخص واحد ...نظيف.

وكدت أرى رقبة عباس - برغم أنى لا أراه - قد تطاولت فى زهو.ومضت السيدة تقول :

- قال يا بنى... لا تؤاخذنى هذا كلامه لا كلامى، وستلتقى به ذات يوم لتتأكد منه. قال يا سيدى : نعم نعم، عباس دائما "مسطول"! لكنه أشرفهم جميعا، ولا تؤاخذنى يا بنى... لقد أضاف كلمة شديدة قليلا.

وصاح عباس فى اغتباط :

- أنا عمرى ما تضايقت منه. انه رجل. رجل بحق وحقيق يا خالة ربنا يحميه. لماذا قال؟

- قال عنك أنك أشرفهم، وأنك كذلك أخيبهم!

وضحك عباس من قلبه وهو يسأل :

- وهل لم يفسر يا خالة؟

- قال يا بنى انهم جميعا "مساطيل"، لكنهم يمسحون عارهم فيك، لتدارى عنهم.

- هذا صحيح. والله صحيح. كلهم "مساطيل" أكثر منى، لكنى وحدى حملت هذا الوزر عن الجماعة كلها. هذا نصيبى يا خالة.

ماذا أفعل؟

وسكت عباس قليلا ثم قال :

- وهل سلمته الأمانة؟

- نعم، لكنه ردها، ومعها خمسة جنيهات. خذ...

وكدت ألحظ على عباس _ رغم أنى لا أراه- انفعالا شديدا جدا. صوته ارتفع، وتهدج، واضطرب ..وصاح :

- يا خالة!...لابد أنك لم تنقلى إليه الرسالة تماما.

- والله يا بنى نقلتها له كما قلتها لى.

- إذاً كرريها على. تصورى أننى هو وقوليها مرة ثانية.

- قلت له أن "عباس" أرسل إليك هذا المبلغ البسيط، فقد تحتاج إليه فى محنتك، وهو يقول لك أن "الاشيا معدن"، وأن له دخلا ثابتا الآن، كموظفى الحكومة.

- هذا شئ جميل. وهل أضفت له انه بعد أن أصبح وكيل شيخ الخفر فإن ذلك سيجعل الحكاية..يعنى شيئا مهولا؟

- بل أنى قلت له كذلك أن الحكومة ستؤجر المنظرة والدوار مدرسة، بستة جنيهات فى الشهر، بدلا من الأربعة التى كان العمدة ينوى دفعها.

- ومع هذا أعاد المبلغ يا خالة؟!

- نعم يا عباس يا بنى.

- هذا ما لا أعقله ولا أفهمه! لماذا؟

- لو أنك صبرت لعرفت رده.

وكدت ألمس من مكانى كيف أن "عباس" _ برغم أنى لا أراه _ قد انتفض من الفضول، وهو يقول :

- لماذا كان رده؟ نعم لماذا؟ لماذا بالله عليك يا خالة؟

- لقد قال قولى لعباس أنى مقدر جميلة..انه دائما رجل وشهم.لكنى مرتاح ومعى نقود. وقولى له أن أصدقاء كثيرين لى قد تجمعوا ونظموا أنفسهم تماما، وأن عندهم المال اللازم. وقولى له هذا المبلغ سيحل عدة مشكلات للناس الطيبين البسطاء الفقراء الذين دوخهم الظلم والاضطهاد. فى القرية المظلومة كثيرون يحتاجون لأى شئ..أما هذه الجنيهات الخمسة، فقولى له يتولى أمرها حتى تصل إلى المساكين المضطهدين الذين ألقى بهم الجبروت على حافة ترعة فى أطراف إحدى قرى البحيرة، مع الذباب والدواب والزواحف وقطاع الطريق.

- فهمت..فهمت!..

- وأضاف يا بنى أن الدنيا كلها نسيتهم، هؤلاء المساكين.

- صدق والله...عنده حق.

- ولم يكن لهم فيما حدث ذنب.

- نعم.نعم والله يا خالة. أبرياء، وشرفاء.

وكدت أشعر بحرارة نابضة، مع دموع عباس التى أخذت تتساقط فى أسى _ رغم أنى لا أراه _ وأضاف :

- وهذا المبلغ الذى رده، سأضيفه أنا إلى الجنيهات الخمسة.

- سيكون هذا فضلا كبيرا منك يا بنى.

- فضل!! أى فضل يا خالة؟ اننا لن ننساه، ولن ننسى شهامته.

- والله يا بنى سيكون مما يذكره ويحمده لك أن تواليهم بالرعاية والعناية. اسأل عنهم بين الحين والحين. اطمئن عليهم. كن لهم أنت، بعد أن انقطع عنهم كل شئ.

- ألاَّ رحمة الله يا خالة. إلا رحمة الله.



وعندما وصل حضرة الناظر إلى هذه المرحلة من روايته، كانت الشيخة تفيدة قد أخذت تهتم اهتماما بالغا، واختلط عليها الأمر حتى لم تعد تعرف أى صنف من الناس، عباس هذا، وما قصة هذه المرأة التى يلتقى بها هنالك، فى خص بعيد مهجور، عند قمة حديقة العمدة على حدها الغربى، أمام الساقية التى تقع هناك على الحد الأخر، عند جسر الرياح. وهذا الخص...أليس هو الخص نفسه الذى حدثها عنه جلال؟! أليس هو الخص نفسه الذى ولد فيه جلال؟! أليس هو الخص نفسه الذى عاش فيه أبو عوف وأم الهنا، وسميتها الضحية الشهيدة : تفيدة؟

ودارت بها الأرض، وغامت فى عينيها الدنيا، وهى تسأل نفسها أكثر من سؤال، لكن سؤالا واحدا كان يحتاج إلى جواب :

هل للخص صلة بالرواية؟

وهل كان للقاء عباس بهذه المرأة فى هذا الخص، صلة بالذين رحلوا؟! هل هذا اللقاء، فى الخص مقصود؟!

وبدأ عقلها يتحرك بسرعة، يريد أن يلتقط كل حرف، وكل كلمة يقولها حضرة الناظر، وهو يروى الرواية.

ولم تستطع أن تسأله، لم تكن تريد أن تسأله، فإنها لتخشى أن يؤدى سؤالها إلى نوع من الربط أو الاستنتاج، وهى فى غنى عن المتاعب التى قد يؤدى إليها أى ربط بين الحوادث، أو استنتاج لما وراءها من أسرار. إن ابنها هذا النائم على حجرها قد أصبحت له عليها حقوق، أن تكون أكثر حذرا وأكثر يقظة.

وأغناها حضرة الناظر عن السؤال، فقد مضى يستأنف روايته.

قال :

- إن هذا الحوار قد أثار فضولى، وبينما كنت مشدودا إليه بكل أعصابى، إذا بأصوات مختلطة متداخلة يبدو فيها صوت العمدة، وصوت شيخ الخفر، ومعهما بعض الأهل والأعيان، تقترب.

وأصابنى نوع من الشلل.

هل أبقى حيث أنا، مختبئا هكذا فى هذا المكان؟ فإن مروا بى، ورأونى. لماذا يظنون بى، فى هذا الوضع، وفى هذا المكان؟

فإن قفزت من مكانى، فقد يتنبه لى عباس، فيصبح الأمر أكثر حرجا معه، وبدلا من أن أحل العقدة بينى وبينه، فأنى أزيدها تعقيدا.

ويبدو أن "عباس" قد كان فى نفس الحالة من الحرج، فقد وثب إلى خارج الخص، وخلفه وثبت المرأة صاحبة الصوت.

ووقفا على حافة القناة غير بعيد من الخص، وتلامست أطراف أصابعهما، وهما يفترقان، مضت هى يمنة، وسار يسارا.

وفى الطريق إلى الساقية، على هذه القناة الصغيرة، التقى عباس بهم.

قال شيخ الخفر فى تهكم :

تحرس الحديقة يا وكيل شيخ الخفر؟

قال عباس :

البركة فيك يا شيخ الخفر.

وضحكوا جميعا كأن لم يحدث شئ.

وكانت هذه فرصتى لأتسلل دون أن يرانى أحد.

وظلت الشيخة تفيدة تسمع، وظل حضرة الناظر يحكى :

أصدقك القول يا سيدتى، أنى لم أستطع أن أمنع نفسى من الفضول. وكما أن "عباس" قد كان مغرما بالكيف، فقد أصبحت أنا مغرما بعباس.

ورأيت نفسى مسوقا إلى أن أتجسس عليه.

عيب! هذا عيب! أنى أعترف بالاقتراح عيب، وأعترف أنى ارتكبته.

لكن الإنسـان يا ستى الشيخـة ما أغـريه، وما أكذبه ! انه قادر على تبرير عيوبه! واختلاق الأسباب لما يرتكبه من الخطأ! وبغير حياء يردد لنفسه الحجج ويقنع نفسه بها! هكذا، هـو المدعى العـام، وهو القـاضى، وهو الدفـاع، والحـقـيـقـة بين الادعـاء والدفـاع والقضاء، ضائعة أو تائهة!!

ولقد وجدت الحجة فى ارتكاب هذا العيب، عمدا ومع سبق الأصرار!

نعم ...الا يمكن أن يكون عباس هذا يدبر جريمة؟ لكن لا يفيق تحشر نفسك فيما ليس لك فيه؟ وكيف هذا؟ أنها مسئولية كل فرد فى المجتمع. أنا فرد فى المجتمع، والجريمة التى ترتكب ضد شخص من الأشخاص، ترتكب ضد المجتمع، وهى بالتالى ترتكب ضدى! فإن يكن عباس هذا يقوم بعمل طيب.ماذا يكون موقفك؟ هنا تصبح المسألة ألزم، ففضلا عن أن ذلك يحملنى على احترامه، فقد يحتاج إلى يد تساعده، ليصبح عمله الطيب أكثر نفعا.

على كل حال، النتيجة أنى أخذت أتابع "عباس"، وأراقبه، وكانت هذه هى التسلية الوحيدة التى سيطرت على، قبل أن تحضر أم صلاح والأولاد إلى هذه القرية.

...فى كل يوم، بعد الغروب، وآذان المغرب يتردد فى جنبات القرية كنت أخرج للنزهة، بين الحقول فى الناحية الشرقية من القرية، وأمشى الهوينى متجها إلى الناحية البحرية. فإن واجهت الساقية، عرجت عن يمين، على حافة إحدى القنوات، حتى أصل إلى الناحية الغربية حيث الخص المهجور، واستلقى هناك بعض الوقت.

لكن عباس لم يأت. ولا السيدة التى سمعتها تحاور "عباس" حضرت. كذلك كر اليوم الأهالى، ثم أيام أخرى كثيرة مرت بلا فائدة.

وعجبت للأمر.هل يا ترى تنبها إلى وجودى، فقررا تغيير المكان؟! انهما لا يتلقيان فى مكان واحد مرتين؟! إذاً هما فى غاية الذكاء والحذر! لكن لا يفيق؟

وعاد الفضول يمزقنى!

نسيت أنى أريد "عباس" لأطيب خاطره، بعد الكلمات القاسية التى أفلتت منى. نسيت أنى أسأت إليه. نسيت انه جاءنى يعتذر، خشيه أن أكون قد تأثرت من تصرف له. نسيت كل هذا، ولم أعد أذكر إلا أنى أريد أن أقف على سر عباس هذا.

وبدا لى أنى لن أوفق فى الوقوف على هذا السر، فالأيام تمر، وعباس لا يظهر فى هذا الوقت من الأصيل، فى هذه المنطقة المتطرفة.لقد كنت أراه فى مناسبات أخرى، فلم أكن أحفل به أو أهتم لأمره. أنى أريده هنا، فى الخص ومع السيدة التى تتحدث إليه، وتنقل عنه، وتعود بالرد عليه. هذا ما أريده، وما من شئ دونه يمكن أن يعوضنى عنه.

لكنه اختفى عن هنا...للأسف.

وقلت لنفسى ذات أصيل وأنا هناك : ستضيع وقتك هباء، ولديك عمل شاق. انس ما سمعت، فقد لا يكون إلا وهما أو خداعا.

وبينما أنا أهز كتفى غير عابئ، إذا بى أجد سيدة تتسلل داخلة الخص.

هى...انها هى...لابد أنها هى.

وتربصت غير بعيد.

ولم تمض إلا لحظات، وإذا به قادم. عباس الرجل الطيب المسطول!



ووضعت أذنى على حافة الخص، لأتمكن من سماع دبيب النمل.

نعم لابد من أن أسمع كل شئ، حتى اللمس! لابد من أن أعوض بأذنى كل حواسى وجوارحى! أرى وأشم وأحس وأسمع..بل وأشعر وتتحرك عواطفى فى انفعال. كل ذلك بأذنى!

وبدأ الحديث بين عباس والمرأة :

- لا يفيق تأخرت على يا خالة؟ لم أرك من مدة طويلة.

- ولماذا أفعل يا عباس؟ البيت والأولاد ومشاغل الدنيا.

- ونحن؟ ألسنا من مشاغل الدنيا يا خالة؟

- أنت فى عينى يا عباس يا بنى.هاأنذا معك. خبرنى لماذا فعلت؟

- ذهبت إليهم يا خالة.

- وأعطيتهم؟

- الخمسة جنيهات، وما قدرنى الله عليه.

- لكن لا يفيق يا عباس؟ أنت أيضا محتاج. كان يكفى الخمسة جنيهات!

- يا خالة. كله من خيره.

- لا والله يا خالة. لو رأيتهم، لأعطيتهم عمرك كله. ثم هل هذا من عندى؟ انه من عند الله لا من عند أحد. هذا الرزق الذى أحصل عليه، هل كان فى تقديرى وحسبانى؟ لقد أتانى من غير احتساب. إلا أشكر الله عليه؟ إن العطاء للمحتاج هو الشكر الحقيقى والعرفان لله بما أسبغه على الناس من النعم.

- لكن امرأتك وأولادك أولى.

- والله امرأتى وأولادى يجدون اللقمة، أما هؤلاء، فهم يأكلون الجوع يا خالة! يعيشون على الهواء! ربنا معهم على ما هم فيه. لقد تقطع قلبى من أجلهم، ومن يومها وأنا لا أفكر فى شئ إلا فيهم.

- أنت قلبك طيب يا عباس.

- أنا دائما مسطول!

- يا شيخ..وهل يضايقك أن يقولوا هذا؟

ـ يا ستى...المسطول والفايق مصيرهما واحد.على كل حال أنى سعيد بما يقولون. على الأقل سيجدون تفسيرا لحالة الإفلاس الدائم التى أعانيها. انه الكيف! رجل مسطول! ينفق كل ما يحصل عليه على مزاجه. جميل. وهل أريد أكثر من هذا؟ درة زمانها ستثور على، لكنها سترضى رغما عنها، فطالما أنى لا أصرف دخلى على امرأة أخرى فهى راضية. البلوى أن أصرفه على امرأة. أما الكيف والمزاج، فإنه فى النهاية...لها!

ـ لكن هل هناك آخرون لا أعرفهم تصرف من دخلك عليهم؟

ـ ربنا أمر بالستر يا ست. هذا شئ يعرفه الله.

ـ ربنا يطول عمرك يا عباس، ويقدرك على مساعدة الناس.

ـ الله يخليك يا خالة.

ـ لكن هل عرفوك عندما ذهبت إليهم؟

ـ طبعا عرفونى، وبكوا عندما رأونى.

ـ خوفا منك أم حنينا إليك؟

ـ خوفا أول الأمر، فلما اطمأنوا، أصبحت الدموع تأثرا وحنينا.

ـ مساكين!

ـ يعيشون هناك على حافة ترعة خارج القرية التى ارتموا عند أقدامها يلعقون ترابها، لتتسع لهم بعد أن لفظتهم الدنيا.

ـ ولم يجدهم انهم أعلنوا براءتهم منها.

ـ ولماذا كان ذنبها يا خالة؟ شريفة طاهرة، لكن فى بلد من اللئام.

ـ هذا ما أعنيه. اللئام لم يعتبروها شريفة أو طاهرة.

ـ لأنهم لئام. ولأنهم كلاب.

ـ وأمها؟. رأيتها؟

ـ العجوز المسكينة، قد صارت جثة، تتحرك بغير شعور. فقدت بصرها وسمعها، ولم تعد الحياة عندها إلا العشة تتحسس أطرافها.

ـ مسكينة... لقد كانت تحبها حبا كثيرا. صدمت عندما فقدتها.

ـ والظلم الحقيقى أنها فقدتها، وفقدت معها السمعة الطيبة التى نهشتها الكلاب الضارية، ليلوثوا حتى ذكراها.

ـ ويطردوا أهلها.

ـ ويرهبوا أهل البلد جميعا.

ـ وتهجع نزواتهم الصغيرة.

ـ وتقنع أحقادهم الدفينة.

ـ ...وأبوها يا عباس؟ رأيته؟

ـ تعرفين هذا الثور؟.. ثور الساقية؟ هل يشعر بشئ؟ انه يدور حول الساقية، لا يدرى لماذا! ولو انه فكر ذات يوم، لعجب للناس الذين يربطونه من رقبته، ويغمضون له عينيه، ويطلبون منه أن يدور بالليل وبالنهار، بغير سبب يقنعه!! هل لان مدار الساقية كأضرحة الأولياء، يجب أن يدور حوله الناس زلفى وتبركا؟! هل لأن عذابه يرضى غرورهم؟! أم لا لسبب من كل هذه الأسباب، إلا انهم قوم تافهون، مجانين، يتصرفون تصرفات حمقى، لا منطق لها ولا شعور؟! أبوها يا خالة كهذا الثور يدور دون أن يدرى شيئا، ودون أن يعرف شيئا. ومن الخير له إلا يدرى أو يعرف. انه يجمع حاجته من حشائش الأرض، ليأكلها وامرأته والصغار الذين حوله، كالدواب. وكسرات جافة من الخبز يحصل عليها مما يتصدق به عليه أهل الخير. وهو وامرأته والصغار عرايا يا خالة، أو شبه عرايا. ليس

على أبدانهم إلا رقع لا تكاد تستـر عـوراتهم! وفى البـرد القـارس، لا وقـاية لهم إلا مـا يجمعون من حطب يحرقونه ليلتفوا حوله يتقاسمون الدفء! وفى الهجير، ولا حماية إلا أن يتمددوا على حافة الترعة، يبحثون عن الرطوبة، فى الطين! يا خالة، إن حالهم عدم.

ـ كم عدد الصغار يا عباس؟

ـ ثلاثة يا خالة. بنتان وولد. أكبرهم فى العاشرة.

ـ مسكين أبوهم.

ـ لم يتحمل الصدمة، ولا الفضيحة، ولا الطرد، فسقط مريضا حتى مات.

ـ وحاربوا جثته.

ـ هل كان ذلك كثيرا عليه، أن يجد شبـرا من الأرض يواريه إلى الأبد، هؤلاء القساة! إن لهم يوما يا خالة. لهم يوم.

ـ على كل حال، لقد وارته أرض الله الواسعة.

ـ على حافة القرافة أيضا، كالمنبوذ! لكنها هى المزار الوحيد الذى (يصبرٌ) أباه. انه يزور كل يوم، ويدور حول قبره كمن يخاف على جثته أن يخطفوها.

ـ وأمه؟..الا تزور قبره؟

ـ أمه ماتت.إن وجودها كالموت.

ـ وأولاده؟ يزورون قبره؟

ـ مع جدهم كلما ذهب. ويلتفون حول القبر، فى براءة الأطفال، يلعبون ويمرحون ويتشاجرون!! فإن وجدوا جدهم يبكى فى بعض الأحيان، ذهبوا إليه وأخذوا يثبون على يديه وكتفيه، ليخففوا عنه ما يعانيه من الهم.

ـ مساكين. يتامى مشردون.

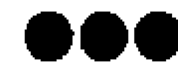
تشعرين وأنت معهم يا خالة، كأنك مع نوع من دود الأرض، أو الضفادع. أما أن تحسى انهم، مثل كل الناس...لا! لا! لا!

ـ لا أدرى إن كنت أستطيع أن أنقل إليه هذا! إن ما فيه يكفيه. على كل حال، هل تريد منه شيئا، فإنى أتوقع أن أراه فى أية لحظة.

ـ والنبى قبليه يا خالة. سلمى عليه وبلغيه انه أوحشنى، وأنى أتمنى أن ألقاه..فى أى مكان، وحيث يريد.

ـ لا أظن أن ذلك سيكون سهلا يا عباس. على كل حال سأبلغه.إن شاء الله.

وانصرفا..ذهبت المرأة، وذهب عباس.



وحاولت أن أتبين لها شكلا، لكنها لفت طرحتها حول رأسها ووجهها ثم اختفت بين غشاوة الليل، وظلال الشجر، والحقول.

وأخذت أفكر فيما سمعت، دون أن أعرف شيئا.

من هؤلاء الذين يتحدثون عنهم؟

ومن هذا البطل الذى أوحش عباس، ويتمنى أن يلقاه.

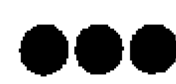
...وحاولت أن أسأل، لكنى خفت على نفسى من هذا الغموض، فحاولت أن ألتقط من أفواه الناس، بعض ما يعيننى على معرفة هذه الأسرار، لكن ما كنت أسمعه قد كان بعيدا كل البعد عن هذه الأسرار.

قالت الشيخة تفيدة :

ـ لكن هذه رواية غريبة.

قال :

ـ وما خفى كان أعظم!



وبينما كان حضرة الناظر يتأهب لاستئناف الرواية والحديث، كان قلب الشيخة تفيدة معلقا بشفتيه.

ولم تكن تدرى : هل هذه الرواية تتصل بها، وبزوجها؟ أم أنها تدور فى فلك آخر بعيد؟ شئ غريب ! ومن هؤلاء الذين يعيشون على حافة ترعة قرية نائية، كالديدان أو الضفادع؟

ودارت رأسها مع هذه الألغاز.

وكانت أحداث الرواية تتلاحق على سمعها، وقلبها، وضميرها.

وكانت سريعة، حتى لم تعط لها فسحة من الوقت للتفكير أو التأمل. كأنما هذه الأحداث تدفعها أمامها !! وقالت لنفسها " لكن إلى أين؟ إلى أين تدفعنى؟.هل لهاوية أدفن فيها مصيرى، أو لبر أمان ترسو عليه حياتى؟! فإن تكن الهاوية..!!

وكادت تصرخ من الخوف، لكنها استعانت بالله، وأخذت تردد الدعوات داخل نفسها.

لكن هذا يا ربى..ما ذنبه؟

مخلوق صغير ساذج، لم يرتكب إثما ولا ذنبا، على شفتيه ابتسامة، وفى عينيه دموع!!

هو ابن جلال.. لكن جلال نفسه قد كان مظلوما، وكانت أمه قبله مظلومة. كذلك كان أبوها _ جده _ مظلوما..ولحق النحس والظلم جدته وخالته والصديق الذى حاول أن يقف إلى صفه : رءوف.

الا يكفى ما دفعه أبوه؟

لو أن هذا الظلم ضريبة، فقد دفعها جلال عن كل الأجيال التى ستتعاقب بعده من صلبه، وذريته.

بل لقد يقتصر الأمر على أمه، لكن جده وجدته وخالته وصديقه...كل هؤلاء قد دفعوا معه ضريبة فادحة، كأنها السحرة!

الا يكفى كل هذا وفاء لما على هذا الصغير، ابنه؟!

الا يكفى كل هذا فداء لهذا البرئ الساذج اليتيم؟!

...اللهم لا اعتراض، لكن هذا كثير.

وكادت الشيخة تفيدة تبكى من الحسرة، وأفكارها لا تزال تدور داخل نفسها :

يا ربى، ناس آخرون كثيرون لا ينفعون!

نعم، ويعيشون بلا ضريبة يدفعونها. فإن دفعوا فذلك نادر كأنه الاستثناء أو الصدفة!

بينما ندفع..نحن ندفع..ندفع بلا نهاية! لا يغنى منا جيل عن جيل، ولا يعفى منا جيل، أى جيل ..ندفع! نعم وكلنا علينا أن تدفع! ندفع العمر والرزق، والسعادة، والزوج، والأب، والولد، والصديق.

ندفع كل شئ، وأى شئ، وليس لنا أن نتململ أو نغضب أو نثور.

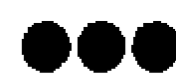
والآخرون لا يدفعون، إلا صدفة!

هم يقبضون..ما ندفع!

نحن ندفع لهم، وهم يقبضون منا!

يا ربى لا اعتراض، لكن شكوى، من القلب المجروح.

وسكتت الشيخة تفيدة، فقد كان عليها أن تسكت لتستمع إلى بقية الرواية والحديث.



لقد أخذت هذه الأحاديث تتملك على كل مشاعرى، وبدا لى عباس هذا أسطورة، يخفى وراءه الأسرار والألغاز.

وهذه العجوز، والمرأة التى تأتى إليه فى الظلام، لتتحدث إليه وتسمع منه، وتأتى إليه برسالة منه، وتأخذ منه رسالة إليه!

.. و "هو" هذا .. من يكون؟!

هذا الضمير الغائب، الذى لا يذكرون له اسما .. من هو؟!

لابد انه شخص يعرفونه، ويحبونه!

بل ولابد انه مهم، وأن له مكانة!

وزاد هذا من تعلقى بهذه الأحاديث، فأصبح شغلى الشاغل إلا يفوتنى منها شئ.

وبدأت أرتكب الحماقات فى هذا السبيل.

لا أدرى يا ست الشيخة هل من اللياقة أن أشبه هذا الموقف بأى موقف من مواقف الهوى المشبوب المتأجج، وكيف يدفع الأولاد المراهقين إلى مراقبة دءوب لا تنى، للبنات الصغيرات الطائشات؟

كلنا نعرف هذا. كلنا تعرضنا لهذا.

أستغفر الله العظيم. سامحينى يا ست الشيخة. أقصد أنا أعرف هذا. أما أنت، فمقامك عندنا جليل، وقد خلقك الله لهداية الناس، فلا تعرفين إلا الخير فى الناس.

على كل حال لقد أخذت أراقب "عباس"، كما يراقب الفتى المجنون ليلاه، أريد إلا يفلت منى، فى أى جولة ساعة غروب، إلى الخص المهجور. أريد إلا يختلى بها من ورائى، ومن خلف ظهرى. لا ...هذا لا يجوز.

أخذت أتربص له عند الساقية كل غروب.

خشيت أن أسلك مسلكا ما، فيدفعه الخبث أو الصدفة إلى أن يسلك مسلكا آخر. لهذا قررت أن أراقبه من ساحة الساقية، وهى فى ارتفاع جسر الرياح، ومن هناك تكون المنطقة كلها، مكشوفة لى.

وكانت جلساتى دائما قلقة متململة، يثيرها حفيف الشجر، أو زقزقة العصافير!

نعم كانت أعصابى تضطرب لأى صوت.

كنت أظن أن شيئا ما فاتنى. الشئ الذى أقبع هنا فى انتظاره.

وعند الساقية كانت تمر بى أوقات رائعة. إن صوت الساقية نفسه رائع وبديع. والمنظر هناك كأنى أكمة تلتف فيها أغصان الشجر بطريقة بارعة. وحارس الساقية الأخرس الذى يدور حولها فى غير ملل، وابتسامة غامضة تداعب شفتيه، ونظرة ذكية تلمع فى عينيه. وضريح سيدى الذكيرى يشيع فى المكان بركة وسلاما.

المنظر مهيب وجليل.

والفلاحون ممن يتسلمون دورات الساقية واحدا عن واحد يديرون أشهى الأحاديث، وأحلى السمر.

وأشعر هناك بالراحة والدعة والاطمئنان. صحيح الدنيا جميلة والحياة زاهية. أنها تستحق أن نبذل لها كل هذا الجهد، وكل هذا الضنى. لكن هل تستحق أن نتقابل من أجلها؟ هل لنستمتع بها، يحق لنا أن نخربها؟ أو ربما نحطمها؟!

وقلت لنفسى : أنت تنسى فى غمرة المراقبة، هذا السحر وهذا الجمال. إلا تترك هذه الأحاديث لأصحابها، وتشحن نفسك من هذه الطاقة الهائلة من السحر والجمال، لتكون زادا لا ينفذ، بقية عمرك؟

وكدت أقتنع بهذا.

كدت أنسى "عباس"، والمرأة التى تحدثه ويحدثها. وكدت أنسى الناس المساكين الذين يعيشون على حشائش الأرض كالدواب، والشخص الغامض الذى يتحدثون عنه فى حب وإعزاز.

كدت أنسى كل ذلك، والساقية تدور، وأبو المكارم يدور حولها فى دأب.

لكن الأحداث قد سبقتنى.

فقد رأيتها : المرأة المتشحة بالسواد، تخترق غشاوة الغروب إلى الخص المهجور، وبعدها جاء عباس.



وأسرعت إليهما لأتخذ منهما مكانى خارج الخص.

وسمعتهما، وأنا أحبس أنفاسى، حتى لا يتنبهان لوجودى.

وكان الحوار ممتعا ومثيرا :

ـ ورأيته يا خالة؟ هل رأيته؟

ـ نعم يا عباس رأيته وحدثته، وحكيت له كل شئ.

ـ هيه..وماذا قال؟

ـ أعطانى هذه الجنيهات، لتوصيلها لهم.

ـ حاضر يا خالة. من عينىَّ. لكن لماذا قلت له؟

ـ انه يعرف يا عباس. يعرف كل شئ.

ـ نعم يعرف. انه جن، يعرف كل شئ، لكن لابد أنك نقلت عنهم له صورة حزينة جدا.

ـ نقلت ما قلته أنت.

ـ هل أنا مخطئ يا خالة؟ هل كان يجب أن أخفى عنك؟

ـ وهل كان يجب أن أخفى عنه؟ أنت تعرف لماذا كان يفعل، لو فعلت!

ـ نعم كان يقلب الدنيا رأسا على عقب. أنا أعرفه. شنيع. كجهنم! ورقيق كالجنة! وماذا قال؟

ـ لم ينطق بحرف. تركنى يوما، ثم عاد ورأسه مطرقة إلى الأرض، وقد هربت الألفاظ من على لسانه.

ـ ولماذا فعلتم معه؟

ـ تركناه حتى انحلت عقدة لسانه، كأنما كان أخرس.

ـ وقال شيئا؟..ماذا قال؟

ـ قال لى : رأيتهم ... ذهبت ورأيتهم يا خالة. هل فى الدنيا ناس هكذا؟! وقلت له : نعم. قال : وفى الدنيا أيضا ناس مرضى من الرفاهية! هل سمعت عن أمراض التخمة والأمعاء المرهقة والكروش المنفوخة؟! وهز رأسه فى أسى وهو يردد : على كل حال ربنا موجود، وسيقدرنا على شئ. أى شئ. هذا ما قاله يا عباس يا بنىَّ.

ـ هذا رجل عجيب. ذهب ليرى بنفسه!! جرئ شجاع. بطل والله يا خالة!

ـ طبعا هو بطل. بطل هائل.

ـ هذا من بخت بلدنا ومن بختى. كم بلد أنجبت ولدا مثله؟!

وكم بلدا طردت ابنا من أبنائها مثلما فعلت بلدكم؟!

ـ بلدنا لم تطرده.

ـ لا والله، هو الذى غضب وهرب!!

ـ لا يا خالة. الذين طردوه ليسوا من بلدنا.

ـ من بلدى أنا يا حضرة وكيل شيخ الخفر! من بلد أمى. يا رجل عيب!

ـ أهل بلدنا مثله، مطرودون منها، وهم مقيمون فيها !

ـ وأقاربك المحترمون أليسوا منها!!

ـ منها، لكنهم مغتصبون!

ـ وأهل البلد راضون!

ـ مغلوبون!

ـ ..وهل يتأهبون ليثأروا؟

ـ من يدرى؟

ـ عل كل حال. لا يفيق ألومك أنت؟ لا تؤاخذنى يا عباس يا بنى. كلنا مثلك وعلى شاكلتك. أنا أيضا بلدى كبلدك، وأنا فيها مغلوبة مثلك. والذين يستغلونها، هم الذين

يغتصبونها ويتمتعون بنفوذهم فيها .لكن لابد من أن نتبادل اللوم فى بعض الأحيان، ليذكر كل منا صاحبه، أن على قلبه علة، يجب أن تزال.

ـ عندك حق يا خالة، يجب أن نتبادل اللوم حتى لا ننسى.

ـ لعل الفرج قريب.

ـ إن شاء الله. إن شاء الله.وماذا عن أخباره الأخرى؟

ـ بخير. يسلم عليك.

ـ ألم أوحشه كما أوحشنى؟

ـ وهل قلت له أنى مشتاق إليه، وأتمنى أن أراه؟

ـ نعم وضحك وقال : إلا يخاف منى؟ لو عرفوا لماذا يفعلون به؟

ـ والله لا يهمنى. فى المرة الأولى لم أستطع أن افعل له شيئا. أما هذه المرة...

ـ لماذا؟ ستحميه؟! لن تستطيع أن تفعل له شيئا أيضا. يجب أن تعرف هذا. يجب أن نعرفه كلنا. وألا جمدنا على هذه الخيبة!

ـ أنت فيلسوفة يا خالة. من أين لك هذا كله؟

ـ من الزمن يا بنى. من مصائب الدهر.من الظلم والحاجة والاستبداد.

ـ لكنى مع هذا أريد أن أراه. يحضر وعلى مسئوليتى أنا.

ـ سيحضر إن شاء الله.

ـ والله العظيم؟

ـ نعم سيحضر ...

ـ يا سلام. هذا خبر عظيم جدا.

ـ بل انتظر يا عباس.

ـ يكفينى انه سيحضر.

ـ نعم سيحضر ليراك، لكن على مسئوليته هو.

ـ نعم؟ ..ماذا؟ على مسئوليته هو! آه، هذا شئ طبيعى. انه بطل. انه أقدر منا جميعا على تحمل أية مسئولية. رجل شهم وجرى...الله يخليه ويطيل عمره...لكنى نسيت أن أسألك : متى يحضر؟

ـ وهل هذا سؤال تسأله يا عباس؟

ـ نعم لابد من أن أعرف. لابد.

ـ أنت نسيت يا عباس من هو!!

ـ لا لم أنس ...أعرفه...أحبه...أجله.

ـ هل يعطى مواعيد يا عباس؟!

ـ نعم؟ ماذا تقولين؟

ـ انه دائما كالمفاجأة...لا يعرف أحد متى يكون لقاؤه الثانى معه، وأين؟

ـ بل هناك من يعرفون.

ـ ولست منهم يا عباس.

ـ لماذا يا خالة؟

ـ لأنه لم يكشف عنك الحجاب بعد.

ـ هذا لغز.أنا لا أطلب الولاية، ولا أنفع وليا من أولياء الله.

ـ ويوم تنفع وليا، ستصبح منهم.

ـ أنا عقلى طار.

ـ انهم يقومون بأعمال، لا يقدر عليها إلا الأولياء.

ـ وأنت؟.. هل أنت منهم؟

وهل هذا شأنك يا عباس؟ دع الخلق للخالق يا بنى.

ـ أنا لا أفهم. لا أفهم شيئا يا خالة. على كل حال. هل ستقولين لى متى أراه؟

ـ سيتوقف هذا على سلوكك. لسانك حصانك، إن صنته صانك.

ـ ما هذا الكلام؟ وكيف تعرفين؟

ـ بل كيف لا نعرف؟

ـ نعرف!! من أنتم؟ وهل تعرفون كل شئ؟

ـ كأولياء الله الصالحين!



وانصرف عباس، وانصرفت المرأة.

وشعرت أنى مجمد فى مكانى. المسألة دخلت فى أسرار أكثر غموضا وعمقا.

وخفت يا سيدتى. خفت على نفسى من الاندفاع وراء هذا الفضول.

مالى أنا وهؤلاء الناس، ومنهم المسطول، والمغشوش، والمستبد..وناس يعيشون على حافة ترعة فى أطراف قرية نائية كالديدان، وامرأة تتشح بطرحة سوداء تذهب وتجئ بأنباء وآراء، وخص مهجور على رأس حديقة العمدة، وشبح لا يفصح أحد عنه، ويتحدثون عنه كأنى جن؟!

مالى أنا وهؤلاء الناس ...الشواذ؟!

أنا معلم الزامى أعيش حياة منتظمة، أذهب كل صباح إلى المدرسة حيث أعلم الصبيان والبنات، وأعود مع العصر إلى بيتى حامل أوراقى وكراريس التلاميذ. وآكل وأنام ثم أستيقظ لأصحح كراريس الأولاد، وأسمر مع زوجتى وأولادى. وقد أزور، وقد أزار فى رفق وأناة. أتقاضى مرتبا آخر الشهر يسترنى ويكفينى. مالى أنا وهذه المغامرات؟ ليتنى ظللت كما كنت معلما كسائر المعلمين! هل كان لابد أن أرقىَّ؟

ألم تسمع تلك المرأة القوية تقول لعباس : وهل يعطى مواعيد يا عباس؟ انه دائما كالمفاجأة. لا يعرف أحد متى يكون لقاؤه الثانى معه. وأين!!..

من يكون هذا الوحش الرهيب الكاسر؟

من يكون هذا اللغز المستخفى وراء أشارات ورموز؟

يا نهار أسود.. نعم وأخذت أذكر أنها كانت تقول لعباس : لكى تصبح منهم، يجب أن يكشف عنك الحجاب!! وتصبح وليا من أولياء الله!!

ما هذا؟ ومن هؤلاء؟

انهم يقومون بأعمال لا يقدر إلا الأولياء!! هكذا !! نعم والله هكذا!!

يا ولد وأنت مالك!!

ودارت بى الأرض حيث كنت جالسا على حافة الخص المهجور، لا أزال.. ورأيت السماء أرضا والأرض سماء! سمعت صوت الساقية الآتى إلى من بعيد رعدا. وتخيلت الأخرس الذى يحرسها واحد من زبانية الجحيم.. حتى قبة سيدى الذكيرى تاهت من بين عينى، فلم أعد أتبينها فى هذه الساحة!! لقد أصبحت هذه الساحة فراغا مخيفا كأنها خرابة تسكنها الجنيات!

وكدت أثب من هنا رعبا وفزعا.

لكنى عدت أتساءل : وأين يكون مهربى؟ هذا نصيبى، فإن هربت منه فلا شك انه سيلاحقنى حيث أكون.

وغلبنى النعاس، فأسلمت عينى لإغفاءة يائسة.

وما أمر ما شهدته فى منامى!! أحلام مخيفة.. مخيفة.. مخيفة! صراع، وقتال.ودم يسفك، وأصوات تصرخ، ونحيب ثكالى وثأثأة يتامى صغار !! وأيد تمتد نحوى تتخاطفنى، فتشدنى من هنا. لتلقينى هناك وأنا ممتثل لا أدرى لماذا يكون عليه مصيرى!!

وعندما صحوت من إغفاءتى، فتحت عينى على ابتسامة طيبة خرساء كان أبو المكارم جالسا جنبى، وعلى يده كوز مملوء بماء بارد.

وعجبت، وأخذت أسأله، فأخذ يشير ويصيح، لأفهم عنه أنى كنت واقعا تحت تأثير كابوس ثقيل، وانه أقبل على صيحاتى واستغاثاتى.

ياه! سمعنى من هناك، من عند الساقية! لابد انه كان كابوسا مزعجا جدا.

وأخذت أتمتم باسم الله الرحمن الرحيم، وأستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وأستغفره وأطلب رحمته، وأربت على كتف "أبو المكارم" وأمسح على رأسه، وكوز الماء البارد فى يدى، أمص منه الماء مصا، قرية أخرى أحاول أن أصلح حلقى بعد أن سده الفزع والكابوس.

ولم تستطع الشيخة تفيدة أن تنتظر، فصاحت تسأله :

- ولم تعرف اسمه بعد؟ لم تعرف من يكون هذا الذى يتحدثون عنه؟

قال حضرة الناظر :

- صبرك يا ست الشيخة، سيأتى كل شئ فى موضعه.

وابتسم لها، لكنها لم تستطع أن ترد على ابتسامته بمثلها. إن أعصابها كانت قد صارت مرهقة إلى حد التوتر.

ما هذا الذى تسمعه؟ كان ذلك من خمس سنوات؟

وأخذت تحسب فى ذهنها. هل كانت تعرفه يومها؟ لكنها لم تره إلا فى المعتقل فى الزيتون، من قرابة سنتين، بعد أن أخذ الإنجليز "ممدوح" ليرغموه على أن يتطوع فى صفوفهم!

- أين كان قبل هذا؟

- ألم يحك لك يا بنت انه كان هنا؟

ـ لا لا! كان يمارس حركته فى دمنهور.

ـ أنى، لم يقتصر على دمنهور، فقد قال عن حوادث له فى إسكندرية وطنطا والمنطقة كلها.

ـ نعم وفى القاهرة أحيانا.

ـ على انه كان يتردد على هنا. على هذه الساحة، وعند الساقية وفى الخص المهجور، وقرافة سيدى الذكيرى، وضريح الشيخ، والصفصافة و "أبو المكارم".

ـ نعم وظل هنا يمارس حياته ونشاطه حتى اعتقل.

ـ شئ غريب! هل كان الحديث عنه، وهو هنا غير بعيد؟

وزادت الشيخة ارتباكا. وزادت كذلك خوفا. وأخذت تتطلع إلى حضرة الناظر كأنما ترجوه أن يكمل قصته.

وتدخلت أم صلاح تسأل الشيخة عما إذا كانت تشرب شايا.

قالت الشيخة فى اقتضاب على غير عادتها. شكرا. لا أريد شيئا الآن.

لكن حضرة الناظر طلب الشاى وهو يقول : ولم لا؟ اعملى الشاى يا أم "صلاح".

وذهبت أم صلاح وتركتهما وحدهما.

وظنت الشيخة أن ذلك مقصود. هل يريد أن يصرف زوجته؟ لكن لماذا؟ هل هناك شئ يريد أن يقوله لها، بعيدا عن كل الناس حتى زوجته؟! وما عسى أن يكون هذا الشئ؟

وارتبكت الشيخة ارتباكا شديدا، حتى كادت أن تصيح فيه قائلة :

سأعترف لك. سأحكى لك أنا كل شئ، أنا لست شيخة. أنا لست تفيدة. اسمى مديحة. نعم ومن القاهرة، من حى الدرب الأحمر بالقرب من القلعة. هل تعرفه؟ لكن حضرة الناظر سبقها فقال :

ـ لا ترتبكى يا ست الشيخة. ليس فى القصة كلها معصية. المرأة التى كان عباس يلتقى بها كانت عجوزا، ولم تكن عابثة. والرجل الذى يتحدثون عنه لم يكن ماجنا ولا

مغتصبا لعرض. هذا ظنى. أنا أعلم أن المشايخ هكذا، يرتبكون إذا ذكر أمامهم شرا!! لكن المسألة لم تكن هكذا. ربما كانت عصابة من عصابات الأشقياء تهدد وتسرق البهائم وتحرق الحقول ...على كل حال لا أدرى! وقد لا تكون المسألة أكثر من عصبيات تتصارع على النفوذ! ريفنا هكذا كله عصبيات طائشة عمياء تؤدى أحيانا إلى منازعات وضغائن، وقد يكون لها فى بعض الأحيان ضحايا. لكنها على كل حال لا تستحق منك كل هذا الارتباك. دعوة منك يا ست تهديهم إلى الصراط المستقيم، وتحيطهم بالبركة. الشيخ أبو عوف الله يرحمه كان ينظر إلى هذه الأعمال على أنها ذنوب البشر، لكنه كان يقول حتى للمذنبين أنفسهم أن باب التوبة مفتوح وأن الله غفور رحيم.

وتنفست الشيخة فى ارتياح!!

لا اعتراف!!

وضمت ابنها إلى صدرها، وقبلته بين عينيه، وكان فى إغفاءة طفلة هانئة.

وحضرت أم صلاح بالشاى، فوزعته على الشيخة وحضرة الناظر، ولم تنس نصيبها. وعلى رشفات الشاى البطيئة، استأنف حضرة الناظر الرواية.



الحقيقة يا سيدتى أنا كنت موزعا بين الخوف والفضول.

أقول لنفسى : مالك أنت وهؤلاء. لكن صوتا فى ضميرى يصيح بى : ولماذا ستخسره من معرفة الحقيقة، وكشف السر الغامض بين المرأة وعباس ...

ولم أكن أريد شيئا. كنت أريد أن أعرف الرجل الغامض الذى يتحدثون عنه بكل هذا الحب والإجلال.

ما اسمه؟ ما عمله؟ لماذا يفعل؟ لا يفيق يحسبون له كل هذا الحساب؟ وقنعت بأن أعرف اسمه. آه لو عرفت اسمه!!

لكنى كنت أعود أقول لنفسى : ولماذا ستستفيده لو عرفت؟ لماذا يعنيك من اسمه!

افترض انه محمود. محمد. عمر. لماذا يهمك أنت من هذا؟

وكنت أقول : صحيح ليس هناك ما يهمنى. لكنى مع هذا لم أستطع أن أقاوم فضولى. الإنسان يا ست الشيخة خلق هكذا . هلوعا.

واستمرت حياة المراقبة.

نعم مضيت أراقب "عباس" حتى لا تفوتنى لقاءاته مع المرأة العجوز ذات الطرحة السوداء.

ولم أنتظر طويلا، فقد أقبلت بعد أيام، وأقبل عباس، وبدأ حديثهما داخل الخص المهجور.



- لعله خير يا خالة.

- دائما خير يا بنى.

- متى أراه؟ متى يحضر؟

- كأنك بوليس سرى يا عباس!

- يا نهار يا خالة. أنا!! أنا بوليس سرى يا خالة؟!

- لا يفيق إذاً تصر على هذه الأسئلة؟

- اشتقت له. أريد أن ألقاه، وأن أشبع منه.

- والافتراء؟ ألم يكن هنا مشردا فى الحقول والمزارع؟

- وكان رجلا وبطلا. وكنت ألقاه هنا. هل أنسى له يوم أن عرفته بالجماعة، وأرادوا السيطرة عليه. لقد فرض نفسه وهو يافع على رجال كبار أصحاب سوابق. أو يوم العمدة. أو يوم شيخ الخفر. أو موقفه مع الشيخ مختار، أو يوم النقطة، أو يوم السوق. الحقيقة يا خالة الواحد يحس انه محتار بين أعمال هائلة ورائعة.



وبينما كان حضرة الناظر يروى روايته، كانت عينا الشيخة تفيدة تتسعان حتى كادتا أن تثبا من حدقتيهما!!

الرواية تكاد تصبح كالطوق يحيط بها، والأوصاف تتجمع حتى تكاد أن تشير إليها.

ولم تستطع أن تخفى مشاعرها، فصاحت فى هلع :

لكن..ماذا ..أى..

ولم تكمل شيئا .. انحبس فى حلقها الكلام. كادت تصبح "كأبو المكارم" خرساء.

وابتسم حضرة الناظر وهو يقول :

ألم أقل أنها مسألة مسلية. قصة غريبة، والا ما شدتنى إليها، على هذه الصورة! إن كل شئ فى القصة غريب. المرأة العجوز. عباس المسطول. لقاءات الغروب فى الخص المهجور. الأحاديث عن ناس مساكين مطرودين.

ونطقت الشيخة..قالت :

وهذا الشخص الغامض كاللغز. لماذا عنه؟ هل عرفته؟ هل عرفت من يكون؟ هذا البطل الشهم الجرئ. ما اسمه؟

قال حضرة الناظر :

ستعرفين يا ست الشيخة، من حديث عباس والمرأة. صبرك وستعرفين. لقد قالت له:

- انه على كل حال قادم إليك..هنا.

- هنا، فى الخص..متى؟!

- نعم هنا فى الخص، الآن.

- لكن ...أيكون هنا استقباله. لكم كان بودى...

- أن تقيم له وليمة. لا يا سيدى. هو لا يريد شيئا من هذا. سيأتى هنا. أنت تعرف مكانة الخص عنده. انه أحب مكان إليه.

ـ طبعا ...لقد استقبل الدنيا هنا.

وصاحت الشيخة؟

من...من؟ من ذلك الذى استقبل الدنيا هنا كما يقول؟

قال حضرة الناظر :

لا أدرى ...انتظرى لتسمعى الحكاية على لسان رواتها. لقد مضى عباس يقول.

ـ مسكين يا جلال...

وصاحت الشيخة :

..جلال.ماذا؟ هل هذا اسمه؟

قال حضرة الناظر :

اسمعى يا سيدتى لماذا قاله عباس :

ـ ولدت هنا فاستقبلك جدك فرحا بك. أبو عوف جدك كان يرقص فرحا بك. لكن أبوك ترك المؤامرة تحاك حولك. فذهبت أمك ثم جدك، ثم جدتك ثم خالتك، لكنك لم تذهب. لقد أذقتهم الويل يا جلال. ربنا يطول عمرك عليهم وتخلص الناس من شرورهم.

وما هى إلا لحظة، حتى سمعت من مكانى صوتا قادما مرحا يقول فى قوة وشباب :

× والله يخليك يا عباس يا صهرى وزوج أختى. تدعو الله أن يطيل عمرى. والافتراء تريد أن تعذبنى يا رجل؟ الموت راحة يا شيخ!

وشعرت أن عباس قد قفز من مكانه، وأخذه بين ذراعيه يقبله وهو يبكى من فرط تأثره عندما رآه، ووصلتنى عباراته متقطعة :

ـ جلال أيها البطل. كيف حالك؟ لا ما شاء الله صحتك طيبة. ربنا يحفظك لشبابك يا جلال.

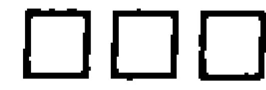
وضحك هذا الوافد، ولا بد انه قد كان "جلال" الذى يتحدثون عنه ثم قال :

ـ وكيف حالك أنت؟ والبلد؟ وشيخ الخفر؟



وتوقف حضرة الناظر عن الحديث، فإن الشيخة تفيدة، كانت قد أغمضت عينيها وأسلبت جفنيها فى إغماءة، أخذتها عن الدنيا، وعن الرواية وعن طفلها، ولم تعد تسمع ما يقال، ولم تعد تشعر بوجودها أو وجود شئ حولها...

وصحا الرضيع الصغير من غفوته، فارتفعت صيحاته البريئة من حجرها!!



٣

... وعندما أفاقت الشيخة تفيدة من إغمائها، وجدت أم صلاح إلى جوارها، كما وجدت عددا من جاراتها، وأسرعن ليكن معها إذا ساءت الحال.

وسمعت الشيخة من بعيد صوتا يتهدج فى استغاثة، يطلب من الله أن يأخذ بيدها، وأن يحفظها من السوء، لابنها، ولأهل البلد جميعا وعرفت فيه صوت عبد المهيمن أفندى ناظر المدرسة.

قالت أم صلاح وقد انفجرت قسماتها فى سعادة ورضا :

الحمد لله..الحمد لله أنك عدت إلينا من غفوتك ياشيخة تفيدة.

ونادت زوجها لتطمئنه على صحة الشيخة، فارتفع صوته بحمد الله وشكره.

وبدأت أصوات النساء تطرق سمعها مختلطة ومتداخلة :

- ارحمى نفسك يا ست الشيخة.

- نهار وليل يا شيخة تفيدة؟ ومن يتحمل كل هذا؟

- إن لبدنك عليك حقا.

- هذا الولد محتاج إليك.

- وأنت لست ملك نفسك. أنت بنتنا.

- وصرت أما يا شيخة تفيدة.

ـ واستندت الشيخة إلى ذراع أم صلاح، ثم جلست وعلى شفتيها همس ونجوى. أما الهمس، فلم تكن تستطيع أن تجهر به، وأما النجوى فلله الكريم الذى كتب الستر لعباده، والذى هيأ لها ملائكة من عنده، فى هذه الصور الحبيبة.

وقالت أم صلاح :

كلامها حلو جميل. ربنا يتم عليك نعمته يا شيخة تفيدة.

واندفعت كل جارة تقول ما تشعر به :

ـ كلامها حلو مثلها.

ـ وابنها حلو مثلها.

ـ ومثل أبيه. رحمة الله كان جميلا.

ـ خسارة الحلو ما يكمل.

ـ لو كان الشيخ عاش كان كمل.

ـ نحن ضعاف العقول. نحن لا نعرف حياة الأولياء. انهم أحياء عند ربهم يرزقون. الشيخ حى. الشيخ أبو عوف حى، وله كرامات.

ـ والله جائز. وربما يتلاقيان كأن لم يحدث شئ.

ـ وأنا أراهن أنها لن تتزوج.

ـ والافتراء لا تتزوج؟ هذا شرع الله. هذا حلال.

ـ لأن الأولياء لا يموتون. انهم أحياء عند ربهم يرزقون.

ـ لكنها هى فى الأرض ...مثلنا.

ـ هى فى الأرض، حتى يؤذن لها فى اللحاق بالشيخ. زوجى يقول هذا. انه يقول كذلك أنها ولية عظيمة وانها ليست مثلنا تبحث عن الزوج والزواج. أنها من نور لا مثلنا من طين.

ـ رضى الله عنها وأرضاها.

وشردت الشيخة فيما سمعته من الأصوات، تفكر فيما آل إليه مصيرها.

.وأصبحت يا مديحة من نور، لا من طين مثلنا!! جميل، يا بنت الدرب الأحمر، والأسطى عبد الغفار، والربع القديم ذى الفناء الواسع الذى طالما لعبت فيه مع الأولاد لعبة "العريس والعروسة".

وكلما كنت تلعبين دور العروسة، كان ممدوح يلعب دور العريس لكن ممدوح ذهب. مات! سقط أمام عينيك فى شارع قصر العينى.

ثم عاد! ممدوح عاد! هل ترى بعث بعد أن مات؟ إذاً نحن فى العالم الآخر، ولسنا فى الدنيا.

وبين موت ممدوح وبعثه، حدثت أحداث جسام.

مات من مات، وولد من ولد. وتغيرت الدنيا وتغير الناس. أنت تغيرت مع الدنيا ومع الناس. كنت سفينة ضلت الشاطئ، تبعث بها الأمواج، والأنواء، والعواصف تبحث عن بر أمان. ووجدته هادئا رحبا مشرق القسمات، جميلا حنونا رائعا. وكالسفينة الضالة الضائعة القلقة المهددة، ألقيت إليه رحالك، وأسندت على صدره الشجاع رأسك، وتركت له أمرك..وشعرت أن الدنيا كلها قد صارت ملك يديك ! جلال قد صار دنياك، وما كان أحلاها دنيا! لقد أعطاك الحب والعطف والرعاية والأمن. لقد عوضك عن عذابك الطويل سعادة وقناعة وأملا. أعطاك ولدا من صلبه.

لكنه ذهب. جلال مات. أتوا به محمولا على الأكتاف، ملفوفا فى كفن، ووسدوه الثرى، وواروه التراب، وأصبحت مقبرته مزارا للناس ومكانا يتلمسون عنده البركات.

وكان بعث ممدوح، فى اللحظات نفسها التى ذهب فيها جلال. كأنما كانا على اتفاق أن يتقاسما العهد، وخدمة الضريح، والشيخة!!

ولم تقبل الشيخة هذا الوضع. لم ترض أن تدخل ضمن قائمة القسمة، كأنى ميراث!!

وكيف؟..كيف يمكن أن يتقاسمها رجلان؟.ومن وراء ظهرها؟!

وأى رجلين؟! أحب اثنين إليها بعد أبيها. ممدوح رفيق الطفولة والصبا والشباب، ومعركة العنابر، ومطاردة العساكر الانجليز. وجلال بطل معركة قصر العينى وخطف الضابط الكبار لتهتز الإمبراطورية العجوز، وصاحب الكرامات والمعجزات.. والقلب الرقيق الحانى، والماضى الطويل، من المحنة والحرمان والعذاب.

يا رب لا ... لا تسئنى فيهما، فلكل منهما فى القلب مكانه المحفوظ.

لكن هل مات جلال حقيقة؟

هذا ممدوح، كان قد مات. سقط أمامك يا بنت فى شارع قصر العينى. رأيته بعينيك يتلقى رصاصة يسقط على أثرها فى الشارع ميتا. لقد هممت أن تذهبى إليه ولولا أن جلال منعك بالقوة، لكان مصيرك مصيره.

أى مصير؟ ها هو ذا عاد! ربما كنت صحبته فى رحلة الموت ورحلة البعث. إذاً ما كنت أصبح تركة يتقاسمها الرجلان، واحدا بعد واحدا!!

ما كنت أصبح أرملة شيخ انتقل إلى رحمة الله، تاركا وراء هذه الذكرى العطرة، وأقوالا تتردد بأنه ولى وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهم أحياء عند ربهم يرزقون!! أحياء!.. هم أحياء، وهو حى !

وعضت الشيخة على شفتيها، قرية أخرى من الهم، تتمزق!

وظهرت أمامها مجموعة من الرؤى، والأشباح.

ورأت فيما يراه النائم أن عيونا كثيرة تراقبها، وانها تحسب عليها تصرفاتها، وتكاد تعد عليها الأنفاس التى تتردد فى صدرها.

انها شيخة. أرملة شيخ له فى نفوس مكانة وكرامة. وهى كذلك أم الرضيع الصغير، ابن الشيخ العظيم "أبو عوف"، ولابد انه سيرث عنه الولاية والبركة.

وشعرت أنها لم تعد حرة فى نفسها، ولا فى مصيرها.

وبين جدران السجن الغليظة الكالحة الذى دفنت فيه، أحست أن مجموعة من النصال تقطع أحشاءها.

وانها لتستحضر صورته : ممدوح حبيب العمر، قبل أن يبدأ العمر.

انها لم تتحدث معه آل فيما هو مألوف : الضريح، والحضرة، والطفل الصغير، ومطالب الحياة.

لكن عينيه! عيناه تقولان كلاما عجيبا جدا. انهما تفضحان عما فى نفسه مطويا فى حجب الزمن. انهما ترويان قصة طويلة حزينة دامعة دامية.

نعم عيناه!..ما أفصح عينيه، بل وما أفضح عينيه!

انه ينظر إليها، ويتابع خطوها، ويرقب حركاتها، ولا تفوته كلمة، ولا همسة، ولا لفتة.

كأنما تذكرها بأنه هنا. وانه لم يحضر إلى هنا، إلا لأنها هنا!

وهذه الذقن المستعارة، والمسبحة الطويلة، والعيون المسبلة فى تقوى، والدروس والمواعظ...كل ذلك قد قبله وأقبل عليه بسببها !

وعندما تستبد به المشاعر، ينزوى فى ركن من أركان القرافة، ويسند رأسه إلى ضريح سيدى الذكيرى، أو قبر جلال، ويبكى.

انها _ رغم كل الأحزان التى تواجهها _ تراه من طرف عينيها، وتراقبه وتتابع حركاته وعندما تسقط الدموع من عينيه، تشعر انه يبكى من أجلها، وأن حبه القديم العريق الرائع، هو الذى يدفعه إلى البكاء! ما أصدقك يا ممدوح! ما أرقك!

لكن : عيب يا شيخة تفيدة! هذه ليست قيمتك، ولا هذا مقامك، أن تذهبى إليه تمسحين دمعه، أو تخففين مواجعه! إنك لست مديحة الآن، ولم تعودى مديحة بل ويبدو أن قد كتب عليك أن تقطعى ما بينك وبينها من صلات.

فليبك ممدوح إذا أراد!..

ممدوح!! حتى هذا ليس جائزا. انه ليس ممدوحا هذا. انه الشيخ عبد الرءوف خليفة الشيخ "أبو عوف" فى خدمة الضريح، والقيام بالحضرة، ورعاية الناس وحماية الخلق من

هواجسهم ونزق نفوسهم! ممدوح قد ذهب، من يوم سقط على أرض شارع قصر العينى. أصبح ذكرى طيبة حبيبة، أما الذى هنا، فهو الشيخ عبد الرءوف!

لكنه يبكى يا ست الشيخة، وهو لا يبكى بصفته شيخ الضريح. انه يستعيد اسمه وحبه وهواه، فيبكى.



..وما شأنى أنا؟! هذا ذنبه، فقد كان عليه أن ينسى!

ينسى حياته؟ هل نسيت أنت مديحة وحياة مديحة فى الربع القديم فى الدرب الأحمر؟ هل نسيت أباك؟ هل نسيت "سالم"؟ هل نسيت المغامرات التى دبرتها معهم؟ هل نسيت الثأر لأبيك ورفاقه؟

فإن كنت لم تنس، فلماذا تطالبين الشيخ عبد الرءوف أن ينسى؟ ينسى "ممدوح"؟ ينسى المعتقل؟ ينسى التدبير الآثم ليساق إلى صفوف المتطوعين مع الحلفاء؟ ينساك يامديحة، وأنت العمر والحب والأمل؟

ولم تستطع الشيخة أن تشرد عن الوجود أكثر من هذا. تكفيها هذه الرحلة اليوم، ولتوفر خيالها الرائع ليوم آخر.



وعندما سارت إلى ضريح سيدى الذكيرى، بين الحقول الخضراء المنبسطة فى هدوء وسكينة، أخذت تدور بعينيها فيما حولها من معالم دنياها.

الساقية هناك تدور.

وأبو المكارم يدور حولها، أو يرقبها من بعيد.

وقناة من القنوات تنحدر من جسر الرياح فى الشرق، إلى آخر حديقة العمدة فى الغرب، لتنتهى بالخص المهجور.

وجسر الرياح يستقيم مرة، ويدور مرة، وعندما يمر بموردة النساء، نجده يتسع كأنما يفتح لهن ذراعيه.

يا جسرا كالرجال!! ألا تستحى؟!

..وعند جميزة قديمة عتيقة، تنبسط أسارير الرياح وجسر الرياح، فتتسع أشداقهما، كأنما هى ابتسامة واسعة عريضة، فرحة بالجميزة وظلها الوارف.

ويمضى الرياح، ويمضى جسر الرياح إلى محطة السكة الحديد.

وعندما يمر بأشجار التين الشوكى، يدور نصف دائرة، لتبدو أشجار التين كالسور العالى يحجب ما وراء من الرؤى، ليثير فى قلوب المفزوعين...الاوهام! وفى نفوس الشعراء الخيال الرقيق الشفاف.

وتلفتت الشيخة إلى الخلف، فكان الخص المهجور.

وتطلعت إلى الأمام، حتى أشجار التين الشوكى.

..فى الخص ولد جلال، وعند أشجار التين، طالما تخفى لخصومه. هذه ساحته، وكل نسمة من نسماتها، فيها بقية من نَفسَه، وكل ذرة من ترابها، فيها أثر من خطوه.

وهذه الساقية، وعمى أبو المكارم، وشجرة الصفصاف...كل ذلك قد ارتوى مرة بدمعه، أو اهتز مرة بضحكه.

وهناك، قرب الصفصافة الهادئة، على شاطئ الرياح، كان جلال يجلس طويلا، وهو ينظر إلى الشاطئ فى شرود. إن أمه قد غرقت هنا. ألقوها هنا لتموت، بينما كان هو ملقى على الشاطئ حيث يجلس، لا يدرى عن الدنيا شيئا. لقد كان ذلك هو مكانه المفضل،وكانت تلك هى جلسته الحبيبة.

يا حبيبى يا جلال! لكم دمعت عيناك هناك، وأنت تستعيد ما كان، وتذكر أمك الضحية! ولكم ارتفع صوتك بنحيب مؤثر، وأنت هناك وحدك، لا يؤنسك الا صداك!

حتى عمى أبو المكارم، كان يتركك لوحدتك. كان يدرك أنك محتاج لأن تختلى بنفسك. كان يعرف أن الثورة التى تعانيها لا تتصرف عنك الا من مدامع عينيك، فكان يكتفى بأن يشاركك همك من حيث لا تراه، ولا تشعر به.

يا حبيبى يا جلال! وذهبت ..رحلت كما كنت تقول، أو لم ترحل! لا أحد يدرى! وتركتنى هنا وحدى، بين يأس قاتل وانتظار أن تعود.

هل تعود؟ وكيف تعود؟ ومتى تعود؟

ممدوح عاد، فليس عجبا أن تعود!

عد يا جلال، لتنقذنى مما أنا فيه.

عد يا حبيبى، لتضع حداً لهذا القلق وهذا الاضطراب.

انى لم أعد أعرف نفسى، ولم أعد أستطيع أن أتبين مواقع خطوى على طريق الحياة.

أنت زوجى، ويقولون أنك مت. نعم، ودفنوك هنا، وهذا قبرك، أصبح مزارا طيبا لأهل الناحية جميعا.

وهذا ممدوح. وتعرف أنت من ممدوح! خفقة القلب ومس من حنان، وقبس من نور، وشعاع أمل لا يخبو!

لكنك أنت الدنيا يا جلال.

عد يا جلال، لتملأ حياتى، فلا يصبح فيها مكان لسواك.

عد لترى ابنك. ستحبه يا جلال. ستجده جميلا مثلك. ستجده مثلى ينتظر أوبتك فى شوق وحنين.

يا جلال : أنقذنى من نظرات ممدوح! أنقذنى من ألام ممدوح! أنقذنى من دموع العاشق المظلوم! أنقذنى يا جلال من نفسى.

يا جلال أنت الحب، والزوج.

أنت العصمة والعاصم.

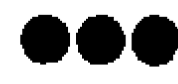
عد يا جلال لتملأ مكانك من قلبى.

إن كنت ستعود، فالأيام لا تعود الآن، يا جلال؟

إن "ممدوح"، هو الماضى الرقيق العذب. وانه ليملأ كل ماضٍ بالحب، وإشراقه فيها الومض والنبض. أما حاضرى. فإنه لم يعد يصلح لممدوح، ولا ممدوح بقادر على أن يملأه.

ممدوح..أين ممدوح؟ لقد مات، والذى هنا هو الشيخ عبد الرءوف، الذى كان يوما "ممدوح".

أنا أيضا يا جلال يا حبيبى وزوجى وأخى وأهلى. أنا أيضا لم أعد مديحة الا بقدر ما أحتفظ به من ذكريات الماضى الرقيق. أما حاضرى، فهو الشيخة. الشيخة تفيدة، ذات الطرحة البيضاء، والمسبحة، والمبخرة، والتمتمة الصالحة التى تتردد فى همس بالدعوات والمناجاة والعبادة.



وكانت الشيخة تفيدة قد وصلت إلى ساحة سيدى الذكيرى، وإذا ممدوح..بل الشيخ عبد الرءوف أمامها وجها لوجه، وقد ابتلت مآقيه.

لابد انه قد كان يبكى. مسكين وأنا مسكينة معك، لكنه النصيب، وقدر وقضاء.



قال ممدوح، وفى صوته رنة حزن وأسى :

مديحة...هل تأذنين لى أن أتحدث إليك فى موضوع خاص؟

ولم ترد.. كان الكلام فى حلقها قد جف. ومع هذا فقد كانت نظراتها كلمات.

واستأنف ممدوح الكلام، وهو يجاهد ليتماسك :

أنى يا مديحة على العهد لم تغيرنى الأيام. نعم وسأظل كما كنت، منذ التقينا فى فناء الربيع ونحن صغار.

وظلت مديحة صامتة! وأبو عوف الصغير فى حجرها.

ومضى ممدوح يقول :

طريق طويل وشاق، وقصة دامية كلها أنين ودموع. لكن الأمل قد كان دائما نورا وضياء. نعم يا مديحة، ولولاه ما تحملت آلاما، ولا صبرت على ما تعرضت له من المحنة. ولقد كنت معى فى كل مراحل عذابى، تباركين خطواتى وتمسحين دموعى ولكم سمعتك يا مديحة فى ظلمات ليالىَّ الحالكة، وأصداء كأصوات الشياطين تسد أذنى. ولولا أن صوتك قد كان يخترق الحجب إلى ما صبرت على بلواى. لكنك كنت كالعهد بك، زاد الرحلة الطويلة الشاقة.

ولم تتحدث مديحة، ولا اهتزت رموش عينيها. ظلت صامتة ساكنة لا تتحرك كأنها تمثال.

بينما مضى ممدوح فى حديثه الحزين الباكى :

لم تكونى بعيدة عنى، ولا كنت بعيدا عنك طيلة هذا الزمن الطويل. صدقى أو لا تصدقى، لكن الحقيقة الآية كنت أشعر بكل شئ يحدث لك. كنت أشعر بحزنك وألمك. كنت أرى دموعك عندما كنت تبكين. كما كنت أرى ابتسامتك عندما كنت تبتسمين. صدقى أو لا تصدقى، لكن الحقيقة الآية رأيتك كما لو أنك كنت معى، حينما بلغ بك اليأس أقصاه، ففقدت الرغبة فى الحياة، ولولا أن "جلال" قد كان إلى جوارك لتجاوز الأمر مداه، وما كان أحد ليدرى لك مصيرا آل الله. ولكم صحت بك لتهدئى، ولكم رجوتك لتصبرى، ولكم استحلفتك لتنسى أحزانك وهمومك، لكنى كنت أشعر أن صيحاتى ترتد إلى، وأنك تغلقين إذنيك دونى.

وظلت مديحة فى صمتها، قرية أخرى خرساء.

وكم يعبأ ممدوح بصمتها، فمضى يكمل الحديث :

لكن "جلال" ما أعظمه! ردك إلى الحياة، وإلى نفسك، وإلينا! ويومها شعرت كما لم أشعر من قبل، انه قد رد الحياة إلى، وكان ذلك جميلا طوق به عنقى إلى الأبد. إن "جلال" بطل، ورجل، وانسان.

واتسعت حدقتا مديحة وهى فى وقفتها تلك أمام ضريح سيدى الذكيرى، وقبر زوجها منها غير بعيد. لكنها ظلت _ مع هذا _ فى صمتها.

قال ممدوح وصوته يتهدج كأنما يتمزق :

لا تظنى يا مديحة أن لى من وراء ذلك هدفا! ماذا أقول؟. إن الهدف ولا هدف، هو أنت. ولكى تستريحى من هذا العناء وأستريح، فإنى أختصر الرحلة لأقول لك فى بساطة أننا قد تجاوزنا أحلام الصبا إلى حرمان متصل.. لذيذ!! نعم لذيذ.. كلاهما لذيذ : الوصال والحرمان..لا تعجبى. الحرمان منك، نوع من الاتصال بك! بل ربما كان الحرمان أقوى، كأنه قائم على فكرة مجردة لا تجد السبيل إلى أن تكون مادة ذات حيز وكيان، يمكن أن ترى أو تذاق. انه منذ اللحظة التى سقطت فيها فى شارع قصر العينى ليلة مولد سيدى العبيط، وأنت لجلال. ولا فرق يا مديحة فقد قسمتك الظروف بيننا، الوصال لجلال، والحرمان نصيبى منك. وكنت دائماً بيننا روحا وحياة، ودمعة وأملا.

وارتعشت شفتاها، واهتزت رموشها السوداء الطويلة لكنها ظلت صامتة، لا تنطق.

ومضى ممدوح :

الآية لم أحضر إليك، لأحتل مكان جلال منك. لقد جئتك، لأتحمل عنك المسئولية الضخمة التى تواجهينها وحدك. أما مكان جلال فسيبقى دائما لجلال. ليس فينا من يستطيع أن يملأه.ثم الآية قد صرت ماضيا فى حياتك، وأنا قانع بالذكريات. لقد كانت وصية جلال أن يعود كل منا لصاحبه. كان شهما كريما. كان إنسانا. ما أن عرف أنى لا أزال حيا، حتى جاءنى ليؤكد انه تزوجك ظانا أنى مت، أما وقد عدت فالعدل هو أن

يعود كل منكما لصاحبه. هكذا قال، وهكذا أخذ يرتب لهذه العودة، لكن إرادة الله سبقت فمات أشرف ميتة فى معركة مع الإنجليز قرب السويس.

وسقطت من عينى مديحة بضع دمعات...

تدحرجت على خديها فى تثاقل!

لكنها ظلت فى صمتها لا تبين.

وبلغ ممدوح ريقه، ثم أخذ ينتزع الكلمات من جوفه انتزاعا :

إن نصف مهمتى انتهى يا مديحة. نعم نصفها. لقد مرت أيام المحنة بسلام، ووضعت هذا الرضيع الجميل الساحر، ذكرى عطرة للبطل، صاحب القلب الجرئ. وهاأنت ذى قد بدأت تستأنفين حياتك فى خدمة ضريح سيدى الذكيرى. عن نفسى يا مديحة، أنت أقدر على أن تملئى هذه الناحية بعطر يتضوع فى كل هذه الربوع. نعم ومعك ثقة الناس وحبهم وتفانيهم.انهم يحبونك ويحرصون عليك وقد يبدو غريبا لهم أن أقتحم عليك هذه الحياة. إن هذا مكان جلال، ومكانك من بعده. وسيقتصر دورى على الحضور لإقامة الحضرة مرة كل أسبوع _إذا شئت- ثم أعود. على أنى أرجو أن تحرصى على نفسك وعلى ولدك. والنبى يا مديحة لا تهملى نفسك ولا صحتك. فإن أردت شيئا عاجلا، فأنت تعرفين كيف تتصلين بى. عمى أبو المكارم سيعرف كيف يتصل بى على وجه السرعة. مديحة. أتركك بخير. مديحة ادعى لى الله أن يصبرنى على الحرمان والعذاب. والنبى يا مديحة، دعواتك...دعواتك يا ست الشيخة.

وانصرف ...مد يده إليها، فمدت يدها إليه، فأمسك بكفها بين كفيه، ثم ثبت عينيه، ولم يتمالك نفسه، فإنحنى على كفها، يريح فوقه شفتيه.

ومضى مع أشعه الغروب، والدموع تؤنس طريقه الطويل.



هل تتلفت وراءها، لتلاحقه بنظراتها؟

هلا تملأ عينيها منه، فقد لا تراه قبل زمن طويل؟

...لا..وأنت الشيخة تفيدة! وأنت الزوجة، أو الأرملة! وأنت على كل حال الأم! لا...لا يجوز!

لكن الحرارة التى زفرها من شفتيه على كفها، قد بدأت تصبح لهبا! يحرقها ويؤرقها. شفتاه لا زالتا فوق كفها، كأنما حفرنا عليه حفرة غائرة عميقة. يا ربى! لماذا العذاب؟!

هل لا تزال تحبه؟

نعم وانه ليعرف ذلك.

لكنه حب الأمس، الذى لم يصبح اليوم أبدا.

لأنه لم تستبقه إلى جوارها، يؤنس وحدتها، ويجدد أجمل الذكريات فى حياتها؟

لكنها عادت تثور على نفسها.

وتنسين جلال، الحبيب الذى ارتفع بك فوق الدنيا والأسى والدموع والحرمان و"ممدوح"؟ وعوضك عن كل ذلك سعادة غامرة، اللحظة منها عمر كامل؟!

هل نسيه يا مديحة، لتقبلى عنه حبا، حتى لو انه حب ممدوح.

..لكن جلال نفسه، قد كان يدبر هذا وهو حى.

جلال كان يريد أن يخلى ما بينك وبين ممدوح لتعود الحياة بينكما حلما جميلا راودكما طيلة الطفولة والصبا وأول العهد بالشباب.

على أن مديحة لا ترضى أن تقنع بقبول الفكرة، لمجرد أن جلال كان يدبرها. أنها تحب "جلال"، وجلال لا يملك أن يغير حبه فى قلبها.جلال لا يملك أن يوجه حبها لشخص آخر، حتى لو أن هذا الشخص هو ممدوح.

لكن جلال قد كان يعلم أنك تحبين "ممدوح". ولقد أراد أن يحقق لك الحلم القديم الرائع.

ليته كان يعلم! ليته علم قبل أن يموت أن كل الحب الذى احتفظت به لممدوح قد تحول له هو، فصار الحبيب والزوج والأخ والصديق والأهل جميعا.

ثم انه لم يأخذ رأيى، ولو فعل، لأدرك انه قد كان سيد يطاع، آل عندما يحاول أن يصرفنى عنه أو يقطع صلتى به.

وكيف يستطيع وما بينى وبينه، أكبر منه ومنى؟ انه بطل، لكنه فى هذا خائر وضعيف.

ومن يقدر على الخفقة تتردد فى القلب، تحمل معناه؟

والنزوة تتخفى فى النفس، تستعيد أيامه وتتمناه؟

والكلمة الحلوة والدعابة المشرقة والأمل العزيز؟

و..."أبو عوف" : البراءة كلها، والحب كله، والحياة بكل ما فيها من الخير والفضيلة والجمال، وهى لا تزال بعد تؤكد وجودها، من ثدى أمها، وهو لا يفرغ من الغذاء؟

أية صلة من هذه الصلات كان جلال يستطيع أن يحولها عن مكانها من القلب والنفس والضمير؟!

..ثم الناس! لأنه عن الناس؟

أنت من نور يا مديحة، وهم من طين!

أنت فى مكانة الأقمار والنجوم تضيئين حياة الناس، لا من تراب أو طين، تحولين النور إلى ظلام!

الناس يريدونك نورا لحياتهم، فلا تخيبى ظنهم وتصبحين طينا معتما يمتص إشراقة الحياة، ليحولها إلى عتمة وأحزان!

...لكن الناس...الناس..الناس! ما شأن الناس بالناس؟

وتتمردين على الناس يا ست الشيخة؟!

أنت شيخة بالناس. زوجك كان شيخا جليلا مهابا بالناس. لقد أوسع لك الناس أطيب مكان فى قلوبهم، وأطهر مقام فى نفوسهم، فأصبح لهم عليك حق، نظير ما أودعوه فيك من الثقة، وما أولوه لك من الحب، وما أحاطوك به من العطف.

نعم ... لم يعد لك إلا الناس..هؤلاء الناس.

وبينما هى كذلك تأخذ وتعطى، من نفسها، وإلى نفسها، إذا صوت كالعواء يتردد خلفها، كمن يناديها. أنها تعرفه. تعرف الصوت وصاحب الصوت. وانها لتحبه. تحب الصوت وصاحب الصوت. وعندئذ تلفتت نحوه، وهى تمسح دموعها.

كان أبو المكارم قد فرغ من زيارته لقبر جلال، ومن قراءة الفاتحة على روحه، ومن مناجاته فى همس، ثم اتجه إليها.

كان يسأل بإشارات وحركات أصبحت تعرفها وتفهمها :

ـ أين الشيخ عبد الرءوف؟ لماذا ذهب؟

ـ لبعض مريديه..سيكون مقامه معهم، وسيأتى مرة كل أسبوع ليقيم الحضرة.

وهز أبو المكارم رأسه فى ارتياب.

لم يكن يصدق ما يسمعه. وظن أن الأمر اختلط عليها، فلم تفرق بينه وبين الناس.

وربت على كتفها، وأخذ منها "أبو عوف" الصغير، لتستريح.

لكنها لاذت به كالغريق، يطلب النجاة.

قالت له فى استعطاف :

هل تعرف الشيخ عبد الرءوف من قبل؟ هل سبق لك أن رأيته؟ هل..

وأشار إليها لم يسبق له أن رآه، لكن يعرف كل شئ عنه وأخذ يشير إلى أن عمامته هذه الخضراء، وذقنه المرسلة، ومظهر الشيخ فيه..تماما كهذه الطرحة البيضاء والمسبحة الطويلة والمبخرة والعيون المسبلة...كلها غطاء !!

وصاحت فيه :

وتعرف اسمه؟

وهز رأسه فى ثقة، ثم أشار إليها انه يعرف كذلك قصته...ودخوله المعتقل، وكيف أخذه الإنجليز ليتطوع فى صفوفهم، وحكاية جلال لإنقاذه، ومولد الشيخ العبيط وسقوطه قتيلا فى المعركة، ثم زواج جلال ...ثم حضوره إلى ضريح سيدى الذكيرى.

ومضت عنه إلى داخل الضريح وهى لا تدرى ماذا تفعل.

ومضى خلفها، يقبل رأسها ويديها، وهو يصيح بها أن تهدأ وأن تستريح.

لماذا تحزن وتبتئس وهى أشرف من حملته هذه الأرض؟

ثم هى الآن تحمل أحب اسم تردد فى سمع الدنيا : تفيدة.

وقد تزوجت من بطل شهم رائع، كان يمكن أن يكون ابنه هو : جلال.

وهذا طفل رضيع يمثل أملا كبيرا يعوضها ويعوض الناس عن أبيه :أبو عوف.

..ثم هى فى ساحة سيدى الذكيرى ولى الله، وعلى مقربة من الساقية، حيث كانت ملاعب هواه وصباه، وفى حضن زوجها القابع فى قبر عظيم يتحدث بمكانته وذكراه، وستكون دائما بين جفنيه وعلى رأسه، نورا وأملا وهدى.

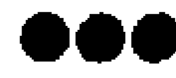
وأمسكت به. ألقت بنفسها بين يديه، ودفنت رأسها فى صدره، تجهش بالبكاء.

وأخذت أبو المكارم يهدئ من روعها ويخفف عنها ويقبل رأسها فى عطف وحنان.

وفجأة صاح بها أن تمسح دموعها.

إن أصواتا تقترب منهما، ولاشك أن الضريح مقصد أصحابها.

وكانت مفاجأة مذهلة أن ظهر على الطريق عبد المهيمن أفندى، ناظر المدرسة. وقد تدلت من بين يديه مسبحة قصيرة من الكهرمان.



لكنه ليس وحده!

من هذه السيدة التى تصحبه؟ هل تعرفها يا عمى؟

وهز أبو المكارم رأسه، مشيرا إلى انه يعرفها. لكنه أشار إليها، أن أحدا آخر فى هذه البلدة لا يعرفها، وطلب منها أن تكون حريصة أشد الحرص معها، عندما يكون أحد الانشغال حاضرا حديثهما.

وتنحى أبو المكارم فى سرعة، ودخل ضريح سيدى الذكيرى.

ووصلتها أطراف من بقية حديثها طوال الطريق.

- والله الدنيا بخير يا خالة. إن حضورك على عيوننا جميعا تتكبدين مشقة الطريق لتجبرى خاطر الأميرة أرملته، دون أن تعرفيها.

- لابد أنها أميرة وطيبة حقيقة. الشيخ رضى الله عنه كان طيبا وأميرا.

- هذا صحيح يا خالة. هذا صحيح.

- وكانا قد وصلا، وكانت الشيخة تقف أمام ضريح سيدى الذكيرى وابنها على يديها وشفتاها تتحركان كالعادة بالدعوات إلى الله، والتسبيح باسمه.

وبعد أن قرأها عبد المهيمن أفندى السلام، قال :

- حظى يا ست الشيخة. حظى كبير اليوم، أن أراك ثانية. من يرفض النعمة والبركة وزيارة الأولاد الصالحين؟ هذه السيدة ضيفة، جاءت تبحث عنك. قصدت بيت الشيخ مختار، لكن الست راضية أرسلتها فى أعقابك، حتى انتهى بها المطاف إلينا من حسن حظنا. وهى من محاسيب الشيخ أبو عوف الله يرحمه، وقد جاءت لتعزيك. لم تعرف بالفجيعة الا مؤخرا.

وقالت السيدة فى صوت حزين :

- رحمة الله يا بنتى. لقد كان شيخا عظيما جليلا. لكم كان يزورنا فى بلدنا، ليهدى الناس لله ويقيم لهم الحضرات، ويفسر لهم الدين، ويدعو لهم بالتوفيق. كانت زياراته لبلدنا نورا يضئ قلوب أهل البلد جميعا. نحن السيدات كنا ننتظره بفارغ الصبر وعندما كان يحضر كانت مشكلاتنا كلها تحل. الغاضبون يتصالحون. الأسر تتلاقى فى تقوى.أهل الخير يتحركون، والمحتاجون يجدون ما يحتاجون إليه. والله يا بنتى ما عرفنا الا أخيرا، فكان ضروريا أن أعزيك فى فقيدك. انه فقيدنا كلنا، لكنك أنت امرأته، وأقرب الناس إليه.

وبعد أن ردت الشيخة شاكرة لها هذه المجاملة الرقيقة، داعية لها ولأهل بلدها بالصحة وطول العمر والستر وتقوى الله. دعتها للجلوس إلى جانبها.

قال عبد المهيمن أفندى :

ـ تريدنى منى شيئا يا سيدتى؟ أم أعود أنا إلى دارى؟

قالت :

ـ كتر خيرك يا بنى. ربنا يخليك ويطيل عمرك. تفضل أنت.

قال :

ـ وأنت يا ست الشيخة. تأمرين بشئ؟

قالت الشيخة تفيدة :

ـ الله يخليك يا حضرة الناظر. لا شئ. لا شئ.

وسلم حضرة الناظر وانصرف، وهو يردد بعض الأوراد، وأصابعه تمر على حبات المسبحة، تحسب له، لا تنقص ولا تزيد.

وأخذت الشيخة تفيدة تتطلع إلى ضيفتها تتأملها.

انها عجوز، لكنها حلوة. وجهها جميل، وتقاطيعه مليحة. أنها فى صباها. ماذا كانت فى صباها؟ لابد أنها كانت شيئا هائلا، تستبد بقلوب الرجال. وهذا الزى الأسود، يزيدها فتنه. الطرحة على رأسها وعلى وجهها، تدارى مرة شفتها السفلى، وتغطى مرة بعض خدها، وترتفع مرة عن كل وجهها، فتبدو كأنما هى فتاة فى ربيع عمرها.

يا ربى!! فلاحة هذه، من قلب الريف!!

انها تلبس ملابس الريفيات لكن شيئا فيها يقول أنها ليست ريفية.

وهذا اللون، وهذه البشرة. هل تعرضت لقسوة حياة القرية، وبؤسها؟ وكيف ظلت مع هذا، وبرغم السنين الطويلة، مشرقة وضاءة؟

انها عجوز، لكنها حلوة، وأنى لأرى من خلال حاسة المرأة فى أعماقى أنها فى زمانها كانت تلعب بالرجال.

عيناها. هاتان الجوهرتان البراقتان، تشعان شعاعا قويا يخرج منهما ليفتك بالقلوب. وفمها فيه عذوبة ورقة لا تتوفر فى الفتيات الصغيرات.

ولا تزال مع سنها، رشيقة القوام، فارعة، كأنها عود من الخيرزان لابد أنها كانت ذات يوم تتثنى وهى تسير كالغزال.

وصاحت الشيخة لنفسها، فيما بينها وبين نفسها :

ما هذا يا بنت؟ تتغزلين فيها!! أما من حياء؟! أنها قادمة إليك لتعزيك فيما حل بك من مصيبة، فهل تشردين عنها، وعن العزاء، إلى هذا الغزل وهذا التأمل فيما وهبها الله من الفتنة والأغراء؟!!

وعادت الشيخة إلى نفسها فقالت فى صوت ضعيف كأنه همس :

- لا أعرف كيف أشكرك على هذه المجاملة الرقيقة. إن المكان الذى تركه الشيخ فى قلبى، لا تملؤه الا رحمة الله، وهذا العطف الذى ألقاه.

قالت المعزية القادمة من بعيد :

- هذا أقل من الواجب، وثقى يا ست الشيخة أن هذه الناحية كلها تحت أمرك. من هنا حتى دمنهور ستجدين القرى والكفور والعزب تحت أمرك. كلهم كانوا يعيشون على بركات زوجك، وسيكون مما يسعدهم أن يقدموا لك أى خدمة.

قالت الشيخة فى تأثر :

- ربنا يطيل عمرك يا سيدتى. أنت طيبة وأميرة. كفانى أن أسمع هذا منك ومن كل من ألقى.

وبدأت المرأتان تتحدثان فى غير العزاء.

ـ أنت من هذه الناحية يا سيدتى؟

ـ غير بعيد على كل حال. إن بينى وبينك أقل من ساعة بالقطار.

ـ إذاً تسافرين؟

ـ نعم أركب القطار إلى طنطا ثم أغير القطار آخر يتجه إلى المحلة الكبرى حيث بلدى وأهلى.

ـ وهل أهلك كثيرون؟

ـ لا يا بنتى. أنا أرملة مثلك. لا لا. اسم الله عليك. أنت لا تزالين شابة فى عز الشباب، لكنى أصبحت عجوزا.

ـ أنت لست عجوزا يا خالتى. أنت أحلى منى، ومن كل الشابات.

ـ الله يخليك يا بنتى. هذا من ظرفك. إن أولادى أكبر منك يا ست الشيخة. بنتى وهى أصغر أولادى، أكبر منك بسنوات.

ـ السن لا يهم يا خالتى. أنا مثلا لم أعد أشعر أنى شابة. إن إحساسى انى قد تجاوزت الشباب والكهولة، وأصبحت حطاما.

ـ اسم الله عليك يا بنتى. أنت لا تزالين طفلة.

ـ لا والله يا خالتى. أقول لك بصدق أنى تحطمت.

الصدمة كانت قاسية عليك يا مسكينة. كلنا نعذرك.

ـ هذا صحيح، وقد شعرت أنها نقلتنى فجأة، عشرات السنين.

ـ ربما كان هذا من فضل الله يا بنتى عليك. أنت مسكينة. الناس ينظرون إليك نظرة خاصة. أنت لست مثلنا وأنت لست كالأرامل الأخريات. أنت شيخة، وضع الناس فيها الثقة، وأخذوا يتلمسون منها البركة. مسئولية كبيرة. حمل ثقيل. ربنا يقدرك عليها يا بنتى. ربنا يقدرك.

وخفضت الشيخة تفيدة رأسها. أثقال عمرها كله تجمعت فى رأسها. آلامها كلها تلاقت فى عقلها. أحزانها. دموعها. مآسيها. ماضيها. حاضرها. كل هذا قد شد رأسها إلى الأرض، لتشرد فى الظروف التى تحيط بها من كل جانب.

ولم تستطع أن تقاوم رغبتها فى البكاء، فتركت بضع دمعات تتساقط على خدها ثم إذا الدمعات تجر دمعات أخرى، ثم دمعات، ثم دمعات، ثم أخذت الدموع تحتك فى مآقيها فتتمزق نفسها، وإذا البكاء يصبح نحيبا، وأنينا وصوتا مؤلما كأنه حشرجة الموت!!

ولم تدر الشيخة كم من الوقت مضى عليها وهى تبكى. لكنها عندما أفاقت وجدتها إلى جوارها، وقد وسدتها مكانها الحبيب، حيث كانت تنام إلى جوار زوجها فى قرافة سيدى الذكيرى.

قالت الشيخة :

ـ أين أنا؟..أين أبو عوف؟

قالت السيدة الزائرة.

ـ فى مقامك يا ست الشيخة، والولد إلى جوارك بخير.

قالت الشيخة :

ـ لا تتركينى يا خالتى. أنا محتاجة إليك.

قالت :

ـ لن أتركك يا بنتى حتى تستريحى. نامى. الله معك.

وأغمضت عينيها على الوجه البرئ الصغير، النائم إلى جوارها، يحمل صورة مصغرة من أبيه : زوجها.



وفى الصباح، مع شروق الشمس وانتشار أشعتها فوق الحقول الخضراء، وعلى هذه الساحة الجليلة.

ومع أصوات الطيور تصدح وتغنى، وهى نشوى باليوم الجديد.

ومع خفقات القلوب عند الموردة، والعذارى يتبادلن الحكاية والرواية وأخبار القلوب العطشى.

ومع الخرير الهادئ، يصدر عن ماء الساقية وهو يتدحرج إلى القنوات التى تتثنى بين الحقول.

ومع فأس ترتفع فى تأهب ثم تهوى فى عزم، ليكون فيما ترتفع وتهوى، مكان جديد، لنبت جديد.

..مع اليوم الجديد، والأمل الجديد، كانت الشيخة تفيدة قد جلست ترضع ابنها، وقد أسندت رأسها إلى جدار مقام سيدى الذكيرى، وثبتت عينيها فى قبر زوجها، كأنما تراه..كأنما زوجها هناك جالس فى القبر، يبادلها النظرات!

وكانت قد فرغت من الصلاة، واستعادت شيئا من هدوئها.

وعندما استيقظت ضيفتها من نومها، خرجت إليها ليكون بينهما حديث طويل.



- صباح الخير يا مديحة..

- تحدثيننى أنا يا سيدتى؟

- نعم أحدثك أنت يا بنتى.

- مديحة؟ أنا؟ أنا تفيدة...تفيدة يا سيدتى.

- أعرف يا شيخة تفيدة. أعرف هذا، وربما شاركت فى اختياره لك.

- أنت يا سيدتى اخترت لى اسمى؟

ـ كما اخترت اسمه هو أيضا . أنا التى سميته "جلال".

ـ أنت إذاً ...

ـ نعم أنا إذاً ... لا تقولى شيئا، فكل الناس تعرف أنى مت وأن "أبو سريع" تخلص منى كما تخلص من الشيخ مرزوق، وكما تخلص من عشرات آخرين.

ـ ولم يكن هذا صحيحا؟

ـ وبرغم انهم أقاموا سرادق عزاء، وتقبلوا فى التعازى، فقد كنت هناك أسمع عنهم، وأسخر منهم!

ـ لكن جلال لم يقل لى شيئا من هذا . ولم يقل لى شيئا عنك.

ـ لكن جلال كان يعرف اللعبة من أولها إلى آخرها، وكان يسمع ما أسمع ويسخر معى منهم!

ـ لكنهم لا يعرفون؟!

ـ حتى عباس يعتقد أنى مت.

ـ والآخرون؟

ـ كلهم بغير استثناء يعدوننى بين الموتى ويترحمون على...

ـ كلهم...

ـ الا واحدا ذهب، وواحدا بيننا لا يزال.

ـ لست أفهم..هذا صعب على. من هذا، ومن ذاك؟

ـ أما من ذهب، فهو أبو سريع.

ـ ومن بيننا؟

ـ هو هذا الأخرس. انه خزانة هائلة هذا الرجل. خزانة أسرار أمينة صامتة.

ـ لكن كيف حدث هذا؟..كيف اعتبروك ميتة؟

ـ لذلك قصة تطول. هل تريدين أن تسمعيها؟

ـ أرجو يا سيدتى...أرجوك.



وبدأت الضيفة تحكى القصة من أولها :

كان زوجك طفلا. كان كابنك هذا رضيعا، عندما غادرت القرية إلى المحلة الكبرى، حيث أهلى وأقاربى. وكان معى الأولاد، وأبو المكارم. ولم يخطر ببالى يومها أن هذه الرحلة من تدبيرهم، وأننا كنا مبعدين عن القرية، ليتهيأ لهم أن يتخلصوا من تفيدة الضحية الشهيدة. بل لم أعرف بقصة هذه الجريمة إلا بعد سنوات. تكتموها عنى، منتهزين فرصة إقامتى وأولادى فى المحلة الكبرى، وإصرارى على أن أبعد عنهم وعن أحقادهم وتدبيرهم. وما كان يخطر ببالى أبدا أن يقتلوها بل لقد ظننت أن الولد الذى وضعته، سيقوى مركزها فى البيت، ويزيد من مكانتها فى قلب الرجل المتصابى. لم أتصور أبدا أن الذى كان يمكن أن يقوى مركز البنت المسكينة الحلوة تفيدة، قد أصبح سببا للقضاء عليها. وظللت أسأل عنها، فيطمئنونى عليها، حتى جاءنى أبو المكارم بعد سنوات، دامع العينين مقروح الفؤاد، ففهمت كل شئ. والحق لقد نزلت على هذه الأخبار كأنها سهم الله. لم أدر ماذا أفعل ولم أعرف كيف أتصرف. وقلت لنفسى انه أجدى لهؤلاء الناس، أن أساعدهم، بدلا من أن أضيع الوقت فى الثأر وتدبير وسيلة للانتقام. إن "أبو عوف" وأم الهنا، وتفيدة و"جلال" أكثر حاجة إلى المساعدة منهم إلى الانتقام. وأخذت أبحث عنهم، لكن ذلك لم يكن سهلا. إن اخوتى وأهلى كانوا قد ضاقوا ذرعا بالقرية ومن فيها فلم يكن من الممكن أن أطلب منهم أن يساعدونى فى شئ يتصل بالقرية. لكنى مع هذا لم أيئس، وأخذت أبحث، حتى عرفت مكانهم. هل تعرفين أين كان مكانهم؟ فى قبور الصدقة فى أطراف دمنهور!! قبور كهذه القبور، أعدها أهل الخير، لمن

لا يجد حتى قبرا!! ولم يكونوا يستطيعون أن يجدوا قبرا، فآوتهم قبور الصدقة يا بنتى!! وكم كانت فرحتى عندما عرفت أن "جلال" لا يزال حيا.

وقالوا لى انه يعيش مع أسرة من أسر دمنهور، كجده وجدته وخالته، على الصدقة!!

وبكيت دما يا بنتى عليه ومن أجله. ذكرت أمه وقصتها، ولعنت الحاج سلطان زوجى الخسيس الدنئ، لأنه قد أخذ تفيدة الحلوة الصغيرة الشهية، ليقضى عليها وعلى أسرتها هذا القضاء!! حتى ابنه، من صلبه ومن ظهره، قد شرده على هذه الصورة لأنه ابنها !! وعندما علمت انه يقضى سنواته الأخيرة مقعدا مشلولا محطم النفس، محروما من كل شئ، أحسست أن ذلك انتقام من الله، وانه مع هذا، لا يكفى.

لكنى كنت أريد "جلال". كنت أبحث عنه.

إن حكايتى مع القرية ومع الحاج سلطان لم تكن تشغل بآلى.

بل لولا ما علمته من قصة تفيدة وأهلها وابنها، لعدت إلى القرية أضع نفسى فى خدمة الرجل المتهالك فى أيامه الأخيرة، وأنقذه من هواجسه ومن أوهامه ومن آلامه. لكن قصة البنت الصغيرة الضحية الشهيدة، قد فاقت كل شئ عندى. لم أعد أستطيع أن أتصور كيف أرى هذا الرجل ولا أخنقه! كيف أقابل هؤلاء الناس ولا أبصق على وجوههم الكريهة المشوهة !!



وعندما جاءنى أبو سريع، رفضت أن أراه، لكن أخوتى أصروا على أن أراه. فلما لقيته تحدث إلى وتحدثت إليه، حديثا كله حدة وغضب :

ـ الحاج سلطان.. مريض جدا، يا ست قمر.

ـ هذا قليل عليه وعليك وعليكم جميعا.

زوجك يا ست قمر. رجلك. انه زوجك ورجلك وأبو أولادك.

- هذا من سوء بختى، ومن نحسى.

- إن للزوج على زوجته حقوقا يا ست قمر.

- فإذا رفضت الزوجة؟ إذا ثارت؟ إذا عصت؟

- وما ذنب الأولاد يا ست قمر؟ الرجل يريد أولاده. يريدك ويريد أولاده.

- الأولاد لا يريدون أن يذهبوا إليه. لا يريدون أن يروه. الأولاد يعلمون مدى الخسة والقذارة التى وصلتم إليها. ألم تقتلوا تفيدة بحجة أنها أنجبت ابنها من واحد منهم؟ من سامى؟ أو ناجى؟ لم يكن ينقصكم إلا أن تقولوا من وردة؟! يا ناس! كفى كذبا وادعاء! كفى ضحكا على عقول الناس وعواطفهم ! الحاج سلطان مريض. الحاج سلطان محتاج إليكم. الحاج سلطان يعانى سكرات الموت. تستغلون عواطف الناس، وتتاجرون بمشاعرهم! لكن كل هذا انكشف للناس جميعا. والأولاد أنفسهم لا يريدون. تظن أن سامى أو ناجى يقبل أن يضع عينيه فى عينى واحد منكم بعد أن اتهمتموه بخيانة أبيه، والخروج على قواعد الشرف ضد أبيه؟! أنا لا أريد لأولادى أن ينزلقوا إلى هذا الحد من الاستهتار والفحش. لا، ولا أريد لهم أن يعانوا من الشعور بالخسة والدناءة، لأن أباهم هو هذا الرجل الدنئ، ولأن أقاربهم هم هؤلاء العصابة من اللصوص سفاكى الدماء.

- لكنك لن تستطيعى أن تغيرى أسماءهم ولا ألقابهم. انهم أولادنا يا ست قمر.

- فى شهادة الميلاد لا أكثر. لكنهم ليسوا أولادكم فى ارتكاب الجريمة والميل إلى الشر.

- يا ست قمر ستندمين على هذا. ستندمين.

- تهددنى يا شيخ الخفر. تهددنى؟

- أنا أدافع عن العائلة التى أنتسب إليها.

- التى تنتسب إليها أو تستغلها؟

- كفى يا ست قمر. هذا كثير.



وذهب شيخ الخفر خائبا يا بنتى. عاد بخفى حنين إلى القرية. فلما لم يجدونى قد عدت معه، ثار عليه حماه، وثارت عليه زوجته وبدا فى نظر الناس نعجة لا حول لها ولا قوة.

أهل القرية أنفسهم سخروا منه، وتغامزوا عليه، حتى لقد فقد الرجل أعصابه ولم يعد يطيق شيئا.

ورفض حماه أن يدخل عليه. قال فى حشرجة المرضى وهزال العمر : أبو سريع لم يعد رجلا. أبعدوه عنى، فأنا لا أطيق أن أراه وقد صار خنثى وعلى كتفه بندقية.

وحزت هذه العبارة فى نفسه، فذهب إليه ووقف ببابه، وكان حوله اخوته وأبناؤه وأسرهم : غضبان وسيد وممتاز الكبار والصغار، ودرة زمانها وست الدار وعباس وأبو المكارم والتابعون والخدم.

واكتفى أبو سريع، بأن وقف كالجبل الأشم، واهتزت الحجرة بأنفاسه الحارة التى زفرها فى غيظ المجروح. ثم قال :

ـ كلمة واحدة لن أكررها يا حاج. أنا ذاهب إلى المحلة، ولن أعود من هناك إلا بخبرها. رتب للجنازة يا حاج. اتفق مع الفراش والمقرئين. لابد أن تكون جنازة هائلة.انها زوجتك يا رجل. زوجتك البندرية يا عمى الحاج. وأضاف لنفسه فى همس : وأية زوجة؟ زوجة ملبن، تترجرج كالبالوظة

ـ الوحيد يا بنتى الذى تحرك من أجلى كان عباس. لقد صاح فيهم يقول :

ـ انتظر يا شيخ الخفر. انتظر. ماذا فعلت يا عمى الحاج؟ هل أنت متأكد أنها رفضت أن تحضر؟ ربما أن "أبو سريع" لم يسمع رأيها أو لم يفهمه قد تكون مشغولة مع الأولاد فى مواسم امتحاناتهم. يا عمى الحاج سلطان قل له لا يفعل، حتى تتأكد على الأقل.

ونظر إليه الحاج سلطان فى احتقار. :إنما كان كلامه هراء. لم يهتم بأن يرد عليه، وترك الأمور تجرى فى طريقها. ترك "أبو سريع" يذهب ليسفك دمى!! الكلب المسعور!!

هل أفلح أبو سريع يا شابة؟

هاأنذا أمامك بلحمى وعظامى. دمى لم يسفك، وحياتى لم تزهق. وقد قدر لى أن أعيش برغم كل هذا !

على انهم أقاموا سرادقا ليتقبلوا العزاء فى! وأتوا بأحسن المقرئين يحيون ليلتى! ولم يكتفوا بليلة. امتد العزاء ثلاث ليال يا مديحة! واحتفلوا بالخميس الصغير، والخميس الكبر، والأربعين!

لكن الحاج سلطان قد مات قبل أن يحيى مرور سنة على وفاتى.ماذا أقول؟ يرحمه الله!! لا يجوز أن يرحمه الله على ما فعله بالناس! يكفى ما فعله بتفيدة حتى يعذبه الله عذابا لا ينتهى! يكفى ما آل مصير ابنه جلال، حتى يجحمه الله، لا أن يرحمه!! إنى خجلة منك يا بنتى. قد كان الرجل زوجى. قد أنجبت ولدين وبنتا، يحملون اسمه. قد عشت معه، وعلى أية صورة كانت هذه العيشة، لكنها واقع فى حياتى وحياته. ومع هذا فإنى أكرهه وأحتقره وأدعو عليه. لا سامحك الله يا حاج سلطان!

ترين هنا قبره، كالحا كحياته!

انظرى، قبر مفضوح!

أرادوا أن يكرموه، فأقاموا قبره فى مدخل القرافة، لكن القبر قد قام على شفا جرف هار، يتمزق! وينهار منه كل حين جانب! الستر يا بنتى من عند الله، وهو يمتد إلى الإنسان فى قبره!!

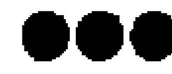
أى فرق؟! هذا قبرك يا بنى. جلال ابنى يا بنتى. وأنت عندى كزوجة ابن من أبنائى. أنا شهدته قبل أن يخرج إلى الدنيا، وهو لا يزال فى بطن أمه ثم شهدته وهو طفل رضيع يناغى أمه بالبكاء والصياح والضحك. ولم أره بعدها إلا رجلا هائلا يكافح الظلم، وينتقم لكل مظلوم.

إن قبر جلال مشرق رائع، بينما قبر أبيه مغموس فى الوحل! هكذا كان يجب أن يكون فرق ما بين حياة هذا وذاك. لكن الأنصاف يا بنتى قد لا يكون إلا عند الله، بعد الموت! الحمد لله على كل حال. الحمد لله.

قالت مديحة :

- لكنك لم تقولى لى كيف كان الاحتفال بموتك؟ كيف فكروا فى إقامة هذا الاحتفال؟ هل؟.. ماذا أقول؟ إنى خجلة من سؤالك، هل مت يا خالتى؟

- وضحكت الست قمر فى هدوء، وهى تستعيد تلك الذكريات، وترويها لمديحة، أو الشيخة تفيدة، وقد أسندت كل منهما ظهرها إلى جدار المقام، وأبو عوف الصغير، ساكت، كأنما هو ينصت إلى الرواية والحديث.



الحقيقة يا بنتى، لقد كنت أعرف أن لهؤلاء الناس وسائل كثيرة للتخلص ممن يريدون التخلص منه. لا ذمة، ولا ضمير، ولا شرف. شئ واحد يهمهم هو أن يتخلصوا من خصومهم، بأى شكل، وبأى أسلوب، حتى لو دفعوا الشرف ثمنا. طبعا، ولم لا؟ القاتل لا يقتل وهو شريف. كاللص لا يسرق وهو شريف. وطالما انهم اتجهوا للشر، فقد تساوت عندهم ألوان الشر جميعا، ولم يعد للشرف فى حياتهم مكان.

وحسبت انهم سيلجأون إلى أى سلاح لتحقيق أغراضهم.

صحيح كان اتكالى على الله، وكنت دائما مؤمنة أن الأعمار بيد الله، وانه إذا كان عمرى قد انتهى على يد أبو سريع، فلن يستطيع الحرص أن يطيل فى عمرى، لكنى أردت أيضا إلا ألقى بنفسى إلى التهلكة. وقلت فى نفسى أحرص بقدر ما أستطيع، وليكن بعد ذلك ما يكون.

وتصادف أن خلا البيت لعدة أيام إلا منى. الأولاد كانوا فى دراستهم فى القاهرة، وأخوتى كانوا خارج المحلة لأعمالهم المختلفة، ولم يكن فى البيت أحد إلا أنا، وخادمة كانت تساعدنى على أداء بعض اللوازم الضرورية، وتشترى حاجاتى من الخارج.

وذات مساء أحسست أن شبحا يراقب خطواتى. كنت أشعر أن هناك شخصا يتبعنى، بل وكدت أشعر بخياله فى أثر خيالى، وأنفاس تنفث السم حولى كأنها أنفاس أفعى!

وكنت فجأة، فيخيل إلى انه وقف هو الآخر عن متابعتى! وخطر ببالى أن أصرخ، وأن أستغيث! لكنى آثرت الانتظار وطول البال.

وعندما أرادت الخادمة أن تخرج لقضاء بعض الأمور، كدت أستوقفها لتبقى معى، وإلى جوارى، لا تفارقنى أبدا.

يا ربى!! لماذا يستبد بى الخوف على هذه الصورة المزعجة؟ لماذا تدب فى قلبى هذه الهواجس، كأن هناك من يتربص بى ليتختطفنى!!

لكنى قرأت فاتحة الكتاب، وسميت الله وصليت على النبى ولم أطلب من الخادمة شيئا. إن كانت حكمة الله فى أن تذهب فلتذهب. وإن كان القدر قد دبر خروجها ليتم فى أمر الله فلتخرج.

لكنها ما كادت تفتح الباب حتى ذكرت أنها نسيت شيئا فعادت.

ولم أرها وهى تعود. لقد قبعت فى فناء الدار مستسلمة لهواجسى وأوهامى. تكومت كأنى قطة تتنفض من البرد والخوف والظلام. كل ما كنت أراه أن باب المنزل لم يكن مغلقا تماما. وفكرت فى أن أقوم لأغلقه، لولا أن ماردا طويلا ضخما افتح الباب، وفى يده سلاح مشهر، يحمل فى فوهته الغدر والموت.

ولم أستطع أن أنطلق! لم أقدر على الحركة! أحسست أن جسمى قد أصيب بالشلل! حتى الصياح، حتى الاستغاثة، حتى البكاء قد عز علىَّ.

ولم يرنى المارد الذى دخل. لم يتنبه لوجودى. لابد انه ظن الخادمة هى أنا، فتبعها إلى حيث كانت فى إحدى الحجرات.

وفى سرعة البرق كان قد أطلق عدة رصاصات وانصرف.

وسقطت الخادمة وهى تصرخ.

ورأيته وهو يخرج...أبو سريع المجرم، وقد ظن انه قضى علىَّ!..

وأسرعت إلى الخادمة، فإذا هى غارقة فى دمائها، لكنها لم تكن قد ماتت.

وستر ربنا، وعثرت على جار من الجيران تولى إسعافها.

وأرسلت إلى أخوتى فعادوا على عجل، ونصحونى بأن أكتم الأمر، حتى لا يشيع بما يؤذى شعور الأولاد.

وكنت أختلف معهم. كنت أرى أن هؤلاء يجب أن ينالوا جزاءهم وانه لن يؤذى شعور الأولاد بشئ، ولن يسئ إليهم كذلك أن ينال المجرم جزاءه. لكن أخوتى يرون أن "أبو سريع" هو فى النهاية زوج أختهم فإذا ذاع انه قدم ليقتل أمهم، وانه أخطأ فأصابت طلقاته الخادمة، فإن الناس قد يفسرون الأمر على غير حقيقته. إن "أبو سريع" نفسه قد يفترى على بالباطل، فيزعم انه فعل ذلك دفاعا عن شرف الأسرة !

وسكت على مضض، وقيد المحضر ضد مجهول، وانتهى الموضوع.

لكنى لم أستطع أن أستريح. أبدا، ولا هدأ لى بال!..

وعندما بلغنى انه عاد إلى القرية بنعى، ثارت نفسى. المجرم الكذاب يدعى موتى، وأنا حية أرزق !! وكدت أذهب بنفسى لأكذب رواياته الخرافية، لكن أهلى منعونى عن الذهاب.

وعلمت أن الوقاحة قد وصلت به إلى حد إقناع الرجل العجوز المجنون زوجى بأن يقيم مأتما يتقبل فيه عزاء الناس فىَّ.

وبرغم هذا رفض أهلى أن أذهب.

قالوا : وهبى انهم فعلوا أكثر من هذا، ماذا يهمك أنت، وقد قطعت صلتك بالقرية ومن فيها؟ هل تريدنى أن تجددى علاقتك بهم؟

وسكت على مضض. مات العجوز المشلول، كالكلب، لم تودعه دمعة أسى!!

وعدت أبحث عن جلال. وبلغنى أن المحامى الذى كان يعيش معه قد مات، وانه اضطر إلى العودة إلى بلدته، يبحث لنفسه عن مأوى بين أهله وذويه. لكن "أبو سريع"

أبى أن يكون له فى القرية مقام وطرده، لأنه سيكون نجسا كأمه. وجره التجريح إلى أن يعيد الحديث عن أمه، وعلاقتها بأولادي، وكيف كان هذا الولد ثمرة هذه العلاقة النجسة.

عندئذ لم أطق صبرا. وقلت فى نفسى، سأذهب إلى القرية لأربى هذا الكلب بنفسى. ان مجرد ظهورى بعد الافتراء القذر عنى، وعن أولادى، وعن جلال، يفضح الكذب والافتراء.

ولم أستشر أهلى فى هذه المرة، وسافرت إلى البلدة، لأواجه هذه الأكاذيب بنفسى.

ومررت "بأبو المكارم" عند الساقية، فى طريقى إلى البلد.

كان قد أوحشنى، وكذلك كنت محتاجة إلى أن أعرف أخبار البلد وماذا يتردد بين جنباتها من شائعات.

وأقبل أبو المكارم مذهولا أول الأمر، وهو يعجب لعودتى كأنما قد بعثت! ثم أخذ يرحب بى ترحيبا حارا. كان يبتسم ويبكى. كان يقبل يدى، ويجرنى ودموعه على خديه إلى شاطئ الرياح، كأنما كان يقول لى : أغرقوها هنا.

وجلست إلى جواره على حافة الساقية أسمع قصة القرية، وما يدور فيها من أحداث.

وقلت له :

لكنى ذاهبة يا "أبو المكارم" الان. لابد من أن أؤدب الكلب المسعور "أبو سريع" ولن أبيت فى هذه البلدة. سأعود قبل الغروب.

لكن "أبو المكارم" أبقانى، وهو يقول إن هناك مفاجأة سأسر لها سرورا بالغا، وأن على أن أنتظرها لأنها ستغير كل شئ.. كل شئ.

ودهشت وانتظرت أسمع "لأبو المكارم" وهو لا يمل الرواية والحديث على طريقته الخاصة.

وفجأة سكت "أبو المكارم" فى حذر، ثم تركنى واختفى خلف الصفصافة وعاد ومعه فتى صغير جميل ورقيق، وتركه يقدم نفسه إلى.

وكانت مفاجأة.

قال الفتى :

أنا جلال سلطان.

..جلال!! جلال سلطان من؟! جلال سلطان؟! تقول جلال سلطان؟

قال :

نعم هذا اسمى. ربما كان أوضح أن تعرفى إنى ابن تفيدة.

وأخذته بين ذراعى أقبله وأضمه إلى صدرى، ودموعى ودموعه تغرق وجنتيه ووجنتى.

وبعد أن هدأت نفسانا، وزالت حدة المفاجأة وعرف هو أن قصة موتى كانت كذبة كبيرة دارى بها أبو سريع خيبته، تبادلنا حديثا طويلا :



حكى لى جلال عن الظروف التى مر بها. وكيف كانت نهاية جده فى السجن غامضة، لا يعرفون إلا انه مرض، ومات. ثم جدته، وكيف فقدت عقلها، ثم لحقت بجده، ثم خالته التى رحلت وراءهما، لتستقر إلى جوارها فى حفرة بسيطة فى احدى قرافات دمنهور.

..وبقى هو مع رءوف. ثم حكى قصة رءوف، وقصته مع رءوف، وكيف قاوم، وسجن وعذب، وتعرض للأغراء، فما سلم أو لان...لكنه حاول أن ينسى فتلمس السلوى فى جلسات الكيف، مع المدمنين على انه _ بالرغم هذا _ كان أول أستاذ علمه ورفع مستواه، حتى اختاره الله.

وحكى لى جلال انه قد ظل إلى جوار والدة رءوف حتى رحلت هى الأخرى، فلما رحلت شعر انه وحيد، مقطعوه من شجرة، بائس مطرود من كل مكان.

وفكر فى أن يعود إلى القرية.

كان كل ما يشغل باله، أن يجد له أهلا وبيتا.

لكنهم طردوه. لم يسمحوا له بأن يعود..طردوه ليمنعوا نجاسته من أن تلوث شرفهم!!

- كأنهم شرفاء! كأنهم أحرار! كأنهم أبرياء!!

- لكنك تعرف أن أمك بريئة.

- طبعا أعرف هذا. جدى قال لى هذا فى سجنه. إن كل الثمن الذى دفعه ودفعناه، قد جاء نتيجة لهذا.

- كيف؟..اشرح لى يا بنى.

- جدتى أم الهنا التقطت كلماته ودارت بها تبحث لجدى عن مخرج من سجنه، وأخذت تصيح فى كل مكان : زوجى برئ. أبو عوف برئ. سجين برئ. أطلقوا سراحه.

- ولم يكن ذلك ممكنا بطبيعة الحال.

- لكن الأستاذ رءوف، نشر الموضوع كله فى صحف المعارضة، وكانت نهاية جدى. منعونا من زيارته أو رؤيته، ولم ندر بعدها إلا انهم أبلغونا انه مات، لنتسلم جثته. كيف مات؟ هل كان موته طبيعيا؟ هل قتلوه؟ هل عذبوه حتى مات؟ لا يدرى أحد شيئا عن حقيقة ما حدث.

- وبعدها توالت المصائب.

- طبعا جدتى فقدت عقلها. لم تصدق مما حولها شيا. ظنت أنها قتلت زوجها، بهذا الحرص على خروجه، وأنها لو تركته فى حالة لكان عمره قد امتد فى سجنه سنوات أخرى، تراه ويراها، ولو من خلف القضبان، مرة كل أسبوع.

- وخالتك مفيدة؟

- كـــانت فى نفس الموقف. لا ترى إلا ســـوادا. لا تحس إلا وخـــزا لا تشـــعـــر إلا بالعذاب..والمحنة، وحياة النحس التى تقضيها.

- ورءوف ألم يستطع أن يفعل شيئا؟

- رءوف كان فى حالة أشد، هو المحامى الشاب الذى رسم الخطة، وقد انتهت خطته بموت جدى فى السجن، بلا أن يشهد موته إلا سجانوه! رءوف كان يشعر انه هو القاتل يا خالة قمر.

- مسكين ..ما ذنبه؟

- وكان قد أحب خالتى مفيدة، وكانت بدورها قد أحبته، فلما عرض عليها الزواج رفضت، ولم تقبل. كانت تفكر فى أمى، وقد قادها مصيرها إلى شاطئ الرياح، ليدفعوها إلى الماء لتموت! كانت تقول له أن أختى دفعت حياتها نتيجة خطأ كهذا، وأنا ضعيفة يا سيدى ومسكينة ومسئولة عن هذا الصغير. وكانت تقصدنى. لهذا لم تقبل أن تتزوجه واستمر الرجل يعطف علينا برغم هذا، حتى ماتت خالتى، فأخذنى لأعيش معه ومع أسرته.

- والله انسان رءوف هذا يا جلال.

- يا سلام يا خالة، لا تعرفين جهده فى العمل الوطنى، وفى الخدمات العامة لأهل دمنهور. لقد كانت له مواقف رائعة. وكم سجن، وكم عذب، وكم أغروه بالمال والمناصب والألقاب، لكنه كان عصيا عليهم، ولم تغره كل هذه المغريات، ومضى يكافحهم كفاحا عنيفا، حتى حطموه. نعم حطموه. فإنحرف يتلمس النسيان فى المخدر. مسكين.الله يرحمه.

- وأنت يا مسكين. ماذا فعلت؟

- وأحسست أن "رءوف" يريد منى أن أبقى إلى جوار أمه المريضة، فوضعت نفسى فى خدمتها، حتى رحلت هى الأخرى. وهكذا صرت وحدى، وأدور حول نفسى فى فراغ.

وذكرت أن لى أهلا، فجئت أتلمس عندهم الأمن وراحة البال، لم أكن أطلب إلا بيتا وأهلا، ولقمة عيش جافة تقيم أودى. وكنت مستعدا أن أبذل كل جهدى مقابل هذا. لكنهم أبوه على، لأنى نجس كأمى !!

- وأنت أطهر منهم وأشرف.

- ويصيح "أبو سريع" فى العمدة، أخى، والله لا يبقين هنا. أنتم تجلبون النحس على بلدنا وعلينا. يخرج كما جاء. إن أباه قد طرده وحرمه من ميراثه، فكيف يبقى هذا بيننا وهو ابن حرام، ليس من صلب أبيه. وخرجت يا خالتى، وفى عينى دمعة محبوسة، تكاد تفتك بى. لكنى على كل حال دبرت أمرى. لا تخافى على يا خالة. لقد أصبحت أشيع الرعب فى قلوبهم، وأجعلهم يتلفتون إذا ساروا.

- أنت يا جلال!! أنت لا تزال فتى غض الإرهاب !! كيف يتأتى لك هذا؟

- بالقلب الجسور. هؤلاء جميعا كلاب، تخيف الناس بالنباح. لكن النباح لا يهز إلا الضعفاء. ولست ضعيفا يا خالة. وعلام الضعف والخوف والخور؟ أنا نحس، وكل من حولى رحل. ولقد فقدت طعم الحياة، بل لم أعد محسوبا فى الأحياء. أنا مخلوق مجهول النسب والدم عندهم.

- أستغفر الله العظيم. أنت ابن أبيك. أنا أقسم على هذا.

- أنا أعرف هذا يا خالة، لكنى فى نظرهم كاللقطاء، بل ربما كان اللقطاء أشرف. فكل اللقطاء انحدروا من ظهور آبائهم، لكنهم انحدروا قبل الأوان، أو خلسة من الرقباء، أو تمردوا على أوضاع المجتمع. أما أنا فليتنى كنت فى نظرهم كاللقيط!

- اسم الله عليك يا جلال. اسم النبى حارسك يا بنى. لا لا..لا تقل هذا الكلام.

- على كل حال لقد رتبت نفسى على أن أريهم النجوم فى عز الظهر.

- لكنك صغير على هذا يا بنى.

- ها..ها..ى! تعرفين سبع الليل. أصبح نعجة، يسخر منه الناس! حرقت زراعته. ثم حرقت بيته. وكلما اضطهد أحدا بسطت عليه حمايتى.

- يا نهار! أنت! لكن من أين لك هذا؟

- من قلبى يا خالة كما قلت لك.

- ووحدك؟

- معى صهرى العزيز المسطول.

- عباس؟

- نعم عباس وعدد من أشقياء الناحية.

- يعنى... أشقياء الناحية...أنت تعلم. لا، لا تعلم...

- اسمعى يا خالة. أعرف أن الذى يتردد فى ذهنك أن أكون قد تحولت إلى شيخ منسر، أقتل وأسفك الدم، وأسرق، وأستأجر لحرق الزراعات أو سم الماشية...لا يا خالة لا تخافى. أنا لست هذا الصنف من الناس. أنا أحمى الضعيف والمحتاج. أنا أحرس ممتلكات الناس. قلت الناس وعندما أقول الناس، فليس هؤلاء الناس هم العمدة و"أبو سريع". العمدة وأبو سريع، وأقاربهم يدفعون نظير هذه الحراسة، والا ...فهم يعرفون!! أما المحتاجون الطيبون الشرفاء، فنحن نحميهم من هؤلاء بلا مقابل.

- هذا شئ لا يعرفه الريف.

- ليعرفه إذاً ...لم لا يعرفه، إذا كان ممكنا؟ طالما أن هؤلاء الانجاس _ لا أنا _ أقوياء، وطالما أن السلطة معهم، فلا بد من وجود قوة تحمى الضعفاء. الحكومة تحمى الأقوياء، فعلى الضعفاء أن يجدوا من بين صفوفهم من يحميهم من الحكومة. هل نكون حكومة كالحكومة؟هذا مستحيل!! لا حل يا خالة إلا هذا!! ثقى فيما أقوله لك. وأنا لست لصا، ولا سفاحا! أنا فلاح صغير مظلوم أنا صوت كل مظلوم مطرود مثلى. كل ضعيف، أنا أحميه، ولست محتاجا لشئ كثير. سلاح، وحركه مدربه، وقلب شجاع. عندئذ يركع المستبدون من الخوف. انهم قوالب فارغة، يستغلون خوف الناس وجهلهم وحاجتهم.

ـ لكن هذا عمل خطير ...

ـ نعم وعلى قدر ما فيه من خطر، يكون ما له من أهمية.

ـ وقد يفتكون بك. انهم ليسوا ضعفاء كما ترى.

ـ إذاً ليكن بيننا صراع على القوة. ليجرب كل منا قواه.

ـ هم أقوى.

ـ هذا وهم.

ـ عليك أن تحذرهم.

ـ لا تخافى على.

ـ على كل حال أنا مسرورة لأنى رأيتك، وعلى أن أذهب الان إلى البلد، لأفضح الكلب المسعور "أبو سريع".

ـ لا يا خالة. لا تذهبى. ماذا ستستفيدين من ذهابك؟

ـ أفضحه وأبين كذبه، ويعرف الناس الحقيقة عن تفيدة الشريفة المظلومة وعنك وعن أخويك سامى وناجى.

ـ الناس يعرفون هذا. ثقى انهم يسمعون "لأبو سريع" ولا يصدقون. انهم يدركون بحس لا يكذب الحقيقة كلها. قد يحاولون إرضاء "أبو سريع" بأن يتظاهروا بتصديق رواياته، لكنهم يعرفون الحقيقة فيما بينهم وبين أنفسهم.

ـ لكن!! لكن بالى لن يرتاح إلا إذا ...

ـ هل أكمل أنات لك...الا إذا انتقمت منهم. أليس كذلك؟

ـ نعم هذا هو ما أريده يا بنى.

ـ إذاً دعيهم يعرفون أنك قد مت. هذا أحسن والله يا خالة.

ـ لا أفهم شيئا.

ـ سنعمل معا. سنستغل معرفتهم أنك ميتة، لتقومى بخدمات هامة لنا. للذين يعملون على تحرير الناس من الفزع والخوف، والفاقة والحاجة والحرمان. لن يعرفك أحد. أنت ميتة، ولذا فسيسهل علينا أن تقومى لنا بالخدمات اللازمة. تتصلين بمن نريد، وتنقلين عنا ما نريد أن نبعث به إليهم. هذا مهم جدا. وأنت أصلح من يقوم بهذا. أنت تعرفينهم جميعا. تعرفين الأعيان والفلاحين، وهم ناس سذج لا يدققون فى شئ. أقصى ما سيقولونه عندما يرونك أن الله يخلق من الشبه أربعين، وستكون المسألة بسيطة أن تغيرى بعضا من ملامحك لتبدى أكبر سنا مثلا أو أقل بياضا أو أسمن عودا. أى شئ. أى تغيير يجعلهم يصدقون أنك أحد الأربعين الذين خلقهم الله على شاكلتك. ثم تلبسين ملابس ريفية، بطرحة سوداء تخفين بها نصف وجهك، وتدارين بها بعض ملامحك، فلا يعرفك أحد.

ـ فإن عرفونى؟..

ـ لن يصدقوا أنك الست قمر.

ـ وماذا سيكون عملى؟

ـ كثير يا خالة. كثير!

واتفقنا بشرط أن يدبر طريقة أواجه بها "أبو سريع" وحده، فقد كنت حريصة على أن يعلم هو على الأقل انه كذاب وانه نعجة لا يزال. أو خنثى كما قال عنه حماه، قبل أن يموت.

وافترقنا يا بنتى على اتفاق، بعد أن عرف كيف يتصل بى، وأين يجدنى عندما يريدنى.



وبدأ جلال يتردد علينا فى المحلة بين الحين والحين. وعرفته بأهلى وباخوته وكم أحبوه، وكم فرحوا به! وكان جلال يرتاح إليهم ويثق فيهم. كان يروى لهم أخبار القرية،

وهو مستغرق فى ضحك طويل. وكان يحب وردة حبا شديدا. كان يقول لها كلما لقيها : لولا أنك يا وردة أختى، لخطفتك! ما أسعد من تكونين من نصيبه! طبعا، أخت جلال يا ست البنات! وكانت تضحك من قلبها لدعاباته اللطيفة. كانت تقول لى عندما تخلو إلى : إننى أحبه يا أماه. انه مسكين، يتيم عذبوه كثيرا، لكنه لا يزال يضحك ويمزح، ولا يحمل فى قلبه هما.

أما سامى فكان قد أصبح مهندسا للرى، وكان جلال فخورا جدا به. كان يقول له فى مزاح : يا باشمهندس أنت يا هائل! الذهبية التى تروح بها وتجئ تهز النيل هزا. كلما رأيت مياه النيل ترتفع، صحت انه أخى الباشمهندس، وعندما تنخفض مياه النيل، أقول لنفسى، لابد أن الباشمهندس متوعك المزاج اليوم.

وكان ناجى قد أصبح ضابط بوليس، من رجال الضبط والربط.

كانت نجومه وزراره الصفراء تبرق فى أناقة وترتفع، فكان جلال يعظمه تعظيما عسكريا كلما رآه، ويقول له : لا تظن أنك تخيفنى.لا يهمنى ضابط كبير مثلك. سأظل _ برغم هذه النجوم والأزرار _ أفتك "بأبو سريع" ورجاله. صحيح أنت أخى، وأنت حكمدار على سن ورمح، لكن هذا شئ، وعملى هناك فى الحقول وبين المزارع شئ آخر. أنا حكومة الناحية. أنا حامى الضعفاء والمساكين. ارشد عنى يا حضرة الضابط إذا شئت.

وكانوا إذا اجتمعوا يمزحون ويضحكون ضحكا بريئا صافيا لا يكدره شئ.

كانوا ثلاثة أخوة متحابين بكل ما فى قلوبهم من عاطفة، وكانوا جميعا يحبون حبا عظيما. وكانت وردة تحبهم أشد الحب، وتتمنى لو استطاعت أن تقدم إلى كل منهم السعادة التى ينشدها.

وكم كانوا يقولون لجلال :

ـ لماذا لا تقيم معنا هنا إقامة دائمة؟ لماذا لا تعيش معنا، وسنحاول أن نجد لك عملا تعيش منه.

فكان يصمت، ويشرد فى شئ مجهول، ثم يقول لهم :

ـ واترك الكلاب المسعورة تنهش لحوم الأبرياء !! أخون أهلى وأصدقائى!!

ـ نحن أهلك. نحن أخوتك.

ـ لكنكم لا تحتاجون إلى، إنما الذين هناك يحتاجون إلى. نعم وهم بدونى يتامى يعانون الفزع والضياع.

ـ وهل أنت مسئول عنهم؟

ـ نعم، ولابد من أن أعمل على حمايتهم. من يحمى المساكين هناك ممن يتربصون بهم لينقضوا عليهم؟ الشيخ مختار، وعبد النبى الحاج خميس وأم الفرح، من يحمى هؤلاء؟ وسعد العاشق المسكين، من يربط قلبه وينيله ما يتمناه؟

أنتم هنا لا تعرفون، آه لو قدر لكم أن تعرفوا!

ـ وأنت محاميهم! اتركهم يدافعون عن أنفسهم!

ـ ليتهم يستطيعون! انهم عندما يستطيعون، فإنه لن يصبح للطغاة مكان هناك.

ـ صحيح...هذا صحيح.

لكم كانوا يسألونه عما يفعله هناك، فكان يروى لهم القصص والروايات وكيف أن السادة الكبار، من العمد والأعيان، قد صاروا يخافونه وترتعد فرائضهم منه. وروى لهم انه اختار لنفسه اسم شبل، شبل يستعمله فى معاملاته مع الظالمين والمظلومين. أما العمدة وشيخ البلد والأعيان، فقد أصبح هذا الاسم أبغض الأسماء إلى قلوبهم، وأما الشحات وأم الفرح وسعد وعبد النبى الحاج خميس، فقد أصبح هذا الاسم أملا ينير طريقهم.

وكم كانت وردة تضحك معه وهى تقول له :

ـ يا أخى يا شبل. إلا تحب هذا الاسم؟

ـ وأنت سأناديك بأخت شبل، ليرتعدوا منك أنت الأخرى.

وكان الأولاد إذا تأخر عليهم يقلقون عليه، ويرسلون فى السؤال عنه.

وكان أخوتى يشتاقون إليه، ويحبون أن يطمئنوا عليه.

وأصبح جلال جزءا من حياتنا، لا تكتمل بدونه. وكم كان اخوته يقولن عنه انه بطل، وانه ولد شهم وجرئ، وانه صاحب قلب جسور لا يهاب. كانوا فخورين به، وإن كانوا مشفقين عليه.

وقد جاءنى جلال ذات يوم وقال :

ـ الا تزالين تريدين أن تواجهى الكلب المسعور "أبو السريع"؟

قلت فى لهفة :

ـ يا ليت يا جلال يا بنى. هذه أمنية أن أثبت له انه كذاب، وأنى أعرف انه تاجر بموتى بصورة بشعة.. أريد أن أكشفه وأن أؤدبه.

قال فى ثقة :

ـ إذاً تحضرين إلى هناك بعد يومين. نلتقى عند الساقية.

وذهبت إليه يا بنتى فوجدته فى انتظارى.

قال :

ـ سيحضر هذا الكلب الان. سيمر من هنا فى طريقة إلى المحطة. انه ذاهب إلى النقطة. وسيكون معه خفيران. لا تخافى من الطلقات التى ستنطلق حوله. لابد أولا من إبعاد الخفيرين عنه وجره هو إلى داخل زراعات الذرة، وسيجدك هناك فى انتظاره. لا تخافى منه، فسأكون منك غير بعيد، ولو حاول أن يؤذيك، فسيدفع حياته قبل أن تمتد إليك يده. أعطه الدرس الذى تريدين، لكن عليك أن تعرفى أن من المصلحة أن تظل القرية تعرف أنك ميتة. إن هذا سيكون من مصلحتنا كلنا. إن الفوائد التى نجنيها من

ذلك كثيرة وهامة. فليكن ذلك فى التقدير. إن هذه المواجهة ستساعد على تحطيمه. وهذا يكفى.

وبعد أن فهمت منه الخطة، تركنى واختفى، وصرت وحدى! حتى أبو المكارم اختفى من حصن الصفصافة، إمعانا فى تمثيل الدور.

وشعرت إنى وحدى فى هذه الساحة الخالية، إلا من خيالى، وصوت الساقية المتصل مع كل دورة من دوراتها، بغير انقطاع وبغير اختلاف.

وخفت، حتى لقد وقف شعرى.

لكنه طمأننى إلى انه سيكون منى غير بعيد.

وكدت أصيح به ليحضر، لأغير موقفى كله.

وما هى إلا لحظات، حتى سمعت صوته يهدر كالرعد، وأصوات أخرى تتردد مع صوته لكن فى هزال الضعيف الخائف.

وكان على أن أختفى داخل حقول الذرة، لتتم العملية كما رسمها جلال.

وبينما أنا أتسلل بين الحقول، كانت الطلقات النارية ترج المكان رجا.

وارتبك الخفيران، فأطلقا لسيقانهم العنان، فارين من هذه الطلقات. لكن الطلقات تابعتها حتى فرا بجلودهما من الموت. أما أبو سريع، فقد سحبه رجلان مثلمان إلى حقول الذرة ودفعاه داخل الحقول دفعا، ثم تركاه.

فلما تلفت داخل الحقل، وجدنى أمامه وجها لوجه.

وصاح فى خوف :

ـ لا ...لا!!! لا يمكن. هذه عفريتة. بسم الله الرحمن الرحيم.

وقلت له :

ـ تعال هنا يا رجل يا نعجة. توهم الناس أنك أسد، وأنت أجبن من الأرنب.

- وارتعدت فرائصه وهو يقول فى فزع :

- لا..لا! الست قمر أنا قتلتها بنفسى. سقطت أمامى على أرض الحجرة فى المحلة. أنت عفريتة ...نعم عفريتة. عفريتة.

ولما حاول أن يدير ظهره لى ويجرى، سحبته من جلبابه وقلت له :

- عيب يا شيخ الخفير تجرى كالنساء. انتظر لتسمع يا جبان. أنا قمر. لست عفريتة ولا شيطانة. قمر زوجة الحاج سلطان الثالثة، البندرية التى أقمت لها مأتما استقبلت فيه وأهلك، المعزين !! أنا أمامك بلحمى وشحمى، لم أقتل يا جبان. حتى القتل لم تقدرعليه!! وهو صنعتك وأكل عيشك يا نذل!! أم أن أصابعك صارت فيها الحنة، ولم تعد قادرة على أن تمسك الزناد!! تريد مروحة من ريش النعام بدل البندقية يا امرأة!! يا خنثى!! تكلم. هأنذا أمامك يا كلب. أجبنى.

قال فى ارتباك شديد :

- والله يا ست قمر، أنا لا أصدق عينى. أنا قتلتك بيدى! أنا أطلقت عليك النار حتى سقطت أمامى!! لو أن واحد آخر هو الذى قال لى هذا لشككت فى الامر، لكنه أنا. أنا الذى ذهبت بنفسى.

هل صحيح هى التى أمامى؟

وصحت فيه :

- نعم هى التى أمامك يا جبان. سأذهب معك إلى البلدة الان لأفضحك. سأفرَّج عليك الناس جميعا، سواء منهم من يساوى، ومن لا يساوى! سأفضحك يا شيخ الخفر سأجعل أهل البلد جميعا يعرفون أن الرجل المارد المخيف، ليس إلا فأرا يتخفى فى الشقوق!

وقال فى رجاء وتوسل :

- لكن يا ست قمر أنا لم أكذب.

قلت فى حدة :

ـ أنت كذاب وجبان. أنت تقيم لى مأتما وأنا على قيد الحياة يا مجرم. سيعرف الناس الان حقيقتك.

قال وهو ينتفض :

ـ هل يخلصك أن تفضحينى؟

قلت :

ـ وهل يخلصك كل ما تفعله؟

قال :

ـ ربنا أمر بالستر. استرينى ربنا يستر عرضك.

قلت :

ـ يا كلب. هل تعرف قيمتك الان؟ سأفضحك.

قال :

ـ لكنك ستضعيننى فى موقف سيئ جدا. أنا قبضت الثمن، وسيكون ظهورك فضيحة وأذى لى، وأنت ماذا تستفيدين بكشفى؟ ماذا يهمك من البلد كلها؟

قلت فى غيظ :

ـ يهمنى أن يعرف الناس الحقيقة.

قال :

ـ وتعودين لكن بعد أن تحطمينى! لماذا؟ اتركينى فى حالى يا ست قمر، ولك على أن أنفذ لك كل ما تريدين.

قلت :

ـ تعترف أنك كذاب، وأنك جبان، وأنك نعجة.

قال :

- يا ست قمر!

قلت :

- سأذهب إذاً إلى البلد.

قال فى لهفة :

- لك هذا ...

قلت :

- بل تقولها.. تقر بالحقيقة.

قال فى ذلة :

- حاضر. أنا أقر بالحقيقة يا ستى.

قلت :

- بل تقولها صراحة.

قال :

كذاب يا ستى. كذاب وجبان.

قلت :

- ونعجة!

قال :

- ونعجة!

..وفى هذه اللحظة، ارتفعت ضحكات من كل مكان، وظهر الرجلان الملثمان، ونظرا إليه فى ازدراء، ولم يقولا شيئا. أشار أحدهما إليه، بطرف أصبعه ليعود من حيث أتى، فتراجع بظهره. حتى خرج من الحقل، ثم مضى فى الطريق يتلفت حواليه.

وعدت يا بنتى بعدها إلى المحلة. استراحت نفسى لهذا، وشعرت إنى انتقمت.

وفى الطريق إلى المحلة، كان جلال يضحك من منظر شيخ الخفر ويستعيد كلماته وهو يكاد ينكفئ على وجهه من كثرة ما ضحك.

قال :

ـ ألم أقل لك يا خالة انهم جبناء؟ المسألة مسألة وهم! وهذا الفريق من الناس أذكياء، وهم يعتمدون على وهم الناس لكن ما أن ينجلى هذا الوهم، حتى ينهاروا كما رأيت.



وسكتت الست قمر قليلا ثم استأنفت الحديث. قالت :

ـ هل قال لك جلال يا بنتى شيئا عن سالمة؟

ـ نعم يا خالتى قمر، قال لى انه تزوجها، وأنها ماتت فى أثناء معركته مع "أبو سريع"، ورجال البوليس.

ـ لكن هل قال لك انه لم يهزم ضعفا؟

ـ هزم كالعادة غدرا.

صحيح يا بنتى. على كل حال، لقد اتصل بنا من سجنه وطلب أن نطمئن على أهل سالمة : أمها وأبيها وأخوتها. وكان يهمه أن يعرف ماذا حدث لهم، وأين استقروا. كان يتوقع أن "أبو سريع" سيطردهم. وذهبت إلى "أبو المكارم" أسأله لكن "أبو المكارم" لم يكن يعرف، وقال انه حزين من أجل جلال وقلق عليه. وأضاف "أبو المكارم" انهم طردوهم طرد الكلاب، وقد رآهم يسيرون على جسر الرياح، لكنه لا يعرف أين انتهى بهم المطاف. ولما سألته عمن يعرف، قال عباس. وأصبح لابد لى من أن أقابل "عباس"،لأعرف منه ما أريد. وذكرت كلمات جلال أن أقصى ما سيتصورونه أن أكون واحدة من الأربعين شبيهة اللائى يشبهننى، لكن أحدا لن يصدق إنى قمر بنفسها. وأدركت على الفور لماذا كان يؤثر أن أظل فى نظر القرية ميتة.

وعندما قابلت "عباس" هز رأسه وهو يتطلع نحوى وأخذ يقول لنفسه فى همس :

ـ صحيح يخلق من الشبه "أربعين. ماذا أقول؟ الست قمر؟ يا ولد استح!! الست قمر ماتت وشبعت موتا! هل نسألها؟ لكن أى سخف؟! ما شانها هى بأن قد كان فى هذه القرية ذات يوم واحدة تشبهها!؟ ثم ان هذه أكبر. أنها فى عمر أمها!

ومضت شكوكه، أو لعله ابتلعها فى جوفه.

وقلت لعباس :

ـ جلال يهديك السلام.

وصاح فى عجب :

ـ هل تقابلينه؟ هل تعرفينه؟

قلت فى هدوء :

ـ طبعا أقابله، وأعرفه.

قال فى حماسة :

ـ والنبى يا خالة تسلمين لى عليه. انه بطل جسور شهم.

خسارة والله شبل، أو جلال. خسارة يقع فى قبضتهم. رجل قلبه من حديد، لا يهاب النار. مثل هذا يقع؟! والكلاب تمرح فى طرقات القرية والحقول؟!

قلت له فى دعابة :

ـ لا يقع إلا الشاطر يا عباس

قال على الفور :

ـ لا ...لقد كان الأمر غدرا. أبو سريع الجبان غدر به. وذهب جلال إلى السجن. جلال المنصف العادل، الذى إلى على نفسه أن يعيد ماشية الشحات إليه يسجن،

والمستبدون يمرحون!! جلال الذى وضع البسمة على فم أم الفرح وسعد يسجن، والذين يضعون الدمعة فى كل عين، يروحون ويجيئون! يا خالة. خسارة يا خالة.

قلت له :

- على كل حال إن "جلال" سيعود بعد أن ينتهى سجنه. ويومها ...

وصاح :

- يومها سأستقبله بالعناق والقبلات.

- قلت له لن يكون وحده على كل حال، ثم سألته عن أهل سالمة، وأين ذهبوا، فروى لى انهم رحلوا من البلدة، بعد أن لم يعد لهم فيها مكان. خرجوا هاربين بحياتهم من "أبو سريع" ورجاله.

وعرض أن يصحبنى إليهم إذا أردت.

وقال إن علينا أن نسير على جسر الرايح متجهمين إلى الناحية البحرية مخلفين البلد وراء ظهورنا، لنستقبل قرى أخرى وعزبا تتناثر بين الحقول. وبعد نصف ساعة من المسير، نصل إلى طريق سيارات، فنستقبل سيارة قرابة ساعة، ثم ننزل ونسير قرابة نصف ساعة أخرى، لتجدهم حيث ألقوا رحالهم.

لكنى يا بنتى لم أكن أستطيع أن أفعل ذلك. لم يكن لدى الوقت ولا الجهد ولا كنت أضمن إلا أفاجأ أية مفاجأة قد تسبب حرجا لأولادى.

قال عباس :

- إن كثيرين من أهل البلد يمرون بهم، ويرونهم لكنهم يعودون بحسرة فى قلوبهم من سوء ما آل إليه مصيرهم. ثم هم لا يستطيعون أن يتحدثوا عنهم إلا سرا. ولولا أن أهل البلد يحبوننى، ويثقون بى ما قالوا لى عنهم شيئا.

وافترقنا على أن أدبر أمر لقائى معه كلما دعت إلى ذلك ضرورة، عن طريق خبر أتركه له فى دكان معين من الدكاكين المحيطة بمحطة السكة الحديد. وما على بعد ذلك إلا أن أذهب فى الموعد المحدد إلى خص "أبو عوف" المهجور لألقاه.

وأخذت مديحة تفكر فيما تسمع، وتهز رأسها تربط بين هذا الكلام وكلام حضرة الناظر.

...إذاً كانت رواياته صحيحة، وهذه هى المرأة العجوز التى كانت تتردد على الخص، تحمل رسالات جلال إلى عباس، وتحمل إليه كذلك بعض المساعدات ليحملها عنه إلى أسرتها، حيث استقرت فى أحد أطراف قرية بعيدة.

لكن متى يا مديحة؟ متى كان هذا يتم؟

حتى الان الرواية التى تسمعينها عن فترة سجنه فى دمنهور عقب القبض عليه أول مرة، ولم يثبت عليه أى اتهام، إلا حيازته لسلاح بدون ترخيص.

اذ ذاك لم تكونى يا بنت تعرفينه، ولا كنت قد قابلته على الاطلاق.

لكن الأحاديث التى رواها حضرة الناظر تتناول فترة أخرى. لابد أنها قد كانت بعد السجن قبل أن يعتقل أو بعد أن فر من المعتقل، أو أثناء المعتقل، فانهما لم يكونا قد التقيا بعد. البلوى أن تكون بعد المعتقل. أثناء أن كانا يعيشان معا : شيخا جليلا وشيخة وقورا، فى خرابة النداهة فى المنيرة!

يا نهار اسود!! هل كان يخونها، وهما يعيشان معا؟! هل كان يرسل الرسل إليهم سرا، وفى جنح الظلام، من وراء ظهرها؟!

وغلى الدم فى عروقها، وكادت مديحة تثور... كادت تصرخ من غيظها.

وبدا لها قبره _ مثلما كان _ يخونها! فلم تستطع أن تطيل النظر إلى القبر!

ولولا أن "أبو عوف" الرضيع قد صاح يطلب ثديها، لقامت من مكانها ذاك تبحث لنفسها عن مهرب من نفسها.

وبينما تضع ثديها فى فم الرضيع البرئ، قالت بغير أن تشعر بما تقول :

كنت أنت الذى ينقصنى؟! "أبو عوف"!! حتى الاسم اختاره ليذكرونى به فى كل خطوة أخطوها! هل كان لابد من هذا؟!

قالت الست قمر فى هدوء :

- تغارين يا مديحة؟ تغارين من ذكراها؟ من قوم مساكين يأكلون الطين؟!

قالت فى نفور وخجل :

- أنا...أغار مم؟. لا يا خالتى أبدا.

قالت الست قمر :

- قولى هذا لغيرى يا بنتى. أما أنا فإننى أعرف كل شئ. على إنى أريدك أن تطمئنى.أن جلال تزوج سالمة، وهو فتى يافع يخطو خطوته الأولى فى طريق الشباب. كان طريدا مشردا يأوى بين الحقول والزراعات، بلا أهل ولا أم ولا صديق. لم يكن له إلا الرجل الأخرس أبو المكارم، ثم خصومات وأحقاد وكراهية ومؤامرات. أحبته سالمة حب عبادة. أحبته من قلبها، فلم يكن من المعقول إلا يرحب بهذا الحب الحب، وقد أحاطه عالم من الكراهية والبغضاء. وكانت فترة قصيرة، انتهت بأن ماتت على صدره. لقد أبوا عليها أن تدفن فى أرضهم. الشرف كان إلى هذا الحد يطفح من أرضهم، فخافوا أن تخطفه منهم، وهى ميتة! وحملها أهل الخير من القرى المجاورة إلى مقابر الصدقة فى قرية قريبة! ثم دخل جلال السجن، وخرج من السجن، وعاش حياة كفاح طويل، انتهت به إلى المعتقل، ثم هرب من المعتقل ليلقاك وليتزوجك وليكون له منك هذا الصغير الجميل. فإن فكر فى أهل سالمة، فهل تغارين؟ تغارين من ذكرى ميتة؟! تغارين من قوم مساكين محتاجين مضطهدين؟ تغارين من أسرة مكونة من رجل عجوز وامرأة فقدت نفسها، وثلاثة أطفال يتامى، يعيشون مع جدهم على حافة ترعة من ترع احدى القرى؟! تغارين ممن يا مديحة؟ تغارين من الفقر؟ تغارين من الحاجة؟ تغارين ممن يا بنتى؟ إياك أن تغارى. إياك أن تلوثى الأثر الطيب الجميل الذى تركه لك زوجك. ترك لك الحب، والحنان والولد، والصيت الطيب والسمعة العطرة. والله تحمدين الله على هذه النعمة. طبعا هذه نعمة. انظرى إلى وقارنى نفسك بى. أنا ورثت عن الحاج سلطان الاستبداد والظلم. ورثت سمعة بغيضة ثقيلة إلى قلوب الناس. ورثت اتهام أب لأبنائه

بخيانته فى شرفه من وراء ظهره ظلما وكذبا. ورثت ماذا؟ ورثت أولادا يحفظون فى قلوبهم أسوأ ذكرى لأهلهم، ولولا أن الله أعاننى على تربيتهم، وأنى بذلت لهم كل ما أستطيعه من الجهد، لكان طبيعيا أن يفسدوا وينحرفوا، ويصبحوا مشردين على المقاهى وأماكن اللهو! ومن كان يدرى، ربما كان مآلهم إلى السجون لا قدر الله! هذا ميراثى من زوجى يا مديحة. بل هناك الثلاث ضرائر. واحدة مسكينة الله يرحمها، وهى الصغيرة التى اغتصبها، والاثنتان الباقيتان كانتا أسوأ حيتين، تنفثان السم فى كل مكان. ثم تغارين يا مديحة يا بنتى؟ احمدى ربنا على ما وهبك من السمعة والصيت. قد لا تقدرين ذلك الان، لأنه بين يديك. كل منا لا يعرف قيمة النعمة وهى بين يديه. لكن الذين يعرفون قيمتها، هم الذين يفتقدونها. أنا أستطيع أن أقدر هذه النعمة، لأنى عشت عمرى أتطلع إليها، لكنى حرمت منها طول حياتى مع العجوز المتصابى، المرحوم الحاج سلطان، وحتى بعد أن جحمه الله إليه!! جلال يا مديحة كان يحبك. أنا أعلم هذا ولطالما تحدث عنك. كان يعيش لك ومن أجلك ولعلك لا تعرفين انه دفع حياته أخيرا لك. حياته يا مديحة كانت آخر هدية منه إليك.

ودهشت مديحة ...اتسعت حدقتاها، وهى تتطلع إلى الست قمر، ويدها فوق ثديها تسنده ليستقر فى فم ابنها.

قالت فى صوت مخنوق :

- دفع حياته لى؟.من يا خالتى قمر؟ جلال مات من أجلى؟!

قالت الست قمر فى ثقة :

- نعم يا مديحة مات من أجلك.

ونظرت الست قمر إلى القبر الأبيض الذى يطل على هذه الدنيا من عل فى كبرياء الموتى، وقالت وهى تهز رأسها :

سامحنى يا بنى! جلال سامحنى! إذا أنا قلت لها، فلا تغضب منى، وأنت فى دنيا الحقيقة مع الأولياء والصالحين. نعم إنى أعلم أنك لا تريدها أن تعرف. بل انك كنت

تريد أن يظل هذا سرا مدفونا معك، حتى لا تقصر حياتها عليك وعلى ذكراك يا كريم النفس، يا سمح الصفات يا شجاعا، يا أكرم من عرفت، يا جلال. حتى فى موتك أردت أن تضرب المثل على التضحية والإيثار!! لكنى سأقول لها يا جلال..نعم سأروى لها القصة كلها. الحى يا جلال أبقى من الميت. أنها حية لا تزال، ومن حقها أن تحيا متفتحة النفس بذكراك ووفائك وتضحيتك الكبيرة الغالية. هل أغلى من نفسك، وقد ضحيت بها؟! أما أنت فجزاؤك عند الله كبير ...

وشهقت مديحة فى فضول وهى تقول :

يا خالتى..والنبى يا خالتى قولى لى. ما هذا الذى تتحدثين عنه؟ أية قصة كتمها عنى جلال؟.. ما حكاية الحى والميت، والسر الذى لم يكن يريدنى أن أعرفه؟ والنبى يا خالتى قولى لى كل شئ.. كل شئ..كل شئ..



وأخذت الست قمر تحكى لها الحكاية :

لقد كان جلال يا بنتى شخصا غريبا، آخر ما يفكر فيه نفسه. وهب نفسه للناس ولبلده فلم يعد يهتم بنفسه كما يفعل الناس، وكما نفعل كلنا.

وكان يحبك يا مديحة حبا شديدا. لكنه كان يشعر بأنك تحبين "ممدوح" وأن حبك له، لا يعدو انه فى حقيقته حب لممدوح.

كان يقول فى شرود ": على كل حال، نحن نلتقى فى حب ممدوح. أنا كذلك أحبه، كما تحبه. بل ربما كان حبى لممدوح أكثر من حبها هى له. أنا أحبه حتى بعد أن مات وسقط شهيدا فى شارع قصر العينى، وسأظل أحبه حتى نتلاقى فى الآخرة.

وكنت أقول له : يا جلال يا بنى أنها تحبك أنت، لا تحب ممدوح فيك كما تظن. المرأة هكذا، حبها مرتبط بالظروف والأشخاص، وحكاية الحب الدائم عند المرأة خرافة. وهى خرافة كذلك عند الرجل. ليس هناك حب دائم. الحب مرتبط باتصال الناس، وبما يكون

بينهم من علاقات، وبالظروف التى تحيط بهم، وبالناس المحيطين بهم. كل هذه العلاقات تحدد شكل الحب ودرجته كما تحدد طبيعته. أنت تتصور أن مديحة تحب "ممدوح" طول هذا الزمن، وانها تحبه وهو ميت وانها إذا كانت تحبك، فإنها تعبر فى الحقيقة عن حبها لممدوح. هذا هو الوهم يا جلال. هى تحبك أنت لا "ممدوح" إن "ممدوح" قد صار عندها ذكرى طيبة. هذا صحيح. وهى لا تكرهه. لا تكره ذكراه فإن المسكين لم يفعل شيئا ضدها. أحبها، وظل يحبها حتى مات. لكن فرق كبير بين هذا وبين أن تكون حتى الان تحبه، ولا تغير عاطفتها له، وأن ترى فى كل صورة من الصور التى تقابلها حبيبها الواحد والوحيد الذى لا تحب سواه. هذا إسراف يا جلال.

وكان جلال يقول لى يا مديحة : بل إنى لم أقل هذا، ولا أزعم أنها لا تحبنى. هى تحبنى لا جدال، لكن حبها الأصيل ليس لى. لكل إنسان يا خالة قمر وعاء معين يتشكل حبه عليه. هذا الوعاء قد يكون مادة، وقد يكون نوعا، وقد يكون فكرا مجردا. وهو لا يأتى صدفة، ولا يفرض. انه يتكون وفقا لظروف معينة وعلاقات معينة، وأفعال معينة وما يكون لها من انعكاس فى نفس الإنسان. وعندما يتكون لدى إنسان هذا الوعاء فإنه يقيس به كل حب يدخل حياته. قد يكون الحب أكبر، فيفيض الوعاء به، ويبدو نافرا على غير المقاس. وقد يكون أصغر، فيضطرب فى هذا المقاس الكبير!! وقد يكون مختلف النوع، أو مختلف الطبيعة، فيتناقض مع هذا الوعاء!! والوعاء الذى لدى مديحة وعاء تفصيل!! قد على ممدوح، ولم يعد من الجائز أن يصلح لواحد إلا إذا كان من نفس الطينة، ونفس الطبيعة، ونفس المقاس! وأنا من نفسى الطينة، ومن نفس الطبيعة، لكنى لا أدرى إن كنت من نفس المقاس أم لا؟! هل يا ترى أبدو أكبر، فتتدلى من الوعاء بقاياى؟

هل أبدو أصغر، فأتحرك قلقا داخل الوعاء؟! لا أدرى!! ولو إنى مختلف تماما عن الوعاء، لقابلتنى صاحبة الوعاء بالبغض والكراهية! هل تستطيع مديحة مثلا أن تحب واحد "كأبو سريع"؟! طبعا لا ! فإن فرض عليها، فستكرهه. إنى لست "أبو سريع" على كل حال. وأنا من الطينة التى شكل عليها الوعاء، لكن هذا لا ينفى أن الوعاء قد تكون

على مقاس آخر. إن أصلح من يحتله هو ممدوح. هذا شئ لا جدال فيه. البدلة التى يفصلها الترزى على شخص معين، تصلح أولا للشخص الذى فصلت له. لكن ليس معنى هذا أن ليس هناك شخص آخر من نفس المقاس، فيلبسها دون أن تبدو ضيقة عليه أو واسعة عليه. طبيعى هناك آخرون قد يكونون مثله لكنه سيظل أصلح من يلبس هذه البدلة. وحتى الاخرون مثله، لن يكونوا مثله تماما. هل تعرفين البصمات يا خالة قمر؟ ليست هناك بصمة كبصمةأخرى!! كل بصمة بأصبع. كذلك مقاسات الاشخاص، كل مقاس برجل أو امرأة. لهذا فإنا أحتل مقاس سواى. احتل وعاء فصل على واحد غيرى. هذا ما أقصده من أن مديحة تحب "ممدوح" فى شخصى. هل أنا واضح يا خالة قمر؟ هكذا كان يحدثنى يا بنتى، بهذا الاسلوب. ولانه كان يحبك، فقد كان أهم ما يشغل باله أن تكونى مرتاحة البال، وسعيدة! جلال كان هكذا، شديد العناية بالناس، خاصة هؤلاء الذين يحبهم. كان ممن يؤثرون الناس على أنفسهم. لهذا فقد كان دائم التفكير فيك، كان حساسا! يا بنتى إلى أقصى حد. ربما لم تكونى تلاحظين عليه هذا لكن ثقى انه كان يلاحظك ويدرك عنك ما لا تفصحين عنه أنت. تفكيرك. لفتاتك. حركاتك، شرودك عنه، انفعالاتك. كل هذا قد كان يلاحظه فى صمت واحترام. لم يكن يغار كما تظنين، لكنه كان يحدث نفسه بانه لو قدر لك أن يمتلئ وعاؤك بمن فصل الوعاء عليه، لما تعرضت لكل هذا.. أنا أعرف "جلال" يا "مديحة" هو كان هكذا.

كان من القلة النادرة التى تفكر على هذا النحو من الحساسية التى تصل فى الحقيقة إلى درجة الشفافية.

مسكين يا بنى يا جلال. لكم عانيت من حساسيتك المرهفة الشفافة!!

قالت مديحة، تقاطع الست قمر :

ـ لكن هل أسألك يا خالة عن وعائه هو. هل كان وعاء جلال مفصلا على واحدة بعينها؟ هل كان هذا الوعاء قد قدَّ على حب معين؟!

قالت فى غير تردد :

ـ نعم يا مديحة وعاؤه فصل على واحدة ميتة!

وأسرعت مديحة تقول في انفعال :

ـ سالمة؟ سالمة؟

قالت الست قمر :

ـ أبدا.. سالمة كانت شكلا من أشكالها، ملأت الوعاء ذات يوم. لكنها ليست هى المقاس الذى فصل عليه الوعاء.

ـ قالت مديحة، وقد ارتاحت نفسها قليلا :

ـ من إذاً؟ من إذاً يا خالة؟ قولى من؟

قالت الست قمر :

ـ تفيدة الشهيدة الغريقة يابنتى. تفيدة أمه بطبيعة الحال.

وهزت مديحة رأسها كمن لا يصدق، فقالت الست قمر :

ـ يبدو أنك لا تصدقين! صدقينى يا بنتى فإن "جلال" لم يكن عنده إلا مقاس أمه المظلومة. كل حياته كانت المأساة التى تعرضت لها. فتح أذنيه على صراخها وهم يلقون بها فى الرياح، فظلت هذه الأصوات تتردد فى سمعه حتى مات! تصورى حياته بعد ذلك عند الساقية، على شاطئ الرياح، فى نفس البقعة التى غرقت فيها أمه. ثم طرد من البلد كلها إلى دمنهور، لتستمر المأساة فى حياته متصلة.

ـ جده فى السجن وجدته تحاول إظهار براءته، لكنها لا تستطيع، فتفقد عقلها، ثم تموت. وخالته تلحق بجدته بعد مرض عضال. ثم يضطر المسكين إلى أن يعيش مع محام غريب.

ـ لكن المحامى يرحل هو الآخر، ويتركه لا يعرف ماذا يفعل. ويعيش المسكين مع والدة رءوف حتى تموت!! سلسلة متصلة الحلقات، من المحن والعذاب، كل حلقة تسلمه للحلقة

الاخرى، فى غير رحمة، وكلها تذكره بأمه. إن المأساة بدأت منها، بغير ذنب، إلا أنها كانت حلوة، وأن أباه المجرم الدنئ، قد طمع فيها واشتهاها، فأخذها قسرا لتبدأ هذه السلسلة من الالام. من أجل هذا فقد كان جلال مرتبطا بأمه إلى أقصى حد. كان يعرف أنها كانت جميلة فاتنة، وأن هذه قد كانت جنايتها!! وكان يعرف أنها كانت تحب "أبو المكارم" وتتمنى لو انه كان نصيبها، لكن حظها وحظه كان مثله آخرس لا ينطق. فكتمت حبها بين جوانحها لا يظهر ولا يبين. وبينما كانت فى بيت زوجها مغتصبة مغلوبة، كان الاخرس ببابها، مكلفا بحراستها ووضع نفسه فى خدمتها فى نار من جانبها. على جانب حياة الجحيم التى تحياها مع رجل أنانى قادر لا يهمه إلا أن يلتهمها! يحشو بها نزواته، ويرضى بها جوعه إلى مزيد من الشهوات!! وعلى الجانب الاخرالحبيب الصامت الاخرس، ينظر إليها فى اشفاق وحسرة، يستبد به القلق، ويكاد يقتله الحرمان! هل تصدقيننى الان يا بنتى؟! إن وعاء الحب عند جلال _ إذا أخذنا بكلامه _ قد كان مفصلا على أمه، برغم انه لم يرها، فقد ماتت وهو رضيع. وعندما احبته سالمة بادلها الحب، لأنه كان فى حاجة إلى الحب يعوض به حياة الخوف والفزع والقلق التى كان يحياها. ثم لأنها كانت مثله ومثل أمه مظلومة ومغلوبة على أمرها. ثم كانت حلوة أيضا كما كانت أمه.

واضطربت "مديحة" وهى تسمع هذا الحديث. ما هذا؟ وماذا عنها هى؟ هل كانت هى أيضا على مقاس أمه؟ وأى شبه بينها وبينها، دفعه على حبها؟ أم انه تزوجها لمجرد الشفقة عليها؟! وأخذت تدير فى رأسها هذا الكلام الذى تسمعه من الست قمر، وتشعر أنها تقسو عليها! لكن الست قمر، ما ذنبها؟ أنها تروى لها أراء جلال عن الحب وعنها. جلال لم يكن يحبها!! لماذا تزوجها؟! ربما يكون قد أحبها! لكن كيف حدث هذا، وكان يعتقد أنها لم تكن تحبه؟! وإنما كانت تحب "ممدوح" فيه؟! كانت تحبه بدلا عن ممدوح! هكذا تقول الست قمر نقلا عنه.

وهل يمكن أن يحبها، وهو يعلم أنها لا تزال تحب واحدا سواه، وانها تملأ به هو فراغ قلبها؟ هل هذا ممكن؟!

وبينما هى على هذه الحال من الحيرة والاضطراب، قالت لها الست قمر :

- أعرف يا بنتى أنك لابد تسألين نفسك الان عن موقفه منك. أى مكان كنت تحتلين من هذا الوعاء العاطفى الذى تشكل فى قلبه، على مقاس أمه وعلى شاكلتها؟

قالت "مديحة" :

- تسبقيننى إلى ما أفكر فيه يا خالتى قمر؟ من أين لك هذه الدراية بنفوس الناس وعواطفهم؟

قالت الست قمر فى رضاء :

- من الزمن والناس والمآسى التى عشتها وشهدتها. من التجارب الطويلة والزواج المنحوس، والمؤامرات والفتن والأحقاد. على كل حال، لقد كان جلال كثير الحديث عنك، والشغف بك، وأنا أعتقد انه كان يحبك، برغم ما كان يقوله عن الأوعية والمقاسات والبصمات والبدل المفصلة على ناس معينين. بل ربما كان حديثه ذاك دليلا على مزيد من الحب لك، والحرص على أن يوفر لك كل أسباب الراحة والاطمئنان، حتى لو كان ذلك على حساب حبه وهواه، وحتى لو ضحى فى هذا السبيل نفسه!!

قالت مديحة فى فضول :

- والنبى يا خالتى تقولين لى كيف ضحى بنفسه. كيف جاءت نهايته على هذه الصورة المفاجئة، وهل كان لذلك علاقة بى؟

قالت الست قمر وقد شردت عن الدنيا، وحبست دموعها فى مآقيها :

- هل كان لابد من أن تلتقيا؟ لماذا التقيتما يا جلال؟ لماذا سعيت لتراه؟ نصيبك!! ماذا أقول؟ هذا نصيبك!! لقد كنت هكذا، لا تهرب من شئ، بل تواجه أى شئ حتى الخطر، لا تعرف الخوف، ولا الهروب.

وسالت مديحة :

- من؟ يلتقى بمن؟ من تقصدين يا خالتى قمر؟

قالت الست قمر :

ـ أقصد "ممدوح" يا بنتى. عندما التقى به، وعلم انه لا يزال حيا، تغيرت حياته، وبدأ يدبر أمره، ليعود إليك وتعودين إليه.

قالت "مديحة" فى دهشة :

ـ يدبر أمره؟! معنى هذا أن موته مدبر!! بل وهو الذى دبره!! هذا شئ غريب يا خالتى قمر.

قالت الست قمر :

ـ لا لا يا بنتى. هو لم يدبر موته! لقد أعفاه الله من تدبير النهاية، فوضع نهايته على هذه الصورة. أما الذى كان يدبره، فهو أن يفسح الطريق لممدوح ولك بصورة أخرى.

قالت فى غضب :

ـ أى صورة؟! كان ينوى أن يطلقنى مثلا.

قالت الست قمر :

ـ ولماذا مثلا؟! بل كان ينوى هذا على سبيل التأكد، لكنه كان ينوى ذلك على كره شديد منه. إنى أذكر يوم جاءنا بعد أن قابل "ممدوح" وكيف كان ممتقع الوجه كأنه مريض. كان منفعلا إلى درجة التوتر، وكان يتصنع السكينة والهدوء، وحاول أن يكتم سره فى ضميره، فلم يستطع. التف حوله سامى وناجى ووردة، وأخذوا يقنعونه أن يحكى لهم عما يضايقه. أليسوا اخوته؟ أليسوا من أصل واحد ودم واحد؟ وبعد الحاح شديد، روى لهم انه قابل "ممدوح" وحكا لهم قصة ممدوح، وكيف لقيه فى المعتقل، ثم كيف أخذوه وحملوه حملا على أن يتطوع فى صفوف الحلفاء، لينكلوا به ويتخلصوا منه، وكيف هرب هو من المعتقل ليدبر خطفه من أيدى سارقيه، وكيف التقى بمديحة وتعاونا على إنقاذ ممدوح. لكن "ممدوح" سقط أمامهم فى شارع قصر العينى أثناء المعركة، ومضى كل شئ دون أن يدرى هو إلا انه مات. وكان قد أحب مديحة خاصة بعد أن فقدت "ممدوح" وصارت وحيدة،

وزادها حزنها علـى ممدوح جلالا وفتنة. وقال يابنتى : لو أن "ممدوح" ظل حيا، لكان هو ـ لا سـواه ـ أحق النـاس بهـا. بل لكان هو ـ لا سـواه ـ الوحيـد اللائق بهـا. انـهمـا جـزءان فى جسم واحـد، كل منهمـا ناقص بغيـر جـزئه الاخـر. هـى الرئة، وهو نسـيم الهـواء، بدونه لا تكون الرئة غيـر قطعة ميتة من جسم متعفن! هو الشـريان، وهى الدم الذى يتدفق فيـه بالحياة، وبغيره لا يكون الشريان غير قصبة فارغة بلا حياة!! وكان جلال يضيف إلى هذا يا مديحة انه قد كان حيـا طول هذه المدة، وها هو ذا قد عـاد، فاصبح من حقه أن يعود إليه مـا حرم منه. وكان يضيـف إلى ذلك ان "ممدوح" مسكين، ولابد انه تعذب كثيـرا بعد اصـابتـه، ولا بد انه بحث طويلا عن مـديحـة، بل لابد انه عـاش هذه المدة من أجلهـا، بل ربما كـان حبـه لهـا وأمله فى أن يلتـقـى بهـا، هـو الذى أعـانـه على مـا واجـه من المحنة والعـذاب. إن مديحـة قـد عـاشت لممدوح وليس لممدوح إلا مـديحـة، وإذا كـان الوهم قـد فرقهمـا، فإن الوهم قـد زال وأصبح طبيعيا أن يجتمع شملهمـا. هل أقف أنا بينهما؟ وأنا الذى خرج من المعتقل، ليجمعهمـا بعد فـراق؟ هل أحـول بين قلبـين شبـا على الحب منذ نعومـة أظافرهما، لأن الصدفـة قد أبعدت كلا منهما عن الاخر؟ هل أصبح أنا كالوهم أو كالصدفة؟ أنا الـوطنى الشريف المكافح؟! ولكم حـاول اخوته أن يبـعدوا عنه هـذا الاسـراف فى التفسيـر. ولكم حاولوا أن يؤكدوا له انه لم يكن سببا فى فـراق ما بينهما، وانه بذل كل جهد ليجمعهما، فلمـا ظهـر له أن ذلك مستحيل، بعد أن رأى بعينيه ورأت مديحة ورأى الجميع انـه مات، تزوجهـا ليحميهـا من نفسـهـا، ومن أحـزانهـا، ومن الناس. لكنه كـان يرد عليهم قائلا : كل هذا جميل. أنا لا أشعـر إنى مذنب. لكنى سأشعـر بالذنب إذا تجاهلت وجوده، ومـضيت كأن لم يحدث شئ. إنى أحبها. وسـأظل أحبها. لكنى لن أستطيع بعد أن رأيت "ممدوح" حيـا، أن أتجاهل وجوده. كيف ألقاها وأتحدث إليهـا، وأتعامل معها وأسكن إليهـا، وأنا أعلم أن "ممدوح" لا ينام من أجلهـا؟ انه لا يستطيـع أن ينسـاهـا! ينسـى نفسـه! ينسى ماضيه وحـاضره! ينسى الخفق والنبض وخلجات الضميـر! وعندما كان جلال يصل إلى هذا كـان يصيح فى اخوتـه ـ رغم أدبه الشـديد معهم لأنه أصغـرهم ـ : وتريدوننى أن أحيـا على جثـة لواحد حى! أتوهم انه مـات، وأدوس على جثـته بقـدمى!! وأصبح مع هذا

جديرا باحترامكم أو احترام نفسى!! وكيف ألقاها؟ كيف أعاشرها وأنا أعلم أن ظلمة الليل تحوى بين ما تحوى شخصا يتمزق من الحسرة عليها والعذاب بسببها!؟ ألف أنا فى ظلام الليل عاطفتى فأداعبها وتداعبنى وقد ننتشى، بعد أن نحتسى خمر الهيام، بينما الاخرهناك يقتله الظلام والظلم والظلمة؟! لا لا ...أنتم لا ترضون لى هذا. الموقف الان يحتم أن يعود ممدوح إلى مديحة. يجب أن يعود كل منهما إلى صاحبه. وكان اخوته يقولون له : ومن أدراك أنها تريد ذلك أو انه يريد ذلك. اسألها أولا، واسأله. وكان يضحك من قلبه فى سخرية، وهو يردد : أنتم واهمون. قلت انهما جزءآن لجسم واحد وقلب واحد. ممدوح ومديحة ليسا شخصين. انهما كيان واحد. وآه لو أخفيت عنها وجوده، وعلمت بذلك فيما بعد، لو إنى مكانها ما غفرت ذلك أبدا.

قالت مديحة، وكانت قد بدأت تدرك الموقف على حقيقته :

ـ مسكين يا جلال. لو سألتنى ما وافقتك. أنت ملأت لى ماضىَّ وأضأت لى حاضرى، وأصبحت وحدك مستقبلى. ليتك سمعت ما أشار به عليك اخوتك إذاً لعلمت أن "ممدوح" لم يعد يمثل فى حياتى إلا مرحلة مرت.

قالت الست قمر :

ـ ليته يا بنتى عرف هذا!!

قالت مديحة :

ـ وهل لو عرف. أكان ذلك ينقذه من هذا المصير؟

قالت الست قمر :

ـ أى مصير؟.. كل شئ يا مديحة نصيب. الرزق نصيب، والحياة نصيب والموت نصيب. وسواء عرف أو لم يعرف، فإن النصيب هو النصيب يا بنتى. على كل حال، لقد ذهب إلى ساحة الشهداء من أوسع الابواب، ولولا أن الله قد لطف به بهذه النهاية لعاش بقية ـ حياته فى مأساة.

قالت مديحة فى لهفة، تريد أن تعرف :

ـ أية مأساة يا خالتى قمر؟

قالت الست قمر :

ـ لقد كان ينوى أن ينفصل عنك بالطلاق، فى حين يقولون لك انه مات حتى لا تتعلقى به أو تضطرب حياتك بسببه. وكنا نسأله عن مصيره بعد هذا. فكان يقول فى سخرية أليمة : ومنذ متى كان لى مصير. لقد ولدت فى خص من الغاب تعبث به الريح، ويجب أن تكون حياتى امتدادا لمولدى البائس القلق الشريد. مصيرى هو نصيبى.

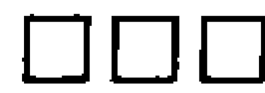
وكانت مديحة قد وصلت إلى حالة شديدة من الانفعال والألم، فانكفأت على وجهها تبكى، ولما أفاقت وجدت الست قمر إلى جوارها، و"أبو المكارم" يحمل عنها ابنها الرضيع.

قالت الست قمر :

ـ لماذا يا مديحة؟ لماذا البكاء؟ جلال قد مات، بدلا من أن يعيش مشردا تثقله الهموم والاحزان.

قالت مديحة :

ـ ممدوح أيضا كان قد مات. على كل حال لقد حرمت ـ على الأقل لفترة قد تطول ـ منهما معا، ولم أعد أملك بعدهما إلا الدمع : نصيبى!!



٤

... وكانت ليلة!!

الشيخة تفيدة، لم تستطع حتى أن تصلى!! انكفأت على دمعها، تذيب فيه حيرتها!!

وأبو المكارم حمل عنها الطفل الرضيع "أبو عوف"، وأخذ يدور به حول ضريح سيدى الذكيرى، وحول قبر أبيه، يهز مرة، ويضمه إلى صدره مرة، ويقبله مرة، ويصيح له فيما يشبه الغناء حتى لا يبكى ولا يثور.

والست قمر، أحاطت الشيخة بذراعيها، وأخذتها فى حضنها، تحميها من الهواجس والأوهام، وتشاركها دموعها، وتدعو لها بالصبر على ما هى فيه.

والساقية تدور يطرق صوتها الدءوب المنتظم أسماعهم، ويؤنس وحشتهم، ويبدد ما عساه يتسلل إليهم من المخاوف.

وأصوات كثيرة تصل إليهم أطرافها، بكلام مبهم غامض، يتردد بين أصحاب الأراضى من الساهرين حول الساقية، كأنما يحرسون الماء، وهو يخترق القنوات إلى أراضيهم بالخصوبة والحياة.

وضحكات تأتى من جسر الرياح، تصدر عن قلوب خفيفة نيئة، لم يثقلها الهم! وخفيف الشجر، كأنه النجوى، يسرى بين الناس فى همس، حتى لا يبين!

وصفير الريح، يخترق الآذان، كعواء الذئب، يحمل الخوف والفزع والظلام!!

.. نعم وكانت ليلة!!

بعد جهد كبير بذلته الشيخة، وهى تدور هنا وهناك، من بيت العمدة إلى بيوت الأعيان إلى بيت شيخ الخفر، تتشكر على العزاء.

يا ستار استر! فى يوم واحد تلاقى الست نبوية عجوز الشؤم! وست الناس زوجة سبع الليل الذى راح مع مياه الرياح!! وتسمع حديثا عن أدهم، الذى يبحث عن قاتل أبيه ليمضغ كبده، كما مضغ كبد الذئب من قبل!!

كان يوما بأعمار!! حتى النسيان، لم يعد ممكنا.. تبحث المسكينة عن النسيان، فيأتيها مزيد من الاحداث!! وفى بيت حضرة الناظر شربت الشاى وشربت مع الشاى مرارة الاخبار كالعلقم!!

وراحت تستلقى فى مكانها عند الضريح لتنام، فلقيها ممدوح بدموع كأنها النصال!! ثم سار فى طريق مجهول، لا تدرى الام يصل به، وهو!! هو ما هو، على كل حال!

.هل تنام؟! هل تلقى بنفسها على الأرض الحنون، وتغمض عينيها حتى الصباح؟ لكن لا...لا يزال فى رصيد اليوم بقية حساب!!

وتسمع قصة جلال، وممدوح، والوعاء الذى يتشكل بشكل خاص، وعلى المقاس!!

..حتى يخيل إليها، أنها صارت حطاما، لا تسمع، ولا ترى، ولا تعى!!

وكل ما هى قادرة عليه، أن تبكى!! وكانت تشعر أن أثقال نفسها لن تدوب، إلا بحرارة دمعها! ليغسلها، او ليجرفها من طريق الرؤيه أمام عينيها !!

وعندما كان أبو عوف الصغير يبكى، كانت تكتفى بانتفاضة، كأنها حمى مست أطرافها! أو كأنها صحوة الموت، حركتها، وما كانت تستطيع أن تخرج له ثديا يمص ما فيه. إن ما فيه قد صار سما، وهى لا تريد ان تقضى على البقية من ذكراه! ان كان جلال قد ذهب، ولن يعود، فيجب أن يبقى هذا الصغير امتداد له.

يا ربى ...هل ـ كممدوح ـ يعود؟

عندئذ يصبح أبو عوف الصغير تأكيدا له.

يعود أو لا يعود، فأبو عوف يجب أن يبقى. يجب إلا يرضع إلا شهدا، وهذا سم زعاف، سيقتله إن دخل جوفه.

وكانت ليلة!!

رأت فيها أحلاما مزعجة، وكبست عليها كالكابوس، يخنقها، فلا تتنفس! وتحاول أن تسبق الكابوس، بالصياح، ويحاول الكابوس أن يسبق صيحاتها بخنقها! وتوقظها الست قمر، وهى تسمى باسم الله الرحمن الرحيم، وتصلى على النبى. وقد ترش على وجهها ماء، وقد تبل شفتيها كما يفعلون بالموتى وهم فى النزع!

وكم كانت المسكينة تنادى على جلال!؟

وكانت الست قمر تهز رأسها ودموعها فى عينيها، وهى تقول لنفسها ولها : لا...لا تذهبى إليه. أبقى أنت للصغير المسكين.

وعندما كانت تردد اسم ابنها، كانت الست قمر تقول لها : بخير يا بنتى بخير.

بينما أبو المكارم خارج العشة ومعه أبو عوف، يداعبه تارة فيضحك وتارة أخرى لا يعرف إلا الصياح. فإن ثار، فإن "أبو عوف" يلفه بجلبابه، ويجلس به فى مكان بعيد عن الهواء، ويطيل النظر إلى قسماته، وهو يهز رأسه، كمن يقول لنفسه :

تماما مثله. هو أيضا كان مثلك وهو طفل. كان جميلا مثلك. وكان ينام فى حجرى. لم يكن ينام إلا فى حجرى. لم يكن له مكان ينام فيه إلا حجرى. مسكين يا جلال يا بنى. لكم قاسيت! والله لو انك كنت قد دفنتهم واحدا واحدا، ما كان هذا يكفى ما رأيته على أيديهم من العذاب والألم!

وكانت دموع "أبو المكارم" تتخلل أفكاره أو تسبقها أو تلحقها. انه فى كثير من الحالات يفكر ويتكلم بدموعه!! ليس له لسان يعبر به ! لكن الدمع على كل حال، أفصح!!

...نعم وكانت ليلة!!

عادت خلالها الست قمر إلى تاريخها كله، فذكرت شبابها، وكيف أن زوجها الأول قد كان عقيما، ففتح الباب للحاج سلطان، ليلتهمها!! لكن كيف تم هذا يا قمر؟ كيف وافقت على أن تتضمى لحريمه، جزءا مما ملكت يداه؟! عند القضا يعمى البصر!! قسمتك ونصيبك يا قمر!!

خدعك الاسم والجاه والنفوذ. وتلك الهدايا التى كان يحملها إليك، أثناء زواجك الأول فى كفر الزيات، خدعتك أيضا، حسبت أن تحت القبة شيخا يا قمر !! وكنت الحلوة البضة التى تلعب بالعقول؟! وكنت تحركين الرجال الرواسى بنظرة؟ وكنت تهزين القلوب الجامدة بضحكة؟! وكنت "قمر" وكفى؟! ما يقع إلا الشاطر يا بنت، وقد وقعت لتواجهى أياما لا تنسى! العجوز الكالحة، بوز النحس، الحاجة زهرة! وأم لسان أطول من الفرقلة، بنت العمدة وأخت العمدة، وأم الصبيان، وحماة شيخ الخفر، شجرة السنط المفلوقة المسوسة، الست نبوية!! ووراءهما جيش كالنحل من الرجال والنساء والاطفال والحاشية، كل بكلمة، كالحقنة!! والحاج سلطان سعيد بهذه المملكة من الناس والحريم. كرشه يزيد، وعقله يخف!! الله لا يسامحك يا حاج سلطان على ما فعلت!! الذل والغيرة والاحقاد!! وحياة الخوف والتربص والقلق!! وأعمار تضيع فى الصياح والشتائم وتصيد الفرص للأذى!! وهو سعيد بما ملكت يداه!! الله لا يسامحك يا حاج سلطان.. ولم تستح يا عايب يا شايب، فأتيت بواحدة كأحفادك لتسند بها عجزك وشيخوختك، كالزير المكسور! وسميتها زوجة حلالا، على شرع ربنا!! ربنا والله برئ منك يا كافر!! هذه المآسى كلها منك، ومن صنع يديك أنت رحلت إلى الجحيم، بعد أن أقمت جحيما فى الدنيا لهذا العدد الهائل من المساكين!!

وأخذت الست قمر تبكى كل هذا التاريخ، ومديحة بين يديها فى حالة كأنها الحمى.

كانت ليلة.. عليهم جميعا كانت ليلة : مديحة والست قمر وأبو المكارم حتى أبو عوف الصغير، كانت عليه ليلة! لم يذق فيها طعاما، ولم يسند رأسه الصغير على صدر أمه، يتطلع إليها، ويتأمل قسماتها الحلوة، وتلك العينين اللتين ذهب فى سبيلهما واحد إلى الآخرة، ودخل فى سبيلهما واحد إلى المعتقل، ودفع فى سبيلهما واحد حياته!

لكن صوت الشيخ مختار وصلهم، وهو يؤذن لصلاة الفجر.

ساعتها أحسوا جميعا، أن هاتفا بالطمأنينة والسلام، قد بسط عليهم نورا ورحمة. ولم يعد لهم عذر أن ينسوا ربهم فى هذا الوقت الرقيق من الصباح. وعندما أخذ كل منهم يصلى ركعتين لله، سرت بينهم سكينة بددت مخاوفهم.

ثم انصرف كل منهم إلى شئ.

أبو المكارم، زار ضريح سيدى الذكيرى، ثم زار قبر جلال، وتطلع ناحية قبر الحاج سلطان فى غضب، وإلى قبر شيخ الخفر فى كره. اذكروا محاسن موتاكم! ولكن عندما لا تكون لهم إلا مفاسد وشرور وآثام..ماذا يذكر الناس؟! ومضى إلى الساقية فى صمت.

والست قمر زارت قبر جلال، ثم دخلت ضريح سيدى الذكيرى تكنسه، وتدعو لأولادها بالتوفيق. وكانت تقول وهى تكنس الضريح : يا سيدى يا الذكيرى أنا لا أكنسك على أحد أبدا، لكنى أكنسك لأولادى. المخطئون المجرمون، من ذهب منهم ومن سيذهبون، الله كفيل بالانتقام منهم، أما أولادى فكن معهم يا سيدى أبو أحمد. وبعد أن كنست الضريح، نظفت المقصورة، والشبابيك، وملأت الزير والقلل، وأطلقت البخور، فسرت فى المكان رائحة عطرة طيبة.

ومديحة المتعبة المكدودة، فتحت جفونها، كأنما كانت هذه الجفون مصموغة! أو كأنما كانت متصلة لا تشقها فتحتان! وأحست أن شيئا ثقيلا فى جفونها، أو كأنما هى قد نفخت كالبالونات. على أن صلاة الفجر، وأصوات العصافير، وانحسار الظلام، قد بدد بعض ما فى قلبها من شعور بالظلمة والحرمان. والبعض الاخر بددته ابتسامة حلوة على شفتى "أبو عوف" الصغير. انه رغم كل شئ يبتسم لها. لا الجوع، ولا الليلة التى مرت عليه كأنها العمر، قد مسحت البسمة الحلوة من فوق وجهه، وانفجرت قسماته، ليستقبل ثديها الجميل بين شفتيه.

وأشرقت الشمس، ودبت الحركة، وأقبل الناس، يزورون ويتبركون.

وأحست الست قمر، أن عليها أن تذهب، قبل أن يتردد خبر وجودها فى القرية. وقالت لها مديحة فى سخرية : لكنك مت يا ست قمر!! ...لن يظن أحد أنها أنت!! قالت : أعلم هذا يا بنتى، لن يقولوا أن "قمر" عادت، لكنهم سيحرصون على أن يعرفوا من تلك التى تزورك. قالت مديحة : سأقول قريبة من قريباتى. قالت الست قمر : ندخر هذا لوقت آخر. سنحتاج إلى كل كذبه فيما بعد! قالت مديحة : لقد رأوك أمس تبحثين عنى، وراوك تقبلين مع عبد المهيمن أفندى. رآوك وانتهى الامر. قالت الست قمر: اسمعى كلامى يا بنتى أنا أعرف هذه القرية، وهى ككل قرية، تبحث عن شئ تتحدث عنه، تعيده وتزيده. لو طال بقائى معك، فسيطول كلامهم عنك وعنى بطول ما أقيم. لماذا؟ سأحضر لزيارتك بين الحين والحين، وسأحاول أن آتى إليك دون أن أمر بالقرية. وسألت مديحة عما إذا كان عباس يعلم بزيارتها هذه، فقالت الست قمر : أبدا، ولا يجوز أن يعلم. إن عباس يعرف أن "جلال" كان يقيم عندى فى دمنهور، وانه يكلفنى ببعض أمره. لكنه لا يعرف شيئا عن الشيخ أبو عوف. لا يعرف شيئا عنك وعلاقته بك. لا يعرف أن "جلال" هو الشيخ أبو عوف، وانه كان زوجك. ويجب إلا يعرف شيئا عن هذا، والا اختلط الامر، وتحرج الموقف.

وهزت الشيخة تفيدة رأسها..

وتبادلت مع الست قمر القبلات.

وعندما قالت لها : ادعى لنا يا ست الشيخة، ضحكت فى فتور، وهى تشد على يديها.

..ومضيت، ونظرات الشيخة تتبعها، حتى احتوتها الخضرة المنبسطة وطريق المحطة، والأشجار المنثورة فى غير نظام، فاختفت بين ذلك جميعا.

وانصرفت الشيخة إلى واجباتها فى خدمة ضريح سيدى الذكيرى.

وجاءها زوار من أهل القرية، فصلوا وزاروا، وقرءوا الفاتحة، وسألوها الدعوات، فدعت لهم بالسعادة وراحة البال، والتوفيق.

ثم جاء زوار آخرون، بدستة شمع سيدى الذكيرى، كانوا قد نذروها له، إذا قضيت لهم حاجة، فلما قضيت، أصبح عليهم أن يوفوا بالنذر.

وعندما هموا بالانصراف، تركوا للشيخة تفيدة ثوبا من الحرير، اعترافا بخدماتها للضريح، وصاحب الضريح.

وأقبل عدد من أهل القرية لزيارة قريب مات. عجوز ثكلى، وأرملة شابة وأطفال صغار انتشروا حول القبور، منكسى الرءوس.

وأحاطت المرأتان : الثكلى والأرملة بالقبر، كل من ناحية، وأسندت كل منهما رأسها عليه، وراحتا فى بكاء، ونحيب. والصغار يعرفون ويشعرون بالجو الحزين الذى يلف حياتهم بالبكاء والعويل والدموع. لكن أحدهم لا يسأل الاخر عما حدث. كأنما يخشى كل منهم أن يسمع الجواب! أبوهم واجه العلة والمرض، حتى أقعدته العلة وهده المرض، وأحاطت به جدتهم وأمهم، تحاولان أن تخففا عنه، لكن الضعف كان قد بلغ فيه مبلغه فأغمض عينيه ولم يفتحهما بعد ذلك أبدا!! وعندما يجدون جدتهم وأمهم تبكيان يلتفون حولهما فى ألم مكتوم. وقد يبكون، وقد يلعبون، وقد يضحكون لكنهم فى كل حالاتهم، يتمزقون، ولا ينسون أباهم أبدا. لقد كان يشير إليهم فى حب عاجز، يوصى بهم أمه وزوجته، لكن ماذا تستطيع كل منهما أن تقدم لهم. لقد كانوا يريدون أباهم. كانوا فى حاجة إلى أب، وإلى رجل، وإلى ظهر يستندون إليه فى الحياة.

وتدرك الشيخة تفيدة حقيقة شعورهم، وتحس انهم مثل ابنها الرضيع. أبو عوف أيضا فى حاجة إلى أب، لكن أباه ذهب، وأصبح عليها وأن تكون أما وأبا للرضيع الصغير. فهل تستطيع؟ ودمعت عيناها. وهى تمسح على رأس الصغار المنثورين حول قبر أبيهم، وأخذتهم فى رفق إلى داخل سيدى الذكيرى أخذت تتحدث إليهم وتسمع منهم، لتبعدهم عن الجو الحزين القاسى الذى تفرضه الظروف عليها فرضا. وقد أنس الأولاد إليها، وانطلقوا يروون القصص والحكايات فى ود وارتياح، وأخذو يلاعبون ابنها الصغير الجميل، وهو يضحك لهم، وهم يضحكون له حتى نسوا أحزانهم والامهم.

وعندما فرغت المرأتان : الثكلى والأرملة والعجوز من زيارة القبر، نظرنا إلى الأولاد وقالت الثكلى للأرمله : اتركيهم معها. أنها انسانه هذه المرأه. وهم معها فى أمان.

قالت الارمله : قد يؤذونهم يا عمتى فانهم قوم بلا أمان !!

قالت الثكلى : الرجل ومات.. راح ضحيتهم.. فماذا يريدون بعد ذلك؟

تعالى يابنتى، الأولاد مسرورون وهم يلعبون. كفاهم ما لقوه من الأحزان.

صغار يا بنتى على هذا. الله يجازيهم وينتقم منهم، من كانوا سبب هذه النكبة.



وأخذت الشيخه تفيده تحدث الأولاد وتلاطفهم، فأخذوا يحكون لها حكايتهم :

نحن أولاد الشحات.. أبونا كان اسمه الشحات، من أهالى هذه القرية، لكنهم طردوه يا ست الشيخه من البلده، وآخرجوه من بلد آبائه وأجداده. نحن سمعنا هذا منذ ولادتنا.إننا لم نولد هنا يا ست الشيخة، وإنما ولدنا فى أطراف البحيرة. ولدنا مع البدو فى منطقة برارى، ولم يكن لنا هناك من الاهل والاقارب إلا قريب مطرود. ابونا الله يرحمه كان دائما يقول أننا غرباء.. وكان يدعو الله من قلبه ان يعيده إلى بلده وأهله. ولكم سمعناه يقول أن رائحة بلدنا لا تفارقنى..نعم يا أولاد، كذلك طينها لا أخطئه ولو عصبوا عينى.

واستجمعت الشيخة تفيدة ذاكراتها، لتستعيد ذكرياتها، وما قال لها زوجها.

انها تذكر أن "جلال" قد ذكر لها اسم الشحات. ألم يكن هو صاحب قصة الماشية، وكيف قرروا أن يبيعوها بعد أن لفقوا عليه حسابات، تجعله مدينا وعاجزا عن السداد؟ نعم وهو ابن المرأة الحلوة الجميلة التى كان الحاج غضبان يراودها عن نفسها، فلما أبت، أصبحت هذه الحسابات واجبة السداد. ومن أين السداد؟ تباع الماشية إذاً، سدادا للدين! ولم تجد الدموع، ولم يجد الرجاء، وتبع الشحات الماشية وهم يأخذونها إلى السوق غصبا، وكانت دموعه تسيل على خديه، وهو يبادل ماشيته نظرات الحسرة. أنها أقرب

إليـه من أهله. أنهـا حياته. تربى معهـا، وعـاش على خيـرها، **وأطعمـها** ودار بهـا حول الساقيـة ليروى الأرض، أو حـول النورج ليدرس المحصول. كيف يفارقـها أو يفـترق عنهـا؟ هل تشعر أنـها ستفارقه؟ إن فى عينيها _ كمـا فى عينـيه _ دموعا. وتذكر الشيـخة أن "جـلال" حكى لها انه قـرر أن ينقذ الشحـات ويعيـد إليه البـهائم فى وضح النهـار. وكـانت قصته فى السوق حديث النـاحية كلها، وعـاد الشحـات بالبـهائم فخورا مـزهوا. انتصـر الفتى الصـغيـر علـى الحسـابات الملفـقة. انتـصرت أم الشـحـات الحلوة على مـحاولات مراودتها عن نفسها. لكن "شبل" ذهب إلى السـجن، فكان ذلك إيذانا بطرد الشحـات من البلد. وخرج وأمه وبهائمه فى جنح الظلام، يبحث لنفسه عن مأوى وعن بلد، وعن أهل!!

وهزت الشيـخـة رأسـهـا وهى تقـول : إذاً هؤلاء هم أولاده. إن "جـلال" مـات قـبل أن يعـرف أن الشـحـات تـزوج، وانه أنجب هؤلاء الأولاد، وانه عـاد. ولـو انه عـرف، لسـره أن يقدم لـهم أية مسـاعـدة يسـتطيع. على كل حـال، ربنا يقـدرنى على أن أقـدم لهم مـا كـان يمكن أن يقدمه لهم جلال.

ومضت تحاول أن تعرف كل أطراف القصة.

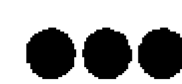
قال أولاد الشحات للشيخة تفيـدة، إن جدتهم قالت لهم أنـها عندما يئست من العودة إلى بلدهـم، أرسلت تخطب قـريبـة من قـريبـاتهـا. خطبت بنت أخـيهـا لابنهـا الشـحـات. وهناك حـيث أقـام أبـوهم، تزوج وأنحب هؤلاء الأولاد، لـكنه أراد أن يعـود إلى بلـده وأهله وأصدقائه وجاء ليستأذن الحاج غضبـان و "أبو سـريع" ويستسمح العمدة. لكنهم أبوا عليه هذا، وقالوا لو عدت فعليك أن تدفع أولا ما عليك من الحسـاب.

ولم يجـد التفـاهم مع هـؤلاء الناس، فـعاد إلى أطـراف البـرارى، وهـو مكسـور النفس. وقد سمع فى البلد شائعات عن الحاج غضبان وافترائه على أمه بالباطل. ولم يستطع أن يفعل شيـئـا. وماذا كـان يستطيع أن يفـعل؟ ومن يكون أمـام سلطان الحاج غضـبان؟ وعـاد منطويا على نفسه، يشـعر انه مجروح الكرامـة، مفـترى على شـرفه بالبـاطل! ومن يومـها،

وقد أدركه السقم. لم يرفع قامته بعدها أبدا. ذهبت نضارة الصبا وقوة الشباب، واكتسى وجهه بالصفرة والضعف. ولما تأخرت به الحالة، قامت أمه : تذهب به إلى البلد، حتى إذا مات دفن هناك إلى جوار أبيه.

وشعرت الشيخة تفيدة أن الأولاد _ رغم صغرهم _ يدركون المأساة. وغاظها أن تصل المغالطة إلى هذه الدرجة من التبجح!! ولم تخف عطفها على الاولاد، ولا رغبتها فى أن تراهم كلما أرادوا.

وبادلها الأولاد الحب، وأحسوا أنها قريبة منهم، كأمهم.



وقالت الشيخة لنفسها :

أبو سريع ذهب إلى غير رجعة. لكن الحاج غضبان الكبير لا يزال حيا، وقد يكون قلبه لا يزال منطويا على الحقد. انه عجوز، وغالبا ما يكون طريح الفراش، لكن الحاج سلطان أيضا كان مقعدا، وكان طريح الفراش، عندما استفز "أبو سريع" ليأتيه برأس الست قمر! ان الحقد شئ يذهب معهم إلى القبر. من يدرى ماذا يفعل الحاج غضبان فى أم الشحات وأولاد الشحات؟! ألم تسمعى أمهم وهى تحذر؟! يبدو أن جدتهم أكثر اطمئنانا. على كل حال يجب على أن أفتح عينى حتى لا أفاجأ بشئ.

وعادت الشيخة تقول لنفسها :

لا خطر من عباس، وكيل شيخ الخفر.

ولا خطر من أدهم، الذى يهيم على وجهه بحثا عن قاتل أبيه!

لكن شيخ البلد. سيد شيخ البلد يتولى مهام شيخ الخفر، وسيد هذا هو زوج الست نعمت بنت عمه الحاج غضبان.

وهمست لنفسها تقول :

مصيبة!! تبقى مصيبة!! جلال والشحات !! والشحات وجلال! ما هذا؟ أهى مسألة تعقب إلى الذرية، وذرية الذرية؟! هل يورث النحس، ويورث الحقد، وتورث الكراهية؟ هل

الانتقام ايضا ميراث؟ المنتقم يرث الانتقام والمنتقم منه يرث انتقام المنتقم!! هذا كثير!!

ونادت "أبو المكارم". أنها تشعر أنها محتاجة إليه. نعم وكثيرا ما كانت تداعبه فتناديه كأنه حماها. نعم أنت حماى. حماى الحقيقى لا المزيف!! أتتكر؟ أما كنت تتمنى أن تكون.. أباه؟!

وجاءها "أبو المكارم" على عجل.

قالت مديحة :

قل لى يا عمى..ما حكاية أولاد الشحات؟

وأشار إلى القبر المتواضع الجاثم هناك بين مجموعة كثيفة من القبور، فى زحام.

قالت له :

نعم أعرف انه مات، وأن هذا قبره. وقد رأيت اليوم أمه الثكلى، وبنت خاله الأرملة الشابة الحزينة. ورأيت كذلك أولاده. ثلاثة صبيان لطاف، حزانى، تتقطع نفوسهم حسرات، على الأب الذى مات. هذا أعرفه يا عمى. لكنى أريد أن تضيف إلى هذا ما تعرفه أنت. ماذا عن الطرف الآخر؟ الحاج غضبان، وزوج ابنته سيد شيخ البلد؟ هل ترى انهم ينوون بهم شرا؟ إلا تعرف؟ ألم تسمع شيئا؟ قل لى يا عمى.الاولاد الصغار مساكين. لقد حدثتهم وحدثونى، وتركوا فى نفسى أثرا عميقا. مظلومون يا عمى، مظلومون، وعلينا أن يحمى القادر منا الضعيف، فإننا لم نفعل هذا، أكلونا بعظامنا يا عمى.

وهز أبو المكارم رأسه سعيدا بما يسمعه من الشيخة، معجبا بحماستها فى الدفاع عن المظلوم، مشيرا لها أن "جلال" لم يمت إذاً، طالما أن أفكاره حية، وشهامته تجد سبيلها لحماية المظلوم.

ثم بدأ يكمل لها ما تعرفه عن القصة :



كانا يتحدثان. هل تعرفين من هما؟ الرجل وزوج بنته! لم يستح من عجزه ولا من شيبه ولا من مرضه، ولا من مكانته! كل هذا لم يهمه، ومضى الحاج غضبان يسأل سيد شيخ البلد وهما جالسان عند الساقية :

- هل رأيتها بعينيك؟

- نعم يا عمى..رأيتها..رأيتها بعينى رأسى.

- هى هى ...أم الشحات؟

- نعم وأنا أعرفها حق المعرفة، ولا أخطئها أبدا.

- وهل لا تزال حلوة يا سيد؟

- حلوة يا عمى..نعم حلوة..بالنسبة إلى سنها حلوة.

- ماذا تعنى يا ولد بالنسبة إلى سنها؟

- أعنى أنها فى زمانها كانت حلوة.

- والآن ليس زمانها..راحت عليها وانتهت، وانتهينا معها!!

- العفو يا عمى..أنا أتحدث عن أم الشحات.

- أنا أكبر من أم الشحات، فان كانت هى راحت عليها، فقد راحت على أيضا من زمن!

- لا يا عمى.. أنت رجل.

- وما الفرق؟ تخدعنى يا شيخ البلد؟

- صدقنى يا عمى..الرجل...

- ماذا ...يعيش أطول؟ أبدا..هذه أمك نشفت ولا تزال تروح وتجئ كالناقة الحامل! وقد مات أبوك وشبع موتا.

ـ الرجل يا عمى...

ـ يتحمل أكثر، أبدا.. هذه عمتك فطوم تزرع وتقلع وتدير عملها أكثر مما يفعل الرجال.

ـ لكن يا عمى الرجل ...

ـ تقصد يتزوج أكثر؟ ينجب أكثر؟

ـ تماما هذا ما أقصده.

ـ طبعا عندك حق..الرجل يستطيع أن ينجب كل يوم ولدا، لكن المرأة المسكينة، لا تستطيع أن تحمل فى حملين مرة واحدة.. حمل واحد كل تسعة شهور، ثم أيام النفاس والاستعداد لحمل جديد..أقل مرة كل سنة يكون الرجل قد أنجب فيها ثلثمائة مرة، بقدر ما يوفرون له من النساء!!

وأخذ الرجل العجوز يضحك، بصوت أجش عال، وهو سعيد بذكائه! مرتاح إلى انه قد اهتدى إلى هذا وحده !! هذا النعش المخلع، الذى يجيئون به بين الحين والحين مسنودا إلى عكاز، ليشم الهواء، لا يزال يتحدث عن النساء وعن الرجال، ولعابه يسيل كالكلب المسعور!

وتتفتح نفس الحاج غضبان إلى مزيد من الذكاء، فيقول لابن أخيه وزوج ابنته وشيخ البلد سيد :

ـ تعرف يا سيد يا بنى.. ليس مهما عند الرجل أن ينجب ثلثمائة كل سنة. المهم انه قادر على هذا..قادر أن ينجب من كل النساء.. أما المرأة فمسكينة لا تستطيع أن تحمل من كل رجل.. أنها مرة، من رجل واحد، كل سنة، حتى لو تكررت علاقتها برجال آخرين.

ـ آه والله!! عندك حق..هذا لم أكن أعرفه.

ـ لأنك طرى أخضر..أين أنت من تجاربنا؟

ـ صحيح يا عمى، أين نحن منكم؟

ـ لنعد إلى أم الشحات.. قلت لى لا تزال حلوة؟

ـ نعم لا تزال حلوة يا عمى.

ـ وقادره؟ .. قوية أعنى؟

ـ طبعا، لكن...فى حدود سنها يا عمى.

وهاج الحاج غضبان، واهتزت عضلات وجهه، وأخذ يصيح فى ابن أخيه صيحات متعاقبة، ويقول له فى احتجاج على هذه المقاطعة الغبية : سنها سنها! هل نسيت الكلام إلا سنها.. يا أخى تعلم قبل أن تتكلم. ما هذا؟ ما أنتم؟ ما فعلتم بسنكم وأنتم تخافون من خيالكم؟! أنتم جيل على قد حالة!! سنها سنها!!

وسكت شيخ البلد، حتى يهدأ حماه.. فلما هدأ عادا يتحدثان.

ـ هل لا تزال تصلح؟

ـ تصلح لماذا يا عمى؟

ـ للمعدية!! للمشيخة!! تخفر البلد!! ماذا جرى لك يا شيخ البلد؟ لماذا بلدت! مسكينة بنتى نعمت معك يا شيخ البلد!!

ـ لا والله يا عمى غضبان.. اسأل نعمت تحكى لك عنى حكايات..

ـ إذاً ما بك؟.. فقط معى!! تكلم، تصلح أم لا تصلح؟

ـ تقصد ..يعنى؟!

ـ يعنى!.. يعنى هذا لم يجد معها!

ـ إذاً ماذا؟

ـ زواج يا حمار زواج!! بدلا من يعنى..!! وكله يا سيدى.. يعنى!!

ـ حضرتك تتزوج أم الشحات؟

ـ ...آ...آ...ه..!!

ـ أنت ياعمي تتزوج أم الشحات؟

ـ ... آه... آه... آ !!

ـ تقصد حقيقه تتزوج أم الشحات؟

ـ يا نهار أسود.. قلت آ...آ...! سمعت يا أطرش؟

ـ والله..هذا شئ...أنت..والله.

ـ الله يأخذك يا شيخ..هل هذا شأنك؟

ـ الله يرحمك يا حاج سلطان.. لو كنت حيا!

ـ كان تزوجها هو!! نسيت حكاية تفيدة، يا شيخ البلد؟

ـ لكنه كان لا يزال ...

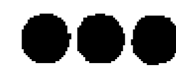
ـ كان أعجز منى.. أنا الان أصبى منه وقت تزوجها.

ـ يا عمى!! اتق الله يا عمى!!

ـ لا تغرك المظاهر يا عبيط.. أنا أعرف نفسى !

ـ تحب نسأل "نعمت" يا عمى.. نحتكم إلى نعمت..انها ابنتك!

ـ والله عال.. رجال موضة!! منذ متى نسأل النساء عن زواجنا؟ أنا حر يا شيخ البلد أتزوج من أشاء، وقت أشاء.. أتفهمنى يا شيخ البلد؟



وكانت الشيخة تفيدة، قد وصلت إلى درجة كبيرة من الانفعال، والاهتمام والفضول. كانت تريد أن تعرف ماذا حدث بعد ذلك. ماذا يدبرون لهؤلاء المساكين؟

ولم يتركها "أبو المكارم" تخمن ولكنه أتم **لها** ـ على طريقته ـ **روايته** :

فى مرة ثانية، أقبلوا بالحاج غضبان. اثنان من رجاله فى خدمته، وعكازه بين يديه، وزوج ابنته يصحبه، يتحدث إليه، ويسمع منه، وينظر للرجلين، بين الحين والحين، لينسى كل منهما ما يسمعه.

وعندما استقر به مجلسه تحت الجميزة، فى ساحة الساقية، قريبا من جسر الرياح، وانصرف الرجلان إلى بعيد، ولم يعد معه إلا ابن أخيه وزوج ابنته قال له فى قلق :

ـ قالت لك أنها قادمة؟

ـ نعم يا عمى.. قادمة قلت لك.

ـ لكن متى يا سيد يا بنى ... متى؟

ـ صبرك بالله يا عمى.. اصبر وستراها أمامك.

ـ بجمالها، وخفتها، ونظراتها الحلوة، وحديثها الشهى...والله زمان يا غضبان!

ـ هل كنتما...؟

ـ لا يا بنى... لم يحصل.

ـ لكن أهل البلد رددوا هذا الكلام عنك، حتى لقد وصل الشحات وتأثر به إلى درجة المرض، وأنت تعرف انه من يومها لم يشف حتى مات.

ـ والله ظلمونى وظلموها يا بنى بهذا الكلام.

ـ وظلموا الشحات وزوجة الشحات وأولاد الشحات.

ـ أهل بلدنا لسانهم طويل...بالكذب.

ـ لا يمكن يا عمى..لابد للدخان من نار.

ـ النار كانت فى قلبى.. أنها فى قلبى حتى قبل أن يموت أبو الشحات.

ـ ولابد أنك تحدثت عنها.

ـ ربما إلى "أبو سريع" أو أخى الحاج سلطان.

ـ وسمع الناس عنك ما تقول؟

ـ لا أدرى!!

ـ أنت إذاً يا عمى مصدر هذا الكلام.

ـ من غلبى يا بنى.. من حسرتى وحرمانى.

ـ يا عمى غضبان! أى حرمان؟! ثلاثة من الحريم وتقول من حرمانك!!

ـ والثالثة فى البندر.

ـ كذب وافتراء.

ـ بنتك هى التى تقول هذا.

ـ تسمع كلام أمها.. قطعت وقطعت أمها.

ـ يا عمى غضبان؟!

ـ لم يكن زواجا..مكتوبا؟

ـ لكنه كان زواجا شرعيا!

ـ وما قيمته؟

ـ قيمته أنه زواج حلال عند الله.

ـ لكن بلا حقوق.

ـ لمن؟

ـ لها أو لابنها.

ـ لزوجتك؟ تقصد للزوجة يا عمى؟ وهل لها ابن أيضا؟

ـ أنت نيابة؟!.. اسكت...

ـ امرأة عمى؟! ابن عمى؟! ما هذا الكلام؟ بل قل لى يا عمى.. الظفر لا يخرج من الأصبع.ما اسمه؟ أين هو؟ ماسنه؟ ماذا يعمل؟ أين يقيم؟

ـ لن أقول لك.. إنك ستفضحنى

ـ لا والله يا عمى.. سأحتفظ بسرك كما تريد.. بل أنى صاحب مصلحة فى كتمان السر.. أنى لا أريد منافسة لزوجتى فى الميراث.

هذا صحيح.. سأقول لك فيما بعد، فإنى أسمع صوت أقدام مقبلة علينا. أنها مشيتها.هى مشتيها.. كأنها غزال.

ـ حتى صوت أقدامها تعرفه يا عمى؟ ألم تنس؟

ـ أبدا...حلوة...انها حلوة.

ـ على أن تعدنى بأن تكمل لى.

ـ ماذا؟

ـ حكاية امرأة عمى، وابن عمى؟

ـ إن شاء الله..بشرط إلا تروى ذلك لأحد.

ـ سأفعل..سأفعل يا عمى.. هل تريدنى معك؟

ـ بل تذهب.. تذهب عنى يا شيطان.

ـ وذهب، ليخلى له الفرصة، ليلتقى بها على انفراد.

وقالت مديحة فى لهفة :

ـ وجاءت؟

ـ نعم جاءت يا بنتى...جاءت.

ـ وماذا حدث بينهما؟

ـ سأحكى لك كل شئ.. اصبرى يا بنتى.



وحكى لها كل ما دار بينهما.

وعرفت الشيخة تفيدة كل شئ، وهزت رأسها، وهى لا تكاد تصدق!!

لقد كان الرجل العجوز يترقبها بكل ما تركه له الزمن من قدرة. بعينيه، وأذنيه، وحواسه جميعا. كان يجلس فى مكانه، لكنه كان يقطع المسافة بينه وبينها بشعور فياض. وبدا الرجل العجوز طفلا صغيرا يقدمون له لعبة جميلة، ليلعب بها، أو ليعبث بها أو ليحطمها! كله يستوى!.. احتقنت وجنتاه كالتوت الاسود، واحمرت عيناه كقطعتين من الفحم المحروق. وبدا يتململ فى جلسته، كمن يجلس على مسامير!!

وعندما جاءت أم الشحات، كانت تخفى نصف وجهها بطرحة سوداء. وكان النصف الثانى كافيا، لتظهر منه حلاوتها! عنده حق الحاج غضبان. إن بشرتها بيضاء كالمرمر. وعيناها سوداوان بأهداب طويلة تزيدهما فتنة وعمقا! وفى شفتيها سر مكتوم، يغرى بالسؤال عنه، ومحاولة الوقوف عليه. وفى مشيتها أنوثة تتثنى فى طراوة، لكن فى تحشم واستحياء. كبرت وبدأت تظهر فى وجهها التجاعيد، كما بدأ الشيب يغزو رأسها، لكنها لا تزال محتفظة بالقوام الرشيق والفتنة والجاذبية وخفة الظل.

واستقبلها الرجل بابتسامة أكلت وجهه.

لكنه لاحظ أنها لا تبادله الابتسام، فأدرك على الفور أنها فى حداد.

قال لها فى تصنع :

ـ البقية فى حياتك.. عز علينا الشحات!

قالت وهى لا تزال واقفة :

ـ الله يبقى حياتك يا حاج.. نصيبه!

قال يحاول أن يغير الحديث :

المهم أنت يا أم الشحات.. الحى أبقى من الميت.

قالت فى ألم ومرارة :

المهم أنا؟! يا ليتنى كنت أنا!!

وأسرع الحاج غضبان يقول :

يا شيخة حرام عليك.. أنت؟! ونحن.. ما ذنبنا؟

وفى صوت رقيق قال لها :

اجلسى يا ست أم الشحات.. تفضلى.

وجلست تحت الجميزة. وعلى عادة القرويات المحتشمات، أعطته نصف وجهها، وأدرات عنه النصف الثانى! تنظر إليه بزاوية عينيها، ويطالعه من وجهها نصف مغطى بالطرحة السوداء، وتخرج كلماتها متقطعة كأنفاس تلهث من التعب والارهاق.

قال الحاج غضبان فيما يشبه الهمس :

ـ وحشتينا يا أم الشحات.

قالت وعيناها فى الارض :

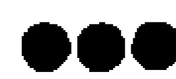
ـ ربنا ما يريك (وحش).

وسكت فسكتت. لم يكن يدرى ماذا يقول. ولم تكن تريد هى أن تقول. هل كانت الجريمة البشعة التى ارتكبها عندما طردها من البلد، هى التى وقفت حائلا تمنعه من الكلام؟ أم أن موت الشحات قد أثر عليه، فلم يعد يقوى على الكلام معها وهى أمامه؟!

ونظر إليها وهو ساكت، فلم ترتفع فيه عينيها !

وشعر من خجله انهم وضعوه فى ماء بارد..ثلج!

وأخيرا استرد بعض الشجاعة ليبدأ معها الحديث.



ـ وكيف وجدت البلد بعد هذه السنوات الطوال يا أم الشحات؟

ـ هى هى يا حاج غضبان.

ـ ولم تجدى فرقا بين أمس واليوم؟

ـ ان كل شئ عجز! هذا هو الفرق يا حاج.

ـ تقصدين كبر، وعقل؟

ـ يمكن! أنا رأيت كل شئ عجز، وشاخ... يا حاج غضبان.

ـ مظاهر!! أنت تهتمين بالمظاهر!!

ـ يمكن!! قد أكون مخطئة.

ـ مؤكد أنت مخطئة.. فيه أشياء فى بلدنا تحسنت، وربما صغرت عما كانت.

ـ سخطوها يا حاج؟

ـ لا..وإنما زادت قوة وشبابا.

ـ إن شاء الله يكون هذا صحيحا.

ـ بل هو مؤكد.. تريدين مثلا؟

ـ تفضل.. نعم أريد مثلا.

ـ أنت مثلا ...

ـ سخطونى أنا أيضا؟

ـ زدت حلاوة وخفة وجمالا...

ـ فقط؟!

ـ ورشاقة وفتنة واغراء...

ـ يا عينى ياعينى..وماذا أيضا؟

ـ صحيح يا أم الشحات.. هذا صحيح.

ـ يا حاج غضبان.. أنا عجزت وكبرت وصرت جدة لثلاث صبيان، رجال مثل أبيهم.

ـ وهذا يزيدك روعة.. والله أنت رائعة.

ـ مثلما أنت رائع يا حاج.

ـ الله يخليك.. هذا من فضلك.. قولى لى يا أم الشحات..ألم أكن أوحشك فى غربتك؟

ـ كثيرا.. يا سلام!

ـ وكنت تفكرين فى؟

ـ كل يوم.. كلما تذكرت الغربة والبعاد.

ـ يعنى لو كنت سمعت كلامى.

ـ أى كلام يا حاج؟

ـ هل الحب حرام يا أم الشحات.لماذا رفضت حبى؟

ـ حبك ...أم خيانتك؟

ـ وبعد أن مات أبو الشحات؟

ـ ماذا؟

ـ كان حبا لا خيانة.

ـ بل خيانة وغش وسرقة أيضا.

ـ خيانة من؟ الرجل كان قد مات؟!

ـ خيانة اسمى وابنى وشرفى.. خيانة الثقة الموضوعة فى..خيانة اسم زوجى واسم أبى.

ـ قلت لك نتزوج.. ألم أعرض عليك الزواج؟

ـ سرا!!.. من وراء الناس!!.. بينى وبينك؟!

ـ وهل كنت ترضين بى زوجا، لو كان زواجنا علانية.

ـ لا... لم أكن أرضى.

ـ لماذا؟.. لأنى لا أليق؟

ـ لأنك أخذت تراودنى على عرضى وأنا زوجة، وزوجى يوليك ثقته، ويسمح لك بزيارتها وهو غائب.. تظن بعد هذا انه كان من الممكن أن أثق فيك؟! أو أرضى بك زوجا؟

ـ والآن يا أم الشحات؟

ـ ماذا تريد الان؟ زواج سرى؟

ـ بل زواج شرعى وعلنى ومكتوب.

ـ وكيف أثق بك؟ كيف تظن أنى أرضى؟

ـ تبت يا أم الشحات. تبت.

ـ عن الخيانة؟

ـ تبت عن كل ما يغضبك!

ـ وتبت عن الفايظ وتبت عن الحسابات الملفقة؟ وتبت عن الكلام عنى؟ وتبت عن طرد الناس من بيوتهم؟ وتبت عن ... ماذا أقول يا ربى؟



ودفنت أم الشحات رأسها بين كفيها، وأخذت تبكى وتنتحب. والحاج غضبان ينظر إليها، وقد تقلصت عضلات وجهه، وبدا عليه الانفعال والترقب. انه يريدها. كانت دائما أمنية من أمانيه، بل أغلى أمانيه. وليتها ترضى به، بقية أيامه! يختم ختاما حلوا، بعد أن عاش مع النكد طول عمره.

وبينما كانت هى فى بكائها ونحيبها، أخذ هو يتطلع إلى أجزاء جسمها وهو يمنى نفسه بأن هذه الدموع ستغسل أحزانها، ثم ترضى!

وأخذ يستعيد حياة النكد التى عاشها.

أنت لم تتزوج يا ولد.. نعم كأنك لاتزال صغيرا، تخطب للمرة الاولى!!

وهذه السنوات كلها يا حاج؟ وهذه العشرة الطويلة مع زوجتين دائمتين؟

عمر ضائع، وسنوات مبددة!! ذهبت مع ناس لا يستحقونها!!

ونعمت بنتك، وقد أصبحت أما، وكادت تصبح جدة؟

نزلت (شيطانى) غصبا عنى!

وسلطان ابنك، الذى ربيته ليكون بنك القرية على شاكلتك؟

غبى حمار جبان! لا يريد النعمة.. كأمه!

- أ خذ الحاج غضبان يستعرض زوجتيه الدائمتين، فى موقفه ذاك :

ماذا أقول يا عالم؟ أقارنهما بها؟

من؟ تلك الشمطاء، برقبتها الطويلة كالزرافة ! وتفاحة آدم تطل منها كسنام الجمل! حتى اسمها شدوه، فشوهوه! عيوشة!! وهذا اسم هذا؟! عائشة، هذا هو الاسم المضبوط الصحيح أما عيوشة فماذا يكون؟ ما هو؟ معهم حق كانوا يريدون أن يحلوها، فمسخوها! وهل كان يمكن للاسم المنتظرف، أن يزيل كل هذه الدمامة، وهذا الغبار؟! ان وجهها مبقع!! وقعت عليه كنكة قهوة ربما وهى فى بطن أمها! فتركت هذه الاثار على وجهها، لا تفارقة أبدا!! يا ساتر يا رب إذا تكلمت! الكلمات تمر من هذا الزقاق الطويل الرفيع وتصطدم فى الطريق بتفاحة آدم، فتخرج ضعيفة فاترة، متعثرة، كأنما تنازع!! تذكرنى بالموتى، بنت الميتة هذه!

...وتقارن بقطعة القشدة تلك؟ ظلم.. هذا ظلم!

والثانية على النقيض.. عيوشة شدوها، وهذه كبسوها!! ونفخوها!! فصارت بالونة صغيرة تتدحرج على الارض! تداخلت فى بعضها، فلم تعد تدرى أين رأسها، وأين بطنها، وأين ساقاها! كل شئ فيها تاه، فلم يعد من الممكن الاستدلال عليه أو تمييزه! قد تريد تقبيلها، إذا استطعت تقبيلها فى بطنها، وأنت تعتقد أنها شفتاها!! قد تريد أن تمسك كفها تداعبها فتمسك بدلا عنه فخذها!! واحد...كل ذلك واحد!!.. لا فرق! واسمها : جميلة! هذه جميلة! لا حياء! وآه من كلامها ! على عكس الست الجليلة الطويلة عيوشة، يخرج من بطنها مباشرة، لا يمر على قناة ولا زقاق، ولكنه يفاجئك نيئا تشم فيه رائحة الزفارة، كالسمك النيئ! ولها اسم دلع.. هذه القطعة من اللحم النيئ لها اسم دلع " بالوظة!! أى والله اسمها بالوظة! لا يناديها أحد إلا بالست بالوظة! جميلة هذا أعرفه أنا، ويعرفه حلاق الصحة الذى كتبه فى دفتر المواليد، ويعرفه المأذون الذى عقد قراننا!! الله يخرب بيته، مأذون النحس، الذى عقد قرانى على هذه البالوظة. لكن بيته خرب من زمن. لقد ذهب الشيخ مرزوق غير مبكى عليه! نعم، زوجنى البالوظة!!

وبين عيوشة وبالوظة قضيت حياتى.. بددت شبابى.. أهدرت قواى.. وهذه موجودة على ظهر الارض! قطعة من الجنة تسير فى الدنيا! وأعيش فى النار ! الشهد الحلو الرائق الجميل هنا، وأنا ألحس المش بالدود!!

لكن الحاج غضبان يشعر أن صوتا يناديه من ماضيه.

ويحاول أن يتجاهل هذا الصوت، لكن الصوت يلح على سمعه وضميره.

.. يا خائن يا ناكر : وأنا؟

ويغمض عينيه. ويسد أذنيه. ويخرس ضميره.

لكن الحقيقة تستطيع أن تخترق كل ذلك، لتصل إليه.

وتنسانى وقد كنت تقول إننى أحلى أيامك؟! تنسى ابنك، وهو من دمك ومن صلبك؟

وتعود إليه الذكرى.

كان ذلك من عشرين عاما. أقل، أكثر.. لا يذكر على وجه التحديد. لكنه كان من زمن طويل على كل حال. كنت لا تزال فى عزك. طول وعرض، وأشياء كثيرة تغرى فيك. وجيبك، لا تنسى أن جيبك كان دائما منتفخا بالاوراق ذات المآذن!! تاجر ملء السمع والبصر. تذهب إلى أى مكان، فيعرف كل التجار أن قطن الناحية فى جيبك، وأن قمح الناحية فى جيبك، وأن فول الناحية..وكل ما تنتجه أرض الناحية فى جيبك. واحد لم يكن يستطيع أن يخرج عن طوعك، إلا إذا أراد أن يكون مصيره كمصير.. الشحات مثلا!! ولماذا الشحات يا ولد؟ وأنت ميت على أمه، تختم بها حياتك، كالحلو يأتى فى آخر الطعام!

على كل حال، كنت تذهب إلى المدن المحيطة بالبلد لتبيع القطن، فيفرشون لك الارض بالورود! يرشون حولك الملح حتى لا تصل إليك عيون الحساد! يغطون عليك بالحرير حتى لا يراك المنافسون من التجار.

وكنت تبيع حسب المصلحة.. مرة فى كفر الزيات، ومرة فى إيتاى البارود، ومرة فى طنطا، ومرة فى كفر الدوار، ومرة فى دمنهور، وقد تذهب إلى الاسكندرية. كله حسب الاحوال.

أنا أذكر..أذكر تماما إننى ذهبت ذاك العام إلى طنطا، وكنت على وشك أن أبيع الصفقة وأقبض العربون، لكن خلافا بسيطا نشب بعد الاتفاق، فلم ارض أن أرمى المحصول للطمع والعين الفارغة، وتركت طنطا ولم أعد إلى البلد، وإنما ذهبت مباشرة إلى كفر الدوار. كان على أن أبيع وأعود بالعربون والا أكلونى.. الحاج سلطان أخى الله يرحمه، لم يكن يرحم حتى نفسه، والعمدة القديم كانت عينه فارغة وكان دائما ملهوفا على نقود، حتى لو كانت مسروقة !!

وفى كفر الدوار قابلت تاجرا كبيرا من أصدقائى، وحكيت له الحكاية، فأكرمنى وطيب خاطرى ورحب بى وقال : لن تعود من هنا إلا ونحن متفقون.. خذ ما تشاء من عربون الان، واعتبرنا قد اتفقنا.

هذا كله لا يهم يا حاج غضبان.

المهم تلك البالوظة على حقيقتها، لا مزيفة ولا مغشوشة! البالوظة الاصلية وجدتها هناك، عند هذا التاجر الكبير.

آه يا حاج غضبان!! وجه كالبدر. عيون كالبئر. خدود كالتفاح. فم كورق الورد. جسم كالمرية. خطوة كنقر العصفور.

آه يا حاج غضبان!!

من هذه؟ لا يمكن أن تكون مثلنا! مثل من؟! عيوشة!! أو البالوظة الحامضة التى وجعت بطنك !!

كنت أتناول العشاء معه فى بيته، وكانت هى تعد المائدة، وتقدم لنا الاصناف، وعلى شفتيها ابتسامة، وبين شفتيها قلبى معلق فى الهواء.

ولاحظ هو، فقال همسا : تعجبك؟

وخفت أن أؤذى شعوره، فخفضت عينى فى المائدة.

قال : صارحنى، فالمسألة ليست عسيرة كما تظن.

قلت : تعجبنى! ومن المغفل الذى لا تعجبه! إن ساعة معها بالعمر كله.

قال : إذاً هى لك.

قلت : ماذا تقول؟ هى لى.. هكذا بلا...

وقبل أن أتم قال :

اسمع.. أنها زوجتى عرفا.. تزوجتها زواجا عرفيا، وهى تعلم أن وجودى معها موقوت. لو عرفت زوجتى لقلبت على الدنيا، وأنت لا تعرف زوجتى.. أنها ابنة مدير الامن العام. هل تعرف من مدير الامن العام؟ انه الشخص الذى يملك أن يخرب أى بيت، ويعمر أى بيت! أى والله.. يدخلنى السجن ويصادر أموالى، ويشردنى إذا أراد ويجعلنى كما ترى غنيا ثريا صاحب سلطة إذا شاء. ورطة والله يا حاج غضبان. زوجتى

ليست دميمة، لكنها ابنة مدير الامن العام. تعيش معى بالتهديد، وهذا يقبحها فى نظرى. لكن ماذا أفعل؟ حتى التخلص منها أصبح مستحيلا.

وقلت له : لكن هذه؟

قال : هذه واحدة ضمن سلسلة طويلة من زيجات كثيرة مثلها. أنا أتزوجهن زواجا عرفيا، بضعة شهور، ثم أطلقهن، حتى لا تعرف زوجتى.

قلت : تطلق هذه يا صديقى!!

قال : وغيرها وغيرها، أحلى منها. طلقت، وسأطلق !!

قلت : لكن لماذا؟

قال : إن الاستمرار مع واحدة فقط سينبه زوجتى إلى مسلكى، أما التغيير، فإنه يضللها، حتى لو ارتابت أو وصلها شئ. وبينى وبينك المسألة ليست مسألة زوجتى، بقدر ما هى مسألة سعادة المدير.. حماى مدير الامن العام!!

قلت : وكيف تدبر هذا؟

قال : هذا مكتبى، حيث أباشر بعض أعمإلى.. وبيتى الحقيقى فى إسكندرية، حيث الزوجة المصون.. أما هنا...

قالت: فزواج عرفى متغير.

قال : عليك نور.. وقد حل موعد طلاق صباح.

قلت : اسمها صباح؟

قال : نعم.. وهى والله مسكينة وطيبة.. لكنى سأعوضها على كل حال تعويضا لا بأس به.

قلت : وترضى؟

قال : نسألها..

وناداها .. لم يضيع وقتا .. كانت هذه عادته .. كل شئ عنده كان يتم بسرعة، وعلى عجل.

قال لها : ما رأيك فى صديقى هذا يا صباح؟

وابتسمت ابتسامة رائعة، طوتنى بها تحت قدميها. ثم قالت له فى صوت رقيق ساحر : طالما انه صديقك، فلابد أن يكون رجلا طيبا.

قال لها : ترضين به ... بدلا عنى.

ولم تستطع أن ترد. خفضت بصرها إلى المائدة، وسكتت، لكنى لاحظت أنها تتطلع نحوى بطرف عينيها. ثم مضت عنا، ولم تعد بعد ذلك.

قلت له : هل وافقت؟

قال : طبعا وافقت. ماذا ستفعل؟ كانت تعمل فى أحد البيوت لتأكل لقمتها وتعيش، وكانت فتاة بكرا طيبة على قد حالها، لكن لابد أنها كانت رائعة.. أنت تراها الان شيئا هائلا، فما بالك عندما كانت فى ربيع حياتها بكرا متفتحة؟ نهايته، كالعادة طمع فيها الرجل الذى كانت تعمل عنده، فاعتدى عليها، فلما علمت زوجته طردتها. وأخذت تتنقل من بيت إلى بيت حتى شاء حظى وحظها أن تعمل عندى.. أنا عندى هذا المكتب، وفيه كما تعرف ترتيبات إقامتى بضعة الايام التى أقضيها هنا، وأنا محتاج إليها لتنظف المكتب وتعد لى الطعام، وهى ممتازة. نظيفة وماهرة، وطعامها لذيذ... مثلها.. والله لو أنى فى وضع آخر، ما تركتها. لو أن ظروفى تسمح لأبقيتها معى على الدوام. لكن ...أنت تعرف... مدير الامن العام!! زوجنى مدير الامن العام!!

قلت : وأنا وافقت.

قال : على بركة الله.

قلت : تطلقها أولا.

قال : هى طالق بالثلاثة.

قلت : بل هذا لا يكفى.هات شهودا.

ونادى اثنين من رجاله، وطلقها أمامهما طلاقا شرعيا بائنا.

قال فى استخفاف : تعقد عليها الان؟

قلت : إلا تعرف شيئا عن الشرع؟

قال : لم لا.؟

قلت : لابد من قضاء العدة.. ثلاثة أشهر يا صهر مدير الامن العام.

قال متهللا : وستبقى معى ثلاثة أشهر.

قلت فى حدة : هذا بعدك يا صديقى.

قال : لكن أين تذهب؟ أنها مسكينة، وحلوة.

قلت : أنت طلقتها وانتهى أمرك بها.

قال : سأحافظ عليها.. لك.. مدة العدة!

قلت : كتر خيرك.دعها لى.. سأرتب أنا الامر.

ولم أدعه يطيل الحديث، فناديتها، وأخبرتها بأنها الان طالق، وأنى سأتزوجها بعد انقضاء العدة، وسأرتب حياتها مدة العدة، فى مكان آخر.

ولم ترد ... صمتت ولم ترد، وكأنما كانت تعرف هذه النهاية وتتوقعها.

وطلبت منها أن ترتب أمورها للذهاب معى.

ولم تعترض أو تعارض. لكنها اختفت عنا مغلوبة على أمرها.

وفى دقائق، كانت قد لفت حاجتها فى جريدة قديمة، وكان هذا كل ما لها فى هذا البيت!

وخرجنا نبحث عن مكان لحبنا.

وكان هذا المكان، شقة صغيرة فى إيتاى البارود، استقرت فيها صباح، بعد ليلة قضيناها فى فندق صغير من فنادق المدينة، تتحدث هى واسمع، وأتحدث أنا، وتسمع. والدنيا لا تسعنى، وهذه القطعة من الشهد بين يدى.



من يومها يا حاج غضبان، أصبحت حياتك فى إيتاى البارود، خصوصا بعد أن مرت العدة وتزوجتها. وكم أبديت من أعذار ومعاذير وأسباب للذهاب وعندما كان أخوك الحاج سلطان يقول لك انه ذاهب هو أيضا إلى إيتاى البارود ويستمهلك لتذهب معه.. كنت تختلق أسباب لتتقدمه أو تتأخر عنه.

- أنا عندى مواعيد كثيرة مع التجار.. لابد من أن أذهب على الفور.

- يا سيدى، هل الدنيا طارت؟ انتظر لبعد غد، لنذهب معا.

- والله ما أقدر يا حاج سلطان.

- يا شيخ انتظر... هى المسألة... يعنى...انتظر انتظر، لتؤنس طريقى.

- خذ معك ولدا من الاولاد.. أنا ذاهب حالا، وقد أعود قبل أن تسافر أنت.

- يا حاج غضبان، أنت طول عمرك طويل البال، ماذا جرى لك؟

- يعنى اترك مصالح البلد تضيع فى شربة ماء !! مصالحكم ومصالحى ومصالح الناس!!

- يا ناس!! تهمك مصالح الناس؟!

- طبعا.. هذا أمر الله وعلينا طاعته.

- اللهم ما شاء الله.. أنت أصبحت وليا يا حاج غضبان؟ الفاتحة لك الفاتحة!!

- يا حاج سلطان لا تسخر منى.. أنا فاهم عملى وواجبى.

- اللهم اجعلنا من بركاتك...مع السلامة.



وهكذا صرت يا حاج ملهوفا على إيتاى البارود. طبعا! حياتك وعمرك وجنتك! تترك هذا كله ... لمن؟!

لكن لا تظن أنك كنت الذكى الوحيد فى البلد.. كل دخان من نار والناس فى البلد ليسوا أغبياء إلى هذه الدرجة! تذهب كل بضعة أيام، ودائما إلى إيتاى البارود.. وسواء كان هناك سبب، أو لم يكن، فآنت ذاهب.. فى الموسم وغير الموسم أنت ذاهب.. وحكاية أنك تتفق مع التجار قبل الهنا بسنة، قدمت وعفنت وصارت مكشوفة.

وبدأ الحديث...همسا أول الامر، ثم رمزا، ثم جهارا نهارا.

وبدأ الحديث..بعيدا عنك أول الامر، ثم على مسمع منك، ثم معك بعد ذلك.

هل تذكر عندما قال لك أبو سريع إن سفرياتك كثرت يا عم الحاج غضبان ولعل ذلك خيرا يومها تلعثمت وقلت له : أن هذا ليس شأنك. ورد فى برود وسخرية : أنا عارف يا عمى غضبان انه شأن نعمت... وسلطان الصغير.. شأن الحريم يعنى.. لكن أنا أيضا قريب من أقربائكم، وصهر، وما يهمكم يهمنى أيضا!!

وأصبح واضحا يا حاج غضبان، أن الرائحة فاحت، وانها بدأت تنتقل من أنف إلى أنف، وأن المسألة محتاجة إلى علاج سريع.

والله بارع وصاحب حيلة يا حاج غضبان! نقلت الشهد إلى طنطا. حتى المديرية غيرتها! إذا كان الاتجاه إلى بحرى قد صار موضع شكوك، فلنتجه إلى قبلى... المسألة بسيطة. وهل هى بلدنا، إيتاى البارود هذه؟ كله عند العرب صابون!!

ونجحت الخطة يا عم غضبان. وعندما شددت الرحال بعد ذلك للسفر اعترضك الكالح "أبو سريع" يقول : إذا كانت لى حاجة من إيتاى البارود، هل أطلبها يا عمى الحاج، وتأتى لى بها معك؟

وكانت فرصة لترد عليه، بأسلوب أكثر سخرية : ليت ذلك ممكن يا شيخ الخفر! كل طلباتك على عينى ورأسى لو أستطيع!!

وصاح فى رعونة : بل لابد يا حاج.. الله؟! ألست كالذين تسافر لهم؟

وقلت فى برود : الذين أسافر من أجلهم يشترون محاصيل القرية ويدفعون ولكنك مع هذا أولى منهم بأى شئ، لو أستطيع!!

قال فى ثورة : طبعا تستطيع، حكاية بسيطة فى إيتاى البارود.

وقلت له يا حاج : ومالى أنا يا بنى؟!

قال فى غيظ : أنت ذاهب إلى إيتاى البارود.

قلت له وأنت تضحك : يا بنى من قال لك هذا؟

قال : أنت دائما فى إيتاى البارود.

وقلت له أخيرا كمن يلقى السلاح فى وجه خصم عنيد : عندما أذهب إلى إيتاى البارود سأقول لك.. ليست لى مصالح فى إيتاى البارود هذه الايام.. التجارة فيها هبطت وتجارها خابوا يا بنى!

وفتح شيخ الخفر فاه، كمن لا يصدق، وارتج عليه، ولم يدر ماذا يقول بعد هذه المفاجأة. وبعد لحظات من الحيرة والارتباك قال : إلى أين إذاً يا عمى؟

وقلت فى ثقة، حيث تكون التجارة رائجة.. أنا لا يهمنى إلا مصالحكم. إلى طنطا يا شيخ الخفر. تريد شيئا من السيد البدوى؟

قال وهو ينظر فى ارتياب : سألناك الفاتحة..يا حاج!



لكن طنطا قد صارت كإيتاى البارود. طنطا..طنطا..طنطا!! حتى أصبحت البلد كلها من الحمص وحب العزيز!! وامتلأت البلد مرةأخرى بكلام حول السفر الكثير إلى طنطا، والمبيت ليإلى كثيرة هناك.

واخذوا يتندرون :

ـ انه يحب الحلاوة الحمصية!

ـ ويموت فى حب العزيز!

ـ محسوب من المحاسيب!

ـ مجذوب فقد عقله من كثرة الطاعة!

ـ ربنا يجعلنا من بركاته، رجل أمير!..

ـ انه هناك لا ينام!

ـ لأنه يقضى لياليه يتعبد!

ـ فيما خلقه الله من جمال!!

ـ حتى هلك وجف وذبل!!

ـ الله يكون فى عونه الحاج غضبان!

ولما وصلت هذه النوادر إلى الحاج سلطان، أخذ يكررها ضاحكا، وهو يسخر منها.

وفى مرة من المرات قال لك :

ـ هل هذا الكلام صحيح يا غضبان؟

ـ أى كلام؟

ـ حكاية زواجك فى البندر؟

ـ أنا...لا.. غير صحيح.

ـ يا رجل قل لى الحقيقة.

ـ هذه هى الحقيقة.

ـ ليس عيبا أن تتزوج.

ـ لو أنى تزوجت لقلت لك.

ـ لا، يظهر أنك تزوجت حقيقة..أنت خائف.

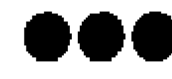
ـ ممن؟ ممن أخاف؟

ـ من الخفر...

ـ من؟ أنا.. أخاف من الخفر؟ والله ولا شيخ الخفر يخيفنى.

ـ الخفر يا عبيط.. الخفر الحقيقيون : عيوشة وبالوظة.

ـ آ...ه!! لا يهم!!



لكن الايام أخذت تحمل فى ثناياها كل يوم مفاجأة !

الست عيوشة.. الزرافة المخلعة أخذت تتكلم كأنها تتثاءب، وتفاحة آدم تتحرك كالزمبلك، نطلع مع كل كلمة، وكل جملة.

سألته أولا فى تودد :

ـ صحيح ...صحيح تزوجت من البندر؟!

ولم يرد، فقد كان مشغولا بمراقبة التفاحة، وهى تطلع وتنزل كالمرجيحة، وظنت هى أن السكوت رضاء، فنظرت إليه نظرة عتاب، ثم أخذت تبكى، فى صياح كالاطفال.

وزاده صياحها ضحكا، فقد كان كالبوابة الناشفة تحتاج إلى تشحيم!!

وكلما كان يضحك، كلما كان صوت البوابة يعلو، حتى صارت كأنها الساقية، لا ينقصها إلا أن يعصبوا عينيها، ويدعوها تدور وهى تبكى، فتصبح كثور الساقية، ويصبح بكاؤها كصوت الساقية المنتظم المتصل فى غير انقطاع.

لكنه أدرك بعد جهد، أن من مصلحته أن يسكت هذا الصوت الكريه، حتى لا تستمر الزرافة فى هذا النوع من العويل، لا تهدأ ولا تمل!! وأن تستقر التفاحة فى مكانها، بلا طلوع أو نزول بطريقة تثير الاعصاب.

قال لها :

وأنا يهون على؟ تتصورين الامن رجل جبان؟! يا عيوشة هذا غير صحيح والناس الذين يشيعون هذه الشائعات يهمهم أن يثيروك على..حسد..غيره وحسد!! أين البخور؟ لماذا لا تطلقين البخور كل جمعة؟ اتكلى على الله، واعلمى إنى رجل كبرت.. أنا كبرت ياعيوشة، ولم يعد يليق بى أن أتزوج.. إن لم يكن حياء منك، فمن بنتى وبنتك نعمت.. إن نعمت صارت أما، وقاربت أن تصبح جدة.

قالت فى صوتها البغيض :

والنبى صحيح؟ والنبى؟ إذاً هذا كله كلام فارغ.. ربنا يخيك يا حاج غضبان.. ربنا يطول فى عمرك.. المرة الماضية عذرتك فقد كنت تريد ولدا، وها أنت ذا قد أنجبت الولد من بالوظة.. انتهى الامر إذاً.. ولو أن الشائعات صحيحة، لكانت العين الفارغة هذه المرة، لكنها شائعات يا حاج. الحمد لله غيرة وحسد.. سأحضر بخورا من طنطا!.. بخور مبروك من سيدى السيد.

وخاف أن يكون حديثها عن طنطا مقصودا...

لكن ..هذه أيضا مرت!!



بالوظة.. تسكت!!

وكيف تسكت بالوظة؟!

يا رجل! إلا تستحى من نفسك؟ ومن مقامك، ومن أولادك! بدلا من أن تبحث لابنك عن زوجة تتزوج أنت؟ وما عيبنا يا حاج؟ انتهينا بعد أن شبعت يا رجل يا أبو بطن واسعة!!

وتلوى الحاج غضبان، وصوتها يصلة كأنه صهيل بغلة جموح.

وقال لنفسه : لم يبق إلا أن ترفس.. وساعتها يا ويلى!!

وضحك وهو يقول لها :

ـ طبعا مجنونة.. الحب نار! معذورة يا بالوظة! أنت تحبيننى فلم تطيقى هذا الكلام..كتر خيرك يا ستى على هذه العواطف الملتهبة.

وضحكت فتحرك جسمها، وتداخلت أجزاؤها بعضها فى بعض. كأنها فعلا حلة بالوظة هزتها يد غبية لتسقط، أو داعبتها أصابع شقية لتضحك!

وأغرى هذا الحاج غضبان، لمزيد من العبث بها فقال لها :

ـ انك بالوظة، وأنت فعلا بالوظة.. ومن الجنون الذى يستغنى عن البالوظة، يا بالوظة؟ ثم أنت أم سلطان ابنى الوحيد.

وسرها هذا الاطراء، فأخذت تتمايل تمايلا ثقيلا مزعجا.. لكن الحاج غضبان قد وجد أن هذا هو الحل الوحيد لخروجه من هذا الحرج.

ومرت هذه كذلك!!



لكن هذا كذب!!

..ها..ها..ها..ى!!

وما عيبه الكذب؟! ولماذا عيبا هذه المرة؟! طول عمرنا نكذب. كم كذبنا على الفلاحين، وعلى التجار، وعلى البوليس، وعلى الحريم، وعلى الاولاد، وعلى أنفسنا!!

..يعنى لم يصبح هذا الكذب حراما إلا عندما بدأت أنقذ به نفسى!!

ليكن! كذب كذب. أنا راض بالكذب، فإن مزيدا من الكذب معناه مزيد من فرص النجاة من المهالك.

أنا كذاب، وأبى كان كذابا، وجدى كان كذابا، وكلنا توارثنا الكذب، أبا عن أب.. أخى سلطان كذاب.. الشيخ سيد نفسه كذاب، وهو من هو فى العلم والمعرفة!

هل وصلت هنا، ووقفت؟!

لا لا ... فلتمر هذه، هى الاخرى!!

ونجحت الاكاذيب، فاستمرت علاقتى بصباح كالسمن على العسل.

على الامن ظللت أحتاط، فأخذت أنتقل بها، فى مدن مختلفة حولنا، من طنطا إلى كفر الزيات، ثم إلى دمنهور، ثم إلى كفر الدوار، ثم إلى إيتاى البارود مرة أخرى وهكذا.

ذلك الامن لم أكن أريد أن أستقر فى مكان، حتى لا يثور الكلام حولى مرة أخرى، وتثور الشائعات.

وكنت أقول لنفسى فى بعض الاحيان : لكنها زوجتك، وهى حلالك، فلماذا لا تستقر وتستريح؟ لماذا حياة الخوف هذه؟ لماذا تعيش كأنك مطارد؟!

وكنت فى بعض الاحيان، أكاد أضعف وأستكين، وأعلن عن هذا الزواج للناس جميعا، لعيوشة وبالوظة وكل الناس. لكنى كنت أعود أقول لنفسى إن هذه المطاردة تزيد هذا الزواج حلاوة.. أنها نوع من فتح الشهية، والا غراء على المغامرة! ثم هو زواج عرفى، غير مكتوب. حلال حلال، لكنه غير مكتوب، ولا يرتب لصباح أى حقوق. لماذا تقيد نفسك بقيود وحقوق؟ إذا كانت المسائل سهلة هكذا، ولذيذة هكذا، فلماذا تقلبها نكدا يا منحوس!! دع الامور كما هى، ولا تحاول أن تقلب الدنيا بفلسفتك.

وكنت متفقا مع صباح على إلا ننجب أولادا.. نعم لا نفتح على أنفسنا فتحة لا نستيطع سدها !!

ولكم تعرضت المسكينة لخطر الاجهاض مرات، حتى تحافظ على كلمتها!

لكنها ذات يوم، قالت أنها عجزت عن التخلص من حمل جديد.

ولم أصدق ما أسمع، وانقلبت الدنيا كلها فى وجهى.

وماذا أفعل؟ وماذا أقول للناس؟

وأخذت ألطم خدى! **أقول أنى أتيت به فى الحرام ! إقامتى انه جاء نتيجة لعلاقة** غرام!! أقول انه ابن رفيقة من رفيقاتى!!

يا نهار أسود!!

الزواج كان أسهل، فأقصى ما كنت أقول من الصعاب، أن تلوى عيوشة صدغها الاجرب، وتهز بالوظة بطنها كقربة منفوخة، ثم يسكت كل شئ، والعلقة تفوت، ولا (حد يموت)!!

لكن هذه المصبية..ماذا إقامتى عنها؟ وكيف أفسرها؟

أهلى قد يبلعونها لى.. لكن أهل البلد، وأهل الناحية.. ماذا سيقولون؟ وكيف سيتعاملون معى؟ والشيخ مختار ونظراته، وأسئلة المصلين بعد الصلاة، وهياج الناس على وعلى فعلتى السودة!! والله وقعت يا حاج غضبان! وقعت ولم تجد من يسمى عليك!

أين الان الجمال واللطف والرشاقة؟

هل تعرف الان أنك لست أهل نعمة؟!

أنت من أهل هذا؟ أنت ممن خلقوا ليتمتعوا بهذه الرقة، وهذه القشدة وهذا الشهد؟ أنت تكفيك عيوشة الزرافة، وجميلة البالوظة، يا حاج غضبان!!

لماذا تطلعت إلى شئ ليس فى مقدورك، ولا فى طاقتك.. الان ادفع بالتى هى أحسن!

هل تذكر كيف فقدت القدرة على النطق؟

وهل تذكر كيف بكيت، وأنت هكذا ضخم كالجبل؟

لكن ما كان أرقها صباح!! كانت أكرم وأسخى، وأكثر شهامة وتضحية!!

لقد دنت منك، وفى عينيها دموع، لكنها مسحت دمعها، ورسمت على شفتيها ابتسامة باهتة مصطنعة.. وقالت وهى تتمالك نفسها :

أنت حائر يا حاج غضبان.. أنا أعلم أن موقفك سيسوء بين أهلك. أعلم الامن لست قد المقام.. أعلم أى جئت من الشارع، والشارع هو مصيرى؟ لا تخف من شئ لا تخف

منى، ولا من أهلك.. سأذهب يا حاج من حيث جئت والله يتولأنى.. ان رحمة الله واسعة.. نعم وهى أوسع مما تظن.

على أنك - ما كان أقساك - قد حاولت أن تسألها عما إذا كانت ستحتفظ بالحمل، أم أنها ستتخلص منه.

قالت وقلبها يتمزق : لو أستطيع ما تأخرت.. لكن التخلص منه الآن يقتضينى حياتى! وهل ترضى له هذه النهاية؟ هل يكون هذا جزائى؟ إن كنت ترضى فالأمر أمرك! لكنى لن أقوى على شئ كهذا، ومن الخير لى ولك فى هذه الحالة أن تقتلنى أو تكلف من يقتلنى.

وسكتت فى استسلام، ولم تضف على ذلك شيئا.

وأخذت أنت تقول لنفسك : لكن هذا الحمل سيصبح فى المستقبل مشكلة.

وكنت ترد على نفسك : أية مشكلة؟ سيكون مجهول الاب، مجهول النسب!

ومع هذا، كنت تريد أن تصارحها.. تشترط عليها مثلا أن يظل الامر سراً بينكما، لا يعرفه أحد، وعلى الاخص تلك الثمرة التى ستأتى إلى الدنيا، لتصبح مشكلة عسيرة الحل!

لكنك كنت تشعر يا حاج غضبان، أن ذلك مطلب ثقيل..المسكينة سلمت لك وأعطتك كل شئ.. لم تسأل عن شئ.. لم تطلب ثمنا. لم تحاول أن تفسد عليك متعتك بحديث عن المستقبل، أو المصير. فهل يكون هذا هو الجزاء؟

لقد خجلت من نفسك، وعجزت عن الحديث أمام ضعفها. لقد كانت فى ضعفها أقوى منك.

ثم سبب آخر يا حاج غضبان!!

كانت عيناك : عين فى الجنة، وعين فى النار.

تريدها... وتحبها.. وتشتهيها. وتعمل على أن يطول بقاؤها معك أطول مدة! تتمتع بها إلى آخر ما فى جراب الحاوى من أسرار.

لكنك تخاف.. تخاف من الفضيحة من اسمك، وتخاف من الحمل الذى بدأ يظهر فى بطنها.

هل تتركها...حالا؟

هل تبقيها... بضعة شهورأخرى؟

وأخذت تخدع نفسك، بمسائل إنسانية، أنت تعلم يا حاج غضبان أنك تكذب على نفسك وأنت ترددها لنفسك.

..أين تذهب هذه المسكينة؟ وكيف تعيش؟ ومن الذى يقبلها عنده، وهذا حملها يزيد كل يوم وضوحا، ويزيدها كل يوم ضعفا؟

ثم أنها جميلة فاتنة، وقد يوقعها هذا الجمال فى يد لا ترحم، تستغلها بصورة بشعة، غير كريمة، وغير إنسانية!

...أنت يا حاج غضبان!! أنت تتحدث عن الصور البشعة، غير الكريمة، وغير الانسانية!! ولماذا تتركها يا رجل، إن كنت حريصا هكذا على الانسانية!!

قلها صريحة.. لا تكذب على نفسك، ولا عليها.. قل انك تستكثرها على أحد سواك! خسارة تطير من يديك، لسواك!!

وهب أن هذا صحيح، وهو صحيح..فما العيب؟

حلوة بنت الـ..!!

هذه هى... تتركها أم تبقيها؟!

انها بين يديك، مسلمة، مستسلمة.. تتركها تذهب أن تبقيها حتى تعجز عن الحركة بما فى بطنها من حمل يكبر مع الايام؟!

يا مجرم يا قاسى الفؤاد.يا حاج!! ستبقيها حتى تصبح عاجزة عن الحركة فلا يطمع فيها أحد! يا أنانى يا جبان يا حاج غضبان!!

تحمد ربنا!! أخى الحاج سلطان، ظل وراء تفيدة حتى غرقت..أنا لن أقتل "صباح"، ولن أكلف من يلقيها بين أمواج الرياح.. أنا سأتركها حية على كل حال!!

.. حية!! وأية حية؟ حياة، خير منها الموت!!



وهل ذلك يوم ينسى؟!

كانت بطنها قد صارت شيئا يتقدمها!! كانت حركاتها قد صارت ثقيلة متعبة!! كان نومها قد صار قلقا متقطعا!!

لكنها ظلت مع ذلك كله حلوة فاتنة. ضعفها قد كان رائعا مثلها. على أن الحاج غضبان، كان قد قرر تصفية الشركة بينه وبينها!!

..وهل كانت حياته معها غير صفقة رابحة؟!

وقد أراد أن يفاجئها وينهى الامر معها، كأن شيئا ما كان!

وعندما سمعت كلامه وانه يطلقها طلاقا بائنا، تحاملت على نفسها فى كبرياء واختفت قليلا ثم عادت، حيث كانت قد جمعت ملابسها ولفتها فى جريدة قديمة.

قالت فى تحامل : أتركك بعافية.

قال فى دهشة : تتركين من؟

قالت فى سذاجة : أتركك أنت. أليست هذه رغبتك؟

قال فى إصرار : بل تبقين هنا. أنا أخرج.

قالت فى براءة : لكن هذا بيتك، وكل ما لى فيه أخذته.

وأشارت إلى اللفة التى تحت إبطها، وفى عينيها دموع.

قال لها الحاج غضبان محاولا أن يتظرف : وهذا؟ وأشار إلى **بطنها.**

فنظرت إليه طويلا ثم قالت فى حدة : هذا بين أحشائى، وفى قلبى. هذا لن تستطيع قوة أن تأخذه منى. خذ ملابسى إن شئت كما أخذت كل شئ طلبته. أما هذا، فلى وحدى. ربنا وضعه بين ضلوعى، حتى لا يأخذه من أحد.

قال الحاج غضبان : لكن أين تذهبين به، وأنت متعبة هكذا؟

قالت فى برود : وهل هذا يهمك؟ الدنيا واسعة.

قال فى ضجر : بل تبقين هنا حتى تضعى حملك، وتمضى فترة النفاس بخير، ثم ...تفعلين ما تشائين.

قالت فى ضيق : لا ترتب لى يا حاج. أنا قادرة على أن أرتب لنفسى.

قال فى غضب : لكنى لا أرضى ...

قالت فى هدوء : ترضى أو لا ترضى. رضاؤك لنفسك، وعدم رضائك على نفسك.

وخرجت ولفة الملابس تحت إبطها.



هل تذكر أم لعلك نسيت؟!

هل تذكر هذا المنظر؟ امرأة جميلة تجمع ملابسها وتلفها فى جريدة قديمة وتخرج! بلا إنذار، ولا ترتيب! هكذا كمن يصاب بالسكتة أو ينزل عليه قضاء من الله.

لقد حدث ذلك تماما منذ قرابة ثلاثة أعوام، فى مكتب رجل من رجال الاعمال فى مركز صغير، من مراكز مديرية البحيرة، هو مركز كفر الدوار.

وكانت المرأة هى نفس المرأة، فى شقة تكاد تكون هى نفس الشقة، لشدة ما بينهما من الشبه، وفى نفس المركز : كفر الدوار.

.. بفرق!! أنها لم تكن فى صحبة تاجر قروى جائع إلى المتعة وإلى الجمال.

هى صباح المسكينة تتكرر معها نفس القصة، ونفس المأساة. ..وتضحك يا حاج غضبان؟

على كل حال، لقد كسبت لنفسها خلفا ...صالحا! هكذا قلت لنفسك يا حاج وأنت تضحك ضحكا طويلا، يتردد فى جنبات هذه الشقة الخاوية إلا منك.

لكنك تعود تقطب جبينك فى حسرة.

تتحسر عليها؟! لقد مرت سنواتها الثلاثة، كأنها البرق! كانت حلوة فاتنة، وكانت مطيعة ورقيقة.

من يعوضها هذه الفاتنة؟

عيوشة؟ زرافة آدم، النحس! بتفاحتها التى تروح وتجئ على رقبتها الطويلة كالارغول المثقوب؟!

أم جميلة البالوظة، ذات اللحم النيئ المكتنز فى كل جزء فيها، تفوح منه رائحة زفرة، كالسمك المخزون؟!

هل هذه أم تلك تعوض "صباح"؟!

تعوض ماذا؟ وجهها الصبوح الاملس؟ أم ابتسامتها الرقيقة الطيبة؟ أم نظراتها، أم مشيتها أم لفتتها؟ أم ماذا؟ أم ماذا؟ أم ماذا؟

يا رب استر. هل تقدر على أن تتحملها بعد هذا يا حاج غضبان؟

أنت طول عمرك تشرب هذه العكارة حتى اعتادت عليها أمعاؤك.

نعم وطول عمرك تبلع هذه اللحمة السمينة فإذا سدت حلقك، سلكته بهذه العصا المعضمة، ذات الرقبة التى تتدلى منها التفاحة، وفوقها الوجه المبقع.

...لكنى! لكنى لم أكن قد ذقت شراب الورد، ولا أكلت الطعام المسبك فكيف أعود أشرب الملح الانجليزى، وآكل الطبيخ الحامض؟!

..تعود إلى أصلك، وإلى حياتك الطبيعية، لتهنأ بأسرتك وأهلك وسمعتك وشرفك، فيثق فيك الناس رضاء أو غصبا، **فتحول أنت هذه الثقة إلى كنز لا يفرغ ولا ينضب، كالساقية!**



وتمر الايام، وأنت تحاول أن تنسى.

لكنك كالمدمن، يعود إلى الكيف، وهو يخيل لنفسه فى كل مرة أنها آخر مرة!

حتى هذا لم يتيسر للحاج غضبان، أن يعود للكيف خلسة وفى جنح الظلام! لأنه لم يستطع أن يجده ولو مرة، لتصبح أول مرة، أو آخر مرة!

وكما يجد المدمن نفسه فى حالة عجز كامل، عندما يعز عليه أن يعثر على ضالته، فكذلك أنت يا حاج غضبان، وجدت نفسك فى حالة جمود وشلل، مغيب العقل، مشتت العاطفة، لا تدرى ماذا تفعل.

ذهبت صباح، ولم تعد قادرا على أن تراها.

كانت بيت يديك يا غبى، لكنك أنت الذى أضعتها من بين يديك. سرحتها أو أعتقتها كما كان آباؤك أو أجدادك يفعلون بالعبيد.

.ثم تبكى الان؟ لن يجديك الدمع، ولن يعيدها البكاء إليك.

ومرت عليك أيام سوداء، أسود من حلكة الليل فى آخر الشهر! واعتكفت فى منزل وحدك لا تقابل أحدا، ولا يقابلك أحد. وعندما حاولت الزوجتان أن تقوما بخدمتك، ثرت ثورة جنونية، ورفضت أن ترى واحدة منهما. وعندما انزعج عليك أهلك، وألحوا عليك فى العلاج رفضت مجرد الاستماع إليهم! كنت غريب الاطوار والتصرفات.

وعجب أقاربك من أحوالك، فقد عهدوك هادئا رزينا، لا تهتز لشئ، فإذا أنت لا تطيق أن ترى أحدا، ولا تحتمل أن يحدثك أحدا! حياتك صارت كلها صياحا وانفعالا وثورة على كل شئ، بغير أن تستثنى شيئا على الاطلاق.

التجارة قد صارت عندك كريهة. ومحصول القطن أصبح بغيضا، وكل المحصولات لم تعد تثير فيك الهمة ولا الاهتمام.لم تعد تعنى بالفايظ، ولا بخراب البيوت، ولا بطرد الناس من أراضيهم وبيوتهم.

أصبحت كمية من لحم رجل، مركونة فى الدوار، بلا نشاط ولا رغبة فى نشاط!!

- كرهت الدنيا .فانية.

- وأحببت ماذا؟

- لا شئ. كل شئ لم يعد يستحق الحب.

- سبحان الله. هذه مبادئ جديدة يا حاج غضبان.

- أنا طول عمرى هكذا.

- كذاب... أنت طول عمرك نهاب. تنهب مال النبى. تصوفت الان وأصبحت وليا من أولياء الله ! بركاتك يا سيدى الحاج غضبان! يا رجل اعقل. اعقل أحسن لك.

- هذا هو العقل. ابحثوا لمحاصيلكم عن واحد سواى.

هل ترانا كنا ننتظر خيبتك هذه؟ نحن دبرنا أمرنا أحسن مما كنت تفعل. لكنك أنت، أنت صرت حديث البلدة كلها، وحديث الناحية. هذا عيب عليك.

- اتركنى فى حالى فهذا شئ يخصنى وحدى.

- إن كنت تريد الزواج، فإنا نزوجك يا أخى، وتخرج إلى الدنيا.

- تظن أن الزواج سيعالجنى؟

- طبعا يعالجك ويعالج جدودك أيضا.

وانتهى حوار الحاج سلطان والحاج غضبان، وقد كان واحدا من عشرات مثله ومع هذا فقد ظل الحاج غضبان متعكفا عدة شهور، حتى تمكن من الخروج من عزلته.

وكان أول ما فعله هو أن سافر إلى كفر الدوار.

هل كان يبحث عنها؟ هل كان يتعقبها؟ هل كان يريد أن يراها؟

لقد خدعت نفسك يا حاج غضبان، عندما قلت لنفسك : لا.. أنا ذاهب للتجارة. إن مصالح البلدة أمانة فى عنقى.

والحقيقة أنك كنت ذاهبا تبحث عنها.

لكن كيف تجدها؟ كيف تقف لها على اثر؟

لقد كنت حريصا على إخفاء أمرها عن الناس جميعا. لم تسمح لأحد بأن يعرف علاقتك بها. فكيف يا حاج ستجد من يرشدك عنها؟!

..هناك واحد. واحد فقط يعرفها وتعرفه.

- لكن كيف تذهب إليه، وأنت لا تحبه، ولا تطيق أن تراه؟!

- لكنه الوحيد الذى تعرف أنت أنه يعرفها.

وذهبت إلى التاجر، الذى رأيتها أول ما رأيتها فى بيته، زوجة حلال لكن بغير حقوق!! ولم يفاجأ بك عندما رآك بعد هذه السنوات الطوال.

قال لك : كنت أتوقع مجيئك!

وعجبت لهذه المفاجأة، حتى لم تعرف كيف ترد.

ومضى يقول لك :

هل كان لابد من هذا؟ إلا تعرف يا أخى كيف تحتاط؟ على كل حال لقد مرت الازمة بسلام، ونزل من بطنها ولد مثل اللبن الحليب. حلو وجميل ومدهش.

ودارت بك الدنيا.



ولد، مثل اللبن الحليب، حلو وجميل ومدهش. أخذ عنها أكثر مما أخذ عنك.

ولابد انه أخذ عنك الرجولة والشهامة والدهاء! وأخذ عنك كذلك التجارة والشطارة، واللعب بالبيضة والحجر!

شكله لأمه، وعقله لأبيه! سيكون تحفه يا حاج غضبان!!

آه! وتنسى انه سيكون كذلك مشكلة؟!

إن صديقك التاجر، صهر مدير الامر العام يتمم روايته فيحكى لك كيف أنها جاءته ذات يوم، والجهد قد بلغ منها مبلغه. كان وجهها أصفر، وكانت عيناها غائرتين، وكانت ترتعد كأنها تعانى الحمى. بالطبع كانت حاملا تنتظر أن تضع مولودها الاول.

ـ لم أعجب لقدومها. إن لها مكانة خاصة فى قلبى. لقد خدمتنى خدمات كثيرة. والذى عجبت له يا صديقى الحاج أنها جاءتنى حاملا... كانت دائما حريصة وكانت تقول : لا،لا...لا أريد ولدا بلا والد! عندما يكون لى ولد، فإنى أحب أن يكون كالاخرين، لا ينقصه شئ.

ـ وهل قالت لك ...؟

ـ نعم وكان هذا هو ما زادنى عجبا. الحقيقة أنا دهشت دهشة بالغة فقد كان ظنى أنها لا يمكن أن تبقى معك طول تلك السنوات. لكنها ظلت معك، وحملت منك.

ـ لا ..من قال لك منى؟

ـ هى قالت لى هذا؟

ـ هى كذابة.

ـ لا يا حاج غضبان. أنها لا تكذب. أنا أعرفها، وهى لا تكذب.

ـ هذه المرة كذبت عليك لتبرر حملها.

ـ هذه المرة، ككل مرة، قالت الحق. هى لا تقول إلا الحق.

ـ لماذا جاءتك إذاً؟ لو أنها صادقة، ما جاءتك.

ـ وماذا كانت تفعل؟

ـ كانت تستطيع أن تبقى، لتضع مولودها.

ـ أنت طلقتها يا رجل.

ـ طلقتها أو تزوجتها!! كله كلام! كلام فى كلام! كانت تستطيع أن تبقى حتى تضع مولودها.

ـ هذا هو ما تظنه. لكن صباح شئ آخر. صباح أخطأت مرة. بل لم تخطئ. أنها اغتصبت مرة، ومن يومها لا تحيا مع أحد إلا فى الحلال.

ـ وتسمى هذا الزواج حلالا؟!

ـ طبعا. كزاوجك من أى واحدة أخرى.

ـ لا..لا.. هذا شئ آخر. انه مجرد تبرير.

ـ تبرير؟! تسمى هذا الجميل، وهذا الفضل، تبريرا؟! أبدلا من أن تشكرها على أنها حفظت سرك، واحترمت إرادتك؟! أبدلا من أن تقدر لها هذا الصنيع تتهمها بأنها تبرر فعلة فعلتها؟! يا رجل هل هى التى ارتمت تحت قدميك؟! هل هى التى أحبتك وماتت فيك؟! أنها لم تشعر لك بوجود. ولا لى، ولا لأى واحد طلبها لتكون له. أنها فوجئت بك، وبى، نطلبها، فلم تمانع. لكنها أرادت أن يتم ذلك حلالا. هل تلومها على أن استجابت لك؟ ولا تلوم نفسك على أن أخذت منها كل شئ، ثم رميتها فى عرض الطريق؟

ـ أنا قلت لها أن تبقى...

ـ حتى تضع مولودها؟

ـ نعم حماية لها من ...

ـ ...من ماذا؟ ولا تحميها من ظلمك يا رجل. أخذتها زهرة رقيقة وتركتها كرمّة منفوخة لا تعرف كيف تسير!!

ـ قلت ليس منى ...

ـ إذاً لماذا عرضت عليها أن تبقى عندك حتى تضع هذا المولود، طالما انه ليس منك؟! بل لماذا أبقيتها على ذمتك وهى حامل من سواك؟! تريد أن تخدعنى؟ أنا لست قاضيا شرعيا! ليت أنا المحكمة! توفر هذا لتقوله للمحكمة إذا ذهبت تطلب لابنها نسبا ونفقة.

ـ يا نهار أسود. تظن أنها ستذهب تشكونى؟

ـ اطمئن. صباح ليست هذا الصنف من الناس. أنها أعز على نفسها من أن تشكوك. ستشكوك إلى الله، فهو وحده القادر على أن يسمع منها ويستجيب إليها.

ـ وماذا فعلت لها؟ هل أسأت إليها؟

ـ طبعا تركتها تواجه مصيرا حالك الظلام. لو أنها وحدها لهان لها الامر. لكنها تواجه مسئوليتها عن نفسها وعن مخلوق آخر، أعز عليها من نفسها وهو ابنها. لقد كانت تبكى وهى تقول لى : ماذا أقول له؟ باسم من أضعه فى شهادة الميلاد؟ من أقول انه أبوه؟! لو قلت انه ابن الحاج غضبان، فقد ينكر أبوته، وقد يقتله!! أكذب وأدعى أى اسم آخر؟!

ـ كان ذلك هنا؟!

ـ نعم هنا. فى مكتبى. طبعا لم أكن أستطيع أن أدعها تواجه هذه المحنة فى عرض الطريق! أنا صحيح أخاف زوجتى، أو الصحيح أخاف صهرى العظيم ونفوذه وخطره، لكنى إنسان قبل كل شئ. إنسان خائف جبان، جائز! على أنى إنسان على كل حال.

ـ وماذا فعلت؟

ـ ربنا أرسل لها الحل من كرمه.

ـ أى حل؟

ـ أكرم حل كانت تتوقعه. كان الاسطى محجوب يعمل عندى سائقا للسيارة، وقد أحبها ورق قلبه لها وعندما أقبلت عليهما ذات يوم سمعته يقول لها : لا تنزعجى يا صباح.لا تبكى. إن دموعك غالية كعينيك. وأنا أضع نفسى فداء لك، لتهنئى ولتسعدى، ولتضحكى، ولتنثرى على الدنيا بسماتك الحلوة، بدلا من هذه الدموع.

لكن صباح شكرت له رقته وطلبت منه أن يبتعد عنها حتى لا يلحقه حظها المنحوس. وعرض الاسطى محجوب عليها أن يتزوجها، وأن ينقذها من هذا العذاب فإنها لم تخلق

كما قال لمثل هذا العذاب. وعندما أرادت أن تحكى له قصتها أسرعت إليهما أبارك هذا الزواج، وأمنعها عن أن تحكى له قصة الخسة التى تعرضت لها مع رجال آخرين قبله، ليظل يعتقد أن المسالة لا تعدو أن شخصا جبانا تزوجها، ثم تنكر لها وهجرها. وقد قبل محجوب أن ينتسب الولد إليه، وسماه "محمود".

ـ وهلا يزال محجوب يعمل عندك؟

ـ لقد وجد فرصة أكبر وأجرا أعلى، فى إحدى شركات البترول، فالتحق للعمل بها. جزاء كريم من عند الله وعندما حاول أن يعتذر، احتراما لارتباطه بى، أقنعته بأن يقبل، فإن مطالب الحياة كثيرة. خاصة وقد أصبح صاحب أسرة، ستتمو مع الايام.

ـ ولا يزال يعيش معها هنا؟

ـ لا يا حاج ... لقد انتقل إلى القاهرة. حيث مقر عمله.

ـ والولد ..ماذا تسمع عنه؟

ـ أسمع انه بخير، وأن أباه يحبه كل الحب.

ـ أباه!! تقول "أباه"..؟ هذا الرجل أبوه!!

ـ نعم أبوه. الاسطى محجوب أبوه.

ـ لكن هذا غير صحيح! وحرام أن ينسب إلى غير أبيه، وأبوه حى!

ـ من أبوه؟ من يكون أبوه؟

ـ الا تعرف؟ إننى أنا أبوه يا سعادة البك.

ـ تعترف الان، وكنت تنكر أن تكون أباه، كنت تزعم أن "صباح" حملت فيه من رجل آخر!



وبكيت يا حاج غضبان. بكيت كالأطفال. بكيت من الحسرة والندم والتناقض! صعبت عليك نفسك، وابنك، وصباح، فأخذت تبكى، وصديقك التاجر يخفف عنك بعضا مما تعانيه ويطمئنك إلى أن الولد بخير، وانه يلقى من محجوب عناية الاب ورعايته وحبه.

لكنك كنت تبكى شيئا آخر. كنت تبكيها هى ! كنت تبكى "صباح" التى ذهبت عنك واستقرت هناك عند رجل آخر سواك.

وألم تكن أنت الذى طردتها؟ كانت مضطرة إلى هذا، بعد أن طلقتها طلاقا بائنا لا رجوع فيه. رخصت وهى معك، فلما ذهبت...غليت!! قتل الانسان ما أكفره!!

اتركها فى حالها فهذا هو نصيبها من الدنيا.

لكن لا..إن "محمود" هذا ابنى، ولابد لى من أن أراه وأطمئن عليه.

محمود! محمود من يا حاج غضبان؟! قل الحق، فأنت تريد أن تراها هى، وتتخذ الولد حجة وذريعة!

ابنى! الولد ابنى!

هل تكتبه باسمك؟ هل تطلبه إلى حضانتك وتطالب بضمه إليك؟!

لكن هذا كله شئ، وانه ابنى شئ آخر..

يا رجل يا كافر. الأبوة ليست أن تلقى بذرة فى الارض فيسقط عليها المطر فتنبت، كأنها عود ذرة أو شعير. أنها هى الارتباط والمسئولية والتضحية، وشعور قوى جارف غير محدود.

لكن القسوة أو العقوق لا يمنع قيامها. قد أكون والدا قاسيا، وقد يكون ابنى عاقا، لكنى مع هذا أبوه، وهو رغم ذلك ابنى.

سبحان الله أيها الرجل!! وبأى حق؟ وبأى منطق؟ بطردك له وهو لا يزال جنينا فى بطن أمه؟ أم بخوفك من أن يحمل عنك اسمك الشريف الطاهر فيلوثه أو ربما ينجسه!!

يا رجل استح. أن أباه الحقيقى، هو من بسط عليه الرعاية والامن والحنان. وأعطاه البيت والحب والنسب.



وظلت نفسك تحدثك أن تذهب لتراه، وحاولت أن تصرف عن نفسك الفكرة فكانت تلح عليك. ولم يكن مستحيلا أن تعرف الطريق إليه.

..وبعد قرابة عامين من التردد ذهبت، وأخذت تبحث عن العنوان، فى فم الخليج حتى وجدته، ودلوك على المنزل، الذى يسكنه الأسطى محجوب وأسرته.

وكان الوقت ضحى، والأسطى محجوب فى عمله.

واستقبلتك صباح مشرقة جميلة، يشع من عينيها سحر، والابتسامة الفاتنة على شفتيها. لم يتغير فيها شئ، بل أنها صارت أكثر فتنة وأشد إغراء.

وفى بساطة طيبة رحبت بك، ودعتك للدخول، فلما استقر مقامك فى بيتها الصغير الجميل، ذهبت لتعد لك التحية ترحيبا بمقدمك.

وعادت وعلى كفها الشاى.

وبدأ حديث طويل :

ـ كيف حالك يا صباح؟

ـ أنا بخير كما ترانى.

ـ سعيدة يا صباح؟

ـ كل السعادة يا حاج. الله يخليك.

ـ وزوجك ...هل..

ـ ربنا يطول عمره. أكرمنى وآوانى وستر عرضى.

ـ عرضك كان مستورا دائما يا صباح. كنت فى عصمة رجل.

ـ لكنها كانت عصمة عريانة بغير غطاء...مكشوفة، بغير ستر.

ـ بل كانت مغطاة ومستورة.

ـ بالكلام...

ـ وبالفعل...

ـ يا حاج اترك الكلام فى هذا الموضوع فقد انتهى.

ـ أنت التى خرجت.

ـ نعم هجرتك.. أنا هجرتك.سامحنى!!

ـ لا تتهكمى يا صباح، فقد تركت فى قلبى جرحا لا يزال يدمى.

ـ وكنت تريدنى أن أبقى عشيقة لك يا حاج؟! أم ماذا؟

ـ أما لابننا!

ـ ما شاء الله. أعيش أما. تكفينى صفة واحدة. إما زوجة وإما أما... صحيح. كثير على مثلى أن تكون لها صفتان!!

ـ لا...هذا ليس قصدى.

ـ هل كنت تنسب الولد إليك فى شهادة الميلاد؟

ـ ...أنت تعرفين.. أقول أنك.. والله.. هذا...

وتركته يضطرب. ويتلعثم، ولا يدرى ماذا يقول، فلما أصبح نكتة تثير الضحك قالت له فى رثاء :

أرأيت أنك لا تستطيع أن ترد؟ ومع هذا تصر على الامن هجرتك!!

على كل حال، نشرب الشاى أحسن.

وصبت له الشاى، وقدمته إليه، بينما كان يطيل إليها النظر، كمن يريد أن يلتهمها. كانت عيناه فى عينيها العميقتين كأنهما البئر، وفى رقبتها المستوية كأنها قناة من العاج،

وفى صدرها الناهد كأنه الفاكهة استوت على غصنها الفارع، وفى يديها، وساقيها، وكل جزء فيها.

وعادت إليه ذكرى أيامها معه. كل ذلك كان له، يستمتع به.

وهم بأن يشب على ساقية يستعيد كل ذلك إليه، لولا أن قالت له :

إياك.. هذا ليس لك. انه لرجل آخر سواك. لزوجى الذى أحبه ويحبنى. للرجل الطيب الذى تقدم إلى لينتشلنى من المحنة، وينقذنى من الوحدة ويعصمنى من الحاجة.

وحاول أن يذكرها بالسنوات البديعة التى عاشاها معا، فسدت أذنيها عن ذلك وهى تبتسم فى سخرية.

وأسكره جمالها، وأدار رأسه كبرياؤها، وهز كيانه تأبيها عليه، فقال لها :

لكن لماذا لم تقولى أن هذه رغبتك؟ إذاً كنت حققتها لك!

- أية رغبة تقصد؟

- أن تتزوجى وتصبحى زوجة شرعية أمام الله والناس.

- وألم تكن تعلم أن هذه هى رغبة كل امرأة؟ أن تجد الرجل الذى يسعدها ويوفر لها الراحة والهناء؟

- ظننت أنك كنت سعيدة، على الوضع الذى كنا عليه.

- أن أحيا مهددة، لا أدرى ماذا يأتى به غدى؟!

- ولماذا يا صباح؟

- ألم تطلقنى لغير ذنب، إلا أنى حملت منك؟!

- لكن كان يمكن علاج هذا.

- بأن تعود تتزوجنى؟

- نعم ولم لا.

- لأنى دمية يلعب بها الرجال؟

- بل لأن هذه هى إرادتك.

- إرادتى؟! هل كانت هذه هى إرادتى؟ إرادتى أن أنتقل من رجل إلى رجل يتزوجنى كل منهم سرا.. ياتى بمأذون وشاهدين، ويسألنى المأذون سواء كان حقيقة مأذونا أم لم يكن هل تتزوجين هذا؟ ويسألك هل تتزوجها ويشهد الشاهدان، ثم تنال منى بعد ذلك ما تريد، حتى تزهدنى، أو تخافنى أو تجد من هى أحسن منى، فتطلقنى سرا، كما تزوجتنى سرا.. أهذه إرادتى؟ أية إرادة أن أشترى وأباع كالعبيد!! حتى العبيد لهم ثمن، وأنا أباع باللقمة والكسوة والاقامة!! ولا ثمن!! ويصبح على أن أدفع ..ماذا أدفع؟ نفسى! وشرفى، ومصيرا غامضا لا أعرف عنه شيئا. حتى الخوف ليس من حقى! حتى القلق لا أملكه!



ولم يجد الحاج غضبان أمامه من وسيلة يثير بها عاطفتها، أو يلين بها هذا التأبى، إلا أن يتحدث عن ابنه ...

- نعم انه ابنى...انه ثمرة أعز أيام حياتى.

- محمود ابن محجوب. انه ليس ابنك.

- بل ابنى، كما انه ابنك، ولن أتخلى عنه.

- ولماذا تريده الان؟

- لا يسأل والد لماذا يريد ولده!

- وهل تشعر حقيقة انه ابنك؟

- طبعا. هو ابنى، من دمى، ومن لحمى.

- لماذا إذاً تركته، وتخليت عنه؟

ـ أنت التى ذهبت به، ولم يكن ممكنا أن أرغمك على البقاء.

ـ وهل كنت مستعدا لأن تكتبه باسمك؟

ـ طبعا، وهل فى هذا شك؟ لكنك أخذته إلى رجل آخر، وغيرت نسبه فلم يعد ابن أبيه. هل سألت أباه؟

ـ أباه!! من؟ ذلك الرجل الذى أنهار يوم أخبرته بحملى منه، وأخذ يصيح ويسب ويلعن خائفا على اسمه من الفضحية، وعلى أسرته من العار؟

ـ لم يكن يدرى!!

ـ وهو الآن يدرى؟!

ـ نعم وتحكمت فيه عاطفة الأبوة، حتى لم يعد إلى مقاومتها من سبيل!

ـ ما شاء الله!

وشعر الحاج غضبان، انه ـ عن هذا الطريق ـ بدأ يحطم مقاومتها. إن صباح قد أخذت تلين. هذا هو الوتر الحساس الذى يستطيع عن طريقة أن ينال منها كل شئ.

... وماذا تريد منها فى الحقيقة؟!

ليس صحيحا أنك تريد الولد. وليس صحيحا أنك تريد أن تنسبه إليك، وليس صحيحا أنك تريد أن تأخذه عندك. المهم عندك يا حاج غضبان هى...صباح بجمالها وفتنتها وسحرها. المهم أن تنالها، فى الحلال أو فى الحرام.

بل ربما كان الحرام ألذ! تأخذ منها ما تشاء، ولا تتحمل عنها مسئولية. لا حمل ولا أولاد، ولا فضائح ولا شائعات! تفعل أنت ما يحلو لك، والاولاد لرجل سواك! شئ جميل! ورائع!

والطريق لذلك مفتوح. الولد محمود. أنها أم رقيقة فياضة الشعور، ولن تفرط فى ابنها. أبدا ولن تتركه يذهب من بين عينيها.

تحاربها به يا نذل يا جبان!

بل أنالها به، فلا تستطيع إلا أن تسلم!

والا أخذت الولد منها!

أو أثرت الموضوع، لتفضحها أمام الناس وأمام زوجها الاسطى محجوب!

هذه خسة! هذه دناءة!!

يا شيخ. كله يستوى. المهم هى. المهم أن أنالها. المهم أنقذ نفسى من الزفارة والروائح النتنة، وزعازيع القصب! يا عالم أريدها، أريدها، أريدها!

ـ أنا أريد ابنى يا صباح.

ـ يا حاج غضبان أرجوك.

ـ أريد ابنى. ابنى يا عالم. أريد ابنى.

ـ هل تريد أن تحطم حياته؟

ـ لا تحاولى أن تقنعينى بشئ، إلا انه ابنى، ولابد من أن أراه. أين هو؟

ـ مع أخيه يلعبان فى فناء الدار.

ـ أخيه..من أخوه؟

ـ حسين. أخوه حسين.

ـ ابن محجوب...طبعا.

ـ طبعا ابن محجوب. ابنى وابن محجوب.

ـ وما دخل ابنى بابن محجوب؟

ـ أخوه! انه أخوه.

ـ من أمه، لا من أبيه.

- بل منهما معا؟! من أمه وأبيه.

- كذابة. أنت كذابة، إلا إذا كنت قد خنتنى معه، وأنت زوجتى.

- بلا خيانة. هو له أخ شقيق.

- كيف هذا؟

- هذا ما يعلمانه، ويجب إلا يعلما شيئا سواه.

- بل يجب أن يعلم محمود الحقيقة.

- ومن الذى يستفيد من ذلك؟ أنت؟ أنا؟ الولد؟ فكر قليلا.

- لا يهم من يستفيد. الحقيقة يجب أن تعرف على كل حال.

- اسمع يا حاج. لا تحاول أن تفسد حياة ابنك. يكفى أنك ألقيت به للكلاب وكانت ستنهشه، لولا أن وفر له الله هذا القلب الرحيم العطوف فنسبه إليه وبسط عليه من حنانه ورعايته ما يبسطه على حسين ابنه.

- لكن الولد يجب أن ينسب لأبيه. أفاهمة أنت؟ يجب أن ينسب لأبيه.

وشعرت صباح أن رأسها تدور، وأن هذا الرجل قد جاء ليقلب عيشتها وأن ما حسبته هناء واستقرارا، ما كان غير سراب. وانها توشك أن تواجه أياما حالكة سوداء.

وتصورت كل شئ أمامها يبهت ويتضاءل، حتى يوشك أن يختفى.

زوجها محجوب، بقامته الطويلة الفارعة، ووجهه الاسمر، وابتسامة الرضا والامل ترسم على شفتيه. وابنها محمود الجميل الرائع، وحسين الطفل الصغير الذى لا يزال رضيعا يعيش من ثدييها. والبيت فى فم الخليج، والجيران، والاصدقاء. كل ذلك قد بدأ يهتز أمام عينيها، ويتضاءل، حتى كاد يتلاشى لتحل محله حياة العذاب والحاجة، والرحلة من بيت إلى بيت، ومن رجل إلى رجل والله وحده يعلم كم من مرة ستحمل! وكم من مرة ستجهض! وكم من مرة ستضع أولادا! وهل تجد لكل ولد فى كل مرة نسبا!

وهمست فى سرها تطلب من الله الرحمة، حتى لو أن هذه الرحمة هى الموت! الموت رحمة! الموت ستر!

وقالت لنفسها :

لقد ضاع يا بنت كل شئ! لقد فقدت كل شئ.

وعندما نظرت إلى الحاج غضبان روادتها فكرة سريعة مفاجئة. ماذا لو أعطته ابنه؟ أنها تخفف بذلك حملها. نعم وسترى عندما يعود محجوب، هل يحتفظ هو الاخربحسين. إذاً تعود كما كانت وحيدة تبحث عن الرزق، ولو كان ثمنه زواج المتعة، خفية وفى الظلام.

فكرة! نعم، وهى _ فيما يبدو _ الحل الوحيد الان.. وقالت للحاج غضبان :

- إذاً خذه معك.

- من؟ آخذ من؟

- الا تريده؟ خذه معك.

- آخذه إلى أين؟

- إلى حيث تريد. ابنك. أليس ابنك؟

- نعم ولكن ...

- ولكن ماذا؟ قلت خذه معك. سأناديه الأن وأقول له هذا أبوك، وسيأخذك معه، وعليك بعد هذا أن تصحبه إلى حيث تريد. لا تهتم به إذا بكى. سينسى. الاولاد سريعو النسيان.

- لكن ...المسألة..

- أية مسألة ..سأناديه لتأخذه معك.

- وأنت؟!

- ما شأنك بى؟ أنت طلقتنى، وبعد انتهاء العدة تزوجنى رجل سواك زواجا شرعيا حلال مسجلا مكتوبا. ماذا تريد منى؟

- تربين الولد؟

- أى ولد؟

- محمود.

- وحسين من يربيه؟

- أبوه.

- أبوه زوجى!! أترك أباه وهو زوجى، لأربى واحدا طلقنى أبوه!! ما هذا الكلام الفارغ؟!!

- الولد لن يستغنى عنك.

- كلمة واحدة. تأخذه أو تتركه. إن كنت تريده فخذه حالا. فإذا لم تكن تريده فاتركه إلى الأبد، وحذار أن تفتح فمك بكلمة ... والا فضحتك. تظن أنى عاجزة. لا. أنى أستطيع أن أكون أقوى منك.

أو تذكر كيف انهرت يا حاج غضبان؟! لقد حطمتك المرأة المسكينة، الطريدة الوحيدة، المعذبة. نعم وكشفت لعبتك، وأظهرت حقيقة نواياك.

لم تعرف ماذا تقول لها، ولا كيف تقوله.

وأخذت تفكر بسرعة، توازن بين الموقفين : موقفها وموقفك.

لكنها لم تتركك طويلا فى هذا اللون من التفكير، فقد أخذت تصيح فى وجهك :

تهددنى يا حاج غضبان!! إذاً أعلن نسب ابنك إليك. ان كنت رجلا قل لأهلك وللناس أن لك ولدا اسمه محمود، وانك أنجبته من أم لم تجرؤ على أن تعقد عليها عقدا رسميا مسجلا. قل لهم انه ابن زواج متعة، ثم خفية وفى الظلام. بل إنى أعطيك الولد الآن،

لتفعل به ما تشاء، بشرط أن تغير أولا نسبه، وأن تعطينى شهادة ميلاده. أى تهديد تملك يا سيدى الحاج؟ يعرف زوجى؟ ثم ماذا؟ يطلقنى؟! نعم وبعد؟ يأخذ ابنه هو الاخر؟ أعود يا سيدى كما كنت. شئ ليس غريبا على، ولن أتمرد عليه. نصيبى يا سيدى، والمسئولون عن ذلك ناس مثلك، أما أنا فمغلوبة على أمرى، أبحث عن لقمة وكسوة وستر. لاتظن إنى أبحث عن رجل، أو عن حب، أو عن متعة. كلكم متشابهون. رجال!! كل مطمعى عندكم اللقمة والكسوة والستر. أما الرجل فيكم فحيوان جائع، إذا لم أطعمه فقدت عنده ما أريد. أنا لا أطعمه رغبة فيه، ولكن اتقاء لشره. فاهم يا حاج. أنتم مغرورون يا رجال. تظنون أن لرجولتكم من الاغراء ما يجعل النساء يركعن متسلمات! مساكين! إن مثلى إن ركعت مستسلمه فلكى تعيش. إن رزقها فى أن تركع وأن تستسلم!! وغيرى قد تركع، وقد تستسلم، لكن لتحكم ولتستبد. تستعملكم أنتم لتنفذ أغراضها. تستعمل غروركم وغباءكم، لتصل إلى ما تريد، حتى لو كان ما تريد، أن تخونكم ! أغبياء مغرورون! متى تعرفون أنفسكم؟ متى تدركون أن قوة أجسامكم لا تعطيكم الحق فى التحكم والاستبداد بالاخرين. الحمير أقوى منكم ! البغال أقوى منكم!

وكانت مفاجأة لك أن تجد صباح الرقيقة الطيبة الخجول، تقول هذا الكلام، وتصيح بهذه الحدة. وزدت ارتباكا واضطرابا ولم تعرف ماذا تقول.

وأخذت تتأملها وهى ماضية تلقنك هذا الدرس الثقيل، ثم أخذت تفكر فيما بينك وبين نفسك :

شئ غريب. هل لها شخصيتان؟ أم أنها كانت تخفى هذا الجانب منها عنك؟ أهى إلى هذا الحد ذكية وجريئة وقوية؟

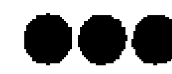
لكن من يدرى؟ إن المثل يقول أن المصائب تعلم العيون البكاء. وهذه الشريدة الطريدة الوحيدة، تعلمت كل هذا من الحياة التى مرت بها. ظروف قاسية جعلتها على هذا القدر من الذكاء والجرأة والقوة.

على أنها لم تكن هكذا وهى معك يا حاج غضبان.

ربما لأنها لم تكن محتاجة إلى ذلك. كانت تختزنه لوقت حاجة، فلما شعرت أنك تهدد حياتها، أخرجت من الجراب سلاحها، لتدافع به عن وجودها.

عندك حق يا صباح.

لقد كشفت لعبتى، فإن الولد لم يكن قصدى، وإنما قصدى كان أن أصل إليك عن أى طريق.



وبينما الحوار يدور بينكما على هذا النحو، دخل ولدان يجريان ويتعثران ويلعبان، ويضحكان!

صاح الكبير : ماما ..ماما. امسكيه.

قالت : ماذا فعل؟

قال فى كلمات متعثرة : خطف البالونة منى.

ونظر الحاج غضبان إليهما. هذا محمود لا جدال. لقد كبر وبدأ يجرى ويتكلم. انه حقيقة جميل لطيف مدهش. انه أبيض الوجه، أسود العينين، باسم الثغر، رائع الشكل.

محمود يا بنى. هل تعرف أنى أبوك؟

لا يا محمود. من الخير إلا تعرف أنى أبوك!

وهذا حسين. نعم لابد انه حسين. رضيع لا يزال، بدأ يحبو، يخطو خطوة، ويتعثر خطوات. لكنه مع هذا يحاول. جميل هو الاخر، كأنهما شقيقان.

ولم يملك الحاج غضبان نفسه.

هذا الجبل الأشم الجامد الصلد، قد تحرك.

هذا التاجر السمسار، الذى يخرب البيوت، ويطرد الناس من منازلهم ويحجز على ماشيتهم، قد تحرك.

هذا السيد المهاب، الذى يقف له الرجال إذا سار، ولا يجلسون معه إذا جلس، قد تحرك.

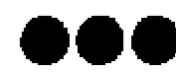
هذا البنك المتنقل، بالأموال، والحسابات المزيفة. والأسرار والفضائح قد تحرك.

نعم تحرك. وسقطت من عينيه الدموع.

لقد اقترب من ابنه، ومسح على رأسه، وحمله إلى صدره وقلبه، ودموعه تتساقط على خديه.

ثم أمسك بالصغير الآخر حسين، وحمله إلى جوار أخيه، وضم كلا منهما للآخر، وهو يخفى بينهما وجهه ودموعه.

ثم تركهما بلا كلام، أو سلام..ومشى.



وكانت أم الشحات لا تزال تدفن وجهها بين كفيها، ودموعها تسيل على خديها، وعلى جلبابها الاسود.

وكان يصدر عنها وهى تنتحب، صوت مكتوم، تخنقه الزفرات.

بينما الحاج غضبان يتطلع إليها، وعيناه تفحصانها، ليطمئن إلى أنها برغم كل السنين التى مرت لا تزال حلوة مغرية.

وكان يراها تنتفض، فينشغل عن همومها، بما تظهره هذه الانتفاضات من مفاتن جسمها!

وكلما كان بكاؤها يشتد، كان ينتظر من وراء ذلك خيرا.

انها تعتصر نفسها! تغسل همها! تزيل آثار أمس ثقيل من قلبها!!

وستعود بعدها إنسانة جديدة، كأنها لا تزال عذراء.

وسيعود هو الآخر لها، شابا صغيرا لم يدخل بعد دنيا!

ولماذا يعود؟.. انه لا يعود!

انه لم يدخل دنيا! انه داخل آخرة، ورأى "ناكر" و"نكير" باسمين آخرين : عيوشة وجميلة البالوظة!

... والسنوات الجميلة مع صباح، يا ناكر الجميل؟

... لا لا ...لم تكن هذه السنوات مسجلة ولا مكتوبة!

□□□

٥

ان دموع أم الشحات لا تنتهى عندما يتوقف نزولها. ان لها جذورا فى قلبها تنبت دموعا جديدة، كلما فقدت بعض دموعها. كالصفصافة التى أسدلت شعورها وتركتها تتدلى حتى مياه الرياح، وكلما جرف الرياح بعض شعورها، نبتت شعور جديدة، تتدلى بدورها، لتغرق فى الماء أحزانها! أو ربما لتتطهر بالماء من أدرانها! وكالجميزة. هذه الجميزة، التى تستظل الآن بظلها. وتتساقط عليها منها بين الحين والحين ثمرة من ثمراتها، خضراء نيئة، لم يشقّها بعد سكين، ليفك رباطها فتنمو، والرباط الصلب العنيد لا يقيدها. هذه الجميزة تمد فروعها لتحيط الساقية بأطرافها، كأنما تأخذها فى حضنها. وكلما انسلخ عنها فرع أو تمزق، نبتت لها فروع جديدة، تمتد إلى أبعد مما كانت تمتد فروعها القديمة بمزيد من الظل، ومزيد من الثمر.

وهكذا دموع أم الشحات.

يتوقف نزولها، لا تنزلق من عينيها، ولا تتكفئ متتابعة على خديها. لكن هذا لا يعنى أن معينها قد نضب، أو أن العين قد جفت، وخلت من الدموع. إن جذورها هناك فى قلبها، عميقة عمق عمرها، غريقة كقاع الرياح!

لكن : هل يعرف هذا الحاج غضبان؟ هل يدركه؟ هل يفهمه؟

وماذا يعنيه هو من هذا؟ ولماذا يهتم به؟ وكيف يتسنى له أن يقدره!

رجل عاش على السطح، يمد شفتيه حيث يمدهما، فيجد المرعى أخضر جاهزا، مبسوطا إلى آخر البصر، حتى لا يحسب أن له نهاية.

هكذا كثور العمدة، أو كتابلة السلطان!

رجل عاش ليأخذ.. ويأخذ.. ويأخذ! لا يعرف كيف يعطى! يأخذ ما يشاء، وقت يشاء، ممن يشاء! ولا يعطى شيئا فى مقابل ما يأخذ! لا يعطى حتى الرحمة، حتى الشفقة! الصدقة فقط هى العطاء الوحيد الذى يعطيه، بشرط أن تكون بعشرة أمثالها، وفقا لما وعد الله به عباده!

رجل ينام وعيناه مفتوحتان! بينما الناس مستيقظون يعملون ويكافحون ويتألمون!

فإن غفلت عيون الناس، صحا وعيناه مغمضتان!

مشكلات الناس لا تهمه فيتركهم يتعذبون، وينام عنهم، وعيناه مفتوحتان!

...لكن غفلة الناس تهمه، فيستيقظ ينتهز الفرصة فى نهم، ليأخذ منهم أكبر قدر يستطيع، حتى وعيناه مغمضتان!

أهات الناس عنده...ادعاءات!

وزفراتهم تجارة جملة أو قطاعى!

ودموعهم حيلة يتهربون بها من دفع الحساب!

مسكينة يا أم الشحات. وفرى دمعك لنفسك، فإن الرجل العجوز المتصابى لا يستحقه. إن الدمع والضحك كلاهما هما الوجهان المتقابلان للإنسان. نعم يا أم الشحات، الانسان ليس حيوانا ناطقا، فمن الحيوان ما ينطق. الببغاء تنطق. أما الشئ الذى يتميز به الانسان عن سواه، فهو الدمع والضحك! المأساة والملهاة! الهزيمة والانتصار! العذاب والابتهاج!!

لكنك تتجاهلين ذلك كله يا أم الشحات.

تمسحين دمعك فى طرف من طرحتك السوداء، ثم تطلين إلى الحاج غضبان بنصف وجهك.

إن عينيك يا أم الشحات قد بدتا بعد هذه الدموع نظيفتين رائقتين. لمع ما فيهما من السوداء، فزاد فتنة. كأنما أنت عروس فى العشرين يا أم الشحات. شئ واحد قد تركته الدموع فى عينيك. قبتان صغيرتان فوق جفنيك، كأنك قد صحوت من نوم طويل. لكنهما لا تؤثران على فتنة عينيك. أبدا، بل ربما تزيدانهما فتنة وإغراء.

ان المراهق العجوز لا يملك نفسه، وهو يراك هكذا رغم سنك فاتنة، فيتعجل إجابتك على طلبه.

- نعم يا أم الشحات. قولى نعم. رطبى قلبى الملتهب بكلمة نعم.

هكذا قال، وهو يتلهف على الاجابة، ويترقب نظراتك، كأنما يحاول أن يسبق إلى النتيجة التى يريدها، من عينيك.

وتظلين ساكتة يا أم الشحات، والرجل يكاد يثب من مقعده إليك، يقبل يديك، ويركع تحت قدميك، لتفتحى له باب الجنة.

ويمضى هو يقول :

- والله يا أم الشحات لأضعن الدنيا كلها رهن إشارتك. إنى أحبك، ومن يحب لا يكره. وبودى لو عاد بنا الزمان إلى شبابنا الاول، لنبدأ الحياة معا. أنا من غير الحرباءتين الثقيلتين، وأنت من غير "أبو الشحات". أنا بلا نعمت وسلطان وأنت من غير الشحاذ.. عندئذ تصبح الدنيا حقيقة دنيا يا أم الشحات.

ولا تردين، ولا تتكلمين، وأنت تتطلعين، وتنظرين.

ويستوحى الرجل عينيك فيقول :

- لا تخافى يا أم الشحات، ما جمع إلا ووفق. كنت سأعجبك.لو تزوجنا صغارا، لتغير سلوكى. نعم كنت سأسألك النصح فيما أعمل. كنت سآخذ بمشورتك طبعا. أنت شئ آخر، ولست مثلهما. النصيحة منهما تورث الكفر. يا ساتر على عيوشة وسحنتها المعووجة! والأدهى تلك المبططة البلهاء، بالوظة عزرائيل!

وتبقين حيث أنت يا أم الشحات، تحت الجميزة، تتجهين إليه بنصف وجه بل أقل، فإن أغلبه يختفى وراء الطرحة السوداء.

ويتطلع الرجل العجوز، ويرتبك ويتلعثم وهو يقول :

ـ أم الشحات! ألا تصدقينني يا أم الشحات؟ أتظنين أنى أهذى؟ أو أنى لا أزال أحاول أن أخدعك؟! والله لا..أنا صادق فيما أقول. بينى وبينك التجربة. جربينى يا أم الشحات. لقد عشت طول حياتى أنتظرك، فلا تحرمينى الفرصة الأخيرة من عمرى.

ومع هذا تظلين ساكتة صامتة كالصنم.

والرجل يزداد ارتباكا وهو يردد فى اضطراب :

ـ أترين أنى أخطأت فى حقك؟ إلا تزالين ساخطة على؟ ألم تنسى بعد قصة الحساب والماشية والهجرة إلى بلدة أخرى؟ يا ستى ربنا غفور رحيم. ارحمينى. انسى يا أم الشحات وارحمينى.

ولم تهتز شعرة واحدة فى جفنك. نعم ولا اضطربت عيناك أمام هذا الكلام.

وأخذ العجوز المتهالك يصبح فى غير وعى :

ـ أنا لم أكن صاحب الحساب، ولم أكن صاحب الامر. لست أنا والله يا أم الشحات الذى طلب بيع الماشية. أخى سلطان الله يجحمه هو الذى أصر، والمجحوم الاخر أبو سريع قواها فى رأسه. قالوا لابد من هذا حتى يخاف أهل البلد. ووقتها كان هنا شبل. إلا تذكرين "شبل" وقصصه؟ كانوا يريدون القضاء عليه عند أهل الناحية، فاتخذوا من الشحات وسيلة لتنكيل! حظى يا أم الشحات! نصيبى! وقتها لم أستطيع أن أعارض. لو كان الأمر بيدى، لوضعت الشحات فوق رأسى من أجلك. لكنى كنت مثلك ومثل الشحات مغلوبا على أمرى. أخافونى ولعبوا على الأبالسة. إلا تصدقين؟ ألا تثقين فيما أقول؟ والله هذا هو ما حدث. لا تنظرى إلى هكذا بعيون مرتابة. ان عينيك فتاكتان. وعندما تنظرين هكذا تطيرين كل شئ من رأسى ... صدقينى صدقينى يا أم الشحات. صدقينى وارحمينى!

وظل الرجل يردد هذه الكلمات، حتى عجز عن الكلام، فأكمل روايته بالدموع!

الحاج غضبان أخذ يبكى. جاء دوره فى البكاء، فوضع وجهه بين كفيه وأخذ يبكى وينتحب، ويهتز فى جلسته كأنه جبل انفجر تحته بركان.

وتركته أم الشحات يبكى، وأخذت تهز رأسها ذات يمين وذات شمال، ترى الرياح عن بعد مرة، وقد تدلت إلى سطحه فروع الصفصافة، وترى الخصى المهجور مرة، وقد خيم عليه شبح الموت والعذاب. وتتطلع إلى أمام، لتواجه رحمة الله : قبة سيدى الذكرى، وحوله قبور كثيرة منثورة فى غير نظام.

ومضى على الحاج غضبان وقت لم يدر كم طال. ولا هى _ أم الشحات _ حسبت له أى حساب. كانت زفراته، تضيع فى صوت الساقية وهى تدور، لكنها كانت مع ذلك تطرق أذنيها رتيبة منتظمة كأنها تصدر بترتيب مصنوع!

وبعد أن فرغ من بكائه، نظر إليها كمن يقول لها : تساوينا..فى الدموع.

ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة أمل، وهو يلحظ بين جفنيها أمارات رضاء باهت.

ودارت بينه وبينها محاورة غريبة :

ـ هيه ..ماذا ترين الان؟

ـ ليتك عرفت الدموع من صباك!

ـ لأعيش فى عذاب؟

ـ بل لتعرف الطريق إلى الابتسام.

ـ طريق الدموع مقبض وحزين.

ـ لكنه هو وحده طريق السعادة والبهجة والابتسام.

ـ هل طريق الدموع، طريق الابتسام!

ـ نعم يا حاج غضبان. من لا يعرف طعم الدمعة لا يعرف معنى الفرحة.

ـ لكن كثرة الدمع، ككثرة المطر، توحل النفوس.

ـ إن كان فى النفوس تراب.

ـ وكل النفوس ككل الطرق، فيها تراب.

ـ ولابد للتبر من التراب.

ـ لكن التبر لا يمنع وحل الطريق.

ـ وقد يهون الوحل للوصول إليه.

ـ ولكن كيف الوصول؟

ـ بالدموع تغسل التراب، فيظهر ما تحته من بريق.

ـ وبلا دموع ...

ـ ...لا وصول. لا ابتسام.

ـ وكم من الدمع يكفى؟

ـ كل شئ بحساب. ولا يهم إلا الصدق.

ـ وهل بعد كل دمعة، بسمة؟

ـ ليس بالضرورة يكون هذا القياس. قد لا يكون بعد الدمع إلا الوحل.

ـ أعوذ بالله.

ـ كله بثمنه يا حاج. أنت حديث فى دنيا الدموع والالام.

ـ ولماذا يتألم الناس؟

ـ ليكونوا ناسا!!

ـ إذاً أين هو هذا الالم، لأمارسه؟

ـ انه لا يشترى، ولا يباع.

- كيف الوصول إليه إذاً؟

- انه للموعودين.

- اللهم اوعدنا ...

- بماذا؟

- بالالم.

- تقولها من قلبك؟

- إن كان هذا هو المهر.

- ولا سواه!

- أدفعه.

- دمعا؟ وهما؟ وألما؟ وعذابا...؟!

- نعم...

- لماذا؟

- لأجنيه حبا، وسعدا، وهناء.

- بل لتصبح إنسانا.

- وأكون جديرا بك؟

- بالحياة!...

- وتتزوجيننى إذاً؟

- لا جواب.

- ولم لا؟

- الشحات لا يزال يتقلب فى ثراه؟

ـ وسيهجع فى ثراه بعد أن يمضى عليه عام.

ـ والله وحده يعلم.

ـ لكنى لا أطيق أن أنتظر...عاما.

ـ بل ستنتظر إلى الابد.

ـ ماذا؟ ماذا تقولين؟

ـ ..عليك بالدموع.سلوى، وعزاء، وكفارة عن سلسلة طويلة من الاثام.

ـ وبعد الدموع.

ـ كله سيتوقف على نوع الدموع.

ـ فإن صدقت الدموع.

ـ قد تحفر لك الدموع طريق السعادة والابتسام.



وكانت الشيخة تفيدة تسمع هذا الكلام ولا تصدقه.

وخيل إليها أنها لم تعد تفهم كلام عمها الاخرس "أبو المكارم".

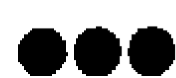
نعم لم يكن معقولا أن تقبل أم الشحات، أن تتزوج الرجل الذى قتل ابنها! نعم قتله، فقد طرده من بيته، ومن بلده، ومن الارض التى نشأ فوقها. فلما عاد إليه يرجوه أن يعود، رفض وأبى عليه أن يتحقق له هذا الامل، وأطلق لسانه فى سيرة أمه حتى طرق هذا الكلام الجارح أذنيه، فلم يطق على هذا صبرا. وماذا كان المسكين يستطيع أن يفعل؟ كان يعلم أن الوصول إليه مستحيل، والا لقتله وتخلص منه. وهبه استطاع، فهو يعلم علم اليقين انهم سيقتلون أمه وزوجته وأولاده، وسيدورون على كل أهله وأقاربه ليجتثوهم من جذورهم. مسكين يا شحات!! كان يعلم أن أمه طاهرة شريفة. لكن هذا

الكلام كـان يتـردد علـى كل لسـان، حـتى لقـد كـاد يشك فى أمـه. وفى هـذا الصـراع بين الشك واليقين سقط عليلا، وظل عليلا حتى مات!!

هل تتزوجه بعد كل هذا؟

كيف يمكن؟ كيف تستطيع؟

وسكتت الشيخة، وهى تقول : كل شئ جائز!!



لكنها أخذت تدير المسألة فى رأسها، تناقشها من جميع نواحيها.

وأنسـتهـا مشكلة أم الشـحـات، مـا كان من حـديث الست قـمـر، والذكـريات الحلوة والمرة التى أثارتهـا. بل وتاه ممدوح بين زحـمـة الاحداث، فلم يعد إلا نقـطة صغيـرة فى صـفحـة كبيرة مليئة بالصور والمشاهد، والدموع والابتسامات.

ما هذا؟ ما هذه الدنيا؟

يظهر انه صحيح أن الارض تدور حول نفسها، وأن الدنيا تلف معها!

لكن أم الشحات لا يمكن أن تتخدع بهذه السهولة!

وذلك الخنزيـر غضبـان، لا يـمكن أن يسـتـقـيم فى غـمـضـة عـين، وبعـد بضـع دمـعـات يذرفها، وبضع زفرات يشهقها، وبضع كلمات يرسلها!

لابد أن لأم الشحات فكرة معينة.

ألم تكن تسكت وتكتفى بالنظر إليه وهو يتحدث؟

ألم تكن جامدة لا تتحرك، ولا تنطق، كأنما هى تمثال؟

هل كانت تتأمل جمال الحاج غضبان؟

أم أنها كانت شاردة، تفكر لتحدد طريقها بين الاشواك؟

... ثم هو.هل كانت دموعه حقيقة صادقة؟

دموع تماسيح! دموع ذئاب!

.. شئ حرم منه، فهو لا يريد أن يموت قبل أن يناله ! هذا طبعه، وهذه عادته : أن يأخذ كل شئ، وأى شئ، والا يحول بينه وبين ما يريده شئ. أراد أن ينالها، خيانة وزوجها حى، فرفضته. أراد أن ينالها حراما بعد أن مات زوجها، فردته. إذاً ينالها زوجا حلال، حتى لا يموت ونفسه فى شئ!

هذا مفهوم. أما هى.. عنها هى، الامر غريب. هل تطيقه؟ هل تطيق قاتل ابنها ووحيدها؟ شئ غريب !

وبينما هى تدير المسألة بينها وبين نفسها، إذا أولاد الشحات قادمون.

وقفوا هناك حول قبر أبيهم، مرة يبكون، ومرة يتمتمون بالفاتحة، ومرة ثالثة يثبون هنا وهناك يلعبون.

لكنهم كانوا على الدوام، يتطلعون.إلى الضريح، على أمل أن يروا شيخة الضريح، وابنها الجميل الصغير.

وخرجت لهم الشيخة تفيدة، وعلى صدرها ابنها أبو عوف.

وفرح الاولاد عندما رأوها، وأقبلوا عيلها سعداء، ومدوا أيديهم يريدون "أبو عوف"، يحملونه فى حب، ويلاعبونه فى مرح، ويضحكون له ليضحك لهم فى براءة، وقد يقهقه ويداه ورجلاه، تتحرك فى صخب.

ومدت إليهم يديها بالصغير، فحملوه عنها، وأخذوا يتبارون فى ملاعبته ومداعبته ليضحك فيضحكون، ويقهقه فيتصايحون، ويمتلئ هذا الجو الهادئ بالحركة والحياة.

وبينما هم يلعبون مع "أبو عوف"، كانت الشيخة تفيدة، تلاحظهم وكل شئ يمر من أمام عينيها كشريط طويل متصل، حتى لقد كادت ترى بين ما ترى من أشياء أباهم الشحات برغم أنها لم تقابله ولم تلتق به أبدا.

ولقـد أرادت أن تعـرف من الاولاد مـا عـسـى أن يكون قـد وصلهم عن جـدتهم. هل التقطت آذانهم شيئا عن زواجها من العجوز المتهالك الحاج غضبان؟ أنها تعلم أن الاولاد قـد يكونون فى بعض الاحيـان أذكى من ذويهم، فـبـينمـا يظن أهلوهم انهم غـافلون، أو نائمون، أو لا يدركون، يلتقطون هم كل شئ، فى فهم وإدراك، وقـد يتغامزون، ثم يختزنون ما يلتقطون، ليجتروه عندما يحتاجون.

وانفـردت الشيخـة بـأكبـرهم محـروس، وأخذت تحدثه وتتودد إليه وتسـتمليه، حتى استطاعت أن تفك عقـدة لسانه، فأخذ يحدثها عن أبيه وأمه، والبلدة التى كانوا يعيشون فيهـا، وأقـاربهم الذين سبقـوهم إليها، وكيف كانت حيـاتهم هناك، نكدا وعبوسا والاما. وكان الصـغيـر يقول لها فى لهجـة رجل حنكته التجربة، ان الغربة غربـة يا ست الشيخة، ومستحيل على الغريب أن يستريح إلا إذا عاد إلى بلده، كالشجرة لا تترعرع وتزهر وتثمر إلا فى أرضـهـا. والدى الله يرحمـه كان يقـول هذا، وهو يبكى. وكانت سـتى تسـأله هل يشكو من شئ، وهل أساء أحد معـاملته، فكان يجيبها بدموعه. وأحيانا كان يقول لها : لا شئ. لا شئ يا أمى. مستورة والحمـد لله، لكن بلد الواحد يا أماه عـزيزة وغالية. النسـمة هناك غيـر النسـمـة هنـا. التـراب.الماء. الأرض الناس. التوتـة التى زرعهـا أبى أمـام بيتنا والطلمبة التى دقها فى الفناء الخارجى. عـلامات الطريق من المحطة إلى البلد. القنوات هى تدور وتستدير وتعتدل. الجلسة تحت الجميزة فى ظل والساقية تدور فى عز الظهر. سهرات الجـرن فى مواسم الحصاد. يا أماه! كل هذا ليس هنا. هناك يا أمى، تستطيعين أن تعصبى عينى، لأسير أعمى، فـلا أضل طريقى من الدار إلى الجامـع، إلى الحقل، إلى الدوار، إلـى الجـسـر، إلـى المحطة، إلى النقطـة، إلى أى مكان. أرى كل شئ، بلا عـينـين! وأعرف كل صـوت، دون أن أنظر إليه! بلدى يا أمى، بلدى والناس الذين فيهـا ناسى، وقد تركت هناك نفسى وعـرقى وأحلامى. وكانت ستى يـاست الشيخـة تهـدئه وترقـيه وتبعد عنه الهـم، فلم يكن يزداد إلا كـمـدا ونكدا. كـان عندنا كل شئ. البـيت والغـيط، والبـهـائم والخير. لكن أبى كان يقول انه ينقصنا يا أولاد ما هو أهم من هذا كله : تربة أبى. جدكم محـروس، الله يرحـمه ويحسن إليه سمـانى الشحـات لأعيش، بعد خلفـة كثيرة، لم يعيش

منهم أحد. ليته ما فعل لألحق بمن ماتوا من أخوتى. وكانت ستى تقول له : وفيم يا شحات تريد تربة أبيك. اترك أباك فى تربته هناك، ولا تزعجه بهذا الكلام. فكان يقول فى حسرة : الناس هنا يا أمى تخرج إلى القرافة. كل واحد له تربة يزورها، فإن خرجت معهم، بحثت عن تربة أفرغ عليها دموعى. لو أن تربة أبى هنا لكنت أزروه كلما ضاق صدرى بشئ. كلما شعرت بحاجة إلى شئ. كلما هزنى الحنين إلى دموع أذرفها عليه. وتقولين يا أماه ماذا ينقصنا؟ كثير ..كثير جدا. مثلا تربة أبى. هات لى تربة أبى، أزورها كما يزور الناس ترب ذويهم. أفرق عندها الرحمة فى المواسم والاعياد. ولم تكن ستى ترد إلا بدموع غزيرة على جدى.

وشعرت الشيخة تقيدة أن الفرصة قد واتتها فسألت محروس عن سنه، وبكائها على جده، وماذا كانت تقول عنه. هل كانت لا تزال تذكره؟

نعم يا ست الشيخة إن ستى قد كانت كثيرة الحديث عن جدى.كانت تقول عنه انه كان رجلا كاملا، وكان شهما كريما. وكانت له كلمة ومكانة فى البلد حتى مع أعيانها الظالمين المستبدين. لم يكونوا يقدرون عليه، مع انه كان رجلا طيبا جدا. يا أولاد الاستقامة لها هيبة، والطيبة لها هيبة. والناس تحسب حساب المستقيمين والطيبين، كما تحسب حساب الاشقياء والقتلة والسفاكين. والفرق يا أولاد هو فى احترام الناس للأمراء الطيبين والخوف من الاشقياء والسفهاء.

وقالت الشيخة لمحروس الصغير إن سته لابد أنها مرتاحة الان، وقد عادت إلى بلدها، إلى جوار تربة زوجها الله يرحمه.

وقال الولد فى لوعة وأسى : وهى فى الوقت نفسه تربة ابنها. تربة أبى. أبى قد لحق بجدى فى نفس التربة يا ست الشيخة. وستى تقول أنها تود أن يضعونها معها. زوجى وابنى ليس فيها غريب. هكذا تقول لكن أقاربنا يقولون لها أن ذلك مكروه. يجب ألا يدفن النساء مع الرجال.

قالت الشيخة فى سرعة : لكن ستك لا تزال صغيرة وحلوة. بل لا تزال عروسة.

ونظر الولد فى تخابث فى تخابث شديد، ولم يرد.

وخافت الشيخة أن تلفت منها الفرصة، فلا تعود أبدا، فقالت تسأله فى براءة : ألا تراها هكذا يا محروس؟ ألا تراها صغيرة وحلوة، وأن كثيرين يتمنونها زوجة؟

قال الولد يسأل : مثل من يا ستى الشيخة؟

قالت الشيخة : كثيرون...كثيرون يتمنون.

وعاد الولد يسأل : هل تعرفين أنت أحدا؟

قالت الشيخة : أبدا، لا أعرف.

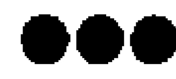
وابتسم الولد فى سذاجة وهو يقول : أنا أعرف.

وأرادت الشيخة أن تذكى فيه روح العناد فقالت مستنكرة : أنت؟ أبدا! لا يمكن. أنت لا تعرف.

قال فى إصرار : والله العظيم أعرف.

قالت : أنت ...أنت لا تزال صغيرا. كيف تعرف؟

قال : أنا رجل ..رجل كأبى، وكجدى. قلت لك أنا أعرف. وأخذ يحكى لها ما يعرف.



كانتا تظنان أنى نائم، فأخذنا تتحدثان حديثا هامسا خافتا. كأنه الحلم ولم أكن نائما فى الحقيقة. كانت عيناى مغمضتين، لكنى لم أكن نائما.

وقالت جدتى لأمى :

- لقد جن والله يا خضرة يا بنتى. بدلا من أن يهجع ويقول والله يا حسن الختام، يريد أن يتزوج. بدلا من أن يترك هذا لأولاده وأولاد اخوته، يكملون نصف دينهم، يبحث عن الزواج لنفسه هو، ليفقد النصف الباقى من دينه! يا بنتى، ان وجهه وباب القبر. هل لا يزال أمامه فرصة لزواج! إلا بد من أن يدخل القبر عريسا؟ ناس لا تشبع ولا تقنع ولا تكتفى بما لديها أبدا.

وقالت أمى :

ـ ناس لا تستحى يا عمة. الشحات زوجى الله يرحمه كان يقول لى انه رجل لا يستحى. كلامه عنك يا عمة كان كثيرا وكان فارغا.

وأخذت جدتى تستفسر عن هذا الكلام، وهى تتكره وتستتكره، وأمى تؤكد لها أن الناس عندما تكبر، فإنها تصغر!

وعلمت من هذا الحديث أن أبى كان يقابل هذا الكلام بالألم والحسرة، ولا يستطيع أن يعاقب الذين يرددونه. لكنه كان يقول لأمى انه لا يعلم أن هذا كذب وانه افتراء، وأن الرجل الفاجر الحاج غضبان يدعى عليها ادعاءات كاذبة، كما ادعى علينا حسابات كاذبة، وديونا كاذبة، ثم أخرجنا من البلد بتهم كاذبة. ولو أن هذا الكلام صحيح لأبقانا فى البلد، ابقاء عليها. لو أن هناك شيئا، ما طردنا من بلدنا.

وقالت جدتى، وهى تتقلب ذات يمين وذات يسار، لترى هل لا نزال نياما :

ومع هذا فلا يزال يريد...

وتوقفت قليلا وهى تقول :

ـ والله شئ يكسف الله يكسفه.

ثم استأنفت الحديث :

ـ انه يريد أن يتزوج.

قالت أمى فى عجب :

ـ يتزوج أم يتجنز! يتزوج من يا عمة؟

قالت جدتى :

ـ والنبى شئ لا يصدق. تتصورين من يريد أن يتزوج؟

قالت أمى :

ـ يمكن صبية مثل تفيدة. زواج زواج، إذاً يتزوج بنتا حلوة وصغيرة، ليخنقها بعد ذلك أو يغرقها أو يقضى عليها بأية طريقة.هؤلاء ناس مجردون من الحياء، مجرمون.

قالت جدتى :

ـ لا .هذه المرة يريد واحدة شايبة مثلى.

قالت أمى :

ـ غريبة! لماذا؟ وهل البنات خلصت؟

قالت جدتى :

ـ والله يا بنتى أنا احترت.

قالت أمى :

ـ الله .هو! هل؟..ايه؟ صحيح يا عمة؟

قالت جدتى :

ـ نعم صحيح..صحيح يا خضرة يا بنتى. يريد أن يتزوجنى أنا يا خضرة.

قالت أمى :

ـ والنبى الرجل جن. هذا جنون رسمى. انه مجنون يا عمة بحق وحقيق.

قالت جدتى فى همس :

ـ والله عندك حق. مجنون، ومجنونة من ترضى به.

قالت أمى :

ـ اسم الله عليك يا عمة. أنت باسم الله ما شاء الله، حلوة وصغيرة. أنت كأولاده. لكن هو البغل الاسترالى، يفكر فى الزواج!

ومضت فترات صمت ثقيلة. وكنت أتلهف لأعرف ماذا يكون القرار.

وأخذت أتقلب فى قلق، فلاحظت أن أخوى الاخرين يتقلبان مثلى. ولم أشك فى انهما كانا كذلك يسمعان، وانهما مثلى يريدان أن يعرفا أى قرار تتخذه ستى وأمى.

وشردت الشيخة فى أمه، الارملة الصغيرة.

لابد أنها قد أخذت تعانى مما انتهى إليه مصيرها.

انها صغيرة وجميلة لكنها أرمل وراءها ثلاثة أولاد صغار. أنها لم تكد تبدأ الحياة، حتى فاجأتها الوحدة والدموع. استقبلت ليلها فى عز النهار، فما أن طلع عليها الفجر بجماله الرائع، ورقته، وخموله اللذيذ، حتى واجهت ليلا حالك السواد، أغبر. وهذا حديث الزواج، يعيد إليها مع الذكريات بعض الاسى وبعض الدموع.

وعاد الصغير يستأنف روايته ...

وفى صوت رقيق شفاف تقول أمى لجدتى :

وأنت تريدينه يا عمة؟ تتزوجينه؟

قالت جدتى فى صوت مكدود :

- لا يا خضرة...لكنى حائرة. لا أدرى ماذا أقول.

قالت أمى فى حنان :

- تحبينه يا عمة. هل تحبينه؟

قالت جدتى فى غضب :

- أبدا... على العكس لا أطيقه.

قالت أمى :

- لكن لم لا؟ أن حبتك الحية، تلفع بها.

قالت جدتى :

- لأنه كان ثقيلا، من أيام المرحوم "أبو الشحات".

قالت أمى :

ـ من يومها؟!

قالت جدتى :

ـ نعم يا خضرة يا بنتى، من يومها، وهو على هذه الدناءة.

قالت أمى :

ـ ..وأنت..لا!

قالت جدتى فى تأكيد :

ـ لا..لا..أبدا والله يا خضرة. عمرى..

وعاد الصمت يسود الغرفة المظلمة. ثم استأنفت أمى الحديث وهى تسأل :

وما رأيك يا عمة؟ ماذا تنوين أن تفعلى؟

قالت جدتى فى صوتها المرهق:

محتارة والله يا خضرة يا بنتى.

وجلست أمى، وجلست جدتى، وتربعت كل منهما تواجه الاخرى وتميل على الاخرى، ليدور بينهما الحديث همسا، كأنما تحلمان :

ـ والله أنا أيضا احترت معك يا عمة.

ـ تظنين يا خضرة أن من الممكن أن نترك البلد. هل نعود إلى حيث كنا؟

ـ ونترك الشحات يا عمة؟ كأننا دفناه وتركناه !! إننا ما صدقنا أننا عدنا.

ـ وماذا نعمل؟ الرجل يتابعنى يا بنتى فى الحاح غريب.

ـ يقطعه! هل هو قادر على أخذ نفسه؟

ـ عين فارغة.. وافتراء!

ـ والناس!..ماذا يقول الناس؟

ـ عنى، أم عنه؟

ـ عنكما..سيؤكد هذا ما قاله الناس.

ـ فإذا رفضت. هل يتلهى ويسكت، أم يعود إلى المطالبة بالديون القديمة للتنكيل والآنتقام؟

ـ والاولاد صغار، لا يقدرون على هؤلاء الناس.

ـ والحل؟ ما رأيك يا خضرة يابنتى؟

ـ والله شئ مخجل. ماذا أقول؟ ..تتزوجينه؟!

ـ أتزوج بعد هذا العمر الطويل؟ كنت تزوجت من زمان! من سنين طويلة!

ـ فإذا لم تتزوجى؟ هل يحدث شئ؟

ـ لا شئ ... ماذا سيحدث؟

ـ رجل مجنون كهذا، قد يفقد عقله، ويعود مرة ثانية يسلط غضبه علينا والاولاد كما ترين صغار كالكتاكيت. قد يطردنا. قد يغالط ويطالبنا بحسابات مزورة، فماذا نفعل؟ من سيقف له؟ البلد كلها معه. العمدة ابن أخيه. شيخ البلد ابن أخيه وزوج بنته، وهو الآن شيخ خفر كذلك. محروس وشبل وتوفيق، لم يطلعوا من البيضة بعد.

ـ وربنا؟ إن ربنا موجود.

ـ يمكن هذه إرادة ربنا، أن تتزوجيه، سيكون زواجا كلعب العيال، عندما كنا نلعب عريس وعروسة. كتب كتاب، وزفة ثم لا شئ. لكن الرجل جن. والله جن. والمجنون يؤذى حتى نفسه.

أنا خائفة يا عمتى. خائفة منه، وخائفة من نفسى ومنك ومن عظم التربة، لو قلت لك تزوجيه.

- أتزوجه! ربنا يأخذ عمره.

- يا ريت يا عمتى. لكن هذا الصنف طويل العمر.

يا خبر يا عمة فى هذه السن ويريد الزواج! تزوجيه يا عمتى وخلصينا منه.

- أبدا ..مستحيل.

- إذاً ماذا عسانا نفعل؟ كيف نواجه مجنونا مثله؟

- ليكن ما يكون.

- يا رب أخذت الشحات إليك وصبرنا. هل يتعرض أولاده لهذا الغول؟

- هذه حكمتك يا رب، وهذا قضاؤك.

- يطردنا من البلد، ثم يأتى اليوم يريد أن يتزوجنى؟!

- وهؤلاء الصغار اليتامى، ماذا يفعلون؟ كيف يتصرفون؟

- هل يقدر؟ هل يستطيع؟

- ناس بلا ذمة ولا ضمير. ماذا تنتظرين منهم؟

- أفضحه ..والله أفضحه.

- وهل يخافون الفضيحة؟ لن يعدم وسيلة لتشوية اسمك وسمعتك يا عمة. غنى ونفوذ وسلطة، ورجل فاجر يملك مصالح البلد بين يديه. أين أنت منهم؟ فكرى يا عمة. أنا لا أطلب منك أن تتزوجيه، إلا إذا كانت هذه رغبتك. لكنى خائفة على الاولاد، وخائفة من الفضيحة.

- يا خبر أسود يا ناس! هم يعملون كل شئ، ويغرقون فى الفساد حتى آذانهم، ومع هذا يشترون السمعة بالمال والنفوذ. لكن ربنا موجود.



وقبل أن يغادر الاولاد الضريح، أخذت الشيخة تداعبهم وتضحك معهم، وتتحدث إليهم.

مسحت على رأس شبل، وهى تقول له :

أخوك محروس وعرفنا انهم سموه على اسم جده، وأنت يا شبل؟

وقال شبل فى سذاجة :

على اسم رجل شهم رضع لبن أمه. والدى الله يرحمه قال هذا.

قالت تسأله :

وقال لك انه رضع لبن أمه..شبل هذا؟

قال الولد فى حماسة :

ـ نعم يا ست الشيخة، قال انه رجل من ظهر رجل، رضع لبن أمه.

قالت الشيخة :

ـ يا...ه! لابد أن "شبل" هذا قد كان شخصا مهما.

قال الولد :

ـ جدا يا ست الشيخة. كان خفير الناحية كلها. كان بطلا. كان قويا. كان يقدر يغلب العمدة والحاج غضبان وشيخ الخفر، وهو وحده!

قالت الشيخة :

ـ يا سلام!! لابد انه كان يأكل ..يأكل ماذا؟ يأكل خروفا فى كل طقة.

قال الولد :

ـ أبدا يا ست الشيخة. والدى الله يرحمه كان يقول إن القوة من عند الله.

قالت وهى تهز رأسها :

ـ صحيح يا بنى. القوة من عند الله.

ثم نظرت إلى قبر زوجها وهى تقول كمن تناجيه : هل رضعت لبنها ولم تقل لى؟

مسكين! انك لم تكد ترضع لبنها، حتى فطموك. استكثروه عليك!

على أنها عادت تتطلع إلى الاولاد، فوجدت أصغرهم ينظر إليها كمن ينتظر دوره.

قالت الشيخة تفيدة، وقد مالت عليه فى حنان :

ـ وأنت..توفيق من؟ الخديوى توفيق؟

قال الولد فى براءة :

ـ أعوذ بالله. الخديوى توفيق هو الذى أدخل الانجليز مصر.

وعجبت الشيخة، فمالت تقبله وتقول :

ـ من قال لك هذا؟

قال :

ـ والدى الله يرحمه قال لى هذا.

قالت :

ـ أى توفيق إذاً سماك على اسمه يا توفيق يا حبيبى؟

قال الولد فى سرعة :

ـ توفيق خالى.. أمى طلبت أن تسمينى على اسم خالى، فقال أبى الله يرحمه ان الخديوى توفيق خان البلد، وخان عرابى. وهل كان لابد أن يسمى خالى هذا الاسم؟ قالت أمى، ان خالى لو يسم على اسم الخديوى، لكن على اسم رجل غنى جدا اسمه توفيق باشا نسيم. وقال أبى : ليسعد مثله؟ قالت أمى : أعلم أن أخى على قد حاله، لكن ربما أصابت فى توفيق ابننا.

قالت الشيخة وهى تعجب أشد العجب :

ـ أنت تعرف هذا كله؟

قال الولد :

ـ نعم يا ست الشيخة. والدى الله يرحمه كان يقول لى هذا كل يوم. كان ينادينى يا توفيق باشا نسيم. توفيق فقط لا ينفع، والا ظنوك الخديوى، أبو دقن!!

وضحكت الشيخة، وهى تسمع هذا الكلام.

وقالت لنفسها :

ـ الشحات.. والدهم الله يرحمه، قد كان يعرف كل هذا. لم تخدعه الابواق، ولم تضلله الروايات عن الحقيقة.

الخديوى توفيق أدخل الانجليز مصر، وخان "عرابى". فصار اسمه اتهاما، وأصبح الذين يتسمون باسمه متهمين!

الشحات البسيط المريض المغلوب على أمره، المطرود من بلده، يعرف هذا، وهو ليس إلا واحدا من ملايين البسطاء السذج المغلوبين.

واستعادت ذكرياتها القديمة الخصبة، عن أبيها وسالم وممدوح، والأيام الغالية التى عرفت فيها معنى التضحية والفداء من أجل الوطن.

وهمست لنفسها : لم تكن وحدك يا أبى، فهذا صدى المحنة فى نفس الشحات الكسيرة الطيبة، ولاشك أن لها نفس الصدى، فى نفوس ملايين آخرين مثله. وأنت يا سالم اسمع ماذا يتردد هنا على البعد، من حيث كنت تقاتل وحدك؟ هم مثلك يشعرون بما تشعر به، لكنهم لم يعرفوا طريقهم كما عرفته. وأنت يا ممدوح، ليتك تسمع كلام هذا الطفل لتدرك أن أحدا لن يستطيع أن يقف ضد التيار. لا ولن يستطيع أحد أن يمنع طلوع الشمس أو انتشار النور. سيجرفهم التيار، وستطلع

الشمس وسينتشر النور يا ممدوح. وأنت يا جلال ...أو يا شبل. يا بطل. اسمع ماذا كان الشحات يقوله لابنه توفيق.

الا تشعر بالراحة وأنت فى قبرك؟ هذه روح بلدنا يا جلال. تسرى بين الناس كانها تيار الكهرباء! دمك يا جلال لم يذهب هدرا. وهكذا دماء الشهداء لا تضيع. إننا ندخرها ليوم قريب، لتصبح رصيدا لا يبلى وذخيرة لا تزول.

وبينما كانت مديحة تحدث نفسها، وتتحدث إلى نفسها، وابنها على ذراعيها، يضحك ويحرك يديه ورجليه فى حرية وانطلاق، كان أولاد الشحات ينظرون إليها فى حب واعجاب. وعندما التقت عيناها بعيونهم، ابتسمت لهم وابتسموا لها.

وقال توفيق أصغرهم يسألها :

وأنت يا ست الشيخة، لماذا سموك الشيخة تفيدة؟

وشعرت مديحة أن رأسها تدور فوق كتفيها، وأن السؤال الذى سأله توفيق قد كان ضربة مفاجئة على رأسها، أفقدتها توازنها.

حارت ماذا تقول له. هل تكذب عليه؟ هل تضلله؟ أم تقول له الحق فيتردد كلامها على ألسنة أهل القرية، وينكشف أمرها؟

وبينما كانت تفكر، كان الاولاد ينظرون إليها ينتظرون جوابها، فكادت ترتبك، وتضطرب نظراتها. على أنها استطاعت أن تستجمع شتات نفسها لتقول للأولاد كلاما مبهما لا يكشفها، ولا يخفيها.

قالت وهى تصطنع أسلوب الحواديت :

كان يا ما كان، يا سعد يا إكرام، ما يحلى الكلام، إلا بالصلاة على النبى، عليه الصلاة والسلام.

وقال الاولاد :

ـ عليه الصلاة والسلام.

قالت الشيخة :

- فى يوم من ذات الايام، كانت هناك واحدة طيبة وأميرة. بنت ناس طيبين، متكلين عل الله سعداء وراضيين. وكانت البنت اسمها تفيدة ويقولون أنها كانت حلوة وجميلة تقول للقمر قم لأقعد مكانك. لكن حظها يا عينى كان على قدها. تعرضت فى حياتها لامتحان شديد، حتى فقدت حياتها، لكنها ظلت محتفظة بأيمانها بالله حتى آخر نفس لها فى الحياة. تفيدة هذه يا أولاد قد صارت بعد موتها ولية لها شأن كبير عند الله. لهذا سمونى على اسمها.

وقال الاولاد وقد سيطر عليهم الحزن :

لكن كيف ماتت يا ست الشيخة؟

وعادت الحيرة تتملكها، لكنها قالت لهم :

عزرائيل أخذ روحها.

قالوا فى ألم :

- عزرائيل هذا ...الله يسامحه. أخذ روح أبى الله يرحمه كما أخذ روح تفيدة التى سموك عليها.

ونظر الاولاد كل منهم للآخر، ثم تحركت شفاههم وهم يقرءون الفاتحة على روح أبيهم. إن أولاد الشحات كانوا متعلقين بأبيهم تعلقا شديدا، وعندما كانوا يذكرونه، كانوا يترجمون عليه ويقرءون الفاتحة له وعيونهم مسبلة، مبللة.

وأحست الشيخة تفيدة أن فى ذمتها دائما فاتحة، للراقد غير بعيد منها، زوجها جلال.

وأخذت تحرك شفتيها بآيات الله فى فاتحة كتابه الكريم، فلما فرغت نظرت خلفها فوجدت عمها "أبو المكارم" يقرأ معها فاتحة الكتاب.

ولم تمر أيام كثيرة حتى أخذت القرية تردد حكاية الحاج غضبان.

إن السر فى القرية، كجو القرية، كحقول القرية، كالساقية، كالخص المهجور، كضريح سيدى الذكرى، مكشوف!! لا شئ يمكن أن يختفى، فإن خبأوه فسيظهر بعد قليل. طبيعة القرية هكذا واضحة ظاهرة مكشوفة. كذلك نفوس الناس وخلجاتهم، ونجوى سرائرهم، وهمسات ضمائرهم. كل ذلك مثل طبيعتهم. والحاج غضبان غير مستثنى من ذلك. لا، ولا الست أم الشحات مستثناة.

وعندما بدأت الرائحة تفوح، وقفت حركة الحياة من المفاجأة.

الناس وقفوا عن الكلام، وعن الحديث. تسمروا حيث وصلتهم الرائحة ليتقبلوها بكل ما فيهم من جوارح ! أنها رائحة لا يكفى أن تشم، لكنها تشم وترى وتذاق!

وأعمال القرية وقفت، مع جمود الناس. حتى الساقية تمهلت وهى تدور، كأنما تفسح جزءا من طاقتها للنبأ الجديد.. المذهل. لا يمكن. لا.. لا يمكن.

هذا كان أول انعكاس لما ذاع، وأول رد فعل لتلك الأنباء.

الحاج غضبان، وأم الشحات! قل كلاما غير هذا. أى كلام غير هذا ممكن وجائز، أما هذا فغير معقول. قد تنزل الشمس لتسير على أرض بلدنا، وقد تتحرك الحقول، لتنتقل من مكان إلى مكان. قد يعود الموتى من الاخرة. قد نرى بيننا "أبو سريع" الذى وارايناه التراب. لكن أن يكون هناك شئ بين الحاج غضبان وأم الشحات فهذا لا يصدقه عقل!

وحول الساقية، فى نفس المكان الذى يلتقى فيه المتصابى العجوز بهواه، دارت - كالعادة - أحاديث شتى :

- حكِمَ. ربنا قادر على كل شئ!

- انه جثة.. ويتزوج!

- يا بنى الحلال بينٌ والحرام بينٌ، وهو رجل راشد، له أن يتم نصف دينه فى الحلال.

ـ رجل عاجز. راشد راشد، لكنه عاجز. جثة! قلت لك جثة!

ـ هذا حقه، رخص الله له به، يستعمله إذا أراد.

ـ لكنه يريد أن يفرضه، كما فعل أخوه بتفيدة المسكينة.



ـ أليس الحاج غضبان هو الذى أرسل بهائم الشحات للسوق لتباع؟

ـ نعم هو. وقد بيعت بالفعل، لولا شبل، الله يرحمه ويعوضنا فيه خيرا.

ـ وأليس هو الذى طرده وطرد أمه إلى بلد أخرى؟

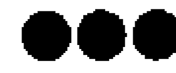
ـ نعم هو يا سيدى. والحمد لله أنه اكتفى بطردهم، فقد كان يمكن أن ينكل بهم، بما هو أكثر من الطرد.

ـ وأليس هو الذى ظل يرفض عودته وأهله إلى القرية إلا إذا دفع ما عليه من الحسابات؟

ـ ماذا تريد أن تقول؟ نعم..نعم..نعم! ثم ماذا تريد؟

ـ كيف يتزوج أمه؟

ـ دنيا!!



ـ يا ناس! يا عالم! إن عظم التربة لا يزال ...

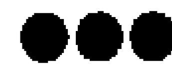
ـ يا شيخ! اترك عظم التربة لأصحابه. لقد مات من مات، والحى أبقى من الميت.

ـ الله يرحمك يا شحات. ويجعل "قرارك" الجنة. لو كان حيا..!

ـ وماذا كان يستطيع أن يفعل؟ رجل على قد حاله مثلنا. هل كان يقف ضد الحاج؟

ـ يعنى يفرض عليه هذا الزواج؟

ـ وأى شئ فى بلدنا ليس مفروضا عليها؟ دلنى على شئ تعمله بلدنا بإرداتها أو باختيارها. هل بلدنا أرادت الذل الذى تعانيه؟ هل سعت إلى الفقر؟ هل هى التى طالبت بالديون، بالفايظ؟ أم الشحات فى بلدنا، وهى جزء منها، وما يسرى على البلد يسرى عليها. هل تلام؟



ـ أو تظن أن هذه مسألة قديمة؟

ـ تعنى انهما كانا.. يا نهار أسود!

ـ ونكون قد خدعنا.. كلنا!

ـ لكن غير معقول. كان أبقاها فى البلد، ان كان ذلك صحيحا.

ـ يمكن كانت خطة لتغطية الموضوع.

ـ يكفون على الخبر ماجورا؟

ـ لكنه ماجور ثقيل جدا. يصل إلى بيع البهائم والطرد. لا لا.

ـ الله يرحمه عمى محروس كان رجلا كريما وشهما.

ـ لكن هل كان ذلك أيامه أيضا؟

ـ لا..لا.. استغفرِ الله يا شيخ. أعوذ بالله.

ـ الحق الحق. أم الشحات عمرها ما أخطأت.

ـ طول عمرها شريفة ونظيفة.

ـ هو هذا الرجل أبو كرش!

ـ يريد أن يلتهمها مثلما التهم غيرها.

ـ إنما هذه المرة "عرف ينقى"!

ـ يا رجل عيب. استح!

ـ الحقيقة حلوة.



ـ الناس مالها؟ ما هذا؟

ـ كل شئ فيه الرمق، لا بد أن يكون لهم!

ـ حتى الأرامل.

ـ الا يكفى أنهن أرامل، وحزانى، وثكالى!

ـ من قال لهن، يكنَّ جميلات، فاتنا؟

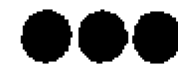
ـ يقبحن أنفسهن! ربنا خلقهن جميلات، فهل يشوهن ما جمله الله؟

ـ إذاً يتحملن هذا النصيب.

ـ لا لا ...هذا ليس النصيب. النصيب شئ كالقدر جميل وعادل ومعقول. هذا نحس.

ـ والنحس نصيب.

ـ أبدا. النصيب من الله كالرزق. أما النحس فمن الناس. من سوء ما يعملون، وسوء ما يتصرفون. النصيب من فضل الله، وهو دائما مشرق وضاء رائع. أما النحس فمن سوء النفوس، وهذا دائما مظلم معتم كئيب.



وكما كانت أحاديث الرجال تدور حول الحاج غضبان وأم الشحات، فى الحقول، وعلى مصاطب القرية. وعند الساقية. فكذلك كانت أحاديث النساء تدور فى البيوت، وفى الحقول، وعند الموردة، فى الصباح الباكر واليوم وليد، وأشعة الشمس لا تزال رقيقة رقيقة حانية، كأنها لفة المولود.

لكن النساء! ـ ما أقسى النساء على النساء! ـ كن لاذعات :



ـ المرأة فجرت. الرجل مات، وكانت تخشاه.

ـ والولد كذلك مات.

ـ وانطلقت ...لم يعد أحد قادرا على أن يصدها.

ـ انها جنت. بعد ماشاب، راح الكتاب.

ـ يمكن معذورة.

ـ لماذا؟ ضربوها على إيدها؟ هى التى تريد!

ـ يمكن هناك سبب لا نعرفه!

ـ أى سبب؟ هى التى تريد الزواج.

ـ لكنها خيبة ..والله خيبة. صامت صامت وفطرت على بصلة.

ـ من أدراك؟ هى تعرف أكثر.

ـ كان بان. كان ظهر. الرجل مكسَّر. وجهه وباب القبر.

ـ عاوز يختم حياته بالعسل.

ـ عسل!! كل الناس تقول عنها حلوة. أين هذه الحلاوة؟ كلام!



ـ ماذا فيها.. هذه العجوز؟

ـ اسألوا الحاج غضبان، عريس الهنا.

ـ والله ما عرف يختار. أنها فقط حظوظ. يشيع عن واحدة أنها حلوة، كل الناس تصدق، وتكرر نفس الكلام.

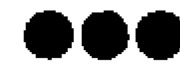
ـ عندك حق. حتى الحلاوة حظوظ. وكم من مظلومة، يقولون عنها دميمة وقبيحة، وتكون مقبولة ودمها شربات!

ـ أى نعم هى بيضاء. لكن هل البياض كل شئ؟

ـ بعض البياض كالح وثقيل.

ـ السمار نص الجمال.

ـ صدق من قال : الفلفل بالاوقية والجير بالقنطار.



ـ الغريبة ساهية وداهية.

ـ وكم تحت السواهى دواهى.

ـ كل هذا وراءها، وما ظهر عليها أو بان. ماء تحت تبن!

ـ الواحدة احتارت. أم الشحات!! تقدر على هذا كله؟

ـ وليتها وقعت وقعة تستحق. لكنها انكفأت على وجهها، ولم تجد من تسمى عليها!

ـ والله مسكينة، تصعب على الكافر. كل من تقع وقعتها تصعب على الكافر.

ـ اللهم لا ترى عدوا ولا حبيبا. هذه حالة، اللهم احفظنا.

ـ ماذا تعمل زوجة ابنها؟ خضرة المسكينة كانت أولى.

ـ على الاقل صغيرة، ومعذورة لو قالت يا زواج.

ـ الصغيرة تصبر والشايبة تفجر!

ـ والله ماتوا الله يرحمهم.

ـ من هم الذين ماتوا؟

ـ الذين استحوا ماتوا!..

ـ يا شيخة! ماتوا ماتوا! انهم ماتوا من زمن طويل.

ـ الا تستحى المرأة العجوز، من أحفادها؟

- على رأيك. الاولاد الصغار محروس وشبل وتوفيق، ماذا يقولون؟

- وماذا تقول هى لهم؟ عجبنى وعجبته! خطبنى وقبلته!

- أم تراها تقول لهم أنها تريد أن يكون لها منه ولد.

- بدل الشحات الذى مات.

- لابد أنها هى، التى تسببت فى موته. قهرته فمات.

- تبقى بلوى لو خلفت.

- ممن؟ من الحاج غضبان!

- الحاج غضبان يا بنت..ماذا أقول؟

- وكيف تعرفين؟ هل جرَّبته؟

- يا نهار أعبر! لماذا؟ خلاص، لم يعد فى بلدنا رجال؟

- طالما أنك لم تجربى، فلا تتحدثى عنه بشئ. ربنا قادر!

- كما حملت العذراء؟

- وهل هى عذراء؟

- يمكن! لكن من أين جاءت بالشحات؟

- لقيته! كانت تزور الاولياء فلقيته! جاءها هدية من ربنا.

- يا رب توعدنا.



- أم الشحات، شحتت عريس الهنا!

- شحاته خيبه! كانت شحتت شيئا يستحق.

- أكثر من الحاج غضبان؟ غنى ونقوده كالارز لا تعد.

ـ وبم تنفع أمواله؟

ـ تشترى ما تريد، وتعمل ما تريد، وتعيش كما تريد.

ـ وهو ...يسمح لها بهذا. انه رجل "جلدة"؟!

ـ "جلدة" على البالوظة وعيوشة. أما الست أم الشحات كلها، فإنها شئ آخر.

ـ وماذا ستعمل لها هذه النقود. هل تشترى بها السعادة؟

ـ تشترى بها ملابس حلوة، وحليا من ذهب، وعطورا من الجنة.

ـ وهل هذه هى السعادة؟ هل تعوض هذه الاشياء ما تريده المرأة من رجلها وزوجها؟

ـ عجائز يا بنتى. هؤلاء عجائز لا يحتاجون إلا لأحزمة حول ضلوعهم، فلا تتساقط منهم، وكلمة طيبة ودعوة صالحة، وقربى إلى الله تنفعهم عندما يواجهونه فى أخرتهم.

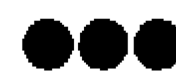
ـ لكنهم يحتاجون أيضا لشىء من الشطة لتفتح شهيتهم.

ـ فإن زادوها، حرقت حلوقهم.

ـ شئ من المزاح ... من "الدَّلع"!

ـ يا شيخة.."الشايب لما يتدلع"...

ـ يبقى "كالنعش المتخلع"!



وحريم الحاج غضبان كذلك، وصلتهن الانباء. وعندما علمت زوجتاه، لم تصدقا أول الامر، وظنتا أن المسألة لا تزيد عن كونها شائعات، وذكرتا أن هذه الشائعات قد ثارت من قبل حول الرجل المظلوم وترددت عنه أخبار، عن زواجه فى البندر، من واحدة بندرية لعوب، لكنه أنكر وأقسم وأكد أن كل هذا كلام فى كلام.

لكن الكلام هذه المرة عن واحدة من البلد. عن أم الشحات، الارمل والثكلى، التى مرت عليها سنوات العمر، كما يمر الماء على سطح أملس من المرمر، لا يؤثر فيه إلا انه يزيده جمالا وبريقا.

وبلعت كل منهما ريقها فى حلقها وهى تبلع مع ريقها ما تردد فى القرية مع ما تسمعه من أنباء : عنده حق. الحاج غضبان عنده حق. لو أنصف لتزوجها، من زمان طويل، والعمر شباب، والقامة مشدودة، والعود مصلوب، والنَّفس طويل، لا ينقطَّع من النظرات!

وارتبكت كل منهما وهى تستقبل النبأ.

وشعرت كل منهما أن هذه الاخبار التى تسمعها، ماء مثلج يغرقها. ووخزت كلا منهما أطراف مدببة، كأنها إبر النحل.

وشهقت كل منهما من أعماقها وهى تتصور نفسها وقد صارت على ألسنة نساء القرية، مسخا مشوها يبعث على الضحك والرثاء.

أى والله. فى المرة الاولى. كان الامر أهون. كانت شائعات، عن واحدة بندرية غامضة الشكل، مجهولة. وكان من الجائز أن يقال عنها أنها قبيحة، وأن الحاج قد وقع أو انهم خدعوه. أما هذه المرة، قام الشحات حقيقة واقعة تعرفها القرية وتعرف أنها حلوة وجميلة وفاتنة. إن زواج الحاج غضبان من أم الشحات إهانة لكل منهما لأنه سيظهر قبحهما، حتى أن واحدة منهما لم تستطع أن تملأ عينه، حتى وهو فى هذه السن!

لكن ماذا تفعلان؟ ماذا تقولان؟ كيف تحولان بينه وبين هذا الزواج؟

عيوشة تملك مع ما تملك من أسلحة للمقاومة، بنتها نعمت، وزوج بنتها سيد شيخ البلد، والقائم مقام شيخ الخفر، بعد أن مات شيخ الخفر.

وانبالوظة تملك ..تملك ماذا؟ تملك أنها بالوظة! كما أنها أم الولد الوحيد الذى أنجبه العريس!

وبدأت كل منهما تفكر فى الطريقة الوحيدة التى تضمن بها أن تثير الموضوع.

الميراث! دائما الميراث!

نعم فهو إن تزوج، فقد ينجب. من يدرى؟! وعندئذ يصبح هناك منافسون لسلطان الصغير، ولنعمت وزوجها سيد. وبعد أن كانت ثروة الرجل العجوز ستئول إلى ولده

وابنتـه، فإنها سـتوزع على أولاد جـدد من العروس الجديدة. وسـتكون الطامـة وبيلة إذا ضـحكت عليـه العـروس الجديدة، وأغـرته ليكتب لهـا بعـضـا من أطيـانه. والمحـقق أنهـا ستأخذ منه أكثر مـا تستطيع الحصول عليه لتشترى لنفسها حليـا من ذهب وفضة تنفعها وقت الحاجة.

ثم هى فى ذاتها كبيرة، لكنها بالنسبة له صغيرة وشابة، ولهذا فـالطبيعى أن تفكر فى مصيرها بعد أن يموت. نعم الاعمار بيد الله، لكن هذا لا يمنع على كل حال.

علـى أن واحـدة منـهمـا لم تسـتطع أول الامـر أن تحـدثه فى شئ. لـم يكن يطيق أن يراهما أو يسمع منهما، وخشيتا إن هما حدثتاه فى شئ لم يخطر بعد له على بال، أن تستفزاه، وأن يعمله، عنداً فيهما!

لكن ذلك لم يمنعهما من أحاديث طويلة قلقة مع الأولاد والجيران والأهل والأقارب :



ـ لابد انه عمل. هذا أمر واضح.

ـ عمل! أى عمل؟

ـ سحر أو شئ من هذا القبيل. هل هذا طبيعى؟ إن الرجل مسحور.

ـ وهل السحر يفعل كل هذا؟

ـ يا خبر! طبعا انهم يسحرون الرجل كلبا أو قردا.

ـ يا شيخة لا تسمعى هذا الكلام.

ـ أهل زمان لا يكذبون. انهم مجربون ويعرفون، وكلامهم لا ينزل الأرض.

ـ وأهل زمان قالوا هذا؟

ـ طبعا الحكايات التى نسمعها والروايات، عن السحر والسحرة.

ـ ومن الذى سحر الآخر. العريس أم العروس؟

- لا .هى سحرته. هو رجل مسكين. مريض وعجوز. لكن هى. امرأة فاجرة وتعرف كل شئ.

- لكن ماذا تكسبه منه؟

- نقوده. نفوذه. اسمه. عائلته. من هى هذه الصعلوكة؟

- وتدفع شبابها!!

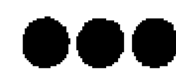
- شبابها!! هل هى شابة؟ أنها جدة!!

- لكنها حلوة ...حلوة.

- حلاوة موالد.."قاطعة".

- ..ومبروكة؟!

- معجونة بماء شياطين.



- هل نسكت عليه يفعل ما يشاء؟

- وماذا نستطيع أن نفعل؟ الرجل يريد الزواج.

- وهل هو قادر على المشى، ليتزوج؟

- هذا حق قرره الشرع. رجل راشد يتحمل مسئولية عمله.

- لكنا نعلم انه واقع تحت تأثير سيئ.

- هل هو مخدر؟ هل هو سكران؟

- ألعن من المخدر أو السكران. انه مسلوب الارادة، مخدوع.

- لكنه يعرض اسمه واسم أسرته واسم أولاده للكلام.

- أى كلام.. انه رجل.. هل هو امرأة تخافون عليه؟ هل هو بنت سيعتدى عليها؟

- فإذا أنجب؟...

- إذاً يكون على حق، ويكون قد تمتع بالزواج كما يتمنى.

- ويدخل على ثروته غرباء؟

- غرباء!! أولاده!! كيف يكون أولاده غرباء؟ هل ينجب ولا يدفع الثمن؟

- لكن هذا حق أولاده.

- كل أولاده، أو أولاد معينون؟

- أولاده الشرعيون.

- والجدد _ إذا أصبح له أولاد جدد _ هل سيكونون أولاد حرام؟

- لن يكونوا أولاد ناس طيبين!

- غريبة! أولاد الحاج غضبان لن يكونوا أولاد ناس طيبين!

- أولاد أم الشحات.

- من الحاج غضبان؟ أم من غير الحاج غضبان؟

- لكنهم منها.

- ومنه أيضا.

- بل منها أكثر.

- هذا شئ غريب. إذاً سلطان الصغير من البالوظة أكثر، ونعمت من عيوشة أكثر. و الحاج غضبان مسكين، ليس له أولاد إلا أقل القليل!!



وكما كانت الاحاديث تدور بين أهل القرية من الفلاحين، ومن الصبايا من فتيات القرية، وبين حريمه وأولاده، فقد كانت كذلك تدور بين أقاربه، فى دوار العمدة وبين أخوته وأولاد أخوته وأقاربهم وأصهارهم.

أما الشيخ سيد أخوه، فقد كان رجلا فى المعاش، مريضا متهالكا، وكان الناس يقولون عنه انه يدفع الآن ثمن أذاه للناس. انه المفتى الذى حلل كل حرام. وأخرج أمواله للناس بالفايظ. وشارك الناس فى الزراعة فكان دائما صاحب النصيب الغالب. ولم يكن يهمه ضعف المغلوب أو حاجته. انه كون ثروة، وله معاش، لكنه لا يهنأ بلقمة. معدته دائما مقلوبة لا يستقر فيها الطعام. وجهه أصفر نحيف "كالسماوى"! مشيته من ضعفها أصبحت تثير الاشفاق.

ولقد آلى الشيخ سيد على نفسه أن يبعد عن مشكلات الأسرة والأهل وألا يتدخل أبدا فى شئون القرية. انه لا يزال يرى الشيخ مرزوق يأتيه فى المنام فيقلل من راحته وقد يفزعه وهو نائم.

وعندما قالوا له أن أخاه الحاج غضبان يريد أن يتزوج أم الشحات لم يحرك أكثر من شفتيه كأنما يمص قطعة حلوى!

لم يقل شيئا. أو لعلة قال كل ما يستطيع فى مثل هذه الأحوال. ليتنى سبقته إليها!!

لكنه لم يقلها على أية حال!!

ممتاز أفندى هو الاخر خرج على المعاش.

لم يعد أفنديا، ولم يعد محضرا يحجز على الناس، ولا يجد بأسا ـ مع ذلك ـ أن يعود مع محضر الحجز بصفيحة من السمن البلدى، وبعض من الفطير المشلتت، وسلة بيض وجبن وقشدة ما يسيل لها اللعاب.

ممتاز أفندى لم يعد شيئا من هذا. بل لقد أصابته لوثة جعلته أقرب إلى المجاذيب. يقول كلاما لا يفهمه عنه أحد، ويثيره أن أحد لا يفهم ما يقوله. انه يتحدث إلى نفسه، طالما أن الناس قد أصيبت بغباء! ويتخلل حديثه مع نفسه ضحك طويل عميق، وأخذ ورد، وأحيانا بكاء.

الدنيا روم عقربتان أربعة شرق الناس نائمة هيلات تراد هنات يكون وجود ...

نور هذين أستاقرى ضع مملوك عشرة ثلاثين سبت حد اثنين ...نهارين بالليل.

"سلام نوعش بدواره أشتاق علامات."

وهكذا كلامه وحديثه. لغة لا يعرفها أحد إلا هو. هو وحده يقولها، وهو وحده يضحك عليها أولها، وهو وحده يرد عليها بكلام من صنفها.

وعندما يفيق قليلا، يقول كلاما مفهوما، لكن كله تخريف فى تخريف.

"الملك يريد أن يقتلنى. أنا أخذت مراته لكن ما ذنبى؟ هى التى جرت ورائى... أطردها؟ أنها ملكة. أطرد ملكة؟!

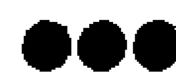
مسكين وزير الداخلية، سأكتب له عشرة أفدنة ليعيش.

عندما عينت رئيسا لمحكمة النقض قلت لدولة الرئيس إن هذا المنصب قلة قيمة وأنا لا أريده!

وهكذا كان يقول كلاما أوضحه انه كلام فارغ وباقية ليس كلاما على الانطلاق.

لكن ممتاز أفندى كان دائم الصلاة فى المسجد، جماعة. وكان يدخل يصلى ثم يخرج دون كلام، ثم ينصرف يتحدث أحاديثه تلك ذات الرموز والألغاز، أو يتحدث عن خرافات وحكايات متصلة لا تنتهى.

وعندما قالوا لممتاز أفندى أن الحاج غضبان سيتزوج هز رأسه كأنما هو لا يعرف ماذا يقال. وانصرف يقول كلامه ذاك، ويضحك لنفسه بين الحين والحين.



العمدة هو الذى التقت عنده كل المساعى والأحاديث.

الزوجتان تطلبان أن يتدخل. أليس العمدة، وهو كذلك ابن أخيه، ويجب أن يحميه، حتى من نفسه؟ وابنه سلطان _ تحت تأثير أمه _ قد ذهب إلى الدوار يسأل ابن عمه العمدة أن يضع حدا لما يقال. كذلك كل الاقارب والاصهار ذهبوا يتلمسون عند العمدة الحل.

ـ لكن ماذا أستطيع أن أعمل يا أولاد؟

ـ تمنعه من هذا الزواج يا عمدة.

ـ أنا أمنع عمى الحاج غضبان.. والله كان يأكلنى!!

ـ لكنك عمدة البلد.

ـ عمدة! انه عمى، ومقامه من مقام والدى الله يرحمه.

ـ إذاً تمنع أم الشحات.

ـ وماذا فعلت أم الشحات.

ـ هى التى شجعته على هذا. هى التى رسمت الطريق لتحقيق أغراضها.

ـ أنا العمدة أقول لكم أن هذا غير صحيح. أم الشحات لم تطلب هذا ولم تشجعه عليه. هو الذى يريدها يا أولاد.

ـ تعود إلى البلد التى جاءت منها.

ـ هذه بلدها يا خلق. أطردها من بلدها؟ أما كفاها تلك السنوات الطوال؟

ـ لقد اعتادت على أن تعيش هناك.

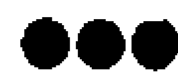
ـ وعظم التربة.. تتركه هنا، أم تأخذه معها؟

ـ لا تدرى. تخرج من البلد والسلام.

ـ وامرأة الشحات ..وأولاده؟

ـ يذهبون معها ...فى ستين داهية.

ـ أنا لن أتكلم. هاكم شيخ البلد تكلموا معه. انه زوج ابنته كذلك.



وتكلم شيخ البلد.

وعرفت الاسرة كلها أن الحاج غضبان مصر على أن يتزوج أم الشحات، وأن أم الشحات لا ذنب لها فى هذا، وأنها لم تشجعه ولم تحرضه ولم تسع إليه. أنها أرملة وثكلى وحياتها مأساة كبيرة قاتلة. أنها فقدت وحيدها، وعليها أن ترعى أولاده الثلاثة. إن من فى مثل حالتها لا تفكر فى الزواج؟ لكنه عمى الحاج غضبان وأنتم تعرفون اصراره وعناده.

وقال شيخ البلد أن عمه مريض، وانه فى آخر أيامه، فلماذا لا نتركه يفعل ما يشاء، طالما انه يريحه ويسعده؟ ألم يخدمنا طول حياته؟ ألم يسافر ويكافح ويتصل بالتجار ليحصل على أكبر أرباح لمحاصيلنا؟ إلا يستحق منا أن نتركه على هواه مرة؟

وأحس الرجال انهم يظلمون عمهم غضبان لو منعوه من هذا الزواج.

لكن الزوجتين شعرتا انه رجل ناكر للجميل، وانهما بذلتا عمرهما لواحد لا يستحقه.

وقال شيخ البلد لنفسه : آه لو قلت لهم ما نعرفه عن زواجه من البندرية، وعن ابنه منها!! يخافون من أم الشحات المسكينة، ولا يدرون، أن ما يخافون منه واقع فعلا.. من زمن طويل.

وبلع شيخ البلد ريقه مع أفكاره!

على أن عباس وكيل شيخ الخفر، والصهر المسطول، زوج درة زمانها، قد كان أسعد الناس بما يسمعه من أنباء.

كان يقول لزوجته وهى تناقشه :

ليته فعلها من زمن طويل. كان خلف لنا بنتا حلوة أو ولد خفيف الظل كأمه. وكانت أم الشحات غيرته وهذبت طباعه، وكان الحال قد صار غير الحال.

ولم يكن عباس يهتم باعتراضات زوجته أو صياحها الكريه.

وعندما أخذ رجال الأسرة يناقشون الموضوع وأخذ كل منهم يتفلسف فلسفة طويلة عريضة، صاح فيهم : لأول مرة عمى الحاج غضبان يفكر فى عمل سليم. كل أعماله

كانت بغيضه وكريهة إلا هذه المرة. عقل وفاق وأصبح يقدر الأمور أحسن تقدير. هل هناك من يرى الجمال قبحا؟

والتقى عباس بالحريم : زوجتيه ونسوة أخريات من نساء الأسرة، وبعد أن استمع إليهن، صاح يقول لهن : "كتر خيرها أم الشحات إذا قبلت أن تتزوجه. هى أحسن منه مليون مرة. هى حلوة وجميلة وأصيلة وشريفة. لم تسرق أحدا، ولم تتاجر بقوت أحد. لم تقرض أحدا بالفايظ ولم تخرب بيتا. كلها رقة ومشاعر طيبة وحنان. كانت زوجة ممتازة، وكانت أما رءوفا، وهى الآن جدة رائعة. ثم لماذا ترضى بهذه الكتلة من اللحم المجهد المكدود؟ لماذا تضحى باسمها وماضيها وعلاقتها بأسرتها من أجل رجل عاجز كالحاج غضبان؟ ستقولون ماله وصيته وعائلته! إن أم الشحات أكبر من المال والصيت والعائلة. والله أنها أكبر. أكبر كثيرا

لكن الأسرة سخرت منه، وصاحت فيه وهاجمته، واكتفى الصهر المسطول، بأن هز كتفيه ومضى إلى حاله.



ومرت الأيام، والكلام يزداد انتشارا فى طرقات القرية وعلى مصاطبها وفى بيوتها وعند الساقية وعند الموردة، حتى لقد وصل الكلام إلى الحاج غضبان.

وعندما أرسل يرجوها أن تلقاه عند الساقية ذهبت لتصفى معه الحساب.

قال لها :

- ليس ذنبى يا أم الشحات. أنت تعرفين بلدنا. الحبة فيها قبة، ولا حل إلا أن نسرع بقطع اللسنة ونتزوج. لماذا ننتظر يا أم الشحات؟

قالت له وهى مضطربة، تتعثر فى حلقها كلماتها :

- ليس ذنبك! ذنب من إذاً؟ ذنبى أنا! وهل لم يكن ذنبك يوم انطلقت الشائعات عن علاقة بينى وبينك، ظلت تنتشر كألسنة اللهب، حتى حرقت ابنى؟

قال فى جزع :

ـ إنى برئ مما يقال. أقسم لك أنى برئ.

قالت فى ألم :

ـ دائما أنت برئ! من شائعات كالرماح المسمومة، قاتلة! من حسابات كتلك الشائعات مزيفة! من أحاديث القرية عن نية فى الزواج..المنحوس!

قال لها فى اعتذار :

ـ والله برئ..أنا برئ..انها ألسنة الناس.. هل أقطع ألسنة الناس؟ ثم ما عيب الزواج؟ حرام؟ أنها سنة الله.. ثم هو شئ يسليك عما أنت فيه.

قال فى فزع :

ـ أتسلى عن الشحات بالزواج يا حاج غضبان! تظن إنى أنساه! ابنى الوحيد.. أنساه؟!

وشعر انه تسرع فى الكلام، وانه أخطأ فى حقها وأساء إلى عواطفها فأسرع يقول :

ـ والله يا أم الشحات ليس قصدى.. زلة لسان.. أنا رجل كبرت ولم أعد أدرى ماذا أقول، ولا ماذا أفعل؟

قالت فى استخفاف :

ـ "وشاطر تتجوز"!! إذا كنت لا تدرى ما تقول وماذا تفعل، فلماذا تطلب الزواج؟

قال لها فى ذلة وانكسار، وعيناه فى الارض :

ـ "من نفسى.من نفسى" يا أم الشحات! "كان نفسى فيك" من زمن طويل... هل أموت قبل أن أشعر إننى حققت ما أتمناه؟!

وسكتت ولم ترد.

لكنه عاد يقول لها فيما الاستجداء :

ـ أنت سميت ابنك الشحات ليعيش، شحتيه، وربنا أعطى.. آنا أيضا شحات وكما أعطاك الله ابنك، اعطنى أنت ...نفسك. لتردى روحى إلى يا أم الشحات.

وضحكت من الموقف، وسحبت الطرحة السوداء على وجهها، لتدارى فمها وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة رائعة، تساوى كل ما فى الدنيا جميعا.

هكذا قال الحاج غضبان، وهو يعاتبها لأنها تخفيها عنه بطرحتها.

وبعد أن مر الموقف، عاد هو يسأل كالاطفال :

ـ متى؟. قولى متى؟. والنبى تقولين متى؟

قالت هى فى كبرياء وشموخ :

ـ هل أطلب شيئا؟

قال فى سرعة كالملهوف :

ـ قولى. أى شئ تقولينه مسموع. أى شرط مجاب.اعتبريه مجابا دون أن تقوليه.

واعتدلت فى جلستها، وواجهته فى وضوح وقالت :

ـ لا لا ..هذا كلام جد. انه طلب بسيط، سترى انه ليس لى، ولا دخل لى فيه، لكنى مع هذا أطلبه، لمصلحتك أنت.

قال فى تخاذل الخائف :

ـ مجاب أيضا..والله مجاب. أحلف بمن ...بك أنت. وحياتك مجاب.

قالت :

ـ تعترف بابنك محمود.

وشهق الحاج غضبان شهقة كادت أن تكون نهايته.

كيف تعرف؟ كيف تعرف أن له ولدا، وأن اسمه محمود؟ لابد أنها تعرف بقية الحكاية.

وقال فى همس خائف :

ـ من قال لك؟ ومن أين عرفت؟

قالت وعلى شفتيها ابتسامة شاحبة :

- ليس فى بلدنا سر.. كل شئ فى بلدنا واضح ومعروف.

وأسرع يتساءل :

- تقصدين أن كل من فى بلدنا يعرف؟ يا نهار أسود! فضيحة، والله فضيحة!

قالت فى تخابث وذكاء :

- وأنت يهمك؟ افرض أن كل البلد تعرف.. ماذا يهم؟

قال لها فى حدة :

- طبعا يهم.. كيف أواجه البلد.. واسمى واسم عائلتى! وسمعتى يا أم الشحات؟!

قالت وهى تلوى عنه وجهها :

- أليس ابنك من ظهرك؟

قال فى ارتباك :

- ماذا أقول؟

قالت فى ثقة :

- لكنه ابن زواج عرفى غير مسجل.. هذا ما تريد أن تقوله ..يا حاج!!

قال وهو يتلعثم فى انهيار :

- غلطة ...غلطة يا أم الشحات.

قالت فى هدوء :

- تدفع ثمنها..إنما تترك الولد معرضا للظروف، فهذا حرام لا يرضى به الله.

قال فى انكسار :

- إن له أبا..له أب آخر، أحسن منى.

قالت أم الشحات فى هدوء :

- صحيح أحسن...على الاقل أصلح غلطة سواه. هذا أجره كبير عند الله. لكن الولد ما ذنبه؟ أليس له لديك حقوق كسلطان ونعمت؟

قال فى غيظ مكبوت :

- إذاً ماذا فعلنا؟ من أجل هذه الحقوق أنكرته، وضحيت بأشياء كثيرة...

وأكملت له أم الشحات :

- ولذيذة وحلوة...ضحيت بصباح.

قال لها :

- وتعرفين اسمها كذلك؟! شئ غريب.

قالت :

- على كل، هذا ليس مهما. المهم أن تعترف بابنك.

قال :

- لكنى أقسم لك أن هذا ليس من مصلحته. قد يحطم هذا حياته. انه سعيد مع أمه، ومع أبيه ...نعم إن له أبا.

قالت :

- أعلم هذا. على الاقل تكتب له نصيبه الشرعى فى الميراث.

قال :

- ليس له ميراث. انه فى الاوراق ابن رجل آخر.

قالت :

- ليكن بيعا. لتكن وصية. المهم تكتب له حقه ضمانا له إذا احتاج.

قال لها فى انكار :

- لا..لا.. إنى لا أستطيع. بأى حق يأخذ نصيبا من ثروتى؟ انه غريب.

قالت فى هدوء :

- ما غريب إلا الشيطان. ابنك، كلسلطان تماما.

قال فى إصرار :

- ابنى الذى يعيش معى، ويشب على حبى، ويعرف مقدارى ومقدار عائلتى. أما هذا فشيطان جاء صدفة. كان يمكن أن يجئ دون أن أدرى. أمثاله فى الملاجئ كثيرون وقد يكون آباؤهم مآمير ومديرين وأكابر.

قالت :

- يظهر إنى سأضطر إلى أن أقول الحقيقة لزوجتك عيوشة والبالوظة، ولبنتك وللعمدة وللناس كلهم. أنا حافظت على السر، واحترمته. لكن يظهر أن الذى يريد له الله الفضيحة، لا يستره الناس.

قال فى هلع :

- يا نهار أسود. تقولين لمن؟ لهم جميعا. تقضين على يا أم الشحات؟! أهذا جزاء من يحبك ويريد أن يتزوجك؟

وسكت قليلا، وأخذ يهز رأسه يدبر أمرا، ثم نظر إليها وقال :

- سأفكر فى الامر، وعلى الله التساهيل.

قالت له :

- يا رجل أعطه حقه، ليباركك الله ما بقى لك من الأيام.

قال :

- والأولاد؟ لو عرفوا فإنهم يخربون البيت على.

قالت :

- ولماذا يعرفون؟ ليكن هذا سرا بينك وبين الله.

قال : وأين أضع الأوراق التى تثبت حقه. سيفضحوننى لو عرفوا.

قالت : تودعها : عند من تحفظ الوديعة، لا تفرط فيها أبدا. الشيخة تفيدة.

قال وهو يشد الكلمات من تحت شفتيه!

- وبعدها تتزوجيننى؟

ولم ترد...

وافترقا ...على أن يبدأ الحاج غضبان فى تنفيذ ما طلبته أم الشحات.

وبقيت أم الشحات فى مكانها عند الساقية، تتطلع حواليها، وتداعب الأرض بأصابعها. ترسم مرة خطوطا مستقيمة، ومرة أخرى دوائر متداخلة، ومرة ثالثة تبدو الأشكال التى تكونها بلا معنى.

ولم يشأ أبو المكارم الاخرس، أن يعكر وحدتها وصفوها. لم يشأ أن يقطع أفكارها أو يقف بينها وبين ذكرياتها.

وأقبل شيخ البلد بعد قليل. أقبل هذه المرة وحده، وقصد إليها، وجلس غير بعيد منها.

قال لها :

هكذا!..لا حل إلا هكذا!..والا فإنه لن يرجع عنك.

قالت :

فإن كتب للولد حقه، ماذا أعمل؟ وكيف أصرفه؟ كيف أتخلص منه؟

قال شيخ البلد :

اسمعى يا خالة أم الشحات. يظهر أنك لم تفهمى قصدى تماما. أنا عارف عمى الحاج غضبان وبخله وعناده، وعارف انه لن يذهب ويبيع لمحمود ابن صباح النصيب

الذى كان يستحقه لو اعترف به إلا ليحصل عليك ثم يفرجها ربنا بعد هذا. وهذا هو المطلوب. هذا الورق هو المطلوب.

قالت :

وهذ هو الشئ الذى لا أفهمه يا بنى.

قال شيخ البلد :

عمى الحاج غضبان قادر على أن ينكر. لو قلت أنا لكل البلد، فإن من السهل عليه أن ينكر، وستصدقه البلد وتكذبنى. ولو قلت أنت لكل الناس، فإنه سينكر وقد يطالبك بديون قديمة للتنكيل بك، وستكونين أنت الكذابة فى نظر الناس، نفاقا على الاقل.إنما عندما يكون هناك ورق مكتوب، بيع وشراء، فماذا سيقول للبلد وللعائلة وللناس؟ عندئذ تقولين له لا بالثلث، وأنت تأمنين شره ولا تخافين إذاه، بشرط إلا يعرف أبدا أننا ـ أنا وأنت ـ اتفقنا على هذا، فإنه لو عرف فسيقيم الدنيا علينا.

قالت أم الشحات فى براءة :

والاوراق، ماذا يكون شأن الاوراق؟

قال شيخ البلد :

الذى يهمك أن يكون لديك سلاح تدافعين به عن نفسك ضده. هذه الأوراق ستكون هذا السلاح.

قالت أم الشحات :

فإذا استرد الأوراق، بعد أن يدرك الحقيقة. وماذا يكون الحال؟

قال شيخ البلد :

ساعتها يفرجها ربنا.



ولم يجد الحاج غضبان إلا صديقه التاجر، صهر سعادة مدير الأمن العام.

وذهب إليه فى كفر الدوار، فوجد الدنيا غير الدنيا. والمكتب قد أصبح كسوق عكاظ من كثرة الزحام.

وذهب إلى قهوة قريبة، ليستريح، حتى يحضر صديقه ويعرف منه سر هذا الزحام.

وسمع الناس يتحدثون عن معالى الوزير، وقدرات معالى الوزير، وكرامات معالى الوزير وكيف انه وظف ابنا لفلان، ورقى أخا لفلان، وفصل فلانا لأنه لم يسمع الكلام.

من معالى الوزير؟ من صاحب المعالى؟ وأى وزير؟

وزير الداخلية! انهم يتحدثون عن وزير الداخلية !! وزير البوليس والمآمير والمديرين والأقسام والسجون!!

وعندما مد أذنيه ليزداد علما بمن يتحدثون عنه، سمع اسم صديقه التاجر القديم وأخذ الناس يقولون، انه أقوى شخص لديه ...أليس صهره وزوج ابنته؟

وأصيب بما يشبه الذهول!



وترك القهوة إلى مكتب الصديق القديم.

صديقى. انه صديقى وحبيبى. وقد تعاملت معه على أساس من الثقة والاخلاص. رجل عظيم والصداقة التى بيننا أبقى من أى شئ. أنا لا يهمنى ما أصابه من نعيم، وسواء كان حماه مديرا للأمن العام أو وزيرا للداخلية، أو صعلوكا، فهذا لا يهمنى. المهم عندى انه تاجر شريف، وانه صديق مخلص.

وكان الحاج غضبان فى هذا كذابا، ومنافقا ومضللا. نعم، فإنه لم يكن يطيقه، منذ عرف عنده "صباح".

ولولا الشديد القوى ما جاءه يسأله عنها، لكنه كان مضطرا، وكان مرغما.

ومن يومها لم يأت إليه إلا اليوم.

وما كان سيأتى إليه اليوم، لولا لوعته من أجل أم الشحات، ورغبته فى أن يعيش معها بقية عمره.

ورأى هذا الزحام، وأدرك أن الدنيا أقبلت من أوسع الأبواب.

لقد أصبح صديقه القديم صهر وزير الداخلية..كان وهو مدير للأمن العام قادرا على خراب البيوت، ووضع الناس فى السجن، بلا تحقيق، فما باله اليوم، وقد أصبح وزيرا للداخلية؟ لا شك انه يقدر الآن على اعدام الناس، ووضعهم فى جهنم بلا حساب!

وقال لنفسه : أستغفر الله العظيم. انه واحد من خلق الله.

...لكنها ارادة الله أيضا يا حاج غضبان، أن يطاول عبدا من عبيده، وأن يضع بين يديه هذا النفوذ وهذا الصولجان. انه حينما يخرب بيتا، أو يحبس شخصا أو يشده من خلاف، فإنه لا ينفذ شيئا من عنده، كله من عند الله! ربنا يسخرهم للخير، فيجعلهم أئمة، وعلماء، وأطباء، ومنشدين، وزوجات جميلات رائعات، يدخلن البهجة على النفوس، ويسخر آخرين للشر، فيجعلهم عساكر وضباط ومآمير ومديرين، ووزراء.

لكنك تنسى يا حاج غضبان أن من الأئمة من يستغل الدين، وأن من العلماء ناسا على شاكلة الشيخ سيد أخيك، وأن من الأطباء من يتاجر فى الدموع، وأن من المنشدين من يتأوه بالكلام الحرام، وأن من الزوجات الجميلات، من يرتكبن الخيانة بغير شعور بالخطيئة أو بالاثم!

كذلك يا حاج غضبان من العساكر من يحرس البيوت والحرمات، ومن الضباط من يحمى المضطهد ويدافع عن المظلوم، ومن المآمير من يحقق الأمن والسكينة بين الناس، ومن المديرين من يخدم المجتمع ويحقق العدل، ومن الوزراء من يخدم الوطن أجل الخدمات.

فيه..وفيه!! أصابعك ليست كلها سواء!

لكن هذا الزحام الذى تراه. أهو خير ذاك؟ أم انه شر وإثم وضلال؟

هل جاء هؤلاء ليتعبدوا لله؟ أو جاءوا لقضاء المصالح وتحقيق الغايات؟

أم تراهم جاءوا لمجرد الزيارة، والسؤال عن الصحة، وتمنى السعادة لصديقه العظيم، الذى يرتبط به بالثقة والاخلاص؟!

ولماذا لم يقبلوا عليه إلا الآن؟

ومنذ متى صار مكتبه مزارا، كأنه ولى من أولياء الله، تلتمس عنده البركات؟

وقال للتابع الذى معه : منافقون. الناس منافقون. عندما كنت أحضر لزيارته فى السنوات الماضية، لم أكن أجد عنده أحدا. كان مكتبه خاليا إلا من الزبائن المتعاملين معه. أما اليوم، فقد أقبلوا كما ترى زرافات ووحدانا.نفاق رخيص. انه صديقى وأنا لا يهمنى أن صهره قد صار وزيرا أو رئيسا للوزراء. إن ما يهمنى هو انه صديقى وحبيبى، وقد تعاملت معه على أساس من الثقة والاخلاص.

وعندما سكت، شعر أن فى ضميره صوتاً مكتوما يكاد ينطلق ليقول له : وأنت أيضا من المنافقين! أنت مثلهم منافق يا حاج غضبان.

لكنه على كل حال نسى الصوت أو تناساه وهو يشق لنفسه طريقا بين الزحام، ليجد نفسه مكانا ينتظر فيه.

ولقد استطاع أن يدخل. ثم استطاع أن يجد مقعدا حشر نفسه فيه بين الجالسين. وبدأ يسمع ما يدور حوله من أحاديث.



- إن سعادة البك يستطيع أن يعينه.

- بكلمة واحدة. هذه مسألة بسيطة جدا.

- لكنه يرجئ الموضوع، ويقول دائما إن شاء الله. والله لا يشاء أبدا.

- الولد فى البيت لم يعد ينقصه إلا العريس !!

- يا شيخ حرام عليك. غدا يعمل، ويصبح عريسا هماما.

- وحتى يتم هذا، سيظل فى البيت كأنه بنت تنتظر العريس.

- وما شهادته؟ ماذا حصل عليه من شهادات؟

- ليسانس حقوق. انتهى من كلية الحقوق يا سيدى.

- ياه!! لماذا لم يأخذوه فى الوزارة الجديدة؟!

- وزارة!! أية وزارة؟!

- وزير يعنى. أقصد يعينونه وزيرا.

- مرة واحدة!

- أليس حقوقيا؟ كل الوزراء حقوقيون. ماذا يفعل الحقوقيون إذا لم يعملوا وزراء؟

- يا رجل دعنا من هذا المزاح. أنا طالب من الله ولا يكثر على الله وظيفة صغيرة جدا..

- رئيس نقض؟

- انزل قليلا.

- رئيس استئناف مصر؟

- انزل قليلا.

- نائب عام؟

- انزل قليلا.

- إذاً رئيس محكمة أو رئيس نيابة.وإياك بعد هذا أن تقول انزل. بعد هذا حاجب محكمة ...أو متهم!

ـ نكتة لا بأس بها. على كل حال سعادة البك وعد.

ـ بالنيابة أو الادارة؟

ـ النيابة الاول، فان تعذر فالادارة مؤقتا.

ـ وكم؟! المقاولة كم؟

ـ للادارة خمسمائة. كثير. أليس كذلك؟

ـ لا لا..أمام هذا الضغط، وفى هذه الازمة، يا "دوب"! وكم دفعت مقدما؟

ـ مائة...بالتمام والكمال.

ـ كفى. لا تدفع إلا بعد أن تنتهى المسألة.

ـ المهم تنتهى...الولد كالسبع فى قفص، جن وجننى معه.

ـ لا لا. اصبر. هذه مسألة تساوى الصبر. لكنى أفضل أن يكون وكيلا للنيابة.

ـ أحسن من معاون إدارة؟

ـ أحسن من معاون إدارة؟ طبعا! أحسن من مأمور.. من مدير. يا رجل انه هو سلطة القبض على المتهمين. والادارة تحت أمره، وفى أى تحقيق هو سيد الموقف.

ـ أنا قلت هذا. لكن سعادة البك قال الادارة أسهل ولا فرق. يا ناس أريده وكيلا للنيابة، يأمر وينهى.

ـ كله بحقه يا عم.

ـ نعم لكن ألف ... من أين لى الألف؟

ـ ألف جنيه؟! لا كثير.

ـ كثير جدا. أنا قلت خمسمائة، لكن سعادة البك ترى أن تعيين وكيل نيابة مسألة تحتاج لألف ...

- لكن والله لما تحسبها، تجدها يعنى ممكن.

- كيف ...ألف جنيه! ألف جنيه ثمن فدانين من أجود الأطيان.

- وبم ينفع فدانان أو ثلاثة أو أربعة؟ وكيل النيابة مثلا يتزوج بنت وزير عنده ألف فدان. فكر أنت كم يرث، بعد عمر طويل.

- ومعاون الادارة؟

- بالكثير يتزوج بنت مدير، أو حكمدار، أو قل وكيل وزارة.

- رضا. هذا رضا.

- لكن فرق بعيد بين هذا وذاك.

- يعنى ترى أدفع له الألف؟

- أنا منك.. آه!

- يا رجل!

- هل يتخرج لك كل يوم ولد. ادفع أتتمتع. غدا يعوضه لك بدل الآلف آلاف.

- من أين..أنا فقير، وهو لن يكون له إلا مرتبه.

- من أصهاره يا غبى، " والفلوس تجيب فلوس" !



وذهل الحاج غضبان، وهو يسمع هذا الكلام.

ألف جنيه ثمن وظيفة وكيل نيابة!!

يا خبر يا أولاد!! الحمد لله على العمدية، كلها بضع مآدب تذبح فيها الخراف والديوك الرومى! وبضع صفائح سمن وجبن! وبضع سلال بيض! وبضعة أسبتة فاكهة! وفطير مشلتت وقشدة وعسل! وأغلب هذا إن لم يكن كله يقدمه الأهالى!

إن الألف جنيه ثمن ثلاثمائة قنطار قطن، أو ألف أردب قمح، أو نصف مليون بيضة.
يا خبر يا أولاد !!

ثلثمائة قنطار قطن، محصول خمسين فدانا، اشتغل فيها خمسمائة رجل وامرأة لمدة ستة شهور. يأخذها سعادة البك، الصديق الصدوق..فى وظيفة !

ألف أردب قمح، محصول مائة فدان، وجهد ألف رجل وامرأة، لمدة أربعة شهور، تذهب هكذا ليصبح واحد من الناس. وكيل نيابة!

نصف مليون بيضة، باضتها ثلاثة آلاف فرخة فى نصف سنة، أكلت كم أردب ذرة، واحتاجت لكم امرأة تعنى بها. كل هذا يدفع فى لحظة لسعادة البك!

ولم يصدق الحاج غضبان أذنيه.

فان يكن ما سمعه صحيحا، فانه جبار سعادة البك هذا، صديقه التاجر القديم، الذى خلع عليه "صباح" !

وشرد قليلا فى صباح، وفى سعادة البك. وذكر ما كان يقوله له عن زوجته بنت مدير الأمن العام. لقد كان ضيقا بها، لأنها ابنة مدير الأمن العام، فما باله الآن، وقد صارت بنت وزير الداخلية؟! واقعته سودة! لابد أنها سودت عيشته! ماذا تراه يعمل الآن؟ ها ها ...ى! راحت عليه!! هذا هو المكتب أصبح سوقا! كان هذا المكتب فيما مضى خاليا خاويا، ينعق فيه البوم. وكان قد أعد لنفسه فيه حجرة نوم، واستخدم من يشاء من نساء، واحدة وراء الأخرى، لخدمته واعداد طعامه. وقد كان يتزوجهن زواجا شفهيا غير مسجل. هل هذا ممكن الآن؟ راحت عليه!! راحت عليه !! طبعا لا تستطيع أن تنال كل شئ يا بطل. وزارة وامارة!!! لا لا. واحدة تكفى!!

وأحس الحاج غضبان انه مرتاح! يشرب الآن مثلما سقى الناس!

لكن ماذا سقاه للناس يا حاج غضبان؟ هل هذا جزاؤه؟ الحقيقه الرجل لم يسئ لأحد. كل همه أن يجد لنفسه امرأة فى السر، وبطريقة غير مفضوحة، ولا بأس أن

يتزوجها طالما أنه زواج غير مسجل أو مكتوب. على أن يستبدلها بسواها، قبل أن تتعلق برقبته، ويصبح من الصعب اقتلاعها، من المكتب أو من قلبه.

وقال الحاج غضبان لنفسه : والله أنت تظلمه.

على انه لم يكد ينتهى من هذه الخواطر، حتى وصلت أذنيه مناقشة أخرى أهم.



- أدفع هنا، أم هنا، أم هنا، أم هناك.

- لا حلو، بلا نار.

- لكنها نار حامية جدا.

- والحلو أيضا ..حلو جدا.

- يا شيخ. كله يستوى.

- إذاً فيم الحرص عليه؟ لا داعى للتهوين من قيمة الكرسى.

- يا ناس. انه مضمون ...لو أن الانتخابات حرة، ما استطاع واحد أن يقترب منه.

- ليس فى الدنيا شئ مضمون.

- لا. انه مضمون. أقاربنا وأصهارنا فى كل مكان. هل هى فوضى؟!

- إذاً لا داعى لمعالى الوزير.

- لا يا عم! إلا هذا. ولو ضاع الكرسى؟ فى هذه الحالة تصبح المسألة مأساة.

- كيف نرفع رءوسنا فى الناحية؟ تنتهى هيبتنا ويضيع مقامنا، وينهار كل شئ!

- والحزب ... ألم يرشحك؟

- طبعا رشحنى. لكن هنا الأهم. الداخلية يا عم أهم!

- ياه!! الداخلية أهم من الحزب؟!

- بكثير! الحزب تأييده سياسى، لكن الداخلية تأييدها تأييد السلطة الحاكمة فعلا. تأييد العمدة والمشايخ، والخفر ومشايخ الخفر، واللصوص والمهربين وتجار الحشيش، وتجار السوق السوداء، والنقط والعساكر والضباط...هذا شئ آخر، وعندما يسنده الحزب وتأييده السياسى يصبح الكرسى فى الجيب.

- وتصبح عضوا هاما جدا فى مجلس النواب.

- "والله خوته إنما اسم العائلة، وتحكم العصبيات.

- ولماذا تتعب نفسك إذا كانت لا تستحق؟

- لأ.انها خدمة عامة وهامة.

- وكم يريد منك.

- خمسة آلاف...ثروة!

- خمسة آلاف جنيه. "إن شاء الله ما حد"!

- ماذا أفعل؟ هكذا المصلحة العامة يا سيدى وخدمتها. هل أستطيع أن أتنحى؟ إنى فى هذه الحالة أتنكر لتاريخى!!

- يا شيخ؟! ومن أجل تاريخك تدفع خمسة آلاف جنيه.

- نعم. احتراما للنفس ومحافظة على مكانتى فى الحقل العام.

- يا سلام!! هذا جميل! جميل جدا!

- غير التكاليف الأخرى بعد النجاح، ومصاريف الدعوات والمجاملات والهدايا وإقامة الولائم.

- وكل هذا بماهية قدرها أربعون جنيها.

- بل بماهية قدرها ثلاثون جنيها.

ـ فقط!! تدفع خمسة آلاف جنيه لتحصل على وظيفة بثلاثين جنيه! وليست دائمة ..يا رجل اعقل واترك هذا اللعب. انه لعب عيال.

ـ والمركز..والكرامة..والخدمة العامة؟

ـ قل إنك تريد أن تكسب خمسين ألف جنيه مقابل خمسة آلاف.. أنا ساكت من الصبح حتى لا أخرج على قواعد اللياقة، لكنك زودتها، وظننت إنى أصدق أنك حقيقة تحرص على المركز والكرامة والخدمة العامة.

ـ وهذه هى غايتى الاساسية.

ـ ومكتبك الخاوى فى دمنهور عندما يصبح مزدحما بأصحاب المصالح كهذا المكتب. شئ ليس فى الاعتبار! وعندما يصبح لك كذلك مكتب فى اسكندرية يكتظ بالناس والقضايا، فهذا شئ لا يهمك فى المقام الأول! وعندما تقدم استجوابات بثمن، فهذا شئ يأتى صدفة وبلا ترتيب! وكل سؤال بعدد من الوظائف، وكل وظيفة، "بالشئ الفلانى"، وكل دعوة بمصلحة، وكل مصلحة ولها تسعيرة لا تقل وقد تزيد. وكل مقابلة بفائدة، وكل فائدة تترجم بربح معلوم! كل هذا لا يهم! المركز، والكرامة والخدمة العامة هى الأساس، وما عداها فروع، يا نائب الفروع!!

ـ على كل حال المبلغ كبير.

ـ والمكسب أكبر.

ـ فإذا حلوا البرلمان؟

ـ يبقى عوضك على الله، حتى فرصة ثانية.

ـ فإذا لم تأت الفرصة الثانية؟

ـ مع الداخلية تأتى. قد لا تأتى مع الحزب، لكنها تأتى حتما مع الداخلية والمباحث والأمن العام.

- فان تعذر هذا أيضا. أخسر المبلغ؟

- أقلب ...

- "يادى الكسوف"!

- لا يا شيخ؟! مخلص جدا. أنت فى منتهى الاخلاص. أنت صاحب مبادئ!

- لا لا .. المسألة مسألة الناس. ماذا يقول الناس؟

- يقولون : قلب! هل ستكون أول من قلب أو آخر من قلب؟!

- والمبدأ. والدعاية التى تذيعها عن التمسك بالمبادئ؟

- يا عم : تساهل. الناس أصبحت بلا ذاكرة. الناس أصبحت تنسى.

- وربما تتناسى!

- تنسى أو تتناسى. النتيجة واحدة.

- وضميرى.

- ... يا...خى!!



خسمة آلاف جنيه يا حاج غضبان، ثمن كرسى فى البرلمان!!

يعنى ألف وخمسمائة قنطار قطن، أو خمسة الاف أردب قمح، أو كذا مليون بيضة!! ربما تكفى بلدنا طول عمرها!!

وكل هذا ليقف الرجل بطوله وعرضه ويصيح تحت القبة.

يدفع كل هذا ليصيح.ويخطب.. ويكتبون عنه فى الجرائد أنه قال كذا، " وعاد كيت". يا "أخى إن شاء الله ما حد"!!

مجنون هذا مجنون!!

لكن هل هناك أحد مجنون؟!

الرجل الثانى قال له كلاما عجيبا، وهو على حق فيما قال.

ماذا يجعله مهتما بكرس البرلمان هذا الاهتمام؟ وماذا يجعله يدفع خسمة آلاف حنيه، ليكون عضوا، ماهيته ثلاثون جنيها فى الشهر؟ ثم هى قابلة للانقطاع فى أية لحظة؟!

يبدو أن الصياح والخطب والكلام العصبى، كله غطاء.

يغطون به ماذا؟

يغطون الخمسين ألف! الخمسة آلاف لابد من أن تلد خمسين ألف! على الأقل ليستطيع الرجل أن يدفع مرة ثانية، وثالثة، ورابعة إذا لزم الأمر.

.."وأنت مالك" يا حاج غضبان!



اسمع. هذه مناقشة أكثر طرافة :

- يا بنى ارجع الله يهديك.

- يا والدى انه كنز. هل هناك من يرفض الكنز؟

- يا بنى نحن لسنا من ثوبه ولا هو من ثوبنا.

- وهل كان هو من ثوب معالى الوزير، أو كان معالى الوزير من ثوبه.

- لكنه ابن ناس أغنياء.

- وأنت يا والدى، ما عيبك؟ أنت رجل محترم وغنى.

- تسمى الخمسين فدانا غنى؟

- نعم غنى. إلى جوار اسم الأسرة العريقة القديمة.

- ... ثم ماذا بين البائع والشارى؟ يفتح الله؟

ـ إذا كانت المسألة بيعا وشراء.

ـ وهى كذلك. ماذا هى؟

ـ لا يا بنى. المصاهرة شئ آخر. المصاهرة رحم ورحمة، يتواصى فيها الناس بالصبر وبالمرحمة.

ـ يقول لأ.. هو حر.

ـ وماذا نكون قد فعلنا؟

ـ أدينا الواجب. يمكن.

ـ ثم أنت.. أنت لا تزال تلميذا تنتقل من سنة لأخرى. بخلع الضرس!

ـ فإن رضى، فإن ذلك لا يهم. سأخرج من كلية الزراعة، مفتشا، مرة واحدة!

ـ لماذا يا بنى ...أهى فوضى؟

ـ نعم فوضى. سأكون زوج بنته. هل يرضى لزوج بنته شيئا أقل من مفتش زراعة ثم مدير زراعة، ثم مدير مصلحة.. وهكذا حتى أصبح وزيرا ... يا والدى اسمع كلامى. أنا سأنفعكم جميعا عما قريب ...

ـ النافع ربنا يا بنى.

ـ أعلم هذا. لكن ربنا قال اسع يا عبدى وأنا أسعى معك.

ـ والمهر يا بنى.. من أين لنا به؟

ـ نبيع فدانين. كثير؟

ـ والشبكة والحفلة.. إن خالها وزير الداخلية، هل يحضر أى حفلة، أم لابد من حفلة هامة؟ ومن أين؟

ـ نبيع فدانين. كثير؟

- ومصروف البيت. كيف ستعيش معك فى مصر. إلا تحتاج إلى مسكن فاخر وطباخ وخدم وحشم. من أين، حتى تتخرج ويوظفك مفتشا؟

- نبيع فدانين. كثير؟

- وماذا يبقى يا بنى لاخوتك وأخواتك؟ يا بنى الله يهديك، تعود إلى بلدنا حتى يرزقك الله ببنت الحلال.

- لا يا والدى. أنا أريد هذه. أنا رجل طموح. أنا عندى آمال كبيرة جدا.

- أمرنا لله يا بنى...وإذا رفض.

- نحاول ...نعمل كل جهدنا.

- فان رفض.

- "يبقى ذنبه.. على جنبه"!



وأخذ الحاج غضبان ينظر إلى العريس الطموح وإلى الذين معه. وكان يقول لنفسه وهو يتطلع إلى العريس : انه طالع لحماه، إذا صار حماه. طبعا. وهل حماه تزوج حماته، لأنها سيدة الكمال والجمال؟ أم لأنها بنت مدير الأمن العام؟

وكان يرد على نفسه قائلا : وهل كان مديرا للأمن العام يوم تزوجها؟ "خذوهم فقرا يغنيكم الله" كل واحد ونصيبه.

لكن يظهر أن هذا الولد ناصح. هى الدنيا!! بدلا من الشهادة، العروسة أسهل. ولماذا يتعب نفسه ويجهد عينيه، ويذهب لامتحان ويعود من امتحان، وشئ أمره يطول ولا ينتهى. يأخذها من قصيرها، ومرة واحدة يبقى مفتش زراعة!!

وأخذ الحاج غضبان يتطلع إلى والد العريس، وهو يراه خائفا مترددا، لا يريد لابنه هذا الطريق.

وقال فى نفسه : رجل جبان خائب! هل سيقطعون رقبتك؟ إن نفعت! والله أصبحت والد المفتش ثم المدير ثم من يدرى. ربما يصبح هذا الخائب وزير زراعة. فان لم تنفع! ماذا ستخسر؟!

لكن الرجل يفكر فى موضوع الفدانين. كل شئ بفدانين المهر بفدانين، والشبكة والحفلة بفدانين! والعيشة اللازمة واحدة مثلها بفدانين! ثم من يدرى! والأولاد الآخرون، ماذا يتبقى لهم؟ وهل سينفعهم أن أخاهم تزوج بنت أخت وزير الداخلية؟ ثم ماذا؟ وعندما يطردونه من الوزارة، هل تعود الأرض؟ عندك حق يا خال وأنت تفكر هذا التفكير. عصفور فى اليد خير من عشرة فى الغد.

وبينما يأخذ ويعطى، ويعيد ويزيد، إذا بحركة غير عادية تقلب الهدوء الذى حوله إلى نشاط وصخب.

سعادة البك وصل. سعادة البك جاء.

هو إذاً أقبل. الصديق القديم العظيم، الذى تقوم علاقتهما على الثقة والاخلاص.

وعندما دخل المكتب التف حوله الناس، وتزاحم حوله أصحاب الحاجات، وأخذ اثنان من الرجال يفسحان له الطريق ويصيحان فى الناس أن يتركوا سعادة البك يمر.

لكن سعادة البك لا يمر. يبدو انه يجب أن يحاط بالناس من أصحاب الحاجات.

والناس عندما تراه يدفع الرجلين لينحيهما بعيدا فلا يكون بينه وبين الناس حجاب، يتصايحون بالاعجاب به والدعاء له، بالسعادة وطول العمر.

ويأخذ هو طريقه بينهم، يقف عند كل منهم يتبين حاجته، ويتحدث معه عنها.

- أنت يا شاويش. اطمئن. أنا كلمت سعادة الحكمدار وسينقلك إلى الدلنجات.

- وأنت يا أومباشى المسألة محتاجة لبعض الوقت. اصبر قليلا.

- أما أنت يا حضرة اليوزباشى، فالمسألة خرجت من يد سعادة المدير. اتركها بعد أن ينتهى مجلس التأديب، وربنا قادر على كل شئ.

وكان الضابط والعساكر الذين يسمعون هـذا الكلام يقفون أمامه كأنهم فى استعراض ويحيونه تحية عسكرية، وينصرفون كـأنما هم خارجون من طابور تدريب. وعندما ينتهى من رجال الضبط والربط، يلتفت للشعب!

ـ وأنت حكايتك معقدة. كلمت وزير المعارف. الرجل معذور معكم، كلما أنصف طائفة، طلعت له طائفة. على كل حال ستكون المسألة موضع نظره.

ـ وحضرتك تأتى إلى بكلام، وأسأل فأجد كلاما آخر. أنت تهمل وتتغيب وتبعث، ثم تشكوهم إذا لاموك. يا رجل. على كل، التحقيق حفظ، وأخذت علاوتين.

ـ وأنت يا ست. لماذا لم يتقدم ابنك إلى المدرسة. المدرسة الحربية لها مواعيد. تظنين إنى قادر على تغيير المواعيد؟ لقد قبلوا دفعة هذا العام وانتهى الأمر. السنة القادمة إن شاء الله.



وعندما وصل إلى الحاج غضبان تهلل وجهه وهو يفتح ذراعيه له ويعانقه، ويقول :

ـ وأنت! أين كنت؟ أوحشتنا والله يا رجل. اذهب أنت إلى المكتب وانتظرنى حتى أفرغ من ذوى المصالح والحاجات.

وذهب الحاج غضبان يتوكأ على عصاه، إلى حجرة المكتب.

وعندما فرغ سعادة البك، جاءه متهلل الوجه مشرقا، يكاد الدم أن يقفز من وجنتيه. وقال له :

ـ وكيف حالك يا حاج غضبان؟ كيف حال الدنيا معك؟

قال الحاج :

ـ كل شئ على ما يرام. مبروك انوزارة لمعالى الباشا.

قال فى تواضع :

ـ يا سيدى ... الله يبارك فيك. ها أنت ذا ترى النتيجة. الناس لا ترحم يا حاج.

قال الحاج :

ـ الناس للناس يا سعادة البك، ومن قدم السبت، لقى الاحد قدامه.

قال سعادة البك :

ـ والله ما وراءها إلا التعب! على كل حال حدثنى عن أحوالك أنت.

وحكى له الحاج غضبان، انه وقع فى غرام جديد، فأخذ سعادة البك يضحك ملء شدقيه، وأبدى اهتماما شديدا، وهو يسأله عن التفصيلات.سنها ولونها وكسمها وعودها وتجاربه معها، وكل شئ يتعلق بها. وبعد أن عرف عنها كل شئ قال له فى ود : وآن هل من خدمة أقدمها لك؟ إذا كنت تريدنى أن أتزوجها لك الأول، فلا مانع، طالما أنها كما تصف، كالبالوظة! وصاح الحاج غضبان يقول : لا لا..أعوذ بالله بالوظة!! وقال سعادة البك : لم لا؟ قال الحاج غضبان : القشدة نعم. الشهد نعم. المهلبية لا مانع. إنما البالوظة لا. لا.

ومرت هذه، وقال الحاج غضبان لصديقه القديم : ستظل شقيا طول عمرك!! أقول لك أنها فلاحة ومن بلدنا وأرملة وثكلى، تقول تتزوجها الأول. يا رجل كفاك!

وأراد الحاج غضبان أن يطمئن على صديقه فقال له : على فكرة، ماذا تعمل فى زوجاتك..الشفوى؟! المسألة يظهر صعب الآن. ضاق عليك الخناق يا بطل!

قال صديقه فى استغراب : لماذا ضاق الخناق؟ قال فى سذاجة : هذا هو المكتب على آخره. كيف تتصرف فى هذا الزحام؟

وضحك صديقه من شدقيه مرة أخرى، ثم قال له : وهل يحلى إلا فى الزحام يا عبيط؟ بالعكس، إن الخناق اتسع وما ضاق! وبدلا من أن أبحث، وأتعب وأدبر فقد أصبحت الدنيا "هيصة". كله تحت أمرى. أى فندق تحت أمرى! أى بيت!

وفتح الحاج غضبان فمه فى بلاهة وهو يقول :

ـ آه...كـده!! وأنا الذى كنت أظن أن الفـرص ضـاعت من بين يديـك. والحقـيقـة كنت شمتانا فيك يا صديقى العزيز!! هل ما عملته بسيط يا أخى. كفاك! انه يكفى بلدنا كلها، فهلا يكفيك.

وقال له وهو يغمز له بعينيه : يموت الزمار.

وأتم الحاج غضبان المثل قائلا : "وصباعه بيلعب!"

وعاد يتحدثان عن محمود، وكتابه حقه بيعا أو وصية. هذا شرط العروس.

ونظر إليه صديقه القديم متعجبا وقال :

لكن من أين عرفت؟ لابد أنك أنت الذى قلت لها.

قال : أبدا والله. لقد فوجئت بذلك مثلما فوجئت أنت.

قال صديقه : ألم تقل لأحد على الاطلاق.

وصاح وهو يتذكر : واحد فقط حكيت له. سيد زوج بنتى.لكن ما علاقة سيد بأم الشحات؟

قال صديقه : بل السؤال هو ما مصلحة سيد زوج بنتك فى أن يحكى لأم الشحات إن كانت قد عرفت عن طريقه؟ شئ واحد يعينه من وراء هذا أن يثيرها عليك، لتبعد عنك، فيضمن أن الميراث مقصور على الولد والبنت، ولم يخطر بذهنه أنها ستطالب بحق الولد المطرود، والا ما كان قد ذكر لها شيئا.

قال الحاج غضبان : لقد فاتنى أن أفكر فى هذا، لابد انه سيد، الله يخيبه.

قال سعادة البك : على كل حال هذه مسألة غريبة، والمهم أن بختك فى رجليك.

وضحك الحاج هذه المرة كما يضحك صديقه ...من شدقيه!!

وقال لصديقه : على كل أنها ورقة، أضعها فى عينيها حتى ترضى، ثم يكون بعد ذلك ما يكون.

ونادى سعادة البك كاتبه، وكلفه أن يتولى أمر الحاج غضبان بنفسه، وأن يعرفهم فى المساحة والمحكمة أن الموضوع موضوعه هو، ليتم حالا قبل أن يسافر.

وخرج الكاتب، لينتظر الحاج غضبان فى حجرته، وليكون تحت أمره، بمجرد أن ينتهى من سعادة البك.

وبينما الحاج غضبان يشكر صديقه القديم العزيز، ويتمنى أن يهنئه فى المرة القادمة بوزارة له هو...إذا الباب يفتح ليدخل منه رجل فى وسط العمر، ومعه شاب صغير، فى زى طلاب مدرسة البوليس.

وكان يبدو على الرجل انه سعيد وفرحان حتى ليكاد يطير من فرحته.

أما الشباب فكان جميل الوجه، حلو التقاطيع، يبدو عليه الذكاء وتظهر عليه الفطنة.

وأسرع الرجل إلى سعادة البك يسلم عليه فى انحناء، ويشد إليه يده كمن يريد أن يقبلها شكرا وعرفانا بالجميل. ثم يستدير إلى الشاب، فيجده مشدود القامة، يحيى سعادة البك تحية عسكرية رشيقة.

قال سعادة البك :

ـ ما شاء الله... ما شاء الله. سيصبح ضابطا هماما شهما.

قال الرجل :

ـ كله منك. من أفضالك. الله يخليك ويخلى معالى الباشا.

ونظر سعادة البك إلى صديقه الحاج غضبان وقال له :

ـ إن شاء الله تنجب لنا ولدا من العروس الجديدة كمحمود..وأشار إليه وهو يقول :

ـ محمود هذا بن الأسطى محجوب. والاسطى محجوب عمل معى سنوات طويلة وكان مثال الأمانة والاستقامة، وقد قبل محمود فى مدرسة البوليس كما ترى.

ونظر الأسى محجوب إلى الحاج غضبان، وهو يقول :

ـ كلنا خدام سعادة البك. أنا وزوجتى صباح.

وأشار إلى ابنه وهو يبتسم فى فرح وأضاف : وحضرة الضابط محمود ابننا.

..وخيم صمت قاتل.

سعادة البك لم ينطق. و الحاج غضبان لم ينطق.

..ونظراتهما عليه : محمود محجوب!!

□□□

٦

كانت الطبيعة يومها سخية إلى حد البذخ.

الجو صحو، والسماء صافية، والشمس تضئ فى غير قسوة، والخضرة تمتد فى غير نهاية..وصوت الساقية كأنه حداء.

وخيل إليها من مكانها عند الضريح، أن كل شئ يدور هنا همسا، احتراما للطبيعة وتقديرا لكرمها.

حتى هذا العصفور الذى اعتاد أن يزقزق فوق فروع الشجر زقزقة صاخبة، قد أخذ هو الآخر يهمس! يحرك منقاره حركة خافتة رقيقة كأنما يخاف أن يعكر هذا الصفاء!

الضفادع أيضا أشفقت على هذا السكون البديع كأنه العبادة، فابتلعت نقيقها فى جوفها!

كل شئ قد ألقى السمع، وهو شهيد.

وتعانق غصن وغصن، وأحاط كل منهما خصر أخيه فى حنان.

وتلاقى فرع وفرع، وتشابكت منهما الأيدى فى ود وتراحم.

وأخذت أطراف النخيل السابق، تفسح كل منهما للأخرى مكانا من ثغرها، تعبر فيه بالقبل، عن حبها. عن عشقها. عن وجدها.

ويصلها خرير الماء فى الجداول والقنوات، كأنه الزفرات.

..سخية هذه الطبيعة.

هذه الطبيعة اليوم سخية إلى حد البذخ.

والشيخة تفيدة تحب هذا السخاء، وتخافه. إن الطبيعة تعطى أجمل أوقاتها، لكن أسوأ ما فى ذلك أنها تطوى النفس فى رداء من الذكرى، وتعيد لها أحلى ما فى الذكريات من أيام.

نعم وهذه هى تذكر كل شئ ممتع ورقيق مر بها.

زوجها الرائع الجميل، وكيف كان يطوقها بحنان كهذا النسيم! وكلماته الهامسة بالنحوى، تداعب أذنيها كالقبل! بل والقبل وما فيها من خدر كأنها الرقى، دافئة مهدئة بديعة!

وتتحسس الشيخة تفيدة، دون أن تشعر، شفتيها!

وتكاد تتحسس بقية مواقع كان جلال يتحسسها، أو يداعبها، أو يعتصرها!

وتقول فى نفسها، وابنها على رجليها : وبعد فى هذه الكهرباء.. لذيذة وقاسية!

..كنا هكذا كأننا هذا النخيل العالى. نعم كنا هكذا، نشد قامتنا فى كبرياء، ونستجيب للريح، نروح معها ونجئ، لنتلاقى فى قبل، أحلى من العسل!

نعم وكنا هكذا كأننا هذا الخرير، نتهامس بالشكوى، بلا شكوى، أن ليس لنا شكوى! فيصبح الهمس مناجاة، وصلاة، ودعاء.

..ولم تعد الشيخة تشعر بشئ.

تاهت عيناها فى الفضاء الحالم، غير المحدود.

وغرقت مشاعرها فى بحر واسع، بلا قاع ولا شطآن، لكنه آمن.

وذهبت إلى بعيد، مع رحلة الأبد، تحاول أن تنفذ من خلال الغيب إليه.

وبينما هى كذلك، إذا هى تفاجأ مفاجأة لم تكن لها على بال. أبدا ولا حسبت أن ذلك سيحدث ذات يوم! أنها تحاول أن تعرف. تسأل "محروس" لتلتقط منه ما عساه يكون قد

التقطه هو الآخر، من أمه أو من جدته. تسمع إلى حديث عمها "أبو المكارم"، عما يصل إلى أذنيه من حوار حول الساقية. ولم يخطر ببالها أبدا أن تأتى إليها الأخبار، ماشية على قدميها، تسعى إليها، وتلقى بنفسها بين يديها!!

بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم اجعله خيرا! حلم هذا أم علم!

هل هو..هل هذا القادم يتوكأ على عصاه فى هوينى وعلى مهل، هو الحاج غضبان؟!

.وهى معه. تسير إلى جواره يستند إليها بين الحين والحين.. هل هذه هى أم الشحات؟!

الاثنان معا؟.يسيران معا؟.ولا يخشيان، ولا يخافان؟.هل يا ترى يعلمان أم لا يعلمان، ما قد أصبح حديث القرية كلما طلع صبح أو أمسى مساء؟!

وإلى أين يذهبان؟ إلى أين هما ذاهبان؟

..ويقتربان على طريق الضريح. ويميلان إلى يمين...إلى الضريح!!

وبدأت أنفاسها تتلاحق فى انفعال، كأنما هو كابوس!!

قد يكونان يقصدان إلى زيارة الضريح، أو الموتى. إن له هنا أخاه الحاج سلطان و "أبو سريع"، ومن قبله أباه وناسا من ذوى قرباه، نساء ورجالا، أهمهم جميعا الحاجة زهرة، صاحبة الجرن العتيد! أما أم الشحات، فإن لها الشحات وهو عندها بكل هؤلاء أو يزيد.

لكنهما لا يعرجان على المقابر. !نهما يسيران فى خط مستقيم. إن وجهتهما هذا المكان ...

...وجهتهما أنت يا شيخة تفيدة.

واضطربت، وارتبكت، وانقلب سخاء الطبيعة حولها إلى ضيق، حتى أحست أنها تختنق.

ودارت بها الأرض، ولفت فى رأسها الدنيا، وأصبحت ترى الأشياء مقلوبة كالسكران، أو المسطول عباس.

وخطر ببالها كل شئ، إلا الشئ الوحيد الذى أقبلا من أجله.

أتكون أم الشحات قد أقنعته أنها كبرت، وانها الان جدة، وأن مكانتها ومكانته تفرض عليهما إلا يمضيا فى هذا الطريق؟

أتكون قد اقترحت عليه مثلا أن يطلبها هى، بدلا منها؟ الشيخة أصغر وأحلى، وأصبى، وليس لها إلا ولد واحد، وقد ذهب عنها زوجها، وأصبحت محتاجة إلى من يرعاها؟ وهى ليست من البلد، ولن تتعرض لحرج إذا هى فعلت ولن تتعقبها ألسنة الناس بكلام كثير؟

أيكون الحاج غضبان قادما لخطبة؟ وهى معه خاطبة؟

وشعرت على عينيها بغشاوة، وبدأت تستعد لمقابلة هذا الرجل الفاجر العجوز بما يستحقه.

..أنا أصبح زوجة هذا الرجل؟ بعد جلال، الجميل القوى الجرئ؟

أنا أدفن صباى فى هذه التربة، وأنا على قيد الحياة؟

ولم؟ لو إنى أحبه لهان الأمر، أما وأنا لا أطيقه ولا أحتمل منظره الكريه فالأمر إذاً اغتصاب وارغام وسرقة. لكنى سأعرف كيف أربيه!

أنا سأربيك يا حاج غضبان. لم تربك الأيام والليالى، ولم يربك حتى شبل العظيم، لكنى مديحة البسيطة الساذجة...

ولم تنس أنها أنثى، فأضافت فى هواجسها إلى أوصافها تلك ..والحلوة والفاتنة، ذات الصبا والاغراء.

ثم عادت تستأنف ما فى طياتها من الهواجس، فقالت أنها ستربيك يا حاج غضبان!

ومن يدرى قد تكون نهايتك على يديها.. هذه الضعيفة الغريبة! هذه الشيخة ذات الطرحة البيضاء، والمسبحة، والمبخرة!

سيقف لك أولادك وأولاد أخيك؟ نعم، أعلم هذا.

سيقف لك أصهارك وأقاربك؟ نعم، وهذا مفهوم.

سيقف لك أهل البلد..كل أهل البلد؟ ليكن، إن ذلك فى الاعتبار.

..يا بلد! أنت صابرة على الذل! وساكتة على المستبدين! وصامتة والدنيا حولك تموج وتصيح! أنت يا ساكنة ومستكينة! يا مسلمة ومستسلمة! سأعلمك.. كيف تكون الثورة على الذل، والتمرد على الاستبداد، والعصيان لكل أصحاب المصالح والأهواء. سأعلمك كيف تقولين مرة لا...أن كلمة نعم قد أضرت حقلك. قولى لا..يا بلد قولى مرة لا...صيحى فى وجههم يا بلد أنك تعرفين وتدركين وتقدرين، تعرفين مصلحتك، وتدركين أمورك، وتقدرين حاجتك.

الا تستفيدين من الدروس التى تمرين بها يا بلد!

ألم يأت ذات يوم صبى صغير، فى يده سلاح، وبين جنبيه قلب شجاع، فأحنى له هؤلاء المستبدون رءوسهم؟ أنسيت "شبل" يا بلد؟ وما شبل. ماذا كان؟ لا شئ إلا انه صيحة حق، لم تخف من وهم مفروض. وصوت جرئ قال لا ...سأنتزع حقى بيدى. يا بلد استفيدى! قولى مرة لا ...

وكانا قد اقتربا، حتى كادا يصبحان معها جنب الضريح.

وظهر لها وجه أم الشحات، ولم تكن قد أطالت النظر إليه.

ورأتها كما لم ترها من قبل، بوجه مقلوب! وسحنة مشبوهة!

أهذه حلوة هذه؟ مساكين رجال هذه القرية! ربما! أنها ليمونة فى بلد "قرفانة".

.وشعرت أن صوتا فى داخلها يصيح بها : إذاً الرجل على حق. لماذا يترك هذا العسل ويأكل "مش" !! وشهقت شهقة، خشيت أن يكونا قد سمعاها وقالت لنفسها : ومإلى أنا؟! عسل، أو بصل، أو ما يكون. مالى أنا؟

على أنها أخذت تنظر إلى أم الشحات فيما يشبه العتاب، وودت لو كانا وحدهما، لتقول لها : لماذا تعمليها فى يا أم الشحات؟ أنت امرأة مثلى، وأرمل مثلى، والدموع تجرى على خديك، مثلما تجرى على خدى الدموع؟ هذه النكبة تزيحينها عنك أو لا تزيحينها. هذا شأنك. أما أن تزيحيها على، فهذا حرام. إذا كنت جدة، فأنا أم. ولو إنى أردت الزواج، فقد كان أمامى من ثوبى وسنى والربع الذى ولدت فيه.

يا أم الشحات! حرام عليك يا أم الشحات، تلقين بى فى هذا الهلاك؟

وكانا قد وصلا إليها، فقرآها السلام، فردته لهما بأحسن منه.

وجلس الرجل وتربع، وجلست أم الشحات فى مقابل الست الشيخة، ونصف وجهها يطل على الرجل العجوز، والطرحة السوداء، تغطى بعض وجهها، وتترك البعض الآخر، تلتهمه عينا العجوز المتصابى.

وكانت هذه أول مرة تستقبل فيها أكبر أعيان البلد إلى جوار الضريح.

وبعد أن تحركت الشفاه بعدة فواتح لسيدى الذكيرى وللموتى من الأهل والأقارب.

قال الحاج غضبان : أحكى لها يا أم الشحات.

وقالت أم الشحات : احك أنت.

قال الحاج غضبان :

يا ست الشيخة إنى أتمنى على الله أمنية واحدة، أن تكون أم الشحات من نصيبى، بل أن تكون آخر نصيبى.

وتبخرت كل ما راود الشيخة تفيدة من الأوهام !! وبعد أن كانت تشحن نفسها لمعركة، شعرت بشئ من الفراغ! كأنما سحبوا شيئا من خوفها، ليتركوه أجوف!

ومرت بها لحظات لا تدرى ما هى، ولا ماذا كانت تعنى لها؟

إن كل ما بنته من استنتاج قد تهدم. وقع على رأسها، فدارت بها كالدوامة!

أكانت تؤثر - وإن أنكرت - أن يخطبها، لتبدأ معه ومع نفسها، صراعا طويلا؟

أكانت تؤثر - وان أنكرت - أن يتقدم إليها، يطلب يدها، بدلا من أم الشحات لتشعر بأهميتها، ولترفض فى كبرياء؟!

حتى هذه الجثة التى تبدو أمامها متهالكة ممزقة!

حتى هذه الكتلة من اللحم والشحم، التى ألبسوها ثوب رجل!

حتى هذا الحاج غضبان، لا يطلبها؟

.وهل كانت تنتظر أن يطلبها الطالبون، ويخطبها العرسان؟

هل كان هذا قصدها؟ وأنكرت على نفسها أن تفكر هذا التفكير، وأن يمر ببالها مثل هذا الخاطر.

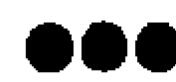
انها شيخة جليلة، مهيبة، يتبرك بها الناس.

..لكنها انسانة من دم ولحم، ككل الغوانى، يسرهم الثناء!

وقد يسرها الثناء، حتى ممن تكره منه الثناء! وقد يطربها الطلب حتى ممن يصيبها طلبه بغثيان !

نساء...هن نساء!!

على أن الشيخة تفيدة، سرعان ما استعادت نفسها، وأخذت تستمع إلى القصة، من صاحبها : الحاج غضبان.



نعم يا ست الشيخة. هذه أمنية عمرى، وليتها تحققت منذ سنين، لكنه النصيب. كل شئ نصيب، حتى الوقت نصيب يا ست الشيخة.

وكادت تضحك فى نفسها، وهى تقول لنفسها : الله! انه فيلسوف.الحاج غضبان فيلسوف!

واستأنف الحاج غضبان يروى :

لكن الست أم الشحات يا ستى، طلبت منى طلبا، اعتبرته شرطا لا تقبل الزواج بدونه، وهو خاص بأرضى وممتلكاتى.

لست أدرى يا ست الشيخة ماذا ستظنين بى عندما تعلمين أن لى ولدا من زواج عرفى غير مسجل. هذا سر لا يعلمه أحد، لكن أم الشحات عرفته، لا أدرى ممن. وقد اشترطت أن أكتب للولد نصيبه الشرعى فى أرضى وأملاكى. لغز والله يا ست الشيخة. لغز محير. ما شأنها هى، لا أدرى. على كل حال لقد طاوعتها وكتبت له نصيبه، وجئت بالأوراق الرسمية. بقيت مشكلة. أين أضع هذه الأوراق؟ انهم لو اطلعوا عليها فأنهم سيقلبون الدنيا رأسا على عقب. ستصبح البلد حريقة. وقد فكرنا أن نودع هذه الاوراق عندك، فلا يطلع عليها أحد، وتظل فى أمان، حتى يقضى الله أمره، فتسلمينها لصاحبها. لكن أرجوك إلا يعلم بهذا أحد، والا أقاموا على الدنيا. إنى أعرفهم وأعرف أن ذلك سيحنقهم حنقا شديدا.. وسيحنقهم على أم الشحات، إذا عرفوا أنها هى السبب، وقد يؤذونها أشد الأذى.

واستأنف الرواية فقال :

وقد نفذت ما طلبته الست العروس! وسجلت وأتيت بالأوراق الرسمية. وجئنا إلى المكان الوحيد الآمن، الذى يصون السر، لنضع هذه الوديعة عندك.

وقالت الشيخة :

هذه ثقة غالية يا عمى الحاج. لكن إلا يجوز أن يسترد الله وديعته عندى.. فجأة؟

وصاحت أم الشحات وهى تشهق شهقة صادقة :

يا شيخة تفيدة، الشر بعيد يا اختى. أنت صبية صغيرة. ربنا يخليك للبلد ولسيدى الذكيرى، وللعريس الحلو الصغير أبو عوف.

لكن الشيخة ظلت تقول :

من يدرى؟ أعمار يا خالة. والاعمار بيد الله.

وقال الحاج غضبان :

فأن حصل فأن ذلك يكون نصيبه! كل واحد يأخذ نصيبه! ربما تكون ارادة الله إلا يأخذ شيئا!

وصاحت أم الشحات :

اسمع يا حاج. ما معنى هذا الكلام؟ والله انك تشككنى فى هذه الأوراق يمكن تكون جرائد قديمة وضعتها فى هذه اللفة، وتقول أنها هى!..والنبى تفتحينها يا ست الشيخة وتقرئينها. والنبى وحياة سيدى الذكيرى.

وقال الحاج غضبان كالطفل :

افتحيها. والله تفتحيها.

وفتحتها، فوجدتها أوراقا مسجلة فى المحكمة، توصى ببعض أرضه وأملاكه لابنه محمود.

قالت الشيخة :

لأ..لأ..الأوراق مضبوطة يا خالة. مسجلة وأميرية وكاملة.

وأضافت تقول :

على كل حال. ربنا يهنيكم ويسعدكم، ويطيل عمركم، ويرزقكم بالصبيان والبنات فى التبات والنبات كما تقول الحواديت والحكايات.

وضحك الحاج غضبان، أما أم الشحات، فأخذت تمط شفتيها عجبا وسخرية.

وقالت الشيخة :

إن شاء الله مبروك. هل هناك من خدمة تانية؟

قال الحاج غضبان :

لأ.. الباقى بسيط. إن العروسة عقلها خفيف. تخاف من حريمى وأولادى. إن لى زوجتين، أستغفر منهما الله، كالذنوب. واحدة مقددة اسمها عيوشة. والثانية مبططة اسمها جميلة البالوظة. وتحسب لهاتين المصيبتين حسابا! تظن أهلى وأولادى سيضيقون بها، وسيسببون لها المشكلات. لا تريد أن تكون كتفيدة. هل تعرفين تفيدة يا ست الشيخة ...تفيدة؟

واستدرك الرجل فقال :

ياه!.. لم أكن أعلم أن اسمك أنت أيضا تفيدة؟ هل تعرفين حكاية تفيدة تلك، وقصتها؟ هل قالها لك أحد؟

وقبل أن ترد انطلق يحكى لها أن أخاه الحاج سلطان تزوج من بنت خفير من خفرائه اسمه أبو عوف، وكانت صغيرة وحلوة. كانت أصغر من أولاده بكثير. لكن زوجاته وأولاده أروها الويل!.. أى والله! على كل حال. لقد رحلت. ذهبت وانتهى الأمر.

وختم الحاج غضبان روايته بأن أم الشحات لا تريد أن تلقى فى بيتى مثلما لقيت تفيدة فى بيت أخى سلطان. لكنها تنسى الفرق الكبير بينها وبينها. الثانية كانت خدامة. أقل من خدامة. لكن أم الشحات ست، ولا كل الستات. والثانية كانت صغيرة وجاهلة. لكن أم الشحات. يا سلام عليها وعلى عقلها وجمالها. على كل حال، سنجد حلا.

وبينما أخذ يضحك، أخذت أم الشحات تنظر إليه فى كثير من الاشمئزاز. أما الشيخة تفيدة، فقد شردت بخواطرها فى قصة سميتها وحماتها الغريقة الشهيدة تفيدة.

وعندما هم الحاج غضبان وأم الشحات بالانصراف كان عدد من أهل القرية قد أخذوا يتوافدون على القرافة، وعلى ضريح سيدى الذكيرى، يتظاهرون بالزيارة، وهم فى الحقيقة يرقبون ويراقبون. إن الأخبار انتشرت فى كل مكان من القرية والحقول. وعندما

شاع أن الحاج غضبان وأم الشحات قد ذهبا إلى ضريح سيدى الذكيرى، وانهما اختليا بالشيخة تفيدة، انقسمت القرية إلى فريقين، فريق مع أم الشحات وفريق ضد أم الشحات.

قال الفريق الأول إن المرأة فجرت. نسيت قاتل ابنها، فذهبت معه إلى قبره! لا تستحى! ولا تخاف! ما هذه الجرأة؟

قال الفريق الأول أن المرأة فجرت. نسيت قاتل انبها، فذهبت أن يغتصب أرزاقنا، ومحاصيلنا، وأموالنا.. ويغتصب اليوم أم الشحات. المرأة مغلوبة على أمرها. إما هذا، أو الطرد من رحمة الله. ألم يعملها من قبل؟ ألم يطردها ويجرح شرفها بالادعاءات والاتهامات الباطلة المزيفة. كل شئ عنده مزيف. حساباته مزيفة وادعاءاته مزيفة. ماذا تعمل المسكينة، وليس لها مثل قوته وعصبيته؟ تلهيه وتتزوجه لتحتمى منه وتحمى أحفادها من شره. هل استطاعت تفيدة أن تقول لا؟ لقد قتلوها وقالوا لأبيها أنت قاتلها، فلم يستطع أن يخالف ما قالوه حتى رحل. ربنا معك يا أم الشحات فى محنتك. ربنا ينجيك منهم يا أم الشحات.

وعندما أخذت القرافة تعج بالناس، منهم من أقبل من طرقات القرية وأزقتها، ومنهم من أقبل من الحقول، أو من عند الساقية.

حتى النساء توافدون، وأخذن يدرن حول قبور أقاربهن، وعيونهن مشدودة إلى الجمع الصغير الجالس قرب الضريح.

وأخذ الوقت يمر بطيئا على الجمع وعلى الناس.

الحاج غضبان يتطلع حواليه ويهز رأسه فى عجب.

والأهالى يضيقون عليه الخناق دون كلام، ويحاصرونه بعيون تائهة لا تعرف شيئا مما يدور.

والشيخة تفيدة ترقب فى حذر، وشفتاها تتحركان بالتسبيح والدعاء، وقد أخذ قلبها يخفق كأنما تخاف أن يحدث مكروه.

وتجمع الناس فى ضريح سيدى الذكيرى.

ثم خرجوا من الضريح وتشاغلوا بغير شاغل.

وجلس بعضهم القرفصاء حول الضريح، وعيونهم على الجمع الصغير.

وخلفهم وقف آخرون يرقبون.

ولم يطق الحاج غضبان هذه المراقبة، الجريئة غير المهذبة أو المستحية، فصاح فيهم يقول :

ما هذا؟ ماذا تريدون؟ ما هذه النظرات يا بقر ربنا؟

ولم يرد عليه أحد، ولم يتحرك منهم أحد، ولم يغض منهم الطرف أحد!

وفقد الرجل اتزانه فقال :

رجل وامرأته، مع شيخة الضريح! أين الحياء؟

.وبينما أخذ كل ينظر للآخر فى تعجب مذهل، كان صوت أم الشحات ينطلق يقول فى وضوح :

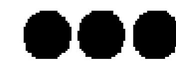
امرأته! اسكت قطع لسانك. أنا امرأتك أيها الرجل؟!

ووقف الجمع، وأحاط به وبها فى ترقب.

ومضت أم الشحات تقول للجمع المحتشد حولها :

هذا الرجل يتابعنى ويتعقبنى، بالرجاء والاستجداء. يريد أن يتزوجنى. وأنا أشهدكم إنى لا أقبله ولا أطيقه، لكنى خفت منه إذا صدمته أن يؤذى أولاد ابنى. رجل فاجر مجنون، حتى وهو يموت، يريد أن يملأ عينه الفارغة بسمعة واحدة شريفة نظيفة مثلى. لكن لا. لا يا حاج. إن زوجى بعد الحاج محروس كان ابنى الشحات، ولما مات الشحات صار لى بعده ثلاث أزواج، هم أولاده ربنا يطيل عمرهم. هل تسمعون؟ كونوا معى، فإنى أخاف منه ومن غدره. إن كان على، فلا يهم. المهم محروس وشبل وتوفيق. اشهدوا يا أهل البلد، اشهدوا.

وبينما أخذ الأهالى يحيطون أم الشحات بنظرات الاعجاب والاكبار، فوجئوا بالحاج غضبان يرتمى بينهم فاقد النطق، بلا حراك.



وتمضى الأيام، والحاج غضبان طريح الفراش، مشلولا لا يتحرك ولا يتكلم. وقد احترمت القرية مرضه، فسكتت عنه، وابتلعت سوءاته فلم تتناولها بكلام.

أسرته هى التى مضت تتناوله بالتجريح، واللوم، فى غير اشفاق.

كانت الأسرة ثائرة عليه غاضبة منه منكرة لموقفه المفضوح، وعلى الأخص بعد أن صار سبة، نزلت بمقام الحاج غضبان فى نظر أهل القرية إلى هذا الحد.

لكن الأسرة المتغطرسة لم تنس أن تلقى اللوم على أم الشحات.

ـ سحرته المرأة الفاجرة اللعوب.

ـ يا ناس لا تظلموه. اسألوه قبل أن تتهموه.

ـ وهل أبقى مجالا لسؤال؟ لقد أنكر بيته ومكانته، وأخذ يستجديها!

ـ يتراخى على هذه الصورة القبيحة؟!

ـ ولا حكايات جحا.

ـ تماما مثل جحا.

ـ بل هو جحا.

ـ كسفنا الله يكسفه.

وعندما كانت القرية تسمع أفراد أسرته يرددون هذا عنه، كانوا يتشجعون فيبدون رأيهم فيما حدث دون حرج. بل لعلهم كانوا يشعرون أن ذلك مما يسر أفراد الأسرة فأخذوا يسرفون فيه إسرافا كبيرا ويقولونه علانية، عند الساقية، وعلى مصاطب القرية، وفى حواريها.

بل ولقد سرى فى وهم القرية، انه بقدر ما يسرف الناس فى السخرية من الحاج غضبان، بقدر ما ترضى عنه الأسرة، والعمدة، والأعيان!

ان أهل القرية أذكياء، لكن قد يخدعهم ذكاؤهم فى بعض الأحيان.

وقد خدعهم السادة الأعيان، وحسن ظن أهل القرية فى صدق ما يقولون.

وأحس حضرة العمدة أن أهل القرية "زودوها"! وانهم يسخرون من الحاج غضبان، وغدا يسخرون من الشيخ سيد. وبعد غد من ممتاز أفندى، ثم من يدرى!

صحيح الحاج غضبان أخطأ. لكن هذا شئ، وترك المسألة على هذه الصورة شئ آخر. إن أهل البلد سيستهينون بعد هذا بالأسرة كلها، ولن يقتصروا على مخطئ أو مسئ. الكل سيصبحون عندهم سواء.

وجمع العمدة شيخ البلد والأعيان وقال لهم فيما يشبه النذير :

والله ما أسمع أن واحدا من أهل البلد يقول حرفا عن عمى الحاج غضبان لتكونن مصيبة فى هذه البلد. المسالة صارت سهلة على لسان كل من يساوى أو لا يساوى، حتى أن عمى الحاج غضبان قد أصبح هو النكتة المستملحة فى أفواه الحثالة والصعاليك. هلا فكرتم يا حضرات؟ من هو الحاج غضبان؟ صحيح أخطأ وانزلق. لكن من هو؟ انه هو عمى وعمكم.انه أكبر أفراد عائلتنا. انه بدل أبى الحاج سلطان. لو أخطأ، فعلينا أن نداری خطأه. ولو أساء فعلينا أن نمسح أساءته. نتركه يصبح مضغة فى أفواه الناس، كما ترون. وحياة النبى، ومن "نبى النبى نبى"، ما أسمع كلمة واحدة لتكونن واقعة سودة فى البلد، عليكم وعليهم. أنتم مسئولون. أنتم أعيان وسادة وكلكم مسئولون. فاهم يا شيخ البلد. أنت أيضا شيخ خفر بالنيابة وأنت إلى جوار هذا صهره وزوج بنته. تقبل هذا على حماك وعمك؟ هل تقبل؟ وأنتم كلكم. سأترك لكم يومين اثنين، ثم سأذهب إلى الجامع لأصلى مع الناس، ولعلى أسمع حرفا واحدا.

وكما فعل العمدة مع الرجال من الأعيان، فقد جمع النساء أيضا. أمه وزوجات أعمامه، وزوجات اخوته، وكل النساء من أسرته، وقال لهم كلاما كالسم، وحملهن مسئولية هذا الكلام الذى يتردد. قال لهن إن الغيرة شئ، ومصلحة العائلة شئ آخر.

الحاج غضبان أخطأ، لكن الغيرة جرت النساء إلى هدم مركز العائلة فى نفوس الناس، وأقسم العمدة أن ينكل بأية واحدة تتحدث عن عمه بسوء، بل وحملهن كذلك مسئولية ما تردده نساء القرية من كلام حول هذا الموضوع. وأعطاهن يومين اثنين لا أكثر، بعدها سيحاسبهن عن أى كلام يتردد حول هذه الحكاية.

وشهدت القرية الوادعة الضاحكة أياما سوداء.

انقلبت النكتة فى فم القرية إلى مأساة، وأصبحت الضحكات دموعا، وأخذت الكرابيج تلف الأبدان فى قسوة، مثلما كان العهد أيام سبع الليل "الله لا يرجعه"!!

وعادت القرية تهمس، وتتلفت حول نفسها فى ارتياب :

ـ لقد فقدوا أعصابهم. العمدة طار من عقله برج.

ـ ومالنا نحن يا عالم! بدلا من الشطارة علينا، لماذا لا "يتشطر على عمه"؟!

ـ هل يخرج الظفر من اللحم؟

ـ ولا الدم يصبح ماء!

ـ والكلب لا يعض إذاً أخيه!

ـ فما بالك لو انه عمه؟

ـ كفى...واحد منهم قادم. اسكت، حتى تمر هذه الليلة، على خير.

واختفت أصواتهما بين دورات الساقية. وعندما جاء الخفير، كان سلاحه على كتفه، وكرباجه فى يده، وشرر النار يتطاير من عينيه.

وطلب الخفير من "أبو المكارم"، أن يعد له كوبا من الشاى، فقد كانت الليلة مقمرة، وكان النسيم رقيقا طيبا، والشاى يصبح فى مثل هذه الحالة "مزاج"!

وأخذ أبو المكارم، يخبط يدا بيد. "أدى الله وأدى حكمته"!

وصاح الخفير فيه : قل هذا يا أخرس. خذ. هذا هو الشاى، وهذا هو السكر. هيا.



وعلى رشفات الشاى أخذ الخفير يتحدث إلى "أبو المكارم" يخفف عما فى نفسه بالرواية والحديث :

ماذا أقول وماذا أعيد؟ أشكو من ماذا أو من ماذا؟ يا ناس الدنيا صارت كالسجن. حياتنا سخرة. حتى الشكوى لا نستطيعها. لمن نشكو يا "أبو المكارم"؟ والله لولا أنك آخرس! لولا أن الواحد حينما يتحدث إليك، كأنما يتحدث إلى نفسه. إلى الهواء. إلى فراغ.لولا هذا لكانت الشكوى إليك مشكلة. الآن الواحد منا يخاف حتى من زوجته أو أولاده ! لله العوض، ومنه العوض!! يجب أن نضرب الناس، وأن نقسو عليهم، والا فالويل لنا! تعرف يا "أبو المكارم". كثيرا ما أتذكر أمى الله يرحمها، عندما كانت تطلب من أحدنا أن يضرب أخاه. كانت تقول اضربه بآخر "عزمك"! وعندما كانت تشعر أن واحدا منا أشفق على أخيه كانت تضربه بآخر "عزمها" فإذا صاح من شدة الألم قالت له : هكذا. تضربه هكذا. وأنا يا عم تبت من ضرب أمى، ولا أريد أن يتكرر معى ما كانت تفعله أمى معى، فإنه إن تكرر الآن، فسيكون قاسيا رهيبا. أمى كانت أمى، وما كانت تستطيع أن تقسوا إلى درجة الذل. لكن هؤلاء ليسوا أمى! وليسوا أقاربى، ولا دم بينى وبينهم. آه لو أهملت أو فرطت! كفى ما فعلوه من يومين. هل علمت بما فعلوه يا "أبو المكارم"؟ اللهم لا ترى أحدا. خفير منا شكوا فيه. قالوا عنه انه يشترك مع الأهالى فى السخرية من الحاج غضبان، وشهد عليه شهود. أخذوه إلى الدوار، ووضعوه فى حجرة مظلمة حتى أنهار، ثم آخرجوه وضربوه ضربا شديدا مبرحا. ضربوه بالكرابيج والعصى حتى زحف على بطنه من الرعب والذل. وحبسوه بعد هذا فى الحجرة المظلمة، ليعودوا بعد ذلك ينكلون به ويضربونه. وكم كانوا قساة عندما أتوا إليه بزوجته وأولاده، ليشاهدوه وهو فى هذه الحالة التعسة. كل الخفر رأوا هذا، ولم يستطع واحد منهم أن يفتح فمه بحرف. حتى أصدقاؤه، لم يملكوا له، مجرد الاشفاق. هذا مصير أى واحد منا يجرؤ على الاهمال. انهم ينوون أن يؤدبوا البلد أدبا لا تعرف بعده الطريق إلى الضحك أو المزاح. إن أعصابهم مضطربة ممزقة لا تتحمل منظر الابتسام! مصيبة حلت ببلدنا يا "أبو المكارم".

أنها مصيبة. دعوة وجازت! لابد أنها دعوة مظلوم. آه من دعوة المظلوم يا "أبو المكارم"! أنها لا تضيع. قد تتآخر، لكنها لا تضيع!!

ونظر "أبو المكارم" إلى الرياح، بحرى الصفصافة.

ثم نظر إلى الخص المهجور على رأس حديقة العمدة.

ولم يقل شيئا. بل وما كان يستطيع أن يقول شيئا، وهو أخرس لا ينطق. لكنه كان يقول لنفسه : أنها دعوة أكثر من مظلوم. بدأت من الخص المهجور، ومن جسر الرياح، ومن داخل السجن فى دمنهور، ومن أماكن أخرى مختلفة، وكانت دائما من أفواه حطمتها المحنة واستبد بها الحرمان. صحيح دعوة. كل مرة دعوة من مظلوم. دعوة صادقة قريبة من رحمة الله، لأنها تصدر من ناس مظلومين يسلمون أرواحهم لبارئها، فى استسلام المؤمن المتوكل، القانع بما قسمة له الله من النصيب.



على أن الخفير، أخذ يصب لنفسه كوبا آخر من الشاى، وبينما هو يحتسيه فى صوت مسموع، أخذ يقول فى خوف وضيق :

تعرف يا عمى "أبو المكارم". الأدهى من هذا كله، حكاية أدهم. أدهم يا سيدى ابن "أبو سريع". حضرته يتصور أن للحاج غضبان ضلعا فى قتل أبيه!! فاكر "شبل" أدهم يحاول أن يكون مثله. يتخفى فى الحقول، ويهدد أهله وذويه وأقاربه، حتى يقولوا له عن القاتل.

وعجب أبو المكارم، وأخذت عيناه تدوران فى عصبية وانفعال، وارتفعت صيحاته يسأل الخفير عن أدهم هذا، وعن موضوع الحاج غضبان.

ومضى الخفير يقول بلا تحرج :

انه مجنون. ولد مجنون. عمه!! عم أمه!! هل وصلت المسألة إلى درجة أن عم أمه، يحرض على قتل أبيه؟ لكن كيف؟ ولماذا؟ إن "أبو سريع" قد كان الكرباج الذى يحافظون به على أموالهم. لماذا يفرطون فيه؟ لكن الولد فقد أعصابه وأصبح كالمجنون.

انه يعتقد أن القاتل هو الشحات، والمحرض هو الحاج غضبان.

أبى هو الذى طرده من البلد، وأخرجه ببهائمه ومتاعه ليلا، كاللصوص!! وما كان واحد منهم يستطيع هذا، حتى بعد القبض على شبل. طبعا الشحات خرج وفى نفسه مرارة وبيت فى نفسه أمرا. جاء يطلب العودة، فلم يوافق أبى إلا إذا رضى الحاج غضبان. لابد أن الحاج غضبان أفهم الشحات أن أبى هو الذى يرفض عودته، وانه لا يستطيع أن يحرج أبى، وانه لو استطاع أن يخلى الطريق من أبى، لأصبح الطريق ممهدا له ليعود. ومن سيقف ضده؟ من سيقدر على طرده؟ واحد فقط هو الذى كان يقدر على أن يفعل ما يشاء. انه أبى!! أبى كان يحمل مصائبكم ويدارى عيوبكم، ويحميكم! والله لولا أن أمى منك لقتلتكم جميعا يا كلاب! يا أنذال! لكن الحاج غضبان وشركاؤه لن يفلتوا من بين يدى.

هذا كلامه يا عمى "أبو المكارم".

وكان الانفعال قد وصل "بأبو المكارم" أقصاه.

ولو انه نطق لصاح فيه أن ذلك خطأ، وأن الحاج غضبان لم يقتل "أبو سريع" ولم يشارك فى قتله ولم يحرض أحدا عليه، والشحات كذلك برئ. الشحات لم يقتل ولم يشترك ولم يعرف عن مقتله إلا ما تعرفه القرية كلها. هذا ظلم. هذا ظلم.

ومضى الخفير يكمل الحكاية، وأبو المكارم، واقف على قدميه، يلتقط الكلمات من شفتيه، ليعرف بقية المأساة.

أدهم لا يصدق أن المسألة تمت عفوا. أبدا. انها مدبرة! انه يعتقد أن هناك تدبيرا ضد أبيه، بين الشحات وشبل، ثم بعد سجن شبل، استمر هذا التدبير بين الشحات و الحاج غضبان، حتى انتهى بمقتل أبيه. ليعود الشحات إلى البلد، ويعيشون فى أمان!

ويضرب أبو المكارم كفا بكف ويصيح وهو يبسط يديه للسماء مستغيثا بالله على هذا الافتراء.

بينما الخفير يقول :

- إن أدهم يسأل أمه سؤالا واحدا : لماذا لم يعد الشحات إلى البلد إلا بعد موت أبى؟ ولماذا لم يعرفوا قاتل أبى؟ مجهول!! الفاعل مجهول! قاتل أبى مجهول !! لا يمكن أن يتم

هذا إلا بتدبير واحد يعرف بلدنا بالشبر، ويعرف أبى وعاداته، والأماكن التى يتردد عليها، ويراقبه مراقبة كاملة، دون أن يثير انتباه أحد. من غير الشحات يا أمى يقدر على هذا؟ من غير واحد من بلدنا عاش فيها ويعرفها يستطيع هذا؟

قولى من؟ ثم لابد أن تكون له عيون فى بلدنا، وآذان ومعاونون. هو الشحات الذى قتله، وهو الرجل العجوز النعجة الحاج المتصابى، الذى حرض عليه وساعد الشحات على فعلته. بعدها أصبح طريق عودته إلى البلد خاليا من "أبو سريع" لكن الله يمهل ولا يهمل. لقد قصف عمره جزاء له. نعم لحق القاتل بالقتيل.

وكاد أبو المكارم _ لولا لسانه الأخرس _ يصيح فى الرجل أن هذا غير صحيح وأن الشحات قد مرض فى البلد التى كان فيها، وقد أتت به أمه، عندما ساءت حاله وأصبحت تتوقع أن يموت، وأردات أن تدفنه فى سيدى الذكيرى، فى تربة أبيه. لقد كان يشكو فى غربته، وكان شديد الحنين إلى قريته، فأرادت أمه أن تحقق له أمنيته، فى آخر أيامه، ليهجع فى قبره مستريحا بلا ملل.

لكن الخفير لا يعرف ما فى قلب الرجل من أسرار، فيمضى يقول :

إن أم أدهم تحاول أن توضح له أن كل هذا خيال فى خيال، لكنه يصيح فيها أن هذه هى الحقيقة، وانه لابد أن يأخذ بثأر أبيه.

إن موت الشحات لا يكفى. لقد كان ذلك من عدالة الله. لكن أنا. أنا مطالب بالثأر، ولن يكفينى الرجل العجوز المريض! ولا أم الشحات!.. ولا امرأة الشحات ولا أولاد الشحات!.. كل هؤلاء لن يكفوا عوضا عن أبى.

وأخذ أبو المكارم يقفز قفزات عصبية، كأنه محموم!

وأخذ يدور حول نفسه كأنه دوامة!

وأخذ يجرى من الساقية إلى الصفصافة إلى جسر الرياح، ويعود إلى الساقية، وصيحاته من الخوف كالعواء.

وبينما هو كذلك إذا بصوت استغاثة خافت خائف يصل إلى أذنيه.

ونبه أبو المكارم الخفير إلى هذا الصوت، وأخذ يبحث عن مصدره.

وهناك بحرى الصفصافة على جسر الرياح وجدهما.

كانا اثنين : أدهم وسلطان.

أدهم واقف شاهر سلاحه، كالنمر الغاضب.

وسلطان مكتوف اليدين والرجلين، مكوم على جسر الرياح قرب الصفصافة.

النمر أيضا يتسلى على فريسته قبل أن ينقض عليها!

وذكر أبو المكارم اثنين سبقا إلى هذا المصير.

الاولى ذهبت شهيدة!

والثنى ذهب عوضا وكفارة!

وسقطت من عينيه دمعتان : واحدة أسفا على الشهيدة تفيدة، والثانية أسفا عليها أيضا، فان كل غريق يجدد فى نفسه ذكراها، حتى لو أنه أبو سريع.

وجمد أبو المكارم فى مكانه. وجمد الخفير إلى جواره. وأخذا ينصتان إلى ما كان بين أدهم وسلطان، من حوار :

- ماذا تريد أن تفعل بى يا أدهم؟

- أهيئك للزفاف يا سلطان! ماذا تظننى فاعلا؟

- لا أدرى! قل لى ماذا تريد أن تفعله بى؟

- لا لا! لا شئ. مجرد غُطس بسيط.

- وتكتفى لهذا؟ كيف أعوم؟

- وهل قال لك أحد أنك ستعوم؟

ـ إذا؟ قل لى والنبى. هل تريد أن تغرقنى؟

ـ يا سلام. أنت ذكى جدا! فهمت إذاً.

ـ لكن لماذا؟ هل أسأت إليك؟ إننا أقارب. إنك ابن أختى. أليست أمك كأختى؟

ـ قل لنفسك يا خال. اسأل نفسك. ماذا فعل أبوك؟

ـ سقط مشلولا، عندما صدمته أم الشحات.

ـ بسيطة ..وليس لهذا أى معنى.

ـ معناه انه رجل عجوز "وخرَّف". عينه فارغة!

ـ عينه فارغة! لا يا شاطر المسألة فيها اتفاق جنائى.

ـ لا أفهم. والله لا أفهم. أى اتفاق جنائى؟

ـ وقتل أبى؟

ـ قتل أبيك!! ما شأن قتل أبيك بهذا؟

ـ من الذى قتل أبى؟ إلا تعرفه؟

ـ لا والله. ولو إنى أعرفه لانتقمت منه.

ـ انه أبوك.

ـ أبى قتل أباك!! لا يمكن.

ـ أبوك حرض الشحات على قتل أبى، فتخلص السكة للشحات ليعود، ولأبيك فيتزوج أم الشحات. خطة مدبرة بأحكام، لكنى كشفتها، كما أن الله أراد لها ألا تتم.

ـ لا يمكن ...هذا مستحيل. مستحيل يا أدهم. الذين قالوا لك هذا ضحكوا عليك انهم يريدون أن نقع فى بعضنا.

ـ فهمت الآن يا سلطان يا ابن الحاج غضبان؟

ـ لم أفهم.وأنت كذلك لم تفهم.

ـ وأنا لا يعنينى أن تفهم. سـألقى بك الآن إلى الرياح، وسواء ذهبت إلى الآخرة فاهما أو غير فاهم، فإن ذلك لن يغير من الأمر شيئا.

وعندما هم بـأن يلقيه فى الرياح، دفـع "أبو المكارم" الخفيـر إليه دفـعة لم يعد يسـتطيع بعدها أن يتراجع.

وصاح الخفير فى أدهم :

اتركه...اياك، والا أطلقت عليك النار.

وصاح أدهم فى الخفير :

من أين أتيت؟ سأطلق عليك النار لو مددت يدك إليه.

وظل أدهم شاهرا سلاحه، وظل الخفير شاهرا هو الآخر سلاحه.

كل منهما يرقب الآخر. هذا يدور، وذاك يدور وراءه فإذا تراجع تبعه، وإذا تقدم أفسح له الطريق، والسلاح مشهر، وأصبع كل منهما على الزناد.

بينما تسلل أبو المكارم فى خفـة، ففك وثاق الفريسة، واختـفى دون أن يراه أحـد. وعندما شعر سلطان انه قد صار حرا، وأن يديه تتحركان، وأن ساقية قد تخلصتا من القيد، وانه قد استعاد قواه، أطلق ساقيه للريح، بعيدا عن الصياد!!

وترك أبو المكارم الصراع بين أدهم والخفير، ومضى إليها.

.وعند سيدى الذكيرى، فى ضوء القمر الفضى المنتشر على الكائنات فى رقة وحنان، أخذ يروى لها ما كان، وتفتح فمها من الدهشة والعجب، وعقلها الصغير يتحرك لكن فى حيرة وارتباك.

ما هذا؟ ماذا جرى لهذه القرية؟

هذا إنذار خطير. ان الخطر قد أصبح يهدد أم الشحات وأولاد الشحات بلا ذنب ولا جريرة، إلا أن مجنونا توهم أشياء، وقرر أنها حقائق. لقد تخيل، ثم اتهم، ثم حكم، ثم بدأ ينفذ ما أصدره من أحكام.

ولم يكفه أن الشحات قد مات من الظلم والاغتراب.

إن لعنة الظلم كلسان النار، ما إن تمسك بطرف الثواب، حتى تأتى عليه كله، ولن يكون لأولاد الشحات من ذنب، إلا أنهم أولاد الشحات! بل الشحات نفسه ما ذنبه؟ ما جريرته؟ ألأن "شبل" قد انتصف له، وأراد أن يحميه، يدفع حياته ثمنا لذلك؟

وأخذت الست الشيخة تفكر. لم تنم ليلتها، ولم يغمض لها جفن. وكيف تستطيع وهى ترى حياة أطفال صغار مهددة على هذه الصورة العجيبة.

وتقول لنفسها : لو أن "جلال" حى، لدافع عنهم.

بل هو حى، برغم هذا القبر العظيم!

وشعرت الشيخة تفيدة أنها محتاجة إلى ناس، إلى جوارها. محتاجة إلى آراء تشير عليها. محتاجة إلى ألسنة وآذان، تروى لها وتسمع منها.

وسمعت كأن "جلال" يحدثها. كأنه مائل أمامها يتحدث إليها. صوته! والله صوته، يقول لها : تنسين الست قمر؟ وتنسين "ممدوح". ارسلى فى دعوتها، ليشيرا عليك بما تعملين.

وأرسلت إليهما.

وأسرعا إليها، كأنهما رجع الصدى.

ولم تكن الست قمر قد التقت من قبل بممدوح. لم تكن قد رأته، أو تحدثت إليه.

قالت له فى ود :

سمعت عنك كثيرا يا ممدوح من جلال، وقد حببنى كلامه عنك، فيك، وهاأنذا ألقاك، فأجدك رجلا شهما كما وصفك. جلال كان يتحدث عنك كأنما عن أخيه. كان يحبك حبا شديدا.

قال ممدوح فى حياء :

وأنت يا ست قمر، لقد أحببتك من كثرة كلام جلال عنك، وأوصافه لك، حتى لقد تمنيت لو أنك أمى، إذاً لكنت أسعد مخلوق على وجه هذه الأرض. أنت انسانة كريمة

وطيبة وشجاعة يا ست قمر. الله يرحمك يا جلال. كان يصفك أوصافا رائعة. كان يقول أن خالتى الست قمر هى السطر الاول فى كتاب جميل مشرق! هى المقدمة وقد يكون أجمل ما فى الكتاب، هو مقدمته! والحقيقة ...

قالت وهى تبتسم :

والحقيقة غير هذا.

قال ممدوح :

- بل أضعاف هذا يا خالة قمر.

قالت له تسأله :

- لنترك هذا الأن، فإن علينا أن نمضى من حيث أتينا قبل أن تغرب الشمس.

قالت الشيخة فى ألم :

- وتتركانى؟ تتركانى وحدى؟ أواجه هذه الأمور وحدى؟

قالت الست قمر :

- نعم نتركك، ونترك معك قلوبنا. إن القرية تعلم أننا مريدون اقبلنا لنزور سيدى الذكيرى، وخادمه الشهيد جلال، ونتبرك بك، وننصرف. لا ينبغى أن نطيل بقاءنا معك، حتى لا ينصرف اهتمام أهل القرية إلينا، وبدلا من أن يتحدثوا عن الرجل المشلول والموقف الشجاع الذى وقفته أم الشحات، يتحدثون عنك وعنا، فى شئ غير قليل من الارتياب.

قالت فى حيرة :

- وهل محظور على أن يكون لى زوار؟! لم لا يكون لى زوار؟ هل يؤذى هذا أحدا؟

قالت الست قمر :

- على أن نؤجل ذلك لضرورة، طالما انه من اليسير أن نعود، فى مواعيد لا تثير الكلام والحديث. نعود الآن إلى الموضوع. ماذا ترى يا ممدوح؟ ماذا تقترح؟ كيف نحول بين أدهم وارتكاب هذه الجرائم البشعة؟

وهز ممدوح رأسه فى حيرة ثم قال :

ـ والله أنا احترت. يبدو أن أدهم ليس وحده. لا يمكن أن يكون وحده. انه غلام صغير لا يزال، وهو محدود التفكير قاصر الادارك، ولابد أن أحدا وراءه، قد شجعه على هذا.

قالت الست قمر :

ـ أو تظن أن شركاء هؤلاء، يكتفون بدفعه، أم انهم يشتركون معه؟

قال ممدوح :

ـ لا أدرى. كله يتوقف على الدوافع التى تحرك هؤلاء.

قالت الست قمر :

ـ لكن من تظن؟ هل أحد من أهل البلد أم من خارجها؟

قال فى تردد :

ـ من أهل البلد أو من غيرهم. أنا يهمنى أن أتحرى هذه الدوافع. سأحاول أن ألتقط بعضها من أفواه الناس. لهذا فلا بد لى من التخفى. سأقلد "جلال" وأفعل مثلما كان يفعل.

وهب أبو المكارم يصيح به أن يطمئن. كل شئ جاهز. المخزن موجود لم يمسه أحد منذ رحل جلال. وبطن الصفصافة يتسع له، وهو دافئ وجميل، فإن لم يصلح فالخص المهجور لا يزال مهجورا.

وافترقوا على اتفاق، أن يتخفى ممدوح عند الساقية، ليكون على مقربة من الأحداث.

وعندما نظرت الشيخة إليهم خائفة، قال لها ممدوح :

لا تخافى. معى مسدس بعشرين طلقة. وأنا الآن بارع جدا فى إطلاق النار.



وبدأت فترة مراقبة.

وبدأ ممدوح يعيش، عند الساقية.

لكن هذا لم يكن يكفى. كان عليه أن يتحرك ليعرف أشياء كثيرة تنير له الطريق، وتكشف له الأسرار.

وتنكر ممدوح فى زى متسول أعرج.

ارتدى خرقا بالية ممزقة، على ظهره خرجا، ونكش شعره ليبدو كالعفريت، وعصب عينيه كأنه ثور الساقية، ومضى يتعثر فى خياله، ويصطدم بظله. وقال لنفسه : هكذا صرت أنت أيضا شحاتا!

وأخذ يقول فى صوت ضعيف خائر :

حسنة يا محسنين. لله يا محسنين. حسنة قليلة تمنع بلاوى كثيرة عند الله يا محسنين.

لكن أحدا لم يهتم به، ولم يحفل بأمره، ولم يتحرك إشفاقا عليه.

وتوقف قليلا عند إحدى النواصى، وأخذ يسترق السمع، فسمع خفيرا يرد على التليفون، بصوت خائف محموم...كلما رن الجرس، رد بنفس الصوت الخائف المحموم :

"آلو...آلو...إنت مين؟ إنت النجطة؟ مين فى النجطة؟ عاوزين حضرة العمدة؟مين عاوزه؟ حضرة الضابط...حاضر.

أجولُّه. عاوزه يجيله.. حاضر حاضر يا نجطة!! السلام عليكم.. السلام عليكم يا نجطة!!

" يا مركز ... يا ايتاى.. سامعنى يا مركز؟ أنا البلد عاوزين نملىِّ بلاغ.

الدودة يا مركز. الدودة يا مركز. سامعنى يا مركز. أزعَّج؟.. يا مركز.. اسمع يا مركز.

"المديرية...نهار أغبر، أنت المديرية؟ سلامات يا مديرية. أمرك يا مديرية. سعادة الحكمدار. سعادة الحكمدار كله؟ لأ...مش سعادة الحكمدار. بتجول منشور من سعادة الحكمدار؟ أيوه جول كده. يا شيخ سيبت ركبى".

وقال ممدوح لنفسه :

ـ آه...لهذا لم يسمع لك أحد. طبعا! تشحت عند دوار العمدة، وعند بيوت الأعيان؟ انهم ناس يسرقون الكحل من العين. تشحت منهم يا شحات؟!

ومضى عن هذا المكان إلى مكان آخر، بعيد عن دوار العمدة وبيوت الأعيان.

كان يريد أن يكون أقرب ما يكون إلى بيت الشحات، ليدرس المنطقة والبيت واتصاله بالبيوت الأخرى، والطرق التى توصل إليه والطرق التى تساعد على الهرب عند الاقتضاء.

وأخذ ينادى فى صوت متقطع ممل :

حسنة يا محسنين. لله يا محسنين. حسنة قليلة تمنع بلاوى كثيرة، وتجلب خيرات كثيرة.

وخرج إليه من أحد الأبواب ولد صغير بلقمة خبز جافة، ووضعها فى كفه الممدودة وعاد من حيث أتى.

وكانت اللقمة كأنها قطعة حجر. حاول أن يكسرها فلم يستطع، وضعها فى فمه، لكن أسنانه لم تستطع أن تنال منها شيئا.

وكان يمر إلى جواره جدى صغير، فمد يده باللقمة له، فأخذ يشمها، ثم تركها وانصرف.

وقال لنفسه : لكن كيف كان الصغير يأكلها؟ الجدى رفضها، لأنه شعر أنها أقوى من أسنانه، فكيف يأكلها الولد الصغير. والأولاد الآخرون؟ كيف تعيش عليها أسرته؟

وهز رأسه فى عجب، وألقى باللقمة فى الجراب ومضى يقول :

يا محسنين حسنة. حسن لله...حسنة يا محسنين.

وخرجت من أحد الأبواب بنت صغيرة، ووضعت فى كفه الممدودة بضع حبات من الحلبة المنبِّتة، وبضعة حبات من الترمس. وقبل أن يقول لها : وماذا أعمل بهذا يا

صغيرتى؟ هذا ما يقدمونه للسكارى..مزة! قبل هذا آثر أن يقول لنفسه : "يا شيخ اتلهى" تلومها لأنها أعطتك مما تملك؟! كتر خيرها مدت يدها بعطاء...لله!! خيركم من جاد بما عنده.

واستأنف رحلته، وصوته يرتفع ضعيفا خائرا يطلب الاحسان.

وتقدمت إليه فتاة فى عز الصبا، ووضعت فى كفه شيئا طريا، فنظر من خلال العصبة على عينيه، فرأى قطعة سمك مشوية! ورماها فى الخرج على ظهره فى تأفف ومضى يقول لنفسه : ستصبح رائحتك زفرة! ومرة أخرى أخذ يردد لنفسه : يو...ه!! أكل وأمارة!!"

وبينما هو فى طريقه وصوته يرتفع ضعيفا خافتا بطلب الاحسان، إذا هو يشعر بشئ فوق ظهره. شئ يتحرك! وكانت الحركة غريبة! الخرج الذى يجمع فيه الحسنة فيه شئ يتحرك، ويلعب!! وكان قد تصادف أن واجه وهو فى طريقه مصطبة عليها ناس، فلم يعرف ماذا يفعل. هل ينزل الخرج ليرى ما فيه. وماذا يكون فيه؟ السمكة التى وضعتها البنت، قد صحت! بعثت إلى حياة جديدة! لكنها لم تكن سمكة كاملة. كانت قطعة طرية وزفرة! الحركة على ظهره تشتد وتعنف! وكاد أن يصيح. لكن الصيحات وقفت فى حلقه. حتى الصباح لم يعد ممكنا!! كذلك لم يعد قادرا على أن يسير. خطواته هى الاخرى تجمدت جمودا مخيفا! كل شئ أخذ يدور أمام عينيه فى سرعة! انه إن صاح أو استغاث أو جرى من فزعه، فقد يكون سببا فى كشف أمره، وإن صبر...لكن صبر على ماذا! وهل هذا شئ يصبر عليه؟ صبر على شئ يلعب على ظهره؟! قد يكون ثعبانا!! وارتعد من الرعب.

وأنقذته رحمة الله عندما أقبلت امرأة تقول وهى تضحك من قلبها :

يا قطة الكلب يا شقية. حتى خرج الشحات لا ينجو منك؟ تعإلى.. تعإلى وسأعطيك سمكة بحالها. هذا رجل مسكين، يشحت رزقه، فهل يليق أن تأكليه منه؟!

وحملت القطة بين يديها وهى تقول له :

ـ لا تؤاخذها يا عم. قطة مجنونة. تحب السمك "موت"! وأنت يا عينى تعرج. تسير على مهلك. ورائحة السمك فاحت، فقفزت إلى الخرج. سآتى لك بشئ أحسن من السمكة التى أكلتها.

وتنفس ممدوح الصعداء، ولم يقل حرفا واحدا. فقط نظر إلى القطة بين يديها فى غيظ وهو يقول : "نشفت دمى الله ينشف دمك. روحِى يا بعيدة، الله لا يسامحك".

ودخلت المرأة بيتا، ثم خرجت تحمل فى يدها خيارتين مخللتين.

وقالت للشحات :

ـ هذا غموس أحسن من السمكة. خللته بيدى. ستذوق وتعرف.

ودعا لها بطول العمر والسعادة، وهو يلقى الخيارتين فى الخرج، ويقول فى نفسه : حلبة وترمس وكملت بالخيار المخلل!! ناقص الويسكى ! يا ترى من يشحت الشحات. ويسكى!!

وفى مكان آخر، خرج له رجل برغيف عيش. ورجل آخر وضع فى يده قطعة بطاطة، وثالث أعطاه قطعة من عبد اللاوى! ثم كان الرابع، وقد خرج وعلى كفه طبق طبيخ، وأصر على أن يأكله أمامه. يغمسه بما شحت من خبز، أو يشربه أو يلعقه، كما يشاء!!

وحار ممدوح ماذا يفعل! وماذا يقول!

ـ وبينما هو ساكت يبحث فى رأسه عن كلام يقوله، كان الرجل يقسم أغلظ الأيمان أن يكون هذا الطبق كله من نصيبه.

يا رجل ...الناس لبعضها. وهى فرصة، وهذا رزقك. تترك رزقك لمن؟ تظننا من الأعيان! أبدا إننا نطبخ كل "فين وفين"! وعندما سمعتك يا مسكين تطلب حسنة، خيل إلى أنك لم تأكل من سنة، قلت والله ليأكلن الطبق كله. نصيبك! تعرف، اللقمة تنادى صاحبها من آخر الدنيا. آه!! هذا الطبق ناداك من حيث كنت يا عم. هيا. هيا.

وأخذ الشحات. ممدوح الشحات، ينظر إلى الطبق، فلا يعرف أى طبيخ هو!! بلا لون، ولا شكل، ولا رائحة. شئ سائل يتحرك داخل الطبق. هل يشربه وينتهى؟ هل يلعقه كأنه قطة أو كلب؟ لكن لماذا لا يغمس لقمة لقمة ليرى أى طعم له؟

وجلس ممدوح أمام بيت الرجل وأخرج رغيفا مما شحت، وأخذ يغمس. اللقمة الأولى لم تكن كافية ليعرف أى طبيخ ذاك. ولا اللقمة الثانية كانت كافية، ولا الثالثة ولا الرابعة ولا الرغيف كله. وانتهى الطبق ولم يعرف ماذا أكل، لولا أن الرجل قال له وهو يتناول منه الطبق فارغا، ومع الطبق دعوات حارة، بأن يخلفه الله عليه رزقا حلال :

يا عم. أحسن يعملها ويسمع كلامك! أمعاؤنا تفسد من الطبيخ. كل يوم، كل يوم.. هل أنا الحاج غضبان أو العمدة؟! يا عم كفاية مرة فى الجمعة. رضا والله رضا. أعجبتك البامية؟ عال!! أليس كذلك؟

ساعتها فقط عرف أنها بامية، فقال له :

الله يخليك ويطول عمرك، ويرزقك برزقها كل يوم.

قال : يا شيخ! مرة بامية، ومرة ملوخية. أو أقول لك "زى بعضه.. بامية بامية ".

وضحك ملء قلبه، فى براءة، وهو يدخل بالطبق عائدا إلى امرأته وأولاده.

واستأنف الشحات رحلة الحسنة، فى طرقات القرية وحواريها، وصوته الضعيف يرتفع بطلب الحسنة والاحسان، وعندما وصل إلى ناصية البيت الذى يقصده، تظاهر بالتعب والاعياء فأسند رأسه إلى جدار من جدرانه، وأقرب ما يكون إلى الباب والمصطبة التى أمامه، وجلس وخرجه وراء ظهره.

وأخذ ينظر إلى المكان يفحصه، كأنما يتحسسه.

وبدأ يحدث نفسه، فى حوار بطئ.. بليد!

...آ...ها!! هذا إذاً بيت الشحات، حيث عاش أبوه وأمه، وحرم هو منه ولم يعد إليه إلا عليلا، يأكله المرض. لكنه على كل حال، كان آخر زاده من الدنيا.

هنا تعيش أم الشحات وخضرة والأولاد.

مظلومة يا أم الشحات. أطلقوا فيك الألسنة، كأنك خائنة، تلعب بالرجال، أو تترك نفسها لعبة للرجال. لكنك لم تردى، حتى واتتك الفرصة، فكان ردك ضربة على رأس

الرجل السفيه، كادت تذهب به إلى القبر. شجاعة والله يا أم الشحات. لم تخافى، ولم تهتمى بالغنى ولا بالنفوذ ولا بالقوة، فكنت أقوى من الحاج غضبان ومن الأسرة المستبدة كلها.

وأنت يا حضرة، يا شابة صغيرة وحلوة. أنت لا تزالين فى سن الزواج. أنت لا تزالين مطمع الرجال. كونى شجاعة كعمتك، واياك أن تتزوجى تحت تأثير الغنى أو النفوذ أو التهديد أبدا. كما تزوجت أول مرة اقتناعا، فعليك إلا تتزوجى أبدا، إلا اقتناعا.

وكان ممدوح قد تبين المنزل، وعرف حدوده.

انه يقع فى طريق، متفرع من أمام الجامع، يدور ثم يستقيم، ثم ينحنى، وبعد منزل المرحوم الحاج مرزوق بقليل يقع المنزل.

ولا شك أن بابه يؤدى إلى فناء. إن فروع شجرة توت تطل على الطريق، ولا يمكن أن تكون هذه الشجرة مزروعة فى غرف النوم! ثم أن الحائط الخارجى غير مسقوف. إن الباب يؤدى إلى فناء، تطل عليه حجرات البيت.

أين تقع مندرة الضيوف؟ وأين غرف النوم؟ وأين حظيرة البهائم؟

إن ممدوح يستعمل أذنيه، لعله عن طريق ما يسمع من أصوات يتبين أماكن هذه المعالم فى بيت الشحات.

لكن أذنيه لم تسعفاه. لم يستطع أن يتبين مكانا من هذه الأماكن.

إن الشئ الواضح أمام عينيه، هو هذا الباب، وبجواره من الناحية الأخرى مصطبة، وفناء زرعت فيه شجرة توت، أطلت بفروعها على الطريق والمصطبة.

ونظر إلى المصطبة، وهو يتخيل ما شهدت من أمور.

لا شك أن "محروس" "أبو الشحات" قد كان يجلس هنا، فى ليالى الصيف الممتعة وتحت ضوء القمر. ولا شك أن أصدقاءه كانوا يتجمعون عنده، يتحدثون ويتسامرون

ويضحكون، ويشربون الشاى، ثلاث "غلوات" الأولى مرَّة كالعلقم، والثانية أقل مرارة، والثالثة هى كالحلو، تأتى فى آخر الطعام! ولا شك أن الشحات قد كان يسهر معهم، تحت قدمى أبيه، يلبى طلباته، وينفذ أوامره، داخلا لأمه بالأكواب الفارغة، وعائدا بها من عند أمه مملوءة بالشاى.

وأم الشحات تكون ساهرة... معهم وليست معهم! لابد أنها كانت تسهر فى الفناء، لا يفصلها عنهم إلا هذا الجدار، تسمع كلامهم ومناقشاتهم وأسماءهم، وقد تضحك لما يطلقونه من النكات، وقد يصعد الدم إلى وجنتيها مما يتحدثون به عن النساء فى غير تحفظ أو حياء. لكنها منهم بعيد، لا تراهم ولا يرونها. لكن لاشك أنها من كثرة ما ألفت أصواتهم قد بدأت تعرفهم من أصواتهم، وتميز واحدا عن واحدا بصوته وطريقه كلامه، حتى لقد كانت تصدر أحكامها عليهم سماعا. هذا رجل بخيل.. صوته يقول هذا! وذاك رجل متلاف.. من صوته! والثالث قليل الحياء لا يستحى.من ألفاظه! والرابع زير نساء، يموت فى المرأة... من كلامه! والخامس "عايق وفايق" قلبه خالى، أجوف كالطبل، يرن وليس فيه شئ! كل منهم له عندها صفات، كونتها عنهم سماعا. ولكم كانت تقول ذلك لزوجها، وقلما كانا يختلفان على واحد.

الحاج غضبان كان يأتى إلى هنا أحيانا.

لكنه كان يحضر معه إلى هذا المجلس الفراغ!

يحضر وحده، فلما أن يذيع انه جاء، حتى يتخلف الآخرون! الدنيا لا تسع أحدا معه أمَّا هو، وامَّا هم! وان حضرت الملائكة، هربت الشياطين!!

وكان الحاج غضبان يتعلل بالبرد والرطوبة وتيارات الهواء، لينتقل المجلس إلى المندرة، وهناك يكون قريبا من أم الشحات، يراها ويملأ عينيه من مفاتنها.

وقال ممدوح لنفسه : عين فارغة لا يملأها إلا التراب! كلام صحيح، قالوه أهل زمان. هذا كلام صحيح!



وذكر ممدوح، وهو فى مجلسه ذاك من باب بنت الشحات، و"أبو الشحات"، وأم الشحات، ما سمعه من أن الحاج غضبان كان يكثر من الحضور فى الشتاء، عندما كان السمك يكثر عند "أبو الشحات". نعم أبو الشحات كان يشترى البحر! أى والله يشترى البحر!

ويضحك ممدوح من الفكرة، ومن التعبير.

لكن كيف كان يشترى البحر يا عمى "أبو المكارم"؟

كان يشترى البحر، ويصبح السمك الذى فيه من حقه طول الموسم.

..البحر! أى بحر؟ البحر الأبيض؟ بحر يوسف؟

يا شيخ! هذا البحر. الرياح يعنى.

لكن كيف يشتريه، وممن؟ من صاحب البحر؟

الحكومة هى صاحبة البحر. نعم، وكان يدفع مبلغا كل سنة، وهو ورزقه لو جاءه ألف قنطار فى اليوم، حلال عليه. وإذا لم يأته شئ، "يعرف شغله" !

هو ونصيبه. شئ جميل. وأبو الشحات كان يشترى البحر؟

نعم، كان الرياح ملكه، لكنه كان رجلا كريما شهما، عمره ما أثار مشكلة حول شئ أبدا.

وكان يصطاد السمك بالسنارة، أم بالشبكة أم بماذا؟

..ولماذا إذاً يمشى إليه حافى القدمين تأدبا!

.ولا هذا يا بنى. انتظر. لماذا تتسرع فى أحكامك؟

لابد انه يأتيه فى البريد. "مسوكر"!

يا بنى انتظر.

أو يحلم به فى المنام.

يا سلام عليكم. المسألة إن الماء يكون فى الرياح قليلا جدا أيام الشتاء، لدرجة أنك تستطيع أن تعبر الرياح ماشيا على رجليك، دون أن تخلع ملابسك. وفى كثير من الليالى يجف الرياح عدة ساعات، غالبا ما تكون من أواخر الليل حتى الصبح قبيل الشروق. وخلال هذه الساعات، تجد السمك على حافة الرياح، يلعب على الرمل، منتظرا عودة الماء. عندئذ تصبح المسألة أن تجمعه فى زكائب، وتحمله إلى الحلقة ليباع. شئ بسيط جدا لا يحتاج إلا إلى همة لجمعه فى الساعات المحدودة التى ينحسر فيها عنه ماء الرياح، وحمله إلى حلقة السمك، وقبض ثمنه على الفور. رزق من عند الله.

وأبو الشحات كان يشترى البحر؟

أبو الشحات لم يكن معتمدا كلية على الزراعة. أبدا الزراعة لم تكن تكفى ما عليها من ديون إلا بشق النفس، ديون وحسابات وحقوق ناس وإيجارات والتزامات وتكاليف ومصاريف، ومياه الساقية وأجرة الجرن...كل هذا كلام يقال، ويخصم عنه كل ما تنتجه الأرض من غلات.

أبو الشحات كان مستورا من البحر. كان يشترى البحر كل عام، ويصبح السمك من نصيبه. وكان عنده عدد من الرجال. أقرباء وأصهار وجيران، وكانوا جميعا يحبونه كعيونهم، ويجمعون له السمك فى لمح البصر، ويحملونه إلى الحلقة، ويأتون بثمنه.

والرجل كان دائما يقول : هذا رزق حلال من عند الله. وهو رزق القرية كلها. لابد لأهل القرية من أن يأكلوا سمكا. طبعا، الماء لا يمر على عطشان. هكذا كان يقول، وكان يوزع هدايا كثيرة على العمدة والأعيان والأهل والأصدقاء والجيران. وكان معروفا انه يترك أهل البلد يجمعون مؤنتهم منه. عمره، طول عمره ما صاح فى واحد قابله يحمل أكلة سمك. أبدا، كان يضحك له وهو يحييه ويقول له : بالهناء والشفاء.

وكان أهل البلد يقولون أن ربنا يطرح فى البحر البركة، لأن "أبو الشحات" لم يكن يمنع السمك عن أحد. أبدا، بل انه إن علم أن واحدا من أهل البلد مريض حمل إليه

السمك بنفسه، أو أرسله إليه مع الشحات. وكان يرسل أنصبة للأرامل، وللثكلى، ولكل ضعيف.

انسان والله هذا الرجل. نعم هو انسان.

انه انسان، حتى مع الحاج غضبان!

يرسل إليه السمك، كل بضعة أيام. وهو الذى يختار السمك الذى يهديه للناس. أحسن سمك. يجب أن يكون أحسن سمك. هكذا كان يقول.

وكان الحاج غضبان، يحضر لزيارة الحاج محروس، كلما تلقى منه هدية من السمك، أو كلما تأخرت هدية السمك فى الوصول إليه.

طبعا. لابد من أن يشكر! أو لابد من أن يذكِّر!

ولابد من أن يسترق النظر إلى أم الشحات، من تحت لتحت.

ولابد من حديث عن السمك، وأرباح الحاج محروس منه!

ولابد بعد هذا من حديث يصدر من الحاج غضبان كأنه النذير!

- كيف حالك هذه الأيام يا حاج محروس؟

- بخير والحمد لله يا حاج غضبان.

- طبعا لابد أن يكون كذلك. البحر كله سمك، والأشيا معدن.

- الحمد لله رب العالمين. نحمده ونشكر فضله.

- ولن توفيه حقه والله يا حاج محروس. السمك كثير جدا. ماذا تفعل به؟

- انه ليس ملكى. انه ملك الله.

- وهل الله أيضا، هو الذى يقبض.. يقبض.. يقبض؟

- طبعا يا حاج. السمك من الله. وثمنه لله. ألسنا عبيد الله. ألم يكتب لنا هذا المورد ليسترنا ونعمل منه ما نستطيع.. لله.

ـ والسمك الذى ترسلونه لنا.. من حين إلى حين.. فى المواسم! لله؟

ـ أستغفر الله العظيم يا حاج. أنت صاحب حق وفضل.

ـ تعرف يا حاج. والله كل سنة يعرضون على البحر. لكن أنت تعلم إنى مشغول جدا، لكنى أتستطيع أن أكلف ولدا من أولادنا بالمهمة، فيجمع السمك ويحمله إلى الحلقة. ويأتينى بالثمن...كل يوم، طول شهور الشتاء!

مسألة بسيطة جدا. بسيطة لا تكلف شيئا، ومكسبها كبير ومضمون. لكنك يا حاج صديقى... أنت صديقى.

وينظر إلى فناء الدار ...حيث تكون أم الشحات هناك تسمع وهى تلوى عنقها تبرما وضيقا بهذا الحديث السخيف، وهذا التهديد والنذير.

ويضيف الحاج غضبان، فى كلماته المعسولة...

.وأنت لست صديقى فحسب. أنت كذلك حبيبى، وغالى على، أغلى من عينى يا حاج ..يا حاج محروس. يا "أبو الشحات".

والحاج محروس قد كان رجلا طيبا وتقيا ومتكلا على الله، ولا يحب أن تقوم بينه وبين الناس مشكلات، لكنه كذلك لم يكن ممن يفرطون فى حقوقهم أو أرزاقهم. كان يقول لأم الشحات : إن التمسك بالحق والرزق عبادة. ربنا أعطانا هذا الرزق لنحافظ عليه لا لنبدده. إن تبديد الرزق كترك الصلاة، وعدم الصوم. وهذا رزق أرسله الله إلينا، ويجب علينا أن نحرص عليه. لهذا فإن الحاج محروس عندما يسمع هذا الكلام يفهمه ويفهم ما وراءه من تهديد، ويحدث نفسه بأن عليه أن يرد عليه، لكن فى غير عنف أو إسراف.

ويقول الحاج محروس فى سماحة وطيبة :

ـ طبعا أنت تقدر على شراء البحر أكثر منى، وتقدر على جمع السمك أكثر منى، وتقدر على إرساله إلى الحلقة أسرع منى. لكن من يدرى يا حاج، ربما لا يرسل الله سمكا على الاطلاق.

ويجب الحاج غضبان فى حدة :

ـ لماذا؟ لأن الله لا يرضى عنى؟ أو تظن أن مكانتك عند الله أكبر؟

ـ أستغفر الله العظيم. ومن الذى يعرف مكانته أو مكانة سواه عند الله؟ إنما لله حكمة لا يعرفها أحد سواه. قد يرزق الشياطين أكثر مما يرزق الملائكة !! قد يعطى اللصوص مما يعطى الفقراء!!

ـ وهذه عطية من الله لك؟

ـ للناس يا حاج، وأنا ...

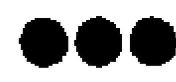
ـ وأنا...الا أصلح وسيلة الله للناس؟

ـ أنت فعلا وسيلة الله للناس. ألست تقدم لهم خدمات لا تحصى؟ ألست تبيع لهم المحصولات، وتأتيهم بثمنها، وهم جلوس ينتظرون؟ أنت تقدم لهم خدمات كبرى. السمك شئ قليل عليك يا حاج! البحر عملية سهلة نقدر عليها نحن المساكين! إن ربنا يسرك للمهام الجسام، وترك الأشياء البسيطة لنا نحن.

ويضحك الرجل ملء شدقية، ثم ينظر إلى الفناء، ويقول :

ـ لا لا .. كل هذا الكلام. الصحيح إنى لا آخذ البحر لأنى أحبك ...

يا أخى إلا تفهم؟ افهمنى. والله العظيم ثلاثا أحبك.



ويعود ممدوح يقول لنفسه :

تشرد فى ذكريات الناس وتواريخهم، وتنسى مهمتك! أنت هنا لما هو أهم من الذكريات والتواريخ. إن للذكريات أوقاتها يا حضرة الشحات. إن عليك أن تعرف الآن وصف البيت، ومداخله ومخارجه، فقد تحتاج لذلك فى ساعة حاجة، لكنك تضيع الوقت فى أشياء يمكن أن تعملها فى وقت آخر!

وشعر الشحات أن الباب يفتح، ويصدر عنه _ كشأن كل أبواب القرية _ صوت يقاس بسعة فتحة الباب. وقد كان الصوت هذه المرة قصيرا وسريعا. شخص متعجل! لابد انه شخص متعجل! ورآهم يخرجون يجرون، كل وراء الآخر. الصغار يلعبون، أو يتعاركون، أو يتسابقون لأمر من أمورهم.

ورفع عقيرته بطلب الحسنة ...

إحسان لله. لله يا محسنين. حسنة صغيرة تمنع "بلاوى" كثيرة.

ووقف الأولاد ينظرون إليه. وعاد أكبرهم إلى داخل البيت، وهو يطيل النظر إليه. أما الاثنان الآخران، فقد تمهلا ينتظران أخاهما الكبير.

وشعر انهم يفهمون عن بعضهم البعض. إن واحدا منهم لم ينبس ببنت شفة.تبادلوا النظر، فى صمت، كأنما الأمر الذى استقر عليه رأيهم معروف ومفهوم.

لكن ماذا يكون هذا الشئ؟

هل خافوا منه؟ هل شكوا فيه؟ هل حذرهم أحد من الغرباء؟

ماذا؟ ما هذا؟ هل هى ستهم أم الشحات، شعرت بشئ، فحذرت الأولاد؟ هل أمهم تتوقع شيئا، فنصحتهم أن يبتعدوا عن الغرباء؟!

وهل دخل الولد لينادى جدته أو أمه؟ وماذا عساهم فاعلون به؟ هل يستغيثون؟ هل يصرخون؟ هل يلمون حوله البلد والناس؟ فضيحة يا ولد! انكشفت يا حضرة الشحات! تلقى وعدك يا بطل!

على أن حيرته لن تطل، فقد عاد الولد وتقدم إليه فى حياء وهو يقول له :

أتفضل يا عم. أتفضل داخل الدار. ستى تقول لك تفضل.

وعض ممدوح على شفته السفلى فى تخوف.

وماذا تريد منه سته؟ هل هو كمين؟

على انه لم يكن يستطع أن يهرب من هذا المصير.

وفى هدوء قال للولد :

كتر خيرك. كتر خيرها. لا داعى للدخول.

- وفى براءة وحياء قال الولد :

لا والله. لقد وضعت لك الغداء فى الفناء. تفضل كل غداءك.

... واطمأن ممدوح، فتحرك فى بطء وتثاقل ودخل وهو يقول لنفسه :

- هذه فرصتك لتعرف تفصيلات البيت. باضت لك فى القفص يا عم.

وفى فناء الدار جلس، وأمامه طعام كثير. طعام بسيط وفقير. لكن كثير. كثير من الخبز، وكثير من الغموس. مش وجبن، وطبق طبيخ، وقطعة شمام. شئ هائل. وأخذ يأكل فى بطء وتأن كان يريد أن يرى البيت تماما، ويعرف تفصيلاته.

- وكنت تريد أن ترى شيئا آخر يا خبيث.

- تريد أن ترى أم الشحات، وكيف ذاب فيها الحاج غضبان.

- ولم لا؟ يقولون أنها حلوة وجذابة.

- وخضرة.. الأرمل الصغيرة الحلوة..الا تريد أن تراها؟

- ومن قال إنى لا أريد. هل يرفض أحد أن يرى الجمال، إلا إذا كان جلفا غليظ القلب. الله جميل يحب الجمال.

- ... يا ... خى!!



وأخذ يتطلع إلى البيت وما فيه. نعم فان حديثه مع نفسه لا يصرفه عن مهامه، انه يفتح شهيته!

هذا هو الفناء كأنه إطار جميل لشجرة التوت الفارغة القديمة.

وعن يمين مندرة الضيوف. نعم لابد أنها المندرة، فإنها منعزلة عن البيت، ولها شبابيك على الطريق، وشبابيك على الفناء، وأمامها مصطبة كذلك تطل على الفناء. لابد أن الحاج غضبان قد كان يجلس هنا على هذه المصطبة، ليكون متصلا بالفناء، يرقب ويرى! ويتمتع!

وعن يسار حظيرة البهائم. أنها منفصلة عن الفناء بسور من الخشب. سور بسيط، لكنه فاصل كاف على كل حال. وفى الفناء عشة كبيرة للدواجن، والعشة مقسمة إلى عدة أقسام لمبيت الأنواع المختلفة منها، وإلى جوار العشة الفرن والكانون، حيث يعدون الخبز ويطبخون الطعام.

وفى مواجهة الباب حجرات النوم.

إن لها بابا يفصلها عن الفناء، ويفتح على دهليز طويل، عن يمينه حجرتان، وعن يساره حجرتان. وقد كان الجانب الايمن هو جانب أبو الشحات وأمه. والجانب الايسر خصص للشحات والضيوف من الاقارب، إذا جاءوا زائرين.

وقد تبين من مكانه ذاك أن لدهليز حجرات النوم، بابا مفتوحا على حارة خلفية يدخل منها النساء ويخرجن إذا اقتضى الحال.

إن "ممدوح" يتوقف عن الأكل، ليخلى الطريق للاستماع! إن صوتا يطرق أذنيه ويتبين انه صوت امرأتين فى حوار :

ـ لا تضايقى نفسك يا عمتى. دعى كلام الناس للناس.

ـ والله يا بنتى أنا عقلى طار. خايفة من الحالة. البلد كلها معنا لكن هل سيسكت العمدة والأعيان؟

ـ وماذا سيفعلون؟ وماذا فعلنا؟

- ربنا يستر يا خضرة يا بنتى. ربنا موجود.

- تعرفى يا عمة، والنبى البلد عرفت الآن كم كنت مظلومة، وكيف كان كلام الناس عنك افتراء.

- يا ليته حى ليسمع ويعرف.

- يا ليته يا عمتى... من يدرى. ربما كان ...

- الأعمار بيد الله يا بنتى. هل كان عمره سيطول؟ أبدا. لكن على الأقل كان يعرف أن أمه طاهرة وشريفة.

- كان يعرف هذا يا عمتى. كان يؤكد هذا لى كلما اختليا. لكن كلام الناس كان يحز فى قلبه.

- الله يرحمك يا شحات.

- ألف رحمة تنزل عليه.

ومضى "ممدوح" يأكل طعامه، وهو يعجب لما يسمع. أن أم الشحات تخاف من الغدر. أنها قالت كلمتها فى قوة وشجاعة، وهى الآن تفكر فى المصير.

لقد سكتت المرأتان، وبعد لحظة صمت قالت خضرة لعمتها :

- أذهب أنا لأرى ماذا يريد.

وأشارت إلى "ممدوح"، حيث كان فى فناء الدار يأكل.

وعندما أصبحت خضرة فى الفناء رآها، فارتعد عندما رآها.

دافئة كلفحة النار!

طرية كاللبن!

حامية كالشطة!

محمصة كالفول السودانى!

سمراء كالشيكولاتة!

شهية كافطار رمضان!

.. خضرة أو سمرة أو ما تكون، لكنها دائما ستكون.. حلوة..

وكاد يشهق وهو يرتعد، لكنه بلع شهقته. وسمر عينيه فى عينيها، ورعدة كأنها الحمى سرت فى جسمه.

قالت له فى صوت دافئ!

- شرفتنا يا عم. حصلت البركة.

قال فى اضطراب المحموم :

- الله يشرف مقدارك يا ست. الله يجعله دائما عامرا. الله يخليك. الله يطرح البركة فيك. الله يسعدك. الله يهنيك. الله يعطيك كل ما تتمنين...الله...

وقالت له فى مزاح :

- كفاية. كفاية. هذا كفاية وأكثر يا عم. هو كان يعنى يستاهل؟

قال فى لهفة؟

- يستاهل! يا...ه!! الله يخليك. الله يسعدك..الله..

وضحكت مرة أخرى وهى تقول له فى ود :

طيب طيب طيب. هلا رأيت الأولاد؟

وكاد يقفز ليبحث لها عنهم، لولا انه تذكر انه شحات، وانه مريض، وانه ضعيف ولا يستقيم مع ذلك كله أن يعدو يبحث عنهم.

على أنها أعفته منذ ذلك الاضطراب وخرجت هى تبحث عنهم.

واستعاد وجهها أمام عينيه، وأغمض عليه جفنيه، ليبقى بينهما فلا يغادرهما أبدا.

عينان كأنهما مرآتان، ترى فيهما نفسك!

وشفتان كأنهما ورقتان من ورق الورد!

وأنف مستقيم كأنه السراط!

وشعر فاحم ناعم يحيط وجهها البديع، فى رقة!

ورقبة ونحر، وصدر وخصر، وعود وظل!

وروح تسرى فى ذلك كله كأنها السر، وتجعل من ذلك كله، قصيدة رائعة من أمتع قصائد الشعر.

..ويشرد ممدوح عن الدنيا كلها فيها.

ويهز رأسه وهو يقول لنفسه :

أهكذا تترمل الجميلات؟ أهكذا تدفع الجميلات ثمن الجمال؟ لكنه ثمن فادح وثقيل. مديحة المسكينة، أو الشيخة تفيدة، دفعت ثمن جمالها، هذا الترمل وهذه الوحدة. لكن مديحة قد تكون فى وضع خاص، فهى قد اتجهت نحو الكفاح، وأصبح عليها أن تتحمل حتى الترمل، كما تحملت من قبل رحيل أبيها فى ظروف شاذة غامضة.لكن ما ذنب خضرة؟ خضرة ليست إلا بنتا حلوة جميلة. بسيطة فقيرة، لايهمها إلا أن تعيش. تأكل وتشرب وتلبس، وتحب وترقص وتغنى، وتنجب الأولاد، وتخدم أسرتها بعينيها، لماذا يخطفونه منها؟

لكنه مات يا أخى، موتة ربنا!

يا ناس. الشحات قتلوه. قتله الحاج غضبان.

هو الذى مات. لم يقتله أحد.

لأ، يا شيخ! وطرده من بلده؟ ولوعته فى غربته، ورغبته فى عودته؟ ورفض عودته إلا إذا دفع الحساب الباطل المزيف؟ كل هذا غير محسوب!

لكن ما دخل هذا فى موته؟

ألم يكن هذا سببا فى سقوطه ومقهوراً محطما؟ ألم يكن عجزه عن العودة، وعجزه عن الثأر لشرف أمه المفترى عليه، هو الذى دمره، وقضى عليه؟! الشحات مات مقتولا.

قتله الفساد والظلم والاستبداد، وهذه أرملته، بعد أن خطفوه منها. هذه الفتنه الرائعة، أرملة! هذه القطعة من جمال الجنة، أرملة!

وكاد الخيال يشتط بممدوح فيأخذه إلى بعيد، لولا ما وصل إلى سمعه من هذا الحوار الغريب :

- أين أخواك يا محروس؟

- هناك يا ستى يلعبان.

- وأمك تبحث عنك وعنهما. هل رأيتهما؟

- ستجدهما أمام الدار.

- وأنت ماذا أتى بك؟

- أردت أن أرجوك يا ستى إلا تذهبى معنا فى الفجر، إلى الحلقة.

- لماذا يا محروس؟

- أنا كبرت يا ستى وأريدك أن تستريحى.

- وتعرف تعمل اللازم؟

- إذا احتجت لشئ أسألك. وأمى تذهب معنا فى بعض الأحيان. وربنا معنا.

- لا يا محروس أنتم لا تزالون صغارا ومحتاجين للمساعدة حتى تكبروا.

- لكن عندما نكبر ستتركيننا نذهب وحدنا.

- طبعا يا حبيبى البركة فيك وفى أخويك.

- لكن قولى لى يا ستى. ما حكاية البحر؟ هل صحيح كان جدى محروس يشترى البحر؟

- نعم صحيح يا محروس.

- والحكومة منعت بيع البحر؟

ـ نعم لكنها لم تمنع السمك من الرياح. ربنا دائما يدبر للناس، قبل أن يبتلى الناس .

ومضت أم الشحات تحكى لمحروس، كيف كان جده الله يرحمه مستورا من البحر، ولما مات كان الشحات صغيرا، فلم يتجه للبحر فزادت الديون على الأسرة، حتى لم تستطع أن تدفعها.

وقالت أم الشحات لمحروس الصغير :

ـ وبعد أن عدنا للبلد ومات أبوك أخذت أسأل عن البحر، فلم يجبنى أحد وذهبت إلى حلقة السمك فوجدت هناك عددا من أصدقاء المرحوم جدك. قالوا أن حكاية البحر هذه انتهت، وحلت محلها رخص لصيد السمك. رخص سنوية تتجدد كل سنة. وعرضوا على أن يستخرجوا رخصة باسمك يا محروس، وانهم سيتولون الأمر شركة معنا. واستخرجوا الرخصة شركة، وسنترك شركاءنا يعملون بالليل، ونذهب إليهم فى الفجر، لنعمل معهم حتى الضحى، ونجمع السمك، ونذهب به إلى الحلقة. أنا يوم وخضرة يوم، وأنتم معنا تتعلمون، ربنا يخليكم ويطرح فيكم البركة.

واستأنفت أم الشحات حديثها :

ـ إن ربنا سيرسل لنا الرزق من أوسع باب إن شاء الله.

وأخذ ممدوح يهز رأسه معجبا ومتعجبا، وهو يفكر فى حكاية الحلقة هذه.

شجاعة الست أم الشحات. وصاحبة عزة وكرامة.

وتمنى لو يراها. انه يسمع صوتها، لكنه يريد أن يراها.

وعندما خرجت قال فى نفسه :

أى والله. قريب. أنت قريب تجيب دعوة الداعى إذا دعاك.

وأخذ يطيل النظر إليها.

نعم هى حلوة ورائعة. أى والله حلوة.

قالت له فى حنو بالغ :

هل آتى لك بشئ؟

قال فى صوته الضعيف :

ـ كتر خيرك يا ستى. الله يخليك. الله يطول عمرك. الله يسعدك.

وظل يدعو، وهو فى طريقه إلى خارج الفناء، يتمهل ويتباطأ، فى انتظار عودة خضرة، فلما قابلها قادمة، ومعها ولداها، تزود منها بنظرة طويلة، لتظل دائما فى عينيه، بين جفنيه.

وعندما عاد ممدوح بعد ذلك إلى مكانه عند الساقية، ألقى بالخرج من على ظهره، وأخذ يخرج لعمه "أبو المكارم" أصنافا مختلفة وهو يقول له :

تفضل، رغيف.. رغيفين..ثلاثة! وفول نابت، وترمس، ورغيف محشو بالأرز! تفضل خذ من طيبات الله. خذ. كله من عند الله.

وأخذ يرفع صوته بالنداءات التى قضى يومه يناديها :

حسنة صغيرة تمنع بلاوى كثيرة. لله يا محسنين. يا محسنين لله. حسنة لله.

ويخرج أصنافا أخرى كثيرة وهو يقول :

ـ لم يعد ينقصنى يا عمى "أبو المكارم" إلا أن يكسونى.ويزوجونى ..ويربوا لى الاولاد! كله حسنة لله يا أسيادى. يا أسيادى حسنة لله. شئ بسيط جدا وسهل. ماذا؟ هذه الخرق، وهذا الشعر القذر المنكوش، ومنديل مربوط على العينين، "وسلبطة" ! وكل شئ يأتيك حيث تكون. الناس تريد أن تتصدق. فلنأخذ منهم الصدقة، بدلا من أن يأخذها من لا يستحق! "رزق الهبل على المجانين"! بلد !.بلد من غير عمدة! لا والله وفيها عمدة. لكن عمدة صفيح، كأنه غير موجود!

وكان أبو المكارم يتلقى هذه الأشياء، وهو يضحك من أعماق قلبه.

ولم يكن بعض هذه الحسنة يعجبه. العيش المغموس فى المش! والأرز النى! وزفارة السمك! وأشياء أخرى كان يمسك بها، وقد لوى وجهه عنها، متقززا منها، متبرما بها.

قال ممدوح :

- أنا قررت أشتغل شحاتا. مكسب سهل، بلا جهد! ما رأيك؟

أشار أبو المكارم منكرا ومستنكرا وشغل عنه بوضع الأشياء الصالحة من الحسنة فى جذع الصفصافة. وبعد أن فرغ، جلس يسمع منه ما أداه طول يومه. ولما وصل بالرواية إلى خضرة قال لعمه "أبو المكارم" : تعرفها؟ يا سلام! حلوة. أليست حلوة؟! طبعا حلوة! الله.

ونظر إليه أبو المكارم دون حراك.

قال ممدوح : إيه؟ قل لى، هل أنت غاضب؟ هل أنت معاتب؟ لماذا لا ترد؟

وظل أبو المكارم كالجماد يتطلع دون حراك.

وقال ممدوح : هو..و..و..ه! تحتقرنى؟ ألأنى ذهبت لمهمة، فخرجت عن المهمة إلى شئ آخر؟ أعلم هذا يا عمى. لكنى انسان يا عمى. أنا انسان، ومحروم.

ولم تتحرك فى "أبو المكارم"، حتى عيناه. حتى أهداب عينيه.

وفقد ممدوح سيطرته على نفسه، وهو يهزه ويصيح : حرام عليك هذا الجمود. هل ارتكبت خطأ أو إثما؟ هل أغضبتك؟ هل أغضبت الله؟ يا عم "أبو المكارم".

وظل "أبو المكارم"، كأنه صنم.

وتركه ممدوح، وأدار له ظهره، وهو يقول : لا يرد. عمى "أبو المكارم" لا يرد. يا ترى عملت آيه يا ولد؟ ربما لأنك اشركت فى الحب! لكن أى شرك ذاك؟ حب مديحة أصبح ذكرى فى خزانة الزمن. ذكرى جميلة وطيبة. ذكرى عظيمة ورائعة. لكن ذكرى. أما هذا فحب. وحب واحد بلا شريك. أى اشراك فى الحب إذاً؟ مديحة قد صارت حرما

مقدسا كمقامات الأولياء ...تزار قربى إلى الله. وأنا؟..أنا أريد حبا. أريد انسانه مثلى من لحم ودم، بلا قداسة ولا تقديس.

وكان عمه أبو المكارم يسمع ويهز رأسه، فذهب إليه ممدوح، وفهم عنه انه قلق من هذا الحب من أجل الأولاد الصغار اليتامى.

وصاح ممدوح : يا عم قل هذا من زمان! لا اطمئن. الأولاد فى عينى. ثم.. لماذا العجلة؟ واحد مثلى شريد طريد، بلا آهل ولا أسرة. لماذا يتعجل؟ ولماذا تستنتج أنت هذا الاستنتاج؟ دع الأمور تجرى فى أعنتها.ولا تبيتن إلا خالى البال.

على أن هذا لا يمنع أنها حلوة..جدا. ياسلام!! ماذا أقول؟.. ماذا أقول؟ ماذا تقول يا ممدوح؟ تعرف القمر وهو بدر، فى ليلة النصف، فى هدوء الليل، فى الربيع؟ تمام. هى تمام! عندما تجلس تنظر إليه، تجده أسمر وأبيض وأصفر. تجده يضحك ويبتسم ويزم شفتيه ويدعهما تسترخيان. تجده يرقص ويغنى ويطرب ويهتز. تجده يجلس ويقف ويسير ويجرى. تجد كل ذلك فيه، فى وقت واحد، وأنت تنظر إليه وتتأمله عند الصفصافة، على جسر الرياح. هى القمر وهو بدر يا عم "أبو المكارم". فيها كل شئ. دنيا كاملة ...بل دنيا وآخره. يا بخت من كانت هذه آخراه!

وهز أبو المكارم رأسه، وعيناه هناك على فردة الشراب الاحمر.

ومرت أيام، وطلب ممدوح من عمه "أبو المكارم"، أن يلبسه ملابس شبل، فلما عجب منه أبو المكارم، قال ممدوح : من يدرى. ربما نحتاج إليها.

ولبس ممدوح ملابس شبل، وخلعها ثم لبسها، ليطمئن إلى انه يحسن استعمالها والتخفى فيها.

وبعد أن اطمأن إلى نفسه فيها قال لعمة أبو المكارم :

والآن يا عمى فكر معى فى صفة أخرى أدخل بها البلد. دخلت مرة شحاتا، لكن يستحسن أن أدخل هذه المرة بصفة أخرى. فكر لى يا عمى.

وأخذ أبو المكارم يفكر، وبعد أخذ ورد ودعابة ومزاح، قال له : صلح "بوابير جاز". كثيرون يأتون من البندر لهذا، ولا يثيرون انتباه أحد، ولا يسألهم أحد عن شئ.

وهز رأسه وقال :

لكنى لا أعرف كيف أصلح وابور جاز. على كل حال، أتدرب على هذا. سهل... هذا عمل بسيط وسهل.

وبعد أيام كان قد تدرب تماما على تصليح وابورات الجاز، فلبس لباسا خاصا، وحمل شنطة من القماش فيها الأدوات اللازمة، وعدد من أبر التسليك ومشى ينادى فى طرقات القرية وحواريها.

نصلح بوابير الجاز. بوابير جاز نصلح. نصلح بوابير الجاز.

ناداه رجل من أهل القرية وقال له :

تصلح هذا الوابور، أو اكسره أحسن عذبنى!

وأصلحه، وأعطاه لصاحبه وهو يقول :

صار جديدا والله أحسن من الجديد يا شيخ. هيا جرب.

وعالجه الرجل، فوجده قد أصلح. وأوقده فكانت له نار قوية صافية.

وعجب الفلاح الساذج، وقال له : أنت إما شيطان، أو ولى..

وضحك ممدوح وهو بقول له : شيطان أحسن.

قال الرجل : شيطان أحسن من الولى؟

قال ممدوح : على قدى. هل أنا أنفع وليا صالحا؟! يا عم "خليها على الله "!

وعجب الفلاح من أمر هذا العامل كثير الكلام، وقال له :

تعرف! عقوبة لك، سأفسده مرة ثانية.

قال ممدوح فى تحد :

"تبقى راجل" . أرنى. هيا أرنى. إن ما أصلحه أنا لا يفسده أحد.

ووضعه تحت الطلمبة، وأنزل عليه الماء. وصاح : سددته لك. تفضل.

قال ممدوح : هات وأنا أوقده لك.

وفى ثانية كان ممدوح قد أوقده.

وأخذه الفلاح ورش عليه ترابا . ثم صاح : سددته لك. تفضل وفى أقل من ثانية كان ممدوح قد أوقده.

وقال الفلاح : لأ شيطان بحق وحقيق. تعرف، عقوبة لك. لن أدفع لك عن ذلك شيئا.

وهز ممدوح رأسه وهو يقول :

ـ رزقى ورزق أولادى عليه..هو.

ومشى، وهو ينادى :

ـ نصلح بوابير الجاز

لكنه ما أن مشى، حتى شعر أن شيئا يسقط فى جيبه، فوضع يده، فوجد نقودا ولم يعبأ بأن يتحرى. انه لا شك صاحب الوابور، أنبَّه ضميره، فجاء وراءه، وأسقط الاجرة فى جيبه، فى صمت وهدوء.

ونادته امرأة عجوز وقالت له :

ـ تعال يا بنى صلح المخروب، فان نفسى انقطع من نفخ الكانون.والرجال دائما يطلبون "شاى.شاى.شاى " كنا زمان مرتاحين، لا شاى ولا "شئ" . زمن! عشنا ورأينا يابنى! وأنت هل تشرب الشاى؟ هل تعذب امراتك أو أمك كل ساعة والثانية بطلب الشاى؟ صلح الوابور. وأنا أعمل لك عليه "شاى" . أرنى همتك.

وظلت تتحدث وهو يصلح الوابور حتى انتهى، وأوقده، وارتفع صوته، والنار فوق هامته كعمامة حمراء.

قالت المرأة :

ـ "الله!.. يا حلاوة. طب والنبى لاعمل لك شاى".

وبينما كانت تعمل الشاى أخذت تروى له حكايات وقصصا عن البلد وأهل البلد وكان فى مقدمة ما روت قصة زواجها، والأيام الحلوة الغالية مع زوجها المرحوم. وأولادها. البنات تزوجن، وذهبن إلى بيوت رجالهن، والأولاد تزوجوا وأتوا بزوجاتهم إلى هنا. لكن زوجات هذه الأيام! أجارك الله. حتى بابور الجاز لا شأن لهن به. الشاى أنا التى أعمله للرجال. الشاى ...حتى هذا الأمر التافه البسيط لا تعمله واحدة منهن! هات "يا أمَّه". أعملى "يا أمَّه". خذى "يا أمَّه". وأين الزوجات؟ لأ ..ولماذا؟ أنا محقوقة!!

وعندما فرغت من الشاى، أخذت تشرب وتعطيه!

وكلما شرب كوبا، تكون هى قد شربت أربعا!

وكلما فرغت من دور، أقسمت لتعلمن دورا ثانيا. ثلاثة أدوار ...ألست فلاحا مثلنا؟ لا بد من ثلاثة أدوار. هل الشاى يكون شايا إلا بثلاثة أدوار؟

ولما شرب الثلاثة أدوار كوباً من كل دور، كانت هى قد شربت أربع مرات كل دور.

وعندما حسب الحسبة : قال : يا خبر. لكن أين ذهب كل هذا الشاى؟ هل هى بطن أم قربة. شئ غريب.

وأراد أن ينصرف، فقالت له : "لأ.. تطفيه وأولعه أنا، لأتأكد انه أتصلح".

وفعل. فلما أوقدته قالت : تقعد، لنعمل شايا آخر.

قال : تانى! لماذا؟

قالت : وهو الوابور يبقى أتصلح من غير شاى؟! "أهو ولع وولع. نعمل شاى ...أقعد أقعد."

قال : لا والنبى. أنا عندى شغل.

صاحت به وهو يغادر فناء المنزل : وكم الأجرة يا بنى؟

قال وهو يفلت بجلده : وصلت يا خالة. كفى الشاى الجميل ثلاثة أدوار!

وعندما وصل إلى منزل الشحات، وقف قريبا من الباب ينادى :

نصلح بوابير الجاز. نصلح بوابير الجاز. بوابير الجاز نصلح.

ولم يخرج إليه أحد، فرفع عقيرته بالنداء :

بوابير الجاز. أنا أصلح بوابير الجاز... بصلح أنا بوابير الجاز.

ولم يجد أى صدى لهذا النداء، فأخذ يردده منغما كأنما يغنيه :

بنصلح بوابير الجاز. بوابير الجاز نصلح. أنا..أنا..أنا أصلح بوابير الجاز.

لكن أحدا لم يرد، ولم يبد أن فى البيت بوابير جاز.

وبدت أغنيته حزينة باكية، وهو يلقيها كأنها نحيب وبكاء :

.. أصلح بوابير الجاز. بوابير جاز أنا أصلح.

وكاد يقول لولا الحياء :

يا خضرة أنا أصلح بوابير الجاز! والنبى يا خضرة باصلح بوابير الجاز. أعملى معروفا يا خضرة صلحى بوابير الجاز. فى عرضك يا خضرة اتركينى أصلح بوابير الجاز.

وعندما كاد اليأس أن يقتله، خرج له محروس بوابير الجاز.

ووثب إليه فى فرحة غامرة وقال له :

هل أجلس تحت التوتة فى الظل؟

قال محروس فى براءة :

طبعا.. تفضل! ضرورى تصلحه حتى نطبخ عليه سمكا..غدا.

إننا ذاهبون للصيد فجر غد، وإن آملنا كبير فى كرم الله وجوده.

ودخل ممدوح وأخذ يعالج الوابور. فكه قطعا واحدة واحدة. انه يتمنى أن يستمر هنا يصلحه بقية حياته. أى والله. الظل حلو.. هنا!!

الظل...والا؟..

الاثنان. كل منهما أحلى من الآخر.

وأم الشحات؟

هى أيضا حلوة...حلوة!

يا حلو ...يا حلو!

..هكذا كان يقول لنفسه، والوابور مفكوك بين يديه.



رزقك فى رجليك يا واد! اسمع!

صحيح رزقك فى رجليك، يا ممدوح.

هى ذى قادمة..فى خطو رقيق كأنه النغم، تتمايل فى تعاجب، كأنما تعرف نفسها، تسبقها دائما نفحة طيبة تدل عليها.

يا خبر...الحقونى... لقد جلست إلى جوارى !! سأموت!! ستحرقنى! وكاد يصيح مستغيثا ! كان من قبل يستغيث بها والآن يستغيث منها.

وفى بساطة تربعت إلى جواره، وهى تطل عليه، لترى ماذا فعله بالوابور.

..ثم تنظر فى وجهه، وتضع عينيها فى عينيه.

رحت يا ممدوح! دخت!

قالت : صلحته؟ والا معاكسك؟!

قال فى ارتباك : معاكسنى...قوى!

قالت فى بساطة : وأقدر أساعدك؟

قال لها فى انفعال شديد : تقدرى ..قوى!

قالت وهى تتزحزح مقتربة منه، وعيناها فى عينيه : أرنى...كيف؟

وعندما مدت يدها إليه، أمسك بكفها..وغاب عن الدنيا.

أغمض عينيه وغاب! آه لو ترضى! إذاً لقبل كفها، ونام على صدرها، لا يصحو أبدا!

لكنه أفاق، ليقول لها كلاما لا معنى له : هاتى...هنا.. شوفى ترين..المرض هنا.. آه.. الوابور يمرض مثلنا.. لا تضحكى.

وتمنيت أن تمضى تضحك، لتتفرج أوراق الورد عن شفتيها ويبين صف اللؤلؤ فى فمها.

- الله...الله!

- ماذا؟.. هل حدث شئ؟

- أبدا... أنا أقول الله. أنت...الله.

وساد بينهما صمت.

لا شك أنها فهمت. أنها ليست صغيرة ولا غبية. خلفت ثلاثة أولاد، وكل ولد سبقته هذه التنهدات.

وقال فى نفسه :

الله يرحمك يا شحات. تمتعت قبل أن تموت. غيرك يموتون "سادة" بلا سكر! يا ترى من أى فريق تكون يا ممدوح؟ تموت "سادة" كالقهوة التى يقدمونها فى التعازى، أم بسكر زيادة، كقهوة أولاد البلد يسيحون بها العنبر، لتشتعل أجسامهم بالحرارة، وتتفجر بالنشاط. يارب اجعلنا من بركاتهم. على الاقل تصبح الموتة تستحق و"تستاهل"!

وأصلح ممدوح الوابور، ولمعه، وأوقده، وناوله لها.

وضحكت له وهى تقول : يا حلاوة. كأنه جديد.

وقالت له فى صوت خافت، كأنما تخجل أن تسأله : كم؟ كم الأجرة؟

ولم يرد...اكتفى بأن ربت على كفها فى حنان، واستند إليها وهو يقوم..ومضى.

ولم تسأله. لم تلح كثيرا فى السؤال.

وعند باب المنزل، التفت إليها، فوجدها مشدودة إليه، تخطو خلفه فى تثاقل، ووابور الجاز على يديها، وشعلته الحمراء، كالنار الكامنة فى قلبه وقلبها.



والتقى بعمه "أبو المكارم" وبمديحة.

وحدثهما بما سمعه عن خروج الأسرة إلى الصيد من فجر غد.

قال ممدوح : وستحتاج رحلة الأسرة إلى مراقبة.

وقالت مديحة : لماذا؟ هل هناك خطر عليها؟

قال ممدوح :

يبدو انهم قد يقتلونها، ويلقون التهمة على واحد يريدون التخلص منه، كعادتهم.

وأخذ أبو المكارم يذكرهم بأدهم وخططه ونواياه، واعتقاده أن الشحات هو الذى قتل أباه.

قالت مديحة :

إذاً يقتل أم الشحات، ثم أولاد الشحات، ثم من يدرى.

قال ممدوح : ولابد من حماية أم الشحات وأسرتها.

قالت مديحة : وبأى ثمن؟

قال ممدوح : سأعمل كل ما أستطيع.

قالت مديحة : وحدك؟

قال : نعم وحدى.

قالت : لا والله يا ممدوح. تحتاط أحسن.

قال : إذا وجدت ضرورة للاحتياط، فسأعمل.

قالت : من الآن تحتاط. أرسل فى طلب أحد.

قال : من؟.. من؟..من؟.. يا ترى من؟ هل أحضر مبروك الحنطور؟

قالت وهى تسأل فى استغراب : مبروك الحنطور..مبروك الحنطور من؟

قال لها : مبروك "بتاع خرابة النداهة".

قالت : يا..ه مبروك، ووردة النقرزان ..وزبيدة البطة وناعسة الحرامية. الدنيا صحيح "بتلف"!! ما هذا؟ والشيخ العبيط، والمولد..وأنت يا ممدوح لما وقعت فى شارع قصر العينى ..دنيا غريبة!! سأراه مرة ثانية؟..

قال ممدوح : إذا كنت تريدين؟

قالت : ولم لا؟ هو ووردة النقرزان؟

قال : هذا ممكن، وسيسرهما أن يحضرا لزيارتك.

قالت : على إنى مديحة؟

قال : بل على أنك الشيخة تفيدة، أرملة الشيخ أبو عوف.

قالت : لكنه قد يعرف الحقيقة.

قال : ولماذا يعرف؟ انه لا يعرفنى على إنى ممدوح. أبدا ولا يجوز أن يعرف الآن على الأقل. إنى عنده الشيخ عبد الرءوف، خليفة أبو عوف. لقد أصبح مبروك الحنطور الآن معلما "قد الدنيا" ووردة النقرزان لا تزال حيث هى فى قهوة المنيرة.

قالت مديحة : وهلا تزال علاقتهما كما كانت حرمانا فى حرمان؟

قال ممدوح : أنها كما هى. حياتهما كما هى. على كل حال من الممكن أن يحضرا لزيارتك، وتقفين بنفسك على ما صار إليه الحال.

قالت مديحة : والنبى يا ممدوح. لقد أوحشانى.

قال ممدوح : أمرك يا ست الشيخة.

قالت مديحة : على أن هذا شئ، وموضوع الشخص الذى تحضره ليساعدك شئ آخر.

قال ممدوح : نعم هذا صحيح، وسأرى كيف أدبر الأمر، فإن كثيرين من إخواننا لديهم أعمال أخرى قد تمنعهم من إقامة طويلة هنا.

قالت : هذا شأنك. المهم هو الاحتياط.

قال : حاضر يا ستى الشيخة. أمرك.

وضحك أبو المكارم وهو يربت على كف ممدوح.



وفى الصباح خرجت الاسرة مع الفجر إلى جسر الرياح فى الطريق إلى المحطة ليبدأ عملها الجديد.

ولم تكن تدرى أن حولها حراسة مسلحة، فقد كان ممدوح يسير وهو منها غير بعيد ويده على سلاحه.

وكانت أم الشحات تبدو فى صحة وعافية، وكانت تتحدث طول الطريق إلى الأولاد وتروى لهم ذكريات طريفة كلما مضت بين هذه الحقول.

هذه المنطقة يا محروس كان يستأجرها جدك من عشرات السنين. وكم كان رحمه الله يحب الحظ. فى موسم الحصاد، كان يستقدم المغنين من البندر ليملئوا الدنيا غناء ويشجعوا الأنفار على العمل فى همة. وكنا نأتى إليه هنا لنسمع أصدقاءه المغنين. فى الفجر كانت أصواتهم تجلجل فتملأ الناحية طربا. الله يرحمك يا حاج محروس. هل تعرف يا محروس يا بنى أن جدك قد كان رجلا طيبا كريما. كان شهما. إن شاء الله ربنا يأخذ بيدك وتطلع مثله يا محروس.

وهذا التين. هل تعرف يا شبل قصة الأسلحة التى أخذها شبل، وأخفاها هنا عند التين؟ اسمع يا شبل يا بنى ماذا فعله سميك؟ كان جريئا جدا. كان جسورا إلى درجه لا تصدق. أى والله! هل سمعتم عن واحد يأخذ سلاح الحكومة هكذا! سلاح النقطة كله، أخذه وأخفاه هنا. طبعا الحكومة هاجت وماجت ونقلوا الضابط، وشتتوا أفراد القوة، لكن الضابط الجديد كان سبعا. عثر على الأسلحة. كيف؟ لا يدرى أحد ! إن شاء الله يا شبل يا بنى تكبر وتبقى مثل شبل شهامة وجرأة.. لكن فى الخير. فقط فى الخير.

قالت خضرة : وهل شبل عمل حاجة للشر يا عمتى؟! والله كانت أيامه كلها خير. كان يقدر واحد يعتدى على واحد؟ كان يقدر واحد يظلم ويفجر ويستبد؟ كان يفرج عليه العالم. والنبى كان يسخطه يعمله "نسناس"! الله يرحم أيامه، ويرحمه إن كان مات.

قالت أم الشحات : ويرحمه أيضا إذا كان حيا. هل الرحمة مقصورة على الأموات؟ كلنا محتاجون للرحمة يا بنتى.

قالت خضرة : قولى لى والنبى يا عمة لما شبل رجع البهائم، ماذا حدث؟

قالت أم الشحات : عدوك على "أبو سريع" مات فى جلده! لكنه كان فاجرا. لقد حاول أن يستعدى العمدة والمشايخ والأعيان عليه، لكنهم كانوا يسمعون صيحات "أبو سريع" وهم يرتعدون من الخوف من شبل. وذهب إلى النقطة، ليثير الضابط عليه. لكن هذا لم ينفع بشئ. البهائم رجعت، ولم يستطع أبو سريع أن يفرض إرادته.

بعدها طرده من البلد. ليدارى وكسته.

وشعر ممدوح أن هناك همسا بين أشجار التين الشوكى.

وتبين أن ناسا يستمعون لحديث أم الشحات.

وأخذ يرقب هذا الهمس، وعندما بعدت الأسرة صار الهمس كلاما واضحا مسموعا، فأخذ يتابع الحوار فى يقظة وانتباه.



ـ هل سمعت بأذنيك؟ الشحات سمع مثلما سمعت أن "أبو سريع" هو السبب. هو الذى طرده من بلده ومن بيته. هل يحب "أبو سريع "؟

هل تنتظر منه أن يحب "أبو سريع"؟

ـ طبعا لأ...

ـ ويسعى للتخلص منه.

ـ وبالقتل؟

ـ بأيه وسيلة. المهم ينتقم، ولا تصبح أمامه عقبة ليعود.

ـ هو الذى قتل أبى.

ـ يعلم الله يا أدهم.

ـ بل هذا محقق، وأكيد.

ـ على كل حال ربنا انتقم منه، ومات.

ـ وأولاده...أتركهم أحياء، بعد أن قتل أبوهم أبى.

ـ يا أدهم لا توسع الموضوع. يكفيك فى أبيك، أم الشحات.

ـ ولا الدنيا كلها تكفينى فيه. سأبدا بها.

ـ وبعدها يحلها ربنا.

ـ وبعدها أولاد الشحات.

وهز ممدوح رأسه، وهو يقول لنفسه : أنا قلت هذا. أنا كنت أعرف أن أحد يحرضه. عبيط لا يدرى من أمره شيئا، وهذا الرجل يحرضه ليقتل أم الشحات.

لكن لماذا؟ وماذا سيستفيده؟

وعندما افترقا، مضى ممدوح وراء الرجل الذى يحرض أدهم، دون أن يراه.

وقد سار الرجل على جسر الرياح، كأن لم يحدث شئ، لكنه عندما وصل إلى الطريق المنحدر إلى البلد عند الجميزة القديمة، نظر خلفه ثم نظر أمامه، ثم اختفى بين الحقول، دون أن يدرى أن ثعلبا ماكرا سبقه إلى حيث اختفى.

والتقى الرجل بشيخ البلد وكان ينتظره هناك، ودار بينهما حديث هامس :

ـ ملأته. ملأت رأسه، فلم يعد أحد قادرا على تغيير عقيدته. انه الآن مؤمن أن الشحات قتل أباه.

ـ وماذا سيفعل؟ سيقتلها؟

ـ أم الشحات. نعم سيقتل أم الشحات



ـ متى؟

ـ خلال أيام.

ـ يجب أن يسرع، فإن الابطاء ليس فى مصلحتنا.

ـ لكن لماذا الاسراع؟ على مهمله حتى لا يمكسوه

ـ لا تخف فلن يمسكه أحد : الترتيب تم. وسيكون هذا مصير من تتجرأ على أسيادها.

ـ وماذا فعلت؟ ماذا كانت تفعل؟

ـ كانت تطيعه.

ـ لو أطاعته اتهمت بالطمع فى ماله وإذا لم تطع صارت قليلة الأدب، تطاولت على أسيادها. "والله غلبنا يا شيخ البلد".

ـ أخرس يا كلب. إياك تتكلم كلمة زيادة.

ـ حاضر يا شيخ البلد. سكت خرست.



وأخذ ممدوح يرقب الموقف.

وفى فجر يوم من الأيام، صحا من نومه مفزوعا، فأسرع إلى حيث يرقب الطريق.

وعندما ظهرت له الاسرة فى رحلتها اليومية إلى الصيد اختفى عن الأنظار.

وأخذت أم الشحات تحكى للأولاد رأيها فى الصيد والمحصول الذى حققوه آخر مرة، وكيف يمكن أن يضاعفوه، بوضع شبك أكبر وتوزيع السنانير على أماكن أكثر.

وأحس ممدوح وهو يسمع لها أنها امرأة شجاعة وعز عليه أن يكون مصير هذه الروح معلقا بأصبع طائش، على زناد مسدس!

لكنه هز رأسه، وهو يؤكد لنفسه أن مصير هذه الروح غير مهدد بشئ! إن الله معها.

وفى قبالة أشجار التين الشوكى، تحرك شبح فى غسق الفجر، فأطل ممدوح عليه ليرى من يكون، ولما وجده أدهم، أسرع نحوه، ليرى ماذا ينوى أن يفعل.

وعندما رأى المسدس فى يده، ورآه يعالجه ليكون مستعدا لأطلاق النار وثب إليه وضربه على ساعده ضربة سريعة قاصمة، فسقط المسدس من يده.

وأراد أن يلتقطه فصاح فيه : مكانك. لا تتحرك والا قتلتك.

وصاح فيه : أمامى. أدر وجهك إلى بحرى وسر أمامى.

وعندما فعل، تناول ممدوح المسدس الملقى على الأرض ووضعه فى جيبه، وظل يسير خلفه، حتى وصلا إلى الساقية.

وتوارى عم أبو المكارم من الجسر، لكن ممدوح كان قد لمحه وهو يتوارى فنظر إليه، وغمز له بطرف عينيه وابتسم.

قال للفتى الذى يسير أمامه : إلى اليمين.

ولم يجد طريقا إلى اليمين. فصاح فيه : ألم أقل لك إلى اليمين؟ سر على هذه القناة التى عن يمينك.

وسار على القناة الصغيرة بحذاء حديقة العمدة، حتى آخرها.

وهناك قال ممدوح : إلى اليمين.

وفى هذه المرة دار إلى اليمين، حتى وصل الخص المهجور.

قال ممدوح : ادخل الخص.

وعندما دخل الخص قال ممدوح : اجلس ساكنا لا تتحرك، والا أطلقت عليك النار.

وأخذ يوثقة بحبل غليظ، حتى أصبح كومة لحم تتنفس، ثم كمم فمه فلم يعد قادرا على الكلام.



وكان ممدوح يعرف من تجربته أن أهم ما يسعى إليه الأشرار من المحتالين المحترفين، أن يحصلوا على أجرهم. إن بقية المقاولة شئ يهمهم أكثر من أى شئ آخر.

لهذا، فقد أسرع إلى المكان الذى التقى فيه الشقى وشيخ البلد.

وعندما رأى شيخ البلد قادما من بعيد، أدرك على الفور أن اليوم لقاء.

ووصل شيخ البلد إلى الجميزة القديمة العجوز، فى طريق محطة السكة الحديد ثم مال عن يسار، وتلفت حواليه فى حذر، واختفى بين الحقول.

ولم يضع ممدوح الوقت، فعاد إلى الخص، وحمل أدهم على كتفه وهو موثق لا يستطيع حراكا ولا كلاما، وذهب به إلى مكان آمن يستطيع أن يسمع منه ما سيدور بين شيخ البلد وصاحبه.

وبعد لحظات، جاء الشقى الذى رآه ممدوح من قبل مع أدهم، ثم مع شيخ البلد.

وكان بينهما حوار :

ـ أين بقية الأتعاب يا عم؟

ـ وأين ما اتفقنا عليه؟

ـ "زمانه قتلها خلاص"!!

ـ لا. لا يمكن. كنا عرفنا. كانت البلد كلها عرفت.

ـ البلد تعرف ساعة ما يضربها بالنار!! ضربها ..ضربها بالنار عند التين الشوكى من عشر دقائق!

ـ أدهم ضرب أم الشحات؟

ـ عيب! "هو أحنا بنلعب"؟!

ـ لكن ...الا تنتظر حتى نتأكد؟

ـ يا رجل عيب! تتأكد مم؟ من شئ أنا عارفه وفاهمه؟ هات بقية المقاولة. مائة ..والله ما آخذ أقل من مائة.

ـ البقية خمسون. بقية المقاولة خمسون. لماذا مائة؟

ـ حلاوة على روحها. إلا تدفع عنها حلاوة؟

ـ طيب. خد.. حلال عليك. الآن ذهبت الشاهدة الوحيدة على أوراق الميراث. المورث مشلول، والشاهدة الوحيدة ذهبت إلى رحمة الله، ولم تبق إلا الأوراق والشيخة..وأمر هذا سهل. إن شاء الله سهل. اذهب يا ولد...حلال عليك.



وعندما انصرف شيخ البلد والشقى الأجير. كان كل منهما يتصور انه حقق أملا.

شيخ البلد صان شرف الاسرة من أن يستهين به الصعاليك، وقضى فى الوقت نفسه على الشاهدة على أوراق الميراث.

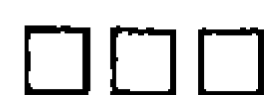
و الشقى الأجير قبض مائة من الجنيهات، وقد أخذ يستغلها بعد ما سمع كلاما عن أوراق الميراث دون أن يفهم لها معنى!!

وكانا قد خلفا وراءهما اثنين :

واحد ملثم، فى يده مسدس.

والثانى موثق مكمم لكنه سمع الحقيقة بأذنيه.

ونظرات صامتة كانت هى كل ما كان بينهما من حديث.



٧

المعلم والمعلمة! ودقات منتظمة، تتصاعد إليهما من عجلات القطار، وهى تنساب على القضبان، فتصبح جزءا من الأحلام المنثورة بين جفون تراخت، فى أعفاءة لذيذة.

بينما الشيخ قد أخذ يتمايل مع حركة القطار، وقد أسبل جفنيه والمسبحة الطويلة تتدلى من بين أصابعه، وتمتمة خافتة تخرج من بين شفتيه فى تبتل.

وناس كثيرون حولهم : بين نائم فى غطيط، ويقظان فى انتباه، وبين النائم واليقظان فى وضع كسول، كالمخدَّر.

والطرقات قد ازدحمت، حتى استحال منها مرور، من كثرة الأسبتة والقفف والصحاحير والزلع، وروائح فاقعة منها ما هو معتق كأنه من مخلفات أهل الكهف، ومنها ما هو طازج كأنما لم يستو بعد!

وباعة مع هذا يحاولون اختراق هذه الطرقات، بما يحملون من بضائع تختلف باختلاف المحطات. فى قليوب يصعدون إلى القطار بالبرتقال واليوسف أفندى، وفى بنها يصعدون بكوز العسل. وفى طنطا ترتفع نداءاتهم بحلاوة السيد وحب العزيز.. وفى كل المحطات على سواء، يحملون السميط والبيض المسلوق والجبنة الرومى، وزجاجات الكازوزة على أنواعها.

لكن هؤلاء الباعة مدربون على هذا الزحام، وهذه التلال من القفف والأسبتة التى تسد طرقات القطار. انهم يتسللون بما يحملون، وقد يثبون، وقد يقفزون فى براعة وخفة كالقرود أو النسانيس. والاشياء التى يحملونها. السميط المعلق فى عصى كأنها

الشماعات والبيض المسلوق المعروض حتى يراه الجياع فيشترون. كل ذلك لا يتزحزح وهم يجرون أو وهم يتسابقون، أو وهم يهربون. نعم هم يهربون من العساكر كأنهم يبيعون مخدرا أو يتجرون فى الافيون. لكنهم يهربون وهم يتصايحون بالاحتجاج والدعوات عليهم وعلى المتعهد بخراب البيوت!

أما المتهربون من دفع التذاكر فأمرهم عجب.

منهم من يدعى انه بوليس. يقولها فى همس وأشداقه منفوخة، ليضلل الكمسارى ويخيفه فلا يلح عليه بالسؤال. وكثيرا ما تخدعه الطريقة، فيبتسم له كمن يرحب به.

ومنهم من يدعى انه أبونيه. يسرها للرجل وهو يتشاغل عنه بحديث مع جار آو بجريدة يقلب فيها... وربما بالمقلوب! وقد تمر اللعبة من كثرة الزحام!

أما إذا كان مزاج الكمسارى مقلوبا، فانه يطلب الاثبات. ويأخذ "البوليس" أو "الأبونيه" يقلب فى جيوبه مرة ومرة ومرات، ونظر الكمسارى جامد مثبت فيه، حتى إذا ما ثبت له يقينا أن المسألة نصب فى نصب، بدأ يتخذ الاجراءات لتطويق صاحب الادعاء.

ـ أنت لا تعرف من أكون.

ـ ولا يهمنى أن أعرف. أنت راكب بلا تذكرة، وتكذب علىَّ.

ـ ستندم أشد الندم.

ـ أنا أطوقك أولا، ثم أندم بعد ذلك.

ـ لكنك لا تستطيع أن تطوقنى.

ـ هات التذكرة.

ـ بوليس. قلت لك "بوليس".

ـ هات إثبات الشخصية.

ـ نسيتها فى بدلة أخرى.

ـ قل هذا الكلام فى المحطة الآتية.



هناك كذلك فريق من الركاب لا يدعى انه بوليس أو أن معه "أبونيه"، ولكنه يريد أن يركب ولا يدفع.

مسافة بسيطة. محطة واحدة. هل تستاهل؟

لكن الكمسارى لا يغفر ولا يتسامح. المحطة كالخط كله والمخالفة مخالفة، والمهم أن يمسك بواحد. لكن "دا بعده"! القطار طويل، وهذا الفريق من الركاب يركب فى آخر القطار إذا كان الكمسارى فى أوله، أو العكس بالعكس. ويصلون محطاتهم قبل أن يصلهم الكمسارى.

ولو جاءت "الفاس فى الراس" فان هذا الفريق يلجأ إلى طريق مختلفة. يتمددون تحت المقاعد، أو يختفون بين القفف والأسبتة.

وقد يستبد بهم الخوف من مطاردة الكمسارى، فيقفزون من القطار، فى أول فرصة تخف فيها سرعة القطار. وقد يصابون أو يموتون، لا يهم. المهم أن يهربوا من كمسارى القطار!

وفريق الدور العلوى، فى الهواء الطلق فوق سطح القطار.

هذا فريق متخصص فى الشعبطة فوق القطارات. لكن المغامرة ليست دائما مضمونة، فكم من واحد سقط قتيلا عندما اصطدم بسلك التليفون أو التلغراف، عندما يمر القطار تحت هذه الأسلاك وهو فى أشد سرعته. وكم من واحد سقط من مطاردة العساكر والكمسارية. لكن هذا الفريق لا يقل مع هذا، بل يزيد، والمتخصصون من أفراده، يعرفون أماكن الخطر فيتفادونها بالاستلقاء على بطونهم، فإذا وصل القطار المحطة، دخلوا العربات من الشبابيك دفعا لأى اتهام.

والركاب السذج ـ وأغلب ركاب القطارات سذج وحسنو إليه وطيبون ـ تغريهم المأكولات فيشترون، ويرون مطاردة البوليس للباعة، فتقف المأكولات فى حلوقهم، خشية أن تكون حراما، يدخلون بسببها النار. وهم يعقدون ما بين الحواجب، ويفتحون الأفواه عجبا مما يدور بين المتسللين من الركاب والكمسارية. لكنهم لا يتكلمون ولا ينطقون ولا يتدخلون. انهم سذج وحسنو النية وطيبون. وهم يأنسون إلى بعضهم البعض، يتعارفون ويتحدثون، وقد يتصاهرون والقطار يجرى بين المحطات، أو يتسكع على الارصفة، أو ينطوى على هذه المطاردة المخيفة بين الباعة والعساكر، أو بين المتهربين من الركاب والكمسارية.

وحديث الركاب شئ كطنين النحل، يتداخل بعضه فى بعض، ويتصادم بعضه ببعض، وتتخلله صيحات أولاد، وبكاء أطفال، وأنات موجوع، وزفرات ثكلى، وبكاء أسرة منقولة إلى بعيد، ومع هذا فهو متصل لا يتوقف، ولا يتمهل، ولا ينقطع. وانه ليبدأ بالتعارف، والتعارف لا يكون تعارفا تماما، إلا إذا تناول الاسم واللقب والعنوان، والأهل والأقارب والأصهار، والحالة الاجتماعية وأفراد الأسرة والجيران، والمرتب والعلاوات والاستقطاعات وأقساط الدين! نعم والا كانت بلوى، أساسها عدم الثقة والارتياب فى ناس شرفاء، يعرضون أسرارهم فى بساطة، فى حين يجدون الآخرين يدارون ويكتمون !

.. لماذا الاخفاء؟ ربنا يا أختى يعطيكم، أكثر وأكثر.

ـ إخفاء؟ اخفاء ماذا؟..لا شئ يستحق الاخفاء.

ـ هل سنحسدكم؟ أو سنحسدكم؟ أو إننا سنحسدكم؟

ـ يا ستى أبدا. والله أبدا.

ـ إذاً تقولين. هل معقول أنك لا تعرفين؟

ـ نعم لا أعرف. وزوجى لا يقول لى شيئا عن دخله أو مرتبه.

ـ آه! جائز! يمكن!

ـ هذا هو الواقع. انه يوفر لى حاجاتى وكفى.

ـ وأنت تسكتين ...أى خيبة؟! أى بلوى؟!

ـ ولم يا ستى؟ وماذا أريد منه إلا هذا؟

ـ ولا تعرفين مرتبه وكل شئ يكسبه؟

ـ ولماذا أعرف؟

ـ لأن هذا ملكك. كل شئ يكسبه ملكك.

ـ ملكه هو.

ـ يا مصيبتى! يا مصيبتى! أنت مجنونة؟

ـ لم؟ قولى لى لم؟ أليس مرتبه هو؟

ـ وإذا راح لواحدة ثانية؟

ـ كيف يحدث هذا؟

ـ بفلوسه يا خايبة.. بفلوسه!

ـ لست أفهم يا أختى. لست أفهم.

ـ خذى مكسبه يا أختى حتى لا يبقى له شئ فيتزوج به.

ـ يا شيخة!.."فال الله ولا فالك".

ـ لا تصدقين!! اعرفى شغلك، لكن اياك أن تشكى بعد ذلك.

ـ انه يحبنى...جدا.

ـ وأنا أيضا، كان يحبنى جدا.

ـ وماذا حدث لك.

ـ ما يحدث للناس كلهم. خاننى الخائن وراح لواحدة من طينته ومن ثوبه.

ويبدأ بكاء وعويل، ودعاء على من كانت السبب، بينما صاحبتها تطيب خاطرها وتؤكد لها انه سيعود، وانه سيعرف الفرق بين الجنة والنار، وأن الرجال قد يزلون لكنهم يعودون إلى بيوتهم، بعد أن تعود عقولهم إلى رءوسهم.



المعلم والمعلمة وحدهما قد غفلا عن ذلك كله، فأغفيا.

ومع حركات القطار كانا يتمايلان. يتقاربان مرة، ويتباعدان أخرى. لكن أنفاسهما كانت تصدر حارة، تلفح وجوههما بما بين الضلوع من جمر النار.

وينظر الشيخ عبد الرءوف إليها وإليه، ويهز رأسه، فتهتز معها ذقنه، وتهتز كذلك شفتاه فى انفعال وعصبية ورثاء، وقد تتوقف أصابعه عن المرور على حبات المسبحة مشاركة فى هذا الشعور.

مسكينة يا معلمة وردة!

وأنت أيضا مسكين يا معلم مبروك!

...لا تزالين ولا يزال : وردة النقرزان، مبروك الحنطور.

بل أنت تزدادين أغراء، برغم هذا الجفاف. إن عود الزان يزداد نعومه كلما جف. والمسك ينثر رائحته، على الوجود، بعد أن يختزنها فى عوده الرشيق لتتضوع بعد ذلك فى رقة تخدر الأعصاب.

صحيح الأصيل أصيل. والزمن لا يهد الأصيل، وإنما يزيده فتنة وإغراء، وأنت أصيلة يا معلمة وردة. يا عود المسك، يا نقرزان.

يا شيخ عبد الرءوف! استح!

لكن لم لا؟ أليس الله جميلا، يحب الجمال؟

ثم من أنت؟ شيخ من، يا نصَّاب؟!

.ويتطلع الشيخ إليها، وهى غافية، فيجدها تزداد مع الزمن فتنة، وتبدو مع الأيام أكثر إغراء. أنها تقطع أيامها عكسا. أنها تصغر وردة النقرزان. وملابس الرجال هذه لا تخفى مفاتن الأنثى وهى تتثنى بالنداء! وجفاف اللهجة تلك لا تمنع الصوت المبحوح من أن يكشف ما فيه من شروخ الزمن وجروح التأبى!

يا وردة يا نقرزان!... حتى وهما نائمتان فيهما اغراء. عيناك فاتنتان وفيهما اغراء، برغم أن جفونك مطبقة فى خوف البخيل الحريص.

يا وردة يا نقرزان... حتى وهما مسترخيتان فيهما فتنة. شفتاك مغريتان وفيهما فتنة، برغم أنها من فرط اليأس جافتان مشققتان، كالأرض العطشى فى موسم التحاريق.

وصدرك يا وردة. وخصرك، ويداك..ورقبة طويلة أبية لا يخدع عن نعومتها أنها تلتف بياقة رجال!

والساق على الساق، والاسترخاء لذيذ، والغفوة تفضح ما يداريه جلباب الرجال فيبدو أكثر فتنة منه فى ملابس النساء.

يا وردة يا نقرزان! وشعرك الفاحم الناعم يطل فى رعونة، عندما تزيح الغفوة الطرحة من فوق رأسك العنيد.

أه لو انه يقظان! من الخير أن يكون غافيا هو الآخر_ مبروك الحنطور _ حتى لا يذهب بلبه هذا الاغراء.

مسكين يا نطور! تراها أمامك فاكهة حراما. طابت من زمن طويل، لم يذقها إلا واحد. شمها فى سرعة، ثم تركها، لتزداد نضجا كالرمان، وتزداد نعومة كعود الزان، وتزداد انتشارا كالمسك.

لكنك تخاف عليها أن تعطب. هل تعطب قبل أن تذوقها؟ هل تذهب منها كل هذه المفاتن، فلا تصبح إلا ذكرى؟!

وتذهب حياتك يا معلم مبروك!

وفيم يكون كل هذا الشقاء وكل هذا الكفاح؟ هل يذهب سدى من غير طائل؟ هل يضيع؟ هل يتبدد كانه السراب؟

ليتك لم تصبح معلما ذا شأن. كان أفضل أن تستمر البائع الصغير المشرد المحتاج، الذى يهجع فى خرابة النداهة فاقد الوعى من فرط الاجهاد، فاقد الأمل من قسوة الحاجة.

لكنك صرت معلما ...لك قوة وسلطة ونفوذ وصبيان كثيرون يسرحون بالصحف والمجلات، ليأتوا لك فى آخر النهار بالمكسب الكثير، وأصبح لك بيت مفروش، فيه سرير ودولاب وكراسى مذهبة ومطبخ، لكن بلا معنى ولا طعم ولا روح.

مسكين يا معلم مبروك! أى والله مسكين!

لا تزال وحيدا، أنفاسك هى الشئ الوحيد الذى يملأ عليك هذا السكن الجديد، تطلقها فترتد إليك كالصدى.

شئ آخر يملأ حياتك يا حنطور.

..هذه النار تأكل قلبك، وتحرق كيانك، وتستبد بك كلما خطر لك أن تنام، فتبعد النوم عن جفنيك، لتتقلب حول نفسك، على شئ كأنه أطراف الدبابيس!

وتتقلى وعيناك عليها...على صدرها، على نهدها، على خصرها ...عليها كلها، فإذا صحوت، فعيناك أيضا عليها، لكن بعد أن تكونا قد انتفختا من نوم متقطع يحطم الأعصاب.

يا مسكين يا حنطور.

ولكم قالت لك : تزوج سواى. أنا لا أنفعك.

ولكم لويت عنها وجهك متبرما بما تقول.

انها قد صارت منك، كأنها قلبك. هل تستطيع أن تعيش إذا نزعوا عنك قلبك؟ حتى القلب المريض هو الذى يحفظ للناس الحياة. حتى القلب المعلول المنهك الممزق هو صلة الناس بالحياة.

يا وردة! أنت حياتى يا وردة! إذا تزوجتنى، فهو قلبى قد شفى من علته، فاذا لم تتزوجينى، فلا تفارقينى، ولا تبعدينى، لأن ذلك معناه أن تقتلينى. هل خطر لك أن تقتلينى؟

ويزداد الشيخ عبد الرءوف انفعالا وهو يعود إلى كل تلك الذكريات. لكن انفعال الشيخ يجب ألا يتجاوز هزات خفيفة من رأسه، ومن ذقنة، وحركات سريعة من شفتيه.



وتفتح وردة جفنيها فى تثاقل.

وتتلفت إلى يسار لترى الحقول الخضراء مبسوطة أمام نظرها والقطار مسرعا يطوى الأرض طيا، ثم تتلفت إلى يمين فتجد "مبروك الحنطور" مسبلا جفنيه، وقد أسند رأسه على كتفها كالطفل، لا يجد إلا صدر أمه، يلقى بنفسه عليه مسترخيا بعد اللعب طول النهار.

وتبتسم فى راحة.

انها تحبه. تحبه من أعماقها. تحبه إلى درجة أنها لا تتزوجه!

وعندما تنظر أمامها، تجد الشيخ عبد الرءوف، يتطلع إليها فى إعجاب.

ـ أين نحن؟ إلى أين وصل بنا القطار؟

ـ بعد طنطا.

ـ وهل تزال أمامنا مسافة طويلة؟

ـ هانت. بضع محطات.

وأخذت المعلمة تتطلع من النافذة التى عن يمينها، وترتسم على شفتيها ابتسامة راضية. إن الخضرة الواسعة تلفها، فتحس أنها تأخذها فى حضنها. وتتلفت المعلمة نحو اليسار، لتجد مبروك الحنطور، لا يزال مغمضا جفنيه يحلم بها وتتسع ابتسامتها فوق شفتيها، وتكاد أن تنحنى عليه تتحسسه، لولا الشيخ الجالس أمامها، وزحام القطار المحيط بها.

وتأخذ المعلمة تتمطى فى حياء.

انها تستعيد حيويتها بعد غفوة القطار، وتنشّط جسمها بعد التراخى. وانها لتدارى شفتيها بكفها لتتثاءب، كأنما تطرد الوخم من نفسها.

وعندما تعود المعلمة إلى طبيعتها، تنظر إلى مبروك، وتقول له فى سخرية : قم يا معلم "جرايد المسا طلعت"! لكنه يمضى فى غفوته، وهو يقول لها : تطلع يا ستى. إلا نستريح؟ يوم! يوم واحد أجازة يا معلمة.

ثم اعتدل فى جلسته وأخذ يفرك جفنيه وهو يقول : أين نحن؟ إلا نزال بعيدين؟

قال الشيخ عبد الرءوف : نحن على وصول يا أولادى.

وتعدل وردة النقرزان طرحتها فوق رأسها، وهى تقول :

بلاد حلوة. يا سلام يا سيدنا الشيخ. الغيطان حلوة. الخضرة والمياه والسواقى، والناس.. حتى البهائم حلوة. يا ليتنى كنت فلاحة.

وقال مبروك :

والشجر. الجميز والسنط والتوت والصفصاف. والنسيم الطرى فى أمسيات الصيف. والشمس الدافئة فى أيام الشتاء. حياة جميلة.

وقال الشيخ فى صوته الطيب :

خير ربنا يا أولاد. هذا خير ربنا. الحمد لله على نعمائه. أنعم على الناس بكل شئ. الحياة والجمال والطبيعة الصافية، وهذه الحقول. لكن أكثرهم لا يعلمون.

وقالت المعلمة : ناس كفرة.

وقال المعلم : بلا ذمة ولا إيمان.

وقال الشيخ : ربنا يهديهم يا أولاد.

وعادت وردة تتطلع إلى الحقول وهى تقول :

تعرف يا سيدنا الشيخ. أنا بنت بلد. طول عمرى فى المنيرة. ولدت فى المنيرة، وعشت فيها طول عمرى. حياتى منها وأكل عيشى وكل حاجاتى فيها. وكنت أتصور أنها كل شئ، ولا يعلوها شئ. ولو قال لى أحد ان فى الدنيا شيئا أجمل منها لكذبته. لكن هنا. الله!..

قال مبروك : أحسن من المنيرة؟

قالت : آ...ه!

قال : ومن القهوة؟

قالت : آ...ه!

قال : وتفضلين هنا على المنيرة؟

قالت : لا أعرف. بعض ساعات الواحد منا يفضل الأحسن، وبعض ساعات يفضل الاسوأ! أليس كذلك يا سيدنا الشيخ؟

قال الشيخ عبد الرءوف : كل خلق الله حسن يا بنتى. الله لم يخلق شيئا سيئا.

قالت وهى تتنهد : سامحنى يا سيدنا. أنا جاهلة ولسانى مثلى.

وهز الشيخ رأسه وهو يقول : العفو يا بنتى العفو. انه التعبير لا أكثر. إنما قصدك طيب، أنا واثق من هذا.

قالت : الله يخليك يا سيدنا. والله الشيخ أبو عوف عرف يختار. كأنى أراه الآن، وأسمع صوته الطيب ونصائحه الغالية. ألف رحمة ونور تنزل عليك يا شيخ أبو عوف.

قال مبروك : يا شيخة. الأولياء لا يقولون عنهم هذا. إنما يقولون رضى الله عنهم وأرضاهم. انهم هم الذين يسألون لنا الرحمة.

وشهقت المعلمة وهى تقول : آ...ى! هل أخطأت فى حقه؟

قال الشيخ : أبدا يا بنتى. كلنا محتاجون للرحمة حتى أولياء الله.



وعندما وصل القطار المحطة، أخذت المعلمة والمعلم والشيخ يحملون متاعهم إلى الرصيف. نعم ان معهم متاعا كثيرا. أقله ما يحتاجونه لأنفسهم خلال الرحلة من ملابس وحاجيات، وأكثره هدايا مختلفة الأشكال والأصناف للشيخة تفيدة.

- انها "تستاهل تقلها ذهب". نوارة المنيرة.

- من رائحته. من رائحة سيدنا الشيخ رضى الله عنه.

- علمتنا الصلاة والصوم وطاعة الله.

- وشاركت الشيخ أعماله الجليلة وحضراته.

- والله لو قطّعنا أنفسنا لها، ما كفى.

- يا ليتها تعود لتعيش بيننا.

- وتترك ضريح الشيخ؟

- الشيخ معنا. سيكون معها ومعنا، هناك فى المنيرة.

- وزواره وتلاميذه ومريدوه؟

- البركة فى الشيخ عبد الرءوف. يقوم عنها بذلك.



وعلى الرصيف يقف الثلاثة يبحثون عن ركائب تقلهم إلى القرافة. إن المسافة بسيطة، لكن هذه الاحمال من الهدايا تحتاج إلى ركائب.

وقال الشيخ : من أنادى "أبو اليزيد" أو الجوهرى؟

ونظرت المعلمة فى بلاهة، ونظر المعلم فى غباء، ثم قالا فى وقت واحد.

من أبو اليزيد؟ ومن الجوهرى؟

قال الشيخ : إن لهما قصة طويلة وطريفة يا أولادى. ستعرفانها من الناس.

قالا له : وحتى نعرفها. إلا تحكى لنا بعض أجزائها؟

وضحك الشيخ عبد الرءوف طويلا وهو يقول :

أبو اليزيد هو المحراث، والجوهرى هو وابور الحرث. هل فهمتما؟

قالا له : لا.. لم نفهم.

قال فى مرح : أبو اليزيد هو الطنبور، والجوهرى هو ماكينة الرى. هل فهمتما؟

قالا له : لا.. لم نفهم.

قال وهو يبتسم فى اتزان : أبو اليزيد هو الحمار والجوهرى هو السيارة. هل فهمتما؟

قالا له :.. لا.. لم نفهم.



قال الشيخ فى هدوئه المعروف :

غريبة هذه الدنيا. كل شئ فيها يتغير. حتى الناس تتغير! لكن ذلك لا يتم عفوا، ولكنه يتم بعد صراع طويل. القديم يحافظ على كيانه، لكن الجديد يغطى عليه! وقد يشتد القتال فينهك القديم والجديد معا. نعم وقد يذهب من أجله ضحايا، ويسقط فى سبيله شهداء. لكن الصراع مع هذا يستمر. والناس قد تصاب بخيبة آمل نتيجة كل صراع، لكنهم يعودون مرة أخرى ينخدعون بالصراع، ويقبلون عليه ويشاركون فيه. قصة الحياة يا أولادى. أنها قصة الحياة والتطور. مسير دائم نحو الجديد، والجديد لا يرحم القديم

والقديم لا يسلم إلا بعد قتال، والضحية دائما الناس. على كل حال إن الصراع الذى حدث بين "أبو اليزيد" والجوهرى، لم يسفر عن ضحايا أو شهداء. لكنه كان صراعا طريفا جدا، بين قديم يحافظ على مصالحه، وجديد يجرف كل شئ فى طريقه. لكن كان عليهما بعد ذلك أن يستقرا وأن يقدم كل منهما بعض التضحيات ليعيشا معا فى سلام.

ومضى الشيخ يقول :

لقد فتحت هذه المنطقة عينيها على "أبو اليزيد"، ومن قبله على أبيه، وهو ينقل الناس من المحطة إلى القرى القريبة، على ظهور عدد من الحمير رباها لهذا الغرض. وعرف فى الناحية كلها بأنه الحمَّار. أبو اليزيد الحمار.

وكان أبو اليزيد الحمَّار محبوبا من كل الناس. الأعيان وغير الأعيان كانوا يحبونه حبا شديدا، فقد كان مسليا للغاية. كان إذا ركب أحد الاعيان، يسير خلف الحمار، وفى يده عصا قصيرة يستحثه بها على السير. ويحكى النوادر والحكايات للراكب العزيز، ليدخل السرور على قلبه، ويحبب الرحلة إليه. وكان ينشد فى بعض الاحيان ألوان المديح فى النبى صلى الله عليه وسلم. وقد يغنى بعض أغانى الغرام، كله حسب الطلب. وعندما كان يصل بالراكب إلى قريته، كان يسكت فى أدب شديد، احتراما له فى قريته وبين أهله وناسه، فإن سئل كم يطلب أجرا عن هذه الركوبة المريحة رفض أن يجيب. انه لا يطلب شيئا، وكفاه رضا الناس! وكان يتقاضى هذا الرضا آجرا مضاعفا، "وفطير مشلتت" للأولاد، وقشطة وزبدة وجبنا..وقد يحمِّلونه كيلة قمح أو كيلتين ذرة، أو يملئون خرجه فولا أو حلبة، حسب المحاصيل. وكان يلح بالاعتذار فقد كان يسعى وراء رضا الناس !! وما كان يقبل أن يستبدل الرضا بهذه الطيبات إلا بالرجاء!!

فان كان الراكب أقل من هذا قدرا، فإن نوع المزاح يختلف، وعدد النوادر يقل، وقد يغنى لكن فى صوت كسول.

وهو كذلك لا يسألهم عن ذلك أجرا، إلا رضا الناس، ولا يقبل أن يستبدل هذا الرضا بالعطاء إلا بالرجاء.

وكثيرا ما كان يركب معه قوم عاديون، ليسوا من الأعيان، ولا من الطبقات الممتازة التى تلى الأعيان فى الناحية. زوار لا يعرفهم. معزون. مهنئون. عندئذ كان أبو اليزيد، يصحبهم على ظهر ركوبة أخرى.

وكان يستدرجهم ليعرفهم، ويقف على وجهتهم وقصدهم من هذه الرحلة.

وأبو اليزيد لا يعمل وحده، فان أولاده مدربون على العمل معه من نعومة أظفارهم، كذلك أخوته وأقاربه. ولديه عدد من الحمير غير قليل، وكلها معدة بالسرج لنقل الركاب. وسرجها أنواع. نوع لا يركبه أحد إلا بإذن "أبو اليزيد" نفسه لأنه مخصص للكبار من الأعيان. ونوع أقل من هذا، لكنه فآخر وممتاز، والنوع الشائع الذى يوضع على كل الحمير. ويركبه أى زبون.

لكن ليس معنى هذا أن مهمة "أبو اليزيد" قد كانت كلها غناء وحداء وضحكا ومزاحا. أبدا. انه يتعرض فى عمله للكثير من الاخطار، ويضطر إلى أن يسكب عند الخطر، دموعا غزيرة لعلها تشفع له فلا يتعرض، لا هو ولا حميره لمكروه.

فى الليل بوجه خاص، والليل ظلام. والجسر كما ستريان، إذا اشتد الظلام، بين الزراعات والأشجار وصف التين الشوكى الكثيف، حالك ومخيف. عندئذ يتعرض أبو اليزيد للمفاجأة. من يدرى، ماذا ينتظر الراكب، حتى لو انه من الأعيان وأية خصومات تكتنف حياته. وآه لو انه ثأر قديم، عندئذ تصبح كارثة على الراكب والمركوب والحمار. قد تنطلق الأعيرة النارية على الراكب والمركوب. ويكون ذنب "أبو اليزيد" فى هذه الحالة أن المصادفات قد وضعته فى الطريق، وصاحب الثأر لن ينتظر اشفاقا "بأبو اليزيد". مسكين أبو اليزيد، فى جعبته ذكريات من الرعب يرويها والأسى يملأ حلقه، لكنه أكل العيش كما يقول!!

وعندما يسأله الناس كيف أفلت. يقول : عمرى. ربنا لم يرد بعد وعندما يريد سيفلت الزبون، وأصاب أنا!!

وأبو اليـزيد لا ينسى أن أحسن حـمـار عنده، قـد ذهب مـرة نتـيـجـة مـغـامـرة من هذا النوع. وذهب الحمار، وبقى هو، وبقـى واحد من مشايخ البلد، فى قرية من قـرى الناحية. وتظاهر أبو اليزيد بطبيعة الحال، انـه "فى داهيـة الحمـار"، وانه راح فـداء له. لكن شيخ البلد الذى أفلت من الفخ اشـترى له بدل الحمـار، جاموسـة ملأت بيت الحمَّار لبنا وجبنا وسمنا.

لكن "أبو اليـزيد" يودع فـى كل مـرة من هذه المرات، تخـشـيـبـة النقطة ليـجـيـب على التـحـقـيق، مـرة فى النقطة، ومـرة فـى النيـابة، وقـد يضطر إلى الانتظار حـتى تتـأكـد السلطات انه برئ. وبرغم أن النـاحيـة كلها تعـرف أن "أبو اليـزيد" لا دخل له فى هذا كله، وانه "لا له فى الطور ولا فى الطحين"، إلا انه مع هذا _ وفى كل مرة- يجب أن يبقى فى التخشيبة حتى تقتنع السلطات بأنه برئ!

لهذا فهو يخاف الليل وقطارات الليل.

ويقول له الناس : ولماذا تعمل بالليل؟

ويجـيـبـهم فى تسليم : لا أسـتطيـع أن أرفض.ثم هل أهرب مـن شئ مـقـدر؟ لا لا..لا أستطيع.

لكن هذا على كل حـال قـد دفع "أبو اليـزيد" إلى أن يعـرف كل شئ عن الخـلافـات فى هذه الناحـيـة، وعن الثـأرات، وعن الكمـائن التى تـدبر، وعن المؤامـرات التى تحـاك. وهو يعـرف، لكنه لا يرفض طلبـا أبدا. هذا أكل عـيش يا أولاد. لو رفضت، فـان ربنا لن يبـارك لى فى شئ. يقول هذا كلما حدثه أحد بشئ من هذا القبيل.

وقصص "أبو اليزيد" مع اللصوص طريفة.

إن "أبو اليـزيد" يكوى حـميره فى مـوضع معين، ليميـزها عن سواها من الحـميـر وهو يقول انه يعرف أى حمار من حميره. من بين مئات الحمير، وحميره أيضا تعرفه، من بين مئـات الرجـال، فان سطا عليه اللصوص، وهاجمـوه وهو عـائد من قـرى النـاحـيـة فـانه لا

يقاوم. يعطيهم الحمير ويسلم آمره لله. لكنه يذهب إلى السوق، والاسواق المجاورة بحجة شراء حمير أخرى غير ما فقد من حمير. وهناك يتعرف على حميره من العلامة التى فيها. ومن شئ آخر، انه يقترب من حميره ويربت عليها فتحن له، وقد تنهق شوقا إليه. والناس والتجار يعرفون هذه العلامات، واللص يخاف أن يفتضح أمره فيتركها ويدعى أنها ليست له. هكذا دون شكوى ولا بلاغ ولا خصومات تجر عليه المتاعب. على أن "لأبو اليزيد" صلات بأشقياء يمنعون عنه الاذى فى كثير من الاحيان، فان تعرض _ برغم هذا _ لبعض اللصوص، فان خطته أن يسلم على طول الخط، ويدعو للعصابة التى تلقاه بالتوفيق، حتى أقرب سوق للحمير، ليسترد الحمير بالمعروف.

أولاد أصول..هذه الحمير، لا تنسى الجميل!!

هكذا يقول أبو اليزيد وهو يضحك، ويضيف إلى هذه النوادر انه يضطر فى بعض الأحيان أن يرسل حمارا مع زبون، بغير مرافق، ويسأل الزبون أن يبقى الحمار عنده حتى يرسل له أحدا يحضره، أو يتركه يعود وحده.

ـ الحمار يعود وحده يا "أبو اليزيد".

ـ نعم يعود وحده. الحمار مثل "البنى آدم"، يعرف الطريق.

ـ ويعود إليك بالفعل.

ـ طبعا يعود...

ويروى أبو اليزيد انه أرسل حمارا مرة بزبون قديم. وكان هذا الزبون معروفا بأنه نوام! ينام وهو يأكل! ينام وهو يصلى! ينام وهو نائم! لكن "أبو اليزيد" لم يتصور انه ينام وهو راكب حمارا. ولم يكن لديه صبى يرسله معه، فأعطاه الحمار، وطلب منه أن يتركه ليعود.

ونام الزبون، والحمار سائر فى طريقه، وكان قد ذهب عدة مرات بهذا الزبون بالذات إلى قريته.

ولما غلب النوم الزبون، وقع من على ظهر الحمار، دون أن يستيقظ. ظل نائما كأنه "قالب طوب نى".

ماذا فعل الحمار؟ الحمار الذى تقولون انه حمار!!

لقد مضى وحده فى نفس الطريق إلى قرية الزبون. وعجب أهالى القرية من دخول الحمار القرية وحده، لا يركبه أحد.

لكنهم تبعوه، حتى وصل إلى بيت الزبون، ثم استدار عائدا لى.

وفهم أهل القرية أن وراء هذا شيئا، فساروا إلى طريق المحطة حتى وجدوا الرجل لا يزال نائما.

ويضيف أبو اليزيد إلى هذا متسائلا :

أليس هذا ذكاء؟ ويقولون انه حمار! حمار حمار، لكن هكذا تصرف الحمار.



ويسكت الشيخ قليلا حتى يفرغ من ضحكة ملأت فمه، ثم يستأنف الرواية والحديث:

وفى يوم من الايام، فوجئت هذه المحطة، وفوجئت الناحية، وفوجئ أبو اليزيد "بترمبيل"!! سيارة جديدة، تقف قريبا من رصيف المحطة، يقودها واحد من أهل الناحية اسمه الجوهرى، غادر بلده من سنين ليعمل فى اسكندرية، ولم يسمع عنه أحد، حتى عاد يقود هذه السيارة، ويقول انه سيستعملها أجرة، لتوصيل الناس من المحطة إلى القرى، وينقلهم من قرية إلى قرية، ومن القرى إلى المركز، أو إلى أى مكان يشاءون. والناس هنا، يعرفون السيارة بانها "ترمبيل"، ولا يزال كثيرون منهم لا يعرفونها إلا بهذا الاسم.

وبدأ الجوهرى يقود السيارة فى اعتزاز وكبرياء.

ولم يصدق الناس أن الجوهرى يعرف كيف يسير السيارة. لكنهم رأوه بعيونهم يفتح بابها، ويجلس أمام "الدركسيون" فى عظمة، ويسير بها فتسير، ويحركها ذات اليمين وذات الشمال فى سهولة ويسر.

شيطان هذا الجوهرى!! "جن مصور"!!

وانه ليخرج قطعة حديد ملتوية، ويركبها أمام وجه "الترمبيل" ويديرها بعزمه كله، حتى تدور، فيكون لها صوت مزعج مخيف، يجعل الناس تعدو من أمام السيارة، ويتفرقون فارين بأنفسهم حتى لا يصابون بمكروه، بينما يشد الجوهرى هذه القطعة من الحديد، ويعود إلى مقعده من "الترمبيل" ويسير كأنه ملك.

ـ ملك والله يا ولد يا جوهرى!!

ـ وهل رأيته بعينك؟

ـ أى والله رأيته.

ـ بعينيك أنت، أم سمعت من أحد؟

ـ بعينى رأسى. رأيته يركب "الترمبيل" ويجرى به.

ـ تقول يجرى به. هل هو يجرى؟

ـ يا خبر يا أولاد. يجرى أسرع من الرهوان.

ـ قل كلاما غير هذا.

ـ رهوان!! يا شيخ انه شئ لا يرى!!

ـ غير معقول ...

لكن الناس مع هذا خافت أن تركب مع الجوهرى. بل لقد خافت أن تقترب من "الترمبيل". بل أن صوت "الترمبيل" قد كان يثير فزعهم.

وكان الجوهرى كبير الاعتزاز بسيارته الجديدة، وكان يذهب به لزيارة أهله فى قريته، ويعود بها إلى المحطة، فى غمضة عين.

ـ تغمض عينيك وتفتحها فلا تجد له أثرا.

ـ يا ناس القيامة ستقوم. ما هذا؟

أما أبو اليزيد فقد أصابه ذهول.

إن كل حميره لا تساوى شيئا أمام "الترمبيل" لكن هل يعملها الجوهرى ويقضى عليه وعلى حميره وعلى أكل عيشه؟ لماذا؟ هل هو حمار هذا الجوهرى؟ أليس عنده دم؟ لا أظن أن الجوهرى يعمل هذا.

ويعود أبو اليزيد يقول لنفسه :

إذاً لماذا اشترى "الترمبيل"؟ انه رجل على قد حاله، وهو يريد أن يعيش منه، فينقل فيه الركاب من المحطة إلى القرى ومن القرى إلى المحطة، كما ينقلهم بين القرى، وإلى المركز أو المديرية.

يا نهار أسود! والحمير؟ وأنا؟ وكل الناس الذين يعيشون على الحمير وعلى نقل الركاب على ظهور الحمير؟ يموتون؟

الارزاق على الله يا حمَّار.

وأخذ يشكو للناس مخاوفة، ويحدثهم بهذه الداهية التى جاءت لتخرب بيته.

لكن الناس أكدوا له أن أحدا لن يفكر فى ركوب "الترمبيل"، وانهم سيستمرون يركبون حميره.

ـ وهل جننا حتى نركب "الترمبيل"؟

ـ هل فقدنا عقولنا حتى نرتكب هذه المغامرة؟

ـ وما شأننا نحن بالجوهرى هذا؟

ـ وما عيبها الحمير؟ طول عمرنا نركب الحمير.

لكن الجوهرى قد كان مع هذا ساحرا. الناس كانت تنظر إليه على انه ساحر أو شيطان، أو ولى من أهل الخطوة، حتى كانوا يودون لو يصافحونه ويحدثونه،

ويتحسسونه.. هل هو إنسان كسائر الناس، أم انه شئ آخر؟ صحيح خرج من بلدنا لكن من يدرى، ربنا قادر على كل شئ، وقد يكون الجوهرى قد تغير، وأصبح شيئا آخر.

ومرت أيام طويلة، و"الترمبيل" الجوهرى لا يجد زبونا واحدا يركبه من المحطة إلى قرية من قرى الناحية.

لكن الجوهرى لم ييئس. كان يسير بالسيارة بين القرى وفى الطرقات، يثير عجب الناس، ويستفز فضولهم.

وفى يوم من الايام حضر المأمور إلى المحطة للتفتيش على النقطة وعلى بعض القرى فلما وجد "الجوهرى" واقفا بسيارته، تساءل عن هذه السيارة الجديدة، وعن صاحبها وأبدى إعجابه بها، فدعاه الجوهرى للمرور بها على قرى الناحية فوافق شاكرا.

وركب السيارة، ومعه ضابط النقطة.

وتحركت بهما السيارة، وفى غمضة عين كانا عند أول عمدة.

وبعد أن تم التفتيش، خرجا إلى قرية أخرى، فركبا والقرية كلها متجمعة تتفرج على المعجزة الجديدة.

ودعا المأمور عمدة البلد ليركب معهم إلى القرية الأخرى.

واصفر وجه العمدة، وخارت قواه، وأصيب بدوار. لكنه لم يستطع أن يرفض أو يعتذر، فركب ودارت بهم السيارة، وفى سرعة البرق اختفت عن الأنظار، وصارت فى القرية الأخرى.

وكما حدث مع العمدة الأول حدث مع العمدة الثانى، ثم الثالث ثم الرابع حتى انتهى التفتيش فى بضع ساعات وكان يستغرق طول اليوم، على ظهر الخيل، وتحت وهج الشمس، وفى طرقات متعرجة، يدورون حولها فى حذر، ويثبون فى انتباه كلما اعترضت طريقهم القنوات.

وعندما عاد العمد إلى قراهم، تجمع حولهم أهلوهم وأصهارهم وأقاربهم وأهل البلد جميعا، يطمئنون عليهم أولا، ثم يسمعون منهم ما حدث لهم فى "الترمبيل".

وبعد أن كان الناس متوقعين أن يسمعوا من العمد أشياء كريهة جدا، عن هذه الرحلة المخيفة المشئومة، سمعوا منهم كلاما عجبا.

- يا سلام. انه بساط الريح يا أولاد.

- حرير. الواحد كأنه جالس على حرير طائر به.

- والشجر يجرى..يجرى..يجرى...لكنه لا يلحق "الترمبيل".

- والجوهرى يسوق كأنه يلعب.

- "الترمبيل" فى يد الجوهرى لعبة أطفال.

- يا سلام يا أولاد. أين كنا وأين كان هذا "الترمبيل"؟

وينظر الناس كل إلى الآخرغير مصدق. العمدة قد مسه الجن! ألم يكن فى "الترمبيل" مع الجوهرى والجوهرى نفسه شيطان؟!

لكن الأيام تمر ويعدو ضابط النقطة مرة ومرة "الترمبيل"!

ثم يأتى مهندس الرى "الترمبيل"!

ويتجاسر أحد الأعيان فيركب "الترمبيل"، فيؤكد ما قاله العمد. ثم يتلوه واحد، ثم واحد، حتى يصبح "الترمبيل" زبائن ينتقلون به بين القرى.

وكان الجوهرى يعاند الحمار أول الأمر، فيذهب ويجئ عشرين مرة، بينما الحمير لا تزال تقطع نفس الطريق ونفس المسافة، مرة..!! وكم تجمع الأهالى يعدون وأبو اليزيد يستحث حميره أن تسرع، والحمير تحاول بأقصى ما لديها من جهد، لترضى "أبو اليزيد" لكن "الترمبيل" مع هذا يذهب ويجئ عشرين مرة أو ثلاثين، دون أن تسيل منه نقطة واحدة من العرق!! بينما يكون أبو اليزيد وحميره قد غرقوا عرقا!!

وانتزع الجوهرى إعجاب الناس، فأخذوا يتجمعون كلما ذهب إلى قرية ليحيطوا الترمبيل، ويهتفوا من أعماقهم بحياته.

يحيا الجوهرى.. يحيا الجوهرى.

كان الفلاحون يقولونها من أعماقهم، وهم يحملون له الاحترام والتقدير.

كانوا يجرون إلى "الترمبيل" كلما رأوه، كانت الحقول القريبة التى يذهب إليها، تشهد الفلاحين يجرون ليلحقوا به وينضموا إلى زملائهم يهتفون باسمه : يحيا الجوهرى.. يحيا الجوهرى.

أليس واحدا منهم؟ أليس فلاحا مثلهم، خرج من بين صفوفهم، بجلباب أزرق واسع، لكنه وجد رزقه فى اسكندرية، ووسع عليه الله فعلمه وأصبح اليوم معجزة يسير "الترمبيل" كانه يلعب به؟!

لم يعد شيطانا، ولا جانا، ولا ساحرا، لكنه واحد بسيط فتح الله عليه جزاء اجتهاده.

أما أبو اليزيد، فقد هاله هذا التغير، وهدت أعصابه هتافات الناس للجوهرى فأخذ يذرف دموعه وحده، خائفا من المصير المظلم الحالك.

لكن "أبو اليزيد" قد كان مخطئا يا أولادى، فان الجوهرى لم يقض عليه ولم يقطع عيشه، ولا هو ضيق عليه الرزق. أبدا فانه ما من دابة فى الأرض، إلا على الله رزقها.

على أن الشئ الطريف أن "أبو اليزيد" نفسه، قد حدثته نفسه أن يجرب الترمبيل، لكنه كتم الرغبة فى نفسه، حتى جمعته الصدفة بالجوهرى، فأكد له أن الرزق واحد والرب واحد، وانهما يستطيعان أن يتعاونا. وعرض عليه أن يركب معه مرة تأكيدا لهذا العهد.

وشهدت الناحية "أبو اليزيد" الحمار يركب مع الجوهرى "الترمبيل" ويدور به هنا وهناك وبين القرى جميعا، بينما الهتافات تدوى حولهما : يحيا الجوهرى.. يحيا الجوهرى.

وختم الشيخ كلامه قائلا :

هذه قصة من قصص هذه البلاد، على أنكما ستسمعان قصصا أخرى، قد لا تكون مثل هذه القصة طرافة، فليست كل القصص هنا طريفة يا أولادى. والآن من أنادى : "أبو اليزيد" أو "الجوهرى".

قالت المعلمة وهى تضحك : أبو اليزيد "الغلبانة كسبانة".



وشهدت محطة السكة الحديد منظرا لطيفا وطريفا.

لقد تقدمت المعلمة، بجلبابها الأفرنجى الرجالى، ذى الياقة العالية، الذى يغطيها كلها من رقبتها إلى أخمص قدميها، الحرير الواسع الهفهاف، وبطرحتها السوداء تغطى بها رأسها وجانبا من وجهها، وبحذاء بين الرجالى والتحريمى، تسير به _ برغم هذا كله _ فى أناقة. وبالعينين الكحيلتين العميقتين، اللتين تهزان الجبل.

تقدمت المعلمة بالأنوثة الطاغية التى لم تفلح رجولة الرجال فى أن تخفيها وتداريها وإنما أكدت وجودها، وقدرتها على أن تمزق كل ستار، لتطل بما فيها من فتنة، تسلب القلوب، وتخلب الأفئدة، وتثير جوا صامتا من الرغبة، يرفع حرارة الأبدان.

بكل ذلك، تقدمت وردة النقرزان إلى الحمار.

ومدت كفها فى نشوة غامرة وهى تقول له :

أهلا أهلا. أهلا يا "أبو اليزيد" ...سلم يا أخ سلام رجال.

وتردد أبو اليزيد أول الأمر، فإنه لم يرها من قبل، بل لم ير طيلة حياته جلباب رجل، يلتف بأنثى. أو أنثى تلبس جلباب رجال.

ومد يده فى رخاوة.

قالت فى مرح : قلت سلام رجال..رجال! ألست رجلا كالرجال؟

ورفع كفه إلى أعلى، وهبط بها على كفها، فارتفع لذلك صوت لفت أنظار الواقفين.

وضحكت المعلمة وهى تقول : هكذا ...هكذا الرجولة يا حمار.

وأردفت تقول : أم ترى لابد من أن أصيح : " يحيا الجوهرى.. يحيا الجوهرى.

وذهل أبو اليزيد! ومضت وهى تصفق بيديها وهى تهتف بحياة الجوهرى، وتشير للحنطور أن يهتف معها للجوهرى.

وشعرت كأن دمعة قد أخذت تداعب جفون الحمار، فأخذت تطيب خاطره بكلام لطيف :

ـ والنبى أنت الخير والبركة.

ـ من لا قديم له، لا جديد له.

ـ الحمار عندك برقبة كل "الترمبيلات".

ـ اسأل وستعرف إننى اخترت الحمار.

ـ طبعا. "أترمبيل"! لأ لأ. وما عيب هذا؟..

وقفزت على أول حمار، وصاحت تقول لمبروك : هيا بنا يا حنطوره سيدنا الشيخ سبقنا.

وكان الشيخ عبد الرءوف، قد ترك المعلمة والمعلم، واستقل حمارا ومضى به فى الطريق إلى ضريح سيدى الذكيرى.

وعندما لحقا به كانت هى على حمار، والحنطور على حمار، ووصله منها ضحكة طويلة، وهى تقول لمبروك : أليس عيبا هذا؟ عيب والله! حنطور وتركب حمارا!

وفى الطريق كان أبو اليزيد قد حمل الأشياء كلها على حمار، وأخذ يسندها وهو يسير خلفهم يروى الحكايات، ويحكى القصص.

بينما المعلمة تضحك وتطلب منه المزيد.

وكان الحمار يتطلع إليها، وهو يختزن فى نفسه العجب من أمرها. أهى امرأة؟ أم أنها رجل؟ أم أن الله قد خلق فيما خلق مخلوقات هكذا، لا هى اناث ولا هى رجال؟

وكان كلما سنحت له فرصة لتأمل هز رأسه وهو يهمس لنفسه :

سبحانك!! هذه إرادتك. ماذا تقول؟ لا اعتراض.. وحقك أنت لا اعتراض!

لكنها كانت تعود تطلب منه مزيدا من الرواية والحديث، فكان يعود يروى ما سبق أن راوه، آلاف المرات، لآلاف الناس.

ولم يطق أبو اليزيد صبرا فقال لها :

ـ أنت ست أم رجل؟

ـ وشعرت المعلمة أن الضحكات التى خلقها الله لعمرها كله، قد تجمعت كلها فجأة فى حلقها، ما فات وما هو آت.

وكادت من فرط ما ضحكت أن تقع من فوق ظهر الحمار، لولا أنها تمهلت قليلا فى سيرها. وأخذ الحنطور يشاركها الضحك، لكنه كان يقطع ضحكاتها قائلا لها :

ـ عنده حق...صحيح أنت ست أو رجل؟ قولى له وريحيه.

وبعد أن مضت هذه النوبة من الضحك وكانت قد اشتركت فيها بحلقها وفمها وشفتيها، أخذت تمسح دموع الضحك، ثم نظرت إليه بعينيها الكحيلتين وابتسمت له.

ودارت الدنيا أمام عينيه، حتى لقد شعر انه يكاد أن يسقط من فوق الحمار. وبعد قليل، بلع ريقه ليستفيق ثم عاد يتطلع نحوها، فرآها لا تزال تنظر فى عينيه.

قال فى همس، كأنما يحدث نفسه :

ـ لأ لأ. أنثى. هى أنثى

ـ لكن كيف عرفت؟

ـ من النار.

- حرقتك؟

- لستعنى.

- أين؟

- فى قلبى.

- يا حمار!!

- والله العظيم أنا أقول الحق.

- متزوج؟

- حمَّارة مثلى.

- ونارها ..تلسعك؟

- انها تراب يعمى العين!

- وتحت التراب؟

- تراب ثم تراب ثم تراب!

- أنت مفترى.

- ماذا أقول؟ أدعو عليك بها؟

- لأتزوجها؟

- لا أنت... أنت امرأة.

- ومن أدراك؟

وكان قد تأخرا قليلا عن الركب، فأخذ يغنى لها فى صوت طرى، كأنه النسيم :

عيون كحيلة وأصيلة، جمالها يسبى ويسكر.

ولما تخطر وتنظر، تقولشي كحكة بسكر.

عليها قفطان رجالى، يزيد جمالها وينتر.

يغرز سهامه اللذيذة، يا عبلة حيرت عنتر.

وتقول المعلمة فى صوت ضعيف خافت :

- الله ... أنت تشعر كذلك يا حمار؟

قال الحمار :

- من نارى يا ست. من نارى.

قالت فى صوت حالم :

- احك لى عنها. إنى أحب أن أسمع حكايات العشاق.

قال :

- يقتلونى يا ست، ويخفوا جثتى عن الدنيا كلها.

قالت :

- من؟ من هم هؤلاء يا "أبو اليزيد"؟

قال :

- أهلها. انهم أقوياء جدا يا ست. مفترون. لا يقف فى وجههم شئ.

قالت :

- لكنى لن أقول لهم. إلا تثق فى؟

قال :

- كل الثقة يا سيدتى. انك تذكريننى بها. عيناك الساحرتان تذكراننى بها. قوامك المشوق يذكرنى بها. خطواتك الرشيقة تذكرنى بها. آه لولا هذا القفطان الرجالى، لكان كل شئ فيك يذكرنى بها.

قالت :

ـ ولماذا لم تتزوجها؟

وصاح كمن مسته أفعى :

ـ يا نهار أسود. أتزوجها؟! أنا أتزوجها! من أكون يا سيدتى لأتزوجها؟! أنا صعلوك بسيط جدا بالنسبة لها. عندها خدم وتميلة أحسن منى يا سيدتى.

قالت فى استنكار :

ـ إذاً لماذا أحبتك؟

قال فى ارتباك :

ـ ومن أين أعرف يا سيدتى. ربما قضاء وقدرا! هل لها يد فى القضاء والقدر؟ حكمة ربنا شاءت هذا.

وسكت قليلا، وهو يتلفت حواليه ثم اقترب منها وقال :

ـ وأيضا مالت إلى. أى والله! بلا ذنب ولا جريرة! أنا لم أسع إلى شئ وما كنت أستطيع أن أبدى شيئا والا طرت. لكنها هى أرادتنى. ماذا رأت فى، وأنا حمار حمّار، إسأليها هى يا سيدتى. أحيانا الواحد منا يشتهى حمارة! فما المانع إن واحدة جميلة رائعة، بنت ناس كبار جدا، تشتهى حمارا.. مرة! لكن هل تعرف القاسية أنها تحرق ضحيتها بلهب لا ينطفئ أبدا؟ هى تستريح عندما تصب الماء على نارها، لكن هذا الماء، يصبح نارا، فى قلب مسكين مثلى... نار.



وأخذ أبو اليزيد يحكى لها حكايته، وهو يتطلع إليها فى توسل، كأنما يرجوها ألا تبوح بهذا السر لأحد. انه يريد أن يحكى، لكنه لا يريد أن يموت.

.. كانت تركب هذه الركوبة التى تركبينها يا سيدتى. الظروف أرادت هذا. كانت عند والدها حيث كان يعمل فى دمنهور. كانت تعالج هناك، فلما شفيت واستردت صحتها

أرسل إلى البلد لينتظروها على المحطة بالركائب والخفر. لكن يبدو أن المرسال الذى أرسله قد نسى أو ضل الطريق أو مات! المهم أنها نزلت فى المحطة وحدها. وارتبكت وامتقع وجهها ولم تعرف ماذا تفعل. صغيرة..صغيرة وحلوة ولذيذة. وكان لابد لواحد شهم مثلى أن يتقدم إليها بالنجدة! شهامة. الشهامة تقضى بهذا يا سيدتى. وتقدمت إليها أعرض خدماتى، فنظرت إلى فى حياء ولم ترد. ووقفت مرتبكا مثلها، ثم أدرت لها ظهرى وانصرفت، وخطر لى أن أتلفت ورائى، فوجدت سهما رقيقا حانيا موجها نجوى. كأنما توجه إلى نداء!! تتركنى يا نذل؟! وأنا هنا وحدى لا ينتظرنى أحد؟ تتركنى على رصيف المحطة غريبة محتاجة إلى من يحمينى؟

وعدت إليها يا سيدتى وسألتها عن اسمها وعن بلدها، وعن حكايتها، فعلمت أنها بنت ناس كبار.. كبار جدا، وأصحاب جاه وعصبية ونفوذ. يسمعون دبيب النمل ويشمون رائحة "أبو دقيق" لا يغفلون عن شئ. عيونهم مفتوحة على كل شئ، وعلى كل مكان.

وارتبكت خوفا من أن يصيبنى منهم مكروه.

ولما سألتها لماذا لم ينتظرها أحد، قالت : أحسن !!

وسرى فى شعور بالخوف كاد يقتلنى. لكن نظراتها حفزتنى يا سيدتى، وغطت على كل شعور بالتردد.

قلت لها : وهل أستطيع أن أقدم لك خدمة؟

قالت : الله يخليك. توصلنى البلد، أو تطلبهم يأتون إلى.

قلت لها : وأيهما تفضلين أنت؟

قلت : توصلنى...

وكانت ضحكتها كطاقة القدر، فكدت أصيح من الفرحة.

قالت المعلمة تسأله : ووصلتها؟! طبعا.

قال فى حسرة : ويا ليتنى لم أفعل.

قالت فى تعجب : صدتك :

قال : يا ليتها صدتنى.

قالت : إذاً ..تكلم.

قال : نعم... سحبتنى إلى غيط، وهى تطلب منى فى جرأة غريبة أن نجلس فى الغيط بعيدا عن العيون..قليلا.

ولما حاولت أن أحذرها من خطورة ذلك، وأن أحدا قد يرانا، سخرت منى ومن سذاجتى وظلت تسحبنى دون أن تعبأ بتحذيرى.

وعندما ذكرتها بموعد القطار، وكيف ستفسر عدم عودتها بعد وصول القطار مباشرة، هزت رأسها فى عدم اكتراث وهى تقول : يا مغفل هل هو قطار وحيد؟ تنتظر حتى موعد القطار التالى، وساعتها لا يكون هناك شك، ويا دار ما دخلك شر!

وشدت المعلمة نفسها عميقا تطفئ به اللهب المشتعل فى جوفها، وقالت له :.. وطبعا ..يا عم !

قال كأنما يحلم : آ...!! يا سلام..حلوة.. وصغيرة.. ولذيذة.

قالت : ثم... ماذا حدث؟

وظل هو فى حلمه يردد لنفسه : نار ... نار.. كوتنى "بنت الايه".. بالنار!

وصاحت المعلمة فى عصبية : قلت لك ثم ماذا حدث؟

واستفاق أبو اليزيد وهو يقول لها فى سرعة : لا شئ. أعدتها إلى دارها عندما وصل إلى سمعنا صوت القطار التالى. وحملها لى أهلها جميلا كبيرا، وأسبغوا على من خيرهم نعما وعطايا. لكن كل ذلك لم يكن له طعم إلى جوار طعم تلك الساعات الهنية التى قضتها فى جمرها فى غيط الذرة.

قالت المعلمة : و "خلاص"؟

قال : و "خلاص"... لم تعد تتكرر الفرصة أبدا. سافرت ورجعت، مرات. لكن عن غير طريقى. وأراها وترانى، من بعيد، فتنظر إلى، وأنظر إليها، والرغبة تطحننا واليأس يهد قوانا ويكسر نفسينا !

قالت المعلمة وردة النقرزان : مسكين يا حمار.

وابتلت عيناه بالدمع وهو يردد لنفسه :

يا ناس قولوا لى حترجع لى، ولو مرة؟

أحكى لها حيرتى وسيرتى، ولوعتى بالمرة.

وتقول وأقول، كلام طويل، فيه الحلوة والمرة.

يا حلوة، عمرى يهون، لو تعطفى مرة...



غيط الذرة شقق من الحرقة والتعذيب.

يخلصك؟ الزرع ينشف، والبكارى تشيب؟

ودموعنا مخزونة. ليه؟ هو قضا ونصيب؟!

تيجى نآيس.. أهى مرة تخيب، ومرة تصيب.



فاكرة؟.. بلاش.. كفاية أنا فاكر.

كانت لذيذة القعدة، والحلو، والسامر.

كأنها زفة عروسة حلوة، بس العريس شاعر.

عمر الشقى ما ينتهى بوعد، إلا وله آخر.



وكان صوت "أبو اليزيد" حزينا مؤلما، وهو يغنى كأنما كان يبكى.

وعندما انتهى من هذا الشدو الحزين، نظر إلى المعلمة، فوجدها تمسح بضع قطرات من الدمع، بللت جفنيها.

قال أبو اليزيد :

ـ أنت أيضا يا سيدتى؟

ولم ترد، فقد كان انفعالها يحبس كلماتها.

ومضى أبو اليزيد يقول :

ـ يظهر أن الناس جميعا مثلك يا حمار. فى قلب كل واحد جرح. وفى نفس كل واحد مرارة، وعند كل واحد ذكرى تثقل كأهلة. لست وحدك يا حمار..اطمئن.

وعندما خف الانفعال فى نفس المعلمة قالت له تداعبه :

ـ من يا ترى تلك السعيدة التى التقطتك؟ ما اسمها؟

وصاح فى خوف :

ـ تريدين أن تخربى بيتى! لا يا سيدتى. هذا يكفى.

قالت فى حنو رقيق :

ـ لا تثق فى. إلا تزال لا تثق فى؟

وتراخت مقاومته فقال لها :

ـ أمرى إلى الله..اسمها عطية..عطية الله.

قالت :

ـ وماذا عنها أيضا؟

قال لها فى تراجع :

ـ لا شئ.. هذا يكفى.

قالت فى استفزاز :

ـ تعرف أنك كذاب يا حمار. أنت لا تحبها. أنت لا تعرف الحب.

وصاح فى استنكار :

ـ أنا!..أنا كذاب : لا أحبها، ولا أعرف الحب، كان هذا كله صحيحا قبل أن أقابلها. أما بعد هذا فلا..

قالت المعلمة :

ـ الحب فضيلة وشجاعة. وأنت جبان تخاف أن تتحدث عنها.

قال :

ـ لأنى أحبها.

قالت :

ـ لأنك جبان تخاف على نفسك.

قال :

ـ أخاف عليها وعلى نفسى.

قالت :

ـ تخاف ممن؟ من زوجها :

قال :

ـ وكيف عرفت أنها زوجة؟ على كل حال ليست المسألة مسألة زوجها، فانه "شرابة خرج" إنما المسألة مسألة عائلتها. عائلتها شرسة وجبارة.

قالت :

ـ وهل أستطيع أن أراها؟

قال :

ـ تســأليني؟. أنـا أراها بالصــدفـة، وأنا دائمــا فى انتظـار الصـدفـة. من يدرى؟ ربما يحدث وأنت هنا يا سيدتى.

وسكت قليلا ثم قال : كان يوم نحس، يوم أن خرج أبوها إلى المعاش، وجاء ليعيش هنا عيشة دائمة.. لم يعد يعيش فى البندر، ولم يعد له بيت خارج هـذه "البلد الكئيبـة"، ولم تعد تسافر له وتعود من عنده، كما كانت تفعل من قبل.

وقالت المعلمة :

ـ وماذا كانت وظيفتة؟

قال :

ـ ولا تقولين أبدا...

قالت :

ـ أبدا...أبدا. والله أبدا.

وهمس لها قائلا :

ـ كان باشكاتب ...أى والله باشكاتب محكمة كبيرة.

وهزت رأسـها، كـأنما هـى تعرفـه. وتعـرف المحكمة التى كـان يـعمل بها، وتعـرف كل شئ عنه.



وكان الركب قد وصل إلى الطريق الذى ينحدر إلى البلدة من الناحية القبلية.

وكـانت الجمـيـزة القديـمة رابضـة حيث هى عن يميـن القادم من المحطة، تـفرش ظلهـا على الارض كحـصير لاستقبـال القادمين المتعبين. وعن يسار كـانت الموردة القبلية، وفـيها ثلاث من نسـاء القـرية يمـلأن الجـرار، ويغـسلن بعض الملابس، ويعـالجن شـقـوق الاقـدام بقطع من الحجر ينظفن به ما علق بها من تراب، وهن بين ذلك يتبادلن أحاديث الموردة.

وأمام البصر الممتد كانت قبة سيدى الذكيرى، وحولها قرافة القرية. وبعدها كانت الساقية تدور يجرها ثوران معصوبا العيون. وتنحدر من جسر الرياح عند الساقية قناة، تحذو حذو حديقة العمدة، تنتهى بخص من البوص.

وتتخلل هذه اللوحة الفاتنة أشجار النخيل والصفصاف والتوت والسنط والنبق. وأحيانا الزيتون.

وشدت المعلمة أنفاسها، وصاحت فى فرحة وغبطة وابتهاج :

ـ هذه هى... قبة سيدى أبو عوف.

قال الشيخ عبد الرءوف.

ـ هى قبة سيدى الذكيرى يا بنتى. إن سيدى أبو عوف قد كان خادما من خدام سيدى الذكيرى، فلما انتقل إلى رحمة الله، صرت أنا والشيخة تفيدة فى خدمة سيدى الذكيرى و سيدى "أبو عوف" معا.

قالت المعلمة :

ـ لكن والنبى، صدقنى أو لا تصدقنى، كأنى أشم رائحته ورائحة الشيخة تفيدة. لابد أن ضريحة هنا ... هنا فى هذه المنطقة، ولابد أنها إلى جواره.

قال الشيخ : هذا صحيح.

ولم تتركه يتم فأخذت تصيح :

يا سلام. إلا ترى يا حنطور؟ قلت لك إنى أستطيع أن أشم رائحته فأعرف مكانه. الله يرضى عليه، كانت رائحته زكية من روائح الجنة.

قال الشيخ :

هذا صحيح. وهذا قبره إلى جوار ضريح سيدى الذكيرى يا بنتى. وستجدين الشيخة تفيدة هناك عند الضريح.

وأخذت المعلمة تحرك رجليها فوق بطن الحمار، تستحثه ليسرع بها إلى المكان.

واستدارت القافلة إلى اليمين.

ثم استدارت إلى اليسار.

وكانت المعلمة وردة فى مقدمة الركب، فلما وصلت الضريح، وقفت تتطلع إلى يسارها، تبحث عن الشيخة تفيدة، فلما وجدتها، حاولت أن تقفز فلم تستطع، فأخذت تصيح مرة : ست الشيخة... الله ! أوحشتنا يا ست الشيخة، ثم تتلفت خلفها لتصيح مرة : أنت يا حمار. أبو اليزيد يا حمار. تعال يا ولد خد يدى، لأنزل. تعال بسرعة، الله يخرب بيتك. وتعود تتطلع ناحية الشيخة وتقول : بركاتك يا شيخة تفيدة. بركاتك يا سيدى "أ بو عوف".الفاتحة له الفاتحة.

وهكذا اضطربت المعلمة، وارتبكت، وتوزعت، ولم تستطع أن تستعيد نفسها إلا عندما ساعدها الحمار على النزول، فأخذت تثب وتسرع الخطا حتى وصلت إلى الشيخة تفيدة، فتعانقتا، والدموع تجرى على خدودهما.

وفى صمت حزين، مضت الشيخة والمعلمة، متساندتين متماسكتين، حتى وصلتا إلى قبر الشيخ أبو عوف، فاستندتا إليه، وغرقتا فى بحر من الدموع على الراحل العزيز ولى الله المبروك.

وبعد أن مرت لحظات الانفعال. رحبت الشيخة بمبروك الحنطور، وجلس الجميع : الشيخة تفيدة والشيخ عبد الرءوف. والمعلمة والحنطور، وفى عيونهم جميعا بقايا دموع.

وأخذت المعلمة وردة تضرب صدرها بكفيها، وهى تقول فى استغراب :

كان يوم نحس. يوم أغبر. يوم أن جاءنا الناعى يقول أن الشيخ قد مات. الشيخ أبو عوف زينة المنيرة وروحها. والله يا ست الشيخة، لقد تحولت المنيرة إلى مأتم. حتى الأولاد الصغار، الذين لم يروه، ولم يعرفوه، كانوا يبكون كاليتامى. وأقمنا سرادقا للعزاء، وجاءنا المعزون من السيدة والامام وزينهم والدرب الأحمر والجمالية. ثلاثة أيام والمأتم

فى المنيرة منصوب والعزاء مستمر، والفقهاء يقرأون والدموع فى عيون الناس كلهم. وأقمنا الخميس الصغير والخميس الكبير والأربعين والذكرى. والبركة فى الشيخ عبد الرءوف، جاءنا وأخذ يتردد علينا، ويقيم الحضرات فى الخرابة كلما حضر. ولو عرفت كيف يقبل الناس على هذه الحضرات، يتلمسون فيها بركة سيدى "أبو عوف" وبركتك يا ست الشيخة! لقد مزق خبره قلوبنا .. فتت أكبادنا. لكن كلمة ربنا أرادت هذا. نقدر نخالف؟! ربنا يرحمه ويحسن إليه.

قال مبروك الحنطور، وهو ينظر إلى المعلمة يذكرها :

رضى الله عنه وأرضاه، سيدنا الشيخ"أ بو عوف".

قالت المعلمة وردة فى سذاجة :

آ...رضى الله عنه وأرضاه. هو سيسامحنى. هو عارف إنى أحبه، ولهذا سيسامحنى.

ومضت المعلمة تقول:

غريبة! هل كان لابد لسيدنا الشيخ أن يمر من هناك ساعتها؟ لكن عمره. ربنا اختاره. لكن يا رب. كنت تركته لنا ينور حياتنا، ويهدينا، ونعيش على بركاته. تعرفى يا ست الشيخة. والله يوم أن تركنا، مانمنا ليلتها. لقد تصورنا انه غضب ربنا قد حل بنا. طبعا ولم نستطيع أن نأكل أو نشرب أو ننام. وأخذ كل منا يسأل الآخر: الشيخ تركنا. لماذا؟ الشيخ هجرنا... لماذا؟ والشيخة تفيدة الحلوة الجميلة المبروكة تركتنا ... لماذا؟ لكن أحدا لم يكن يدرى لذلك سببا. لكن الشيخ الله يرحمه ... يوه... رضى الله عنه وأرضاه، كان قلبه كبيرا فقد عاد إلينا بعد ذلك، وأقام عندنا بضع ليال، يقيم الحضرات وينصحنا ويعلمنا ويباركنا. الله لو رأيت المنيرة يوم جاء أول مرة. مولد..مولد بحق وحقيق. الناس من فرحتها أخذت ترقص فى الشوارع. والقهوة. قهوة المعلمة أصبحت تعج بالناس من كل جهات مصر. والأفندية مريدوه جاءوه جماعات وأفرادا، وكان رحمه الله ...الله! طيب. رضى الله عنه وأرضاه. كان يقابل هؤلاء جميعا فى طيبة

وود يدعو لهم بالتوفيق والسداد. المريض شفى، والمتخاصمون تصالحوا، والمطلقون رجعوا لزوجاتهم، و كل كسر جبر. البركة كانت دائما بين رجليه.

وهزت الشيخة تفيدة رأسها، وهى تخفى نفسها شيئا.

جلال لم يقل لها أنه كان يتردد على خرابه النداهة، لكن لماذا أخفى عنها هذا؟

وهزت رأسها، وهى تطرد أفكارها من رأسها.

لكنه كان يقول انه ذاهب إلى مصر، وانه ينفذ خطة مرسومة مع التنظيمات التى يعمل معها، فلا يهم. لابد أن هذه الزيارات كانت جزءا من الخطة.

ونظرت الشيخة إلى الحنطور تسأله عن أحواله، فردت عنه المعلمة وردة، بأنه قد صار معلما قد الدنيا. انه معلم المنيرة والسيدة والجمالية والامام الشافعى والعتبة. كل هذه المنطقة تقرأ الصحف والمجلات من يديه. وعنده الآن صبيان كثيرون ولن تصدقينى يا ست الشيخة لو قلت لك إن الحنطور عنده الآن حنطور.

وضحكت الشيخة وضحك الشيخ عبد الرءوف، بينما الحنطور يهز رأسه وعيناه فى الأرض من الخجل، وبسمة مترددة تداعب شفتيه.

ومضت المعلمة وردة تقول :

لكن النبى حارسه وببركة سيدى "أبو عوف" ربنا وفقه لعمل الخير. غيره من المعلمين يا ساتر أستر. أنا أعرفهم، وطالما رأيتهم يتصرفون تصرفات، أجارك الله. لكن الحنطور اسم الله عليه، الصبيان عنده كأولاده. يعطف عليهم ويرعاهم، ويعذرهم إذا لم يدفعوا ما عليهم، وإذا مرض أحدهم عالجه، وإذا تزوج ساعده، وإذا مات ساعد أرملته وأولاده، ولهذا فهم يحبونه جدا يا ست الشيخة. وكله بثوابه. تعرفى أن ربنا يخلفه عليه بالبركة والرزق؟! ولو رأيت رضا الناس عنه. انه شئ عظيم. المتعهدون يحبونه، وأصحاب الجرائد والمجلات يعرفونه، والمعلمون زملاءه يلجئون إليه إذا احتاجوا لشئ. والصبيان يحبونه حبا شديدا. كل هذا يسر له فى الرزق وأصبحت "الاشيا معدن".

كانت تتكلم فى حماسة واندفاع، حتى أن الشيخة تفيدة لم تعرف كيف تتدخل فى الحديث، ولم تمكنها هى من أن تتدخل فى الحديث، كذلك ضاعت محاولات مبروك الحنطور فى تغير دفة الحديث، خجلا من أن يكون كل هذا الكلام عنه.

ولم تتوقف المعلمة وردة ...لقد ظلت تتحدث عن مبروك، وعيناها فى عينى الشيخة تفيدة حينا، وعلى مبروك الحنطور فى أغلب الأحيان.

ولا يزال والنبى يا ست الشيخة تفيدة يحتفظ بحجرة فى خرابة النداهة. إن له شقة ثانية، مفروشة فرشا نظيفا، ومجهزة بكل شئ. كل شئ. أى والله كل شئ. لكنه لا يزال يحتفظ بالحجرة القديمة الكالحة، فى الخرابة. انه يستبشر بها كما يقول وإن كان إخواننا فى المنيرة يقولون عن ذلك أحيانا، انه يحن لأصله، فيحتفظ بالحجرة القديمة حنينا إلى أصله، ويضحكون عليه. لكنه هو عمره ما أخذ هذا الكلام مأخذا جادا. انه يشاركهم الضحك والمزاح، ويردد معهم هذا الكلام.

وأخذت الشيخة تتطلع إليها، وتطيل التأمل فى عينيها، وترقب فى رضا حماستها وهى تتحدث عنه هذا الحديث، وتتمنى لو أن عندها الشجاعة، إذاً لقالت لها :

أنا أعرف أنك تحبينه، وتهيمين به، فلماذا لا تتزوجينه يا وردة؟ لماذا تحرمين نفسك منه، وهو منك قريب؟ انه يحبك هو الآخر. ويهيم بك، ويتمنى أن يكون إلى جوارك بقية حياته. لتد وهب نفسه لك زوجا أو أعزب. فلماذا تضنين عليه بالأمل العزيز الغالى الذى عاش له ومن أجله؟

لكن هذا لم يكن سهلا، ولم يكن كذلك ممكنا، فهى شيخة، ويجب إلا تتدخل إلا بمقدار.

ولولا أن "أبو المكارم" قد جاء، بعد أن زار قبر جلال وقرأ الفاتحة على روحه ما تغير مجرى الحديث، ولمضت وردة تروى عن مبروك، لا تشبع ولا تمل.



وعندما وقف أبو المكارم بالقرب من الشيخة، قالت لضيوفها.

هذا عمى أبو المكارم. الشخص الوحيد الذى يؤنس وحدتى بالليل وبالنهار، أناديه وقتما أريده، فأجده بين يدى. انه يعيش عند الساقية، أكاد أسمع أنفاسه ويكاد يسمع أنفاسى. لست أدرى ماذا كان يكون مصيرى لولاه. ربنا أرسله لى، وسيظل معى إلى جانبى، حتى يقضى الله أمره.

قالت المعلمة :

- أهلا وسهلا. كيف حالك. تعال أسلم عليك وأشكرك. الست الشيخة بنتنا، ومن بلدنا، وجميلك لها على رأسنا.

وأسرع إليها يصافحها متهللا مبتهجا.

وأخذت تقول له :

- كثر خيرك. ربنا يطول فى عمرك. ربنا يطرح فيك البركة.

والنبى تكون إلى جوارها دائما "يا اسمك ايه...اسمك ايه؟ هو اسمه ايه يا ست الشيخة؟"

وقالت الشيخة :

- عمى أبو المكارم.

قالت المعلمة :

- آ..يا عمى "أبو المكارم". اياك تفرط فيها. اياك تتركها وحدها. أنها الخير والبركة، وستعم بركتها بلادكم كلها.

ومضت تقول له :

- احلف بالله العظيم وبالنبى وبسيدى "أبو عوف" ...احلف.

وأخذ أبو المكارم يهز رأسه، مكتفيا بالابتسام لها.

لكنها أخذت تطيل النظر إليه، وهى تقول له :

الله قلت لك احلف.

ولم يرد.

قالت فى تردد :

ـ الله ..ماذا به يا ست الشيخة؟ لا يريد أن يحلف!

قالت الشيخة :

ـ نسيت أن أقول لك أن عمى أبو المكارم لا يتكلم.

قالت المعلمة :

ـ لا أفهم. ماذا به؟.. أخرس؟

قالت الشيخة :

ـ نعم أخرس.

قالت المعلمة :

ـ أكلمه كلام خرس إذاً.

قالت الشيخة :

ـ انه يفهم كلامى وكلامك وأى كلام. لكنه هو لا يتكلم.

قالت فى سذاجة :

ـ "يادى الخيبة"!!

وعندما لاحظت الاستنكار والعتاب يطل من عينيه قالت فى سرعة : يقطعنى. أنا غلطانه. سامحنى يا عم "أبو المكارم".

ونظرت إلى الشيخة وهى تقول :

والنبى يا ست الشيخة اسأليه أن يسامحنى.

وهز أبو المكارم رأسه، وأخذ يربت على كتفها فى ود. وشجعها هذا على أن تقول له :

تعرف هذا الرجل؟ اسمه مبروك. مبروك الحنطور. معلم جرائد قد الدنيا. ربنا أعطى له من طيبته وحسن نيته واجتهاده. عقبى لك يا عم "أبو المكارم".

وضحك أبو المكارم، ومد يده للحنطور يصافحه ويرحب به.

وأخذ يشير أشاراته المتتالية، ويصيح صيحاته المألوفة، ويمثل بيديه ووجهه مواقف مختلفة، وهو يتلفت نحو المعلمة والمعلم.

قالت المعلمة والمعلم :

انه يتحدث عنا. انه يحكى شيئا يتعلق بنا.

قالت الشيخة :

صحيح يا معلمة وردة. انه يتحدث عنك وعن المعلم مبروك، بل انه يتحدث عن زبيدة البطة وناعسة الحرامية، وعن القهوة وأهل المنيرة.

وصاحت المعلمة تقول :

يا حلاوة! لكن من أين له بكل ذلك؟

قالت الشيخة :

عن الشيخ "أبو عوف" . كان يحكى له كل شئ. كان موضع سره يأتمنه على كل شئ حتى نفسه. كانت روحه فيه.

وأخذت المعلمة تتطلع إليه وقد أمسكت بيده، وتقول :

ربنا يجعلنا من بركاتك. إذا كان سيدنا الشيخ كان يعزك فلا بد أن مقامك كبير عند ربنا. الشيخ الله يرحمه..يوه. غلطت. رضى الله عنه وأرضاه. كان واصلا، وكان يعرف قدر كل واحد عند ربنا. لابد أن قدرك كبير يا عم "أبو المكارم".

وأخذ أبو المكارم يضغط على كفها فى حنو.

وشعرت المعلمة بالراحة له، والثقة فيه، وتمنت لو تجلس إلى جواره، تحكى له عما فى قلبها من النار. إن السر عنده فى مأمن، لا يخرج لأحد أبدا. لكم تمنت أن تجد من تحكى له، وهى مطمئنة إلى أن شيئا مما تحكيه لن ينتقل بين الالسنة، ليصبح على كل لسان، وكلما أسلمه واحد إلى واحد، أوصاه إلا يخرج منه لاحد. وكل واحد يوصى واحدا، حتى ينتشر السر وتنتشر معه الوصية!!

وبينما هى فى هذا الهاجس، إذا "بأبو المكارم" يترك كفها، ويلقيه بعيدا كأنه جمرة، يخاف أن تحرق كفه. ثم يجرى إلى خص صغير بجوار ضريح سيدى الذكيرى، ويختفى فى الخص قليلا ثم يعود حاملا الطفل الصغير فوق يديه.

وأسرعت المعلمة إليه تسأله :

هل هو أبو عوف الصغير؟ لقد روى لنا عنه الشيخ عبد الرءوف.

وهز أبو المكارم رأسه، وهو يداعبه.

ومدت المعلمة يديها لتحمله عنه. فأعطاه لها، فأخذت تصيح فى فرح وابتهاج :

تمام أبوه. تمام سيدى الشيخ أبو عوف، الله يرحمه..يقطعنى رضى الله عنه وأرضاه. تمام الخالق الناطق هو. والله ومن رائحته يا بنى. ولى من أولياء الله مثله. سترث البركة والخير وحب الله والناس. ربنا يخليك لأمك، ويجعلك عوضا عن والدك. يا سلام لو تعرف والدك وماذا كان يفعل للناس؟ ستعرف يا بنى ذات يوم. البركة فى والدتك، فهى أيضا شيخة وفيها بركة، ولها كرامات. والنبى مبروكة. وأنت مبروك.

ونظرت لمبروك الحنطور، وكان قد وقف إلى دوارها يتأمل الطفل الصغير :

يوه.. أنا لا أناديك. أنت الحنطور. أنا أقول انه مبروك. يعنى هذا الشيخ ابن الشيخ الله يرحمه.يا خيبتى!! رضى الله عنه. انه مبروك. كله نور وبركة.



كان الفجر رائعا، عندما استيقظت الشيخة تفيدة، فى اليوم التالى وفتحت عينيها، كما تفعل كل يوم، على قبر زوجها، تحيط به قبور كثيرة أخرى كالمريدين حواليه، وأشجار باسقة، تتثنى فى طراوة الصباح، كأنها تتمطى، وأشجار أخرى يلتف بعضها حول بعض، كما يفعل العشاق. وساقية تدور وتدور، وقلما تتوقف عن المسير، وبساط أخضر بلا أول ولا آخر.

لكنها اليوم، تجد بين جفنيها، المعلمة وردة النقرزان، وقد جلست منتصبة القامة، وشعرها يتهدل خلف رأسها، برغم الضفيرتين الطويلتين اللتين تتدليان خلف ظهرها. إن الطرحة ليست على رأسها، والقفطان الرجالى لم يعد قادرا على أن يوهم أنها رجل، بل لم يعد قادرا على أن يشكك أو يخفى الأنوثة الطاغية التى كشف عنها شعرها. إن رقبتها طويلة كقصبة من العاج الداكن، وجبهتها عريضة مبسوطة كصفحة من ذكرى عزيزة، وشعرها هذا الأسود، كأنه الليل يأتى بعد نهار، والنهار وجهها هذا الصافى الجميل. عنده حق مبروك الحنطور.

وجلست الشيخة قبالة ضيفتها وبدآ حديثا تتعثر جمله وألفاظه فى بقايا ليل طويل :

ـ مستيقظة...والفجر وليد لا يزال؟

ـ بل قبل ذلك يا ست الشيخة. شدنى إلى هذا السحر، شئ خفى لا أعرفه فصحوت، فلما وجدت نفسى أمام هذا الضريح الهائل، استحييت أن أنام والشيخ سهران.

ـ وطبعا جلت وصلت فى الدنيا وأحوالها.

ـ واحترت من طول ما صُلت وجلت. تقطعت أنفاسى يا ست الشيخة.

ـ كان أفضل أن تنامى...لتكسبى نوم الليالى، بدلا من سهر شارد شرودا لا يجدى.

ـ لا هذا ينفع، ولا ذاك يشفع. كله واحد.

ـ غريبة ...وماذا تقاسين فى نومك؟

ـ أحلامى...أقاسى من أحلامى. دائما أرى نفسى كأنى وقعت فى بئر، وأصرخ وأستنجد بالناس، فلا أجد أحدا ينصت إلى، وعندما أجد واحدا، أشعر انه عاجز عن

أن يمد يديه إلى. أما مريض أو ضعيف أو مكتوف اليدين. وأحلام أخرى أقسى. وأحلام أخرى أشد. وكم من مرة صحوت من نومى أصرخ وأستغيث!

ـ فإذا استيقظت؟..

ـ قاسيت من يقظتى. إن يقظتى تضيف كثيرا من القسوة إلى نكبتى. ولا شك أنك تقدرين ما أقاسيه، برغم أنك لا تشعرين به ...

ـ لماذا؟ لماذا تستبعديننى؟ ألست مثلك امرأة؟

ـ أنت! اسم الله عليك يا ست الشيخة. أنت من نور. أنت لست مثلنا من تراب.

ـ وهزت الشيخة رأسها، وكادت تدفن رأسها بين كفيها لتبكى.

وشردت فيما قالته المعلمة : من نور...لا من تراب! لماذا؟ آه لو تعلمين إنى مثلك من تراب، وأنى أقاسى ما تقاسين، لكنى أصبر، وأتحمل والله يساعدنى ...

وعاد الحديث بينهما يتصل فى هذا الوقت المبكر من النهار :

ـ وكيف حال نزلاء المصحة؟

ـ بخير يا ست الشيخة...البنت تقدمت وصحتها تتحسن. والولد بدأ يشم نفسه يا حبة عيى، وكلما رآنى تعلق بى، وأخذ يقبلنى وهو يسألنى إلا أتركه، فانه محتاج إلى. إن أملى فى شفائهما يزداد، ولو شفيا فسأكون أسعد مخلوقة على وجه الأرض. انهما أعز عندى من نفسى. أنا أعيش من أجلهما.

ـ فقط..؟ وأليس هناك سواهما من يستحق أن تعيشى له؟

ـ هناك واحد مسكين، قبلنى على حالى ورضى بى وأنا كالوقف لا يجوز التصرف فيه! يعيش محروما مثلى، لا يفارقنى ولا يطيق عنى بعدا.

ـ وانت ..تحبينه؟

ـ من كل قلبى يا ست الشيخة. لكن والنبى أكثر من السلام، ما فيه شئ بينى وبينه. حب نظيف وشريف، لا أنا أفكر فى شئ خارج، ولا هو. إنى ألقاة وأتحدث إليه وأبوح له بكل أسرارى، أطلب منه المشورة والرأى، وأبثه لوعتى وهيامى..وهو كذلك يأتينى ليطفئ ناره بالشكوى والنجوى والكلام، ولا غير.

ـ هذا من فضل الله. هذه الاستقامة من فضل الله. وهذا الرضاء بما قسمه الله، أيضا من فضل الله. احمدى ربنا على هذا الفضل يا معلمة وردة.

ـ الحمد لله يا ستى، الحمد لله.

ـ وهل هو من المنيرة أم من بعيد؟.. لا تؤاخذينى يا معلمة، فانى أخطأت، وما كان قصدى أن أتدخل فى شئونك.

ـ ولم لا؟..أنت تعرفينه يا ست الشيخة. انه معى هنا.

ـ مبروك الحنطور؟

ـ نعم الحنطور.

ـ ولماذا لا تتزوجان؟

ـ والولدان المريضان، من يرعاهما؟ انهما بلا أب ولا أم. أنا التى بقيت لهما من الدنيا. هل أخذلهما؟ هل أخون عظم التربة فيهما؟ آه لو رأيت البنت يوم الزيارة عندما ترانى وفى عينيها البسمة والفرحة والأمل. والولد وهو يتعلق بى لا يريدنى أن أفارقه. إن الدنيا كلها تهون مقابل كلمة منهما. لا تنسى يا نينة موعد الزيارة القادمة. هكذا يقولان لى وأنا أودعهما. كل مرة يقولانها لى. انهما يعيشان ينتظران زيارتى لهما. وعندما أحمل لهما بعض الطعام أو الفاكهة يأكلانه فى نهم وهما يقولان : طعامك حلو يا نينة. أنت طبخته لنا؟ إن طعمه جميل. كيف أتخلى عن هذين المريضين؟

ـ وهل يمنعك الزواج عنهما؟

ـ يا ست الشيخة صاحب بالين كداب.

ـ لكن من الممكن أن توفقى بين الواجبين، خصوصا ومبروك رجل عاقل.

ـ أبدا. طالما انهما مريضان فى المصحة، فلا. أبدا.

ـ ربنا يعينك على ظروفك، ويساعدك.

ـ أى والنبى ادعى لى يا ست الشيخة. ادعى لى يصبرنى.

ـ إن شاء الله ربنا يأخذ بيدك. هيا هيا بنا نتوضأ ونصلى الفجر، فقد يأتى الرجال فى أى وقت.

ـ وهل سيستيقظون فى الفجر؟

ـ الشيخ مختار يستيقظ قبل الفجر، ليكون فى الجامع للصلاة، وقد يصحبانه إلى الجامع، ثم يحضرون بعد الصلاة.

ـ يظهر أن الشيخ مختار رجل طيب يا ست الشيخة.

ـ طبعا. إن بيته بيتى ومكانى، وهو رجل كريم يوسع فى بيته دائما مكانا للشيخ عبد الرءوف كلما اضطر للمبيت، ولأى ضيف يأتى لزيارتنا ويتأخر هنا. ثم امرأته. يا سلام يا معلمة وردة! أنها بنت الشيخ مرزوق، أخذت من أبيها الصفات والشمائل، ربنا يطيل عمرها ويسعدها.

ـ كل هذا لا شئ يا ست الشيخة. خيرك وخير سيدى الشيخ "أبو عوف" سابق. أنت فضلك عليهم جميعا.

ـ العفو يا ستى. الله يحفظك.



وعندما وصل الرجال : الشيخ عبد الرءوف والشيخ مختار ومبروك الحنطور قال الشيخ مختار للشيخة تفيدة :

ـ إن ضيوفك يا ست الشيخة يريدون أن ينصرفوا اليوم، وهذا شئ لا يعرفه "سلو بلدنا". انه عيب كبير عندنا أن تسافروا بهذه السرعة.

وأقسم الشيخ مختار برحمة الشيخ مرزوق أن يبقوا فى البلد بضعة أيام، وأن يتعشوا عنده الليلة بعد صلاة العشاء، وأن تتعشى الشيخة معهم.

ولم تكن هناك من وسيلة ألا أن يبقوا اكراما للشيخ، خصوصا وقد حلف برحمة رجل يحتل مكانة كبرى فى نفوس أهل القرية.

وبعد أن تناول الجميع الافطار، فى هذه الساحة المباركة، اقترحت الشيخة تفيدة على مبروك أن يصحب المعلمة إلى محطة السكة الحديد، ليتفرجا على الناحية وما فيها. وطلبت من الشيخ عبد الرءوف أن يرافقهما فى هذه الرحلة.

وقد حاول الضيفان أن يبقيا إلى جوار الشيخة، لولا أنها ألحت عليهما أن يذهبا، فانهما قد اعتادا على الحركة ومخالطة الناس، لا على هذه الجلسة المملة فى القبور، حول الضريح.

وذهب الثلاثة إلى المحطة، وعاد الشيخ مختار إلى القرية ليكون فى خدمة الجامع.



وكانت محطة السكة الحديد، قد أصبحت زاخرة بالحركة والنشاط.

إن الدكان الذى بدأه الخواجة اليونانى، منذ عشرات السنين، قد آل إلى أبنائه، وتحول إلى متجر كبير، يتعامل فى كل شئ، وله مخازن مليئة عامرة.

لم يعد الدكان مقصوراً على بيع البقالة والعيش الفينو، وبعض المشروبات.

ولم يعد الدكان مقصورا على مكان للبيع ومكان للأكل والشراب، حوله حديقة صغيرة، وفوق هذا بضع حجرات لمبيت الخواجة.

لكن الدكان قد صار متجرا لكل شئ.

للبقالة والعطارة والخردوات والقماش والمشروبات والدواء.

ولكل المحاصيل : القطن والقمح والذرة والسمسم والفول.

ولكل أنواع الاثاث : دواليب وسراير وكراسى ومناضد.

ولكل أنواع الذخيرة والسلاح : بنادق ومسدسات وطلقات ومتفجرات.

ولم يكتف الخواجة بهذا، لكنهم فتحوا إلى جوار هذا دكانا للجزارة وطابونة للخبز البلدى، وقهوة تقدم المشروبات والمأكولات للذين ينتظرون القطارات أو يودعون المسافرين، أو يستقبلون القادمين، وحلقة للسمك.

وكانت هذه الدكاكين تقف صفا واحدا متقاربا فى كبرياء! وتمتد من المحطة فى الاتجاه القبلى إلى جسر الرياح حيث كان العمل يجرى على قدم وساق فى إنشاء عدة طرق فرعية، تتصل بطريق المعاهدة بين القاهرة والاسكندرية وتنتهى عند كوبرى جديد واسع أقيم فوق الرياح.

وعندما وجدت المعلمة القهوة، صاحت من فرحتها : هنا أيضا قهوة، لكن قهوتنا أحسن؟ أليس كذلك يا معلم مبروك؟

وأجابها مبروك الحنطور : طبعا قهوتنا أحسن. وهل تكون هذه كقهوة المعلمة؟

لكن الشئ الذى لفت مبروك، هو صبى صغير يبيع الصحف، وقد بدا هزيلا شاحب الوجه، يكاد من ضعفه أن يتعثر فى ظله!

وناداه مبروك، واشترى منه الصحف والمجلات التى عنده، فلما هم الصبى الصغير يرد بقية ماله له : لا لا انه لك. استبقه لك.

ونظر إليه الصبى فى عجب.. لم يصدق أن الباقى له. انه يكاد يكون كثمن الصحف التى اشتراها، فهل يتركه له؟.هكذا بلا مقابل؟ ومن أول مرة. انه ليس زبونا يشترى منه كل يوم، ولا كل شهر، لكنه يتعامل معه للمرة الأولى، ويعطيه هذا البقشيش الكبير!!

وأخذ الصبى ينظر، والمعلم ينظر إليه، ثم مد كفه فمسح على رأسه، وقرص أذنه فى دعابة، ثم أخذ يدير حديثا معه.

وعلم مبروك أن هذا الصغير قد ورث العمل عن أبيه، ليرعى أمه واخوته، بعد أن مات أبوه، وكان أحد الأجراء ممن تصبب أعمارهم عرقا فذبوا هنا كما تذوب حصوة الملح الرشيدى عندما تتحلل فى الماء. وعندما عجز الرجل عن العمل فى الزراعة، أخذ يبحث عن مورد رزق لا يكلفه أن يعزق طول النهار أو يسقى الأرض أو يجمع المحصول للآخرين. وكاد يموت من الجوع. لولا أن المصادفة دفعته ذات صباح إلى محطة السكة الحديد، يتطلع إلى القطارات فى سذاجة، وكان أحدها واقفا فى المحطة، وواحد من ركابه يحمل صحفا كثير مختلفة. ولم يدر المريض الجائع إلا بيد تمتد إليه بعدد من الصحف، وراكب من القطار يخاطبه : خذ. خذ هذه الصحف. بعها الواحدة بقرش، فان بعتها فقابلنى بثمنها غدا، فى نفس الوقت، ونفس القطار. قبل أن يسأل أو يستفسر، كان القطار قد مضى فى طريقه إلى ايتاى البارود.

رزق. رزق من عند ربنا. هل يعترض أحد على الرزق؟

هكذا قال لنفسه. لكنه لم يعرف ماذا يعمل بها. وظل الرجل يسير، حتى سمع صوتا يصيح به : تعال "يا بتاع الجرائد" هات. وذهب إليه فأخذ صحيفة، وأعطاه ثمنها.

حلم هذا أم علم؟ التملى المعدم، أصبح "بتاع جرائد"؟! ويشترى منه الناس الصحف؟ ويدفعون له ثمنها؟ لا لا ...لا يمكن أن يكون هذا صحيح! الله! لكن هذا قرش. قرش صاغ ميرى فى يدك يا ولد، ولم يكن معك منذ لحظات حتى الهواء، فمن أين جاءك؟

ولم تمض لحظات حتى اشترى منه واحد آخر صحيفة، وأصبح القرش قرشين. ثم ثلاثة، ثم أربعة...حتى أصبح، وحق النعمة، أحسن من الخواجة !!

وحدثته نفسه أن يشترى لنفسه ولأولاده أكلا...انهم جياع.

لكنه أمسك بالنقود فى قبضته، وهو يقول لنفسه فى حدة : لا يا ولد. الشرف قبل الطعام. هذه ليست نقودك. أنها نقود راكب القطار، وعليك أن تعيدها إليه.

وعندما فرغت الصحف كان قد اصبح صاحب ثروة ! لكن لسواه! فذهب بها إلى بيته، فى احدى العزب القريبة، وهناك حكى لامرأته فعجبت مما تسمع، ولولا أن النقود كانت معه، لشكت فى عقله.

وقال لها كمن يتلمس لنفسه العزاء : أنا أقول إن هذا ليس حقنا. انه حق صاحب الحق، راكب القطار. ونحن ناس نجوع، لكن لا نأخذ حق أحد.

قالت امرأته : طبعا. يا نهار أسود. أنها إذاً سرقة. نسرق الناس!!

بينما كان الجوع فى داخل كل منهما يتحرك بهاجس غريب، كان يمكن أن يدفعهما إلى شئ آخر، لولا هذا الجهر بالكلام. إن الهمس كالظلام أو كالنور الخافت يخفى أشياء. أما الجهر فهو ضوء النهار، كل شئ فيه واضح وصريح فان يكن غير لائق فهو.مفضوح!!

ولم ينم الرجل، ولا امرأته.

.ولا دياب، هذا الصغير، وإن يكن أكبر أولاده، فقد سمع أباه وأمه يتكلمان عن الجرائد والقروش الكثيرة. والجوع الذى يفتك بهما، والشرف الذى يتمسكان به.

وعندما أصبح الصباح، خرج الرجل، وصحب معه هذه المرة ابنه دياب.

وذهبا إلى المحطة ينتظران القطار. وأخذ الرجل يحدث ابنه بما حدث، ويفتح يده يريه نقودا كثيرة تلمع، لكنه يعود فيغلقها وهو يقول له : هذه حق واحد آخر. ليس لنا فيها شئ.

وجاء القطار، فأسرع الرجل إلى الراكب الذى أعطاه الصحف.

قال الراكب : هه... بعت الجرائد؟

قال الراكب : خذ.. هذا حقها.

قال : كم؟ كم قرشا؟

قال : لا أدرى لم أعدها.

وعجب الرجل، فأخذ يعدها، فلما وجدها مضبوطة، استبعد منها خمسة قروش ووضع الباقى فى محفظته، ثم أعطاه القروش الخمسة، قائلا : هذا نصيبك. خذ هذا نصيبك.

ولم يصدق الرجل، ولا دياب ابنه.

ومع القروش الخمسة أعطاه مجموعة من صحف اليوم وهو يقول :

خذ هذه بعها، وسيكون لك فيها نصيب حلال.

وقبل أن يتكلم أو يسأل، كان القطار قد مضى فى طريق أمس إلى ايتاى البارود.

ونظر الرجل إلى ابنه دياب، وهو يقول : رزق. رزق من عند ربنا. رضا. الحمد لله.

وأرسل ابنه بالقروش الخمسة إلى أمه ليعد وليمة فاخرة، بعد الجوع الطويل، والضنى والحرمان، والجفاف الذى يكاد يشقق بطونهم، كالارض العطشى.

وهكذا مرت الايام. والرجل يتقاضى كل يوم خمسة قروش يعيش عليها وأسرته فى قناعة، ورضاء بما أنعم الله به عليهم من الرزق.

لكن العلة لم ترحمه، فمضى.

وورث دياب عنه الصحف والخمسة قروش كل يوم.

وعندما فرغ دياب من روايته، كان المعلم مبروك قد نوى فى نفسه نية، قرر أن ينفذها بعد أن يعود إلى مصر.



أما المعلمة وردة، فقد سحبت مبروك من يده، وهى تقول له وللشيخ عبد الرءوف : تعالوا... نقعد على القهوة، سترون الفرق بين القهوة هنا، وقهوة المعلمة.

وذهب ثلاثتهم إلى القهوة، واختاروا مكانهم فى وسط الكراسى المنثورة وأخذوا يتطلعون إلى اليمين وإلى اليسار. وكانت المعلمة مهتمة كل الاهتمام بالكراسى والمفارش والمناضد. وكانت تراقب الخدمة بعينيها.

وكان منظرها فى القفطان الرجالى موضع دهشة الجالسين فنظروا إليها وأخذوا يتأملونها فى فضول.

وانتظر الثلاثة أحد الجرسونات ليحضر يسألهم عن طلباتهم، فلم يحضر أحد. ولما طال بهم الانتظار، قامت المعلمة تبحث عن واحد منهم.

ووجدتهم يروحون ويجيئون فى أيديهم أشياء ملفوفة، دون أن يعبئوا بالطلبات. قلما كان أحدهم يحمل قهوة أو شايا أو أى مشروب إلى الزبائن. لكن الذى كانون يروحون به ويجيئون به، أشياء ملفوفة فى ورق تختلف أحجامه. مرة تكون هذه اللفافات كبيرة تتقدمهم كالكرش، ومرة تكون صغيرة فى حجم قطع الشيكولاتة. ومرة تكون مستديرة ومرة تكون مستطيلة ...

ووقفت تحملق فيهم، وهم يروحون ويجيئون.

وعجبت مما ترى!! ما هذه الطلبات؟ أية قهوة هذه؟

وفجأة جاءها شاب صغير، أبيض، بشعر أصفر يتدلى على جبهته، وفى عينيه اخضرار البرسيم.

جاءها فى غضب وانفعال ليسألها فيم وقوفها هكذا. وماذا تريد؟

ولم ترد، وإنما أخذت تقيسه طولا وعرضا بعينيها، وتتطلع إليه فى سخرية قاتلة، ثم قالت له فى ازدراء : وما دخلك أنت؟

قال فى لهجة خواجات : طبعا لى دخل. ماذا تريدين؟

ومست شعره بكفها وهى تقول : يا حلاوة " والنبى ينفع ضفيرتين! تيجى أسرحك؟!"

وغضب الفتى غضبا شديدا، وأخذ يزمجر ويصيح، والمعلمة، تربت على خده فى احتقار شديد وتقول له : دمك! الله دمك يحترق! لا يا حلوة لا!!

وأخذ الفتى يضرب الأرض بقدميه وتعلو صيحاته، قائلا : أخرجى من فضلك أخرجى.

وتجمع عدد من الجرسونات. تركوا عملهم وجاءوا يتساءلون : ماذا حدث؟ ماذا حدث يا خواجة؟

وكان مبروك قد حضر بدوره، ووقف إلى جوار المعلمة، بينما كان الشيخ عبد الرءوف قد اختفى.

قال الخواجة فى رعونة : أخرجوها من هنا. تخرج حالا من هنا. احملوها حملا، وارموها خارج القهوة.

بينما كانت المعلمة قد جلست على أحد الكراسى، وسحبت مبروك ليجلس إلى جوارها، ووضعت رجلا على رجل، وأخذت تنظر إلى هذا الولد الصغير الأهوج وابتسامة ساخرة على شفتيها.

وبعد أن فرغ من كلامه هذا نظرت المعلمة لواحد من الجرسونات وقالت له : هات قهوة للمعلم، وشيشة لى.

هكذا فى هدوء شديد، وبلا أى انفعال!

ولم يدر الجرسون ماذا يفعل! نظر إلى الخواجة كأنما يسأله ماذا يفعل، وكانت مفاجأته له وللخواجة، فأصيبا بارتباك.

وبعد لحظة قال الخواجة : "ما مفيش قهوة ولا شيشة".

قالت : ماذا عندكم؟

قال : مغات.

وضحكت ضحكة طويلة صاخبة، وأخذت تصفق فى مرح وهى تقول : الله ...إذاً نشرب مغات. المعلم يحب المغات."انت ولدت يا شاطرة"! حمد لله على السلامة

ونظرت تبحث عن الشيخ، فلما لم تجده قالت لمبروك : كان لابد من أن يخرج. مقامه وهيبته يحتمان عليه هذا. لقد فاتنى أن أرجوه أن يخرج، ويسبقنا.

على أن الخواجة عاد يصيح يطلب من الجرسونات أن يخرجوها، وأن يطردوها، وإلا فانه سينادى البوليس.

وعندما هم الجرسونات بالاقتراب منها، وقف مبروك ليدافع عنها، فحمله أربعة رجال بعيدا عنها، وبدأت هى تدفعهم عنه.

وفجـأة ظهـر رجل ملثم، فى كل يـد من يديه مسـدس، وعلى زناد كل مـسـدس أصبع متأهب فى أى اتجاه.

وصـاح الرجل الملثم : إياكم يا كـلاب..اتركـوه، اتركـوهـا، والا أطلقت عليكم النار. تسمعون كلام الخواجة وتطردون أولاد البلد يا أنذال؟

وساد الصمت، ونظرت المعلمة معجبة، ونظر مبروك راضيا. وتفرق الجرسونات ولم يبق إلا الخواجة يرتعد من الخوف.

قـال الرجل الملثم : إياك أن ترفض للست طلبـا. ولا للمـعلم. وإذا لم يكن أبوك قـد رباك، فسأربيك أنا.

وهز الفتى رأسه فى خوف، وانصرف.

وكما دخل الرجل الملثم فى سرعة البرق، فقد اختفى كذلك كما جاء.

قالت المعلمة لأقرب جرسون : قلت لك هات قهوة للمعلم، وشيشة لى.

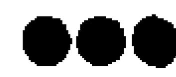
ومضى الجرسون يلبى الطلب.

وبعد فترة، وبينما المعلمة تشد أنفاس الشيشة، والمعلم قد فرغ من قهوته، دخل الشيخ عبد الرءوف يقول فى صوته الكريم الطيب : هل فرغتما؟ هيا بنا نعود قبل الحر.

وتقدم الخواجة من الشيخ، يقبل يديه ويقول له فى لكنة أجنبية : والنبى يا سيدنا الشيخ، أوصها بنا. أنها عصبية. هده السيدة عصبية.

قال الشيخ : ربنا يهديكم جميعا. ربنا يهديها ويهديك.

وانصرفوا جميعا عائدين إلى الشيخة تفيدة.



وبينما هم عائدون، انصرف الشيخ عبد الرءوف يحدث نفسه فى عتاب :

وتدعى أنك مجرب؟ وتأتى هنا وتعود لا تعرف ماذا يحدث هنا، ولا ماذا يمر تحت ذقنك يا غبى، يا أعمى!! هل كان لابد من زيارة المعلمة والمعلم، وهذه الخناقة حتى تعرف

ماذا يدور هنا؟ وهب أن هذه الزيارة لم تتم، وهذه الخناقة لم تحدث، أكنت تظل حمارا لا تعرف رأسك من رجليك؟!

يا نهار أسود! كل هذا يحدث هنا، فى هذه المحطة الصغيرة؟! وهذه فرصة العمر بين عينيك ولا تراها ! هذه فرصة لا تتكرر! سيارات صفراء لورى وركوب، تحمل الناس والبضائع. سيارات صفراء عسكرية بريطانية، تأتى إلى هنا، لتتصل بالخواجة تفرغ عنده البضائع وتقبض الثمن، أى ثمن! وأنت على بعد شبر منها ومن الناس الذين يتولون أمرها، ولا تعرف؟! ولا تتصرف؟ متى تتصرف إذاً، وأين؟ يا حضرة الوطنى؟! يأتون إليك، وتغمض عينيك؟! لا والله يكتبون لك بطاقة دعوة، ويهيئون لك العشاء حتى تذهب لتلقاهم؟!

وعندما وصلوا إلى الشيخة، أخذت المعلمة تروى لها ما حدث فى حدة وانفعال، وتحكى لها كيف بدأ الرجال يعتدون على مبروك وعليها، لولا رجل من ظهر رجل، دخل عليهم مثلما وفى يده مسدسان! وارتبكوا وعرقوا، وصاروا جميعا كالنعاج.

ونظرت الشيخة إلى الشيخ، وابتسمت وابتسم.

ومضت المعلمة تقول : والنبى، و "من نبى النبى نبى" لأفتح قهوة هنا، وسترون أنا أم الخواجة؟!

وبرقت عينا الشيخ عبد الرءوف بومض غريب، لكنه سكت، ولم يتكلم.



وذهبوا جميعا للعشاء عند الشيخ مختار.

ووجدوا هناك عبد المهيمن أفندى ناظر المدرسة والست أم صلاح حرمه.

وجلس الشيخ مختار مع الرجال.

وجلست راضية مع النساء.

وأخذ الجميع يتذكرون أيام الخلاف بين المدرسة والكتاب! وكيف استطاع الشيخ أبو عوف آن يحمسه، وأن يقرب ما بينهما حتى لقد أصبح ناظر المدرسة وشيخ الكتاب أعز صديقين.

وأقسم عبد المهيمن أفندى ليكونن العشاء غدا عنده هو، ولم يكن بد من القبول.



وبعد العشاء عاد الشيخ عبد الرءوف، مع الشيخة والمعلمة، ليوصلهما إلى الضريح ثم يعود ليبيت مع مبروك فى بيت الشيخ مختار.

لكنه أوصلهما ولم يعد. لقد ذهب إلى المحطة يرقب الحالة، ليدبر أموره.

وجلس هناك، فى الظلام وعيناه عليهم.

الخواجة والخواجات!!

وبضائع مسروقة مهربة!!

وكاد يصيح من الفزع :

ومخدرات. هذه مخدرات!

وأمسك بيديه بين كفيه، وهو يقول :

صيدة كبيرة، لكنها محتاجة إلى ترتيب.

وحدثته نفسه أن يطلق عدة أعيرة تقتل عددا من هؤلاء، لكنه عاد يقول لنفسه : لا لا. ليست الشجاعة دائما أن تطلق الرصاص.

ماذا تكسب لو أطلقت بضع رصاصات الآن؟

كل ما تكسبه أن تنبههم إلى الخطر ليحتاطوا لهذا الخطر! هل هذا قصدك؟ وماذا يكون الفرق بينك وبين البوليس السياسى؟!

لكنه وجد لذة كبرى فى هذه الرقابة فلم يغادر مكانه إلا قبيل الفجر.



وفى اليوم التالى، ذهبوا إلى المحطة.

مبـروك كان يريد أن يرى "دياب" ويطمئن عليه، والمعلمـة كانت تريد أن تجلس على القهوة وتطلب شيشـة، وتنظر من فوق لتحت من تحت لفوق، للولد الخواجة الرقيع! لم لا؟

وعند المحطة التقى مبروك بدياب، فأسرع إليه، بينما تردد الصبى الصغير فى النظر إليه، فقال مبـروك للمعلمة : لاحظى. انظرى. شئ غريب يا معلمة. الولد الصغير الفقير المحتـاج يخـشى أن أظنه يطاردنى بعـد عطاء أمس. انه يغض بصـره حـتى لا أراه ولا يرانى. الكرامة ليست بالغنى. هذا ولد جائع ضائع، لكنه كريم على نفسه.

وناداه مبروك، فأقبل على مهل، واشترى منه الصحف والمجلات وترك له الباقى.

قال الصبى : لماذا ياعم كل هذا؟

قال مبروك : لك، انه لك.

قال الصبى : كل يوم؟

قال المعلم : وأى عيب فى هذا يا بنى؟

قال الصبى : وماذا فعلته لك حتى تعطينى كل هذا؟

قال له فى صراحـة : اسمع يا دياب. أنا كنـت مثلك، بل كنت أبأس منك، والآن صـرت معلمـا لدى باعة ومعلمـون، وصبيان كثيـرون. لكنى لم أنس مـا قـاسيتـه. أبدا، ولم أنس الجوع والعرى والتشـرد. أنت أسعد منى حـالا، على الأقل لك أم وأخوة. لكنى وأنا مثلك، كنت بلا أم ولا ولد ولا أهل ولا صـديق. على كل حال اصبر يا دياب، وسيأتى يوم تصبح معلمـا أنت الآخر. نعم وستصبح مستورا مستـريح النفس هانئ البال، لكنك ستظل تذكر هذه الأيام يا دياب، وستظل تعطف على كل مـحتـاج. إياك أن تنسى أو تتبطر أو تتنكر لماضيك! إياك!

وأخذ الصبى الصغير ينظر إليه فى اكبار، لا يصدق عينيه.

هذا الرجل الطويل العريض، بملابسه هذه الحريرية، قد كان ذات يوم يسرح بالصحف مثلك يا ولد!! وهل هذا معقول؟ لكنه عاد يقول لنفسه ربما. ربنا قادر على كل شئ.

أما المعلمة، فقد جلست على القهوة، وصفقت تطلب الجرسون، فأسرع إليها، يسألها عما تطلب. قالت : مثل أمس. قال : قهوة مضبوط للمعلم، وشيشة لحضرتك؟ قالت : عليك نور، "قوام".

وبينما هى تشد أنفاسها، من خلال مبسم الشيشة، أخذت تتحدث مع مبروك فى همس، عن المشروع الجديد.

- والله يا مبروك قهوة هنا تبقى مدهشة.

- وتعيشين هنا يا معلمة وردة؟

- بين هنا وهناك. المهم الخواجة يعرف أن فيه من يستطيع أن يؤدبه، ويوقفه عند حد، إنما ينطلق على الناس بهذه الطريقة، لا. انظر. أين دكاكين أولاد البلد أو الفلاحين؟ ليس هنا دكان واحد إلا ملكه. طبعا يتفرعن!! والنبى يا مبروك توافقنى. أنا نفسى أكسر أنفه ..هل هى فوضى؟ لا امتيازات ولا شئ. كلنا واحد. هو خواجه وأنا بنت بلد، لكن هو وأنا واحد، والقانون قانون.

- يا معلمة هذا كلام. وأنت أيضا تصدقين!! يا شيخة الحرب دائرة، والإنجليز فى كل مكان، وأنا عارفهم. زبائنى. الخواجات عندهم أولا. طبعا اعتمادهم كله على الخواجات. مخابراتهم منهم. جواسيسهم منهم. وتحاولين أنت أن تقفى ضد خواجه؟ لن يتركوك. المسألة ليست مسألة قانون. أنها مسألة عافية وقوات احتلال وحالة حرب، وتأمين صفوف الحلفاء.

- والله العظيم أبدا، لابد من تأديبه، هذا الخواجا "المفعوص"! أنا يطردنى؟! سيأتى يوم يخرج من هنا طريد الناحية كلها. أنتم لم تقدروا عليه. اتركوه لنا نحن النساء، وتفرجوا علينا.

ودخل الشيخ عبد الرءوف فسألته المعلمة :

ـ ما رأيك يا سيدنا الشيخ عبد الرءوف. أنا نفسى أفتح قهوة هنا فى هذه المحطة، وأضارب بها الخواجة، وأخرب بيته.

وقال الشيخ عبد الرءوف، بعد صمت طويل، كان خلاله مغمض العينين يستخير الله سبحانه وتعالى :

ـ والله يا بنتى، على الأقل أنت مسلمة وموحدة بالله. أما هذا فخارج على دين الله. لكن كيف تستطيعين أن يديرى عملين، واحد فى المنيرة وواحد هنا؟ هل تستطيعين؟

ـ نعم أستطيع، وسأستعين بناس طيبين هنا وهناك. وسأكون بين هنا وهناك. الحقيقة يا سيدنا الشيخ يظهر أن سيدى "أبو عوف" هو الذى نادنى. أحببت هنا يا سيدنا جدا. أحببت الطبيعة، والجبانة، والضريح، والناس والساقية، و"أبو المكارم". كل هذا أحببته، ولم أعد قادرة على البعاد عنه.

ـ على خيرة الله يا بنتى. اتكلى على الله.



وبعد أن انتهت جلستهم، ذهبوا إلى جهة يسمونها الجزيرة، وسط النيل حيث قضوا اليوم، ثم عادوا آخر النهار إلى الشيخة تفيدة، يحكون لها ما كان من يومهم.

وبعد صلاة العشاء، ذهبوا إلى منزل عبد المهيمن أفندى حيث تناولوا العشاء.

وكان حديثهم كله حول ما تنويه المعلمة.

وقال عبد المهيمن أفندى : والله يا ليتك تستطيعين أن تخلصى الناحية منه. انه يمص دماء الناس. يشترى محاصيلهم بأبخس الأثمان، ثم يأخذها منهم بضائع وقهوة و "سكر وشاى" ومشروبات ذات ألوان!

وقال الشيخ مختار والشيخ عبد الرءوف : والمسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا.

ولم تقل النساء شيئا.

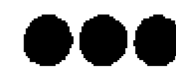


وعندما انفض الجمع وهجع كل إلى مكانه لينام، ظلت الشيخة تتقلب تؤرقها فكرة القهوة، والمعلمة، والمصير الذى ينتظرها فى هذه الناحية.

والمعلمة كذلك كانت تتقلب، يؤرقها الخواجة الناعم وكيف جرأ على أن يطردها!!

وعندما طرق آذانها صوت الكروان، فتحت كل منهما عينيها لتطل فى عينى زميلتها، تهرب فيهما من الخوف والقلق.

وضمت كل منهما الأخرى تحتمى بها وتحميها، وقبلت كل منهما الأخرى فتراخت جفونهما فى استسلام حتى مطلع الفجر.



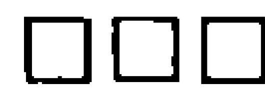
أما فى بيت الشيخ مختار فقد تمدد رجلان : الشيخ عبد الرءوف والمعلم مبروك، لكن واحدا منهما لم يستطع أن ينام.

فالشيخ عبد الرءوف كانت تؤرقة السيارات الصفراء التى تحمل البضائع والعساكر والضباط الإنجليز، إلى قهوة الخواجة فى المحطة.

ومبروك الحنطور كانت تؤرقه المعلمة ومشروعها الجديد ودياب.

وهكذا لم يفرق القلق بين الرجال والنساء.

كلهم نائم، وكلهم كذلك.. يقظان!



٨

كان الخواجة واقفا، وقد شمر عن ساعديه، وتدلت شعرات صفراء من شعره الناعم على جبهته، والشرر يتطاير من عينيه. وكان حوله عدد من عماله : جرسونات وصبيان وحمالين. وفجأة انفجر يصيح فيهم جميعا : كلكم نساء ليس فيكم رجل! كلكم! انظروا، واحدة ست ضربتكم كلكم! ليس فيكم واحد مثلها!

ولم يتكلم أحد. لم يستطع أحد آن يرد أو يجيب.

وأخذ الخواجة يضرب الأرض بقدميه، وقد امتقع وجهه حتى صار كقطعة كبدة، وصاح فى الرجال المحيطين به : هذه آخرة الطيب فى هذه البلد! تذكروا ماذا فعلنا لكم. هذه المنطقة، كانت خرابة، والخواجة الكبير هو الذى عمَّرها. هذه المحطة كانت لا شئ، وجئنا وجعلنا منها منطقة عامرة فيها حركة ونشاط. اذكروا أين كانت تذهب محاصيلكم، حتى بدأنا نشتريها منكم بأسعار طيبة. وعرفنا كم الأشياء الحلوة والطيبات من المأكولات والمشروبات. ثم تأتى واحدة ست تضاربنى، فيذهب الناس إليها!! انظروا. السوق كله عندها. خسارة العمر الذى قضيناه هنا. خسارة! والله لأخرب بيتها. سأبلغ البوليس والإنجليز وسأعمل كل شئ للقضاء عليها.

وانصرف الخواجة ضيقًا بما يرى، متبرما، وقد انتفخت أوداجه كأنها كرة!!

وأخذ العمال يتحدثون إلى أنفسهم بعد انصراف الخواجة :

ـ عنده حق الخواجة. صحيح كلنا أضعف منها.

ـ معلمة، ومن البندر! هل نقدر عليها؟

ـ لكن الخواجة سيبلغ البوليس عنها.

ـ وقال انه سيبلغ الإنجليز.

ـ لكن يبلغ عن ماذا؟ ماذا فعلت المعلمة؟

ـ فتحت قهوة حلوة والله.. ولطيفة، ودمها خفيف.

ـ وفتحت دكان جزارة.

ـ وبقالة...وعطارة.

ـ وحلقة سمك.

ـ ولم يبق إلا "المدعوق"!

ـ "وتبقى معدن"!! الناس تغمض عيونها نهائيا، لا ترى حتى خيالها!

ـ هنا دور، وهناك دور ... ثم يرتمون على الرصيف.

ـ ولا يميزون بين قهوة الخواجة وقهوة المعلمة.

ـ يا اخواتى، كيف استطعت أن تبنى هذا كله فى شهور؟ صف دكاكين وقهوة ومخازن.

ـ حتى حلقة السمك، بنت لها مكانا بجوار المخازن.

ـ وكما فعل الخواجة، فعلت المعلمة. بنت لنفسها سكنا جميلا، فوق القهوة.

ـ وأحضرت للقهوة جرسونات من مصر.

ـ وإلا السامر الذى تقيمه كل ليلة.

ـ مغنى وطرب وقصص "أبو زيد" والزناتى خليفة، وعنتر وعبلة.

ـ وحكايات ألف ليلة وليلة.

ـ ومدائح النبى «صلى الله عليه وسلم».

- طبعا تضرب الخواجة. تضربنا كلنا. ست فاهمة تمام.

- تبقى الخمرة تنفعه!..والا العيش الفينو!!

- يا ناس. نحن نعمل عند الخواجة.

- ومن أكل عيش الخواجة، حارب بسيفه.

- سيفه وإلا سيفنا؟! ومن أين كان له سيف؟ ألم يأت بلدنا عريانا، لا يملك خرقة يستر بها نفسه؟ ثم يقول الآن أن العمر الذى قضاه هنا، هو وأهله، خسارة! أية خسارة؟ العزب التى اشتراها من دم الناس! أم البضاعة التى اقتناها من لحم الناس، أم الأموال التى وفرها من أرواح الناس؟ كل هذا خسارة؟

- أى والله. نحن الذين دفعنا له أعمارنا ...خسارة!

- ربنا ينتقم منه.

- هذا هو الانتقام. المعلمة وردة النقرزان. لقد اقتحمت عليه القهوة، وضربت صبيانه أمامه، ولم تهتم بأحد. ومن يومها وهو يرتعد منها. وكأن أمله أن يقضى عليها بعد كل هذه التكاليف، لكنها هى التى ستقصى عليه، إن شاء الله.



وكانت المعلمة، فى جلبابها الرجالى جالسة فى مدخل القهوة، ومبسم من الكهرمان بين شفتيها، يحمل إليها أنفاسا طويلة من التنباك العجمى، من الشيشة التى تقبع دائما تحت قدميها، تتسمع خفق قلبها، وتنصت إلى نجوى سريرتها، وتشهد ألوان نشاطها، وأنواع خمولها، ولحظات استرخائها مخدرة، بعد أن تكون قد أنهكت نفسها فى نشاط دءوب متصل لا ينتهى.

لقد خاضت طوال الشهور الماضية معركة عنيفة مع نفسها، عندما قررت أن تبنى هذا الطابور الطويل من الدكاكين والقهوة. حرض الخواجة عليها الناس ليعاكسوها

وليسخروا منها، وليحطموا مجاديفها. ولم يكن معها من أهل الناحية إلا أبو اليزيد الحمار، والصبى الصغير دياب ...

حتى هذان المغلوبان، لم يستطيعا أن يخسرا مصالحهما مع الخواجة وزبائن الخواجة، ولما لاحظت المعلمة حيرتهما، طلبت منهما أن يتظاهرا بأنهما مع الخواجة، وسيكفيها منهما أن ينبهاها إلى أى خطر، إذا كان يدبر لها شيئا فيه خطر.

وكانت أزمة عصبية وقاسية، كادت تحطم أعصابها وتصرفها عما بدأته.

حاول الخواجة أن يمنعها من الحصول على مواد البناء، فلما وجدت المواد اللازمة، حاول أن يمنع عنها عمال المبانى، لكنها أجزلت فى الأجور.

وبينما كانت تشرف بنفسها على المبانى وإعداد كل شئ وافتتاح القهوة، دفع ببعض الصبية المأجورين إلى أن يقوموا بأعمال صبيانية ضدها. يهللون إذا مشت، أو يتبادلون المزاح الفارغ عنها، أو يذيعون القصص والروايات الجارحة عن سلوكها، أو يقولون للناس أنها جنية لا تعامل، وأن الملابس التى ترتديها، هى من طلب الجن، وهى لا تخالف للجن طلبا.

وكانت تسمع ولا تعقب بشئ. حتى بلغها ذات يوم أن هؤلاء الصغار يذيعون عنها أنها تستقبل الرجال فى الظلام، وأن الملابس التى ترتديها، ليست إلا زيفا تخدع بها الناس.

ولم تملك نفسها من أن تذهب إليهم حيث كانوا يجلسون فى قهوة الخواجة. واقتحمت المكان ولم يكن معها أحد. وعندما واجهت هؤلاء المأجورين، وكانوا ثلاثة من المتعطلين، ممن يعملون كل شئ، ولا يعملون شيئا!

وبلا مقدمات، ولا مناقشات، هوت بكفها على وجه الأول!

وبلا تفاهم، ولا عتاب، ثنت بكف على قفا الثانى!

وبلا تردد، أو انتظار، أمسكت بتلابيب الثالث وطرحته أرضا وداست بقدمها على ظهره!

وذعر من فى القهوة، واختفى الخواجة، وفتح الناس أفواههم من الدهشة، وارتفعت صيحات دياب بالصحف التى معه، وقلما ينادى دياب على الصحف، لكنه أراد أن يظهر اعجابه بما رأى، فلم يجد إلا هذه الوسيلة يصيح بها فينفس عما فى صدره.

وبينما الناس قد شبوا على أطراف أقدامهم يتطلعون، جلست هى فى هدوء شديد على أحد مقاعد القهوة، وأخذت تصفق.

وأسرع إليها جرسون من القهوة، فقالت له : ناد الخواجة.

وعاد مسرعا إلى الخواجة، فارتبك الخواجة واضطرب، ثم ذهب إليها، ووجهه من الصفرة كالليمونة !

وأخذت المعلمة تنظر إليه فى وعيد. ثم وضعت رجلا على رجل وقالت له:

شيشة. هات لى شيشة. تصلحها بنفسك. فاهم؟

وانحنى الخواجة، حتى كاد أن يصطدم برجليها وهو يقول : أمرك يا معلمة. أنا تحت أمرك. فى ثانية واحدة تكون عندك.

وانصرف، والناس مذهولون!

هل هذا هو الخواجة الذى يهدد ويتوعد، وينذر بأنه سيخرب بيتها!!

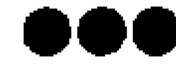
.وينحنى فى أدب شديد، حتى يكاد أن يلعق قدميها!!

وشعر الناس بشئ من الراحة. أحسوا أن المعلمة تمثل شيئا كان محبوسا فى صدروهم، ولم يكونوا قادرين على التعبير عنه.

وكادوا يصفقون لها أو يهللون أو يرقصون.

أما هى، فقد ظلت جالسة كأن لم تقم بشئ، تدخن الشيشة فى صمت وهدوء، فلما أخذت حظها، نادت الخواجة لتحاسبه، فأقسم إلا تدفع شيئا. لكن المعلمة نظرت إليه فى سخرية، وهى تقول : لماذا؟ تدفع لى أنت؟! أنت؟!

قالتها فى احتقار شديد وترفع وكبرياء، ثم قذفت بالحساب على المنضدة، ومضت فى قفطانها الرجالى، والطرحة تطير خلفها، كأنها طاووس!!



وتغيرت الحال، وأصبحت المنطقة كلها تحت تصرفها.

لقد سرت الأنباء فى كل مكان من الناحية كألسنة اللهب، وشعر الرجال بالزهو بما ترتديه من الجلباب الرجالى، وشعرت النساء بالاعتزاز بطرحتها السوداء، وشعرها الأسود الفاحم.

ولم تشأ المعلمة أن يمر افتتاح القهوة مرور الكرام، وإنما رتبت له ليكون شيئا لا تنساه الناحية. ولقد وجدت من أصدقائها فى القاهرة أعوانا صادقين، فقد جاءوا إليها بكل ما يملكون من وسائل ومغريات.

وفى موسم القطن، والجيوب منتفخة بأوراق البنكنوت، والنفوس مفتوحة للرغبة فى الاستمتاع، والأفواه مستعدة لابتلاع أصناف الطعام والشراب الحلال.

فى موسم القطن، حددت المعلمة أسبوعا كاملا للأفراح.

تفتح القهوة أبوابها، بالمواويل والمدائح والاغانى وروايات البطولة والفروسية والانتصار، وأنات العشاق والمحرومين والمغلوبين.

وتفتح الدكاكين أبوابها بأصناف لم تعرفها الناحية من قبل، وبأسعار متهاودة.

وتبدأ الحلقة نشاطها، فينتقل إليها الصيادون بما يصيدون من السمك.

ويتم ذلك كله مرة واحدة، وسط مولد كبير من الزينات، والأراجوزات، والقراداتية، وصناديق الدنيا، والحواة، وباعة الطعمية والكشرى والعرقسوس.

وتعيش الناحية أسبوعا كاملا من زحام. الطرقات إلى المحطة مليئة بالذاهبين والرائحين، بالليل وبالنهار، ولا حديث إلا هذا الشئ الجديد على الناحية عند محطة السكة الحديد.

وكانت المعلمة نفسها، فى عودها الطويل المستقيم، وسمتها المهيب، وطلعتها السمحة، وضحكتها القاتلة، ورجولتها الناعمة. واشتراكها فى كثير من الأحيان فى المزاح والضحك والغناء وألعاب الرجال. كل ذلك قد جعلها على كل لسان، كما جعل لها جاذبية تثير خيال الرجال، وتثير مع هذا فى النساء الاطمئنان والرضا.

- إنها امرأة مسترجلة، تلبس ملابس الرجال.

- يمكن تكون ...

- لا يمكن أن تكون رجلا. والشعر الناعم ذو الضفيرتين الطويلتين والعيون الكحيلة.

- جنية إذاً. آه..ولم لا؟

- جنيه!! لا لا. وهل الجنيات يظهرن هكذا فى حياة الناس؟ هل الجنية تشرب شيشة، وقهوة وشايا؟!

- امرأة!! ربما تكون امرأة مسترجلة. شكلها امرأة، لكنها رجل فى الحقيقة.

- على كل حال لتكن امرأة، أو لتكن رجلا، المهم أنها شئ هائل على هذه الصورة.

- الا يوم أن ضربت صبيان الخواجة!

- الخواجة انقطع ولده! لم يعد لا ابن بلد ولا خواجة.

- ومن يومها وهو فى حاله وهى فى حالها.

- حاله؟! لقد جن جنونه، وفقد أعصابه، وأخذ يهدد ويتوعد، ولم يعد يطيق الناس!

- لماذا؟ والله المعلمة ما قصرَّت. دعته يوم افتتاح القهوة، مع المدعوين، وأكرمته آخر كرم، وتناست ما فعله صبيانه من قبل.

- نعم، وكان يظن أنها "ليلة وتفوت، وما حدش يموت". لكن الليلة صارت أسبوعا. والأسبوع شهرا، والشهر امتد حتى الآن.

- وعرف الخواجة أن الزبائن طارت من بين يديه.

ـ لا. لا يزال له زبائنه.

ـ السكارى والحشاشين.

ـ وناس آخرون.

ـ الإنجليز..ممن يهربون له البضائع المسروقة.

ـ وآخرون من بلاد مختلفة.

ـ انهم زبائن هذه البضائع. هذا شئ معروف، وكل الناس فاهمة. أما المعلمة فعندها الناس كلهم. من كان يأتى المحطة من قبل إلا لسفر أو لاستقبال قريب؟ الآن الناس تأتى للمعلمة. لتجلس على القهوة، وتستمتع بالجسلة اللطيفة، والمشروب الطيب، ولعبة وضحكة وغنوة. وبالليل عندما يبدأ الشاعر يغنى على الربابة، والمعلمة إلى جواره تسمع وتهز رأسها، والمبسم الكهرمان بين شفتيها، جو جميل لقد صرنا "بندر". هل هذا جو فلاحين؟ بندر ! والله بندر! صرنا مدينة يا أولاد، والبركة فى المعلمة.



واستطاعت المعلمة وردة بعد ذلك أن تقسم جهدها بين قهوة المنيرة، وقهوة المحطة. وكانت تقول دائما : البركة فى المعلم مبروك، فإنه يرعى قهوة المنيرة، أما رجال المنيرة، فلولاهم ما وجدت من يقف معى فى هذه الأعمال، لقد جاءوا إلى هذه الناحية وعاشوا فيها، وأحبوها وأصبحوا جزءا منها. استقروا هنا بزوجاتهم وأولادهم.

وكانت المعلمة سخية. أنها ليست ممن يجرون وراء المال. أبدا. أنها سيدة نشطة، لها جهدها ويهمها فى المقام الأول أن تعمل عملا كبيرا جريئا، وأن تكسب الناس.

إنها تحب الناس. عاشت شبابها فى القهوة. من الصباح حتى آخر الليل تقابل الناس، وتخدمهم، وتلبى حاجاتهم. لم تعرف الوحدة ولا الانعزال. تحب أن تسمع قصص الناس، لتحل لهم مشكلاتهم إذا استطاعت. أنها لا تنفرد بنفسها إلا لتنام أو لتحلم. حتى النوم عرفته والناس حولها، عندما تغفو قليلا فى الصيف فى القيلولة.حتى الحلم اعتادت أن تمارسه مع الناس. تشرد عنهم لتحلم فيما تشاء، وهى بعد معهم.

وعرفت فى حياتها الحب من كل طريق، ومن كل ناحية، ومن كل إتجاه.

زوجها أحبها ومنحها كل شئ. أحبها وهو بين الناس. كانت حياته القهوة، وكانت هى جزءا من حياته.

وبعد زواجها، أحست أن كل من حولها يحيطها بالحب والتقدير، وانها تبادلهم هذا الحب وهذا التقدير.

عواطف..كل حياتها عواطف. لم تعرف إلا العواطف السخية الكريمة الحارة.

لهذا فهى تعطى كما تأخذ، طالما أن الأخذ والعطاء حلال.

وعندما أرادت أن تستعين بناس يعملون معها، أعطتهم أكثر مما يريدون. لم تعاملهم كصاحبة عمل. أبدا. قالت المكسب بالنصف. اكسبوا واربحوا وربنا يعطيكم أكثر وأكثر. أنا لى النصف. قالوا لها : ورأس المال يا معلمة؟ قالت : كفانى النصف. أنتم تتعبون، وتشقون أكثر منى.

ولم تكن تحاسبهم حسابا فيه شك أو حذر.

ولم تكن كذلك تهمل أو تتعامى عن الحق.

لكنها كانت شديدة الثقة بمن معهم، شديدة الذكاء فى اكتشاف الحقيقة.

لهذا فقد أحبوها، ووثقوا فيها، وجاءوا إلى هذه الناحية ليعيشوا فيها. البقال أحضر امرأته وأولاده، والعطار، والخردواتى، والجزار، والخباز، والجرسونات كلهم بغير استثناء أقبلوا ليعيشوا هنا، إلى جوار محطة السكة الحديد.

وكانوا يقولون لأنفسهم : هنا طبيعة جميلة وجو جميل، والناس طيبون، والحضرة تقام كل أسبوع عند سيدى الذكيرى.

..وهكذا انتقلت مجموعة من مصر، لتعيش عند محطة السكة الحديد، وعاشت حياتها القاهرية، فى هذا الريف الفسيح.

وكانت المعلمة تحضر، لتقضى بضعة أيام، وتعود إلى مصر لتقضى بضعة أياما أخرى، وهى كلما جاءت، حملت معها بعض الهدايا للأصدقاء القاهريين الذين يعيشون فى القرية، ومع الهدايا كانت تحمل أخبار الأصدقاء الذين فى المنيرة، والسلامات والأشواق. كذلك كانت تحمل إلى أهل المنيرة، طيبات الريف، ومع طيبات الريف أخبار "فلاحين مصر" كما كانت تسميهم وهى تضحك.

وبدأت هذه الناحية تشهد زوارا من مصر يقبلون بين الحين والحين، لزيارة أقاربهم وأهلهم وأصدقائهم ممن ألقوا الرحال فى هذه الناحية.

حركة، والحركة بركة.

هكذا كان الريفيون يرددون، وهم مأخوذون بما يرون.

مديحة وممدوح وأبو المكارم والست قمر، كانوا مشغولين بشئ آخر، وكانوا يختلفون فيما بينهم وبين أنفسهم حول بعض الأمور.

مديحة تشغلها أم الشحات وخضرة وأولاد الشحات، وتخاف عليهم، وتوصى "ممدوح" أن يلتفت إلى أمورهم أكثر مما يفعل.

وممدوح يوافق على هذا، لكنه يؤكد أن الخواجة يكون وكرا خطيرا للتهريب فى هذه المنطقة، ولابد من كشفه، ثم أن تجمع العساكر والضباط الإنجليز عنده مصيدة لا يمكن أن تتوفر بسهولة فى مكان آخر.

وتسأل مديحة عما يحدث لو ضبط وكر الخواجة، وضاعت عائلة الشحات؟! هل تضحى بأم الشحات وأرملته وأولاده، لضبط هذا الوكر، والانتقام من الإنجليز؟..الخواجة باق هنا، والإنجليز سيستمرون يحضرون له، إنما الشئ الذى قد يضيع من بين أيدينا، أن تدفع عائلة الشحات حياتها، غدرا !..ونحن نتفرج!

وانضم أبو المكارم إلى مديحة.

وانضمت الست قمر إلى ممدوح.

ـ أمن أجل هذا أرسلتم إلىَّ؟ يا بنتى المسألة بسيطة، وأنا أتذكر الآن كلمات جلال الله يرحمه، عندما كان يؤكد أن خصومنا الحقيقيين هم الإنجليز. كان يقول انهم هم الذين أفسدوا الاخلاق، وأفسدوا الناس، وكل هؤلاء المنافقين والمستبدين والنفعيين من صنائعهم. لهذا كان يرى أننا يجب أن نحاربهم أولا.

ـ نعم يا ست قمر. هذا صحيح، وجلال كان على حق. وأنا عارفة أن المعركة الأساسية يجب أن تكون مع الإنجليز، وممدوح عنده حق، فعندما يراهم يحضرون هنا بأرجلهم، فانه يصعب عليه أن يتركهم يرجعون سالمين. لكن معنا واحدة وعائلتها مهددة بخطر. هل نتركها تموت، حتى نصفى موقفنا مع الإنجليز؟ هذا ظلم وحرام. يجب أن نحميها ونكسب المعركتين. إنقاذا للمساكين اليتامى من الخطر، والبطش بالانجليز بعد ذلك.

ـ ومن أدراك أن الخطر لا يزال يحدق بعائلة الشحات؟!

ـ ما أسمعه من الناس عن العمدة وعائلته وشعور خفى يحدثنى بأن هؤلاء الناس لن يسكتوا عليها أبدا.

وتدخل أبو المكارم، وأخذ يدلى برأيه على طريقته.

وكانت فكرة أبو المكارم، أن كل هذا الكلام ضد المعلمة وردة النقرزان، فضرب الإنجليز الآن، وفى قهوة الخواجة، سيفيد الخواجة، على حساب وردة النقرزان. إن كل هذا سيسفر على انه من تدبيرها وتدبير رجالها، ليتخلصوا من منافسة الخواجة. إذاً أنتم تريدون أن تقضوا على وردة النقرزان.

ولوح أبو المكارم بيديه يريدهم أن يفكروا فى شئ آخر. حرام تخربوا بيت المعلمة، وتتصروا عليها الخواجة بهذه الحماقة.

وسكت الجميع، وأخذ كل منهم ينظر إلى الاخر.

قال ممدوح : والله كانت بعيدة عن تفكيرنا هذه الحكاية.

وقالت مديحة : يا عمى أبو المكارم. أنت رجل هائل.

وقالت الست قمر : ما كنت أعرف أنك هكذا فيلسوف يا ولد يا أبو المكارم.

وبينما هم كذلك، وصلت إلى أسماعهم أصوات باكية مولولة، تنعى واحدا مات.

وسكت الجميع، فى انتظار.

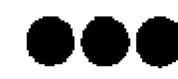
ولم يطل انتظارهم، فقد جاء بعض النفر، ليعدوا لدفن الحاج غضبان.

وكانت على ألسنتهم عبارات :

راح...فى داهية.

مات...بحسرته على أم الشحات.

انتقمت منه ...لعظم التربة. امرأة شجاعة.



وأخذ العمدة يستعد لدفن عمه، فى جنازة مهيبة تتفق مع اسم العائلة ومكانتها، فأرسل الرسل إلى القرى المجاورة، وإلى المراكز القريبة، وإلى كل مكان للأسرة فيه أهل أو أصهار أو أصدقاء. كما أرسل عددا كبيرا من البرقيات تحمل نعى الفقيد الكبير إلى هؤلاء الذين يعيشون فى القاهرة أو المدن البعيدة. ثم أرسل إلى كفر الزيات لإحضار فراشين يقيمون سرادقا للعدد الكبير من المعزين. وأرسل فى إحضار كبار الفقهاء، ليقرءوا القرآن فى السرادق الكبير.

وكان لابد من استقدام طباخين مشهورين، ليعدوا الطعام للمعزين الغرباء. وكان لابد للطباخين من بهائم تذبح، وخضروات وحلويات، والقرية المتسامحة التى لا تعرف الحقد ولا المرارة، قدمت طائعة ما طلبه الطباخون.

ولم تدخر القرية وسعا فى مجاملة بيت العمدة بمناسبة هذا الفقيد الكبير، فأعدت أغلب الأسر حجرات من الدواوير والبيوت، لاستقبال الضيوف ومبيتهم، كما أعدت عدتها لتقديم بعض الوجبات لهولاء الضيوف، كوجبة الافطار، والعشاء إذا لزم الحال.

حتى البيوت الصغيرة الفقيرة استعدت لتشارك فى استضافة بعض الضيوف.

إن مع أكابر القوم مرافقين بسطاء فقراء، يصحبون الركائب التى يقبلون عليها، وهؤلاء لهم مكان عند نظرائهم من الفقراء البسطاء من أهل القرية. لهم مكان فى بيوتهم ولهم نصيب فى طعامهم.

حتى الركائب دبر أمرها، فأوسع لها الناس مكانا فى زرائبهم، حتى لم يعد هناك احتمال واحد، لعبء متروك لأسرة الفقيد.

هكذا القرية السمحة الطيبة، تدبر شئونها دون فروق وتدبير وسائلها لتواجه احتياجاتها، بكل ما تملكه من طاقاتها البسيطة المحدودة.

وهكذا القرية القديمة الكريمة، تنسى إساءة من أساء، عندما يواجه الحاجة. وهى فى المحنة، لا تذكر إلا المحاسن حتى لمن تجردوا من المحاسن. أنها تصطنع التاريخ لمن لا تاريخ له، لتغطى على صفحاته السود، استدرارا للعطف عليه.

ولم يعد الحاج غضبان رجلا مستبدا مغتصبا، يأكل حقوق الناس.

ولم يعد الحاج غضبان يلتهم كل شئ فى كرشه الكبير المنفوخ.

ولم يعد الحاج غضبان هو صاحب الحسابات الغامضة التى تبتلع جهد الناس وعرقهم وعملهم.

ولم يعد الحاج غضبان هو صاحب العين الفارغة التى تريد أن ترغم أم الشحات على زواج لا تريده.

لقد صار فى نظر أهل القرية مجرد رجل مات. مرحوما يستحق أن تتلى الفاتحة على روحه، وتوزع على قبره الصدقات.

نعم وصار مجرد تاريخ أو ذكرى، قد يستعيدها بعض الناس بالدموع، وقد يذكرها آخرون بالأسى.

... هكذا. لا أكثر، ولا غير!



لكن أحاديث السرادق قد بدأت تثير انتباه الناس.

ولم يصدقوا آذانهم أول الأمر، لكن هذه الأحاديث كانت تلح على أسماعهم إلحاحا شديدا حتى لم يعودوا قادرين على إنكارها، وهى تعلو يوما بعد يوم، حتى لقد كادت أن تصبح كأنها الهتاف أو النداء.

ـ عمى مات قتيلا.

ـ الله يرحمه ويحسن إليه. لا داعى لهذا التفكير.

ـ والنبى مات قتيلا. قتلته المرأة الفاجرة، أم الشحات.

ـ يا شيخ الأعمار بيد الله، ولكل أجل كتاب.

ـ آمنا بالله. صحيح كلنا ميتون. لكن فرق بين القتيل "وموتة" ربنا!

ـ كله من ربنا ـوكل "موتة" موتة ربنا.

ـ إذاً لم يكن هناك داع للقصاص.



ـ قتلته المرأة الفاجرة، بعد أن أخذت منه ما تريد.

ـ وعدته وطاولته، وتظاهرت بالنسليم والاستسلام، حتى لقد أخذ يحلق فى الفضاء، فى خيال واسع فسيح، ثم تركته فهوى محطما إلى الأرض.

ـ ولابد أنها أخذت منه أثناء ذلك كل شئ.

ـ لكن هذه سرقة واختلاس.

ـ وخداع وضحك على الذقون. انه نصب واحتيال.

ـ وإلا فكيف كانت تربى أولاد ابنها، وتجد لقمة العيش ...الشحاتة!!

ـ ثم جاءت تعزى، فى غير مبالاة ...تقتل القتيل وتمشى فى جنازته!



ـ هذه المرأة لابد أنها أخفت شيئا مهما.

ـ آ...!! يوم أن كانت هناك عند سيدى الذكيرى. يوم الحادث عندما كان معها عمى الحاج غضبان.

ـ ترى هل كتب لها شيئاً من أملاكه؟

ـ تبقى مصيبة!! أملاكه؟

ـ لابد. عمى الحاج غضبان لم يصب بالشلل إلا لسبب هام جدا، وخطير.

ـ الحب. كان يحبها، وكان كبير الأمل فى الحصول عليها، فلما ردته لم يتحمل الصدمة.

ـ عمى الحاج غضبان يصاب بالشلل من أجل الحب !! يا ناس. لابد انه شئ غير الحب..! شئ يتعلق بأملاكه أو أطيانه. هذا هو السبب الوحيد الذى يهزه ويصرعه.

ـ ربما تكون فى انتظار انتهاء "المعزة" ثم تطالب بما كتبه لها الحاج.

ـ وتأخذ أرضا من أرضنا! وتنزل غطيا من غيطاننا!!

ـ والله لا نكون رجالا إذا نزلت أرضنا ونحن على وجه الأرض.

ـ إذا كانت الكتابة صحيحة ومسجلة، فماذا نفعل؟ ستأخذ المكتوب بالبوليس.

ـ هذا إذا عاشت أو استمرت فى الدنيا.

ـ فان قتلتموها، فسيرثها أولاد ابنها.

ـ هذا إذا عاشوا أو استمروا هم الآخرون فى الدنيا.



ـ هل أم الشحات غبية أو حمارة حتى تجعله يكتب لها أملاكا؟ أو أرضا؟

ـ لابد أنها أخذت منه أموالا طائلة، وهذا يكفى.

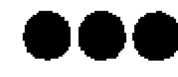
ـ أو اشترت من ورائه مصاغا تبيعه وتنتفع بثمنه.

ـ لكن أين يا ترى قد أخذت ذلك.

ـ آ...!! لابد أنها أودعته عند الشيخة.

ـ فعلا هناك من رآها يوم الحادث، وقد أودعت شيئا أخذته من المرحوم عند الشيخة.. رأوها تودع عندها لفة لا يعرفون ماذا كان فيها.

ـ ولابد أن هذا كان شرطها، أن يحضر لها المرحوم مصاغا ثمينا جدا حتى ترضى بالزواج منه، وكان كعادته، حريصا على أمواله وممتلكاته، فلم يرض أن يعطيها هذا المصاغ، إلا وديعة فى مكان أمين، فلما اطمأنت إلى تنفيذ الشرط ووصول الأمانة إلى مكان أمين، رفضته، فسقط المسكين.



وشعر أهل القرية، وهم يسمعون هذه الأحاديث تدور بين العمدة وأهل الميت وأقاربهم من المعزين، أن وراء هذه الأحاديث شيئا. أنها تخفى خطرا على أم الشحات وأولاد ابنها.

وأحس الناس فداحة الظلم، الذى يلحق بأم الشحات، وكرهوا هذه الأحاديث وهى تسرى بينهم كالسم.

وأخذوا يتبادلون نظرات العجب، ويهزون رءوسهم فى خوف. وفى جنح الظلام بدأ بعض الرجال يتسللون ويتلاقون عند الساقية، بينما الأعيان فى السرادق الكبير، يستقبلون المعزين، ويديرون هذه الأحاديث.

ـ والله مصيبة!! المسألة صارت قتلا، وأم الشحات أصبحت قاتلة!

ـ آخر زمن. تمام كحكاية الذئب والحمل. أنها تهمة والسلام!

ـ أبدا. المسألة أن العائلة المقدسة! قد أهينت !

ـ كيف تجرؤ أم الشحات على أن ترفض واحدا من الأعيان؟

ـ ولو أنها قبلت، لقالوا كيف تتزوج الشحاتة بنت الشحات واحدا من الأعيان.

ـ وكانوا فعلوا بها ما فعلوه بتفيدة.

ـ كانت "راحت فى شربة ميه، ويا دار ما دخلك شر".



ـ لكن هل صحيح ما يقولونه عن الأشياء التى أخذتها؟

ـ أو الأطيان التى يقولون انه كتبها لها؟

ـ وهل هناك من يصور أن المرحوم كان يعمل هذا؟

ـ والله لو قتلوه، ما كان يكتب قيراطا واحدا لأحد.

ـ ولا لابنه! فهل يكتب لأم الشحات؟

ـ ربما ..من يدرى؟ الحب له أحكام.

ـ حب!! المرحوم يا سيدى لم يكن يعرف شيئا اسمه حب.



ـ والله لو أخذت أى شئ، لكان ذلك حلالا!

ـ نظير ما أخذوه من البلد كلها.

ـ وما أخذوه منها هى. من الحاج محروس ومن الشحات.

ـ ألم يطردوا الشحات من بلده بلا رحمة؟

ـ ثم أطلقوا ألسنتهم فى أمه ظلما وافتراء؟

ـ ولما مات بحسرته، أنكروا انهم قتلوه!

ـ لكن عندما ترفض أم الشحات طلب المرحوم، تكون قد قتلته!

ـ ويريدون أن يقتلوها ..ظلما؟

ـ وهل ستكون الأولى؟ أم ستكون الأخيرة؟

ـ لكن ما ذنبها؟ حتى لو كان المرحوم كتب لها شيئاً، فهل يكون هذا ذنبها؟

ـ وأولاد ابنها. ما ذنبهم؟ يأخذونهم بجريرة موهومة؟

ـ ثق أن الله سيحميها وسيحميهم.

ـ إن شاء الله، وإلا فان المسألة تزيد عن حدها.

ـ وماذا نملك غير الدعوات؟

ـ وحكاية الوديعة التى تركتها عند الشيخة تفيدة.. هل صحيح هذا؟

ـ لا يمكن. أم الشحات ليست دنيئة، ولا عينها فارغة.

ـ إذاً هى كذبة أخرى يطلقونها.

ـ الموضوع كله، أن يختلقوا سببا للخلاص منها.

ـ وهل ربنا يرضى بهذا؟

ـ ربنا لا يرضى عن أشياء أخرى كثيرة، لكنها تحدث.

ـ تبقى داهية، لو أخذوا الشيخة هى الأخرى بذنب المرحوم!



أُذُنٌ منصته كانت تسمع هذا الكلام، فتهتز من قسوته.

وعينٌ مفتوحة كانت ترى وجوه الناس وانفعالاتهم، فتخاف من المجهول.

وقلب كبير كان يشعر بالخطر، فيتمزق من القلق والخوف وما قد يجره ظلم الناس للناس.

.. أبو المكارم، كان كل ذلك.

كان ينتفض كالمذبوح، وقد يصيح من لسعة ما يسمعه من أخبار، وقد يجرى بلا وعى، عندما يستبد به وهمه، فيتصور أم الشحات قتيلة أو غريقة، أو تائهة فى جو من الحاجة، أو غارقة فى بحر من الدم.

ولكم كـان يعض يده، وهو يصـرخ من لوعتـه، ويتصـورهم كلهم يذهبـون ضحـايا. كل الشرفاء يذهبون ضحايا الغدر الظالم! كل الأبرياء يذهبون ضحايا الفراغ المحموم!

ولقد كان يعدو إليها، ليروى لها أولا بأول ما يدور. وكانت الشيخة تفيدة تضرب صدرها بكفها وهى تعجب لما تسمع.

وكان حتما أن تسأل "ممدوح" و "الست قمر" الرأى فيما يدور وكانت الشيخة شديدة الانفعال عندما رددوا قصة الوديعة المحفوظة عندها. إن الأحاديث قد بدأت تتناولها، ومن يدرى، ماذا ينوون أن يفعلوه؟ قد تصبح هى الأخرى هدفا من أهدافهم، يوجهون إليها سمومهم وأحقادهم ومؤامراتهم.

وضمت ابنها الرضيع إلى صدرها وهى تقول "لأبو المكارم" : هل يقتلونه هو الآخر؟! أما كفاهم "أبو عوف" واحد، أم انهم يريدون أن يقضوا على كل "أبو عوف". إنى خائفة يا عمى، خاصة وأنى كذلك غريبة.

ثم سكتت قليلا وهى تنظر إلى قبر زوجها، ومسحت دمعة كانت قد تحدرت على خدها وقالت : لكن لا. زوجى هنا، وهذا بلده، وهذا النسيم قد ملأ خياشيمه، وكان دائما يقول لى : لهذه الناحية رائحة خاصة، ولهذا التراب عبير خاص، حتى لأعرفه من رائحته. إنى لست غريبة هنا يا عمى "أبو المكارم" أبدا ولن أكون غريبة، طالما ...

ونظرت إلى القبر وأشارت وهى تقول : ... انه هنا.

وتحدرت من عينى أبو المكارم دمعة كدمعتها، وهو يمسح على رأسها ويقبل الرضيع الصغير فى حنو، ثم يمضى ليدبر أمر حضور الست قمر على عجل، أما ممدوح فإنه هنا، يظهر مرة فى هيئة الشيخ عبد الرءوف، ويظهر مرة أخرى فى الهيئة المناسبة لكل حالة.

وما هو إلا يوم وبعض يوم، حتى كانوا _ ثلاثتهم _ جالسين أمام الخص الصغير، عن يمينهم ضريح سيدى الذكيرى، تطل من نافذته، ثلاث قلل قناوى تناثرت على سطحها

قطرات الماء، كالدموع! وعلى امتداد البصر إلى يمين، مع انحراف إلى ناحية جسر الرياح، الساقية وما حولها من أشجار تتعانق، كأنها خمائل العشاق! وعلى حافة الجسر والرياح، شجرة الصفصاف الخضراء، بفروع تتدلى إلى صفحة الماء لتتلاقى معها فى شوق، كأنها القبل! وفى بطن الصفصافة الخضراء، فردة شراب أحمر، تزداد حمرتها مع الأيام، لا تبهت ولا تخبو، كأنها قطرات تنزف من قلب جريح! ومع امتداد البصر إلى يمين مع انحراف إلى ناحية حديقة العمدة، الخص الصغير، القديم، حيث ولدت تفيدة وعاشت،وشبت، وأينعت، وصارت أحلى فاكهة فى هذه الناحية، لكنهم قطفوها، وهى لم تستو بعد، ولفوها فى صفحة الماء، كحوريات الأساطير! وفى الخص نفسه ولد جلال وفتح عينيه أول ما فتحهما على منظر الحقول الخضراء، وثمر الفاكهة، والبلح يتدلى من النخيل، وأم حلوة دافئة، لكنها تعيسة، أتت به من زوج زفت إليه كارهة حتى أنها لم تشعر به، وكأنما جاء جلال كما جاء المسيح، من مريم العذراء! وفى مواجهة الخص، هذا الشاهد الفارع، الذى يقف بين القبور، رافعا قامته فى كبرياء، وقد كتب عليه بخط كوفى جميل : هذا قبر الشيخ أبو عوف، خادم سيدى أحمد الذكيرى. مات شهيدا وانتقل إلى جنة الأبرار. رضى الله عنه وأرضاه.

وتتلفت الشيخة تفيدة إلى يسار، وقد شدت إلى صدرها نفسا طويلا مجهدا. وأخذت تهز رأسها فى تعجب، كأنما تحدث نفسها :

ما أغنى هذه الناحية بالذكريات. فى كل شبر ذكرى، ولكل مجلس فيها تاريخ. ما أوحش أن يكون مكان خاليا من الذكرى! انه يصبح كأنه القبور، بل فى القبور ذكريات، مع كل قبر ذكرى، إنما القبور الحقيقة هى تلك الأماكن الخالية من الذكريات، المجردة من التاريخ، المحرومة من نعمة الماضى. ما أحلى الذكريات! وماذا يكون الإنسان بلا ذاكرة وذكريات؟ وهذه الناحية، حلاوتها فى ذكرياتها.

هناك إلى اليسار يتلوى طريق ضيق، إلى جوار قناة. ثم يدور إلى اتجاه الرياح، ليلتقى بالجسر عند الموردة القبلية، حيث تقبع جميزة قديمة عتيقة، امتدت أغصانها فى كل

مكان. جلال كان يجلس هناك يراقب الطريق، وكان يقول انه هناك يستطيع أن يغطس فى مزارع الذرة فلا يشعر به أحد، أو يقفز إلى الجسر فيراقب الخارجين من البلد إلى الحقول أو المحطة. والجسر يمتد مع الرياح، وتلتف به أشجار التين الشوكى كثيفة، حتى لتصلح مكانا يختفى فيه الشياطين! هناك أخفى جلال ذات يوم سلاح النقطة، فارتبكت الحكومة، وهاج رجال الأمن، وسقطوا من هول المفاجأة فى ذهول.

ثم المحطة حيث بدأت حياة جديدة تدب بعد أن فتحت المعلمة القهوة والدكاكين.

لكن هناك أيضا الخواجة، والإنجليز، والبضائع المهربة، وصراع رهيب قد بدأ يظهر فى وضوح.

... فتى يتيم يبيع الصحف ليأكل، وينفق على أمه وأخوة له صغار.

والحمَّار العاشق، الذى ذاق طعم الغرام فى حياته مرة، فتركت فى قلبه عاهة مستديمة تنز، كأنها جرح دائم لا يندمل.

هذه منطقة مشحونة بالذكريات، وذكريات هذه المنطقة ترى وتسمع وتشم، وتكاد أن يكون لها طعم يذاق.



قالت الست قمر :

- خير يا ست الشيخة ..ماذا جرى؟ يظهر أنك صرت عصبية هذه الأيام..هل المجحوم الذى مات من بقية أهلك؟ مات مات. فى ستين داهية يا ستى.أنا أعرفه أكثر منكم جميعا، كان رجلا لا يعرف إلا مصلحته. كل شئ لمصلحته. ولم يكن يتورع أن يأكل مال النبى.

قالت مديحة :

- يا ست قمر المسألة ليست مسألة من عاش أو من مات. هل تظنين أنى حزينة عليه أو متأثرة لفقده؟ المسألة مسألة أم الشحات وأولاد ابنها. انهم الآن يتصورون أنها

ضحكت عليه وأخذت منه نقودا واشترت مصاغا على قفاه! بل ويقولون انه مات قتيلا، وأنها هى التى ذبحته بالصدمة التى سببتها له!! أشياء كثيرة من هذا القبيل، ثم الأخطر انهم يقولون أن واحدا رآها وهى تودع عندى أشياء ثمينة أخذتها من المرحوم أو المرحوم اشتراها لها لترضى به. مسائل كما ترين أصبحت معقدة ومتشابكة، وقد شعرت إنى محتاجة إليك وإلى ممدوح، لتشيرا على بما افعل.

قال ممدوح فى ثقة :

- هل أضيف إلى معلومات يا ست الشيخة أنهم بدأوا فعلا يرسمون طريقة للتخلص من أم الشحات، دون أن يظهروا هم على الاطلاق؟ يا ستى المسألة قديمة. ولا تعجبنى إذا عرفت أن شيخ البلد هو الذى وراء هذا كله. هو الذى اتصل بأم الشحات وأحضرها للحاج غضبان، عمه ووالد زوجته. وهو الذى طلب منها إلا تصدم الرجل لأنه عجوز ومريض. ثم هو الذى رسم لها حكاية ابنه محمود، وكتابة نصيبه الشرعى قبل أن ترد عليه أو ترتبط به بأى رباط، وهو الذى أفهمها أن هذه هى الطريقة الوحيدة التى تضمن بها سكوته عنها. كان يعرف أنها لم تكن تريد أن تتزوجه، لكنه خاف أن تضعف أو يغريها المال، فنبهها إلى هذه الطريقة حتى تواجه عمه العنيد بشئ يعجز عن مقاومته. وكان يعلم أن عمه مستعد أن يفعل أى شئ، وهو لا يستحى من شئ، والشئ الوحيد الذى يخيفه هو ضياع جزء من ثروته. الفضيحة التى يتظاهر بأنها السبب، لم تكن فى الحقيقة إلا ستارا يخفى وراءه السبب الحقيقى، وهو خوفه أن ينتزع شئ من ثروته لمحمود ابنه. ولو أن سلطان ابنه كمحمود، ولد فى السر، من زواج غير مكتوب، لكان موقفه منه هو نفس الموقف، وقد كان مستعدا أن يملأ الدنيا أولادا، من أى امرأة، طالما انهم لن يأخذوا شيئا من ثروته. شيخ البلد كان يعرف هذا تماما، فلما نبهها إلى أن تطلب منه أن يكتب لابنه نصيبه، كان متأكدا أن عمه لن يقبل. لكن عمه كان أذكى منه، فقد كتب نصيبه هبة، وكان ينوى أن يرجع عما وهب، بعد أن يضمن أم الشحات زوجة له. فلما وقفت أم الشحات موقفها الجرئ من الحاج غضبان، وسقط الحاج مشلولا، بدأ

شيخ البلد يشعر أن كل ما فعله ذهب هباء. نعم وما كان يعمل ليتفاداه، قد كان هو المتسبب فيه. ضاعت عليه الثروة. إن جزءا كبيرا من الثروة قد ذهب إلى واحد غريب، ليس أصيلا مثلهم، جاء فى ساعة طيش حمقاء. واستقر رأى شيخ البلد على التخلص من أم الشحات، لا محافظة على شرف الأسرة، ولا انتقاما لعمه المشلول، ولا لشئ من هذا القبيل. انه يعرف أنها وحدها تعرف حكاية محمود والأوراق، فلو تخلص منها سهل عليه استرداد الورق من الشيخة، ولو سَرِقَةً. هل تعرفين كيف أراد أن ينفذ خطته؟ لقد حكيت لك من قبل حكاية أدهم. لقد أوهم الولد الصغير أن الشحات هو الذى قتل أباه، وطالما أن الشحات مات فلا بد من الانتقام من أمه. وسخَّر الخفير مدبولى، وهو أقرب الناس إلى "أبو سريع"، وهو الذى عاش فى بيت "أبو سريع" خفيرا مطيعا وطيعا، تحت أمر البيت، وست البيت، يعمل لها كل شئ،ويعوضها عن أى شئ، حتى "أبو سريع" نفسه! مدبولى هذا، قد كان كالوالد بالنسبة لأدهم، ولم يكن الولد الصغير مستعدا للشك فيه بحال. فلما سمع منه هذا الكلام لم يتردد فى التربص لأم الشحات ومحاولة قتلها. لكنى حملته على كتفى بعد أن كتفته ولثمته، إلى حيث سمع بأذنيه القصة كاملة فى حديث بين شيخ البلد والخفير مدبولى. هل تعرفين الخطة الجديدة؟ انهم ينوون أن يقلبوا الحكاية من أولها. سيذيعون الحكايات القديمة، وهى أن أم الشحات كانت على علاقة قديمة بالحاج غضبان ترجع إلى أيام زوجها الحاج محروس، وأن هذه العلاقة قد كانت سبب فساد الود والصداقة بين الرجلين، فلما مات الحاج محروس، صارت المسألة سهلة وميسرة، فلما فاحت الرائحة، تدخلت عائلة الحاج غضبان، فاضطر إلى طرد الشحات وأمه من البلد، لكن الشحات علم بالحكاية، فأصابته العلة حتى مات منحورا. وبدأت أم الشحات تطارد الرجل العجوز ليتزوجها تصحيحا لموقفها، فلما أبى عليها هذا، أخذته إلى سيدى الذكيرى، فقد يرق قلبه لها. وعندما شعرت المرأة الفاجرة بأنها عاجزة عن استمالة الرجل، ادعت عليه هذا الكلام الفارغ، فاستكثر هذه الفضيحة على نفسه، ومنعه حياؤه من أن يفضحها، فكانت الصدمة التى أودت بحياته. هذه هى الرواية الجديدة التى ينوون أن يذيعوها على الناس، وأن يروجوها فى كل مكان، وأن يقرنوها

بأن الحاج غضبان صرف على أم الشحات دم قلبه، وأنها تعيش من خيره، وأنها اقتنت من ورائه المصاغ الثمين. وهدفهم من وراء هذا أن تنتشر الرواية حتى تصل إلى أهلها وأهل زوجها، وسيدبرون أمرهم ليدفعوا بها فى الرياح، ويتهمون أحد أقاربها، أو أحد أقارب زوجها. لم يستقر رأيهم بعد على قرار إلا أن يبدأوا بنشر الرواية الكاذبة بكل الطرق وفى كل مكان لتشويه سمعة المرأة الشريفة. وسيقدمون بلاغات للبوليس، وسيصنعون خناقات حول الموضوع، حتى إذا ما فرشوا له أرضا صالحة بدأوا ينفذون الجريمة البشعة، ويدبرون اتهام واحد من أقاربها، بحجة الثار لشرفه وشرف عائلته.

وذعرت مديحة وهلعت الست قمر، وقالتا فى صوت واحد :

لكن هذا كله كذب وافتراء. وكلنا على يقين من براءة أم الشحات.

قال ممدوح فى هدوء :

ـ على كل حال المسألة ستحتاج لبعض الوقت، فهم ليسوا مغفلين حتى ينفذوا ذلك الآن، والا أشارت إليهم أصابع الاتهام. يجب أن يطلقوا الشائعات أولا، ثم يدبرون بعض الشكاوى والبلاغات والخناقات، ثم يبدأون فى تنفيذ الجريمة.

وتنفست مديحة الصعداء وهى تقول :

طالما أن هناك وقتا، فالأمل موجود.

قال ممدوح :

ـ نعم هناك وقت أمام أم الشحات لتموت، لكن ليس هناك وقت أمام الورق الذى لديك ليسرق.

وصاحت مديحة :

ـ لكن هذه أمانة يجب أن تسلم لأصحابها.

قال ممدوح : ومن هم أصحابها؟

قالت مديحة : الحاج غضبان.

قال ممدوح : وبعد الحاج غضبان؟

قالت : ورثته.

قال : وهذا هو ما كان الحاج غضبان يريد أن يتفاداه. لقد وضع الأوراق عندك خوفا من ورثته فهلا تظنين أن الأمانة تقتضيك أن تحترمى إرادته، فلا تسليمه لورثته؟

قالت : وماذا أفعل به؟

قال : تسلمينه لصاحب الحق فيه.

قالت : ومن صاحب الحق فيه. تقصد محمود؟

قال : نعم ...

وتدخلت الست قمر فى الموضوع، وكان رأيها أن ذلك معناه أن تقف الشيخة موقف العداء الصريح من شيخ البلد ومن سلطان بن غضبان. ونصحت الست قمر بضرورة التفكير فى طريقة أخرى أو الإبقاء على الأوراق حيث هى.

وصاح ممدوح : ستعرضها الأوراق للمخاطر. إن شيخ البلد لا ينام الليل من أجل هذه الأوراق. انه لا يعرف ماذا فيها، وهو يريد أن يرتكب أية جريمة فى سبيل استرداد هذه الأوراق.

واستردت مديحة فى لحظة روح المكافحة القديمة واستفزها أن شيخ البلد يستهين بها ويدبر سرقة الأوراق من عندها. فصاحت فى ممدوح : إذاً لن يصل إلى هذه الأوراق. هل تظن أنى أخاف شيخ البلد أو سواه من الناس؟ أنت تعلم يا ممدوح أنى لم أكن أخاف الانجليز، بكل ما لديهم من قوات وأسلحة. هل أخاف شيخ البلد، هذا الخائر الجبان؟ إنى أخاف شيئا واحدا، أن يقتلوا هذا الرضيع الجميل الصغير. أخاف أن يصيبوه بمكروه. يخطفونه مثلا أو يؤذونه وهو أغلى شئ عندى. انه ابن الحلال. انه قطعة منى

ومن جلال. ولو ضمنت أن الولد سيعيش بعيدا عن الخطر، فانى لن أعبأ بعد ذلك بشئ. لكن حتى هذا لن يكون عقبة بينى وبين شيخ البلد يا ممدوح. لقد علمنى جلال أن الخوف ليس ضمانا لشئ، وكان يقول لى إن علينا أن نحذر، فالحذر ذكاء، لكن إذا زاد الحذر، فقد صار جبنا، والجبن يؤدى إلى ضياع كل شئ. لهذا فسأواجه شيخ البلد، وكل البلد إذا لزم الأمر. ولن أسلم الأوراق إلا لصاحبها.

قال ممدوح : أنت أنت يا مديحة. لن تتغيرى. إنى فخور بك. لكن هل لى أن أعرف ماذا تنوين أن تعملى؟

قالت : لقد اتفقت مع عمى "أبو المكارم" على خطة! لست وحدك الذى له خطة.

قالت الست قمر : وما هى الخطة يا "أبو المكارم"؟

وأخذ أبو المكارم يتظاهر بأنها سر، لا يجوز أن يبوح به، فضربته الست قمر على رأسه وهى تمزح وتقول له : وأنت أيضا يا أخرس؟! ما هى هذه الخطة؟

وبدأ "أبو المكارم" يشرح الخطة على طريقته، واتضح للست قمر وللممدوح انه سيستعين باثنين : أدهم وعباس.

أما أدهم، فقد عاد إلى البلد وأصبح شديد الكراهية لشيخ البلد وللخفير مدبولى. لم يقل شيئا لأحد، حتى لأمه، لكنه اكتفى بأن قال لزوجته ولأمه انه عرف أشياء لو قالها لانكشفت أمور كثيرة تفضح آل سلطان المجرمين. وأخذت أمه تصيح فيه انه ولد قليل الحياء، وانه يتنكر لناس خيرهم عليه، وعلى والده من قبله، وانه لولا آل سلطان هؤلاء، ما كان "لأبو سريع" فى هذه البلد مقام، وما أصبح له سعر. أما زوجته، فقد أخذت بدورها توبخة على موقفه من أخواله، وكيف أن هذا نكران للجميل، وخروج على تقاليد الأسرة الكريمة.

وعرفت القرية كلها أن أدهم قد عاد إلى القرية، لكنه لم يعد يطيق البقاء فى المنزل، فقد صار كثير الشجار مع زوجته، كثير النزاع مع أمه، حتى انه لا يريد أن يراهما، وأقام

أدهم فى دوار بعيد مهجور، ولم تعد صلته بالمنزل تتعدى أن يرسلوا له الطعام فيأكله كارها، وأن يغسلوا له الملابس، فيرتديها مضطرا.

ولما حاول أن يطرد الخفير مدبولى، تدخلت أمه، وأصرت على أن يبقى فإنه يعمل فى خدمتها، ولا شأن له به.

وعندما بلغ شيخ البلد ما آل مصير أدهم ابن أخته، وزوج ابنته، قال فى هدوء، اتركوه، فانه لا يزال يبحث عن قاتل أبيه، وبدلا من أن تلوموه ساعدوه فى البحث معه عن قاتل أبيه!

ونقلوا هذا الكلام لأدهم فى الدوار الذى اختفى فيه، فقال كلاما انتشر فى القرية كلها وتردد على كل لسان. قال أدهم : إن أبى لم يمت قتيلا! انه ضاق بأصهاره ففضل قاع الرياح على معاشرتهم. ومن اليوم سأبحث عن قاتل أبى، بين أصهاره وأقاربه. ولست متعجلا على هذا على كل حال.

وبدأ شيخ البلد يعجب لهذا الكلام. كذلك العمدة، وكذلك أفراد الأسرة وأقاربهم، لكنهم فى النهاية قالوا إن الولد يهذى كأنه محموم، ولا داعى لمناقشته أو مؤاخذته فانه سيرتد إلى عقله بعد حين.

كان رأى "أبو المكارم" أن أدهم هذا قد أصبح عنصرا هاما يمكن الاستفادة منه فى تنفيذ الخطة.

كذلك عباس وهو وكيل شيخ الخفر، لكن رأيه فى أصهاره معروف.

وصاحت الست قمر : وماذا تنوون أن تفعلوا؟

وشرح أبو المكارم انه يمكن استدراج شيخ البلد إلى هنا، ليستولى على الأوراق، فاذا حضر، فسيكون عباس وأدهم مستعدين لضبطه متلبسا بفعلته النكراء، واكتشاف السر الذى تحويه هذه الأوراق.

قال ممدوح : وأين تكون الشيخة؟

وأشار "أبو المكارم" بأنها ستكون بعيدا عن **هذه الساحة كلها.**

قالت الست قمر : أين؟ أين تكون؟ وأين تذهب؟

وأخذ "أبو المكارم" يضحك منهم وهو يشير بيديه بأن هذه هى الخطة... نعم ستكون هذه هى الخطة.



ولم تكن مديحة تقدر أن الخطة ستتم بهذه السرعة، وأن طاقة القدر كانت مفتوحة، عندما دعت أن توفق فى إظهار الحقيقة للبلد جميعا، وإعلانها على الناس جميعا، لتتجو أم الشحات من المؤامرات. إن إعلان الحقيقة كطلوع الشمس، أو إشعال النور، يفسد المؤامرة فيختفى المتآمرون؛ فى الظلام تظهر الأشباح، لكن فى النور تظهر الحقائق. واللصوص لا يسرقون والشمس طالعة، والقتلة لا يقتلون والأنوار ساطعة، والمتآمرون لا يتآمرون والحقائق واضحة للعيان.

فما هى الا أيام حتى فوجئت ذات مساء، بالشيخ مختار وراضية زوجته يقبلان عليها، ومعها لفة لا يظهر منها شئ ولا يبين. وكانت تجلس أمام الخص وعلى ركبتها أبو عوف الصغير، بينما كان الشيخ عبد الرءوف داخل الضريح.

قالت : اللهم اجعله خيرا. ماذا أتى بهما؟ الشيخ مختار لا يغادر الجامع بين المغرب والعشاء، فماذا دعاه إلى ترك المسجد والحضور؟ لابد انه شئ هام.

لكنها وجدتهما مقبلين، وابتسامة عريضة تكاد تبلع وجهيهما. إن السعادة تطفح من عيونهما. انهما من الفرحة يكادان يقفزان إليها قفزا.

وعندما وصلا إليها، مالت عليها راضية تقبلها من عينيها ووجنتيها، وتقبل كذلك كفيها، وتنحنى على أبو عوف تقبل يديه الصغيرتين.

ومدت الشيخة يدها إلى الشيخ مختار وهى تقول له فى شبه اعتذار : اسم الله على مقامك يا شيخ مختار "القومة لك " لكن الولد على رجلى.

وصاحت راضية تقول لها فى سعادة : يا شت الشيخة. إننا جميعا نعيش ببركاتك. والله أنت الخير والبركة. خذى هذه حلاوتك مؤقتا. شربات النجاح.

قالت الشيخة : خير؟

قال الشيخ مختار : مرزوق ابنى أخذ الشهادة ببركتك، وببركة النذر الذى نذرناه لك وللشيخ أبو عوف ولسيدى الذكيرى.

وصاحت الشيخة : مبروك. ألف مبروك. دائما فى أفراح إن شاء الله. نفرح به وهو عريس إن شاء الله.

قال الشيخ مختار : هذا كله والله من فضلك، ومن رضائك. سأترك معك راضية وأذهب إلى الجامع أؤدى حق الله فى عنقى، وسأعود بعد العشاء لأصحبها.

وبينما هم بالانصراف، صاح به الشيخ عبد الرءوف ليأخذه معه يصلى العشاء فى الجامع جماعة. وتركا الشيخة وراضية فى حديث ممتع.

إن راضية قد اشترت للشيخة زجاجتين شربات، وللشيخ دسته شمع، ولسيدى الذكيرى شال أخضر لعمامة الضريح.

- لكن هذا كله شئ مؤقت وحياة النبى. إنما النذر الكبير، فقد جئت أسألك الموعد تختارين. لقد نذرنا لك ولسيدى "أبو عوف" وسيدى الذكيرى ذبيحة، وليلة يأكل فيها الناس ويشبعون، ثم يذكرون الله حتى مطلع الفجر. ولابد أن تكونى معنا. لن يتم شئ إلا وأنت معنا. كذلك الشيخ عبد الرءوف.

وكان أبو المكارم قد أقبل عليهما فقالت راضية :

- وأبو المكارم أيضا. كله بركة والله العظيم. الله يرحم والدى، كان يحبه حبا شديدا، وكان شديد العطف عليه.

ونظرت مديحة إلى "أبو المكارم" ثم غمزت له بعينيها فى سرور.

ـ وكالعادة، حاولت الشيخة أن تعتذر، والبركة فى الشيخ عبد الرءوف والشيخ مختار، لكن راضية أبت أن تقام ليلة، أو تذبح ذبيحة، إلا إذا كانت الشيخة تفيدة هناك.

ـ إن الليلة لك يا ست الشيخة، فكيف تقام فى غيبتك؟ وهل يرضيك يا شيخة تفيدة؟ انه ابنك. مرزوق ليس ابننا بقدر ما هو ابنك، فهل تتركينه فى يوم نجاحه؟ لقد انتهى من الدراسة، ونال الدبلوم، والبركة فيك. والنبى ياست الشيخة لا تتركيه حتى يحصل على الوظيفة.لو أن جده حى، ما وسعت فرحته الدنيا. مرزوق نجح يا والدى وحصل على دبلوم الزراعة.

قالت الشيخة : وكيف أترك الضريح؟

قالت راضية : فى ليلتك وليلة صاحب الضريح، مباح.

قالت الشيخة : إذاً أدبر الأمر أولا ثم نتفق على الموعد.

وعندما جاء الشيخ مختار، كانت الشيخة وراضية قد اتفقتا على ترتيبات الليلة وكيف تقام الحضرة فى بيت الشيخ مختار، ويرتب موكب من البيت إلى ضريح سيدى الذكيرى، حيث تقام الحضرة حتى الفجر.

واتفقت الشيخة وراضية على أن يعمل ترتيب ليكون للنساء مكان فى الموكب فتخصص لهن "السيارة" الأخيرة، حيث تسير الشيخة وسطها، وحولها عدد من النساء، يذكرون الله فى تبتل حتى يصلن إلى ضريح سيدى الذكيرى.

وسيكون لهن مكان خلف حلقه الرجال يذكرون الله، ويستمعن إلى البردة والأناشيد ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم والحكم والمواعظ والدروس.

قال الشيخ مختار : هذا عظيم. بركتك ونورك يا ست الشيخة البلد أظلمت بعد الشيخ. أنت وحدك تعيدين للبلد نورها. أنت نورها يا ست الشيخة. يا سلام. من زمان طويل لم تشهد بلدنا هذه الليالى. هل تذكرين يا ست الشيخة؟ وهل تذكرين يا راضية الليلة التى أقامها الشيخ أبو عوف رضوان الله عليه، وسماها ليلة المصالحة بين الكتاب

والمدرسة. كانت ليلة لا تنسى ارتدى الأولاد الذين ختموا القرآن فى الكتاب ملابس جديدة، ووضعوا على رءوسهم طواقى خضراء عليها عبارة "باسم الله ما شاء الله" مكتوبة بالأبيض وسط اللون الأخضر وارتدوا أشرطه كأوسمة القضاء عليها عبارة "بسم الله الرحمن الرحيم". وسار هؤلاء فى مقدمة الموكب، وخلفهم سار الأولاد الذين أتموا الدروس فى المدرسة، وقد ارتدوا الملابس الجديدة، وطواقى كتب عليها "المدرسة الالزامية تحيى الكتاب" ولبسوا أشرطة كتب عليها : " وفوق كل ذى علم عليم ". وبعد هذا سار المريدون يذكرون الله ويصلون على النبى. وفى آخر الموكب سرت وعبد المهيمن أفندى والشيخ أبو عوف خلفنا، فى هيبته وبركته مسبلا عينيه يرتل آيات من القرآن ويحمد الله على ما أنعم به على الناس من العلم. من زمان لم نر شيئا كهذا، البركة فيك ياست الشيخة تعيدين هذه الأولى إلى البلد وأهل البلد.

قالت الشيخة فى تواضع : البركة فيك يا شيخ مختار.

وبعد تبادل عبارات التحية والمجاملة، عاد الشيخ مختار وزوجته إلى القرية، وأقبل أبو المكارم، تسبقه ابتسامة.

قالت مديحة : أنت لئيم يا عم "أبو المكارم". ماذا يضحكك؟

واستمر أبو المكارم يضحك ويشير أشاراته الخرساء.

قالت مديحة : جاءت الفرصة. أعرف أن هذا ما تريد أن تقوله، نعم يا عمى جاءت الفرصة. سيكون على أن أتغيب عن هذا المكان، وسيكون هذا المكان خاليا. لكن كيف نستدرج "عباس" و "أدهم" إلى هنا، ليتربصا له؟

وعندما بدا على "أبو المكارم" شئ من التردد قالت مديحة :

- نعم.. نعم.. نعم؟ تظن انه قد لا يحضر؟ لا يا سيدى سيحضر. شيخ البلد سيحضر لسرقة الأوراق. سيحضر بنفسه، وسيكون عنده وقت طويل جدا. لكن والله لأعذبنه. سأضع الأوراق فى مكان لا يصل إليه إلا بعد أن يدوخ.

وهز أبو المكارم كتفيه، فتداركت مديحة قائلة :

ـ آ..والله! لو فشل فى العثور عليها؟ تبقى مصيبة يا عم أبو المكارم. إذاً أضعها فى مكان لا هى بالسهلة التى يعثر عليها من نظرة عابرة، ولا هى بالصعبة التى قد لا يعثر عليها أبدا. هذا واجب، فليس سهلا دائما تدبير فرصة كهذه. أغيب مدة طويلة على هذه الصورة، وأفسح له هذا المجال الفسيح، ليبحث عما يريد وهو مطمئن آمن. فرصة لا تتكرر إلا نادرا.

وأخذت مديحة تقول لنفسها :

ـ من؟ من؟ يا ترى من؟ من ذا الذى يستدرج "عباس" إلى هنا؟ من؟

ونظرت إلى " أبو المكارم" وهى تقول له :

ـ قل لى من؟ ..يا عمى قل لى من؟ أهكذا نسيت؟..أم هكذا تتناسى؟!

لكن أبو المكارم نظر إليها فى استخفاف، وهو يشير بيديه متعجبا من أنها قد نسيت المفتاح الذى يفتح لها الطريق. إن عباس آلة طيِّعة فى يد واحدة تعرفينها. أه تعرفينها! فكرى وستجدين أنها أقرب إليك من الناس جميعا.

وأخذت مديحة تفكر ...دون جدوى...

وأخذ هو يضحك عليها بصوت صاخب.

وبعد أن طالت حيرتها أشار لها إشارته الخرساء، فصاحت فى فرح :

ـ عرفت...عرفت من تعنى... خالتى قمر.أليس كذلك؟

وربت على كتفها : كأنما يقول لها : نعم هى. سأطلبها لك، لتتفقى معها.



وحضرت الست قمر، وكانت مديحة تتوقع أن تجدها قد ضاقت بها وبطلباتها، لكنها وجدتها على العكس، راضية مستعدة لتلبية ما تطلبه منها.

وعندما حكت لها عما تريد، قالت :

ـ وهو كذلك يا ست الشيخة. صحيح إنى لم أقابل "عباس" من مدة طويلة، لكن ليس ما يمنع من مقابلته والحديث معه، بطريقة لبقة لا تعطيه فكرة عن شئ.

قالت مديحة :

ـ طبعا فان الخطة تنجح لو جاء دون أن يدرى شيئا. وراقب الخص حتى يضبط شيخ البلد متلبسا. وليته دون أن يعرف انه شيخ البلد عندئذ يتم كل شئ على ما يرام.

قالت الست قمر :

ـ ربنا يسهل. سأرى ماذا أستطيع أن أفعله. لعله لا يتعاطى "المدعوق" يومها..

ـ وسألت مديحة :

ـ هل يعرف عباس أن "جلال"...

وأسرعت الست قمر تقول :

ـ ولماذا يعرف؟ انه يعرف أن الشيخ "أبو عوف" مات. لكن ما علاقة جلال بالشيخ "أبو عوف"؟ عباس لا يعرف أن جلال قد كان هو نفسه الشيخ أبو عوف.

وسألت مديحة :

ـ وهل قابلته يا خالة بعد موت جلال؟

قالت الست قمر :

ـ مرة...من أجل سالمة. كان عليه أن يرسل إلى عائلتها شيئا يعيشون عليه.

وسألت مديحة :

ـ وأدهم...كيف نستدرجه إلى هنا؟

قالت الست قمر :

ـ إسألى "ممدوح". "هو كله عليه"؟ اسأليه.

وتدخل ممدوح فى الحديث، فقال :

ـ نعم يا خالة قمر. أنا تحت أمرك. عنى يا ستى، فأنا أعددت خطابا سأسلمه لأدهم بيدى، حتى لا يقع فى يد أحد سواه، والخطاب يقول : إذا كنت تريد أن تعرف قاتل أبيك فاذهب إلى ضريح سيد الذكيرى وفى مساء يوم الخميس القادم، سيحضر القاتل، وسيتسلل إلى خص الشيخة تفيدة، فهو لص أيضا، وسيسرق أشياء تملكها. اياك أن تقتله أو تعتدى عليه، لكن أقبض عليه حيا بعد أن ينتهى من مهمته، وستجد معه أوراقا تثبت لك أنه هو القاتل. اياك أن تقول هذا لأحد، والا فسد كل شئ. اذهب وحدك، وتصرف بلا معونة أحد، فأنت رجل من ظهر رجل، ولست محتاجا إلى رجل ليثار لأبيك.

وعجبت مديحة والست قمر، ونظرت كل منهما إلى الأخرى.

قالت الست قمر :

ـ والله أرحتنى يا شيخ. كنت أفكر فى السبب الذى يحضر "أدهم" من أجله ليكون هنا، لكنك سهلت على مهمتى.

وقالت مديحة :

ـ لكن كيف سيصله الخطاب؟

قال فى مزاح :

ـ يا ستى... البركة فى الشحاتة وبوابير الجاز والمسائل الأخرى. سهلة.

قالت الست قمر :

ـ لكن ما دخل جلال فى الموضوع؟ فكروا معى كيف يكون لجلال دخل؟

قالت مديحة :

ـ جلال؟! هل لابد أن يكون لجلال دخل؟

قالت الست قمر :

ـ يا ست الشيخة أنت ذكية وصاحبة تجربة. أنا لست إلا رسول جلال، وعباس لا يعرفنى إلا على إنى أحمل له رسائل جلال. والمطلوب أن أعرف أولا علاقة جلال بهذا الموضوع، لأحدثه عنه.

قال ممدوح :

ـ أقول لك. أوقع الخطاب له باسم شبل.

ـ شبل. لقد اختفى هذا الأسم من سنين.

قال ممدوح :

ـ أعرف هذا. بل من أجل هذا تكون رسالتك من جلال لعباس.

ولم تفهم الست قمر، ولم تفهم مديحة.

لكن ممدوح وجد عمه "أبو المكارم" يضحك ضحكا متواصلا حتى ليكاد يقع على ظهره من كثرة ما ضحك. فقال له : لابد أنك فهمت.

وظلا يضحكان، ثم أخذ ممدوح يشرح الموضوع :

أنت تريدين موضوعا يهم جلال، ويستحق أن يرسلك إلى عباس من أجله. الموضوع هو هذا. إن ظهور اسم شبل مرة أخرى خطابات كهذا الخطاب مسألة تحتاج إلى توضيح. جلال يريد أن يكون معروفا أن استعمال اسم شبل لا صلة له به، وهو برئ من هذا الكلام، وانه يطلب من عباس أن يعرف من هذا المدعى وماذا يفعله فى هذه الناحية.على أن من الضرورى الاحتياط حتى لا تقع حوادث فى البلد، وعباس وكيل لشيخ الخفر. وتكون نصيحة جلال لعباس أن يذهب وأن يتخفى هناك ليرقب ما يحدث، فاذا جاء أحد وتسلل إلى خص الشيخة فى الظلام فليتركه حتى يقضى حاجته، فاذا خرج، فقد يتبعه أدهم لينقض عليه. عندئذ ستكون مهمة عباس دقيقة. عليه أن يراقب الموقف، ولا يتدخل إلا فى حالتين : أن يحاول أدهم قتل هذا الشخص، أو يعثر معه على شئ هام.

قالت الست قمر :

ـ فان سألنى كيف عرف جلال؟ ماذا أقول له؟

قال ممدوح :

ـ بل إنى سأعطيك صورة من الخطاب، فان سألك قولى له هذا سر جلال، لا تسألنى عنه. انه يخاف "جلال" ويخشاه ويهابه، فلا تنتظرى منه أن يلح فى السؤال.

وقبل أن تعقب قال ممدوح :

- أعرف ماذا تريدين أن تقوليه. إن الخطاب بتوقيع شبل يحتاج إلى بعض التعديل، والا شك أدهم فيه. إن أدهم يكره "شبل" لما كان بينه وبين أبيه. سأعدل الخطاب لأحمل أدهم على الثقة بما فيه.

وتبادلت مديحة والست قمر نظرات صامته، وهما لا تصدقان ما تسمعان.



- وكيف حالك يا خالة؟

- بخير يا عباس يا بنى ... بخير.

- غبت علينا يا خالة. لعل المانع خير.

- البيت والأولاد، ومشاغل الدنيا يا عباس.

- وهو؟..كيف حاله؟ هل هو بخير يا خالة؟

- بخير يا عباس. يسلم عليك ويقول لك إنك أوحشته.

- والله يا خالة هو الذى أوحشنا، البلد لا طعم لها من غيره.

- أنت عارف يا عباس. كيف يأتى؟

- ولم لا؟ البلوى ذهبت فى داهية.

- أه لو تعلم يا عباس. وهل هى بلوى واحدة؟!

- عارف يا خالة، لكن هذه البلاوى هينة. الأيام هو الذى كان بلوى "متلتلة"!

- على كل حال، طالما أنك أنت بدأت، فتفضل اقرأ.

وناولته الورقة التى تحمل صورة للخطاب الذى ناوله ممدوح لأدهم. وكان يرفع حاجبيه متعجبا، ويبدى من العلامات والإشارات، حركات كلها مثيرة. ولما فرغ ضرب كفا بكف وأخذ يقول :

ـ والله شئ غير مفهوم.

ـ الخطاب غير مفهوم؟

ـ من شبل؟ من يكون شبل هذا؟

ـ من تظن يا عباس؟

ـ واحد مدع مجنون، يحاول أن يقلد أسياده.

ـ وماذا وراءه؟

ـ لا أدرى. لا أفهم. إنى سأجن. أنا وكيل شيخ خفر أنا!!

ـ هل هو غريب عن البلد أم منها؟

ـ منها! أنها مصيبة أن يكون منها واحد فيه هذه الجرأة.

وسكت عباس قليلا ثم قال :

ـ يمكن يكون الولد أدهم.

وضحكت الست قمر ضحكا طويلا ثم قالت له :

ـ الولد أدهم يرسل الخطاب لنفسه؟!

ـ آ...ى! صحيح! أنا فعلا غبى. يا ترى من؟.من؟.. من؟

ـ على كل حال لقد عجب جلال من ظهور اسم شبل مرة ثانية فأرسلنى إليك بالخطاب، لآخذ رأيك.

ـ رأيى!. وهل يكون لى رأى؟ ما رأيه هو؟

ـ رأيه أن المسألة تحتاج لعناية، ولا بد من تتبع الموضوع لمعرفة من صاحب الخطاب.

ـ لكن كيف يكون هذا؟

ـ بالا تستهين بالأمر. تذهب إلى المكان بنفسك، وبدون أن تقول لأحد. طبعا أدهم سيذهب، على الأقل من باب الفضول. لا تتدخل أنت. راقب. فان جاء أحد ودخل

الخص، فاتركه حتى يخرج، واستمر فى مراقبة الموقف. فاذا هجم أدهم على هذا الرجل، فلا تتدخل إلا إذا تبين لك انه سيقتله، أو ضبط معه أشياء نفيسة. عندئذ تعرف هذه الأشياء، لتردها إلى صاحبها.

- فاذا لم أجد شيئا على الإطلاق؟

- "تبقى يا دار ما دخلك شر"!

- لكن متى؟..آه. يوم الخميس؟ أنها ليلة الشيخ مختار. شئ غريب. فرصة. ستكون الشيخة فى بيت الشيخ مختار، وكل البلد ستكون عنده. فهمت.

- ليلة الشيخ مختار؟ أية ليلة هذه؟

- يا ستى ابنه أخذ دبلوم الزراعة المتوسطة، وكان قد نذر ليلة لسيدى الذكيرى والشيخ أبو عوف والشيخة تفيدة. وتم الأتفاق على ليلة الخميس.

- الله... إذاً شبل هذا لابد انه من البلد.

- كيف هذا؟. هل قال هذا فى الخطاب؟

- يا عباس فكر قليلا. كيف عرف بليله الشيخ مختار والنذر إلا إذا كان من أهل البلد؟

- صحيح. سامحينى يا خالة. أنا أحيانا أكون غبيا جدا.

- على كل حال عليك أن تصحو ...اياك أن تغمض عينيك.فاهم. المسألة جد فى جد. وجلال يهمه أن يعرف كل شئ.

- قولى له إن عباس وكيل شيخ الخفر سيعمل المستحيل لتحقيق رغبته.

- وربنا معك يا عباس. أتركك بعافية.

- الله يعافيك يا خالة. سلمى عليه كل سلام.

وتركته فى الخص، وتسللت فى جنح الظلام، ومضت على حافة القناة حتى الساقية، ثم مضت على جسر الرياح إلى محطة السكة الحديد.



وكان لابد للشيخ مختار من أن يذهب إلى العمدة وإلى شيخ البلد للاستئذان.

ـ طبعا هذا واجب. هل تفوتك هذه يا شيخ مختار؟

ـ لا لا . أنا أذهب إليهما، ليعلم العمدة أن مرزوق نجح، وأننا سنوفى بالنذر.

ـ وتتفق معه على كل شئ. إذا كان يرى تأجيل الليلة نؤجلها. إذا كان يرى تفريق اللحم من غير ليلة، نفذ له ما يطلبه. ولا بد من استئذان شيخ البلد. انه ابن أخيه وزوج ابنته.

ـ والحمد لله أننا لم نعمل أى شئ. حتى الشربات لم يوزع إلا للشيخة تفيدة.

ـ الشيخة تفيدة!! أنها ...انها شيخة الضريح، ولها شأن آخر.

ـ وهى لن تقول لأحد شيئا.

وذهب الشيخ مختار إلى العمدة، والتقى هناك بشيخ البلد وممتاز الصغير وسلطان ابن الحاج غضبان. وعندما وجدهم جميعا هناك قال لنفسه : أنها كرامة أن يكونوا جميعا هنا، بلا استعداد.

وقال العمدة :

ـ ابنى مرزوق يا حضرة العمدة نجح ونال دبلوم الزراعة المتوسطة بعد التعب والشقا.

ـ قال العمدة وقد انفرجت أساريره :

ـ مبروك يا شيخ مختار. والله أنت رجل تستحق الخير، وتستاهل السعادة. هذه بركتك وبركة صبرك، وكفاحك. وأيضا نفحة من جده الحاج مرزوق الله يرحمه ويحسن إليه، فقد كان نفسه طاهرا.

قال الشيخ مختار فى تواضع :

ـ وبركة سيدى الذكيرى، والشيخ أبو عوف، والشيخة تفيدة.

قال شيخ البلد :

ـ وأظن أن هذه أول مرة فى بلدنا ينال فيها واحد دبلوم الزراعة المتوسطة. شئ عظيم.

وقال ممتاز أخو العمدة وأخو شيخ البلد :

ـ مرزوق ولد مستقيم ومطيع ومجتهد وربنا أعطاه.

قال الشيخ مختار فى تردد :

ـ والله يا عمدة هناك مسألة، جئت لك من أجلها. علينا نذر يا عمدة سيظل فى رقبتنا حتى نوفيه. لكن أهم من النذر، أنت يا عمدة وشيخ البلد وكل عائلة سلطان.

قال العمدة وقد فهم ماذا يريد الشيخ مختار :

ـ يا شيخ مختار أنت رجل كلك ذوق وأدب، لكن لقد مات من مات، والحى أبقى من الميت. هل هناك شئ معين تطلبه منى؟

قال الشيخ مختار :

ـ نعم يا عمدة. كنا نذرنا ذبيحة للمشايخ. لسيدى الذكيرى والشيخ أبو عوف والشيخة تفيدة. من يدرى. ربما أصابت دعوة من دعوات المحتاجين المساكين، فتسهل طريق الولد فى حياته.

وسكت العمدة قليلا، ثم نظر لأخويه وابن أخيه، وقال :

ـ وما المانع؟ إن افعل الخير رحمة لأمواتنا يا شيخ مختار. اذبح الذبيحة وأطعم الناس، ربنا يخلفه عليك وعلى ابنك بالخير.

وكان شيخ البلد يسمع فى انتباه شديد، وأخذ يسأل :

ـ لكن هل كنت تنوى شيئا آخر يا شيخ مختار؟ لماذا لا تقيم حضرة لذكر الله؟

قال الشيخ فى حياء :

ـ أمرك يا سيدى، إذا كان هذا لا يجرح شعوركم.

وسأل شيخ البلد :

هل يحضر الشيخ عبد الرءوف والشيخة تفيدة؟

قال الشيخ مختار :

ـ أظن هذا واجبا يا شيخ البلد.

قال شيخ البلد فى حماسة شديدة جدا :

ـ بل لابد من حضوره وحضورها. إذا كان النذر للمشايخ، كيف لا يحضران؟

قال شيخ الجامع، وقد زال عنه الحرج :

ـ الواقع أنها كانت تريد أن تعتذر عن الحضور، عندما قلنا لها إننا نفكر فى هذا حتى لا تترك الضريح.

قال شيخ البلد بغير تردد :

ـ ولماذا لا تترك الضريح؟ لابد أن تترك الضريح! لابد أن تكون عندكم من العصر، حتى بعد إقامة الحضرة.

قال الشيخ مختار :

ـ الحقيقة لقد فكرنا فى عمل الحضرة فى سيدى الذكيرى.

قال شيخ البلد :

ـ بل عندك فى البيت. بعد صلاة العشاء والعشاء تقام الحضرة.

قال الشيخ مختار :

ـ البلد لا تزال حزينة على المرحوم الحاج غضبان!

قال شيخ البلد :

ـ وهل الذكر رقص؟ هل هو فرح؟ فعل الخير يا رجل، ولا يجرح شعور أحد. على بركة الله. على بركة الله. لابد من أن تكون الشيخة والشيخ عندكم من العصر، ولابد من استمرارهما

عندكم حتى بعد اقامة الحضرة. وإذا كان ولابد، أقيموا حضرة ثانية فى سيدى الذكيرى.

- وسأل الشيخ مختار العمدة، هل يوافق؟ فهز العمدة رأسة موافقا، ثم كرر له التهنئة بنجاح مرزوق، متمنيا له التوفيق.



وعاد الشيخ مختار إلى زوجته، فحكى لها كل شئ.

قالت راضية : أذهب إذاً إلى الشيخة تفيدة لأحدد معها الموعد، وأنت يا شيخ مختار ترتب لنا لوازم الليلة، من سمن وأرز وأشياء أخرى.

وعندما أخذت راضية تحكى للشيخة ما حدث، طلبت منها أن تستعيد كلام شيخ البلد، وحماسته الشديدة لذهابها هى والشيخ عبد الرءوف من العصر وبقائها هناك إلى ما بعد صلاة العشاء، والعشاء، والحضرة. وتبادلت نظرات صامتة مع "أبو المكارم"، وراضية تعيد ألفاظه، وتكرر ما سمعته عنه من زوجها.

وبعد أن عادت راضية، قالت مديحة :

- يريد إبعادنا من هنا. يريد سرقة الأوراق. يا عمى "أبو المكارم" الخطة تسير بنجاح.

- وأشار أبو المكارم إلى نفسه، فى تعاظم، وهو يؤكد لها انه لولاه..

قالت مديحة فى لهجة سريعة :

يا سيدى لولاك لولاك! المهم عندى أن نكشف هذا الرجل الأفاق وأن ننقذ أم الشحات، وأولاد ابنها من مؤامراته. رجل بلا ذمة ولا ضمير لم يتورع عن أن يدفع ابن أخته وزوج ابنته إلى جريمة بشعة، للتخلص من واحدة يعلم هو أنها بريئة، خوفا من أن تضيع عليه بضعة فدادين، من ميراث زوجته. رجل يظن انه بذكائه يلعب على الناس جميعا. يدفع أم الشحات إلى التهاون مع عمه العجوز. ثم يدبر معها وسيلة التخلص منه، فلا يتزوجها، خشية أن يؤدى زواجها منه إلى ضياع شئ من ممتلكاته. ثم يحاول الآن التخلص منها إخفاء للسر، ورغبة فى الحصول على الأوراق. مسائل ملتوية غامضة،

متداخلة كل منها فى الأخرى وهى قائمة على الشر والخسة والغدر.

ونظرت الشيخة إلى قبر زوجها أمامها، والطفل أبو عوف على يديها، وقالت تخاطبه:

ـ لا تخف يا جلال. أنت وقفت يوما إلى جانب الشحات، دون أن تعرفه وسأقف اليوم مع أم الشحات وأولاد الشحات إتماما لرسالتك. لا تخف يا جلال فانك لم تمت. لقد انتصفت للحق، وعشت تدافع عن الحق، والحق لا يغلب ولا يموت.



وعاشت القرية بعدها، أياما هنيئة.

كانت الفرحة للشيخ مختار، ولابنه مرزوق تهز عواطف الناس. لكن تقاليد القرية فى فترات الحزن تقيد فرحتها وخطوتها فى طريق كانت تتمنى أن تسلكه لتعوض ألوانا كثيرة من الضغط تحملتها فى صبر وتجمل! ليست المسألة مسألة الحاج غضبان، فالحاج غضبان قد كان قيدا فى معصم القرية، كأنه "كلابش" السجان! وليست المسألة حزنا على الراحل الفقيد، فإن رحيل الراحل قد كان أملا خافتا راود أحلام المظلومين! وليست المسألة مسألة مجاملة للعمدة، وعائلته، فان هذه العائلة لا تجامل إلا عندما تكون المجاملة نوعا من الصدقة تتباهى بها أمام الناس! أو نوعا من الحسنة ترجو أن ترد إليها بعشرة أمثالها! أو نوعا من التجارة يغل لها أضعاف ما تدفع! لكن المسألة مسألة تقاليد القرية وكرامتها. إن القرية عندما تحافظ على تقاليدها، فهى تحترم نفسها وتحترم تقاليدها، بصرف النظر عن عائلة العمدة، وعن الراحل الفقيد.

لكن القرية تشعر أنها تحملت كثيرا من الضغط، وأن الأوان قد آن لتنفس عن نفسها. بل أن الشيخ مختار وزوجته وحماته، قد تحملوا ألوان الضغط فى صبر جميل. ذهب شيخهم وبركتهم ولم يعد، فقابلوا المحنة بالصبر. وظل موت الحاج مرزوق لغزا غامضا، لكنهم حلوا اللغز الغامض بالتوكل. كل الذى فعلوه عزاء عما فقدوه، أن أطلقوا اسمه على أول مولود ذكر أنجبته ابنته راضية من زوجها عريف الكتاب، وتلميذة المخلص الأمين،

الشيخ مختار. ولقد وضعت القرية آمالها فى مرزوق الصغير، وأخذت ترقبه وهو يشب عن الطوق، وهو ينمو، وهو ينتقل من الكتاب إلى المدرسة، ومن مدرسة إلى مدرسة، ومن مدينة إلى مدينة، حتى نبت الشارب فى وجهه، ونال الدبلوم.

أفما كان من العدل، أن تكون هذه فرصة تعبر فيها عن فرحتها، وتفك أنواع الضغط التى تحبس أنفاسها؟ كذلك تعبر عن اعترافها بمكانة الشيخ مختار فى نفسها وضميرها، وأنها تضعه فى أعز مكان من قلبها، وتذكر له خدماته للجامع، من فجر كل يوم حتى بعد صلاة العشاء؟ وفضلا عن ذلك فهو رد لبعض ما فى عنقها من جميل الشيخ؟

لكنها فرحة _ ككل فرحة فى القرية _ لا تتم!

مات الرجل العجوز! ليمنع الفلاحين من أن يفرحوا!

الديون وقبلناها! والحسابات المزورة وشربناها ! والحجز على البهائم وطرد الناس من بلادهم، وأنواع التشهير الكاذبة. وبلعناها! لكن الفرحة حتى الفرحة، حرام؟!

حتى فى موتك نكد! الله ينكد عليك، ويملأ التربة عليك، "مية نار"!!

هكذا كان فى ضمير القرية، شئ خفى، يتردد فى الضلوع، ولا يظهر إلا عندما تخلو القرية لنفسها، حيث لا يسمع أحد، ولا يتلصص عليها أحد.

لكنا سنعمل كل شئ، للشيخ مختار.

حزن حزن! وبلا أفراح، ولا أنوار، ولا مواكب، سنعمل كل شئ! سنعطى فرحتنا فى الاستعدادات، وفى الذكر، وفى دعوات حارة للشيخ وابنه مرزوق. سنفرح ولو من خلف الدموع! نعم وسنرقص ولو فى ملابس الحداد!

وأخذ الناس يحيطون بالشيخ مختار.

الذبيحة قدموها له. تعاونوا عليها، ودفعوا ثمنها، وأقسموا لا يأخذون من ثمنها شيئا.

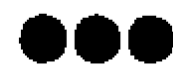
يا رجل لقد أعطيتنا عمرك. أى والله عمرك. فماذا تكون هذه الذبيحة إلى جوار ما أخذنا منك؟

لكن الشيخ مختار أقسم ليدفعن، والا فالنذر لا يكون قد وفى. ,أخذ منه أهل القرية الثمن، ليردوه له سمنا وزبدا وأرزا وخبزا، وشايا وبنا وكل شئ تحتاجه هذه المناسبات.

وجئ للشيخ بالأوانى والأطباق والكراسى والحصير والصابون مساهمة فى الفرحة بمرزوق الصغير. وشعر الشيخ مختار بأن القرية تضعه فى مكان عزيز جدا من قلبها، فبكى من التاثر، وكان يؤم الناس للصلاة، ويتلو آيات من الذكر الحكيم وهو يصلى، وصوته يتهدج، وعيناه تدمعان، والمصلون حوله يشاركونه التأثر، وكثيرا ما كانت عيونهم تدمع وهم يصلون.

كانت أياما زاهية مشرقة رقيقة، تلك التى سبقت ليلة النذر، فذكر الناس بها أيام الشيخ مرزوق عندما كانت نفوس الناس تشف، حتى تكاد من شفافيتها تعكس ما فيها من أسرار، وترى أسرار الآخرين.

وجهز كل شئ. وأقبل يوم النذر.



وذهبت البلد كلها عند شيخ الجامع تبارك نجاح ابنه مرزوق.

وبينما البلد كلها خالية، بعد أن تجمعت عند الشيخ.

..وحتى القرافة قد خلت من الشيخة تفيدة، والشيخ عبد الرءوف.

وضريح سيدى الذكيرى، قد كان صامتا ساكنا، تطل من نوافذه أضواء الشموع.

والساقية. حتى الساقية، قد وقفت ريثما يعود أبو المكارم من عند الشيخ مختار

بل العمدة. العمدة نفسه قد ذهب، ليجامل شيخ الجامع، ويسأله الدعوات.

سلطان ابن الفقيد الراحل، ذهب مع ابن عمه العمدة.

حتى ممتاز، الطرى، قد جلس يأكل ويشرب الشاى، ويغفو!..

بل أن النساء كن هناك مع راضية، وفى مقدمتهن الست السيدة زوجة العمدة وست الناس أرملة أبو سريع والست نعمت زوجة شيخ البلد، وعطية الله زوجة ممتاز..وأم الشحات، وخضرة أرملة الشحات.

وكان جمع من أهل القرى المجاورة، ممن أرادوا أن يجاملوا الشيخ، قد جاءوا على ركائب الحمار. وكان أبو اليزيد الحمار، يقبع هناك فى صحن الدار، يطل إلى الرجال، وقلبه هناك عند الهوى المكتوم، الذى مر به ذات يوم مرور السحاب، لكنه حفر فى حياته بئرا عميق الغور، لا يجف له ماء.

آه يا "أبو اليزيد" يا حمار!!

أبوها طلع المعاش، فلم تعد تذهب لتراه، ولا هى ستعود وحدها بعد ذلك فلا تجد سواك، والفراغ القاتل، مع الزوج الطرى، وأعواد الذرة فى الطريق كخميلة حانية، تلف فى أحضانها قلوب العشاق.

انتهى هذا يا حمار!

ويسلى الحمار نفسه بالنظرات، كأنها جمرات.

وعندما يراها تطل عليه هى الأخرى، من بعيد فى لوعة كلوعته، فانه يعض شفته بأسنانه، حتى ليكاد يقضمها عن آخرها.

نظرات أخرى كالجمرات، كانت تخترق الصفوف من بين الناس إلى خضرة الأرملة الناعسة، ثم تعود ترتد ببعض الراحة، إلى الشيخ عبد الرءوف! أو ممدوح! أو كليهما!

وأخذ الناس يأكلون ويسمرون، ويتحدثون فى تؤدة وإتزان، ويباركون للشيخ، لكن فى حذر، حتى لا تظهر الفرحة الغامرة، أمام العمدة وذويه.

وبعد العشاء بدأ ذكر الله. أقام الشيخ عبد الرءوف الحضرة، وأخذ رجال القرية يذكرون الله سبحانه وتعالى، وحولهم النساء يشاركن الرجال الذكر لكن فى صوت هامس حتى لا يسمعه الرجال.

ثلاثة رجال غابوا عن الجمع الكبير.

شيخ البلد ووكيل شيخ الخفر، وأدهم بن "أبو سريع".

لكنهم حاولوا أن يصطنعوا الذكاء، ويضحكوا على هذه الذقون.

شيخ البلد جاء، وادعى انه على موعد مع الخواجة لتصريف محصول هذا العام.

وعباس جاء وأكل، ثم خرج للمرور. أليس مسئولا عن الأمن والنظام؟

أما أدهم، فقد أطل على الناس، ثم توارى عن العيون، مقدرا أن غيابه لن يؤثر فى مثل هذا الزحام.

لكن الشيخة، والشيخ عبد الرءوف، وأبو المكارم، قد تبادلوا النظر من بعيد، وهم يتوقعون أن يسمعوا فى آية لحظة أخبار مثيرة تقشعر لها الأبدان.

ومر الوقت بطيئا ثقيلا، ولم تصل إلى آذان القرية الأخبار!

وانتهت الحضرة، وختمها الشيخ بالفواتح والدعوات وبعض المدائح، والصمت مع هذا مطبق، لا تمزقه الأبناء!

وبدأت الشيخة تشعر بالقلق. كذلك الشيخ عبد الرءوف.

أما أبو المكارم فقد أطلق ساقية للريح.

وهناك عند ضريح سيدى الذكيرى، مشى أبو المكارم على أطراف أقدامه، يتسمع ما عسى أن يصله من الأصوات، لكن شيئا لم يصل إلى أذنيه، وابتلعه اليأس والقلق والظلام فمضى إلى مكانه من الساقية ينتظر فى سأم.

وعندما انتهت الحضرة، كانت الشيخة تتعجل أن تعود، لينام ابنها، أبو عوف، بعد سهرة طويلة على سنه اليافعة.

وقال الرجال : ولم لا نذهب لزيارة سيدى الذكيرى والشيخ أبو عوف. هذا النذر لهما، والزيارة واجبة.

وسر الرجال، وسارت الشيخة وراضية وأم الشحات وخضرة وبعض النساء.

وبعد زيارة الضريح وقبر الشيخ أبو عوف، وجد الرجال أنفسهم فى حقلة ذكر حول الضريح.

وأقيمت حضرة، وأخذ الرجال يذكرون الله، فى هذا الجو الرقيق، حتى قبيل الفجر، وعندما انصرفوا كانت أشعة النهار قد بدأت تشق ظلمة الليل فى هدوء.

ووقفت الشيخة تفيدة وحدها، فى هذا الجو الرقيق وشعرت أنها تريد أن تبكى.

حتى الدموع لم تعد كافية للتعبير عما يثقل قلبها من الأحزان.

..هكذا ضاعت الفرصة! وستقتلون أم الشحات، وأولاد الشحات! أما الفاعل فانه _ كالعادة _ مجهول!

يا ربى!..ويرضيك! هل هذا يرضيك؟

امرأة طيبة بسيطة، لا تملك من الدنيا، إلا الشرف، تذهب بلا ذنب ولا جريرة!

لكن لماذا؟! لأنها حلوة، ولأن الرجل العجوز أراد أن يختم بها نزواته؟!

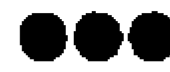
من يدرى ماذا يدبرون بعد ذلك، فى غد؟

سيأخذون بالدور. اليوم أم الشحات، وغدا ...أنا!

طبعا. ثم وردة النقرزان. ثم خضرة.

..وعندما خطرت خضرة بذهنها ابتسمت، وهى تذكر "ممدوح".

لكنها لم تكن إلا بسمة عابرة، عادت مديحة بعدها تصطدم بهواجسها.



وفجأة دوى فى هذه الساحة طلق نارى أعقبته أصوات متداخلة، وصياح وناس تتنازع، وواحد يمسكون بتلابيبه وهو يحاول الإفلات، وخفراء يهددون بأنهم سيطلقون النار.

وعرفت القرية بعد ذلك كل شئ.



فى الظلام، وأهل القرية كلهم فى الجامع، يصلون العشاء جماعة قبل أن يذهبوا لبيت الشيخ مختار، تسلل شيخ البلد فى الظلام ملثما حتى لا يعرفه أحد، وقد أخفى فى طيات ملابسه، مسدسا محشوا بالرصاص، لاستعماله عند الحاجة.

وسار يتلفت ذات يمين وذات يسار، حتى وصل الضريح.

ومضى فزار الضريح، لا تبركا، لكن ليتأكد أن أحدا لا يراه.

وذهب إلى الخص، ليفتش ما فيه.

ووجد لفافات مختلفة، فأخذ يفتحها فى سرعة، وقلبه يخفق من الهلع.

وذهل وهو يرى أسورة من أساور امرأته، ومعها ورقة تقول أن صاحبتها الست نعمت أودعتها عندها، وطلبت إلا يعرف أحد عنها شيئا.

وعاد شيخ البلد إلى تاريخ الايداع، فذكر انه كان قد طلب من زوجته أن يرهن هذه الإسورة ليفك عذرا، فقالت له أنها بيعت من سنوات!!

بيعت من سنوات، يا بنت الأبالسة!

لكن بنت من؟ بنت عمى! قسمتى ونصيبى!

وزاد ذهول شيخ البلد، عندما وجد فى إحدى اللفافات وصية للحاج سلطان نفسه، ومعها ورقة صغيرة تقول : هذه الورقة أودعتها الخادمة نفيسة التى تعمل فى بيت الحاج سلطان، وقالت أن الحاج أعطاها هذه الورقة قبل أن يموت، وطلب منها أن تحفظها فى مكان أمين، فلما اضطرت لترك البلد لتعمل فى المدينة لدى قوم آخرين، وتركتها هنا حتى لا تضيع.

وعجب شيخ البلد، ففتح الورقة، وظهر له من ثنايها أن أحدا لم يفتحها قبله، منذ تركها أبوه.

وهز رأسه عجبا وإعجابا بالشيخة، فإنها لم تفكر أن تقرأ ما فيها، ولو من باب الفضول.

ولم يصدق شيخ البلد عينيه، وهو يقرأ ما فى الورقة من كلام، ولولا انه يعرف خط أبيه، ما صدق ما فيه.

"أنا الآن بين يدى ربى، أشعر بقرب نهايتى. سأترك هذه الورقة " لأعترف فيها بذنبى، فقد قتلت زوجتى الحبيبة الصغيرة تفيدة، بلا ذنب، "ضحكوا علىَّ، ودبروا المؤامرة الخسيسة، ولم أكتشف براءتها إلا "منهم، وهم يضحكون فى سخرية".

"كانوا يظنون إنى أطرش لا أسمع، وظللت أدعى الصمم حتى" انتهوا من روايتهم، ففهمت كل شئ. والآن أنا أترك هذه الورقة "لأعترف بجرمى. أنا تركتهم يقتلون أحب إنسانة إلى قلبى، "تفيدة" زوجتى. ثم تركتهم يلصقون التهمة بالرجل المسكين "أبو عوف"." ثم شردوا أولادى وطردوا "قمر" من البلد، وشردوا أولادها، وطردوا "جلال" ابنى. أين يا ترى يكون جلال؟ إن من المستحيل على الآن أن "أرجع الآن فى الوصايا التى حرمت "جلال" و "قمر" وأولاد قمر من" ميراثى. لكن يكفى أن أصحح سمعتهم. جلال ابنى، من دمى. سامى وناجى بريئان من خيانتى. قمر بريئة من كل اتهام ألحقوه بها. أنها لم تخف عنى خيانة. أبدا فليس فى الآن خيانة. إنى أدفع الآن ثمن جريمتى. ولا شك انهم جميعا سيدفعون أضعاف ما دفعت".

ولم يصدق سيد عينيه!

هل صحيح أن أبى أدرك أن المسألة كلها كانت كذبة كبرى للتخلص من تفيدة، ومن جلال، ومن قمر، ومن أولادها؟

وضحك شيخ البلد، ومضى يفتح اللفافات، حتى عثر على لفة الأوراق التى يبحث عنها.

وبينما هو يفضها، إذا بصيحة تفاجئه، فلا يستطيع أن يتحرك.

كان مثلما، لا تظهر من وجهه إلا عيناه.

قال الصوت : أمامى. إياك أن تتحرك والأنوار قتلتك.

ولم يستطع أن يتبين الصوت، فقد كان أدهم كذلك ملثما. أراد أن يحتاط فوضع على وجهه لثاما يخفى ملامحه.

ومضى شيخ البلد، وأدهم من خلفه.

وسار شيخ البلد، تنفيذا لما يتلقى من أوامر تصدر إليه من خلفه.

وفى ستر الليل والمزارع وظلال الشجر، وصل شيخ البلد إلى الخص المهجور عند قمة حديقة العمدة، فلما صاح أدهم به أن يدخل، دخل دون أن ينظر إليه.

قال أدهم : كما أنت. إياك أن تتحرك، أو تتلفت إلى الوراء. أعطنى كل ما معك يا لص. ماذا كنت تعمل فى خص الشيخة؟ تسرق حتى المشايخ. ارم بكل ما أخذته من مسروقات وأوراق على الارض، بغير حركة، والا قتلتك.

ورمى كل شئ على الأخرى، فالتقطها أدهم وأخذ يقلبها ويقرأ ما فيها من أوراق.



يا خبر!! حتى الحاج سلطان كانوا يضحكون عليه!! لينكر أبناءه ويحرمهم من الميراث!!

أين جلال ليرى ويسمع؟ أما تفيدة، فالله يرحمها، كذلك أبو عوف، لكن جلال، هل يعرف؟ ربما. قد يعرف ذات يوم.

وهذه الأسورة. يا ...ه! حتى امرأة العمدة تهرب منه مصاغها! شئ غريب!

وهذا ..ما هو؟

هبة لابنى، من ظهرى، محمود!

يا خبر يا أولاد! كان له ولد اسمه محمود!

"وأنى أكتب هذه الهبة له بدلا من نصيبه الشرعى فى الميراث، لأنى لم أعترف به رسميا، فإن زواجى من أمه كان زواجا عرفيا، لم يسجل فى الدفاتر الرسمية".

..هكذا! ماذا أيضا؟



فى هذه الأثناء، كانت أطراف الحديث قد وصلت إلى أذنى أبو المكارم، فأسرع إلى الخص ليتبين من فيه.

ورأى منظرا غريبا : رجل ملثم، وقد أدار وجهه فى ركن الخص بلا حراك، ورجل ملثم خلفه يمسك مسدسا، ويقلب فى الأشياء وفى الأوراق.

وأسرع أبو المكارم إلى ناحية الضريح، فرأى "عباس" حائرا يبحث هنا وهناك، وقد استعان باثنين من الخفراء.

قال عباس : ألم تر أحدا يا " أبو المكارم"؟ ألم تر "أدهم". يظهر إنى جئت متآخرا فأفلتا منى.

وكانت الحيرة بادية عليه، والارتباك مسيطرا على حركاته وكلماته.

وأشار "أبو المكارم" إلى الخص، وهو لا يدرى مَن مِن الرجلين الملثمين هو أدهم.

قال عباس : فى الخص؟ هل هو فى الخص؟

وهز " أبو المكارم" رأسه، ومضى إلى الضريح، يسابق الريح.

لكن الطلق النارى سبقه قبل أن يصل، فجمد حيث كان.

إن شيخ البلد انتهز فرصة انشغال أدهم بقراءة الوصية التى كتبها الحاج غضبان، فاستدار نحوه وأطلق عليه الرصاص، من المسدس الذى كان يخفيه بين ملابسه، فأرداه قتيلا.

وعندما حاول أن يهرب، وجد نفسه وعباس والخفراء وجها لوجه.



وأخذ الرجال يتطلعون، كل منهم إلى صاحبه.

لكن كانت على عيونهم غشاوة، حتى لم يتبينوا وجوه بعضهم البعض.

وشئ كأنه الصدى، أخذ يتردد فى أسماعهم، وهم نيام، وهم مستيقظون، وهم سائرون، وهم جالسون، وهم يأكلون أو يشربون أو يتحدثون.

وكان هذا الشئ ثقيلا، حتى لقد كان يشل حركاتهم، فتجمد بلا حراك، ريثما يمضى.

ولم يكونوا يسألون عنه. لم يكونوا يجرءون أو يتجاسرون، فكانوا يستقبلونه كأنه نذير الموت، يطأطئون له الرءوس، فلا تطول له قامة.

كذلك النساء. حتى الأطفال أخذوا به، ولم يعرفوا إلا انه طيف يحوم فوق الرؤوس كأنه نسر كبير له مخالب وأنياب.

الفاعل مجهول!

نعم مجهول.. مجهول.. مجهول!

وتسكت القرية وهى تسمع هذا الكلام، لكن الصدى يظل يتردد فى سمعها يهز سكينتها ويجرح كبرياءها، ويخرس لسانها.

الفاعل مجهول!

مجهول، وقد أمسكوه، وضبطوه، وفى يده مسدس يقطر بدم القتيل!

مجهول، وقد حدثوه، وسألوه، فما أنكر أو تراجع عن الجريمة التى اقترفتها يداه!

مجهول، الفاعل مجهول، والنهار طالع، وقد ظهر الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر!

لكنه مجهول. وسيظل الفاعل مجهولا يا بلد! نعم وهو دمنا، أهدرناه، وليس لأحد عندنا ثأر ولا قضاه! الجانى والمجنى عليه من عندنا، فاسكتى يا بلد، واتركى أمورنا نسويها نحن فيما بيننا!

والحكومة! والقانون! والعدالة!

والعين بالعين والسن بالسن، والبادى أظلم!

وكرامة الناس، وكبرياء أهل البلد!

واطمئنان الفلاحين إلى أن الدم لا يذهب هدرا، ولا يباح!

"ابن أبو سريع"، يلحق بأبيه هكذا بلا تحقيق !

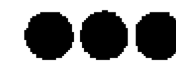
أبوه ذهب، والفاعل مجهول!

وهو يذهب إلى أبيه، و الفاعل مجهول!

لماذا إذاً كان الفاعل غير مجهول، عندما دفعوا بالضحية البريئة تفيدة إلى الرياح؟! لماذا لم يقولوا أن الفاعل مجهول؟! لماذا كان الفاعل هو أبوها أبو عوف؟!

.وأدهم! ليكن من يكون، هل يذهب فى عز النهار، فى الخص المهجور، دون أن يعاقب القاتل؟! لكن أى قاتل؟..انه..مجهول!

ولماذا لم يقولوا عن القتيل أيضا انه مجهول؟ ليكون الفاعل والمفعول كلاهما مجهولا؟..آه يا بلد ! آه لك، وآه منك!



إن شيخ البلد لم يكن يدرى انه قتل ابن أخته، فلما علم الحقيقة، أخذ يصيح بأعلى صوته فى جنون :

أنا الذى قتلته. أنا قتلت ابنك يا ست الناس يا أختى. لم أكن أعرف انه هو، فقتلته.

أراد أن يقتلنى فقتلته. سامحينى يا ست الناس. سامحنى يا "أبو سريع". سامحنى يا أدهم.

وفى الحقل، أمام الخص المهجور، كان القاتل والقتيل. القاتل محوط بالناس والخفراء وعدد كبير من الفلاحين، والقتيل يعوم فى بحر من الدم فى الخص وحده، يحرسه الخفير مدبولى! نعم الخفير مدبولى كان يجلس عند رأسه، ودموعه فى عينيه، لا يدرى شيئا عما حدث، ولا كيف حدث.

وكان يقول لنفسه : لماذا يا شيخ البلد؟ لقد كنت تريد أن تدفعه إلى قتل أم الشحات، فهل تقتله أنت؟ لماذا يا شيخ البلد؟ ماذا فعل لك يا شيخ البلد؟ آه لو أن أبوه حى! هل

كان واحد منكم يجرؤ عليه، أو يمس له ظلا؟ والله كان أكله ورمى عظمه للكلاب! لكن أبوك مات يا أدهم، فأصبحت أنت الجدار الواطى. مع السلامة يا أدهم. سلم على شيخ الخفر.

مسكين يا مدبولى! ألم تعرف هذا إلا الآن؟

أما شيخ البلد، فقد ظل يصيح صيحات جنونية، وهو يلطم خديه.

قال له عباس :

لماذا فعلت هذا يا سيد؟ ولماذا كنت ملثما، وكان هو الاخرملثما؟

لكن سيد لم يرد، وظل يرسل صيحات مجنونة.

ولما يئس عباس، تركه وأخذ يدور حول نفسه، ويدور حول المكان كأنه مخمور، وفى الخص وجد أوراقا منثورة فأخذ يقلبها ليقرأ بعضا مما فيها.

ووجد وصية الحاج غضبان، فلم يصدق عينيه، وعندما لمح عبد المهيمن أفندى بين الواقفين، أعطاه الورق، ليقرأ ما فيه.

وقرأ عبد المهيمن أفندى الوصية.

الحاج غضبان يوصى لابنه محمود بنصيبه فى الميراث!

ابنه محمود! من ابنه محمود؟

وأخذ عباس الوصية ووضعها فى جيبه. ثم ناوله خطاب الحاج سلطان، فأخذ يتلوه، وقد خيم على الجميع صمت مطبق.

وبكى عباس وهو يسمع كلام الحاج سلطان عن جلال وتفيدة وقمر وأولادها، ثم قال: لكن الوقت قد فات. نعم فات يا عمى الحاج سلطان. أبو عوف مات وشبع موتا، وأم الهنا ماتت ومفيدة أيضا، ومن يدرى أين جلال! هل يصحو من مات؟ قل لهم هذا عندما تلقاهم فى العالم الآخر، ولعلهم أن يسامحوك.

وصاح عباس فى الخفراء :

هل بلغتم العمدة، والنقطة؟

ولقد وجد عباس الجواب أمامه، بطوله وعرضه. العمدة وصل على عجل، وخلفه اخوته وأولاد عمومته وأقاربه وأصهاره.

وأمسك العمدة بأخيه القاتل، وضمه إلى حضنه، وأخذ يقبله من وجنتيه، وهو لا يكف عن الصياح.

قال العمدة، فى صوت متهدج :

خذوه إلى الدوار، وواحد منكم يسافر معه حالا إلى دمنهور. هل كان هنا؟ لقد سافر إلى دمنهور منذ ثلاثة أيام، لبيع المحصول، فلا يبور. هل هذا مفهوم؟ الحاضر يقول للغائب. كلمة زيادة، سيدفع صاحبها عمره.

وصاح عباس :

والعدل..العدل يا عمدة!

وصاح العمدة :

عباس. عباس!

إننا جناية قتل يا عمدة! جناية قتل!

وصاح العمدة :

والكلام لن يعيد القتيل يا عباس!

وصاح عباس :

- وربنا يا عمدة؟ كيف نقابله بعد أن نموت؟

وصاح العمدة :

- لما تفوق يا عباس فكر فى ربنا.

وصاح عباس :

ـ الرحمة ...الرحمة يا عمدة.

وصاح العمدة :

ـ وما شأنك أنت يا عباس؟

وصاح عباس :

ـ أنا الآن شيخ الخفر. أنا وكيل شيخ الخفر، وأنا مسئول عن النظام.

وصاح العمدة :

ـ اسكت يا عباس. استح يا عباس.

وبينما العمدة يصيح، وعباس يصيح، والقرية تنقل رأسها من هذا إلى ذاك تتابع هذا الصباح، وهى تتمنى من قلبها أن ينتصر عباس، كانت الست نبوية قد وصلت إلى المكان مستندة إلى عكازها، يسبقها صوتها البغيض الثقيل :

عباس. أنت رأيت شيئا يا عباس؟ أنت كذاب. أنت تريد أن تحبس ابنى ظلما. أنت غيران منه، لأنه يقوم بأعمال شيخ الخفر، وأنت تريد أن تصبح شيخ الخفر! لكن أين أنت من شيخ الخفر؟! شيخ الخفر لابد أن يكون رجلا، لا نعجة.

وصاح عباس يقول : يا ست نبوية هذا عيب.

وصاحت فيه، فى صوتها الضعيف :

ـ ستكون وحدك. قل ما تريد أن تقول. ستضحك عليك البلد يا عباس..يا شيخ الخفر!

ونظرت الست نبوية إلى الناس، وهى تسألهم :

ـ أنت. رأيت شيئا؟

ـ أنت. سمعت شيئا؟

ـ أنت. عرفت شيئا؟

ولم تنتظر أن يجيبها أحد، فذهبت إلى عباس وهى تقول له :

والله لو فتحت فمك بحرف، "لتكونن " هذه آخر أيامك فى البلد.



وقبل أن يحضر ضابط النقطة، كانوا قد وضعوا شيخ البلد، على ركوبة سريعة وصلت به إلى ايتاى البارود، ومن هناك وضعوه فى سيارة إلى دمنهور.

وعندما بدأ التحقيق كان العمدة يمسح دموعه وهو يبكى ابن أخته القتيل، ويهز رأسه فى حسرة، على الولد الوحيد الذى ذهب ضحية غدر جبان.

وكان العمدة يقول : الرجل وابنه؟ واحد غرق والثانى قتل؟!

وسأل الضابط الخفراء، فأكدوا جميعا انهم سمعوا الطلق النارى، فأسرعوا نحو مصدره، فوجدوا جثة القتيل، ولم يجدوا أثرا للقاتل.

وسأل الضابط عددا من الأهالى، فلم تخرج إجاباتهم عن إجابة الخفراء.

وسأل العمدة، وسأل أقارب القتيل، فلم يشذ منهم أحد.

أم القتيل ست الناس، هى التى أجابت على كل سؤال بالدموع. كان الضابط يسألها فتبكى بكاء مرا أليما، ولا تستطيع أن تجيب.

ـ هل تتهمين أحدا بقتله يا ست الناس؟

ولا تجيب ست الناس، لكنها تبكى وتنتحب، وتتقطع كلماتها فى حلقها.

هل تعرفين أن قد كان بين القتيل وأحد فى البلد خصومة؟

ولا تجيب ست الناس، وترد على السؤال وهى تئن من قسوة ما تتعرض له من المأساة!

ويتدخل العمدة ليقول للضابط أنها فى حالة شديدة جدا. أليس ابنها؟ أليس الولد الوحيد الذى لها؟ ثم يمسك بذراعها، وهو يتظاهر بالحنو عليها، وهو فى الحقيقة يكاد يلويه لها.

ويقول العمدة : أجيبى يا ست الناس. حضرة الضابط ينتظر أجابتك.

ولا تستطيع ست الناس. إلا أن تقول : دعونى. لا أعرف شيئا. لا أعرف حتى من أنا! لا أعرف ماذا حدث! دعونى!

وأَخذت هذه الإجابة على أنها تكفى.

أما نبوية الصغيرة، وهى أرملة القتيل، فقد لاذت بالصمت، ولم تقل إلا ما قالته حماتها وهى أنها لا تعرف شيئا. لم تر شيئا ولم تسمع شيئا!!

شئ واحد كان يخرجها عن صمتها هو أبو سريع الصغير اليتيم، فقد كان يسألها عن أبيه، فكانت تقول له : أبوك سافر يا "أبو سريع". سافر ولن يعود. وتبكى فى صمت أليم.

وكان نساء القرية يقولون : هل تبكى زوجها أم أباها؟ مسكينة يا عروسة!

وعندما سأل الضابط عن عباس وكيل شيخ الخفر، قالوا له انه مريض يلازم داره وانه يعانى من حمى شديدة.

وأقفل المحضر ..ثم فتح عندما جاء وكيل النيابة.. ثم اقفل بالجملة السحرية : الفاعل مجهول.



وعندما عاد شيخ البلد، كان يبدو منهكا ومحطما.

وكانت دموعه قد حفرت على خديه آثار المأساة.

وهذا الشحوب الذى عاد فيه، قد بدأ كأنه جلد مقلوب!

شئ مذهل هذه السحنة التى مسخت فى غضون أيام، فلم تعد إلا بقايا عظم متآكل!

وكان يتماسك فيبدو رزينا هادئا، ثم لا يلبث أن ينهار فيأتى أعمالا غريبة تجعل حتى أقرب الناس إليه يهربون!

ولم يشأ أن يدخل البلد قبل أن يركع تحت قدميه.

وأمام شاهد صغير كتب عليه اسمه واسم أبيه، انحنى شيخ البلد، وتحدث ومدامعه تسقط على القبر بكلام كثير.

لماذا كنت تتعقبنى يا أدهم؟ ولماذا دخلت على فى ظلام الليل، وسرت ورائى إلى الخص المهجور؟ أنا خالك يا أدهم. وقد قتلتك! كيف أعيش بعد هذا وأنا أراك أمامى فى اليقظة والمنام؟ نعم أراك تسألنى : لماذا قتلتنى يا خال؟ صدقنى يا بنى أنا لا أعرف، لماذا قتلتك.

ولم يفرغ شيخ البلد من بكائه، إلا عندما تقدم الشيخ عبد الرءوف يسمح على رأسه، ويربت على كتفه، ويبعده عن القبر وهو يدعو له بالصبر.

وزار شيخ البلد ضريح سيدى الذكيرى، حيث كانت الشيخة تفيدة جالسة فى ركن منه تسبِّح بحمد الله العلى العظيم.

وانحنى شيخ البلد يقبل يديها، ويقول لها :

سامحنيى يا ست الشيخة. والله ما دخلت خصك لسرقة ولا لاعتداء على حرمة، أبدا. لقد كنت أبحث عن أوراق لعمى غضبان. صور لى الوهم انه بما يكون قد كتب شيئا لأم الشحات، أو وهبها قطعة من أرضه، أو أعطاها جزءا من أملاكه. لكنى على كل حال قد أخطأت فى حقك، فنلت جزائى وسأعيش بقية عمرى أكفر عما حدث. سامحينى يا سيدتى.



وعندما وصل شيخ البلد إلى القرية، أطبقت أخته ست الناس على رقبته وهى تصيح:

ـ امسكوه. اللص. امسكوه!

وأخذت أمها تصيح بها انه أخوها، لكنها لم تتركه إلا عندما كان على وشك أن يختنق ويموت.

حتى ابنته نبوية الصغيرة، أدارت له ظهرها، ولوت عنه عنقها، ولم تعبأ له بوجود.

وقضى فى القرية أياما لا يكلم أحدا، ولا يكلمه أحد، حتى لقد بدأ يكلم نفسه، ويتحدث إلى خياله، ويسأل نفسه السؤال، ثم يرد على نفسه. وكثيرا ما كان يقف أمام الدوار، ويصيح صيحات فارغة لا معنى لها.



وما هى إلا أيام حتى أخذت القرية تردد عند الساقية، وعلى المصاطب وفى الحقول، وفى البيوت، أن الفاعل المجهول قد صار كذلك مجنونا.

انه يهذى بكلام غريب ويغنى ويؤذن، ويرقص!

انه يضحك، ثم يبكى، ثم يجرى، ثم يلعب مع الأطفال الصغار، ثم يحدث الحيوانات، ثم يذهب إلى امرأته وعياله يحاول أن يخنقهم بيديه!

وصار العمدة فى حالة سيئة تعيسة، ولم يعد ينام الليل إشفاقا على شيخ البلد وشيخ البلد لا يعبأ بالعمدة، ولا بالحكومة. ولا بالأسرة الكريمة، فيمسك أحيانا بتلابيب العمدة ويعتدى عليه بكلام غليظ جارح.

وست الناس هى الأخرى تصاب بذهول!

لم تعد تكلم الناس أو ترد على أحد! حتى الدموع جفت، فلم تعد تبكى ابنها أدهم.

لكن حالات غريبة كانت تنتابها. كانت تخرج فى جنح الليل، والليل بهيم، إلى الحقول، وحدها. وكانوا يبحثون عنها فى كل مكان فلا يعثرون لها على أثر، وتكون هى فى الخص المهجور، تقابل "أدهم".

- أين أدهم ...أنا لا نراه.

- ها هو ذا يا أمى. أكلمه ويكلمنى!

- يا شيخة هيا بنا. عودى إلى بيتك.

- وأترك أدهم، انه يأتى خصيصا ليرانى.

ـ من أين يأتيك؟

ـ من بعيد. من شاطئ بحر عظيم ماؤه من الزئبق

ـ يا خالة يا ست الناس، هيا. عودى إلى بيتك.

ـ ولا تعود ست الناس، إلا عندما يحملونها حملا إلى بيتها، فتعود إلى صمتها الرهيب لا تتكلم، ولا ترد على أحد.

ويجمع العمدة اخوته وأقاربه يسألهم الرأى :

المسالة صارت فضيحة. سيد صار سخرية الناس، ولو انهم يخافون منا لأصبح فضيحة ..فضيحة وعارا. وست الناس تقابل ابنها فى الخص. شئ لم يعد يحتمل.

واستقر رأى الآسرة على إرسال الاثنين إلى مصر، للعلاج.

ـ لكن هل يدخل زوجى المورستان؟

ـ نعم يا نعمت، بدلا من الفضيحة، وكلام الناس.

ـ لكن المورستان كله مجانين.

ـ وهو العاقل والكامل! انه مثلهم تماما!

ـ شيخ البلد ليس مجنونا.

ـ لا ...أنا، المجنون!



وذهبا، إلى المورستان.

شيخ البلد. القاتل المجهول!

وست الناس. الأرملة الثكلى!

..أخ وأخته انعزلا عن الناس العقلاء، وخلفا وراءهما فى القرية أرملة صغيرة سمراء، تبكى زوجها وأباها وعمها وعمتها ...لكن الدموع ترتد إليها كأنه الطعنات.

وعبارات مخنوقة فى حلق القرية لا تكاد تظهر أو تبين، ترددها لنفسها : نقمة ...نقمة ربنا. الفاعل مجهول لوكيل النيابة! لكن أين يتخفى من ربنا؟!

وأخبار كثيرة ترددها القرية فى أمسياتها عن الابن الذى ظهر فجأة للحاج غضبان، وكيف صار له فى أملاكه حق معلوم. وخطاب الندم الذى تركه الحاج سلطان، يبرئ فيه ضحايا مظلومين، عاشوا بسطاء، وماتوا شرفاء.

وكانت مديحة تسمع هذا الكلام وهى جالسة أمام قبر زوجها، تنظر إليه، ودموعها على خديها تسيل.

وأبو المكارم يشاركها الوحدة، والمأساة، والدموع.

وتقول مديحة فى لوعة :

وماذا تجدى البراءة اليوم لقتيل؟!

لوثتموهم وهم أحياء، وبرأتموهم وهم قتلى!

ثم هزت رأسها "لأبو المكارم" وهى تقول والابتسامة الحزينة على شفتيها، تبتل بالدموع :

هذا على كل حال أفضل. إن الجنة للمظلوم.

□□□

٩

قلت لك اسكت، فإن هذا الغناء الرقيق يثير مشاعرى.

إنى أنصت إليك، فيخيل إلى أنك مثلى محروم، وأنك تغنى، أو تبكى فتغنى، أو تغنى لتبكى، المهم انه غناء، وبكاء! أيهما سبب وأيهما نتيجة! أيهما سبق وأيهما لحق، لا يهم!

يا عصفور الجنة اسكت ...

تواسينى؟! لكنك تهيج شجونى، بحزنك هذا الرقيق!

ترى : تبكيها؟ أم تعاتبها؟ أم ماذا يا عصفور الجنة؟

وماذا تراها فعلت بك؟ هجر يا عصفور! أم غدر! أم هو النصيب!

وسواء أكان هذا أو ذاك فما الفرق؟ هلا يستوى هذا وذاك، طالما أن النتيجة فراق؟

..أعرف يا عصفور، أعرف الفرق بين الهجر، وفراق الغدر، وفراق النصيب. أعرف أن الأول جارح، والثانى قاتل، أما الثالث ففيه عزاء، يرطب القلب من هجير العذاب!

هل أنت مثلى يا عصفور؟ هل تعانى من نصيبك؟

هل فرَّق ما بينك وبينها..القدر؟

هل وجدتما نفسيكما فجأة فى بحر غاضب، أمواجه عنيدة وشريرة، حملتك إلى جانب، وحملتها إلى جانب، تختفى عن نظرك حينا، حتى تفقد الأمر فى أن تعود تراها، ثم تجدها فجأة قد ظهرت لك فوق موجة كأنه الجبل، ثم تعود تغوص فى عمق كأنه

البئر، فإن هدأ البحر أو رضى، فستظل أنت فى جانب وهى فى جانب. وقد تمد يديك مخيلا لنفسك أنك تمدهما إليها، فلا تلمس إلا الفراغ! مسكين!

تكون أمامك، لكنها عنك بعيد!

كالأفق وقت المغيب...أو كالسراب!

أو كعنقود من عنب، يتدلى فى إغراء، يثير اللعاب، لكنه مع ذلك يظل معلقا فى الهواء، لا هو يستقر فى حلقك، ولا هو يختفى فيريح!...لكن لا..ولماذا يختفى العنقود؟

ما أشهى أن يكون بين عينيك، ترى فيه نصيبك مثلما أراه يا عصفور!

إذاً غَنِّ..وابك..وشكل عواطفك فى نغم أو فى حداء، يا عصفور الجنة!

ولن أطلب منك بعد اليوم أن تسكت.

أنت تعرفنى. أنا حساس إلى حد المرض، رقيق كأنى من زجاج، ثائر كرياح أمشير، مسالم كأولياء الله الصالحين.

نعم تعرفنى فى كل حالاتى.

وأنا مريض، كان صوتك دوائى.

وأنا حزين كان غناؤك عزائى.

وأنا يائس، كان حداؤك أملى.

حتى فى فرحتى ـ وما أندر ما كانت أو تكون فرحتى ـ كنت أنت الشاهد على ما خدعتنى به فرحتى.

لا تغضب منى يا عصفور الجنة.

أنا لا أخون، ولا أغدر.

أنا انسان يا عصفور، وأنا كذلك محروم.

النار تأكل قلبى يا عصفور، ولا بد من إطفائها، قبل أن يحولنى الحريق إلى رماد.

فإن كنت أتلفت إلى يمين أو يسار، فستظل هى قبلتى، كلما تأهبت لصلاة. نعم قبلتى، ومسجدى، والتسبيحة الحلوة التى أتقرب بها إلى الله وأتوسل بها إليه لأتوب، عن الذنوب!

لكن هذا ليس ذنبا يا عصفور الجنة، يستحق التوبة.

أنا أحبها، لكن الحرمان.. آه يا عصفور من الحرمان ! الحرمان يقتلنى فإذا لم تخف قسوته فى قلبى، فلست أدرى أى مصير، يكون مصيرى.

تضحك يا عصفور؟!

تسخر يا عصفور؟!

حتى أنت ياعصفور؟

...أتعلل؟ أنا! أتعلل، لأبرر لنفسى أن أحب سواها؟

أبدا. إن أى حب فى قلبى، سيكون تأكيدا لحبها.

نعم، وكلهن، لن يكُن إلا صورا مكررة لها.

..وتظل تسخر يا عصفور!

كأنك قادر على أن تضحك يا عصفور! وأنى لأراك، وقد كتمت ضحكتك عنى فى تخابث وحياء! لماذا يا عصفور؟ أنت تعرف، بل أنت الوحيد الذى يعرف أن مديحة هى حياتى، وانها منى أعز من نفسى! وسواء كانت لى أو لسواى فهى هى الغالية التى لا يعدلها فى الدنيا أحد. أنا لا أغيرها بسواها. هل يغير الإنسان وجهه؟ هل يغير قلبه؟ هل يغير طوله وعرضه وقسماته؟ قد يغير ملبسه أو حتى جلده كالثعابين! لكن قلبه لا يتغير، فإن مات أو أصيب بشئ كأنه الموت. إلا تعرف هذا يا عصفور؟

هل تعرف؟ والله والله والله ثلاثا، وليس لك على يمين، يا شيخ! لو إنى تزوجتها لما تغير فيها شئ. ستظل هى هى الجزء الغالى الجميل الحنون الرقيق الذى يؤنس وحشتى،

ويبدد ظلمتى. كل ما كان يجد، هو أن تصبح إضافة رائعة إلى حياتى التعسة، إلى جوار حقيقتها فى كيانى. أنها معنى وجودى يا عصفور، وبدونها يفقد وجودى معناه.

لا تزال تضحك يا خبيث! كأنما تصفر باسمها ! كأنما تسأل عن خضرة وماذا تكون؟ أنها انعكاس لمديحة وتأكيد لحقيقتها فى نفسى وتثبيت لمعناها الراسخ لا يتزعزع. ثم هى أرملة صغيرة حلوة مسكينة محتاجة إلى يد تمتد إليها بحنان وصدر ينطوى عليها، وذراعين تطوقان خضرها. آه يا ملعون ! نعم هى محتاجة إلى شفتين تنطبقان على شفتيها فى نهم، وإلى همس بالنداء، وإلى جفون مرهقة من ضغط الحرمان، وإلى آذان مسدودة لا تسمع إلا أصداء الرغبة..الحلال!

تظن يا عصفور الجنة أنك استدرجتنى إلى الاعتراف.

وهو _ على كل حال _ اعتراف لذيذ، يفتح النفس.

ثم ما العيب يا عصفور؟ انه نوع من التأسى. إنى أتأسى عنها، بعد أن وهبت نفسها للحب والذكرى، فأصبحت حراما، وموقوفة، ومحصنة بقبة صالحة، كالعمامة بيضاء، وشاهد بعد قامته فى كبرياء، وعدد لا يحصى من أرواح الموتى، تطوف حول القرافه فى سيدى الزكيرى.

هل أصبح أنا أيضا مثلها حراما؟

إن كانت هى من نور، فأنا من تراب! أو من نار! أو من تراب ونار!

يا عصفور : التراب يصبح طينا من فرط الدموع !

يا عصفور : والنار تحول القلب إلى رماد!

يا عصفور : والطين فى النار، يصبح طوبا أحمر، بلا حياة!

.وأنا إنسان يا عصفور، من حقى أن آكل وأن أشرب، وأن أخطئ، وأن أتأسى عن المأساة، بسد ثغرات الحياة.

هل عرفت الآن يا عصفور؟

يا صديق المحنة يا عصفور الجنة، افهمنى.

ألم تسهر إلى جوارى، عندما حملونى إليك وأنا جثة، لا يربطها بالحياة إلا تَنَفُس خافت ضئيل، يدخل ويخرج، فى محاولة يائسة عند الحد الفاصل بين الحياة والموت؟

لقد كنت بضاعة مهربة، أو مسروقة؟

كنت فى ملابس العساكر الانجليز، أعانى سكرات الموت!

حملنى الدكتور اسماعيل ورفاقة إليك يا عصفور الجنة، وخلع عنى ملبسى، وأخذ ينتزع لى الحياة من بين براثن الموت!

ولم يكن معى غيرك، أنت يا عصفور.

الدكتور اسماعيل كان يتركنى وديعة عندك، ويمضى لمشاغله، فكنت حارسى وصديقى وممرضى، والقلب الحنون الذى أعيش من أجله.

ولكم سمعتنى أئن، أو أبكى!

ولكم أنصت إلى مواجعى، وأنا أتصايح بها من ألمى !

نعم وكنت تغنى لى أو تبكى معى. يا صديق المحنة والعذاب، يا عصفور الجنة.

الا تذكر كم كنت أتحدث إليك بسرى؟

الا تذكر كل ما قلته لك من قصص وحكايات؟

مديحة.. آه يا عصفور، ولا تزال مديحة هى حياتى، وهى أملى، وهى القطعة الغالية من كيانى.

لا تشكك فىَّ يا عصفور!

إن خضرة هى صدى مديحة.

هل تعرف؟ انظر فى بئر أو فى صفحة ماء. سترى صورتك فى البئر، أو فى صفحة الماء. أنها تؤكد وجودك، لكنها ليست أنت.

كذلك خضرة تؤكد وجود مديحة، لكنها ليست مديحة.

على كل حال يا عصفور. اضحك إذا شئت، أو اسخر إذا أردت، ولن أستطيع أن أقنعك فيما يبدو، وسأترك نفسى للمقادير. من يدرى! ربما تغيرت أشياء كثيرة لم يكن فى تقديرنا أن تتغير.

المهم أن تدعو لى الله يا عصفور.

اسأل مولاك أن يحرس هذه المجموعة المؤمنة المغامرة من الشباب، فإنها لا تغامر إلا له، وفى سبيله.

نعم ... إن الجهاد للوطن، عبادة، كالصلاة.

ومحاربة أعداء الوطن قربى إلى الله، كالصدقة.

والتضحية بالنفس، فى سبيل الوطن، مقامها كبير كالحج.

أنت ستدعو لنا يا عصفور الجنة.

وسيكون الله معنا، فأما انتصرنا، أو ذهبنا إلى الجنة، يا عصفور الجنة.

وهناك فى الجنة، ستغنى لنا يا عصفور، وستكون أغنياتك خالدة، ممتدة إلى الأبد.



هل أحكى يا عصفور، خطة المعركة الكبيرة بيننا وبينهم؟ نترك الحب الآن. نترك الحديث عن الغرام والهيام والجمال الفتان، ومديحة وخضرة، وقيس وليلى، وكل عاشق ولهان. نعم ونتحدث عن الانجليز، والخواجة، وتجارة الحشيش والأفيون، وكل ما هو حرام أو ممنوع.

يا سلام يا عصفور..سأقرأ لك. اسمع يا سيدى هذا الخطاب :

عزيزى وصديقى البريجادير ..

آ...وهذا يمكن أن يكون الميجر، أو الكابتن، أو أى شئ آخر، حسب الرتب. على كل لا يهم!

ثم يا سيدى ...اسمع :

يسرنى أن أرسل لك هذه الدعوة بمناسبة أعياد الميلاد ورأس السنة، لأهنئك وأتمنى لك ولأسرتك ولأصدقائك ولجنود الامبراطورية والحلفاء كل حظ وسعادة وتوفيق ولأتمنى لك ولكل من تحب عمرا سعيدا مديدا تحتفل فيه كل عام بهذه الأعياد.

على إنى فكرت أن أقيم بهذه المناسبة احتفالا كبيرا، نأكل فيه ونشرب ونرقص وننسى الدنيا، بين الطبيعة الجميلة فى ضيعتى.

ويسرنى أن أدعوك إلى هذا الاحتفال، لتشاركنا أفراح الأعياد وبهجتنا.

إنى أعلم أنكم يا جنود صاحب الجلالة الامبراطورية، غرباء عن دياركم، وبعيدون عن زوجاتك وأولادكم، لكن عزائكم أنكم تدافعون عن شرف الامبراطورية، وعن شرف العالم الحر. ولهذا فقد أصبح واجبا على كل شرفاء العالم أن يشتركوا فى الترفية عنكم والترحيب بكم، خاصة فى هذه المناسبة السعيدة. وسيكون الاحتفال فى ضيعتنا وهى على طريق المعاهدة، بحرى المحل، وعلى بعد بضعة كيلومترات منه. على كل حال سيكون كل شئ معدا هناك، وستعرف المكان من الأنوار والزينات، فى ليلة عيد الميلاد.

وسيزيد سرورى أن تدعو من تشاء من الأصدقاء الحلفاء.

وسيزيد فرحتنا كلنا أن تحضر مرودا بكل ما تستطيع من أشياء.

ستكون سهرة ممتعة ونافعة أيضا.

مع قبول فائق الاحترام.

..والتوقيع يا عصفور : الخواجة.. جورج بسطورس خرايللو البحراوى.

نعم لا تعجب، فقد سمى نفسه البحراوى. جده أتخذ لنفسه هذا اللقب فأصبح لقبا لأسرة الخواجة.

أنت مخلص جدا يا عصفور. أنت تسأل عن وردة؟ المعلمة وردة النقرزان؟

عندك حق يا عصفور، لكن اطمئن. إن اختيار الضيعة مقصود، ليتم كل شئ فى مكان بعيدا جدا عن القهوة، وعن المحل، وعن الدكاكين، وعن حلقة السمك، وعن محطة السكة الحديد، على بعد عدة كيلومترات بحرى، على طريق المعاهدة!



أقرأ لك أشياء أخرى يا عصفور الجنة.

هل تعرف "يونانى"؟ من يدرى! أنت عصفور عفريت على كل حال. لكن أنا لا أعرف. سأقرأ لك الترجمة.

الرفيق العزيز جورج بسطورس خرايللو البحراوى.

لقد قررت اللجنة المركزية للجماعة، أن تكلفكم بعمل وطنى كبير، يحقق غاية كبرى من غاياتها. إن الانجليز وحلفاءهم، قد شنوا حمله تضليل ذكيه، فأفهموا العالم انهم يدافعون عن الديموقراطية ومبادئ الحق والعدل والشرف. وأنت تعلم من عضويتك القديمة بالجمعية أن هذا غير صحيح، وانهم يستغلون هذه الألفاظ البراقة ليداروا حقائقهم ومصالحهم، وألوان استغلالهم لسذاجة الشعوب وبراءة نواياها. لهذا فقد تقرر أن تشن عليهم الجمعية حربا شعواء ليدركوا أننا كشفنا اللعبة، وأننا كبرنا على هذا الاستغلال الصغير. وعندما تقرر الجمعية هذا، فإن أرض اليونان لا تكفى مكانا لهذه الحرب. إن اليونان ممتدة عن طريق أبنائها إلى كل مكان لنا فيه أعضاء مخلصون صادقون. وأنتم فى مصر تمثلون أملا كبيرا، فقد توارثتم عضوية لجمعية جيلا عن جيل عن اقتناع وإيمان، مما رتب لكم الحق فى زعامة الجمعية فى مصر والمسئولية عن تنظيم أعضائها عندكم.

لهذا قررت اللجنة المركزية للجمعية أن تقوموا بعملية اغتيال كبيرة لأكبر عدد من ضباط الامبراطورية البريطانية وجنودها، لتحقيق أغراض الجمعية. ان بريطانيا تحمى عملاء فى اليونان، يقفون ضد تطورها، وهذه هى سياستها فى كل مكان، ونحن فى

حرب مع هؤلاء العملاء، لكن يجب علينا أن نمد هذه الحرب إلى الانجليز أنفسهم لتختل ثقة العملاء فيهم، وليدركوا هم أنفسهم أن المسألة ليست سهلة بالقدر الذى يتصورون. إن ترتيب العملية وتوقيتها، متروك لكم، وسنعرف كل شئ بعد أن يتم. لا تكلف نفسك مشقة الرد فسنعرف كل شئ. مع التحية والشكر وتمنيات التوفيق.

.. هل تعرف التوقيع؟ انه توقيع غريب جدا يا عصفور.

.."أيوكا" الجمعية الارهابية السرية، التى تدير كل حركات الفدائيين فى اليونان، يا عصفور الجنة!!

تصور يا عصفور! الخواجة جورج بسطورس خرايللو البحراوى فدائى! وعضو فى جمعية أيوكا الفدائية السرية!

وأخذ ممدوح يضحك، وهو يضرب كفا بكف!

ثم اعتدل، وهو يقول للعصفور :

لكن اسمع. ليس هذا كل شئ. هناك مجموعة منشورات وبيانات، ورسائل بتواريخ قديمة، وعلى ورق قديم، وبعضها ممزق، منثورة فى اتحاد الضيعة، وفى بيته وفى بعض المخازن. ومجموعة كاملة فى مكتبة فى البيت.

طبعا يا عصفور. الخطاب قد ينكره، وقد يقيم الدليل على انه برئ من الاتهام. لكن المنشورات المختلفة ذات التواريخ الممتدة على مدى طويل، كيف يكذبها أو ينكرها؟



هل تريد مزيدا من تفصيلات الخطة أم أن هذا يكفيك؟

إنك مثل عمى "أبو المكارم" مضمون.

تسمع فى وعى، وتهز رأسك، وتغنى ..وتسخر منى! لكنك لا تتكلم. أنت وديعة أسرارى، وهى عندك فى أمان.

ان وردة النقرزان ستقيم فى نفس اليوم، ولمدة ثلاثة أيام مولدا للشيخ العبيط.

ليس موعده! تقول ليس موعده! أعرف. أعرف يا عصفور، ومن قال لك انه مولد بحق وحقيق؟ ثم إن الناس بلا ذاكرة يا عصفور. لا تدقق هكذا!

هو إذاً مولد ولى أولياء الله.

ثم انه تجديد لرغبة الشيخ "أبو عوف"، رضى الله عنه وأرضاه، وتحية لذاكره. وهكذا تبعد المعلمة وردة، حتى لا يكون هناك أى احتمال للشك فيها.

هل ترضى الآن؟ أنا أعرف أنك تحبها يا عصفور، وكلنا نحبها معك، ونحرص عليها، وندخرها للزمن.

لكن اعلم يا عصفور أن هناك فضيحة فى الانتظار.

ادع لنا الله يا عصفور، حتى تنجح الخطة.

إن الانجليز يا عصفور يروجون المخدرات فى بلادنا. انهم يهربونها بطرق مختلفة، ويتركونها لعصابات منهم. عصابات "كاكى" تتاجر فى المخدرات. إلا يعرفون هذا؟ هلا تعرف قيادتهم؟ لا يمكن إذا كانوا يعرفون تحركات النمل، ويرصدون أنفاس البعوض، فهل يغفلون عن عدد من الضباط والجنود، يهربون الحشيش والأفيون والهيروين، فى سيارات عسكرية، فى وضح النهار؟ شئ غريب، وتصديقه مهانة للعقل! إن القيادة وراء هذا، بأسلوبها الذكى... الجبان! ووراء القيادة حكومة بريطانيا العظمى! ووراء حكومة بريطانيا العظمى، مصالح الامبراطورية العجوز!

انهم يريدون أن يحولوا هذه الأمة إلى شعب من المساطيل! مخدر لا يعرف الفرق بين الألف وكوز الذرة! أو بين الجميز والتين! وتلين لهم كل قناة، ولا يتحرك أحد بعمل، وتصبح المسألة "هيصة" يصولون فيها ويجولون!

لكن لا يا عصفور!

لن يضيع الدم الذى سال على أرض الوطن.

لن تضيع ساعات العذاب التى تعرض لها نزلاء السجون والمعتقلات.

لن يضيع عمر جلال، ولا رءوف، ولا سالم، ولا عمى الأسطى عبد الغفار.

ولن تضيع التضحية الغالية التى دفعتها أنا ومديحة، من الحب والوجد والأمل، ليصبح كل ذلك ذكرى، أو مجرى للدموع.

أبدا. كل ذلك لن يضيع. وسيظل الهتاف بسقوط الانجليز، هو الضريبة الوحيدة التى تتقاضاها الجنة من كل شهيد.

نعم يا عصفور. سيضبطون متلبسين بالاتجار فى المخدر، وتوزيعه، وترويجه وستعرف مصر كلها أن بريطانيا التى تحارب المحور، تحارب مع المحور، الشعوب! أنها تقتلها بالمخدر، وتقضى عليها بهذا الداء!

أعلم يا عصفور أن القيادة ستنكر أن لها علما بهذا.

طبعا وقد تحاكم المسئولين، وتوقع عليهم أشد العقوبات.

وهى كذلك ستلجأ إلى مختلف الأساليب لتمنع نشر هذا فى الصحف، حتى الوطنية منها.

كل هذا معروف، لكن ذلك لن يمنعنا من نشر كل شئ بطريقتنا الخاصة، وكشف مؤامرة الانجليز علينا.

إن سكوتنا عنهم أثناء الحرب، لا حبا فى على ولكن كراهة فى عثمان.

وعلينا إلا ننسى أن نهاية الحرب، يجب أن تكون بداية صراع طويل مع الانجليز فإما خرجوا طائعين، أو هو قتال بيننا وبينهم حتى الموت.

هل عرفت الانجليز يا عصفور؟

أما عن بقية الخطة فشئ آخر، ستعرفه بعد أن يتم.

لكن اطمئن، فإن كل شئ محسوب.

.كل المطلوب منك أن تتوجه إلى الله بالدعوات الطيبات الصالحات يا عصفور.



وبدأ ممدوح يشعر بالقلق على الدكتور اسماعيل، فإن عليه مهمة كبرى يجب أن تؤدى، واتصالات واسعة يجب أن تتم، وتعليمات محددة يجب أن تبلغ، والويل لو انقطعت هذه الحلقات. أنها تصبح إذاً مأساة، وقد يخسر الوطنيون فيها سرهم كله.

لكن..والله تبقى مصيبة! يمسكونه ويضبطون معه الأوراق! يا نهار أسود! ويعرفون الخطة، والمكان الذى أعدت فيه الخطابات، والمترجمين الذين ترجموها، والطريقة التى أرسلت بها، ثم منشورات أيوكا، والدين كتبوها باليونانية والذين طبعوها، والذين حملوها لأخفائها فى بيت الخواجة وفى ضيعته! إن ذلك معناه أن ينهار كل شئ! وعلى رءوسنا كلنا! ولن تقوم لتنظيم آخر قوة، إلا بعد زمن طويل. ومن يدرى ماذا يحدث وماذا يدبرون! إن دماغى يدور ..يدور يا عصفور كأنه الدوامة! أين يا ترى أنت يا دكتور اسماعيل؟! هل أنت حر طليق أم أنك وقعت فى الشرك المنصوب؟ هل تتنقل حرا كالعصفور الطليق، أم وضعوك فى قفص يتفرجون عليك كالنمر فى حديقة الحيوان. وقد يجلدونك، وقد يعذبونك، لتروى لهم كل شئ، ولن يكفيهم كل ما ترويه. انهم قوم طماعون، يريدون أن يدينوا البلد كلها، ليحبسوها فلا تتحرك إلا بين أسوار!

وبدأ ممدوح يجتر ذكريات عزيزة غالية، يرويها حينا فى صوت حزين، للعصفور الكتوم، صديق عذابه، وتمر به حينا آخر، أطيافا شفافة كأنه أحلام.



كان ذلك منذ سنوات، والدنيا غيوم، والأنفاس مكتومة، ولا أمل إلا فى ميتة سهلة سريعة، بغير عذاب.

وكنت يا ولد جنديا من جنود الحلفاء.

... واحدا من هؤلاء المخمورين، الذين يخيفون بهم الأولاد الصغار فى يتسكعون فى الطرقات والدنيا ظلام.

لكن البدلة الكاكى كانت على جسمك كأنه الشوك، وكلما كنت تضعها على جسمك كانت تنطلق منها لذعات حامية، كلذعات "الدبابير"، أو لسعات محرقة كالشطة أو شئ مزعج لا يطاق كبودرة العفريت!

وكانت مع هذا بدلتك الرسمية. وكان عليك أن تلبسها طائعا أو مضطرا. وكان رفضها معناه الجلد والتعذيب، والسجن فى الظلام حتى تتوب!

ومررت يا ممدوح بمعسكر استقبال، حيث هيئوك وأعدوك وعلموك.

ثم انتقلت من معسكر إلى معسكر، حتى استقر بك الأمر فى القيادة فى جاردن سيتى.

وكم كان ذلك قاسيا على نفسك، وأنت تشعر أنك منها قريب، حتى لتكاد أنفاسها تلمس أنفاسك، لكنك لا تملك حتى أن تراها من بعيد.

وفجأة طلبوا منا أن تتهيأ لرحيل.

وخرجنا إلى الفناء متأهبين.

كان معى جنود من الصومال، والهند، ونيجيريا، والبحرين، وقبرص، وجبل طارق، ولم تكن فرقتنا تضم من الأنباء إلا الضباط.. السادة!

وكنت أتحدث إليهم، فأرى فى عيون أغلبهم ثورة مدفونة، وقلة آخرون كانوا ينظرون نظرات جامدة بلا معنى. كانت إرادتهم مسلوبة، حتى من الأمل!

وصدرت لنا الأوامر أن نستقل السيارات.

وما هى إلا دقائق، وبينما نحن فى شارع قصر العينى، وبينما قلبى يدق دقا هائلا بحب بلادى، ومبانيها، وشوارعها، وعربات الترام المشحونة بالناس، وهوائها وجوها

الرائع الجميل، وبينما دموعى تتساقط على خدى، وأنا أستعيد ذكريات عزيزة مرت بى هنا، وأنا طفل، وأنا فتى يافع، ومديحة معى تشاطرنى مراحل العمر وأمل المستقبل.

.. إذا بكل شئ يتغير!

نعم ويتوهج نور كأنه البرق! ثم ينطفئ النور فيسود الظلام. ثم تملأ طلقات الرصاص الشارع القديم! ويسود صفوفنا هرج ومرج! وأشعر أن باب القفص الذى حبسونى فيه قد انكسر ! وانطلق إلى الهواء والحرية وقلوب كريمة تعرفنى ! وأسمع صوتها!

مديحة ...مديحتى! هى مديحة!

هذا حلم. لا يمكن أن يكون حقيقة!

وكان حقيقة!

رباه! وجلال معها، وإلى جوارها. ومسدس فى يده يفتك بعساكر !

وأشعر أنها معركتى، وأن على أن أشارك فيها!

لكن هذا اللون الكاكى الذى يكسو جلدى، سيظل يلوثنى!

وبينما أنا فى هذا الاضطراب، بين الاشتراك فى المعركة إلى جوار جلال، والتخلص من جلدى الملوث، لأتطهر من العار.

وبينما أنا أعدو إليها وإليه، فى الناحية الآخرون من الطريق.

.. إذا شئ الحجر يسقط على رأسى.

ولم أشعر بشئ!

حتى كان صياح...ففتحت عينى عليك يا عصفور الجنة!

كنت وحدى فى هذه الغرفة، وعلى هذا السرير، ولم يكن معى أحد سواك.

وسمعت أول ما سمعت صوتك هذا اللين الرقيق العطوف، تغنى معى، أو تغنى لى، أو تغنى لنفسك. وتبكى، وتضحك، وتسخر، وتتعذب، فى صمت رائع جليل.

وكان أول حديث لى بعد هذا الحادث، معك.

وكانت أول مناجاة أطلقتها من شوقى ولوعتى، إليك، لتحملها عنى إليها.

يا عصفور الجنة. إلا تذكر أننا قضينا معا يوما كاملا، أحاول أن أتعرف منك على موقفى، والأسرار التى تكتنف وجودى؟!

لكم قلت لك : لماذا أنا هنا يا عصفور؟ وأى مكان هذا يا صديقى؟ وهل أنا بين أصدقاء حررونى من أسرى، أم إننى بين خصوم يعدون العدة لمحاكمتى؟

لكنك لم تكن ترد.

كنت _ كشأنك _ تغنى فى مرح أو فى ألم.

على إنى كنت أتوسم فيك الأمل.

شعور خفى جارف كان يسيطر على إننى معك فى أمان.



وعندما جاء المساء، جاء مع المساء : اسماعيل.

الدكتور اسماعيل، الطبيب بمستشفى قصر العينى.

ولقد فرح بى فرحا شديدا. لم يكن يظن انه سيعود ليرانى قد استعدت بعض قواى، وفتحت عينى.

وبدأ الدكتور اسماعيل يروى لى القصة :

سبحان من يحيى العظام وهى رميم! صحيح سبحانه وتعالى. لقد كنت جثة هامدة يا ممدوح، ملقاة على أرض الشارع. وعندما انتهت المعركة، رأينا أن نسحب جثث القتلى، ولم نكن نعرف إلا أنها جثث لقتلاهم. لم نعرف أنك جثة من هذه الجثث، وإنما كنا

نعرف شيئا واحدا، هو أن، يحنقهم جدا أن تختفى جثث قتلاهم. وطالما أن المعركة لم تحقق غرضها، فلا أقل من أن تختفى هذه الجثث نكاية فيهم. على كل حال لم تكن جثثا كثيرة. كنتم أربعة. استلقوا فى استسلام على أرض الطريق. وعندما وضعناكم فى سيارة الإسعاف، سمعتك تئن أنينا حافتا، السر! وبعد أن قمنا باسعافات أولية، حملناكم إلى أماكن آمنة، فى بيوتنا، وكنت أنت من نصيبى.

وبدأت يا صديقى تظهر لى رويدا رويدا.

..كالشمس عندما تشرق فى الصباح، فانها تزيح ستر الليل عن وجهها قطعة قطعة، حتى لا يبهر النور عيون الناس.

من أنت؟ ومن تكون! أنت أسمر مثلنا. وسحنتك وتكوينك يدل على أنك منا. لكن بريطانيا العظمى تجند فى صفوفها أجناسا كثيرة، شبيهة بنا، فكنت أصبر حتى تؤكد الأيام حقيقتك. ومع هذا فقد كان يتردد بين جنباتى هاجس، أنك من عندنا. ولم نكن نعرف أن بين جنود بريطانيا من عندنا إلا واحد، مسروق! وآثرت أن أنتظر.

كانت إصابتك يا صديقى قاتلة! لكن الله قادر على كل شئ. قادر على أن يحيى العظام وهى رميم. وأخذت تتقدم ببطء شديدا جدا، لكنى شعرت أنك ممدوح، الذى قامت هذه المعركة كلها من أجله.

وكنت أعرف أن كل الأصدقاء سيستقبلون هذا الخبر فى فرح شديد. وخشيت أن أكون مخطئا، فآثرت أن أنتظر حتى أتحقق من شعورى. وبدأت الدلائل يا ممدوح تدل على صدق شعورى، إلا أنها كانت بطيئة متباعدة، بين الواحدة منها والأخرى شهور، فلما أخذت تناجيها بلغة عربية سليمة، عرفت أنك ممدوح. مديحة دلتنى عليك، عندما أخذت تردد اسمها وأنت تستقبل الحياة من جديد، بعد أن زال عنك الخطر. لكن هذا لم يكن يعنى أنك شفيت، فقد كنت لا تزال محتاجا إلى علاج طويل. وها أنت ذا بعد هذا العلاج تستعيد بعض قواك يا ممدوح. على أنك محتاج إلى الحرص والاحتياط حتى يتم شفاؤك وتصبح قادرا على الحركة والخروج وممارسة الحياة.

لكن ... قل لى من أنت؟.. وكيف عرفتنى؟ كيف عرفت مديحة؟

وطلب الدكتور اسماعيل إلا أتكلم كثيرا، فإن الكلام كالحركة، كلاهما جهد يستحسن أن يدخر حتى تتقدم صحتى.

قال سأحكى لك أنا كل شئ. لا تتعب نفسك حتى بسؤال.

أنا يا سيدى الدكتور اسماعيل. طبيب بالقصر العينى، لكنى ككثيرين سواى عضو فى تنظيم وطنى غايته تحرير البلاد من الاحتلال وأعوان الاحتلال. والا فقل لى : ما الطب؟ وماذا ينفع الطب والطبيب، فى مجتمع محتل ذليل؟ يعالج الناس! ثم ماذا؟ إن تحسن صحة الناس، سيزيدهم إحساسا بالواقع التعيس الذى يعيشونه! ليتهم يظلون مرضى! ليت المرض يقتلهم! هذا أشرف من صحة العبيد!

لا تتكلم! لا تحتج! أعلم هذا. صحيح انهم فى صحتهم أقدر على الكفاح ومن أجل هذا يصبح الطب فى نظرى عملا وطنيا، ووسيلة هامة من وسائل الوطنيين لمواجهة أعدائهم.

وعلى كل حال. كفانا أنت. أنقذناك بعون الله من يموت محقق، وهذا وحده مبرر كاف ومعقول! أم أن هذا أيضا لا يكفى؟

أكمل لك بقية القصة.

عرفنا قصتك وأنت فى المعتقل.

عرفنا جناية التزوير التى ارتكبوها. زوَّروك يا مسكين، كأنك ورقة بنكنوت!

وعرفنا حكاية مديحة، والتنظيم السرى الصغير، الذى كان يضمك ومديحة و "سالم"، بعد معركة العنابر، والقضاء على الأسطى عبد الغفار.

وقررنا أن ننتزعك من بين أنياب الأسد البريطانى.

كان ذلك يبدو أملا طموحا جدا. لكن أمثالنا من المستعبدين، ماذا يخسرون؟ إن فقد الحرية والكرامة أكبر خسارة للانسان، وتضحية أى شئ بعد ذلك، لا شئ!

هل تعرف أننا هربنا "جلال" من المعتقل؟

لا تنفعل هكذا! الانفعال أيضا جهد يجب أن تدخره للمستقبل.

نعم هربناه، من المعتقل إلى قصر العينى.

..كان مريضا جدا. كان يعانى سكرات الموت، بعد فراقك، وكان يحتاج إلى كشف بالأشعة، وعلاج بالكهرباء، وتحليلات وإجراءات ثم عملية جراحية خطيرة.

..اياك!! إنها أن تشد قامتك على هذه الصورة. هذا خطر عليك. اطمئن. كل هذا كان لعب عيال. أى والله كلعب العيال. كان مجرد كلام، وجلال لم يكن لا مريضا ولا يحزنون. كان "كالفلق" لابه ولا عليه.لكن كان يجب أن ينقل إلى القصر العينى، ليهرب، والقصر العينى ليس فندقا ولا ملهى، ولا هو أيضا عنبر فى معتقل. مستشفى. انه مستشفى لا يذهب إليه إلا المرضى، ونوع معين من المرضى من المساكين والمحتاجين! الداخل إليه مفقود والخارج منه مولود. هذا هو قصر العينى. والمعتقلون مساكين، بلا ظهر، وسواء فقدوا أو ولدوا، فمن ذا الذى يهتم بهم أو يدفع عنهم هذا البلاء؟ نهايته يا سيدى، حضرة الضابط الهمام عبد الرحمن ضابط المعتقل. دبرَّ الأمر، وأحضر سيارة اسعاف، وكمَّلت أنا الباقى فى قصر العينى، حتى هرب، ليتابع عمله لإنقاذك.

وبدأ يعمل هو ومديحة عملا رائعا. يا سلام! انتقلا إلى خرابة النداهة فى المنيرة، وهناك عاشا : شيخا جليلا مهيبا مبروكا، يقطر الخير من بين شفتيه، وشيخة رائعة جميلة تحرك رأسها فى تبتل، وهى تخفى فى صدرها لهب الثأر لك.

ولما اطمأن الشيخ أبو عوف، والشيخة تفيدة.

...يا رجل! قلت لك الحركة جهد، يجب أن تدخره.

آ...سمى نفسه الشيخ أبو عوف، على اسم جده المظلوم، وسماها الشيخة تفيدة، على اسم أمه الغريقة التى ذهبت ضحية بريئة مسكينة. أنا أريحك من كل هذا الانفعال. المهم أن تحافظ على هدوئك يا حضرة المريض. جبار الإنسان هذا! أى والله جبار

ومفترى! كنت جثة لا نفس ولا حركة ولا قدرة! كنت عاجزا حتى عن سماع ما يقال. كنت طيبا جدا! كنت تسمع وتطيع، أو تطيع ما تسمع، أو تطيع دون أن تسمع، أو تطيع لأنك لا تسمع! كلام فارغ ...لكن ولم لا! هل لابد أن يكون الكلام كله ملآنا؟! يا سيدى!

نعود إلى الشيخ والشيخة.

لما إطمأنا إلى كل شئ، أخذا يعملان للوصول إلى أخبار عنك. وكان يوما هائلا، يوم عرفا أنك منهما غير بعيد. وأنك تقيم فى الناحية الثانية من شارع قصر العينى، فى القيادة البريطانية، فى جاردن سيتى.

عندئذ بدأ تدبير خطة اختطافك، أثناء موكب كبير لمولد الشيخ العبيط.

وأنت تعرف بقية القصة، وكيف سقطت فى الشارع جثة هامدة، حتى أتينا بك إلى هنا، لتعيش مع هذا العصفور الرقيق والدواء والعلاج والذكريات، حتى تفتح عينيك وتسنفيق، وتستعيد بعضا من قواك هذا الصباح. مبروك. ألف بركة. إن شاء الله نراك "كالرَّهوان" عما قريب.

...أعرف ماذا تريد أن تقول، وماذا تريد أن تعرف. لا تتكلم أنت.

طبعا مديحة. وأين مديحة؟ هذا هو السؤال.

كان من الصعب يا ممدوح على الشيخ والشيخة بعد معركة قصر العينى أن يستقرا فى خرابة المنيرة. كان هذا خطرا عليهما. وكان هناك احتمال كشفهما فى أى وقت.

وجلال كما تعرف "أسطى". انه يشم الخطر من بعيد.

لقد عاد إلى الخرابة لبضعة أيام، ليبعد الشبهة عن نفسه وعنها، لكن الاستمرار على هذا الهدوء، كان مستحيلا، والمؤكد أن استمراره كان يغرى رجال المباحث والسلطات العسكرية بالتحرى عنه وعنها.

لهذا ترك المنيرة، ومضى.

...أعنى مضيا معا، فى طريق لا نعرفه، ولا ندرى إلى أين استقر بهما المقام.

لكن اطمئن. إن جلال ما أن يستقر، ويشعر بالأمن والطمأنينة حتى يعود يتصل بزملائه وإخوانه. هذا طبعه، ونحن ننتظر أن نراه ونلقاه، ونعرف منه كل شئ عن حياته الجديدة، وعن مديحة ..ويومها سنبارك لك مرة ثانية.

لا. لا. لا ! أرجوك.

إن كنت تريد أن تعرف مصير الجثث الثلاث الأخرى التى أخذناها معنا بعد المعركة، فاعلم أن الحياة قد بدأت تدب فيها هى الآخرون، وهى موزعة على ثلاثة من الأطباء الشبان، يسهر كل منهم على جثة، حتى أحيا الله عظامها وهى رميم.

تريد أن تعرف من هم. وما جنسياتهم؟

واحد منهم من الهند. والثانى من الصومال. والثالث انجليزى، من انجلترا.

.. لا تفزع هكذا. انه انجليزى طيب. انه إنسان. هل كلهم شياطين؟ انه من العناصر الطيبة الثائرة على الاحتلال، وعلى الحرب، وعلى الحكام، وعلى ماضى بريطانيا كله.

لا لا ...لا تهز رأسك مرتابا فيما أقوله لك. لقد خبرنا ودرسناه وجربناه وتأكدنا جميعا انه انجليزى من طينة أخرى.

هؤلاء هم أصدقاؤك ...الموتى!

كان يمكن أن تدفنوا فى قبر واحد!

وكان يمكن أن يطلقوا عليكم "الجنود المجهولون"!

.. ومن يدرى. لقد كان يمكن أن نزوركم فيمن يزارون، ونضع على قبوركم الزهور والرياحين، تحية للشهداء الأبرار.

على كل حال، إذا لم تكونوا قد اجتمعتم فى قبر واحد، فستجتمعون فى تنظيم واحد.

... آ... ه... طبعا!

أنتم الآن من جنود الحلفاء.

وأنتم مدربون على حياتهم وتقاليدهم.

...إذاً! وأنت شخص ذكى، تفهمها وهى طائرة، ولابد أنك أدركت الآن الموضوع، ولو بشكل عام. وعلى كل حال فسيترك الأمر لك تتصرف فيه كما تشاء. وسنلبى أمرك وننفذ خططك. هذا اقتراح أو توصية أو سمها ما تشاء.



أنت وحدك يا عصفور سمعت كل هذا.

قل لى إذاً : أين الدكتور اسماعيل؟ إلا تعرف؟ إلا تشعر أين يكون؟

هل أنت مطمئن عليه يا عصفور؟ هل تشعر انه فى أمان؟ تأخر تأخر. الغائب حجته معه. المهم إلا تكون قد حدث له شئ يا عصفور.

أين أنت يا دكتور اسماعيل؟ يا ترى أين أنت؟

إن من الخير لى ولك يا عصفور. أن نتسلى عن هذا القلق.

لكن بم؟ بماذا نتسلى، وقد بدأت أخاف من نفسى، ومن الناس، ولم يبق إلا أن أخاف منك أنت أيضا، أيها الصديق ...العصفور؟!

هل أحكى لك عنها؟ لكن.. أيهما؟!

أه منى ومنك! ستسخر يا عصفور الجنة، وتتشكك فى عواطفى! يا ظالم!

وأنا مظلوم معهما..ومعك!

يا سيدى، يفتح الله! نترك هذا كله، ونتكلم عن أشياء أخرى.. أهم.

أهم؟! أهم من مديحة؟! أم أهم من خضرة؟

يا عصفور افهمنى. إن الحياة بلا حب تصبح شيئا جامدا ثقيلا، لا يطيقه الناس. الحيوانات تحب. حتى الجراثيم تحب. الحجر يا عصفور يحب. أنت أيضا تحب. تحبنى

وتحب الدكتور اسماعيل، وتحب الضباط عبد الرحمن، وتحب كل المجموعة من الحيارى المغامرين المشردين، الذين يحيون وهم والخطر على ميعاد. وأنا؟ إلا أحب كما يحب الناموس؟ أو الذئاب؟ أو الشياطين؟ أو ؟

اسمع يا عصفور. سأسليك بشئ لا نختلف عليه.

لقد قرأت لك دعوات عيد الميلاد. وقرأت لك خطابا من اللجنة المركزية لجمعية أيوكا الإرهابية إلى الخواجة. وحكيت لك عن مولد الشيخ العبيط، وكيف ستتولى المعلمة وردة النقرزان أمره، أثناء الحفلة الكبيرة التى ستقام فى ضيعة الخواجة بمناسبة أعياد الميلاد.

بقى أن تسمع هذا. اسمع :

إن أكبر عملية مخدرات ستتم بطريقة جديدة، ليشربها البوليس، ولا يتنبه لها أحد، هى عملية اسمها "موقعة دنكرك". ستهرب كميات لم تعرفها البلاد من قبل بعد أن دخلت علنا، ورجال البوليس يفسحون لها الطريق، ويضربون لها تعظيم سلام!

وتقضى خطة "الموقعة"، أن تنتقل هذه الكميات إلى عزبة خواجة يونانى، تقع على طريق المعاهدة. كما أن الخطة ستدارى أمورها بطريقة بارعة جدا. إن كل أفرادها سيرتدون ملابس الميدان، كأنهم أفراد فى الجيش الانجليزى. نعم وسيستعملون سيارات الجيش الانجليزى، كل شئ يجب أن يكون عسكريا انجليزيا، حتى لا يتعرض له أحد. وتحت ذقن كل السلطات ستهرب كميات هائلة من الحشيش والأفيون والهيروين، وما خفى كان أعظم.

وتعليمات "معركة دنكرك" أن يتم هذا فى أعياد الميلاد، ليتجمع أى عدد من التجار والموزعين، دون أن يلفتوا الأنظار إلى تجمعهم، طالما انهم انجليز غرباء، يريدون أن يتسلوا عن الغربة فى أعياد الميلاد.

لقد أردنا أن ننبه، فاذا لم تتحرك السلطات، فسنتحرك نحن. المبانى تجار مخدرات مثلهم، ونعيش من توزيع المخدرات، لكنا لا نعتمد على هذا الغش والخداع واستغلال اسم

ونفوذهم. هذه خسة ودناءة. إننا نتبع أساليب الشرفاء من أولاد البلد، فاذا جاء هؤلاء الناس بهذه الأساليب، كان ذلك يصبح خطرا يهدد أرزاقنا، لأن المنافسة ستضّيع علينا كل شئ وهم أقدر وأقوى. ولن نتركهم. سنحاربهم نحن على طريقتنا لنقضى عليهم. لكنا أردنا أن ننذر، وأن نحذر. وسنرى.

هل تعرف ما هو التوقيع؟ انه : مدفع!

آ... ولم لا؟ الخطة اسمها معركة دنكرك، والمبلغ اسمه مدفع والحكاية كلها كما تعرف!

وسترسل هذه الخطابات إلى كل رجال البوليس والمسئولين عن محاربة التهريب.

لكن بينى وبينك، سيكون أهم من ترسل إليه، هو الضابط عبد الرحمن.

... نعم انتقل يا سيدى إلى إدارة مكافحة المخدرات، وأصبح من ألمع ضباطها.

طبعا. لابد من ضابط يتحمس للبلاغ. البوليس يتلقى من هذه البلاغات كل يوم أطنانا، ولو تحرك لكل بلاغ لما وجد وقتا لشئ آخر.

لكن الضابط عبد الرحمن سيتولى الأمر.

لا تتخابث يا عصفور!

اسمع ما هو أهم.

الضابط عبد الرحمن ولد "حلنج"، يلعب بالبيضة والحجر. وقد بدأ حياته فى إدارة مكافحة المخدرات بأسطوانة سال لها لعاب الضابط الكبار.

قال لهم فى مذكرة رسمية، مطبوخة هنا! إن نجاح هذه الإدارة يحتاج إلى رأى عام قوى يساند الإجراءات التى تتم، وترهب التجار، وتخفيف المهربين.

وقالت المذكرة، إن كثرة دخول المخدرات إلى البلاد، قد جاء نتيجة للرواج الإقتصادى، وارتفاع دخول العمال فى المعسكرات الإنجليزية، وارتفاع نسبة الأمية فى الوقت نفسه.

هذا ما قالته المذكرة، لكن الذى لم تقله ان أهم هذه الأسباب، هو حرص الأنباء على رواج هذه البضاعة، فإنها سلاح هام من أسلحتهم.

انهم أقدر على التعامل مع المخدرين الحالمين التائهين، من التعامل مع اليقظين المتبهين الواعين.

ومضت المذكرة بعد ذلك تقول أن ارتباط أعمال الإدارة بالرأى العام سيساعد على وقف انتشار هذا الوباء، وسيحمل الناس على أن يرشدوا عن التجار والمهربين.

واقترح الضابط "الحلنج" أن يدعو بعض الصحفيين لشهود بعض عمليات المطاردة، ليعيشوا فى هذه الجو المشحون، ويستلهموا منه ما يكتبون.

ويضيف الضابط عبد الرحمن لرؤسائه شفويا، أن ذلك أيضا ضرورة ليظهر الذين يعملون والذين لا يعملون.

تطفحون أنتم الدم، وهم يتاجرون بأعمالكم وجهودكم؟!

ولماذا لا يأخذ كل ذى حق حقه؟ وينال كل شخص جزاءه؟!

... وتظهر صوركم فى الصحف والمجلات، ويعرف الوزير حقيقة جهودكم ... من يدرى! إن الوزارة ليست وقفا على أحد.

ويسيل لعاب الضابط الكبار، وهم يستمعون إلى هذا الأمل، بوزارة! نعم وزارة! أى وزارة!! لا يهم أن تكون الداخلية! أبدا كله يستوى. المهم الوزارة! ومعالى الباشا! والنفوذ! وجباه تنحنى! وقامات تنثنى، ووجوه تصفر أو تخضر، أو تحر وفقا لحالة صاحب المعالى!

ونجح الضابط عبد الرحمن! وافتتع رؤساؤه، وتركوا له التدبير.

ولم يكن الضابط عبد الرحمن محتاجا لشئ. البضاعة كانت جاهزة، تنتظر، فلما طلب أجيب إلى طلبه، وذهب الصحفيون والمصورون، واشتركوا مع الكبسة.. فى أول عملية.

وعندما نشرت المجلات، صور السادة الكبار، وهم يخرجون فى جنح الليل وفى قلوبهم إيمان شجاع، وعلى جنوبهم تدلت المسدسات.

وكيف ذهبوا، وكيف هجموا، وكيف كبسوا على المجموعة متلبسة، واقتادهم إلى قسم البوليس.



عندئذ شعر الضباط الكبار بأهمية الضابط عبد الرحمن، فتركوا له تدبير هذه الأموال.

وعن طريق النشر أمسكهم من رقابهم، فأصبحوا طوع أمره، يلبون له أى طلب يريد.

"حلنج" الولد عبد الرحمن هذا! "حلنج" وفنان!

فتح النجاح شهيته لمزيد. ولم لا؟ هل نحن مقطوعين من شجر؟ ألسنا أفرادا فى مجتمع، وأليس لنا أهل وناس يشاروكوننا هذه المسئوليات الخطيرة؟

جنابك مثلا. انه لولا تعاون السيدة الفاضلة قرينتكم وفهمها الدقيق للخطر الذى تتعرضون له، وقدرتها على التغلب على انفعالاتها فى كل عملية تقومون بها. لولا هذا ما كان من الممكن أن تنجح هذه العمليات.إن من الواجب أن تقدم الصحافة هذه النماذج الرائعة للناس. نعم ليعرفوا أن السيدة المصرية قد أصبحت شريكة الرجل فى الشعور بالخطر، وتحمل مسئولية كل عمل، ولو كان مغامرة غير مأمونة.

ونجحت الخطة، وبدأت بعض المحلات تنشر إلى جوار هذه الصور والمقالات صور السيدات اللائى ينتظرن أزواجهن، والأطفال الذين ينتظرون آباءهم.

وأصبح حضرة الضابط الشاب "دلوعة" الإدارة، بعد ما أصبح سلاح النشر فى يده يستعمله لإشباع غرور الرجال، واسترضاء طموح النساء.

حتى الأطفال أصبحوا يعرفونه، ويحبونه، ويطلبون منه صورا تكون قد أخذت لهم وهم مع آبائهم وأمهاتهم.

وكنا يا عصفور نضحك لذلك من قلوبنا.



نعم كنا نضحك، ونحن نتصور بقية الخطة.

إننا ندبر فضيحة للانجليز "بجلاجل"! وما لم نتخذ الاحتياطات، فانه من الممكن أن يضيع كل شئ، وكأنما لم يحدث شئ. ان الضابط عبد الرحمن سيصحب الصحفيين معه. إلى عزبة الخواجة، جورج بسطورس خرايللو البحراوى، ليكونوا هناك ساعة ضبط العملية كلها، وتأديب هؤلاء الذين جرأوا على القيام بها، والذين جرأوا على التنكر فى ملابس الضباط. واقعتهم سودة!

يا سلام يا عصفور! عندما تصدر الصحف وهى تحمل عناوين مثيرة رائعة.

"مئات الأطنان من المخدرات فى عزبة خواجة يونانى بالبحيرة.

"قتلى وجرحى فى معركة حامية بين البوليس والمهربين.

"المهربون كانوا يتخفون فى ملابس حربية إنجليزية.

"النيابة تباشر التحقيق فور القبض على المتهمين".

إيه.. نعم ولن تستطيع قوة أن تمنع هذا. مخدرات، ضبط مخدرات. هل هذا ممنوع؟ أبدا. أنها جنحة من الاف الجنح التى تحدث كل يوم.

ولن تعرف القيادة البريطانية شيئا قبل النشر.

..وربما لا تعرف شيئا إلا بعد بصعة أيام، تكون الفضيحة قد لفت الدنيا.

وستعرف الدنيا يا عصفور الجنة حقيقة هؤلاء المتمدنين، من المهربين!

وتصبح المسألة أبعد من المدى السياسى. ستصبح مسألة أخلاق يا عصفور.

فهمت يا عصفور. هل فهمت؟

لكن أين الدكتور اسماعيل يا عصفور؟

غاب ... وأنت تصفر، وتغنى!

صحيح إن غاب القط، العب يا فار!!

على كل حال يا عم، اعمل ما بدا لك!!

آ...! هناك مأمورية مهمة يا عصفور. لابد انه انشغل بها. أنا أعرفه، وأعرف انه رجل دقيق، ولا ينسى شيئا.

هل تريد أن تعرفها؟

اسمع يا سيدى. سؤال :

من الذى سيرتب الاحتفال فى عزبة الخواجة جورج بسطورس خرايللو البحراوى؟

أنت؟! أم لا بد من شخص يتولى هذا؟ يشترى المأكولات والمشروبات، ويرتب الزينات ويعد الانوار، ويأتى بكل اللوازم. ثم لابد من وجود طباخين وسفرجية وعدد من الخدم والخفراء.

لابد من إعداد كل شئ، الا لن يجد الضيوف شيئا يغريهم بالبقاء.

والدكتور اسماعيل يعرف كل هذه التفصيلات، وهو ممن يؤمنون إلا يرجئ عمل اليوم إلى الغد.

لكن إلا تقول لى يا عصفور : أين الدكتور اسماعيل؟

إنى لم أعد أطيق الصبر، والانتظار يقلقنى.

...اسمع! أنصت معى يا عصفور!

هذه خطواته. إنى أعرفها من بين خطوات الناس جميعا. منتظمة ثابتة تؤكد مسيرها على الطريق. والدكتور اسماعيل. انه هو...لقد أقبل أخيرا يا عمى ولم يعد هناك داع لأن تتحكم فى!

●●●

ـ كم سيكون عدد قوتك؟

ـ كلهم سيكونون هناك، وعلى أتم استعداد.

ـ وأنت ستذهب، أم ستبقى؟

ـ سأكون فى مهمة فى الاسكندرية، ليسهل على أن أكون هناك.

ـ وعبد الرحمن؟

ـ استقدم عددا من الزملاء، على انهم مرشدون، يستعين بهم البوليس؟

ـ والآخرون؟

ـ سيكونون موزعين فى الحقول حول القرية.

ـ والبضاعة. هل نقلت أم تتركون ذلك للمصادفات؟

ـ نقلت كلها إلى القرية. لم يكن ذلك سهلا على كل حال، لأن الخواجة يتحفظ عليها ويحافظ عليها بأسنانه.

ـ لكنها نقلت.

ـ نعم.. ونقلت معها أشياء أخرى.

ـ أشياء أخرى من الممنوعات أو المهربات؟

ـ أسلحة مسروقة. مواد تموين. ملابس. أغطية. أشياء كثيرة جدا.

ـ ولم تجدوا خرائط؟ لم تهتموا بالخرائط؟!

ـ وجدناها يا ريس، والبركة فى تعليماتك.

ـ وكيف عثرتم على المطلوب؟

ـ ستيفن أتى بها. لكنه قام بمغامرة خطيرة جدا.

ـ كيف تم ذلك؟

ـ لبس ملابس البوليس الحربى الإنجليزى، واستعمل موتوسيكلا من المخزون عندنا، وذهب إلى القيادة فى عز الظهر.

ودخل "بلا احم ولا دستور" وأخذ عددا من الخرائط، ولفها فى عناية، وعاد بها سليما إلينا. ساعة زمن! لم تستغرق المسألة إلا ساعة، وقلب كالحديد!

ـ وإيمان بالعمل الذى يؤديه، حتى لترخص أية تضحية أمام هذا الإيمان. كان يمكن أن يضبط، ليحاكم، ويعدم. لكن ذلك لم يهمه.وأين وضعتم الخرائط؟ وهل روجعت أولا؟

ـ طبعا يا ريس روجعت. أنها تمثل القوات المتصارعة على صحراء مصر الغربية، كما تمثل المواقع العسكرية الهامة فى أرض مصر. وقد وضعناها فى العزبة، فى مخبأ ليس سهلا أن تمتد إليه الأيدى. لابد أن يبدو كل شئ طبيعيا.

ـ والأكل والشرب وترتيبات الاحتفال؟

ـ كلها فى الطريق. كلفت بها الست قمر.

ـ وحدها؟ أليس معها من يعاونها؟

ـ إننا ستدبر الأمر، وسترتب كل شئ.

ـ بعيدا عن الباشمهندس؟

ـ الباشمهندس يعلم، ويتمنى أن يشارك، لولا أننا نطلب إليه أن يبتعد.

ـ كفى ناجى أخوه. ولد ممتاز هذا الضابط الصغير.

ـ انه صقر ايتاى البارود.

ـ صحيح صقر ايتاى البارود. نظرته هادئة، لكن فاحصة ودقيقة.

ـ إن عبد الرحمن يعتمدا عليه تماما.

ـ ولعلهم أن يحتاطوا، فإن من المهم ألا ينكشفوا لأحد.

ـ اطمئن يا "ريِّس". انهم جميعا ممتازون.

ـ والخواجة يا دكتور ..من سيتولى أمره؟

ـ مبروك الحنطور.

ـ وكيف تم التدبير؟

ـ أليس من أتباع المعلمة وردة النقرزان؟ أليس من أصحاب المولد؟

ـ المولد ووردة!

ـ والخواجة جار، وزميلها؟

ـ جار من وزميل من؟

ـ جار المعلمة وردة وزميله. أليسا أصحاب مقاهى فى منطقة واحدة؟

ـ فهمت ..فهمت...

ـ والواجب يقضى على المعلمة أن تدعو الخواجة للمولد.

ـ والخواجة سيعتذر.

ـ وسيذهب مبروك الحنطور، يحلف عليه بأغلظ الإيمان أن يصحبه إلى مصر والا فإن المعلمة لن تكتمل فرحتها بالمولد...أبدا.

ـ وسيلبى؟!

ـ لابد أن يلبى. المعلمة تريد هنا.

ـ ومبروك ينفذ.

ـ ولو على رقبته.

ـ لكن من منكم تولى المعلمة، وأقنعها بأن تدعو الخواجة.

ـ أولاد المنيرة من زملائنا.

ـ وسيكون على أن أقيم حضرة كبيرة للمريدين، ثم أختفى فى خلوة.

ـ وتتسلل من الخلوة إلينا، فى زيك العسكرى.

ـ ومؤنس وأديب سيكونان هناك على طريق المعاهدة.

ـ يرشدان السيارات، وينظمان حركة المرور، بزيهما العسكرى الإنجليزى. وكلاهما يتكلم الإنجليزية. لايهم انهما من الهند والصومال فالجيش الإنجليزى فيه كل الجنسيات.

ـ وستيفن سيكون فى العزبة.

ـ يرتب لهم شئونهم، وينظم وقوف السيارات.

ـ فان سألوا عن الخواجة؟

ـ سيجدون الإجابة.. جاهزة. سيحضر حالا.

ـ ولن يحضر ...الا فى اللحظة المحددة.

ـ وستدير الخمر رءوسهم. فينسون الضيافة والمضيف.

ـ لكن المضيف سيعود ليجد المفاجأة المذهلة.



وسكت ممدوح وقد شرد إلى بعيد، ثم هز رأسه فى هدوء، وهو ينظر للعصفور كأنما يتحدث إليه بشئ كأنه السر لا يعرفه أحد سواهما.

ثم قال ممدوح للدكتور اسماعيل :

ـ لعل الأمر يكون الآن واضحا لك ولزملائك يا دكتور. ولعلهم أن يبلغوا زملاءهم جميعا بما دار بيننا من المناقشة والحديث. إنى حريص كل الحرص على أن يكون ذلك جليا تماما. أننا لسنا قتله ولا سفاحين. إننا وطنيون، نعمل لهدف واضح معروف، وكل تصرف من تصرفاتنا أو عمل من أعمالنا يجب أن يؤدى إلى هذا الهدف، والا نكون قد انحرفنا عن الطريق. وعندما نقتل جنود الاحتلال، فنحن لا نقصد هؤلاء الجنود، ولا القتل فى ذاته، وإنما نحن نقصد الاحتلال نفسه، ونحارب الفكرة، ونهدد المصالح التى تتخذ هذا السبيل. والمعركة التى سنخوضها، ونهدف من ورائها أن نقضى على أكبر عدد

من الجنود والضباط، أن نكشفهم للناس، يجب أن تكون مفهومة لنا، ولكل الزملاء، وللأمة، وللإنجليز أنفسهم. أنها ليست مذبحة كمذبحة المماليك ولا نحن أصحاب مصالح نؤمنها بالقضاء على منافسين، كما فعل محمد على. أبدا نريد أن نقيم للدنيا الدليل على أننا لسنا أمة مغشوشة، لكنها مغلوبة. إننا نريد الاستقلال، ونعرف القيود التى تحول بيننا وبين تحقيق أمانينا. ولن نترك الأمر لعدونا يصوره للعالم بالصورة التى يريد، ليكسب من ورائها ما يريد. يجب أن يدرك هو، ويدرك معه العالم كله، أن وجود الاحتلال قد صار كريها بغيضا، وأن الأمة المصرية قد قررت أن تجعل حياة جنود الاحتلال أثقل من الموت، ولن يخدعها الوعيد ولا التهديد. وكل الفتن والمؤامرات المسبوكة التى تتوهم بريطانيا أنها ستطيل بقاءها هنا، يجب أن تتكشف لها وللناس. يجب أن تدرك بريطانيا أننا نعرف هذه الألاعيب وأننا كبرنا على هذا الخداع.

وأخذ ممدوح يضرب كفا بكف وهو يقول :

- السفير البريطانى حملوه على الأعناق!

سفير بريطانيا العظمى فى مصر، يهتفون له فى فناء مجلس الوزراء!! أى خداع، وأى غرور؟

من أجل هذا يجب أن تتم العملية على أكمل وجه لنرد عليهم بالفم الملئ بأننا ندرك اللعبة، ولم نخدع بما يدبرون.

لقد استغلوا الموقف استغلالا غريبا. ونشروا صورة سفيرهم وهو محمول على أعناق المصريين على أوسع نطاق. انهم يريدون أن يقولوا للناس أن المصريين يحبوننا، وانهم يريدون بقاءنا وأنهم متمسكون بوجودنا وانهم يهتفون بحياتنا وانهم يحملون سفيرنا على أعناق شباب الجامعة، فى مجلس الوزراء !!

تصور يا دكتور اسماعيل!

إن هذه اللعبة المكشوفة القذرة، يجب أن تجد الرد الحاسم الذى لا يقبل الجدل ولا المناقشة.

وشرد ممدوح قليلا، وأخذ يهز رأسه للعصفور ثم قال :

- لكنا أعطيناهم السلاح. أننا مسئولون عما حدث والأصوات التى ترددت فى سذاجة تقول إلى الأمام يا روميل، قد كانت سلاحهم الذى استعمله ضدنا.

- هل تعرف يا دكتور؟ إنى أعترف لهم بأن تدبيرهم كان متقنا وبارعا.

لعبوا اللعبة بذكاء. صحيح انهم لعبوها علينا، وبنا. لكنها لعبه مدروسة وذكية والبركة فى إخوان الحرية.

وقال الدكتور اسماعيل :

- لكن ربما كان دور إخوان الحرية فى هذا ضئيلا. وربما لم يكن لهم دور على الإطلاق.

قال ممدوح :

يا ساذج يا دكتور إسماعيل. كيف تتصور أن دور إخوان الحرية فى هذا التدبير ضئيل أو انهم منه براء. يا رجل!!



وأخذ ممدوح يشرح للدكتور إسماعيل :

لقد اشترك إخوان الحرية فى حملة تهيئة كبرى. هيئوا نفسية الجماهير لهذا الموقف، وساعدهم انهم جماعة تحميها السلطة، وأنها غير خاضعة للرقباء والجواسيس. طبعا كونوها، ونشروها فى كل حى من الأحياء الوطنية، وطلبوا منها طلبا واحدا بسيطا جدا : الكلام!! جمعية لها مقر فى كل حى، ولها أعضاء، ولها نظام. وليس عليها إلا أن تتكلم !! وكم كان هذا موضع سخرية أولاد بلدنا. إلا تذكر يا الدكتور اسماعيل، أم أنك نسيت؟ إلا تذكر الشيخ حسن رويتر. رجل بسيط من الظرفاء، فقير وعلى قد حاله. لكنهم ذهبوا إليه ليضموه إلى الجمعية.

ـ يا ناس. ابعدوا عنى. أنا لا أصلح لجمعيات.

ـ ألست حرا، تحب الحرية؟

ـ سيد الأحرار.. كله إلا هذا. أنا أموت فى الحرية.

ـ وهى جمعية إخوان الحرية.

ـ لكن ماذا يكون عملى فيها؟

ـ تتكلم!!

وضحك الشيخ حسن حتى انحبس صوته من كثرة ما ضحك، ثم قال :

ـ نعم؟.. ماذا تقولون؟ أتكلم؟!

ـ نعم. كل المطلوب أن تتكلم.

ـ هل كل عمل الجمعية أن تتكلم؟

ـ آ... ! هل هذا غريب؟

وعاد الشيخ حسن رويتر يضحك من قلبه. ثم قال :

ـ أنا أبو الكلام. أنا الشيخ حسس رويتر. تعرفون من سمانى رويتر؟

ـ كل الناس تعرف لك هذا الاسم. لكن لا تعرف من أطلقه عليك.

ـ وأنا كالناس، لا أعرف!!

وعاد يضحك ضحكا شديدا.

إن الشيخ حسن رجل محبوب من الناس. من ظرفاء المجتمع، شديد الاتصال بالناس، كثير المعارف، قريب جدا من قلوب عدد كبير من الأدباء والشعراء والفنانين. وهو ينقل أخبار الناس من هنا إلى هناك. ويقول الشيخ حسن انه لا ينقل إلا الخير، أما الأنباء السيئة أو التى تؤدى إلى وقيعة، فلا... أعوذ بالله !

وقد أطلق عليه أصدقاؤه اسم رويتر، فأصبح معروفا فى القاهرة بهذا الاسم : الشيخ حسن رويتر. حتى هو نفسه كاد ينسى اسمه الأصلى ولم يعد يذكر لنفسه إلا هذا الاسم. وعندما ذهب فى أول الحرب ليستخرج بطاقة تموين، كتب اسمه : الشيخ حسن رويتر.

وقال موظف التموين : اسمك الشيخ حسن رويتر؟

قال الشيخ حسن : نعم. اسمى رويتر.

قال الموظف : وما جنسيتك؟

قال الشيخ حسن : الشيخ حسن، ماذا يكون؟ أمريكانى، مصرى يا رجل.

قال الموظف : لكن رويتر هذه!!

قال الشيخ حسن : سمونى رويتر. كل الناس يعرفوننى بهذا الاسم.

قال الموظف : من فضلك تكتب اسمك من واقع شهادة ميلادك.

ورفض الشيخ حسن هذا وهو يصيح فى الموظف :

- يا راجل والله البقال لن يصدق أنها بطاقتى. أنا الشيخ حسن رويتر.

ولن يصرفوا لى التموين إلا بهذا الاسم، فلماذا تعقدها؟

واستخرج الشيخ حسن البطاقة على أنه الشيخ حسن رويتر.

وللشيخ حسن من النكات والروايات، ما يتندر به أصدقاؤه، وهم معجبون به، وبخفة دمه وذكائه.

قال الشيخ حسن لمندوبى جميعة أنصار الحرية :

ـ أنتم تريدون منى أن أتكلم؟

ـ نعم. هذا سيكون عملك.

ـ وماذا أعمل طول حياتى، إلا الكلام؟

ـ نعم، ولكن يجب أن تتكلم كلاما معينا.

ـ كلاما معينا!! مثل ماذا؟

ـ كلام عن الحرب، وقوة، وأن الألمان سيخسرون.

ـ تبشيرا.. يعنى تبشير!! دعاية!!

ـ لا.. ليس هذا تماما. لكن.

ـ لكن ماذا؟ هذا دعاية. فاذا لم يعجبنى هذا الكلام؟

ـ قل كلاما آخر يعجبك، لكن بنفس المعنى.

ـ فاذا لم يعجبنى المعنى؟

ـ لا لا..لا يا شيخ حسن. يجب أن يعجبك.

ـ آ..!! عرفت الآن. لكن ما اسم الجمعية؟

ـ إخوان الحرية.

ـ إخوان الحرية!!

وعاد الشيخ حسن يضحك، لكن فى سخرية! ثم قال :

ـ أبدع من هذه الحرية، لا يمكن!!

ـ وستقول نكتا كذلك.

ـ نكت. الجمعية كذلك توزع نكتا؟!

ـ طبعا. نكت خفيفة الظل جدا.

ـ لا ياعم. النكت لا توزع، والناس لا يضحكون بالامر.

ـ لماذا تبادر بالحكم على أشياء قد تكون ظريفة.

ـ يفتح الله. أنا لا أريد جمعيتكم.

ـ سندفع لك مبلغا كبيرا.

ـ كم ... مثلا؟ خمسة جنيهات؟

ـ بل عشرون! سندفع لك عشرين جنيها كل شهر.

ـ يا نهار أسود! أتكلم بعشرين جنيه كل شهر !! هذا أغلى من الراديو! المذيع نفسه لا يأخذ عشرين جنيها!

ـ لتعرف أننا نحبك ونقدرك.

وفكر الشيخ حسن رويتر قليلا وقال لنفسه :

ـ وماذا ستخسر يا ولد. تكلم!! هل الكلام حرام؟

وقبل الشيخ حسن رويتر الانضمام إلى الجمعية، لكنه استعمل الجمعية مادة جديدة لنكاته ورواياته.

كان يقول لأصدقائه :

اسمعوا. الكلام الآتى خطبة. كلام ميرى من الجمعية.

ويأخذ شكلا مضحكا وهو يقول :

هتلر سيموت بالسكتة. أى والله. رجل مريض بالقلب، ومجنون.. ويوم أن يموت هتلر، ستموت ألمانيا! وروميل كذلك مريض، لكن بالطحال! وروميل أعوذ بالله من روميل، هذا ثعلب من غير ذيل!

وبعد هذا يبدأ الشيخ حسن يسخر من الجمعية سخرية شديدة.

ثم يكتب للجمعية تقريرا يقول فيه انه أذاع ما طلب إليه فى مقاهى البلد، وأن الناس اقتنعت، وبدأت تكره الألمان وتخاف دخولهم مصر لقسوتهم.

وعندما طلبت الجمعية من أعضائها أن تذيع بين طلبة الجامعة دعاية لروميل أذاع الشيخ حسن السر.

قال لأصدقائه :

ـ انهم مجانين. الانجليز مجانين. تصوروا انهم يريدون من أعضاء الجمعية أن ينشروا بين طلبة الجامعة دعاية لروميل. هذا شئ غريب.

وخدع الطلبة فخرجوا فى مظاهرات يهتفون : تقدم يا روميل.

وفجأة تدخل بالقوة، ليفرضوا الحكومة التى يريدونها، وقد عمدوا إلى فرض حكومة شعبية، ذات أغلبية كبرى، ليضمنوا ولاء الشعب لها.

وكانت مؤامرة محبوكة الأطراف يا دكتور إسماعيل.

عملاء القصر استغلوا خوف الملك من الأغلبية، فأغروه بالرفض والعناد.

ورجال الاحزاب اشتركوا فى المؤامرة ليحققوا رغبة من ناحية ويحققوا فى الوقت نفسه أهدافهم الحزبية، بطعن حزب الأغلبية بأنه حزب إنجليزى، يطالب بعودته بالقوة.

وحزب الأغلبية لم يعبأ بكل هذا، فكل ما يهمه أن يعود إلى الحكم وهو كفيل بعد ذلك باقناع الجماهير بسلامة موقفه.

وجماعة إخوان الحرية وراء كل هذا بالكلام..والنكات... والروايات حتى إذا ما حققت هذه الأسلحة أغراضها، عادت تغير النغمة، وتذيع كلاما آخر.

لم يعد هناك سبب للحديث عن روميل، ولا عن الدعاية له.

لم يعد هناك سبب للمطالبة بالألمان، ليؤدبوا المستعمرين.

لم يعد هناك سبب للهتاف بحياة روميل، ودعوته إلى أن يتقدم لطرد.

...كانوا يريدون مبررا للتدخل، وهم أذكياء فى خلق المبررات.

ضربوا الإسكندرية بمبرر!

ونكلوا بأهل دنشواى بمبرر!

وطردوا جيش مصر من السودان بمبرر!

وهم اليوم يفرضون الحكومة التى يريدون ...بمبرر!

والمبرر عندهم لا يهم. مرة يكون حمَّارا يعتدى على عسكرى من عساكرهم! ومرة يكون فلاحا يمنع واحدا من رجالهم من صيد الحمام، وقد يصل المبرر إلى التضحية بأحد رجالهم أو أحد قادتهم، لتحقيق مصلحة من مصالحهم. لقد قتلوا السردار يا دكتور ليطردوا سعد باشا من الحكومة، واليوم قامروا مقامرة خطيرة فنشروا دعاية ضد قواتهم، وحرضوا الطلبة الأبرياء على الهتاف ضدهم، ليتدخلوا هذا التدخل السافر، ويفرضوا حكومة تحمى ظهورهم أثناء الحرب.

المسألة كلها أن يجدوا لتصرفاتهم المبرر.

الاحتلال بمبرر! والاستعباد بمبرر! وامتصاص الدماء بمبرر! والقتل بالجملة بمبرر !

العمل نفسه لا يهم، إنما المهم هو أن يكون للعمل مبرر!

والذين خرجوا يهتفون، لا يعرفون، ولا يدركون!

هل كانوا يطالبون باحتلال ألمانى، بديلا من الاحتلال البريطانى؟ لقد كانوا يريدون طرد الاحتلال، بأية وسيلة من الوسائل.

جنسية الاحتلال لا تغير عند الوطنيين النظرة إليه، ولا العمل ضده.

وسواء كان هذا الاحتلال انجليزيا أو ألمانيا، فهو احتلال، وسيعمل الوطنيون دائما على مطاردته حتى يرحل عن البلاد.

لكن أرادوا أن يفهموا الدنيا أن هذه المظاهرات تطالب الألمان بأن يحتلوا مصر! وهم يعرفون انهم يكذبون! لكنه المبرر، يحلل كل حرام !

والآن وقد انتهى كل شئ، فان إخوان الحرية عادوا يرددون النغمة القديمة عن قوة بريطانيا وعظمتها وديموقراطيتها وعدالتها.

يرددون هذا الكلام والنشرات والنكات، والمكافآت !

وعندما لعبوا لعبتهم، فحملوا السفير على الأعناق، رددت جماعة إخوان الحرية كلاما لا أول ولا آخر، عن صداقة الشعبين، والثقة التى تربط الشعبين.

والشيخ حسن رويتر يروح ويجئ، على كل قهوة، ويتحدث مع كل من يلقى وهو يكتم ضحكات السخرية من كل ما يذيعون!

- تصوروا أننا غيرنا ديانتنا؟

- كيف هذا يا شيخ حسن؟

- أصبحنا كاثوليك!!

- كاثوليك!

- نعم صرنا كاثوليكيا. لم نرض حتى بأن نكون أرثوذكس! كإخواننا الأقباط، بل صرنا كاثوليك.

- يا شيخ حسن! لماذا؟

- لنتزوج بريطانيا.

- من الذى يتزوج؟.. ويتزوج من؟

- نحن نتزوج بريطانيا.

- أهى نكتة جديدة؟

- أبدا..بل حقيقة يا أولاد.

- حقيقة!...من قال هذا؟

- كلهم يقولون هذا. الوزراء والساسة والعسكريون.

- لكن لماذا؟

ـ حتى يكون زواجا أبديا كالخناق، بلا طلاق.

وعندما يهم السامعون بالضحك، يصيح الشيخ حسن فى السامعين :

ـ تضحكون يا غنم.. اضحكوا كما تشاءون، لكنكم ستتزوجون من بريطانيا.

ـ يا رجل دع هذا الكلام الفارغ وحدثنا عن أشياء أفيد وأجدى.

ـ على كل حال أنا أقبض على هذا الكلام عشرين جنيها كل شهر، والمفروض أن أقوله ولا أفسره. وذنبكم على جنبكم.

ـ والله هذا كلام مجانين. نحن نتزوج بريطانيا؟

ـ لا تريدون! إذاً بريطانيا تتزوجكم! اسمعوا كلامى يا أولاد، واستعدوا للفرح، حتى لا تفاجئوا بأشياء لا قبل لكم بها. ستدفعون المهر والشبكة وتكاليف باهظة للفرح. العروس بنت ناس أكابر، ولا يجوز أن تتزوج بغير أن تكون الظروف مهيأة وبغير أن يدفع العريس دم قلبه.

ـ العريس!! العريس مفلس، لا يملك شيئا.

ـ وتقولون كلام مجانين!! العريس مفلس.. ولماذا لم تهرب العروس منذ سبعين عاما؟! لأنها وفية، وشريفة، وميتة فى هواه؟! أنا المجنون أم أنتم المجانين!!



على كل حال يا دكتور إسماعيل. شد حيلك.

لقد آن الأوان لنرد على، ونفضح حيلهم.

سنرد على المؤامرة الخبيثة التى شربناها!!

وسنرد على حمل المندوب السامى على الأعناق!

سنرد على شرف التاج البريطانى، الذى يتجر علنا فى المخدرات!

سنكشف الانجليز لأنفسهم وللدنيا، وللشيخ حسن رويتر.

... نلتقى هناك إذاً يا دكتور اسماعيل...فى عزية الخواجة جورج بسطورس خرايللو البحراوى.



وعندما التقى ممدوح ومديحة، أخذ يروى لها الترتيب الموضوع، ويؤكد لها أن كل شئ محسوب، وأن المعركة ستهز الاحتلال البريطانى لا جدال.

- سنفضحه يا مديحة. سنكشفه. سنجعله نكتة فى الأفواه.

- ليتك حى لتسمع ..يا زوجى الحبيب. ليتك حى لترى بنفسك كيف يمضى ركبك فى الطريق الذى مهدته بعرقك وبطولاتك.

- لو انه حى، لقادنا هو فى طريق الكفاح. بل انه ليقودنا وهو ميت.

- لا تقل "ميت" يا ممدوح. جلال حى.. جلال أكثر حياة من الأحياء.

- نعم حى. حى فيك أنت يا بطة. حى فى ذكرى عمى عبد الغفار وكل الشهداء الأبطال.

- وحى فى هذا الصغير البرئ " أبو عوف".

- وحى فى هذا المنبر الذى يطل منه علينا.

وانحنت مديحة تقبل صغيرها، وهى فى الحقيقة، تخفى عن ممدوح دمعة تنحدر من عينيها.

ولقد كانت الحضرة التى أقامها الشيخ عبد الرءوف يومذاك فى المسجد رائعة.

أقبل عليها أهل البلد جميعا فى فرحة غامرة، وأقبل عليها كذلك عدد من المريدين الغرباء.

وصفت النفوس حتى شفت.

وصفت الضمائر حتى خفت.

وصفت الاجسام حتى كادت من الروحانية تطير.

.. والشيخ "عبد الرءوف" مسبل عينيه فى تقوى. تهتز ذقنه الطويلة البيضاء، ويتحرك كفاه ليصفق لهذا العدد الكبير، تصفيقة تلو تصفيقة، هادئة رتيبة متزنة مؤمنة.

وأخذ المريدون بهذا الصفاء، فتعالت صيحات بعضهم، وارتفعت دعوات البعض الآخر، وشقت ابتهالات المبتهلين عنان السماء. وترددت بين جدران المسجد نداءات لسيدى الذكيرى، وللشيخ "أبو عوف"، وللشيخ عبد الرءوف.

وتجمع خلف الحضرة عدد من النساء، شاركن الجمع فى ذكر الله، وبعض الأناشيد، لكن فى همس. إن صوت المرأة عورة. نعم ولا يجوز أن يرتفع فيصل إلى آذان الرجال، فيصرفهم عما هم فيه من التقوى، إلى ما فى الصوت من النعومة والليونة ..والاغراء.

لكن أصوات النساء كانت تنادى الشيخة تفيدة فى حب، وفى إيمان، إلى جوار من تنادى من المشايخ أولياء الله الصالحين.

وعندما انتهت الحضرة، جلس الرجال حول الشيخ يسبحون الله ويحمدونه على نعمائه. ثم أخذ الشيخ يتلو عليهم بعض النصائح، ويرشدهم إلى الطريق السليم الذى يوصلهم إلى مرضاة الله.

وبعد أن فرغ، أبى الرجال أن يتركوه.

وبدأ القلق يساوره، خشية أن يستمر حصار الرجال له، فلا يستطيع مغادرة المكان.

قال الشيخ انه يشعر انه يريد أن يزور الآن سيدى الذكيرى، فالجو جميل والنفوس صافية، وزيارة شيخنا الذكيرى وشيخنا "أبو عوف" واجبة.

وكان ذلك عند الرجال نوعا من النفحة الطيبة، النادرة، فارتفعت صيحاتهم بالتكبير، وأحاطوا بالشيخ والتفوا حوله ليصاحبوه فى هذه الزيارة المبروكة.

وأصبحت الحلقة موكبا يطوف بطرقات القرية إلى ضريح سيدى الذكيرى.



واحد فقط، قد كان يراقب الموكب من بعيد، ويتأهب لعمل سريع.

عند الساقية، على جسر الرياح. كان أبو المكارم واقفا يطل على الموكب ليكون كل شئ معدا، عندما يأتى إليه الشيخ.

وكان أبوالمكارم قلقا، ينظر إلى السماء من يمين، ثم يطل على النجوم من شمال، ليتبين الوقت، ويعرف بالتحديد هل تأخر الشيخ، أو أن فى الوقت متسعا لا يزال.

وعندما وصل الموكب إلى القرافة دخل الشيخ عبد الرءوف فزار ضريح سيدى الذكيرى. ثم قصد إلى قبر الشيخ "أبو عوف"، حيث وقف عنده لحظات مغمضا عينيه.

وشعر أن جلال ماثل أمامه يخاطبه ويوصيه بأن يكون يقظا حتى لا تفلت منه هذه الفرصة. بل ولقد أحس أن يده تمتد إليه من العالم المجهول، لتشد على يده تشجعه وتحثه على قتال طويل ثقيل لا ينتهى.

وكاد يرد عليه، لكنه أمسك نفسه، حتى لا يلاحظ أحد عليه شيئا.

وفى طريقه إلى خلوة إلى جوار ضريح سيدى الذكيرى، مر بها، جالسة أمام الخص. وتبادل معها نظرة عاجلة ...ثم مضى.

وتفرق الناس، بعضهم دخل الضريح، وبعضهم جلس أمام قبر الشيخ "أبو عوف" وبعض ثالث تفرق حول قبور أقاربهم، يزورون، ويتذكرون، وتبتل عيونهم بدموع ترطب الشوق، وتغسل الأحزان.

وبينما كل منصرف إلى نفسه، وإلى ذكرياته، اختفى الشيخ. وانحدر فى سرعة إلى الحقول، ومضى كالسر إلى الساقية.

وكان أبو المكارم فى الانتظار، قد كاد القلق أن يمزقه.

وسحبه من يده فى سرعة وأخذه إلى شجرة الصفصاف، وبينما كان يناوله ملابسه العسكرية، مد يده إليه يتسلم منه الجبة والقفطان والعمامة والمسبحة. ثم ناوله سلاحه

والذخيرة اللازمة، وأخذه بين ذراعيه، فى حضنه، وقبله ومسح على رأسه وربت على كتفيه ... ورفع يديه إلى السماء يدعو الله أن يحميه.

وتحول الشيخ الجليل إلى شاب خفيف، لولا عاهته، لكان ماردا يقطع الطريق إلى غايته وثبا، لا ينى، ولا يتوقف!

الشيخ التقى الورع، أصبح جنديا مقاتلا فى صفوف الحلفاء!

ومدفع فوق كتفه وذخيرة رهيبة حول وسطه ..وشرر يتطاير من عينيه.



لكنه إنسان ... أى والله إنسان.

لقد رآها ذاهبة إلى المحطة فى هذا الوقت المتأخر من الليل، ولم يكن معها إلا ابنها الصغير توفيق.

خضرة. أنها خضرة الحلوة الجميلة، ذات العيون الناعسة.

وشعر فجأة أن قلبه قد بدأ يتحرك نحوها.

وكاد يقفز إليها، يحيطها بذراعيه، يحيمها من الليل والظلام والوحدة.

.. لكن ماذا تراه يصيبها، ومن ستظنك، فى هذا الوقت من الليل، وعلى كتفك مدفع رشاش؟

ثم ابنها هذا الصغير، وما قد يصيبه من الجزع والهلع!

..لا لا. بل تتركها، وتمضى من بعيد تتأملها.

وتترك المهمة الخطيرة التى عشت لها طيلة الشهور الماضية!

والدكتور إسماعيل، والضابط عبد الرحمن، والضابط الناشئ ناجى، وما ينطوى عليه قلبه من الحماسة والاندفاع؟

والصحفيون الذين اتفق معهم الضابط عبد الرحمن؟

ورجال إدارة مكافحة المخدرات، من عساكر وضباط ومخبرين؟

زملاؤك السابقون فى قوات الاحتلال الذين تفرقوا فى مدخل العزبة، وفى داخلها، بملابسهم الرسمية مثلك، يؤدون واجبهم كأنهم جنود فى البوليس الحربى البريطانى؟

كل هؤلاء ينتظرونك لتدير الهجوم على هذه القوات المخمورة.

وكميات الحشيش والأفيون والهيروين؟

والسلاح المهرب من قوات الاحتلال؟

ومنشورات جمعية أيوكا الإرهابية؟

كل هذا تتركه؟ تتخلى عنه؟

وابتسم لنفسه، وهو يسخر من هواجسه، وهو يرد على نفسه بأن قوة ما لن تمنعه أو تحول بينه وبين هذا الواجب.

انه يؤديه لها. ولكل العشاق المحبين والمحرومين. انه يطلب الحرية، ليتحرر كل شئ حتى العواطف والمشاعر، وعندما يغسل يديه منهم، سيعود ليلقاها.

وانطلق إلى المحطة. وهناك وجد سيارة جيب إنجليزية فى انتظاره. فقفز إليها، وانطلقت به كالسهم، فى طريق عزبة الخواجة.

وكانت كلماته مع السائق حاسمة وسريعة :

ـ هل كل شئ على ما يرام؟

ـ نعم، على أكمل وجه.

ـ ومن على رأس قوة مكافحة المخدرات؟

ـ عدد كبير من كبار الضباط.

ـ وعبد الرحمن؟

ـ موجود . لكنه يصحب المصورين والصحفيين.

ـ وإخواننا؟..

ـ متخفون فى ملابس رجال عصابات، من تجار المخدرات.

ـ فى العزب ... بين الحقول؟

ـ نعم، وعلى الجسر، فى الشرق يرابط رجال المكافحة.

ـ والتوقيت مناسب؟

ـ طبعا . لقد أكلوا حتى امتلأوا، وشربوا حتى داخوا .

ـ كثيرون؟ هل جاء منهم كثيرون؟

ـ جدا . أكثر مما كنا نتوقع.

ـ ورتب كبيرة.

ـ من جميع الرتب، وجاء معهم كذلك مجندات.

ـ جميلات؟

ـ يا ريس! هل هذا وقته؟

ـ يا غبى. لتكون المعركة.. حلوة!

ـ سترى...ها نحن أولاء قد وصلنا .

●●●

ومر ممدوح بأول نقطة.

وأطل من النافذة فلما رأى مؤنس زميل السلاح! فى ملابسه العسكرية، ابتسم له وحياه.

ثم مر بثانى نقطة، فعاد يطل ليتبادل ابتسامة أخرى مع أديب.. الزميل الثانى. ثم نظر لزميله السائق وقال :

ـ أظن هذا يكفى والا ضبطنا متلبسين بمليون جريمة عسكرية. حتى الآن سليمة، لكن من يدرى ماذا يحدث بعد ذلك؟ ليسوا جميعا مؤنس أو أديب، ولا حتى ستيفن. إن الآخرين مجرمو حرب، جبابرة عتاة.

ونزل من السيارة، وهو يقول لصاحبه :

ـ نراك بخير ...

ومضى وكلمات صديقه ترن فى أذنيه :

ـ مع السلامة يا ممدوح. ربنا يكتب لك النصر، ونراك على خير. إن شاء الله على خير. ودائما على خير. والنبى خد بالك من نفسك. أنت خسارة يا ممدوح. أنت خسارة.

لكن بقايا الصوت تاهت فيما قابله من أصوات.

المخمورون والسفاحون، يتصايحون فى عبث ومجون، وهم يشربون، وهم يأكلون. وانهم ليطلبون المزيد، وهم يتمايلون، وستيفن لا يضن عليم بما يريدون بل يعطيهم أكثر مما يطلبون!

وكلمات السباب الرخيصة، تصدر عن كبار الضابط فى غير تحفظ!

وتصل إلى أذنيه أصوات البنات المجندات، وقد شوهها السكر، فلم تعد رقيقة ناعمة. ولا متحفظة أبية متدللة، وإنما صدرت مجروحة ممزقة صريحة، تعلن الرغبة فى غير حياء!

وبين الحين والحين، كانت أصوات تنادى على الخواجة، فما من مجيب :

ـ أين هو هذا الملعون؟

ـ ضحك علينا.

ـ أحضرت له بضائع أشنق من أجلها، لكنه هرب.

ـ والأدهى، ذلك الشئ ...أتفهم؟

ـ طبعا، وأنا أيضا أقبلت ببعضه.

ـ هل نعود به؟

ـ فإن ضبطنا فى الطريق؟

ـ ثم ثمنه. نحن نريد ثمنه.

ـ وعلينا التزامات كثيرة.

ـ للبنت الرقاصة فى كازينو سفنكس؟

ـ هُو، هُو ..وغيرها وغيرها.

ـ وأنا خسران فى القمار مبالغ لا حصر لها.

ـ وطبعا لا بد أن تدفع.

ـ والا دخلت مجلس تأديب.

ـ مجلس تأديب!..مرة واحدة!

ـ لأنى مدين بالخسائر لقائد المعسكر.

ـ يا نهار أسود.

ـ أين الخواجة الملعون؟

ـ عمل ثروة وعزبة، وكل شئ على حساب الحلفاء. من مسروقاتنا.

ـ ثم يهرب منا؟

ـ ويضعنا فى هذا الموقف العصيب؟

ـ ويحرجنا على هذه الصورة؟

ـ والله لأؤدبنه ..هذا الخواجة.

ـ إذا وجدته.

ـ إذا لم أجده اليوم، فسأجده ذات يوم.

ـ إذا عشت.

ـ يا سيدى البركة فى الهنود والصوماليين.

ـ وجزر الصين وأصدقائنا الأستراليين.

وهز ممدوح رأسه فى سخرية، وخطر له أن يطل عليهم من مخبئه، ليبصق على وجوههم جميعا.

ولكنه وجد الدكتور إسماعيل غير بعيد.

وأمسك كل منهما بيد صاحبه، وقال الدكتور إسماعيل.

ـ أظن نستعد.

ـ والخواجة ...هل حضر؟

ـ تقصد أحضر.

ـ متى يصل؟

ـ بعد دقائق.

ـ عندما يصل أول الطريق المتفرع من جسر الرياح، يبدأ الهجوم، أياكم أن يصاب بسوء ... تفسد الخطة كلها.

ـ مفهوم ... حاضر.



ولم تمض دقائق، حتى تحولت هذه المنطقة من مديرية البحيرة إلى جحيم!

فبين الحقول الخضراء، وأعواد الذرة وسنابل القمح، كان وهج النار يومض بين الحين والحين، فيخطف الأبصار!

وفى وسط الهدوء الشامل، الذى عاش حياته لا تتخلله إلا زقزقة العصافير، وارتفعت طلقات الرصاص عصبية محمومة!

وبينما كان كل شئ هنا ساكتا صامتا، كأنه الخلود! تحول فجأة إلى صخب، ترتفع فيه الصيحات، وتعلو أصوات استغاثة، وناس يسرعون مهرولين، وآخرون يبحثون لأنفسهم عن مخبأ، كأنما هى جهنم التى لا يدخلها إلا شقى كفر بنعمة الله!

.نعم وطارت الخمر من رءوس المخمورين، فلم يعودوا يلوون ألسنتهم بكلام ممطوط، ولم يعودوا يتمايلون، فيصطدمون بخيالاتهم، أو يتقصّعون، فتنثنى ظلالهم!

والجنرالات الكبار، أصحاب التيجان والصولجان، ظهروا على حقيقتهم، مجردين من النفوذ، وجنود المستعمرات، كأنهم أرانب مسلوخة!

والبنات الشقراوات، والحمراوات، قد ذهب الفزع بما فيهن من الدلال وأفقدهن الموقف ما يختزنّ من فتنة أو جمال.

هذا يوم من أيام الحساب.. يا كلاب!

نعم وهو يوم لا يشفع فيه أب عن بنيه، ولا مولود هو مغن عن أبيه، ولا مفر اليوم من الانتقام.

ذوقوا اليوم بعض العلقم الذى تزرعونه فى كل أرض تدخلون.

وادفعوا اليوم بعض الثمن ...قصاصا للأرواح التى ذهبت وتعويضا الآلاف من اليتامى والثكالى والأرامل.

..وضحك ممدوح، وطلقات مدفع سريع تتردد فى هذا الفضاء مع ضحكاته، وهو يروح ويجئ بين المذعورين بملابس الميدان، وحوله زملاؤه الثلاثة، أديب ومؤنس وستيفن.

كلهم كان يحمل مدفعا سريع الطلقات، ليجتث هؤلاء السكارى، ويقول للدنيا، اسمعى ..هكذا نحمل السفير البريطانى على الأعناق! نعم وهكذا سنحمل كل سفراء بريطانيا العظمى فى نعوش!

وفى الوقت الذى كان ممدوح ورفاقه يقومون فيه بهذا العمل السريع، كانت تتقدم إلى مبنى العزبة عدة فرق.

الخواجة يحيط به عدد من الفدائيين، ويدفعونه فى حرص إلى ضيعته التى تحولت إلى جحيم!

وقوة مكافحة المخدرات تتقدم بدورها فى حذر لتضبط هؤلاء المهربين الذين تخفوا فى ملابس الحلفاء!

وعدد من الفدائيين تخفوا فى ملابس تجار مخدرات تقدموا إلى العزبة، ليجردوا من أى سلاح، ويكتفونهم بصورة تثير الإشفاق.

والملازم ناجى سلطان ضابط نقطة إيتاى البارود، يتقدم بدوره ليؤدى الواجب الذى يحتمه الموقف.

والضابط عبد الرحمن، يتقدم عددا من المحررين ومصورى الصحف، وقد أسرعوا يصورون المعركة الرهيبة، والمهربين الفجرة الذين تخفوا فى ملابس الحلفاء مقيدين من خلاف، كالماشية!

وفى تلك اللحظات، انسل ممدوح، وزملاؤه والدكتور إسماعيل إلى جسر الرياح، إلى السيارة الجيب، فأسرعت تحملهم بعيدا عن المكان.

ومسح ممدوح عرقه، ونفض يديه من تراب المعركة، ثم بكى.

ذكر جلال فى المعتقل.

ذكر الحديث الطويل الذى سجله معه فى ليلته الأولى معه.

ثم ذكر ما أعقب ذلك من تزوير التطوع فى صفوف الحلفاء.

..لكن جلال قد كان بطلا!.. لقد انتزعه فى النهاية من براثن جلاديه ...انتزعه جثة! نعم كنت جثة يا ولد! جثة ملقاه على الطريق فى شارع قصر العينى! لكن الجثة قد بعثت، ودبت فيها حياة جديدة، لتنتقم.

وأفاق ممدوح، ليجد الدكتور إسماعيل قد أحاطه بذراعه والسيارة تعدو إلى الناحية القبلية من الطريق. والزملاء الثلاثة والآخرون ينظرون إليه فى إعجاب.

وبدأوا يقطعون هذا الصمت بحوار متعب، مكدود.

ـ هل تظنون أن العملية نجحت؟

ـ طبعا نجحت ...إلى حد مذهل لم يكن متوقعا.

ـ لا لا. دعونا من المبالغة. نحصى أولا عناصر هذا النجاح.

ـ لقد حصدناهم حصدا.

ـ ثم ماذا؟.. لسنا قتله. هذا ليس هدفا فى ذاته.

ـ الخواجة وقع وقعة سودة. سيصبح متهما بالتدبير، ثم متآمرا ضد الحلفاء لحساب أيوكا.

ـ لا بأس ... وتتطهر هذه المنطقة من استغلال رخيص عاش يطاردها ويفتك بها أجيالا ..ثم ..ماذا؟

ـ ثم أنفسهم وفضيحتهم "بجلاجل" !!

ـ آه منهم تجار المخدرات هؤلاء!

ـ وتجار الدماء! ...

ـ وتجار الحروب ... والديمقراطية!

ـ ...واخوان الحرية!

ونظر ممدوح إلى الدكتور إسماعيل، يذكره بما كان بينهما من حديث.

وعندما وصلت السيارة إلى محطة السكة الحديد، كان الفجر قد أخذ يطل على الكون الفسيح المنبسط، فنزلوا جميعا، وقال ممدوح :

ـ تذهب أنت بالسيارة ...إلى الجراج.

ـ أى جراج؟

ـ المخبأ يا غبى ...أما أنت يا دكتور فتركب قطار الفجر، لتكون فى الإسكندرية قبل طلوع النهار، وتكون فى عملك مبكرا ...ألست منتدبا فى الإسكندرية لعمل سريع وهام؟

..وشد زملاءه الثلاثة الآخرين، وهو يقول :

ـ أما هؤلاء فمعى.

قال الدكتور إسماعيل :

ـ لكن كيف؟ ..وأين؟

قال ممدوح وهو يضحك :

ـ فى الخص المهجور متسع للجميع.



وعندما ظهرت الصحف، فوجئ الناس بأخبار المهربين!

مهربون خطرون، يتخفون فى ملابس الحلفاء ... إدارة مكافحة التهريب تضبط الوكر، وأفراد العصابة متلبسين ...عدد من النساء من بين أفراد العصابة فى ملابس المجندات ...كميات هائلة من الحشيش والأفيون والهيروين كانت معدة للتوزيع ... معركة حامية بين أفراد العصابة ورجال البوليس ... عدد من القتلى بين أفراد العصابة، وإصابات بسيطة بين رجال البوليس.. الصحافة كانت معهم أثناء المعركة فى المخبأ السرى فى عزبة يملكها يونانى قرب إيتاى البارود.

وأخذ ممدوح يقرأ، ثم يترجم لزملائه المنشور فى الصحف عن الحادثة.

وكانوا يجلسون جميعا عند الساقية، وأبو المكارم يستمع إليهم، ويصفق لهم والفرحة تغمر وجهه، والساقية تدور، ويتوقف الثوران اللذان يجرانها بين الحين والحين، كأنما يريدان أن يشاركا فى الاستماع إلى ما يدور.

وقال ممدوح :

- هذه واحدة. انظروا الصور. هذا البريجادير قد كاد الخوف يقتله! وهذا الميجر يصيح من الرعب والفزع! وذاك، والآخر ..وهذه البنت الحلوة. يا خسارة! عيون مذعورة. ضاع الكحل يا كحيلة، ولم يعد فى مكانه إلا التراب!

وقال أديب بالإنجليزية :

- لكن المسالة لم تنته. القيادة لا شك ستهتم اهتماما كبيرا بالموضوع وستتصل بسلطات الأمن والمكافحة والتحقيق لتعرف التفاصيل.

قال مؤنس :

- وساعتها ستعرف كل شئ. ستعرف أن العصابة حقيقية! وأن هذه الملابس كذلك حقيقية ! وعندئذ!.. من يدرى!

قال ستيفن :

- المهم هو هذا العدد من المراسلين الأجانب. حتى المراسلون الأنباء كانوا هناك، وكانوا نشطين جدا وهم يتابعون الموضوع، ويصورون أفراد العصابة.

قال ممدوح :

- ولا شك انهم سينشرون ذلك كله فى صحفهم ...

قال ستيفن :

- هوه هوه ..ربما سبقوا صحفكم ونشروا كل شئ.

قال ممدوح :

- يا ليت! ... ربنا يسمع منك، فإنهم سيقعون فى شر أعمالهم.

وأخذ ممدوح يقول "لأبو المكارم"، والفرحة تملأ وجهه، وتطل من عينيه، وهو يدور مع الثورين حول الساقية مرة، ويجلس على حافتها وهو يحدث عمه "أبو المكارم"، ويلف

ذراعيه حول زملائه الجالسين تحت ظل الجميزة مرة ...لا يقنعه جلوس، ولا يرضيه مسير، ولا يملأ نفسه حديث. إن فرحته أكبر من هذا جميعا. انه يريد أن يطير.

أى والله يا عمى..أطير! لم لا؟ سأشرح لك. اسمح لى أشرحها لك، مرة ثانية! نعم مرة ثانية! لا تضق ذرعا بى يا عمى! سامحنى! اغفر لى هذه الخفة! اغفر لى هذا التكرار! هذه مسألة كالفزورة! هل تعرف الفوازير؟ لطالما حكيت لى منها الكثير. هذه أيضا فزورة. المسألة ليست أكثر من عملية تهريب تحت اسم معركة دنكرك، والمبلغ عنها مدفع! ناس تجار اعتادوا على أن يسموا نوع الحشيش المطبوخ فى شئ حلو كأنه الشيكولاتة، "مدافع"! وعندهم أصناف من الحشيش يتفننون فى تسميتها بأسماء يضللون بها البوليس. مرة حيدر باشا ومرة البرنس. ومرة جلالة الملك!.. كذلك عمليات التهريب لها عندهم أسماء كأن الشفرة. وقد اختاروا لهذه العملية اسم معركة دنكرك. إذاً يكون المبلغ هو مدفع!

وأخذ ممدوح يضرب كفا بكف ويقفز أمام "أبو المكارم"، وهو يهتف فى مرح : تقدم يا روميل! ها هو ذا روميل الحقيقى يتقدم يا جبناء! عملتوها وضربتم ضربتكم والآن يتقدم روميل المصرى. نحن! وسنتابعكم حتى نقضى عليكم.

وعاد ممدوح يحكى :

لقد ضبطوا متلبسين بالتهريب. والبوليس يا عمى لا يعرف عنهم إلا انهم مهربون، يتخفون فى زى الحلفاء! أولاد ملاعين. مزورون ووقحاء!

..هذه واحدة. سيظل البوليس فى تحقيق واسع عن المهربين المزورين وسيهمه أن يشجع الصحافة على التصوير، ونشر التفاصيل.

وسيستمر التفتيش فى العزبة.

وسيجدون كميات هائلة من المخدرات والمهربات.

لكنهم سيجدون كذلك المنشورات والأسلحة.

نهارك أسود يا خواجة!

ادفع مرة! عشت تأخذ وتأخذ، وتحشر فى بطنك، حتى صرت كالبالونة!.. مرة واحدة تدفع بعض ما عليك!

أيام الامتيازات كنت تكلم الناس من طرف أنفك. تزور وتدلس وتأخذ منهم ما تشاء، ثم تحتمى بالامتيازات!

وبعد الامتيازات جاءك هؤلاء الأفاقون المسلحون، تحتمى بهم، وهم يحتمون بالسلطة وبالحرب!

وتريد أن تقتلع المعلمة وردة النقرزان؟ هذا بعدك! نعم بعدك!

ها . ها! سيذهب الخواجة إلى الجحيم، لكن أهم من الخواجة أن يعرف أن الأرض التى يقفون عليها فى المنطقة كلها تهتز من تحت أقدامهم! فى اليونان، جمعية سرية إرهابية تريد اقتلاعهم! يجب أن يعرفوا أن الشعوب قد أخذت تحيط بهم من كل ناحية ...كالنار!

ستحرق جلودكم يا سادة. سيشويها الحقد عليكم والثأر منكم.

وحيثما تذهبون ستجدون النار ... سلموا أو احترقوا.

...نحن لسنا طابوراً خامسا لحساب النازى كما يشيعون يا عمى. أنت تعرف أننا نكره النازى كما نكرههم. نحن طابور خامس ضد كل محتل، وكل أفاق. ويسرنا أن يذهب النازى إلى نفس المصير الذى يذهبون هم إليه. انهم والنازى سواء. والفرق أن النازى يكشف جلده للناس، أما هؤلاء، فيسترونه بغطاء.. حرير! يوهمون به الدنيا انهم متمدينون ديمقراطيون أحرار، وهم فى الحقيقة نازى أخبث من النازى! على كل حال هذا شانهم، ولا يهمنا. المهم عندنا أن يذهبوا جميعا إلى الجحيم.

... وسكت ممدوح قليلا، ثم أخذ يضحك ضحكا طويلا وهو يقول :

فزورة والله يا عمى أبو المكارم. أليس كذلك يا صحاب؟

الصحف هنا وهناك، ستتشر كما نشرت كلاما عجبا. استنكار وسخرية من هؤلاء المهربين الفجرة.. ثم إحصاءات وأرقام عن كميات الحشيش ...كم كيلو؟ وكميات الأفيون. كم لفة؟ وكميات الهروين ... والاصناف الأخرى، وهى ممنوعه! وقد يغوى شيطان الصحافة بعضهم فيسأل كم تكفى هذه الكمية من الناس؟ وكم من الوقت يذهبون فى خيال بعيد لذيذ لا يشعرون فيه بشئ. وقد تكفى مليونا من المصريين، يخدرون لبضع دقائق! أو عدة آلاف يخدرون طول اليوم! أو ماذا؟ ثم كم نكتة يمكن أن يطلقها هؤلاء وهم مخدرون تائهون؟! كم فزورة؟! وستقول الصحف فى بريطانيا وكندا واستراليا والهند وأمريكا ربما أن هذه جريمة. جريمة لا تغتفر. إن هذه محاولة لقتل حيوية الأمة المصرية وصرفها عن الحرب، وإدراك ما حولها من الخطر. من يدرى إلى أى مدى تحملهم شياطينهم! قد يقولون أنها مؤامرة للنازى يد فيها، لتحذير الشعوب وسلب إرادتها، حتى لا تشارك فى المجهود الحربى للحلفاء.

ويضحك ممدوح حتى يكاد يستلقى على قفاه :

وماذا سيقولون عندما يكتشفون الحقيقة؟

المهربون هم هم ...الضباط الكبار، ذوو التيجان اللامعة، والرتب والنياشين؟

لا محور، ولا نازى، ولا يحزنون!

انه حشيش مضروب فى بلاد التاج البريطانى، والذين هربوه محاربون شجعان جدا!! يعملون بالليل والنهار ...لخدمة التاج البريطانى، وينظمون الصفوف لتحقيق النصر، عن طريق الحرب، والخداع، وأنصار الحرية!!

« يا دى الكسوف!!» هل يخجلون؟ هل يستحون؟ وأين يدارون وجوههم؟

طبعا يا عمى "أبو المكارم" لن يهتموا!

انهم ناس رفعت البراقع من على وجوههم، حتى صارت عارية لا تخجل من شئ! نحن نعلم هذا، لكنا سنتولى الأمر، سننشر نحن، بالعربى والإنجليزى والفرنساوى والألمانى وبكل اللغات. سننشره سرا وعلانية، وعن كل طريق، حتى عن طريق أنصار الحرية!!

ليدرك الناس حقيقة بريطانيا ...العظمى! تاجرة المخدرات! حامية الحريات والديموقراطيات !!

وفى خفة ومرح أخذ ممدوح يقول :

والصحف ..يا خبر يا أولاد! كيف ستتغير كلامها؟

هل يسمح لها بنشر الحقيقة؟ لقد نشرت عن المهربين. ثم ماذا هل تسكت بعد ذلك، "وكأنك يا أبو زيد ما غزيت"!! أم يسمح لها بالتصحيح؟ وكيف تصحح؟ تقول انه قد ثبت لها أن ذلك كله غير صحيح؟

وقعوا "أولاد الإيه" فى شر أعمالهم!

وانظر ...انظر يا عم "أبو المكارم". لا مسئولية على أحد.

نحن، ونفدنا منها كالشعرة من العجين.

وبوليس المكافحة، أدى واجبا هائلا، بعد التبليغات التى تلقاها.

وبوليس إيتاى البارود كان أمينا وحريصا على الصالح العام.

هو الخواجة!! الخواجة جروج بسطورس خرايللو البحراوى فقط هو الذى شربها حتى الثمالة!!

هو الذى دبر، وهو الذى نفذ.

طبعا أليس من جماعة أيوكا؟ بل زعيم الجماعة فى مصر، وقد توارث الزعامة أبا عن جد؟!!

لكن ليسوا أغبياء إلى هذا الحد.

قد يتكتمون، ويبلعون. لكنهم لن يغفلوا عن أن وراء هذا كله تنظيما ساعد الخواجة على تحقيق أغراض أيوكا.

وماذا سيعلمون؟ ليضربوا أدمغتهم فى الصخر! ليذهبوا إلى الشياطين الحمر! فإنهم لن يعرفوا شيئا..أبدا.

والآن يا صحاب. يا زملاء السلاح!

وأخذ ممدوح يضحك من طربه، وهو يربت على أكتافهم سعيدا مسرورا.

...عليكم الآن أن تعودوا إلى حيت تعرفون. إلى لقاء آخر، فى مهمة أكبر إن شاء الله. إن بقاءكم هنا سيضر بعمى "أبو المكارم". سيضعه موضع الشبهات، وأنتم لا ترضون! هيا انصرفوا، حتى نلتقى. كفاكم هنا ليلتين، فى هذا الجو الحالم الساحر الجميل. كفاكم أنكم زرتم قبر البطل، وسلمتم على زوجته ورفيقة كفاحه، وقبلتم ابنه الطفل البرئ. هيا عودوا إلى مخابئكم، يا أبطال. إلى قريب يا أديب! ...أراك بخير يا مؤنس!.. أما أنت يا ستيفن، فإن جزاءك كبير، فقد كشفت ناسا أنت منهم، وليس هذا سهلا على أى إنسان. ربنا سيجازيك بما تستحقه! سيحررك من جنسك!!

وأخذوا جميعا يضحكون فى سعادة ومرح.



وكانت المعلمة وردة قد عادت على عجل، عندما عرفت الأنباء.

وهناك على القهوة، كانت تجلس. وحولها عدد من الأصدقاء : المعلم مبروك الحنطور وأبو اليزيد الحمار، والفتى دياب، والرجال الذين يديرون القهوة والدكاكين وحلقة السمك. كانت تبدو متأثرة ومهمومة، وهى تسأل عن الخواجة المسكين.

وكانت تضرب كفا بكف وهى تقول : "راح بلاش" الخواجة جورج. مسكين الخواجة جورج!

نسيت المعلمة كل ما كان منه، ولم تعد تذكر إلا انه زميل وجار، وانه قد كان عندها فى ضيافتها فى المنيرة حتى قريب، عندما أقبل عليه رسول قال انه قادم إليه من البلد، يسأله أن يعود لأمر هام، فعاد على الفور، وهو يقدر أنها زوجته قد استقوفته، أو أن تكون مريضة ومحتاجة إليه.

وتلمع عينا المعلمة ببريق سريع وهى تسأل :

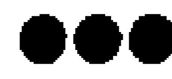
- لكن هل يعرف أحدكم هذا الرسول الذى أتاه؟

وكان ممدوح قد ارتدى ملابس صياد سمك، وجلس يحتسى الشاى فى القهوة قريباً من المعلمة، ليسمع كل ما يدور، ويستعد لدور جديد.

وهز رأسه وهو يحتسى الشاى، وكاد يضحك لاهتمام المعلمة بتوجيه السؤال وتعليقها عليه، بأن هذا الرسول يكشف اللعبة كلها.

- يمكن مظلوم. يمكن الخواجة مظلوم. نساعده يا مبروك.

لكن لا مبروك، ولا غير مبروك يعرف من كان الرسول.



وعندما همت المعلمة بالذهاب إلى مسكنها، اعترض ممدوح طريقها وهو يقول لها فى استعطاف:

- يا معلمة وردة، كل الناس تعرف عنك الخير والمعروف.

استرينى الله يستر عرضك. خذى بيدى ربنا لا يوقعك فى ضيق.

ومدت إليه يدها تشده إليها فى ود.

ثم جلست وأجلسته إلى جوارها.

وعلمت من قصته انه صياد مفلس، لا يعرف ماذا سيكون غذاؤه بعد قليل! ضاقت الدنيا فى وجهه، وتنكر له العدو والصديق، فدلوه إليها.

قالت وهى تربت على كتفه:

لا تخف. كلنا لبعض يا معلم. سأسلمك الحلقة، بشرط أن تكون رجلا شريفا. وألا تمتد إلى شئ إلا حلالا. هذا هو الشرط الوحيد، وسيكون رزقك ورزقى على المولى.. اذهب واستلم.



وأصبح ممدوح مسئولا عن حلقة السمك، والصيادين، وأم الشحات، ومحروس وخضرة!!

وكاد يرقص من طربه، فقد أصبح كل شئ على ما يرام.

سيلقاها كل صباح.

سيفتح عينيه على نور الفجر، ونور عينيها.

ستصبح حياته من اليوم كعباد الشمس، يدور مع ضوء الشمس، حيث يدور. وسيكون منها غير بعيد. لن يجرؤ واحد من اللئام على أن ينهش هذه العظام اللينة، لا عظمها ولا عظم واحد من أولادها، ولا عظم حماتها.

ياه...!! الله يخليك يا معلمة وردة. الله يطول عمرك، كما أعدت إلى عمرى الضائع. سيبدأ وجودى يصبح له معنى! نعم وسيكون هذا المعنى عميقا وصادقا وشريفا.

يا خضرة!! أين أنت والشباك، وسمك كثير يتواثب فى مرح، وقد أخذ يلمع فى ضوء الصباح، كأنه قلبان يخفقان، وقد طلع عليهما نور ...نور من السماء، من ربنا، لا يخفت، ولا يزول.

يا خضرة ...يا مديحة.

يا كل حب خلقه الله على وجه الأرض، منذ كانت الأرض، وكان آدم وحواء.

أين أنتم؟ أين أنا؟

..لنستمتع بما وهبه الله لنا..

بالحياة. بالحب. بالأمل.



١٠

وعندما اختلى ممدوح بنفسه فى حلقة السمك، شعر أن الدنيا كلها قد صارت بين يديه.

.. كل شئ، قد صار سمكا! كل الناس قد أصبحوا فى حلقة السمك، تحت طوعه وبين يديه! وهو وحده هنا صاحب الأمر والنهى!

الانجليز، وقد ذبحهم كالنعاج، ولا يزال التحقيق مستمرا، ولا تزال الصحف تنشر فضائح لم تكن تخطر لأحد على بال. وعندما أفاقت القيادة للحقيقة ارتبكت، وأصدرت بيانات مضطربة متلعثمة! وهزأ العالم، وقد تبين كيف يحارب المحور، ويتجرون فى الوقت نفسه فى الأفيون!

والمنشورات تصدر بحقائق بشعة كل يوم، فتقض مضاجع السادة فى قيادة الحلفاء، وتصيب السفير البريطانى، الذى حملوه ذات يوم على الأعناق، بدوار!

وإخوان الحرية!.. تقطعت أنفاسهم وهم يلهثون وراء أنباء سريعة جدا، لا قبل لهم بها، ولم تكن لهم على بال. كلهم خائفون ويرتعدون إلا الشيخ حسن رويتر، الذى يلهث مع اللاهثين، حتى إذا خلا إلى نفسه وإلى أصدقائه، أطلق سيلا من النكات يعوض بعضا مما أصابه من العناء، بعد هذه المفاجآت.

والخواجة موضع تحقيق واسع وخطير، وقد شمعوا محلاته، ووضعوا أملاكه تحت الحراسة، ولم يدرى من أمره شيئا. أصابه ذهول، فلم يعد قادرا على الكلام أو الطعام أو الابتسام! وكلما أمعن فى الصمت، كلما زاد المحققون شكا فيه! زعيم سياسى خطير، من

جمعية أيوكا الإرهابية! كلهم هكذا، إذا وقعوا لاذوا بالصمت، حتى لا يفتضح أمرهم لأحد!

ويشرد ممدوح قليلا، وهو يقول لنفسه :

ـ وأليس هذا كثيرا على الخواجة؟ أفما كان من الانسانية الترفق به وعدم الاسراف فى تحميله كل هذه التهم؟

لكن ممدوح يعود يقول لنفسه فى عتاب :

ـ "صعبان عليك الخواجة"؟ والفلاحون الذين دفعوا دم قلبهم "وطفحوا الكوته" طول عمرهم، وسعوا وراء الرزق الحلال، طول الليل وطول النهار، فلم يحصلوا من كدهم إلا على الجوع! ولم يبق لهم من عرقهم إلا الحرمان! هؤلاء لا "يصعبون" عليك؟! والحشيش الذى مزق صدور الأهالى، والأفيون الذى خدر أجسامهم. والتجارة المسروقة علنا، والتى انتشرت فى الناحية فى السوق السوداء. كل هذا لا يهم؟! وحرب المعلمة وردة، وتبييت النية على أذاها والتخلص منها بالكذب والافتراء. ومن يدرى كان يدبر ليقال؟ جاسوسة! طابور خامس للمحور! أى كلام لخراب بيتها. وغلق دكاكينها، والتخلص من منافستها! كل هذا لا يصعب عليك؟!

وهز ممدوح رأسه، وهو جالس وحده فى الحلقة. ثم قال لنفسه :

ـ الآن أنت معلم قد الدنيا. صياد قراميط وبلطى وبياض وسردين، وكل ما يجرى فى الماء من أسماك. فكر فى عملك الجديد. والزملاء الجدد الذين ستتقابل معهم هنا. يجب أن تكون عند حسن ظن المعلمة لقد قبلتك بلا تحفظات ولا تحريات ولا استفسارات. فتحت لك باب الرزق بالأمانة والشرف والثقة. والله تستحق كل خير. بنت بلد أصيلة المعلمة وردة النقرزان. أنها لم تسألك حتى عن اسمك.

وسكت ممدوح قليلا وهو يسأل نفسه :

● بالحق ماذا سيكون اسمك يا ولد؟.. ممدوح؟! وهذا اسم صياد سمك؟ لو انه سمك موسى أو جنبرى كان يجوز، لكنها قراميط وثعابين، تشم رائحتها من إيتاى

البارود! سيكون اسم ممدوح غريبا ومضحكا يا ممدوح. المعلم ممدوح!! غير لائق أبدا. ممدوح بيه، جائز. الأستاذ ممدوح ممكن. حتى ممدوح أفندى، مقبول بالعافية. أما المعلم ممدوح، فشاذ وغريب جدا. صياد سمك يا ناس اسمه ممدوح؟!

وأخذ يقلب أسماء مختلفة

محمود ...اسم لا بأس به، لكنه شائع جدا.

مصطفى اسم موسيقى، له رنة لطيفة، لكنه كان اسم تلميذ صاحبى، وكان بليدا جدا! محمد اسم جليل. اسم النبى صلى الله عليه وسلم، لكنى لا أعرض اسم النبى للكذب أبدا! برعى؟! أعوذ بالله! مرعى؟ ألعن! آه ..هناك اسم لا بأس به ... أى والله ويصلح كذلك صيادا، وعندما يضاف إليه لفظ المعلم يزيده هيبة. بيومى ... المعلم بيومى. هات يا معلم بيومى. خذ يا معلم بيومى. اتفضل يا معلم بيومى. لائق تماما. عرفت الآن من أكون. بيومى.

وسكت قليلا، ثم أخذ يقول لنفسه :

- كل واحد له اسم، وأنا لى ثلاثة أسماء. أى ثراء؟! عز. هذا عز! مرة ممدوح. ومرة الشيخ عبد الرءوف، ومرة بيومى. لكنك ولدت بممدوح. وما قيمة هذا؟ يعنى هو الاسم المكتوب فى الشهادة؟! يا سيدى !! الشيخ حسن رويتر، يرفض الاسم المكتوب فى الشهادة، ولو نادوه به، ما عرفه أحد! اسمك، ما يعرفك به الناس. وأنت ..يعرفونك بكل هذه الأسماء! لكن كلا منهم يعرف اسما واحدا فقط.لا لأ ... هناك من يعرفك بهذه الأسماء جميعا من؟ مديحة؟ أنها هى ايضا ذات اسمين. مديحة والشيخة تفيدة! وعمك أبو المكارم؟ هذا شئ آخر ...آخرس! والست قمر؟... هى أيضا الست قمر، وواحده مجهولة تحمل رسائل جلال إلى عباس! وجنود الحلفاء؟ كانوا منذ لحظة ارهابين ولكن فى ملابس جنود الحلفاء! والدكتور اسماعيل؟ بستين وجه هو الاخر! والضابط عبد الرحمن؟ داهية من الدواهى، لا تعرف ان كان ضابط بوليس أو مهرب مخدرات! كلهم -

ولا فرق ـ أدهى وأمر.

وبينما يشد أنفاسه، وقد استراح إلى انهم جميعا فى "الهوا سوا" إذا بشبح يتسلل إليه فى حلقة السمك.

وكان المنظر مخيفا مفزعا.

..امرأة، شعرها منكوش، فى صورة بشعة، وعيناها جاحظتان، كأنهما قد خلعتا من مقلتيها، وملابسها قذرة، وخطواتها حذرة!

وإنها لتتلفت حواليها كأنما تهرب من شئ يتعقبها.

وعندما تجده وحده فى هذا المبنى الواسع، وفى وقت الظهيرة حيث هجع الناس يستريحون تقبل عليه مستغيثة به :

ـ اخفنى. اخفنى عنهم. والنبى "تخفينى" عنهم.

ـ عن من يا ستى؟

ـ البوليس، التمرجية...ألا تراهم؟

ـ ليس هنا أحد. أنت وحدك.

ـ وتفزغ منه خوف وهى تقول له :

ـ أنت منهم. أنت لا تراهم. إذاً أنت منهم.

وأخذ يؤكد لها انه لا يعرف شيئا مما تعنى، ويصيح بها أن تهدأ، وهى تبتعد عنه خائفة منه. وكلما اقترب منها ابتعدت عنه، حتى تحول الأمر فأصبحت المسألة أقرب إلى المطاردة، وبدأ له الأمر غريبا، وخاف أن يظَن به السوء، فحاول أن يخرج من الحلقة فهجمت عليه وأمسكت به وهى تقول له :

ـ بالذمة.. بالشرف. هل أنت معهم؟ هل أنت منهم؟

ـ والله يا ستى أنا لا أعرف عن تتحدثين!!

ـ لست بوليسا؟

ـ أبدا.

ـ ولا تمرجيا؟

ـ أبدا ... أنا صياد سمك فى حالى.

ـ ولم تقتل "أدهم" ابنى؟

ـ من أنت يا ست؟

ـ أنا ست الناس..

ـ بنت الحاج سلطان؟

ـ آه ... وزوجة "أبو سريع"، وأم أدهم. أدهم الذى قتلوه.

لو أن "أبو سريع" حى لدفنهم كلهم فيه. لكنى أنا سأنتقم لابنى أدهم بدلا من "أبو سريع". قالوا عنى مجنونة، أخذونى إلى مستشفى المجاذيب، وعذبونى، لكنى هربت منهم، لأنتقم لأدهم.

ـ لكنهم سيشنقونك إذا فعلت شيئا.

ـ من هم؟ أنت مجنون.

ـ يا ست الناس. اعقلى.

ـ اعقل أنت يا مجنون.

وخرجت وهى تتلفت حول نفسها فى خوف، وتجرى فى رعب ثم تتوقف فجأة لتتطلع خلفها أو أمامها، أو لتتبين الطريق، ومن يسير على الطريق.

وأخذ ممدوح يتأملها، وهى تقطع جسر الرياح، بهذا السير المضطرب، حتى اختفت عن نظرة ، ولم يعد يرى منها إلا نقطة صغيرة، كطرف الدبوس.

ولم يضع وقتا، فمضى إلى "أبو المكارم"، فارتدى ملابس الشيخ، ودارت بينهما مناقشة سريعة مقتضبة، وعلم كل منهما من صاحبه قصة ست الناس، وعودتها الغامضة.

وهناك عند سيدى الذكيرى أخذ الشيخ عبد الرءوف، يروى للشيخة تفيدة القصة وهو لا يدرى كيف تنتهى.

قالت مديحة :

غريبة! وشيخ البلد؟

قال ممدوح :

لو رأيتها ما شككت لحظة فى أنها تنوى ارتكاب جريمة.

قالت مديحة :

لكنها تعرف قاتل ابنها. انه سيد أخوها ..وحماه ! قتل ابن أخته وزوج ابنته! اللهم لا شماتة!! إن هذا أسوأ ما يصيب الإنسان، أن يقتل بيديه، واحدا فى مكانة ابن من أبنائه. يا سأتر يا رب. اللهم احفظنا.

قال ممدوح :

من زرع الشر، جنى ..ماذا؟ لابد أن يجنى شرا مثله! ثم هذا رجل كان يحرض ابن أخته وزوج ابنته على ارتكاب جريمة، يعلم هو أنها جريمة بشعة، لأسباب كاذبة من أولها لآخرها. هل فكر فى مصير زوج بنته وابن أخته؟ هل قدر أن هذه الجريمة قد تجره إلى السجن، وربما إلى الاعدام؟ أبدا لم يهتم بهذا. كل ما كان يهمه تحقيق منافعة الخاصة، والتخلص من أم الشحات لوهم من أوهامه. إن أشد انتقام يا مديحة هو انتقام من لا يغفل ولا ينسى! لقد ذهب القاتل والمقتول، الأول فقد عقله والثانى فقد حياته.

قالت مديحة :

والآن ماذا ستفعل ست الناس؟

وجاءتها الاجابة ... "أبو المكارم" الأخرس جاءها بالإجابة. أقبل نحوها يعدو فى فزع، وهو يشير بيديه ويصيح صيحاته المعبرة، ويحكى لها، على عادته، ما سمعه منذ لحظات.

إن ست الناس، ذهبت إلى الخص المهجور، حيث اختفت وهى تتحدث حديثا غريبا :

أدهم ...كيف حالك يأدهم؟ هل أنت فى الجنة مع الأبرياء، أم فى النار، يشوون جلدك ويحطمون عظامك؟ وهل رأيت أباك؟ وجدك ؟ فى الجنة أم فى النار؟! هل تأكل يا أدهم؟ هل تشرب؟ هل تنام كما ننام؟ تريد أولا ثأرك؟! من عينى يا أدهم، لو انه أبى، ما تركته! لو كان ذلك من أقرب الناس إلى. والله يأدهم، لو انه أبى، ما تركته! دمك لن يضيع يأدهم. أنا التى ستثأر لك. بيديها. إن قاتلك جبان. هرب منى المجرم واختفى. لكن أنا وهو والزمن طويل! هل تعرف من الذى أخفاه؟ العمدة النعجة. أخى غضبان العمدة هو الذى هربه منى. لكن خالك العمدة يا أدهم، رجل بالاسم، وهو فى الحقيقة امرأة. طبعا كان أبوك يقول الرجل الذى تسيره امرأة، هو أيضا امرأة. العمدة خالك امرأة يا أدهم. أنها ستك التى طلبت منه أن يهرب شيخ البلد القاتل المجرم. أى والله أمى وأنا أعرفها. امرأة مجرمة طول عمرها، بلا ذمة ولا ضمير.. هى التى قتلت تفيدة. حرضت عليها حتى قتلوها.. ظلما! والله تفيدة قتلت ظلما يا أدهم. واليوم تهرب ابنها القاتل منى. لو كنت أنت ابنها يا أدهم، كانت قلبت الدنيا حتى يثأروا لك. لكن القاتل ابنها هى. هذه العجوز المخلعة، هى آفة بيتنا. والله لأنتقمن من هذه المرأة. هى والعمدة وشيخ البلد. لن يفلتوا من يدى. يقتلون ابنى، وابن "أبو سريع" !! ايه؟ فوضى. هل المسألة فوضى؟ أنا سأريك _ يا بلد! يا بلد! يا بلد من غير عمدة!!

وعندما انتهى أبو المكارم من روايته، نظرت مديحة إلى ممدوح، وهى مضطربة يرتفع صدرها ويهبط فى انفعال سريع.

ولم تعرف ماذا تقول. ولا ممدوح استطاع هو الآخر أن يتكلم. والأخرس معهما صامت يدبر عينيه بينهما بانتظام، كبندول الساعة.

وبينما هم كذلك، والصمت مخيم يضيف إلى جو القرافة، مزيدا من الشعور بعمق الخلود، إذا أصوات تأتيهم من بعيد، تولول وتنوح، مضطربة ومذعورة كأنما أخذتها مفاجأة قاسية.

ووقفوا جميعا.

شئ فى صدورهم حدثهم بأنها ست الناس!

ماذا فعلت؟

ولم يستطع أحد أن يدرك شيئا.

قال ممدوح :

من بيت العمدة، هذه الأصوات.

وأمن "أبو المكارم" على هذا، فان أذنيه لا تخطئانه أبدا.

وهزت مديحة رأسها وهى تقول :

والست نبوية تعيش هناك، مع ابها العمدة.

ونظر الثلاثة، كل منهم إلى الآخر، بينما أبوعوف الصغير، على ذراعى أمه يرضع أصابع يديه ويحرك رجليه فى براءة.

وكعادة القرية الطيبة، أخذ الفلاحون يهرولون من الحقول إلى مصدر الصوت لنجدة الملهوف، وإغاثة المحتاج، وكل منهم يسأل زميله عن الخبر، وماذا عساه يكون قد حدث.

وأصوات الريفيات المسرعات مع رجالهن، ترتفع بالدعاء أن يجعله الله خيرا، وألا يكون قد وقع مكروه.

وكثيرون يتجهون إلى الثلاثة الواقفين عند قبة سيدى الذكيرى بالسؤال التقليدى :

ماذا حدث؟ هل تعرفون؟ هل تعرفين يا ست الشيخة؟ يا شيخ عبد الرءوف هل تعرف شيئا؟ ماذا وقع، ولمن يا "أبو المكارم"؟

لكن الإجابة كانت معروفة ...

لا أحد يدرى ماذا حدث.

وما هى إلا لحظات، حتى سرى النبأ فى كل مكان، كألسنة النيران!

يا نهار أسود. البنت خنقت أمها!!

ست الناس خنقت أمها!!

هجمت عليها مرة واحدة، وأطبقت يديها على زمارة رقبتها، ولم تتركها إلا جثة!! ثم أخذت تصبح فى فرحة : موتها. خلصت عليها العقربة النجسة أمى!! أنت التى هربت سيد أخى وقاتل ابنى. خدى جزاءك يا مجرمة! لكن لا يزال ثأر ابنى قائما. لابد من قتل القاتل. لابد من اطفاء الثأر بدم القاتل. وكل من سيقف فى طريقى سأخنقه. هذه واحدة، والبقية تأتى!!

وأخذت تضحك ضحكات صاخبة مجنونة، تجلجل فى صحن الدوار، وتلقى الرعب فى القلوب.

والنسوة يرفعن عقائرهن بصياح، ويولولن، ويبكين، وقد أخذتهن المفاجأة، فخرجت أصواتهن فى صورة مرتبكة، بغير نظام.

لقد كان وصول ست الناس مفاجأة.

لكن ست الناس لم تكتف بالمجئ. بل قد خنقت أمها، لتضاعف المفاجأة، وتصبح مفاجأتين.

وعندما جاء العمدة، وعباس، ورجال لآسرة، لم يعرفوا ماذا يفعلون.

العمدة أخذ يخبط كفا بكف وهو يقول فى حسرة :

يا نهار أسود يا أولاد. أختى وخنقت أمى. ماذا أعمل؟ نحس وأصابنا يا أولاد. أخى قتل ابن أختى. وأختى قتلت أمى. ومن يدرى ماذا يحدث لنا بعد ذلك يا أولاد. ماذا

أعمل؟ دبرونى يا أولاد. قل لى يا ممتاز يا أخى ماذا أعمل؟ عباس أنت زوج أختى، ووكيل شيخ الخفر، دبرنى. شُر على بما تراه. أنا غلبت يا أولاد. وغلب حمارى..لم أعد قادرا على شئ. لم أعد قادرا على شئ.

ومضى إلى حيث جاء محطما منهالكا منهارا.

وست الناس تضحك عليه فى صوتها العالى المجنون :

يا عمدة صفيح، يا نعجة! سمعت كلامها وهرَّبت القاتل؟! هذه هى النتيجة. لو أنك رجل ما حدث هذا. لكنك نعجة. وكلكم نعاج. كانت راكبة فوق أنفاسكم. ضحكت عليكم حتى قتلتم تفيدة، ثم ضحكت عليكم حتى طردتم "جلال". ثم هرَّبت سيد شيخ البلد حتى لا يضبطونه. لكنه دم ابنى، ودم ابنى لا يذهب هدرا يا عمدة!

وأخذت تضحك، وهى تصفق ترقص، بينما نساء لأسرة يولون نائحات باكيات ... وخائفات من ست الناس!



لكن ما أطيب نساء القرية!

إن مأساة عائلة العمدة، أنستهم كل ما فعلته الست نبوية، وألفاظها الجارحة والإهانات التى كانت تتعمد إطلاقها فى وجوههن بلا حياء.

وبكين عليها. وذهبن إلى العزاء، وفى عيونهن عليها دموع.

وكانت ست الناس حبيسة إحدى الغرف المظلمة البعيدة عن الناس، لكنها لم تكن تهدأ. كانت تصيح وتطرق الباب المغلق طرقات عنيفة، وهى تطالب بالخروج.

ولكم كانت تقول كلاما مختلف الأشكال والأنواع.

مرة تشتم شتائم فى غاية القبح!

ومرة أخرى تسب كل الأديان. فى غير تحفظ!

ومرة ثالثة تتهم أمها اتهامات مشينة، وكيف كانت تعشق زوجها "أبو سريع" وتغار عليه كأنها عشيقة من عشيقاته!

ومرة رابعة تحكى قصة اختفاء الحاج مرزوق فى الحج، وما وراء هذا الاختفاء من أسرار!

والقرية الطيبة تحترم لحظات الحزن، وتطوى جوانحها على المأساة، فلا تذيع عنها سرا.

وقد كتمت القرية قصة خنق القتيلة ولم تتحدث عنها لأحد. وهى تعلم أن تصريح الدفن مزور، فإنها لم تمت ميتة طبيعية، نتيجة كبر السن، ولكن ابنتها خنقتها بيديها.

لكن الذى لم تستطع القرية أن تكتمه. أو تتحمله على ضميرها. هو ما قالته ست الناس، عن اختفاء الحاج مرزوق، وكيف تم بتحريض من الست نبوية.

وقالت راضية، وهى تبكى :

- ألم أقل لك يا أماه إن وراء اختفائه سرا؟ ألم يكن هذا شعورى منذ عاد الكلب ابن الكلب المجرم أبو سريع؟

وقالت الست أم راضية فى استنكار :

- يا بنتى استغفرى الله . واحدة مجنونة. هل يصدق ما تقوله من كلام؟ الحاج الله يرحمه ذهب للحج، وناداه عمره هناك. النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يدفن إلى جواره. هذه رحمة من عند ربنا يا بنتى.

- لكن راضية، ظلت مع هذا تبكى أباها، ولا تتحدث إلا عن السر الجديد الذى إذاعته ست الناس، من حجرتها المظلمة المغلقة.



رجال القرية كذلك كانوا يرددون هذا الكلام، ويعجبون له، ويسألون الشيخ مختار عنه، فلا يعرف كيف يجيب.

وعندما ثقل السر على قلوبهم، ذهبوا إلى العمدة يستفسرون :

ـ ما حكاية الحاج مرزوق يا عمدة؟

ـ حكاية؟ هل للحاج مرزوق حكاية؟ الله يرحمه ويحسن إليه.

ـ والكلام الذى تقوله أختك ست الناس؟

ـ ست الناس مريضة يا خلق. أنها تقول كلاما كثيرا أغلبه عيب. هل صحيح كذلك؟

ـ هذا شئ لا يهمنا. المهم عندنا هو ما حدث للحاج مرزوق.

ـ ماذا حدث للحاج مرزوق؟

ـ أبو سريع قتله فى الحجاز.

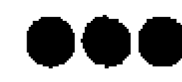
ـ عيب يا أولاد؟ هل هذا ممكن؟ هل كان يجرؤ أبو سريع على هذا؟!

ـ من حيث انه كان يجرؤ فقد كان يجرؤ ..ونص !

ـ لا يمكن. أبدا. لا تصدقوا المجنونة.

ـ يا عمدة كن صريحا معنا. أبو سريع وقد ذهب، وابنه كذلك ذهب ... وكل ذريته ستذهب فى الرجل الولى الحاج مرزوق. ربنا رحيم، لكنه كذلك منتقم وجبار. والمسألة أننا نريد أن نعرف.

ـ هذا كلام فارغ وغير صحيح. انصرفوا إلى أعمالكم أبرك لكم من سماع كلام المجانين.



لكن الرجال لم يصدقوا ما قاله العمدة. أبدا ولم يدخل رأسهم أن يكون كلام ست الناس مجردا من أى حقيقة.

وانتقلت الأحاديث من البيوت إلى المصاطب إلى ساحة الساقية.. وضوء القمر، يتخلل فروع الجميزة الكبيرة إليهم، حيث يجلسون فى دائرة، ورقابهم تمتد ليسمع كل منهم من الآخر، ما رددته المجنونة ست الناس.

وبدأ نوع من الوجوم الصامت فى علاقة العمدة بالأهالى، وتحرج الموقف حتى أصبح أقرب إلى القطيعة وانعزال كل فريق عن الآخر.

وجمع العمدة أقاربه وأهله ليشاورهم فى الأمر.

وانتهى رأى الأسرة إلى ضرورة إعادة ست الناس إلى المستشفى، فان وجودها قد أصبح خطرا يهدد علاقة الأعيان بأهل القرية.

كما طلب أفراد الأسرة ملء الأماكن الخالية فى القرية، ليصبح ممتاز شيخا للبلد، وعباس شيخا للخفراء.



وحاولت القرية أن تكتم غضبتها، فما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

لقد كانت أحاديث الرجال تتكاثر حول الساقية، ثم انتقلت إلى مصاطب القرية، ثم أصبحت تتردد بين الصلوات فى مسجد القرية.

هناك، فى صحن الجامع البسيط المتواضع، بين الفجر والضحى وصلاة الظهر، ثم بين الظهر والعصر، وبين العصر والمغرب، كان الفلاحون يجلسون فى استرخاء، لكن أعصابهم كانت دائما متوترة وهم يتذكرون الرجل الطيب المبروك يجلس أمام المحراب فى تقوى، يسبح الله، ويذكر فضله، وينصح المصلين بمزيد من التقوى فى طاعة الله. ولكم كان الرجل يتسامى فوق الغضب وفوق الاضطهاد وفوق المظالم فيحض الناس على الصبر وعلى الإيمان بالله العلى المتعال، فإن ذلك ليس سلاح عجز، ولكنه سلاح قوة، قاطع وبتار! ولكم كان يطلب أن يقابل المخطئ بمزيد من السماحة والدعاء! إن الخطأ ضعف، والمخطئ مريض، والمريض يحتاج إلى الدعاء لا إلى العقاب!

الله يرحمك يا حاج مرزوق!

لم تعص الله أبدا. كنت تصبرعلى معاصى العصاة، لكنك لم تعص الله، ولم تسمح بأن يكون لمخلوق طاعة، فى معصية الخالق. وعندما طلبت منك الست نبوية أن تعصى

رفضت، وأنت تعلم مقدار ما تتعرض له من الاضطهاد! وعندما أرادوا أن يحاربوا بك الصغيرة المظلومة تفيدة، أبيت أن تكون سلاحا من أسلحتهم!

الله يرحمك يا حاج مرزوق!

كنت تدعو بالهداية لمن يسئ إليك! كنت تقابل بالصبر من يحاول أن يؤذيك! كان سلاحك الله، والتقوى، والمودة فى القربى! وهذا الجامع الصغير قد كان غايتك وأغلى ما لديك. كان أغلى عندك من بيتك، وامرأتك، وبنتك، ولكم كنت تقول انه بيت الله، وخادم بيت الله مسئول عن أن يعده فى أكمل صورة ويهيئه على أحسن وجه، ليستقبل خلق الله. إلا تنظفون بيوتكم؟ إلا تزينون دوراكم بالغالى والثمين؟ فما بالكم وهذا بيت الله؟ إن الله غنى عن الطنافس والرياش ومظاهر الثراء، وهو لا يريد لبيته إلا أن يكون صالحا لاستقبال عباده المؤمنين. هكذا كان كلامك يا حاج مرزوق. الله يرحمك ويحسن إليك يا حاج مرزوق.

وتحاول القرية أن تسكت، فتجد نفسها مدفوعة إلى أن تسأل نفسها السؤال الذى يطوف بخيالها ولا يجد جوابا :

أهذا رجل يتخلصون منه بالقتل؟

لماذا؟ قَتَل؟ نهب؟ أساء؟

كان كالمرهم يداوون به الجروح. كالدواء يعالجون به الأمراض..كالظل تفيئون به من قيظ النهار!

كان دعوة صالحة فى فم تقى.

كان بسمة طيبة على وجه بشوش.

كان بركة، كان نعمة، كان خيرا.

..ومع هذا تقول ست الناس ...أعوذ بالله مما تقول ست الناس!

لكن بحق ... أين ذهب؟ وكيف؟ إن ما تقوله ست الناس يحتاج إلى تفكير!

إن القرية تذكر انه كان بكامل قواه، صحيحا، معافى، وكان البشر يكاد يطفح من عينيه، وكانت الفرحة تملأ وجهه، حتى لتهتز شفتاه من فرط ما تسبح الله حمدا وشكرا على ما أنعم به عليه. ولم يكن مريضا ولا هزيلا. حفظه الله لبيت الله فلم يعرف المرض سبيلا إليه. أمثل هذا الشيخ المبروك الطيب، يمرض هناك فجأة ويثقل عليه المرض ليموت غريبا عن أرضه وأهله وناسه؟

اللهم لا كفر بقدرك! يمكن! ربما ناديته إلى بيتك المقدس، ليهجع فى أرضك الطاهرة، مع الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والأولياء والعلماء والتابعين! ربما! الواحد قد يموت وهو فى عز قواه!

لكن كلام ست الناس، من سجنها المظلم، لا ينقطع.

وكلما حاولت القرية أن تهز ارتيابها، كلما عاد الكلام بما كان، يحلرق هواجسها.



ولم يكن نساء القرية أقل شأنا من رجالها، فى الارتياب والشك ومتابعة ما تقوله ست الناس، فى كثير جدا من الحرص والاهتمام.

- يا خبر أسود يا بنات، الرجل يذهب هكذا هدرا !!

- وأى رجل؟ شيخ الجامع، والبركة والنور.

- فقى الكتاب يا بنات. هو الذى علّم رجالنا وأولادنا.

- وبعضنا قرأن عليه القرآن.

- واللصوص، والقتلة، لا بهم ولا عليهم.

- انقلبت الموازين، واستوت الصلاة بحرق الغيطان.

- والله وحرق الغيطان صار أبرك. على الأقل لا يؤدى إلى القتل

- هى المرأة النحسة نبوية. ربنا جازاها بما فعلت

ـ ماتت مخنوقة.

ـ ومن التى خنقتها؟

ـ آ ... بنتها!! انتقام من ربنا.

ـ كل هذا مفهوم. هل أرجع لنا الحاج مرزوق؟

ـ وهل الميت يعود؟

ـ والله كل أسرتهم، لا تكفى عوضا عنه.

ـ أى والله. لا الرجال، ولا النساء.

ـ البركة فى الشيخ مختار وبنته راضية.

ـ طبعا البركة فى الشيخ مختار، لكن ثأر الحاج مرزوق!

ـ يذهب دم الرجل هدرا؟!

ـ وهل أهدر دمه يا بنت؟

ـ طبعا ... حتى ننتقم كلنا له.

ـ وموت "أبو سريع" على الصورة البشعة التى مات بها. أليس انتقاما؟

ـ لا يكفى. وموت نبوية مخنوقة بيد بنتها. أليس انتقاما؟

ـ لا يكفى.

ـ وموت أدهم ... مقتولا بيد خاله ... أليس انتقاما؟

ـ لا يكفى.

ـ من يدرى ماذا يخبئه القدر لبقية أفراد الأسرة.

ـ المهم نعرف كيف تم هذا، من وراء ظهورنا كلنا.



وعندما وصل الأمر فى القرية إلى هذا الحد من الغليان، تجمع الرجال، وتجمعت النساء، وأخذوا يتبادلون الآراء والدموع، وكانت الست أم راضية تحاول أن تهدئ من هذه الثورة التى أشعلت نفوس الناس بالحقد والغضب. الشيخ مختار كذلك كان يقول للناس : لا تظلموا أحدا، ولا تأخذوا الناس بما يقولونه فى لحظة من لحظات الغضب، أو عندما يفقدون السيطرة على عقولهم. ادعوا الله لها بالرحمة بدلا من أن تأخذوا كلامها على انه قضية لا تقبل الشك أو الجدل. ثم أنكم تحصلون على معلوماتكم بالتلصص وهذا ما لا يقبله الدين. الاسلام يا رجال دين عدل، والاعتراف بشئ لا يكون صحيحا إلا إذا كان المعترف مدركا لما يقوله، متثبتا منه، متحكما تماما فى قواه العقلية. أن تسمع اعترافا عفوا، أمر باطل. أن تحصل على اعتراف بالتلصص واستراق السمع، أمر لا يقبله الدين. أن ترغم أحدا على اعتراف جريمة لا يسمح بها الإسلام. إنما يجب أن يكون الإنسان فى كامل قواه، وأن يعترف بمحض إرادته، وهو يدرك انه يدلى باعتراف.

لكن لا الرجال ولا النساء اقتنعوا بما كان الشيخ مختار يقوله لهم، وبعض الرجال صاحوا فيه انهم يعرفون أن هذا ليس اعترافا، لكنه قرينة قوية خرجت بلا تحفظ!

راضية كانت مع أهل القرية فى غضبتهم، وكان معها مرزوق الصغير، ابنها الذى نال الدبلوم منذ أيام، ولا يزال ينتظر وظيفة يلتحق بها.

وشعرت القرية أنها تريد أن تسير ...فى طريق الحقيقة.

وبلا تدبير أو ترتيب، سارت جموع الناس فى صمت، تتقدمهم راضية، وابنها مرزوق. لا حديث، ولا كلام.

وبغير أن يحدد أحد لهم هدفا. ذهبوا إلى حارة تقع خلف بيوت العمدة، حيث كان صوت السجينة المجنونة يخترق الجدران إلى الحارة، ومن يسيرون فيها.

وكان العمدة بعد أن كثر كلام المجنونة قد كلف خفيرين من الخفراء بألا يتركا أحدا من الناس يتلكأ فى سيره فى الحارة، أو يتوقف ليسترق السمع، وليلتقط شيئا من كلام المجنونة وهى تصيح.

لكن جموع أهل القرية جرفت الخفيرين، فلم يستطيعا أن ينبسا ببنت شفة وإنما ذابا فى هذا الموج الزاحف فى غضب وإصرار.

وسكت الناس، فخيم صمت أكثر جلال ورهبة من صمت القرافة، حول سيدى الذكيرى.

وحبس كل رجل وكل امرأة تنفسه فى صدره، وتحول كل رجل وكل امرأة، إلى أذنين تسمعان ما يقال من خلف الجدران.

وقال كل واحد لنفسه

إننا نعرف ماذا ستقول ..سمعنا ذلك مرارا، ونمى إلينا من سوانا، وتردد بما لا يسمح بالشك أو الارتياب.

لكن الجموع _ مع ذلك _ كانت تريد أن تسمع، وهى على وضعها ذاك، ما سمعته من قبل، وهى مفرقة، لا تجمع بينها هذه الغضبة الثائرة.

وجلجل صوت ست الناس من خلف الجدران :

لو كان قرأ سورة يس بالمقلوب، كما أرادت، كان مر كل شئ فى سلام! ولو كان سحر لبنت "أبو عوف"، وخرَّجها من دار أبى، كانت رضيت عليه!

لكن الشيخ مرزوق قال لها : لأ.

وقال لها : ما ذنب المسكينة بنت "أبو عوف".. هل هى التى سعت إلى الحاج سلطان؟ هل هى التى تزوجته؟ ثم هذا زواج شرعى حلال. ماذا أقول يا ست نبوية؟

لكن "هيه مين؟!" نبوية بنت العمدة، وأخت العمدة، وأم شيخ البلد، وقد صار عمدة ترضى بهذا؟ لابد تخرب بيته! كيف يعصى؟ كيف يقول لأ؟! ودبروا لك يا شيخ مرزوق حجَّة. ديتها حجَّة! وزيارة لقبر رسول الله، وهناك أرض الله واسعة، وأبو سريع كان وحشا لا يرحم، والحج زحام، ولا حكومة ولا بوليس، ولا يحزنون، "واللى راح راح". هل تذكر يا "أبو سريع" يوم عدت من الحجاز حاجا مبروكا؟! أخذوك بالأحضان، لأنك

خلصت عليه، وعدت بدونه! والكلاب أولاد الكلاب بكوا عليه، وكانت أمى نبوية تنوى ضربهم بالكرابيج إلى أن يزغردوا!

ولم يستطع الجمع بعد هذا صبرا.

وصاحت راضية تقول :

تسمعون؟ هل تسمعون؟ نحن كلاب وأولاد كلاب!

وصاح مرزوق الصغير :

وهم فى الحقيقة الكلاب أولاد الكلاب! لكنها مجنونة يا امَّه.. وهمهم الناس بكلام غامض، وترددت بين النساء دعوات على كل من آذى الحاج مرزوق، وردت أصوات أخرى أن الدعوة مجابة وأن كل الذين آذوه، أذلهم الله إذلالا شديدا.

وتحرك الجمع بلا توجيه ولا اتفاق، إلى دوار العمدة.

ووقفوا كالجيش الزاحف.

ولم يستطع العمدة أن يخرج لهم. عباس شيخ الخفراء الجديد هو الذى خرج لهم. لكنه على غير عادة مشايخ الخفراء. خرج وحده، بلا خفير ولا ديدبان.

وكانت المفاجأة مذهلة، عندما توجه عباس إلى مرزوق الصغير، وضمه إلى صدره فى حنان، وأخذ يقبل رأسه، والدموع تنهمر من عينيه.

وقال عباس :

البركة فيك أنت يا مرزوق يا بنى.

ثم تقدم إلى راضية، وأمسك بيدها، وقبلها أمام الناس وهو يقول لها فى صوت يتهدج بالتأثر :

أبوك الله يرحمه كان يسامح حتى الشياطين. وربنا يا ست راضية أمهل لكنه لم يهمل. البركة فيك. وفى الشيخ مختار، والمسامح كريم.

وانقلب الجمع الواقف إلى جمع باك حزين، وتحدثت الدموع بما لا تستطيع أن تتحدث به الكلمات، ونطق شهيق البكاء، بما عجزت عنه الألفاظ.

وعاد الجمع، ومعهم عباس إلى الجامع، لصلاة العصر.



وهناك عند سيدى الذكيرى، كانت الشيخة تفيدة والشيخ عبد الرءوف يراقبان ما يحدث فى القرية، ويسمعان أخبارها فى شئ غير قليل من الحذر.

وكان أبو المكارم، يذهب ويجئ، حاملا معه فى كل مرة خبرا جديدا.

وقال ممدوح :

يبدو أننا محتاجون إلى الست قمر. يجب أن نسمع مشورتها.

وأرسلا فى طلبها، فلما حضرت، وسمعت القصة، قالت فى استخفاف :

وألم تعرف القرية إلا الآن؟! أكانت محتاجة إلى واحدة تجن لتعرف؟

مسكينة يا بلد. ومساكين أهلك وذووك!!

ومضت الست قمر تروى القصة، فأكدت ما تقوله ست الناس، وكيف أن سبع الليل ذهب بالشيخ مرزوق إلى الحجاز على اتفاق أن يعود وحده، وقبض الثمن طبعا إلى جوار مكاسب أخرى مختلفة.

وقالت الست قمر أنها كانت تعلم ذلك كله، لكن الحاج سلطان كان يحذرها من الحديث فيه خشية على حياتها.

مجرمون وسفلة هؤلاء الناس!

لكم دبروا الفتن والمؤامرات، ضد السذج والمساكين!

.ماذا كانت تستطيع الست أم راضية أن تفعل؟ أو راضية؟ أو الشيخ مختار؟

لا شئ!

.. ومضت الست قمر تقول فى مرارة :

والثانية الغريقة التى رموا بها فى التيار. ألم تذهب نتيجة مؤامرة خسيسة؟ ثم يتهم فيها أبوها! أخذ أبوها على انه قاتلها! وفلاحون كثيرون اختفوا فى وضح النهار، لأنهم تمردوا أو سولت لهم نفوسهم أن يخرجوا على طاعة السادة الكبار!

والشحات طرد شر طردة. وظل يجتر أحزانه حتى سقط مريضا ومات!

وغيره وغيره. والمساكين أهل سالمة الذى هربوا من البطش، واستقر بهم المقام على حافة ترعة فى أطراف الدنيا. يعيشون على الطحالب كالديدان!

وسكتت الست قمر قليلا، ثم قالت ودموع قلقة بدأت تتحدر على خديها :

مساكين أهل سالمة!.. من مدة طويلة وأنا لم أسأل عنهم، ولم ...

وسكتت ... ثم قالت بعد أن خف ما كانت تعانيه من انفعال :

لابد من مقابلة عباس. كيف يعيشون؟ سأذهب إلى عباس فى الخص قبل أن أعود. سأرسل له رسولا لألقاه.

وانكفأت على كفيها تبكى فى نحيب.

قال ممدوح وقد استبد به الانفعال :

الآن يا ست قمر تستطيعين أن تطالبى "عباس" بأن يعودوا.

قالت فى صوت كسرته الدموع .

والمجرمون السفاحون ..يتركونهم؟!

قال ممدوح :

أبو سريع وقد ذهب فى ستين داهية، وابنه كذلك مات. من الذى سيعارض الآن عودتهم؟! وعلى كل حال، فان عباس، وقد أصبح شيخ غفر، يستطيع أن يتحرك نحو

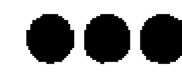
الخير. لابد له من أن يتحرر من نفوذ الجبابرة. انهم الآن محتاجون إليه أكثر مما هو محتاج إليهم، وواجبه أن يعمل على إقرار الحق والعدل بين الأهالى.

وقالت مديحة فى تأثر :

عنى أنا يا ست قمر، فلست محتاجة إلى أن أؤكد لك إنى أتمنى أن يعودوا. لا تسيئى الظن بى. ليت سالمة حية لأتخذها أختا وصديقه!

وهزت الست قمر رأسها وهى تقول فى استسلام :

سأرى عندما ألقاه.



وعندما التقت الست قمر بعباس، فى الخص المهجور، بعد غروب الشمس بقليل، دارت بينهما، كالعادة، مناقشة حول جلال وأخباره وأحواله :

- تأخرت علينا يا خالة.

- مشاغل الدنيا يا عباس. أنت أيضا كنت مشغولا. حتى صرت شيخ غفر.

- وهذا أيضا عرفته يا خالة؟

- وهو أيضا عرفه، ويهنئك عليه.

- أنا عارف انه يفرح لى. لكن هل عرف أنها ورطة؟ والله أنا لا أريدها ولا أصلح لها.

- طول عمرك متواضع يا عباس. لكن ثق أنها فرصة طيبة.

- لا فرصة ولا يحزنون.

- إن لم يكن لك، فللمحتاجين إليك، ولحمايتك.

- ربنا هو الذى يحمى خلقه.

- ربنا يسخر ناسا لخدمة الناس.

- صحيح ..هذا صحيح. وليته ينير طريقى لأرى الحقيقة وأعمل لإنصاف المحتاجين.

- أمامك فرصة مواتية. أنت تعرفها. وجلال يوصيك بها.

- جلال يأمرنى يا خالة بما يشاء.

- أسرة سالمة ... تتركها هكذا؟

- أبدا لن أتركها يا خالة. سأساعدها على معيشتها بكل ما أملك.

- ولماذا لا تعود إلى بلدها؟

- الحق يا خالة. لو عادت من نفسها. فسأحميها من أى كلب من الكلاب. لكنى لا أستطيع أن أعيدها بنفسى.

- فان عادت. فستحميها يا عباس؟

- من عينى يا خالة.

- أبلغ "جلال" بهذا؟

- وبلغيه إنى هنا طوع أمره. أى شئ يريده. سأنفذه حالا. ليته هو الآخر يعود.

- يعود "جلال" أم "شبل"؟!

- بالشكل الذى يريد.

- لا لا يا عباس. وهل ترضى له ما قد يحدث؟

- على كل حال ... هو وشانه. لكن قولى لى يا خالة هل هو بخير؟

- على أحسن ما يكون؟

- وماذا يعمل؟

- ستعرف ذات يوم، منه هو.

ـ والله يا خالة أوحشنى ... نفسى أراه.

ـ كل آت قريب. أتركك بعافية..

ـ لماذا تتعجلين.

ـ لألحق المواصلات قبل المساء ...

وخرجت من الخص تحت جنح الظلام، لتختفى فى طياته.

وتبعها عباس يتلفت ذات يمين وذات يسار، ليطمئن إلى أن أحدا لم يكن يراقبه أو يسترق السمع إلى ما دار.

واحد فقط قد سمع كل شئ، وانسل فى خفة كالشعرة من العجين، لينقل ما سمع إلى مديحة وممدوح، وينضم إليهما ليجلس الثلاثة كأنهم جسم واحد، له ثلاثة رءوس تقاربت لتتهامس فى حرص وحذر.

أبو المكارم، ومديحة، وممدوح.

وعندما وقفوا على ما دار قال ممدوح :

سأحضرهم أنا. سأعيدهم إلى بلدهم.

قالت مديحة :

لكن كيف سيتسنى لك ذلك؟

قال فى ثقة وإصرار :

على طريقتى الخاصة.. وستعرفين كل شئ فى حينه.

وبعد أن خلع عن نفسه ملابس الشيخ عبد الرءوف، مضى ممدوح على جسر الرياح إلى حلقة السمك.



حلقة السمك.. والبحر.. ورزق كثير فى الماء.. والمعلم بيومى.

كل ذلك قد صار شيئا هاما فى حياة المنطقة، عند محطة السكة الحديد.

السمك يتكاثر بصورة لم تعرفها الناحية من قبل، حتى أن المعلمة وردة النقرزان، تمسك بذراع المعلم بيومى وتقول له : دعت لك وأنت نازل. أمك دعت لك فى ساعة ضيق، وهى بين الحياة والموت. لهذا طلعت "مبخت" يا ولد! لأ.. يا معلم! أنت يا معلم بيومى محظوظ، وربنا يديم عليك الحظ. ويرد هو فى حياء : انه خيرك أنت يا معلمة. كله من فضل ربنا ومن فضلك.

أما البحر - كما يطلقون عليه - فإن ماء الرياح ومياه الترع المتفرعة منه قد ترفقت بالمعلم الجديد، فرقت وهدأت، ليستطيع أن ينال منها ما يشاء من الرزق.

وتجمع حول المعلم بيومى الصيادون، يحتفون بمقدمه السعيد، والحظ الكبير الذى أقبل إليهم مع مقدمه.

وقال المعلم بيومى فى تواضع : يا معلمين، أنا لا أعمل شيئا، والفضل فضلكم. إن وظيفتى وهى الحلقة، أما السمك فهو عملكم، والرزق رزقكم.

لكن المعلمين صاحوا فيه : يا رجل. إن هذا تواضع منك، والله لولاك ما استطعنا شيئا، وما حصلنا على شئ.

والحقيقة أن المعلم بيومى قد بذل جهدا كبيرا جدا فى تنظيم العمل فى الحلقة وفى صيد السمك. كان العمل قد جرى على أن يأتى الصيادون بالسمك الذى يصيدونه إلى الحلقة، لعرضه وبيعه للتجار القادمين من كفر الزيات وطنطا وآيتاى البارود ودمنهور. لكن الحلقة يهمها أن يكثر صيد السمك، فبلا سمك، لا حلقة. لهذا كان أصحاب الحلقة يشاركون الصيادين فى أعمالهم. يستخرجون لهم الرخص، فإن لم تكن الرسوم جاهزة. دفعوها هم دينا عليهم. ويشترون لهم السنانير والشبك والطعم وكل احتياجات الصيد، لتضاف إلى ما عليهم من ديون. ثم إذا احتاجوا إلى شئ حصلوا عليه مقدما، ليعيشوا منه هم وعائلاتهم، ليضاف كل ذلك إلى ديونهم.

وكان الخواجة قد درج على أن تكون هذه الحسابات سرا، وأن تظل الديون مجهولة، ليحصل على السمك كما يشاء، ويدفع لهم حاجاتهم، ويبيعه هو على طريقته للتجار.

تماما كما كان يعمل آل سلطان مع الفلاحين!

الساقية ورى الأراضى دين على الفلاح!

والجرن ودرس المحصول دين على الفلاح!

وإيجار الأرض والبذور والتقاوى والسماد دين على الفلاح!

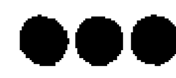
والحاج غضبان، بنك مفتوح لكل ما يحتاج إليه الفلاح!

..والمحصول كله لا يسدد هذه الديون إلا عندما يشاء آل سلطان!

أما المعلم بيومى، فقد اتفق مع المعلمة وردة على طريقة جديدة لحلقة السمك.

السمك ملك الصياد ... والحلقة مكان للبيع نظير عمولة معروفة للحلقة وللصيادين فإذا احتاج الصياد إلى شئ، أخذه سلفة، ترد على أقساط، دون إرهاق، وبلا فايظ على الإطلاق. وأراد المعلم بيومى أن يزيد إلى ذلك كله خدمات تقدمها الحلقة للصيادين دون مقابل، فكان يخرج بنفسه معهم، فإذا رأى صيادا محتاجا إلى شئ، لم يتردد فى تقديمه له دون مقابل.

وكم من مرة قام هو بالصيد لصياد مريض، حتى يشفى، بلا أجر. وكم من مرة حل محل صياد، عندما يضطر إلى سفر. إلى غير ذلك من مساعدات. وكسب المعلم بيومى بهذا الصيادين جميعا، فتفانوا فى العمل، فزاد المحصول زيادة هائلة، وأصبحت حلقة السمك حافلة بنشاط لا حد له. وكسب الصيادون مكاسب كبيرة، وكسبت الحلقة أيضا.



وكان المعلم بيومى شديد العناية بصياد صغير كان يبذل جهده كله ليقف على قدميه بين الصيادين. وكانت أسرته كلها تعاونه وتعمل معه.

انه محروس بن الشحات، وابن خضرة أرملة الشحات.

وعندما حكى المعلم بيومى عنه للشيخة تفيدة ابتسمت له فى براءة وهى تقول :

طبعا انه يستاهل! يستحق! صغير ومسكين ! ويجرى على عائلة كاملة!

تغارين؟ أم توبخين؟ أم لا هذا ولا ذاك، وإنما هى مجرد ملاحظة عابرة؟

ولم تجب الشيخة ...

وارتعد الصياد من صمتها ...

إن المعلم بيومى، كان يحضر إليها مرة وهو شيخ، لكن شيئا لم يكن يمنعه من الحضور وهو صياد، فإن ضريح سيدى الذكيرى قبلة الناس جميعا فى هذه الناحية، وبركة الشيخ "أبو عوف"، والشيخة تفيدة مما لا يجادل فيه الناس.

وبعد لحظات الصمت هذه، عاد الصياد يسأل، والشيخة لا تجيب.

قال ممدوح :

إذاً يقف كل شئ. أنا لا يهمنى فى الدنيا شئ سواك.

وأسرعت مديحة تقول :

أبدا ...أبدا يا ممدوح. سيضيع عمرك كله فى انتظار شئ لن يتم.

قال فى حدة وإصرار :

يضيع أو لا يضيع، لا يهم! المهم أنت.

قالت فى رقة :

ألا تزال تحبنى يا ممدوح؟ وبرغم كل ما حدث؟ وبرغم ما تعرفه عنى؟

قال فى صوت مبحوح :

وسأظل على حبك ما حييت.

قالت فى همس :

وتعرف انه حب يائس، بلا أمل؟.وأنى أحب "جلال" منذ تزوجته، وسأظل أحبه حتى ألقاه؟! ولن أخونه، ولن أخون ذكراه؟!

قال والدموع تترقرق فى عينيه :

نعم وأعرف أكثر من هذا، إنى لم أعد فى حياتك إلا صفحة طويت، ولا سبيل لها لتعود. بل وأعرف إنى لم أعد أطمع فى أن تعود، احتراما لذكرى جلال.

قالت :

ـ ممدوح ... اعتبرنى أختك، واقبل العروس التى تختارها لك أخت حبيبة، حريصة عليك. لقد اخترتها لك : خضرة الحلوة السمراء.

قال :

ـ وتظلين على العهد؟

قالت :

ـ أختا وفية مخلصة.



ولم تمض أيام، حتى أخذ الصيادون يرددون فيما بينهم أحاديث مختلفة عن المعلم بيومى.

ـ إن المعلم بيومى رجل نشط لا تفتر له همة ...

ـ وهو كذلك واسع الحيلة، كبير الدهاء ...

ـ حتى على السمك.

ـ والحيتان وسمك القرش كذلك.

ـ انه يريد أن يوسع مكان الصيد، فلا يستمر مقصوراً على هذه الناحية.

ـ ويقول انه سيقوم بجولة على طول الرياح، لاكتشاف أماكن صالحة.

ـ ربنا يبارك له، بقدر ما يبذل من جهد.

وشهدت الناحية المعلم بيومى يخرج مع الفجر على ظهر ركوبة، وعلى الركوبة الأخرى محروس الصغير، ليشاركه هذه الجولة السريعة.

وعندما عرض الصيادون أن يرافقوه قال لهم :

لا داعى لتعطيل أعمالكم. محروس يكفى، وخضرة فيها البركة فستتولى عنه الصيد اليوم حتى نعود، والبركة فيكم إذا احتاجت لأى شئ.

قالوا جميعا :

ـ رقبتنا يا معلم. أى شئ تريده سنقوم به على الرحب والسعة.

ومضيا على جسر الرياح، متجهين إلى الناحية البحرية.

وأخذ المعلم بيومى يحكى، ومحروس يسمع. ثم أخذ محروس يحكى والمعلم بيومى يسمع، والطريق الطويل يتداخل بين أرجل الركوبتين، ويقصر مع المسير، حتى وصلا إلى المكان المطلوب.

وهناك على حافة الجسر وجد المعلم بيومى ضالته.

هذا هو الرجل العجوز المحطم.

وهذه هى المرأة التى فقدت عقلها، من شدة المأساة.

والثلاثة الصغار، يتواثبون على حافة الرياح، وفوق أغصان الشجر، عرايا أو كالعرايا ..يأكلون الطين كالدود.

وعندما وقعت عينا محروس عليهم صاح فى دهشة :

الله ..هذا جلال يا معلم. وهاتان أختاه. هذا أيضا جده وجدته.

وأضاف محروس :

هل تعرفهم؟

قال المعلم وقد ارتاحت نفسه، لنجاح خطته :

أبدا يا محروس، لا أعرفهم ولا أعرف عنهم شيئا.

وحكى محروس قصتهم، وكيف تزوجت عمتهم واحدا اسمه "شبل"، كان رجلا من صلب رجل، نشر الأمن فى ناحيتنا وانتصر لكل ضعيف أو مظلوم، ومنهم أبى. لكن "شبل" هذا قد كان خصم العمدة والأعيان وشيخ الخفراء، وقد ظلوا يتابعونه حتى أمسكوا به، وكانت معه زوجته سالمة.. مسكينة يا معلم!.. لقد قتلوها وهم يقبضون عليه، وهربت أسرتها من البلد فى الظلام. أخوها مات من حسرته، وزوجته هجرته خوفا على حياتها، وظل الأولاد كما ترى مع جد عاجز، وجده فاقدة الوعى. مساكين!

وتصنع المعلم بيومى انه يسمع القصة للمرة الأولى، وقال لمحروس :

ولماذا لا يعودون إلى بلدهم، بدلا من هذا كله؟

قال محروس :

يا ليت ذلك ممكن؟ والله من يعمل هذا، سيلاقى جزاء كبيرا عند ربنا. والله ليدخلن الجنة من أوسع باب.

وضحك المعلم بيومى وهو يقول :

يا بنى يعودون معنا، ورزق ربنا كثير، تحت الماء. وكل واحد له رزق.

وفرح محروس فرحا شديدا، وتعلق بالمعلم فى فرح، وصاح :

هل أذهب إليهم أطلب منهم أن يعودوا معنا؟ هل أذهب يا معلم؟

قال المعلم :

هيا نذهب معا.



قال الشيخ العجوز، وهو يبكى :

نعود؟.. هل قدر لنا أن نعود؟ إلى الأرض السمحة الطيبة، والنسيم الرقيق الجميل؟ وقرافة سيد الذكيرى؟ لم يكن يخطر بى هذا على بال.

قال المعلم بيومى :

إن الله لا ينسى عباده المؤمنين يا والدى. أبدا ومهما تأخر الحق فإنه يعود إلى صاحبه كما يعود الولد إلى والديه.

وقال محروس الصغير :

ـ نحن مثلا يا جدى. طردونا من بلدنا، وحرّموا علينا أن نعود، حتى مرض والدى الله يرحمه من القهر. ولكنا عدنا إلى بيتنا وإلى أهلنا، والحالة معدن والحمد لله.

قال العجوز :

ـ شئ واحد لم أكن أحب أن أفارقه. تربة ابنى رحمه الله، وقد مات من الحسرة يا أولادى.

قال المعلم بيومى :

ـ أقسم بالله العظيم أن أحضر معك كل موسم لزيارتها.

قال الرجل العجوز :

ـ هذا كثير، وليس المهم هو أنا، فإنى مسافر، والباقى فى حياتى أقل مما ذهب. إنما المهم هم الأولاد. يجب أن يعرفوا تربة أبيهم، ويزورونها. إن من لا تربة له، لا خلف له.

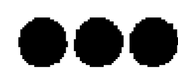
قال محروس :

ـ سيعرفون الطريق، ولن يفرق بينهم وبين تربة أبيهم شئ يا جدى.

قال العجوز :

ـ هذه المرأة لن تدرى شيئا عن عودتنا. فقدت عقلها، فلم تعد تعرف شيئا. لكن من يدرى. قد يعود إليها عقلها، مع عودتنا إلى بلدنا. على بركة الله ..نعود على بركة الله.

وعاد المعلم بيومى إلى الحلقة، على رأس قافلة هائلة، من أجيال مختلفة.



قال المعلم بيومى، للمعلمة وردة النقرزان :

هذه أسرة منكوبة يا معلمة. طردوها من بلدها بغير وجه حق. وجدتها هناك جائعة ضالة، بلا مأوى ولا أمل. دلنى عليها الصبى محروس وحكى لى قصتها... شعرت أنك ترحبين بهم هنا، وربنا موجود ورحمته واسعة. من يدرى، يمكن يرزقنا من أجلهم. أنت قلبك طاهر وكريمة، وربنا يوسع عليك بقدر ما تعطين الناس.

وعندما أتم بيومى روايته كان الانفعال قد بلغ بالمعلمة مبلغا كبيرا، ومسحت دمعتها وهى تقول :

ـ هذا العجوز المسكين، يطردونه.. لماذا؟ وهل يقدر على مواجهة الحياة على حافة ترعة بلا طعام ولا كساء ولا مأوى؟ انظر إلى وجهه وتأمل خطوط الزمن تروى مأساة أليمة، ومع هذا فعلى شفتيه ابتسامة رضا وقناعة! انه أكبر من المأساة بالصبر. انه أقوى من الظروف بالأيمان. هذه الابتسامة يا بيومى أمله، وهى حياته، ولولاها لفقد عقله كزوجته تلك الشاردة التائهة، أو لفقد حياته كابنه الذى حطمته النكبة.

ونادت المعلمة الولد الصغير، فتردد أول الأمر، فلما رآها تبتسم له، أقبل عليها وأصابعه فى فمه. وقالت له المعلمة :

ـ وأنت..اسمك جلال؟! اسم جميل وظريف. من سمّاك هذا الاسم؟

قال الصغير فى سذاجة :

ـ عمتى سالمة هى التى سمتنى "جلال"، وكانت تقول أن "جلال" رجل شهم وشجاع، وانه أسد يبطش بخصومه.

قالت المعلمة :

ـ وأنت ...الا تريد أن تصبح أسدا مثله؟ لابد أن تصبح مثله. هل تعرف يا جلال الفرق بين الأسد والخروف؟ قلب!.. إن قلب الأسد قوى وجسور لا يخاف حتى الموت، أما الخروف، فقلبه حلاوة ملبن! وأنت تستطيع أن تصبح أسدا، إذا وجدت القلب الحديد.

قال جلال الصغير :

- وأنا قلبى حديد. أنا لا أخاف. أنا كنت أذهب لأبى فى عز الليل.. فى الظلام..

قالت المعلمة تستفسر :

- تذهب لأبيك! أين؟

قال الولد فى براءة :

- فى تربته.. فى القرافة التى عشنا إلى جوارها. كنت أشعر فى بعض الأحيان يا خالة انه أوحشنى، فكنت أذهب إليه، وأجلس إلى جوار تربته أتحدث وأروى الحكايات، وأكلمه عن أمى وأطلب منه أن ينساها لأنها لا تستحق منه أن يفكر فيها بعد أن هجرتنا كلنا خوفا على نفسها وعلى عائلتها من "أبو سريع".

قالت وهى تمسك نفسها، حتى لا تنهار أمام الصغير :

- وهل كان يرد عليك؟

قال فى استسلام :

- لا يا خالة. هو لا يتكلم. الميت لا يتكلم. لكنه يسمع. يرى الذين يزورونه ويسمع كل كلام يقولونه. نعم يرى ويسمع. وأنا لم أنتظر منه أن يتكلم. لكن تعرفين يا خالة أنا كنت أشعر بما يريده منى. صحيح من غير كلام، لكن شيئا كان يحدثنى بما يريده.

قالت المعلمة :

- وأختاك ...هل كانتا تذهبان إليه؟

قال جلال :

- كل يوم.. كانت تذهبان كل يوم. لكنهما صغيرتان كما ترين، وبنات.

وذهبت المعلمة إلى الرجل العجوز تربت على كتفه وتسأله الدعوات. وعندما دعا لها بالسعادة وطول العمر وأن ينجيها الله من الأذى، قالت له :

سأعلم "جلال" صيد السمك، وستعيشون معنا هنا. المعلم بيومى سيدبر الأمر، وسيتولى كل شئ.

وعاد الرجل العجوز يدعو لها، فى صوت متهدج مؤثر عميق.



ومرت الأيام، وحلقة السمك تمتلئ بالحركة والنشاط، لتصبح كخلية النحل.

المعلم بيومى كان يبذل كل جهده، ليجعل منها شيئا هاما فى حياة الناحية كلها.

والصيادون صاروا سعداء مرتاحى البال، مطمئنين إلى أنفسهم وأرزاقهم، وشعروا أن المعلم بيومى قد غير حياتهم تغييرا شاملا، فأحبوه من قلوبهم، ونفذوا له كل ما كان يطلبه منهم.

ولم تكن للمعلم طلبات خاصة.

انه رجل أعزب، بلا زوج ولا أسرة ولا أولاد.

وهو مختلف عن الآخرين، لا يطلب من صياد شيئا، ويقول إن الله أغنانى عن الطلب بالستر والقناعة.

بل هو يعطى الصيادين جهده وعونه، ويساعد المحتاج منهم حتى تزول حاجته.

شئ واحد كان يطلبه من الصيادين، أن يساعدوا "محروس" حتى يكبر، وأن يساعدوا "جلال" حتى يشتد ساعده.

وكان يقول للصيادين أن محروس الكبير كان صاحب فضل، فالبحر كان ملكه. كان يشتريه، وكنتم تعملون معه، وتعيشون على خيره، فردوا بعض الفضل لحفيده. أما هذا الصغير، فأنتم ترون جده وجدته وأختيه. كلنا لبعضنا، ولا عاش من عاش لنفسه يا أولاد. وسأعمل معكم على مساعدته، كل منا بقدر ما يستطيع.

وكانوا جميعا يردون عليه بأنها يعتبرون هذا العمل كالصلاة، يتقربون به إلى الله. وكم كان التأثر يتملكه عندما يراهم على هذا القدر من الشهامة والصدق فكان يؤكد لهم أن أجر ذلك لن يضيع. أبدا لن يضيع.

وعندما كانوا يفرغون من أعمالهم كان يتكلم إليهم كلاما لم يسمعوا مثله من قبل.

كان يروى لهم القصص والحكايات، وتاريخا طويلا شيقا عن الفلاح والأرض والحكام، وكانوا يعجبون لما يسمعون ويطلبون منه المزيد، ولم يكن المعلم بيومى يبخل عليهم بما يطلبون، فكان يسترسل فى الرواية والحديث، حتى جعل منهم صيادين وسياسيين كما كانوا يقولون.

وشعر الصيادون أن حياتهم يجب أن تمتد إلى ما بعد شباك السمك، ويجب أن تشمل جوانب أوسع من الرياح والترع وحلقة السمك.

انهم يصيدون السمك بالليل، ويحملونه إلى الحلقة مع الشروق، ويكسبون من وراء ذلك رزقا حلالا، ينفقونه على حياتهم وعلى عيالهم. لكنهم جزء من الحياة، ومجموعة من الناس يتأثرون ويؤثرون، ويأخذون ويعطون، لا يستطيعون أن ينعزلوا، أو ينزووا. وهكذا ساد بينهم شعور جديد، بأن عليهم أن يرتبطوا بالناس وبالوطن، وبقضايا الآخرين.

ورأوا المعلم يقرأ. يشترى كل يوم جريدة من دياب، ويدفع له ثمنها، برغم أن دياب كان يؤكد له فى كل مرة، انه يستطيع أن يقرأها ويعيدها إليه، وسيبيعها هو لقارئ آخر. كل ما كان المعلم يقبله منه، أن يشترى جريدة كل يوم، ويقرأ إلى جوارها كل الصحف الأخرى وكذلك المجلات. والمعلم يشترى كذلك كتبا يقرأها، وبعض هذه الكتب بالإنجليزية.

وقال كل منهم لزميله، إن المعلم يعرف كل شئ مما يقرأ.

القراءة إذاً مسألة هامة جدا، توسع آفاق الناس!

وبغير القراءة يظل الإنسان منعزلا عما حوله، لا يعرف شيئا عن الدنيا!

أو يكون معتمدا على سواه، يرى الدنيا من خلال عينيه، ويدرك أسرارها عن طريقه!

نتوكل على الله ونتعلم القراءة والكتابة.

لكنها مسألة صعبة، ولابد أنها أخذت من المعلم عمره كله.

ويرد آخرون من الصيادين :

ومالنا نحن والقراءة، والكراريس، وأقلام الرصاص، ولوح الاردواز، والطباشير ودويان الحبر، وكل هذه التعقيدات!

نحن ناس نعرف كيف نضع الطعم للسمك، وكيف نلقى الشباك فى المكان الزاخر بأنواع القراميط والبلطى والبياض، وكيف نجمع ذلك كله لنبيعه للناس. أما الأقلام والكتاب والشطب والتصحيح، وزرع. يزرع.. وحصد يحصد.. وكتب يكتب.. فشئ كبرنا عليه من زمن طويل.

هل نعود أطفالا نتهجأ الكلمات؟

يضربوننا بالمسطرة إذا أخطأنا؟

وقد يحبسوننا بعد خروج المدرسة!

ومن يدرى ربما "عبطونا" فى الحوش أمام التلاميذ.. والمعلمين!

ووصل المعلم بيومى، ليشارك الصيادين هذا المرح اللطيف، فلما انتهى قال لهم فى بساطة : يا إخواننا، ليس هناك كبير على العلم والتعليم، والنبى صلى الله عليه وسلم قال اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد. وعلى كل نجرب، فاذا وجدتم أن التجربة فاشلة، أوقفناها. ما رأيكم؟

ووافقوا جميعا على التجربة.

وانتهز المعلم بيومى فرصة وجود عبد المهيمن أفندى، فى زيارة للشيخة تفيدة، عند ضريح سيدى الذكيرى، فعرض الفكرة فى تردد.

وقالت الشيخة :

هذا شئ عظيم. إن تعليم الناس القراءة والكتابة عبادة لله سبحانه وتعالى. انه يفتح عقولهم ويوسع مداركهم، ويجعلهم أقدر على معرفة أسرار دينهم.

وقال عبد المهيمن أفندى :

والله يا ست الشيخة، لقد عملت كل جهدى لأقنع الناس هنا أن يتعلموا القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، بعد صلاة العشاء أو بين صلاة المغرب والعشاء أو فى أى وقت يفرغون فيه من أعمالهم. لكنهم سخروا منى وأشبعونى كلاما فارغا. ولكم قالوا يا رجل عيب. نتبادل الأماكن مع أولادنا! هم فى الصباح ونحن فى المساء! ابنوا لنا مدرسة أخرى ونحن نحضر! مدرسة بشوارب! إلى آخر هذا الكلام الذى لا معنى له. وهكذا يئست. لكن الحمد لله. لعل الصيادين يكونون جادين هذه المرة، وأنا فى خدمتهم. أنا بنفسى والله يا ست الشيخة. هذا شرف أريد أن أحتكره لو سمحت لى.

وقال المعلم بيومى :

ومتى؟ متى نبدأ يا حضرة الناظر؟

قال عبد المهيمن أفندى :

من الآن إذا أردت. والله من الآن.

قال الصياد :

الله يبارك فيك يا حضرة الناظر. وأين؟

قال الناظر :

عندنا كل شئ. المكان والسبورة والطباشير والمقاعد، فإذا رأيتم أن أحضر أنا إليكم، فسأحضر بلا تردد. تريدوننى مثلا أن أحضر لكم عند المحطة فى قهوة المعلمة أو فى الحلقة؟ كما تشاءون.

قال المعلم بيومى :

كل يوم ويوم يا حضرة الناظر فى حلقة السمك، الساعة الخامسة بعد الظهر. مناسب؟ هل هذا مناسب؟

قال الناظر :

مناسب جدا. وهو كذلك. السبت والاثنين والأربعاء، الساعة الخامسة بعد الظهر.

وتم الاتفاق بين المعلم بيومى وحضرة الناظر عند ضريح سيدى الذكيرى، وفى حضرة الشيخة تفيدة.

وبعد أن انصرف عبد المهيمن أفندى قالت الشيخة تفيدة. أو مديحة لممدوح :

وراءك وراءك ...العلم والكتاب.. والقراءة والكتابة؟

قال لها وهو يبتسم :

ـ هذا سلاح لابد منه يا مديحة. العلم حرية، والذين يقرءون ويكتبون يتحررون من رق الجهل وظلام العزلة. وإن من أشق الأمور أن نحارب قوما متفوقين بالعلم، ونحن مجردون منه. لكنا نحارب رغم هذا، على قدر ما نملك من السلاح. ولابد من النصر.

قالت مديحة :

ـ كان جلال رحمه الله يقول إن هذه المرحلة من الكفاح، مرحلة ثورة مسلحة، وحرب عصابات لا تهدأ حتى يشعر الانجليز أن وجودهم هنا يكلفهم أضعاف ما يكسبونه. عندئذ يرحلون. وكان يرى أن كل عمل يجب أن يكون موجها إلى هذا، ليهيئ مزيدا من المكافحين، ومزيدا من الإقبال على الكفاح المسلح. أما البرامج البعيدة المدى، فلم يكن يرى انه قد آن أوانها بعد.

قال ممدوح :

ـ هذا صحيح. لكنا نستطيع أن نحارب الانجليز ونحن نبذر القمح. نعم ونستطيع أن نقاتل الانجليز، ونحن نتغنى بالحب. والحقيقة أننا نحاربهم من أجل القمح، فلا يسرقونه، ومن أجل الحب، فلا يشوهونه أو يدنسونه. ومن أجل أولادنا وآبائنا وأمهاتنا، بل وأجداث موتانا. وقد كان جلال يعمل هذا.

كان يذكر الله، ويحارب. كان يعلم الناس القراءة والتمثيل، ويحارب. كان يقرأ الشعر، ويحارب. الله يرحمه ويحسن إليه. لقد كان يحب ويحارب وأنت أشد الناس علما بهذا، فأنت زوجته وحبيبته، وشريكة فترة من أغنى فترات عمره، حبا ..وجهادا، فى آن واحد. أليس كذلك يا مديحة؟

قالت مديحة :

ـ الآن أسألك ... تغار؟ هل تغار؟

قال ممدوح :

ـ لا والله ... لا منه ولا عليك. انه بطل ... وله علينا حق الوفاء والولاء والتقدير الكبير لجهده الرائع. ثم هو صديق وفى شجاع. لماذا لم يتزوجك منذ تعارفتما وخرجتما لخرابة النداهة فى المنيرة على أنكما زوجان؟ كأنها صديق وفى، أبى أن يقترب منك طالما أن لك أملا فى سواه. فلما تبدد هذا الأمر، فى جلاء، ورآنى أسقط قتيلا فى عرض الطريق، سَتَرك بالزواج الله يستره ويجزيه. ثم انظرى كيف تسامى إلى درجة الصديقين والشهداء ... من يعمل مثلما عمل؟ لقد كان يريد أن يتوارى عنك، عندما علم بعودتى ... فى شجاعة وشرف وإباء. الحمد لله ربنا أراحه من هذه النهاية القلقة، فوضع النهاية الكريمة التى تناسب بطولته. هل أغار منه برغم هذا؟ إنى إن فعلت أكون قد سقطت إلى درجة التدنى الرخيص، وأنت يا مديحة تعلمين إنى لست هذا الشخص. إن مكانه جلال فى قلبى مكانة لا تدانيها إلا مكانة نبى أو رسول. فهل من مثل هذا الرجل الكريم الشجاع الحر الشريف، أغار؟ لو إنى أخوك، ما وجدت خيرا منه أأتمنه عليك يا مديحة، ولو انه تقدم يخطبك منى لما ترددت لحظة فى الترحيب به. جلال! لقد كان نسمة هناء هبت على حياتنا لتتضوع فيها رائحة كالمسك طيبة، لا تزول.

قالت مديحة :

صحيح لا تزول ..وستظل تملأ حياتنا حتى نلقاه.

وسكت ممدوح وسكتت مديحة، وأطرق وأطرقت، وتردد فى خاطره أنها تريد أن تسأله عنها، وتردد فى خاطرها انه يريدها أن تسأله عنها!

وفجأة طرقت آذانهما أصوات قادمة من بعيد، ودلت أطراف ما يدور من الحديث، على أنها قافلة مرت بجسر الرياح، ثم عرجت على الطريق الهابط إلى القرية، مارا بقرافة سيدى الذكيرى.

وكانت أقدام ركوبتين تطرقان الأرضى من مسير منتظم، وتتخلل الطرَقات أطراف الحديث.

..ووصلت إلى مسامع ممدوح كلمات متقطعة :

السمك كان كثيرا جدا هذا الصباح.

أنت صرت صيادا ماهرا يا محروس.

البركة فى عمى المعلم بيومى، يا "امَّه".

.. والله يا بنى رجل طيب وأمير.

مثل أبى تماما. أنا أشعر انه كأبى ... هلا توافقين يا ستى؟

أنا أيضا أحبه كالشحات.إن قلبه طيبا وطاهر يا بنى. لا أعرف ماذا كنا نعمل..لولاه.

هل تعرفين يا ستى. أنا كذلك أحبه. انه دائما يعطينى حلوى ويحضر لى الألعاب الجميلة من البندر.

أما أنا فيراجع معى الدروس ولا يتركنى حتى أحفظها، ويكون قد حفظها معى.

وعندما تبينت أنها أسرة الشحات، نظرت مديحة إلى ممدوح وابتسمت.

ونظر ممدوح نحوها فى حياء. ثم ابتسم، وهو يتطلع ناحية الأسرة القادمة من المحطة بعد أن فرغت من مشاغلها.

وتصايح الأولاد عندما رأوه من بعيد :

عمى المعلم بيومى. انه هو. هناك عند الشيخة تفيدة.

وأقبلت القافلة عليه وعلى الشيخة، وجلسوا جميعا فى الظل الجميل الوارف إلى جوار ضريح سيدى الذكيرى، وقبر الشيخ "أبو عوف" : وأم الشحات وخضرة الأولاد. والشيخة تفيدة والمعلم بيومى.

وبعد قليل أقبل "أبو المكارم" فانضم إلى الجماعة فى مجلسها.

وتبادل المعلم بيومى مع محروس بعض الدعابات عن السمك والرياح والصيادين الآخرين. وأخبره أن عبد المهيمن أفندى سيعطى دروسا فى القراءة والكتابة ثلاث مرات فى الأسبوع، فى الساعة الخامسة بعد الظهر.

وقال المعلم بيومى وهو يضحك :

ولابد أن تكون أول تلميذ فى هذه الدروس.

قالت أم الشحات :

ـ أى والنبى. ربنا يخليك يا معلم. محروس نبيه ومطيع، ولولا أننا تنقلنا بين البلاد، لكان نجح فى المدرسة مثل بقية زملائه. هذه فرصة يعوض بها ما فاته، ليقرأ ويكتب ويحسب، ولا يضحك عليه بعد ذلك أحد.

قالت الشيخة تفيدة فى هدوء :

لا تخافى يا خالة. طالما أن المعلم بيومى إلى جواره، فسيمنع أى محاولة للضحك عليه.

ونظرت إلى المعلم بيومى وهى تقول :

.والا ..ايه؟

وارتبك المعلم بيومى، ولم يدر ماذا يقول، ثم استخار الله وقال وهو يتلعثم :

محروس فى عينى دائما. ابنى. كابنى وأعز. أليس كذلك يا محروس؟

وأخفى الصغير عينيه فى حجره، وهو يرد عليه بأن هذا صحيح، ولا فرق بينك وبين أبى، الله يرحمه، ويحسن إليه.

واختلس كل واحد من أفراد الأسرة نظرة إلى تربة الشحات، ثم أخذ كل منهم ينظر إلى صاحبه، فى ود وحنان.

والشيخة تفيدة تراقب هذه النظرات فى حذر وإشفاق.

ذكية الشيخة بلا جدال، فقد شعرت أن تربة الشحات قد أثرت فى عواطف الآسرة فقطعت الطريق على ما كانت تدبره من حديث.

على أنها تدرك من شعور الأنثى أن خضرة تعانى من صراع رهيب فى داخل نفسها. وتوجهت الشيخة إليها وهى تقول فى ود :

وأنت يا خضرة. تحبين صيد السمك؟

وضحكت خضرة ضحكة فاتنة، ثم قالت :

هل فيه أحلى من الصيد يا ست الشيخة؟

قالت الشيخة فى تخابث :

فرق بين صيد وصيد!

قالت خضرة، والضحكة لا تزال مشرقة على وجهها الأسمر البديع :

كله صيد يا ستى..سمك، بط، أرانب، تعالب !! .. كله صيد والسلام.

قالت الشيخة :

صحيح يا بنتى يا خضرة. لكن يقولون أن هناك فروقا بين صياد وصياد.

قالت خضرة فى ذكاء :

الصيد واحد، لكن يمكن الفرق فى الصيادين. الصياد اللطيف أحسن. حتى السمكة تتمنى تقع فى صياد لطيف، وقلبه طيب. إذا كانت موته بموته، فالأفضل أن يموت الواحد موتة لطيفة.

قالت الشيخة وهى تبتسم :

لكن ليس كل الصيد يؤدى إلى الموت. من الصيادين من يبيع صيده، أو يربيه، وفى هذه الحالة يرعاه رعاية طيبة جدا.

قالت خضرة وهى تتنهد :

"هو فين بس"؟!

وتدخلت أم الشحات فى الحديث وهى تقول :

كل واحد ونصيبه. وصاحب البخت، يأتى إليه بخته حيث يكون. لا تصدقى يا خضرة يا بنتى أن هناك من يستطيع أن يمنع نصيب أحد. وليس هناك من يستطيع أن يزيد من نصيبه. الصيد يقع فى الصياد الذى كتب عليه. وصياد يقتل فريسته، وآخر يدللها وينعمها. كله نصيب. حتى الصيد _ كالناس _ نصيب. أليس كذلك يا ست الشيخة؟

قالت الشيخة تفيدة :

هذا صحيح يا خالة. كل واحد بنصيبه. لكن ربنا عادل ويعطى كل إنسان ما يستحقه من النصيب. المسألة ليست "سايبة" كما نظن. أنها مربوطة بقدر عادل. وكل واحد وأعماله وقلبه، وربنا رب قلوب وطالما قلوبنا طيبة وصادقة، فلا بد أن يأتينا جزاؤه العادل. المسألة مسألة صبر، وعلينا إلا نحكم أحكاما متسرعة، بمجرد أن نصاب بشئ. من يدرى. ربما نصاب لحكمة، أو لامتحان قدرتنا على التحمل دائما علينا أن نصبر.

قالت خضرة وهى تتململ :

ـ لكن يا ست الشيخة بعض الصبر يقتل. أى والنبى يقتل.

وفى نفس واحد، قالت الشيخة، وقالت أم الشحات :

ـ أستغفر الله العظيم.. استغفرى يا خضرة، واعتمدى على الله.. ربنا يا بنتى يصبَّرك.

ونظر المعلم بيومى إلى خضرة نظرة سريعة، لكنها كانت حانية، تحمل كل ما عاناه فى حياته من الأسى والحرمان، فبادلته نظرة بنظرة، كلها أمل فى مستقبل قد يشرق ذات صباح، بنور جديد.



ومرت بعد ذلك بالمعلم بيومى أيام نشطة طيبة.

لقد وجد تسليته فى الدروس التى انتظمت إلى جوار الحلقة.

كل سبت واثنين وأربعاء، فى الساعة الخامسة بعد الظهر، كانوا يتجمعون، لتعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، وكان عبد المهيمن أفندى ناظر المدرسة حريصا على هذه الدروس حرصا شديدا، ما تأخر يوما أو تخلف وإنما كان مواظبا على مواعيده، لا ينقطع عنها أبدا.

والمعلم بيومى يحضر ويشارك فى الدروس، بل ويكتب معهم زرع يزرع، تشجيعا لهم على المضى فى الدروس.

وكانت النتيجة باهرة، فما هى إلا أسابيع، حتى بدأت النتائج تبدو رائعة.

أخذ الصيادون يقتنعون بفائدة هذه الدروس، عندما وزعت عليهم كتب مبسطة، ونجحوا فى قراءتها، وتهللت وجوههم وهم يحسبون : يجمعون ويطرحون. وأدركوا انهم سيعرفون كل شئ عن حساباتهم، فلا يغيب عنهم شئ.

وعندما أخذوا يتحدثون بهذا جلساتهم الخاصة، وعلى القهوة، قالت المعلمة وردة النقرزان.

الله!.. هذا شئ مدهش. تقرأون؟.. وتكتبون؟.. وتحسبون؟! غير معقول.

ولما تبينت أن المسألة جد، قالت لمبروك الحنطور، وكان فى زيارة للناحية :

"الأولاد دول حيسبقونا"! نتركهم يا معلم؟ ثم نجرى وراءهم؟

قال مبروك :

ـ ولماذا لا نتعلم؟ فرصة.

قالت المعلمة :

ـ والله عندك حق. لكنك لست هنا دائما.

قال :

ـ ألحَقّ ما أستطيع ... وأبذل جهدا أكبر.

وكان المعلم بيومى فى قمة زهوه، عندما حضرت المعلمة وردة النقرزان والمعلم مبروك الحنطور دروس القراءة والكتابة مع الصيادين.

وقال المعلم بيومى للمعلمة :

ـ فتحت الباب يا معلمة لكل النساء هنا. هل تسمحين لهن بالحضور؟

قالت فى دلال :

ـ أه منك أنت؟ فرصة! " أنا عارفاك يا نمس".

ودهش المعلم بيومى، وحاول أن يتظاهر بأنه لا يدرى شيئا، فصاحت المعلمة فيه :

يا ولد يا خبيث، تظننى مغمضة؟! مجذوبة؟! هذه مسائل نفهمها وهى طائرة! على كل حال، أحسن الدروس ترعرع، وتبقى خضرة!

وضحكت من قلبها، حتى كادت أن تقع.

وظل واقفا جامدا لا يتحرك، فسحبته إليها، وأخذته فى حضنها وقالت له فى همس:

بيومى! حانق على؟ هل أنت حانق على؟ لماذا تصمت على هذه الصورة يا بيومى؟ هل أسأت إليك؟ سامحنى يا بيومى! دعابة ومرت. لا تأخذها على أنها أكثر من دعابة. بيومى. أنا مثلك يا بيومى، شقية ومحرومة! أنا مثلك أعيش على العذاب والدموع! أنا مثلك أغمض عينى على شوك، وأفتحهما على ظلام! بيومى. إياك أن تحقد على. إنها أن إياك. أنا أحب الناس. أنا أحب الحب. أحب أن يحبنى الناس. من غير هذا أموت يا بيومى.

وضمته إلى صدرها، فمسح بين نهديها، دموعه.

وفى صوتها الهامس فسألته النجوى، وهى لا تزال تسند رأسها على رأسه، قالت المعلمة :

سامحنى يا بيومى.

وفى صوته المبحوح، كأنه مجروح، وهو لا يزال قابعا فى حضنها الدافئ يسمع دقات قلبها، وهى تهز صدرها ونهديها، قال المعلم بيومى :

إنى لا أملك إلا أن أسامحك. وأى واحد يعرفك، يسامحك.

قالت فى رقة كأنه استجداء :

ـ لكن لماذا؟.. لماذا يا بيومى؟

قال فى ود، كأنه الوله :

لأنك عاشقة ومحرومة.. لأنك رمز للحب وللكبرياء.

قالت، وهى تمسح خدها فى رأسه :

وكيف عرفت؟ من أين لك هذا؟

قال، ولا تزال دقات قلبها تطرب أذنيه :

من عينيك. من شفتيك. من ضحكاتك. من الكرامة التى تتمسكين بها. من الطريقة التى تتعاملين بها. من الجمر الذى يشتعل فى داخلك. من صوت الحريق، الذى تتغلبين عليه بالصياح والعناد والجهد الذى لا أول له ولا آخر.

قالت فى استسلام :

أنت ذكى جدا. أنت تعرفنى تماما. هل هناك شئ آخر؟

قال فى استرسال :

وأعرف ما ينطوى عليه قلب المعلم مبروك من حبك.

قالت فى سذاجة :

محرومان ..مسكينان؟ ألسنا كذلك؟

قال فى صراحة :

كتبتما ذلك على أنفسكم. لماذا لا ...

قالت فى سرعة :

إياك ... إلا تعرف؟

قال فى حدة :

نعم، لكن ما ذنبكما؟

قالت :

- وما ذنب يتيم ...أو مقطوع؟

قال :

- لكن ذلك كثير ...كثير جدا.

قالت :

- وأليس كثيرا أن يقتل اثنان مريضان محتاجان؟

قال :

- من يقتلهما؟

قالت :

- الزواج يقتلهما.

قال :

- أبدا. بل يساعدهما على الشفاء.

قالت :

- صاحب بالين كذاب ...أنا أعرف نفسى.

قال :

ـ ربنا قادر على أن يشفيهما.

قالت :

ـ من يدرى.

قال :

ـ سأدعو الله لهما أن يشفيا.

قالت :

ـ ولماذا تهتم بى هذا الاهتمام؟

قال :

ـ لأنك رمز لكل المعانى الجميلة فى حياتنا. أنت وردة ورائحتك العطرة تملأ حياتنا بالأمل.

قالت :

ـ إياك أن تكون..أنت الآخر؟!

قال :

ـ أنا..أنا أحترم عواطفك. أنا أعلم أنك تحبينه، وانه يحبك.. وأنا لا أقحم نفسى على علاقة كهذه. لو أن الظروف جمعتنا على صورة أخرى، كان يجوز لكن ...!

قالت :

ـ لكنك تحب خضرة ...

قال :

ـ وكيف عرفت يا معلمة وردة.

قالت :

ـ ربنا يبارك لك فيها ..يا ممدوح.

وشد نفسه من حضنها، كأنه قد أصيب بمس، ونظر لها ونظرت له، ولم يقل شيئا، لكنها قالت له :

ـ لا تخف. السر فى بئر.



وعندما التقى ممدوح بمديحة، روى لها ما كان بينه وبين المعلمة وردة، فعجبت لذلك أشد العجب.

وكان أبو المكارم يسمع الرواية والحديث، فهب واقفا وقد تملكه انفعال سريع مفاجئ.

قالت مديحة :

ـ طالما أنها تعرف أنك ممدوح، فلا شك أنها تعرف أشياء أخرى كثيرة.

قال ممدوح :

ـ هذا غريب جدا. المفروض إننى عندها الشيخ عبد الرءوف، خليفة الشيخ "أبو عوف" فى خدمة سيدى الذكيرى. والشيخ قد عاش فى خرابة النداهة فترة، حتى وقعت الواقعة بينه وبين رجال البوليس والانجليز، وبعدها ترك القاهرة إلى مديرية فى الريف، حتى استقرت أقامته هنا. أما ممدوح فشاب من مريدى الشيخ، تطوع فى صفوف الحلفاء، ولا يدرى عنه أحد شيئا.

قالت مديحة :

ـ لابد أنها تعلم أن معركة الشيخ العبيط كانت من أجل ممدوح هذا، ولابد أنها تعرف مصيره، وماذا حدث له، وإلى أين ساقته قدماه.

قال وهو يضرب كفا بكف :

ـ لابد أنها كانت تعرف هذه اللعبة من أول يوم دعوناها فيه لزيارة قبر الشيخ "أبو عوف" وزيارتك، وانها تظاهرت بأنها لا تعرف شيئا، ومضت فى خطتها حتى..

وقالت مديحة على الفور :

ـ حتى جاءت فرصة، وإلا ما كانت قد باحت بشئ.

وعاد ممدوح يقول :

ـ لا عجب إذاً، لو أنها تعرف أنك لست الشيخة تفيدة وأن الشيخ "أبو عوف" ليس شيخا بحق وحقيق، وأن له حقيقة أخرى غير ما ظهر به، فى جبته وقفطانه وعمامته الخضراء، ومسبحته الطويلة، والذقن المرسلة، وعينيه المسبلتين فى تقوى.

وشهقت مديحة وهى تقول :

ـ مصيبة! والله مصيبة! انكشفنا يا ممدوح ! ماذا نعمل؟

قال ممدوح :

ـ والله لا أدرى. أنا مخى تعب، ولم أعد قادرا على التفكير.

واتجهت مديحة، واتجه ممدوح..إليه، يسألانه الرأى فى الموقف الغريب الذى يواجهانه. وكان بدوره قد بدأ فى حيرة من أمره، ولم يعد يفهم شيئا.

لكن "أبو المكارم" طلب أن يستشيرا فى ذلك الست قمر، وسيسر الست قمر أن تعلم أن أسرة سالمة قد عادت، وأن جلال الصغير قد أصبح صياد سمك يسعى لرزق أسرته المسكينة. وسيسرها أن تراهم، ولو من بعيد. ثم تدلى برأيها فى المعلمة وردة والحقائق الجديدة التى كشفت عنها.

ووافقا. شعر ممدوح انهم محتاجون فعلا إليها. كذلك قالت مديحة فاستقر الرأى على دعوتها للحضور على وجه السرعة.

وعندما استمعت الست قمر للقصة قالت فى عجب :

المهم الآن أن نعرف أى صنف من الناس المعلمة وردة هذه.

هل هى عنصر طيب؟ هل تصلح للعمل معكم؟ أم أنكما تشكان فيها؟!

قال ممدوح :

- عنى أنا يا ست قمر، لا أشك لحظة فى أنها بدستة من الرجال. أنها أرجل من الرجال. موقفها من الخواجة، وشهامتها فى مواجهة أطماعه، ثم جرأتها وقيامها بكل الأعمال التى قامت بها فى المحطة.

مَن من الرجال يقدر على هذا؟ يا شيخة! والله لو انه رجل بشوارب، ما استطاع ذلك.

قالت الست قمر :

- إذاً ضموها إليكم، بدلا من الرعب الذى تعيشان فيه.

ونظرت إلى "أبو المكارم" تسأله .

ما رأيك أنت يا ولد يا أخرس؟ لم تعد ولدا يا "أبو المكارم" سامحنى. ما رأيك؟

وأبدى أبو المكارم موافقته على هذا الرأى السليم.

كذلك وافقت مديحة، وأخذت تسأل :

لكن تظنين أنها تعرف حقيقتى أنا الأخرى أم تأخذنى على علاتى؟

قالت الست قمر :

والله لو إنى منك، ما اهتممت بهذا الرأى، حتى يأتى ظرف وتتكلم بصراحة. المهم تضمنون أنها معكم، وليست ضدكم.

وصاح ممدوح فى سرعة :

وليست على الحياد أيضا، فان من أخطر المسائل، وقوفها على الحياد. قد تتصرف تصرفا بحسن نية، يودى بنا جميعا. طالما أنها تعرف ولو شيئا محدودا عنا، فيجب أن تكون معنا.

قالت الست قمر :

ـ خصوصا .. والروائح يمكن تفوح ...

قال ممدوح :

ـ تبقى مصيبة، لو تسرب مجرد شك فيما يدور.

وتبادل ممدوح وأبو المكارم النظرات، وهم يشفقون على ما يدور ثم شرد كل منهم بينه وبين نفسه، يصارح نفسه، ببعض ما يشعر به.



الا تهجع؟ إلا تستريح؟

الرزق وقد يسره الله. والاستقرار وقد هيأته العناية العادلة. والحب وقد أصبح قاب قوسين أو أدنى، ثم يمسى بين يديك، حلالا طيبا.

ماذا تريد؟ ماذا تطلب؟

.والآنجليز، وقد فضحتهم فضيحة لم يعرفوا من قبل لها مثيلا!

.والخواجة، وقد أدين، وتلقى حكما بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة! وصودرت أملاكه، وخلت الناحية من سيئاته.

الا يكفى هذا؟ إلا تقف عند هذا؟

نعم لم يخرجوا!.. وهل أنت مسئول عنهم حتى يخرجوا؟ كفاك هذا! لقد بذلت أكثر مما تستطيع، وعلى الآخرين أن يبذلوا شيئا مما بذلت. هذا واجبهم هم.

بل واجب القادر. من يدرى! ربما كان الآخرون مرضى، أو خائفين! ربما كانوا عجزة وغير مدربين! القادر دائما يتحمل العبء الأكبر. لا يمكن لبلد أن تكون كلها فدائيين، كما لا يمكن أن تكون كلها أطباء أو صيادلة أو مهندسين. كل ميسر لما خلق له.

..ها ها.. وأنت؟ خلقت لتدبر فخاخا للإنجليز فى كل مكان، على طول الرياح وعلى طول الترعة، وعلى طول خطوط السكة الحديد. تضرب وتطلق النار، ولا تتحرك من مكانك أبدا. الشباك فى يديك، والسمك يتواثب تحت عينيك، ورجال البوليس الحربى البريطانى ينظرون، ثم ينصرفون! بديع! هذا بديع! صياد! وسمك! وطعم! وشباك! وإنجليز كثيرون يذهبون إلى الجحيم! بل ويذهب معهم عملاء آخرون، من يحضرون معهم ليدلوهم أو ليرشدوهم أو ليساعدوهم! ويفيق ممدوح، من أفكاره، وعلى شفتيه ابتسامة حائرة!



وأنتِ؟ أما كفاكِ؟

أخذتِ الثار لأبيك مضروبا فى مئات. الأسطى عبد الغفار ذهب، لكنه فتح القبر لآلاف من جنود الاحتلال.

الا يكفيك كل هذا فيه؟

وممدوح ... وقد ثأرت له على زعم انه مات، فقضى من أجله مئات ومئات.

نعم وتزوجت بعد ذلك رجلا، هو زينة الرجال، ذقت معه نعيم الدنيا كله.

المسألة ليست بالطول. كثيرات يقضين أعمارهن كلها، وكأنهن لم يعرفن طعم الزواج. أما جلال، فان اليوم معه بأعمار.

...الا تكفى كل هذه السعادة، عوضا عما قاسيته يا مديحة؟

والكرامة التى ينتهكونها كل يوم.

والكبرياء الذى يذلونه كل ساعة.

وهذه الأقدام التى تدوس أرض مصر، وتدوس معها، حرية كل مصرى؟!

كيف يمكن أن أنسى؟ هذا شئ لا ينسى!

ومن أجل هذا تخفين السلاح بين القبور، وتفرقينه هنا وهناك تحت شجرة السنط أو فى زوايا الحقول؟

..نعم ليذهب مع كل سلاح منهم شيطان، وليدفع واحد منهم مع كل طلقة حياته. وحتى هذا لا يكفى ثمنا للكرامة الجريحة، أو الكبرياء المطعون!

وتفيق مديحة من أفكارها، وعلى شفتيها ابتسامة حائرة!



آه... ولا تنسى يا "أبو المكارم" بعد كل هذى السنين؟

لقد قتلوا أباك، وأسرتك كلها أمام عينيك. أخرسوا لسانك، فلم تعد بعد ذلك قادرا على حديث. هم الذين سببوا عاهتك.

لكنك ثأرت منهم ألف ثأر وثأر.

وهذا أيضا لا يكفى؟!

ولن يكفى فيمن ذهبوا كل سكان الامبراطورية البريطانية.

من مثل أبى؟ من مثل أمى؟ من مثل أخوتى وأخواتى؟ من يحل محل واحد من هؤلاء؟ كلهم كلاب، وليس فيهم واحد يملأ مكان واحد منهم.

ثم من يحل محل جلال... ابنى؟

الا يكفى إنى فقدتها، فذهبت مع هياه الرياح ضحية بريئة؟

أفقده هو الآخر بعد أن شب وكبر، وأصبح رجلا جميلا لطيفا، ليس مثله على الأرض أحد؟

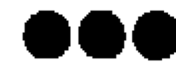
قتلوه!.. هم الذين قتلوه!

والله لو ملأت الأرض سلاحا لما كفى.

والله لو تحول هذا الزرع إلى رصاص لما كفى.

والله لو أصبح كل هذا النسيم سما يملأ خياشيمهم بالموت لما كفى.

... ويفيق أبو المكارم من أفكاره، وعلى شفتيه هو الآخر ابتسامة حائرة!



وتتلاقى كل هذا الابتسامات الحائرة الحزينة، مع نظرات الست قمر، وابتسامة أخرى ظهرت على شفتيها حائرة.

لقد ذكرت جلال، وتفيدة، فشعرت أن كل ما قدمته من جهد.. لا يكفى!

واتفق الأربعة على مقابلة المعلمة وردة النقرزان.

نعم لابد من لقاء معها، لمعرفة ما يدور بذهنها.

وأخذت الست قمر تقول لممدوح :

أنت تذهب إليها تدعوها إلى زيارة الشيخة.

وأخذ ممدوح يقول :

أنا ... يا نهار! بل يذهب عمى أبو المكارم.

وخبط أبو المكارم الأرض برجليه، وهو يعارض ويحتج :

بل أنت. أنت صياد، تتولى أمور حلقة السمك لها.

وعاد ممدوح يقبل رأس عمه "أبو المكارم"، ويقول له فى ود :

الحقيقة يا عمى، أنا لا أقدر على أن أضع عينى فى عينيها بعد هذا. لا أدرى لماذا. أنا لست قاتلا ولا سفاحا، ولكن المسالة تحتاج لشرح وحديث قد يطول. لو ذهبت أنا، فسيكون على أن أتحدث وأجادل، وقد لا يكون ذلك مناسبا. أنا أنت فلا تؤاخذنى يا عمى. أنت أخرس. أنت لن تتحدث معها ولا هى ستتحدث معك. وستحمل إليها رسالة، وتأتى منها برسالة، ولا من رأى ولا من درى. ما رأيك؟ يا عمى أنت يا عظيم!

وكالعادة، لان أبو المكارم لهذا الكلام الناعم، وهز رأسه كمن يقول :

فاهمك. فاهمكم جميعا. لكن لا يهم. سأذهب وأمرى إلى الله.

وذهب أبو المكارم، ووجدها على عادتها جالسة على القهوة، والمبسم المعهود بين شفتيها تشد الشيشة فى لذة ونهم.

وصاحت به عندما رأته :

والله خطر بذهنى هذا الصباح إنى سأراك اليوم. شئ فى صدرى حدثنى بهذا. كيف حالك يا "أبو المكارم"؟ وكيف حال الشيخة؟ هل تريد شيئا؟ تعال اشرب شايا. تعال.

وعندما أخبرها أن الشيخة تريدها. قالت على الفور :

- من عينى. غالية والطلب رخيص. حالاً ... سآتى معك على الفور. ناد الولد "أبو اليزيد" ليحضر الركايب. الدنيا حر. هيا بنا. هيا.



وفى الطريق إلى سيدى الذكيرى، أخذت المعلمة وردة تضحك على "أبو اليزيد" الحمار، وعلى الحمير التى يملكها، وتغيظه بالجوهرى، وسيارته السريعة الجديدة.

لو كنا طلبنا الجوهرى كنا وصلنا من زمان! كنا ذهبنا ورجعنا وذهبنا ورجعنا.

حميرك تعرج يا ولد يا أبو اليزيد ..مثلك!

يا رب تتحملنا حتى نذهب. بركتك يا سيدى الذكيرى.

وكان أبو اليزيد يرد على المعلمة فى انشراح ومرح :

يا ستى. حمارتك العرجة ولا حصان اللئيم.

تعرفى يا معلمة ..هى صحيح حمير، لكن قلبها طيب جدا.

أنا مربيها على الغالى والله يا معلمة. على الشعير والبرسيم، والغنا ... على المواويل والدموع، والحب المحروم.

وهكذا قضت المعلمة الطريق تضحك وتسمع من الحمار أحاديث خفيفة، تزيد الجو رقة ولطفا.

وعندما وصلوا إلى ساحة الضريح، نزلت المعلمة، ونزل أبو المكارم وربط أبو اليزيد الحمَّار الركايب فى فرع من فروع السنط، تحت الظل، وذهب يزور سيدى الذكيرى والشيخ "أبو عوف"، ويقبل يد الشيخة تفيدة ويسألها الدعوات. ولما فرغ من هذا التبرك عاد إلى جوار حميره، ووضع أمامها بعض العلف، ثم استلقى إلى جوارها فى إغفاءة..

ونظرت المعلمة وردة فى شوق وحب، إلى الست الشيخة، لتلقى بنفسها بين أحضانها، وتقبلها من وجنتيها، ومن رأسها، وتقبل يديها، وهى لا تخفى شوقها إليها. ثم أخذت "أبو عوف" الصغير بين يديها وأخذت تقبله وتداعبه فى حب شديد، وتقول له :

ـ حلو مثل أبيك. أنت جميل ولطيف مثله. ما أرق ابتسامتك! ستكون مبروكا مثله.. ستكون وليا من أولياء الله الصالحين مثله. ربنا يخليك ويطيل عمرك. هل تعرفنى؟ إلا تعرفنى؟ أنا المعلمة وردة والنبى وردة.. هلى تشمنى؟لا ... لماذا؟ أنا وردة خادمتك وخادمة والديك ..وانحنت عليه تقبله، فلما فرغت نظرت حولها، فوجدت "ممدوح" فقالت :

كيف حالك يا معلم بيومى؟ لك وحشة. عارفة أنك كنت معى منذ قليل لكن لك _ رغم هذا _ وحشة.

ولما وجدت الست قمر قالت :

تشرفنا يا ست.. فرصة سعيدة. أول مرة نتلاقى؟ أليس كذلك؟ لكن يظهر أن هذا الوجه السمح، وهذا الجمال المشرق، ليس غريبا عنى. أنا لم أرك يا ست، لكنى أعرفك من زمن طويل..

وقبل أن تقدمها الشيخة تفيدة إليها، قالت :

لحظة والنبى يا ست الشيخة. سأختبر نفسى. هل أنت؟.. من يا بنت يا وردة.. هل تكونين.. !؟ آه.. لحظة واحدة. أنت الست قمر.

وشهقت الست قمر، حتى كادت تسقط من المفاجأة.

وشهقت الشيخة.. وارتبك المعلم بيومى، وبدا الذعر على "أبو المكارم".

وقالت المعلمة وهى تتعمد أن توجه كلامها إلى "أبو المكارم"، حتى لا تحرج الآخرين :

الله.. مـا هذا؟ مـاذا جـرى لك يا "أبو المكارم"؟ اسـمـع.. انا واحدة بلدى، وأولاد البلد يحبون السكة الدوغرى. فاهم؟

أنا عـارفـة كل شئ. والنبـى عـارفـة كل شئ. لا والله. أكـون فى وسطكم ولا أدرى! كالأطرش فى الزفة! لا يا سيدى لأ. أنا وردة النقـرزان! تعرف وردة النقـرزان؟ لا داعى إذاً "للخضة"! ثم يعنى، ألست مثلكم جميعا، والا أنا ناقصنى "صـبـاع"؟! اهدأ يا أخى. وفهمنى. ماذا تريدون؟

قالت الشيخة فى تؤدة وهدوء، وهى تخفى فى قلبها نارا من الخوف والقلق :

ـ وهل تسمحين لنا يا معلمة، أن نعرف مثلك؟..

قالت المعلمة فى سرعة :

ـ بشرط ...

قالت الشيخة :

ـ أى شرط؟

قالت وردة :

ـ الا يسألنى أحد عما أعرف. يعنى بصراحة لن أقول لأحد ممن عرفت، لا الآن، ولا فى أى وقت. المهم إنى أعرف كل شئ.

قالت الشيخة :

ـ اتفقنا.. ماذا تعرفين إذاً؟

قالت :

ـ أعرف أنك مديحة بنت الأسطى عبد الغفار بطل العنابر. صحيح والا أنا كذابة؟

قالت مديحة، وقد أدركت أن الكذب لن يجدى :

ـ صحيح يا معلمة ..وماذا أيضا؟

قالت المعلمة :

ـ وأعرف أنك خرجت تكافحين وتثأرين لوالدك الله يرحمه، بعد أن تآمروا عليه، وحكموا عليه بالسجن، ثم تآمروا عليه وقتلوه فى سجنه. وكان معك ممدوح هذا وواحد مات كان اسمه سالم.. صحيح والا أنا كذابة؟

قالت مديحة فى استسلام وتسليم:

ـصحيح يا معلمة.. صحيح تماما.. ثم ماذا؟

قالت وهى تضرب كفا بكف :

والنبى قولى لى قبل كل شئ. هل هذا يضايقك؟ قطع لسانى إن كنت ضايقتك.

قالت مديحة :

أبدا والنبى يا معلمة. أنت أخت عزيزة، ويهمنا أن تكونى معنا.

قالت فى حماسة :

طبعا معكم. لا والله أبقى مع الانجليز، والأنوار البوليس!! يا ست مديحة عيب. أنا معاكم من زمن، ومن غير ما يعرف هذا أحد. أنا وربنا وضميرى فى السر، أعمل ما اقدر عليه، "ولا من شاف ولا من درى"!

ثم قالت المعلمة بعد هذا :

ومسكوا "ممدوح" يا ستى وأرسلوه إلى المعتقل، وهناك تعرف بجلال. بطل كبير له صولات وجولات، وأخذ يحكى له المجنون كل شئ. خَرَّ كالجردل وهم يسجلون عليه وأقواله. لا تؤاخذنى يا جردل! والا أقول لك يا معلم بيومى!

ثم نظرت إليه وقالت :

صحيح والا أنا كذابة؟

وقال ممدوح :

كذابة! عيب يا معلمة. صحيح طبعا.

ومضت تقول :

وأخذوك الانجليز، ولبسوك لبسهم، وكانوا ينوون إرسالك للميدان، لتموت ويخلصوا منك. لكن جلال كان "راجل من ظهر راجل" فصمم على تخليصك منهم. ولهذا جاءنا فى خرابة النداهة، هو ومديحة.

ونظرت إليه طويلا، ثم أمسكت بوجهه بين كفيها وأطالت النظر إلى عينيه وهى تقول:

ـ صحيح والا أنا كذابة "يا واد أنت"؟!

قال فى هدوء :

ـ صحيح.. صحيح.. كله صحيح.

قالت :

ـ ووقعت يا بطل.. مت فى الشارع. ماذا يعمل جلال؟ يترك مديحة أم يستر عرضها، الله يستر عرضه؟ لقد تزوجها وأتى بها إلى هنا، وأنجب هذا الصغير الجميل "أبو عوف".

وضربت المعلمة كفا بكف ثم أمسكت بإذن ممدوح وقالت :

ثم طلعت أنت فى البخت! ما كنت مت "يا زفت إنت"! ماذا صحاك مرة ثانية؟ بعثت قبل البعث؟! لكنك نحس من يومك.

قال ممدوح فى استعطاف :

ـ أى والله ليتنى ما ظهرت. ليتنى مت فعلا! ليتهم تركونى بلا علاج! لكن ما ذنبى؟

قالت وهى لا تزال تقرص إذنه :

ـ أنت ظهرت من هنا، ومسكين جلال نوى يودع من هنا. رجل..أى والله رجل، ولا كل الرجال.

أراد أن يخلى ما بينكما.

وصاحت مديحة :

ـ ليته سألنى، إذاً لعلم أن كل حبى قد تحول له.

وصاح ممدوح :

ـ وليته سألنى، إذاً لعلم إنى أصغر من أن آخذ مكانه منها.

وقالت المعلمة :

ـ هو لا سألك، ولا سألك.وذهب! إلى رحمة الله.

وارتفع صوت بكاء أليم، فاتجهت المعلمة إليه، لتخفف عن صاحبه. لقد كان أبو المكارم، قد انزوى إلى جوار قبره. وأخذ يبكيه فى أسى..إن له دائما فى ذمته بضع دمعات لابد أن يذرفها كل صباح وكل مساء، ولا بأس أن يذرف سواها، بين الصباح والمساء، إذا جدت مناسبة من المناسبات.

قالت مديحة :

ـ عارفة.. أنا عارفة انه كان كابنك تماما. أمة تفيدة الله يرحمها ذهبت ضحية. وكنت تحبها وكانت تحبك. لكنكما حرمتما نفسيكما فى سجن الشرف والكرامة والأخلاق. لكما الجنة. أى والله إن عذاب الحب، يدخل صاحبه الجنة. أنا عارفة هذا. أنا مثلك ومثلها، وليتنى أظل على هذا الحرمان، لأدخل معكما الجنة. ربنا يقدرنى. إن شاء الله

يقدرنى. على كل يا "أبو المكارم"، هاك الصغير ابنه، ضع همك، وحبك كل فيه، وهو كما ترى حلو وجميل مثل أبيه.

وكانت الست قمر، قد جمدت، فلم تعد قادرة على النطق أو الكلام. أبدا أنها تشعر أن حركة رموش عينيها قد أصبحت عليها شاقة بل مستحيلة. حتى الدموع تجمدت. إن هذه الحقائق مذهلة.

وعندما لاحظت المعلمة خالتها قالت لها :

والنبى "شدى حيلك". ماذا جرى لك؟ أنت أنت يا ست قمر التى وقفت إلى جوار تفيدة، حتى طردوك وأولادك. هذا خير. أحسن من بقائك فى البلد. لو بقيت هنا لضاع مستقبل الولدين، وما تهيأ لهما جو الدارسة. ولا وردة كانت قد تعلمت شيئا. كانت تزوجت جلفا من هنا، "يفطرها علقة، ويعشيها علقة". لقد حاول أبو سريع أن يقتلك، وجاء بخبرك إلى الحاج سلطان، وأقاموا فيك العزاء. لكن هذا كان خيرا. لقد كان موتك فرصة لخدمة جلال عن طريقك ومقابلاتك لعباس.

ونطقت الست قمر فى هدوء. قالت :

أنا رجعت فى الشرط "واحب أسألك.. كيف عرفت هذا كله؟

وقالت المعلمة فى تخابث :

- ست الشيخة. تقبلين؟ ألم نتفق؟

قالت مديحة :

- والشرط قائم. إن المسألة أنك تعرفين كل شئ، كأنك كنت معنا، فى حين ...

وقالت المعلمة :

- فى حين تظاهرت بالغباء. صم بكم لا يفقهون ! على كل حال لن أقول لأحد شيئا. أبدا، وسأعود كما كنت لا أتحدث بشئ. تريدوننى أن أعود كما كنت؟

قالت مديحة :

ـ بل إننا نسألك ماذا تنوين أن تعملى؟ وكيف ستعاملينا بعد الآن؟

قالت فى استنكار :

ـ يا خبر أبيض! وماذا جرى يا أولادى؟ لا شئ. "سنكفى على الخبر ماجور" ويا دار ما دخلك شر". انتهى ...أنت الشيخة تفيدة، وهذا الشيخ عبد الرءوف إذا كان لابسا جبة وقفطانا، والا فهو المعلم بيومى، وهذه الست التى يسكن عندها جلال فى دمنهور ..ولا شئ إلا هذا. انتهى. كل شئ انتهى عند هذا.

قال ممدوح :

ـ فإن أردنا منك خدمة؟

قالت فى استنكار :

ـ يفتح الله! أنها تأتينى عن غير طريقك.. يا روحى!



وبعد أن انتهت زيارة المعلمة، وعادت إلى مكانها من القهوة، أخذ ممدوح ومديحة وأبو المكارم والست قمر، ينظر كل منهم إلى الاخر فى صمت. ثم قال ممدوح :

لغز هذه المعلمة!.. لا أستطيع أفهمها.

ثم أخذ يحدث نفسه غير مصدق لما سمع :

تأتيها عن غير طريقى! ما هذه التى تأتيها عن غير طريقى؟! أهى تعليمات معينة تأتيها عن غير طريقى ... يا روحى! الله لكن كيف؟! وممن؟! ثم ماذا تفعل بهذه التعليمات؟ وكيف تنفذها؟ هل لها جهاز خاص بها؟ وكيف تديره؟ شئ مذهل.. أنها بلوى هذه السيدة!! أيكون مبروك الحنطور هو الاخر..؟! وهل يستعمل باعة الصحف فى كل

المحطات؟! لكن وكيف يطمئن إليهم؟ ومع من يعمل هؤلاء؟.. يا ناس أنا دماغى يغلى!! لم أعد قادرا على التفكير!!

وبينما هم كذلك إذا بعدة أعيرة نارية تحطم هذا السكون.

وانتبه ممدوح. وانتبهت مديحة. وأشار أبو المكارم إلى دوار العمدة فى البلد.

وقالت الست قمر :

ـ أترى؟ هل دبرت هذا؟ إنك لا نحتكر العمل هنا يا ممدوح بيه.

وهز ممدوح رأسه وهو يقول :

فإن كانت جناية قتل عادية؟

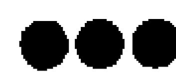
قالت الست قمر :

ـ لا يبدو هذا. فإن تكن يا سيدى عادية، فانى أسحب كلامى.

وكالعادة بدأ رجال القرية يهرعون إلى البلد من الحقول، وكل منهم يسأل عن الخبر. وارتفعت صيحات مختلفة، وتداخلت صيحات أخرى، وصوَّت بعض النساء، وامتلأ جو القرية بشئ غامض، لا يعرف أحد عنه شيئا.

لكن أسرار القرية كطبيعة القرية ظاهرة واضحة.

فما هى إلا دقائق، حتى عرفت القرية الخبر الخطير، فانطوت على نفسها تجتر ذكرياتها.



سيد.. شيخ البلد، المجنون.

سيد.. عاد إلى البلد، ومعه مسدس محشو بالرصاص.

وردية! أى والله وردية. ست الناس ذهبت، وهو جاء.

هرب من المستشفى ليثأر لنفسه من الذين أودعوه السجن!

نعم انه يصيح بذلك، وبأنه لم يعد يحتمل ظلام السجن، ولا نزلاءه ولا هذا الذل الذى يلقاه من المرضى والممرضين معا.

.وأنت. أنت الذى تركتهم يأخذوننى.. نعم أنت. أنت أخ أنت أم فخ؟ أنت عدوى! أنت خصمى! يا عمدة النحس أنت! سأقتلك، كما قتلتنى.

وأطلق عليه النار.

وكان شيخ البلد الجديد هناك .

نعم ممتاز شيخ البلد كان هناك. وممتاز طرى ولين، ويخاف من خياله، فأخذ يجرى فى الدوار، فظنه يريد به شرا.

. وأنت؟ أنت تبحث عن شئ تضربنى به، يا طرى يا نعجة؟

ورثتنى وأنا حى! أخذت مكانى يا شيخ البلد!

إذاً خذ هذه، لترتاح.

وأطلق عليه هو الاخر النار.

وأخذ يصيح ويضحك ويقول بأعلى صوته :

تعالى يا بلد، لترى حضرة العمدة، فسألته عجل مذبوح، يوم وقفة العيد الكبير. من يشترى؟ الرطل بثلاثة صاغ! وشيخ البلد كذلك، كالدهن أو لية الخروف. من يريد شيئا منه؟ لا أحد! عندكم حق. اللحمة والدهنة، كلها نجاسة. والله ناصحة يا بلد !

ولم يستطع أحد أن يمسكه إلا عباس، فقد هجم عليه، وأخذ منه مسدسه وصاح فى الخفراء ليودعوه غرفة السلاح.

وعندما مال عليه أحد الخفراء، ليسر فى إذنه شيئا، رد عباس فى غلظة :

هذا كلام كان زمان. المجرم لا يهرب، وإنما ينال العقاب. وحتى هذا المجنون، سيعتبر مجنونا، فيفلت من العقاب، لكن هذا ليس عملنا ولكنه عمل القضاة. نحن وجدنا القاتل، وسنسلمه للنقطة والنيابة. نهربه؟ لماذا اسم العائلة، وشرف العائلة. والله ما أتانا بالمصائب إلا اسم العائلة وشرف العائلة. ضعوه فى حجرة السلاح.

وعندما وصلت الأخبار إلى المنتظرين عند الضريح، قالت الست قمر لممدوح :

هل أتاك كلامى. لست وحدك محتكر العمل هنا يا بطل.

قال وهو يهز رأسه ويضحك :

ـ "زيادة الخير خيرين" يا ست قمر.

قالت الست قمر :

ـ من يتولى العمدية الآن؟ "ما داهية ليكون عباس"!! والله باضت لك فى القفص يا عباس.

قال ممدوح :

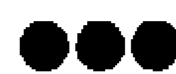
ـ لكن عباس لا يملك النصاب.

قالت الست قمر :

ـ أى والله. فاتتنى!

ثم أضافت :

ـ أمشى أنا. حتى لا تتعقد الأمور، ويجدوننى هنا. إن ناجى ضابط فى إيتاى البارود. ومن يدرى، قد يستدعونه، ويفاجأ بى دون أن يدرى. وماذا يقول بزملائه؟ لأ. لأ. يجب أن أعود حالا.



وعاشت القرية بعد ذلك أياما طويلة، وهى منقسمة على نفسها.

لم يعد هناك من يصلح للعمدية من بيت سلطان.

وأهل العمدة القديم قد انطوت قلوبهم على يأس، فهم يعرفون أن بيت سلطان لن يدعهم يحصلون على العمدية لإحضار، حتى لا يتكرر ما حدث لهم من قبل.

وفكر ناس فى أن يعهدوا بالعمدية إلى أى ولد، ولو كان طفلا، ويقيمون له وصيا حتى يكبر. ليكن ابن العمدة غضبان أو أى واحد من ذرية بيت سلطان.

لكن هذا الحل لم يكن موضع اتفاق الأسرة، ولا رضاء أهل البلد.

وفى يوم من الأيام، وكان يوم جمعة، أخذ الناس يتجمعون فى الجامع، ليسمعوا الشيخ مختار يخطب الجمعة، ويصلوا وراءه فى ورع :

وكان عباس قد واظب على صلاة الجمعة فى الجامع، كما أخذ يتردد على الجامع فى كثير من الصلوات، ليصليها مع الناس جماعة.

وكان قد أقلع عن شرب "المخروب"! أو تناول الكيوف.

هداية من الله! لا يد لى فيها! أنها هداية من الله ! هكذا كان يقول :

ـ وكانت القرية قد بدأت تشعر بارتياحها إليه. انه واحد من أهل القرية البسطاء الذين فتح الله عليهم.

وعندما انتهت الصلاة، فوجئت القرية بشئ يمر بآذانها بين صفوف المصلين دون أن تدرى له مصدرا : لماذا لا يصبح عباس عمدة البلد؟!

ولما ارتفع هذا الكلام، هرب منه عباس فسألته أفعى.

ودخل على درة زمانها يقول : أنا؟! من أنا؟! ومن أين لى النصاب؟ فان توفر النصاب فمن أين نفقات الدوار؟ أسرق؟! انهب؟! يا نهار أسود!

ولم تصدق درة زمانها أن شيئا من هذا قد حدث، حتى توافد أهل القرية على دار عباس يسألونه : لماذا لا يقبل؟ وهل ينقصه شئ؟ إن كان السبب هو النصاب، فأهل القرية يتعاونون عليه ويكتبونه له، ثم يرده إليهم عندما يتيسر له ذلك.

واستنكر عباس من أهل القرية هذا. لكن الشيخ مختار قد ناب عنهم وهو يقول له :

أنت يا عباس واحد منا. أنت ابن الشيخ عبد الباقى الرجل الفلاح الذى لا يزال يزرع الأرض بيديه، ويحصد المحصول، ويبحث عن الرزق مع طلوع الفجر. أنت من نريد. فلماذا ترد طلب الناس؟

قال عباس :

ـ أنا فقير، والعمدية محتاجة إلى مصاريف.

قال الشيخ مختار :

ـ لا تصرف إلا بالقدر اللائق. ستكون عمدة فقيرا، وهذا ليس عيبا. النبى صلى الله عليه وسلم كان فقيرا.

قال عباس :

ـ لكنى لا أصلح. أنا من عائلة بسيطة وفقيرة، وبلا عصبية.

قال الشيخ مختار :

ـوسنكون جميعا عصبيتك. كلنا سنكون رجالك، وأهلك، وناسك.

وبكى عباس ... وأخفى وجهه بين كفيه وقد تملكه التأثر من هذه العواطف الطيبة، التى تريد أن تعطيه أكثر مما يستحق.

وتعاون أهل القرية، فكتبوا النصاب لعباس.

بهذا استوفى الشروط، فرشحوه، ولما لم يقف أمامه أحد، أو يعارض فى ترشيحه أحد، عين عباس ابن الشيخ عبد الباقى عمدة على القرية المظلومة.

ويوم أصبح عباس عمدة، سهرت القرية حتى الصباح، ترقص وتغنى، وتذكر الله، وتزور ضريح سيدى الذكيرى، وتقرأ الفاتحة للشيخ "أبو عوف".

والشيخ عبد الرءوف، يشارك الناس، ويقيم حلقات الذكر فى الجامع وعند الضريح، لا ينى ولا يتوقف، ويهمس فى أذن الشيخة بأن الطلقة الهامسة بعد صلاة الجمعة قد أصابت.

والقرية كلها أعدت الطعام والشراب والحلوى، وأخذ أهلها يتبادلون الدعوات ليذوق كل طعام الآخر، بركة وتيمنا بالعمدة الجديد.

وبينما بيت آل سلطان فى ظلام.. ودموع.

وبينما بيت العمدة القديم فى نكد.. وهموم.

كان الجامع يتلالا بالنور، والطريق إلى ضريح سيدى الذكيرى مملوءا بالناس، وأصوات عميقة مؤمنة ترتفع بذكر الله والصلاة على النبى. وابتهالات الرجال والنساء تتجه إلى الله بالدعاء أن يبدل أيام القرية، ويجعلها كلها سعدا.

وراضية تزغرد، وتوزع الشربات على أهل القرية، وهى تقول :

كأن الحاج مرزوق قد عاد!

وأهل القرية يرددون معها، إن هذا هو أكرم انتصاف لأبيها. ان الذين أخفوه اختفوا جميعا وراءه. أبو سريع اختفى بين أمواج الرياح. وابنه أدهم اختفى فى قبر كالح منبوذ ... والآخرون ذهبوا واحدا بعد واحد، حتى خلت منهم القرية. ثم آلت العمدية إلى واحد من أهل القرية المغلوبين.

لو كنت حيا يا أبى، لباركت العمدة الجديد.



وعندما انتهى السامر.

والفجر يبتسم باليوم الجديد.

ودعوة مؤذن صالحة تملأ النفوس نورا وهدى.

فاجأت المعلمة وردة النقرزان المعلم بيومى مفاجأة لم تخطر له على بال.

وعلى باب حلقة السمك، وقفت ومعها خضرة السمراء.

وارتبك بيومى.

وارتبكت خضرة.

وهمست المعلمة وهى تترك لهما المكان :

ستذهب معك إلى الصيد، بدلا من محروس، فقد كلفته بعمل آخر. ستجدان فى الرياح سمكا كثيرا .. رزقكما!!

ولم تستطع المعلمة أن تزيد على ذلك حرفا. الكلمات وقفت فى حلقها، فأخذت تحاول أن تغطى صمتها بابتسامة على شفتيها، لكن الابتسامة كانت باهتة.

وأدارت المعلمة لهما ظهرها، ومضت عنهما، وهى تمسح عينيها، فى كم القفطان الرجالى ...الحرير!!



تمت بحمد الله

إمبابة - صباح ٣٠ يونيو ١٩٦٧

الساقية

قصة الإنسان والأرض والحياة،
فى أجيال تعاقبت تواجه المشكلات
فى صمت أعلى من هتافات التمرد ،
وصبر أقوى من اندفاعات العصيان .
قصة الإرادة الصلبة ، تختفى وراء
ابتسامة رضى وقناعة .

عبد المنعم الصاوى

.. وهذا هو الكتاب الثالث من خماسية الساقية

صدر الكتاب الأول : **الضحية** . .

ثم صدر الكتاب الثانى : **الرحيل** . .

.. وهذا هو " **النصيب** " : الكتاب الثالث من الخماسية .

وبعد النصيب يصدر الكتاب الرابع من الخماسية وهو " **التوبة** " .. فانتظروه قريباً بإذن الله .

رقم القيد بدار الكتب المصرية : ١٢٢٦١



٢٠ جنيه

الناشر: شركة عالمية للنشر والإعلان
محمد عبد المنعم الصاوى وشركاه
تليفون : ٧٣٥٩٠٨٧ فاكس : ٧٣٨٠٠٢٥
بريد إلكترونى : sawy@alamia.net
طبعة عام ٢٠٠٥

